كلمة الوزارة

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

زهرة المدائن.. عاصمة الثقافة العربية

أبارك للأمة العربية قرار وزراء ثقافتها في مؤتمرهم الذي عقد في مسقط عام ٢٠٠٦ باختيار القدس عاصمة للثقافة العربية للعام ٢٠٠٩ وقد لبينا جميعاً اقتراح الصديق الدكتور عطا الله أبو السبح (وزير الثقافة الفلسطيني آنذاك) وكانت

استجابة السادة الوزراء تعبيراً عن عمق ما تعنيه القدس للأمتين العربية والإسلامية بل للعالم كله، فالقدس ساكنة في الوجدان العربي منذ سكنها أجدادهم اليبوسيون الأوائل قبل خمسة آلاف عام، وهم الذين أسسوها، وسموها يبوس في الألف الثالثة قبل الميلاد، وكانت تلك الهجرة السامية الأولى ثم تلتها الثانية في الألف الثانية ق.م. وحين قدم إليها اليهود في القرن الثاني عشر ق.م، كان فيها سكانها العرب الكنعانيون، وقد عرفت باسم أرض كنعان، وكانت فيها حضارتهم التاريخية العريقة ومدنهم الكنعانية التي سميت فينيقية وصفاً للكنعانيين، وتقول الروايات الدينية إن اليهود بقوا فيها سبعين عاماً فقط (والمفارقة أن المؤرخين اليهود اليوم ينذرون باقتراب نهاية إسرائيل وسط تشاؤمهم التاريخي من الرقم سبعين) وكان ذلك هو العهد اليهودي - الذي أصدقه شخصياً لمجرد أن داود وسليمان عليهما السلام مذكوران في القرآن الكريم- فأما الآثار فلم تقدم لنا أي دليل مادي على هذا الوجود اليهودي، وقد انهارت دولة اليهود الدينية وبقيت عروبة الأرض قائمة إلى اليوم وستبقى إلى يوم الأبد، والمفارقة الثانية أجدها في الحديث النبوي الشريف بما معناه (لا تزال عصبة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله، لا يغرهم من خذلهم، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة) وحين أتأمل هذا الحديث الشريف أجدني أفكر في السر الذي يجعل كبار قادة العالم اليوم يهتمون بقضية فلسطين ومستقبل إسرائيل أكثر من اهتمامهم بشؤون بلادهم، بل إن الرؤى الدينية الإيديولوجية عند

كثير من القادة الأمريكان دعتهم إلى التسابق لتحقيق الرؤى التوراتية مثل معركة هرمجدون التي ظن الرئيس بوش الأب أنها هي حين غزا العراق في حرب الخليج الأولى، ثم تابع ابنه بوش حربه على العراق نصرة لإسرائيل وإيماناً منه بأن الرب هو الذي أمره بأن يغزو العراق وهذا ما كرره الرئيس بوش الابن مرات، وعلى الرغم من أننا لا نريد الصبغة الدينية للحروب، وقد رفضها أسلافنا حين رفضوا أن تسمى الحملات الغربية على بلادهم مطلع القرن الحادي عشر باسم الحروب الصليبية وسموها حروب الفرنجة، واليوم يرفض المسلمون إصباغ الرؤى الإيديولوجية والمعتقدات الدينية على الصراع العربي الإسرائيلي، لأنهم ينزعون إلى السلام، وهذا يعني استعدادهم التاريخي لقبول كل الأديان السماوية في بلادهم، وقد نزلت كلها في أرضنا العربية، وتبدو الوثيقة العمرية أضخم شاهد على التسامح الديني الذي رسخه الإسلام في العقل العربي والمسلم، فلم يكن لدى الخليفة عمر (رضي الله عنه) أي مانع من تعايش اليهود والمسيحيين مع المسلمين في القدس، إلا أن رجال الدين المسيحي طلبوا من الخليفة عمر أن يضيف شرطاً إلى الوثيقة يقول (ألا يساكن المسيحيين في إيلياء – القدس – يهود) بينما لم يمانع المسيحيون في مساكنة المسلمين القادمين من يثرب ومكة، لأن المسلمين يؤمنون بالسيد المسيح ويجلونه ويؤمنون برسالته (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ – وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ– قَالَتْ

رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ). الآية ٤٥-٤٦-٤٧ من سورة آل عمران.

والمسلمون يعتقدون بأن السيدة مريم هي المطهرة وهي التي اصطفاها الله وفضلها على نساء العالمين:

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) الآية ٤٢ من سورة آل عمران. فأمّا اليهود فهم لا يؤمنون بالسيد المسيح وهم ينتظرون مسيحاً آخر غير الذي يؤمن به المسيحيون والمسلمون، ولعلّ هذا هو سبب طلب رجال الدين المسيحي من الخليفة عمر ألا يساكنهم في القدس يهود، ولم يكن المسلمون يطلبون أن يؤمن الآخرون برسالة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام، ولكنهم يعرضونها على الناس فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وكلمة الكفر تعني الإنكار وهي ليست وصف قيمة وإنما هي وصف حالة، وفي القرآن الكريم حوار يقدم ذروة من الاحترام بين المسلمين والكافرين (لكم دينكم ولي ديني) ولقد تعرضت القدس إلى غزوات عديدة في التاريخ القديم، فقد غزاها الفرس واليونان والرومان، ولكنها بقيت على الدوام عربية خالصة، ولا تنكر التوراة أن فلسطين أرض عربية فقد سميت فلسطين أرض غربة لإبراهيم واسحق ويعقوب، مع أن العقيدة الدينية الإسلامية مزجت آل إبراهيم بالعرب حين تزوج إبراهيم عليه السلام امرأة عربية فولدت له إسماعيل فبات جد العرب المستعربة، وهانحن أولاء المسلمين جميعاً نصلي في كل صلواتنا على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فهو أبونا الذي سمانا مسلمين والقرآن الكريم يجل سيدنا إبراهيم

ويعتبره وحده أمة (إن إبراهيم كان أمة) وقد أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يتبع ملة إبراهيم (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً..). الآية ١٢٣ من سورة النحل.

وقضية غربة اليهود في أرض يبوس مؤكدة في سفر القضاء ومن طرائف ما تذكر التوراة قصة عن رجل يهودي يقول لغلامه (لا تمل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بني إسرائيل هنا) ثم تروي التوراة عن إبراهيم قوله لابنه (لا تأخذ زوجة من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم بل اذهب إلى زوجتي وعشيرتي..إلخ) لقد أرسل إبراهيم ابنه اسحق إلى عشيرته كي يزوجه في (آرام النهرين) كما تقول الروايات التوراتية التي تذكر آية منها (وتغرب إبراهيم في أرض فلسطين أياماً كثيرة – وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان) وبوسع الباحثين أن يستغرقوا في البحث في التوراة، ونحن نحيل إليها لندحض أكاذيب الصهيونية بأن لليهود حقاً تاريخياً في فلسطين وفي القدس خاصة، ولسنا ننكر أنهم سكنوا فيها بضع سنين ولم تكن لهم لغة ولا ثقافة فقد نهضوا على تراث الكنعانيين، ولقد وجدت في المراجع العديدة المتنوعة ما يؤكد أن القدس من أقدم مدن الأرض، وهي أقدم من أور ومن نينوى، وكل الوثائق التاريخية تثبت أن اليبوسيين هم الذين بنوها، وهم بطن من بطون العرب نزحوا مع القبائل الكنعانية واستوطنوا أرض سورية وفيها أرض القدس، وكان ذلك هو العصر الذي يسميه الآثاريون البرونزي، ويقول المؤرخون إن أشهر ملوك الكنعانيين هو (ملكي صادق وسالم اليبوسي) وقد بنى ملكي حصناً يسميه الصهاينة اليوم حصن صهيون، وقد قاوم الملك

العربي أدوني صادق غزو العبرانيين، وطلب حاكم القدس من ملك مصر أخناتون أن يحميه ففعل وصارت المدينة تابعة للمصريين الفراعنة فترة من الزمن، وقد هاجر الكنعانيون في كل أنحاء سورية الكبرى، ولكن الأرض كلها بقيت باسمهم أرض كنعان وفيها مدنهم الشهيرة مثل أريحا التي تعود إلى الألف الثامنة ق.م، وأهم مدنهم هي تلك الممتدة على الساحل الكنعاني السوري، وتشير الروايات التاريخية إلى أنهم كانوا يؤمنون بالله الواحد مالك السماوات والأرض، ويقال إن الملك اليبوسي الكنعاني ملكي صادق هو الذي اتخذ بقعة من أرض يبوس هي موضع الحرم المقدس (الذي تمجده التوراة والإنجيل من موضع القبة والصخرة المشرفة، وقد قرأت أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم أجاب عن سؤال عن تاريخ بناء الحرم القدسي فقال إنه بني بعد بناء الحرم المكي بأربعين سنة.

ولست أبحث عن الشواهد المادية أو الدينية لأؤكد أن القدس لنا فهي للعرب والمسلمين بقوة الحضور المستمر عبر التاريخ، لأن عمر إسرائيل الحديثة لا يكاد يتجاوز ستة عقود، وقد احتلت القدس عام ١٩٦٧ وهذا الاحتلال غير معترف به من العالم كله، لكن ما تقوم به إسرائيل من تهويد للمدينة يهدف إلى الاحتيال على العالم، عبر فرض الأمر الواقع، وهي بذلك تستبق أية مفاوضات مستقبلية وتجعل العرب يفقدون حضورهم لتضطرهم إلى التنازل عن شعارهم (القدس عاصمة أبدية لفلسطين) لأن اليهود ينادون بالقدس (عاصمة أبدية لإسرائيل) وقد قاموا بحملات وحشية ضد العرب مسلمين ومسيحيين وأجلوهم بالقوة عن موطنهم التاريخي، ليصنعوا

لأنفسهم تاريخاً معاصراً فيها، وهذا ما يفسر إصرار إسرائيل على بناء كنيس قبالة المسجد الأقصى بعد أن بنت الجدار العازل، وطوقت الأحياء العربية، وعزلت القدس تماماً عن محيطها العربي الفلسطيني، ومن بقي من الفلسطينيين في القدس لم يعد بوسعه التواصل مع أشقائه في المناطق الأخرى، ونحن نذكر أن شارون قال في خطاب شهير إن القدس لنا ولن نسمح أن تكون ملكاً للأجانب (يقصد العرب) وأما بيريز فقد طالب بتهجير جماعي للعرب من القدس، وأصدقاء إسرائيل في الكونغرس الأمريكي يسعون منذ زمن بعيد للاعتراف بالقدس عاصمة أبدية للدولة العبرية، وما تزال في الولايات المتحدة نداءات من اللوبي الصهيوني القوي تطلق لنقل سفارة الولايات المتحدة إلى القدس، على الرغم من أن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وهو الأساس القانوني لعملية السلام يقضي بأن القدس الشرقية والضفة الغربية وقطاع غزة هي من الأراضي المحتلة عام ٦٧ وينبغي أن تعيدها إسرائيل إلى أصحابها الفلسطينيين، وعلى الرغم من أن سيلاً من القرارات الدولية قضت بتفكيك المستوطنات مثل قرارات مجلس الأمن ٤٤٦ و٤٦٥ و٤٧١ وتقارير لجنة ميتشل فضلاً عن تقارير جيمس بيكر القديمة إلا أن إسرائيل لا تهتم لذلك كله، فهي ماضية في اقتلاع القدس من أصحابها العرب، وتسعى إلى انتزاع اعتراف دولي بكونها عاصمة للدولة العبرية، وإسرائيل تجهد نفسها في البحث عن جذور تاريخية، وهي لم تجد أي أثر إلى اليوم ولن تجد، رغم أنها حفرت وفرغت ما تحت المسجد الأقصى فبات مهدداً بالانهيار، وقبل ثلاثة أعوام نادى متطرفون إسرائيليون باقتحام المسجد الأقصى وهدمه

وبناء الهيكل الثالث مكانه، وقد بلغ الاستهتار الإسرائيلي بالعرب والمسلمين حده الأقصى في شهر تشرين الأول (أكتوبر ٢٠٠٨) حين أعلنت إسرائيل عن بناء الكنيس اليهودي أمام المسجد الأقصى، وقد بنته على وقف إسلامي معروف باسم (حمام العين) وهو يبعد بضعة أمتار عن المسجد المبارك في المنطقة الواقعة بين حائط البراق وسوق القطانين ويرتبط الكنيس مع محيط الأقصى ومع ما تم الحفر تحته بشبكة أنفاق وقد سمي الكنيس (أو هل يتسحاق).

وأعتقد أن إعلان القدس عاصمة للثقافة العربية يدعونا إلى التصدي بقوة لعدوان إسرائيل، والوقوف وقفة رجل واحد دفاعاً عن حقنا العربي الإسلامي والمسيحي، وأرجو أن تتنافس الدول العربية والمثقفون العرب في دعم القدس دعماً مادياً ومعنوياً، وتأكيد هويتها العربية التي تشوه وتمحى، وهذه مسؤولية قومية ودينية وإنسانية.

القدس، مدينة الزيتون

د. علي القيّم
رئيس التحرير

احتفاء بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩م، تقوم وزارة الثقافة بتنظيم مجموعة من الأنشطة والفعاليات والندوات والمؤتمرات الثقافية والفنية على مدار الربع الأول من هذا العام، احتفاء بهذا الحدث الثقافي الذي سيتم من خلاله استحضار عظمة هذه المدينة، عبر التاريخ، منذ بداية التاريخ الإنساني وحتى يومنا هذا..

لقد حملت القدس منذ الألف الثاني قبل الميلاد، أسماء متعددة تدل على قدمها وعلى مكانتها العظيمة في الحضارات القديمة، فهي «روشاليموم» في الكتابات المصرية التي يعود تاريخها إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، وهي «أورساليم» في مراسلات تل العمارنة المصرية التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهي «أورشاليمو» في كتابات الملك «سنحاريب» الآشوري، في القرن السابع قبل الميلاد، وهي «هيروسوليما» في الكتابات والمصادر اليونانية والرومانية، وهي «بيت المقدس» و«القدس الشريف» و«المدينة المقدسة» في كتابات العهود العربية والإسلامية، ومن أسمائها أيضاً: مدينة الزيتون، ومدينة المسجد الأقصى..

ومعنى «أورساليم» يُعتقد أنه مركب من عنصرين لغويين، أي «مؤسسة الرب ساليم»، وساليم في النصوص الأوغاريتية التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هو أحد الأرباب المعروفة في أساطيرها وهو رب الشفق والفجر، ويميل بعض العلماء إلى تفسير الاسم بـ«مدينة السلام» و«أرض السلام»، وذهب بعضهم إلى إعطاء معنى مجازياً للاسم بمعنى «مدينة الله» و«مدينة العدل» و«مدينة الحق» وغيرها من المعاني..

في الكتاب المهم الذي أصدرته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإيسيسكو» عن «القدس الشريف» بقلم الزميل الدكتور شوقي شعث عام ١٩٩٨م، تشير المعلومات الواردة فيه إلى استيطان إنسان ما قبل التاريخ القدس، ويعتقد أن

ذلك الاستيطان كان فوق البقعة التي كان يقوم فيها الحي اليوناني في أعلى وادي ريفايم، Rephaim، فقد عثر هناك على عدة لقى أثرية تعود إلى تلك الفترة، إضافة إلى قطع وأدوات صوانية يعود تاريخها إلى العصر الآشولي تحمل صفات مشتركة مع قطع وجدت في كهوف يبرود السورية، وتشير التنقيبات الأثرية إلى وجود مدينة القدس في العصر البرونزي القديم في الألف الثالث قبل الميلاد، وبقايا سور المدينة يعود تاريخها إلى /١٨٠٠/ قبل الميلاد، وخاصة تلك الحجارة الضخمة التي تقع أجزاء منها في السفح الشرقي للهضبة التي بنيت عليها المدينة.

لقد كانت مساحة القدس في عهدها الباكر، تحتل موقعاً تبلغ مساحته نحو /١١/ فداناً، وتحدثنا نتائج التنقيبات الأثرية عن بقايا العصر البرونزي الوسيط الباكر التي لم يبق منها إلا أشياء قليلة، وأن المدينة أصبحت مزدهرة في العهد البرونزي الوسيط والمتأخر أي بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، واستمرت بين تطور وازدهار وانحسار وضعف حتى خروج العرب المسلمين من الجزيرة العربية، يحملون عقيدة جديدة فيها خير للناس أجمعين، فاستطاعوا تحرير بلاد الشام كلها، ومن بينها مدينة القدس الشريف، حيث أصبحت منذ فتحها على يد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، مدينة عربية إسلامية، سنة ١٥هـ/٦٣٨م.

❁ ❁ ❁

لقد كانت حادثة «الإسراء والمعراج» وما ورد فيها من آيات القرآن الكريم،

والأحاديث النبوية الشريفة، واتخاذ القدس أولى القبلتين، بداية اهتمام العرب المسلمين بهذه البقعة التاريخية من فلسطين والوطن العربي.. ثم كانت الخطوة الثانية حين حرر العرب المسلمون القدس الشريف من أيدي الروم البيزنطيين، وحضر الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب بنفسه ليشهد الفتح، ويزور الصخرة الشريفة، -صخرة المعراج- ويُعنى بها، ويقيم مسجداً إلى جوارها لا تزال آثاره ومعالمه باقية.. ثم جاءت الخطوة الثالثة التي عزّزت إلى الأبد مكانة بيت المقدس وحرمه الشريف في أنظار العالم الإسلامي، حين شيّد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان صرح المسجدين العظيمين، الأقصى وقبة الصخرة، وكان هذا العمل من الناحيتين العمرانية والمعمارية، وفق دراسة الزميل الدكتور عبد القادر ريحاوي، انطلاقة مبكرة، لم يعرفها تاريخ الحضارات من قبل، وسجّل تاريخ الفن والعمارة، بكل تقدير وإعجاب هذا الإنجاز العظيم لحضارة العرب والمسلمين.

لقد أولى خلفاء بني أمية القدس الشريف اهتماماً كبيراً، فقد أحبوا فلسطين والقدس لدرجة أن عبد الملك شغف بالإقامة في بيت المقدس، ودلّت نتائج التنقيبات الأثرية على بقايا القصور التي أقيمت في زمن بني أمية حول الحرم.. وتابع العباسيون هذا الاهتمام، حيث زارها الخلفاء، المنصور، والمهدي، والمأمون، وفي زمن العباسيين عاش المسلمون والمسيحيون في القدس في وفاق تام، وعندما ضعفت الدولة العباسية نتيجة النزاع على الخلافة، دخلت القدس وفلسطين في ولاية الطولونيين، وجاء بعدهم الاخشيديون، ثم أصبحت القدس في العهد الفاطمي

مزدهرة ومشهورة بخصب تربتها وزيتونها، وزيتها ومؤسساتها التعليمية والطبية، يقول عنها المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»: مدينة القدس في هذا العهد بنيانها حجر، ولا نرى أحسن منه، ولاأتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها.. لقد جمعت الدنيا والآخرة». كما وصف «ناصر خسرو» المدينة حين زارها عام ١٠٤٧م بقوله: «يحيط بالمدينة سور منيع، مبني بالحجارة، وللسور أبواب من حديد، يقطن فيها عشرون ألفاً من السكان، بينهم صناع كثيرون، ولكل صنعة سوق خاص بها».

لقد انتهز الإفرنج الخلافات والصراعات التي كانت قائمة بين الدولة الفاطمية والسلاجقة، فاغتصبوا مدينة القدس الشريف التي طالما سعوا إليها رغبة في تأمين طريق الحج المسيحي إلى الديار المقدسة -على حد زعمهم- وقد حاول الإفرنج أثناء حكمهم للمدينة تغيير معالمها، فوضعوا على الصخرة صليباً، وحوّلوا المسجد الأقصى إلى مقر لفرسان الداوية والاستبارية، وأقاموا عدداً من المباني الدينية، وعندما استردها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين شهدت المدينة رخاء وتطوراً كبيراً فأقيمت فيها المدارس والمعاهد والأربطة والمستشفيات، وانتعشت الحركة التجارية، كما حظيت باهتمام السلاطين في العهد المملوكي؛ وكان الظاهر بيبرس في طليعة السلاطين الذين اهتموا بالمدينة؛ فقد زارها مرتين، كما زارها السلطان قلاوون والناصر محمد والأشرف قايتباي، وأقاموا فيها منشآت علمية

كثيرة نجد بعضها لا يزال قائماً يدل على أنها كانت آية في الفن والعمارة..

وفي العهد العثماني رممت القلعة وبنيت منشآت معمارية كثيرة مثل: المساجد والتكايا والمدارس والسبل، بالإضافة إلى إعادة بناء قبة الصخرة وقيام العديد من الأبنية العامة، وجعلت القدس متصرفية مستقلة عام ١٨٧١م.

❁ ❁ ❁

أهمية القدس التاريخية والدينية والعمرانية والمعمارية، دفعت المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» إلى تسجيلها في عداد الممتلكات الثقافية العالمية التي يجب الحفاظ عليها وصيانتها وترميمها، وقد درست هذه المعالم من قبل علماء ومؤسسات علمية عالمية منذ وقت مبكر في منتصف القرن التاسع عشر، حيث تمكنت البعثات من التعرّف على سوار مدينة القدس القديمة والأنفاق والقنوات في وادي قدرون وقلعة القدس وغيرها..

لقد حظيت القدس بالاهتمام الكبير في جميع أنحاء العالم، ولم يكن هذا الاهتمام دينياً فقط، ولكنه اتسع ليشمل اهتمامات أخرى، حضارية وحضرية وثقافية واجتماعية وسياسية وغيرها، ورغم اختلاف الدوافع من زمن إلى آخر، إلا أن المدينة بقيت مسرحاً لأحداث عظيمة ما زالت موضع بحث وتقويم حتى اليوم، ومازالت مدينة تنبض بالحياة، لم ينقطع ماضيها عن حاضرها، ولا يتوقع لمستقبلها أن يفعل ذلك..

في دراسته عن «الثقافة العربية وعروبة القدس» يقول الباحث الفلسطيني

الدكتور إبراهيم الدقاق: «تواجه القدس اليوم مشكلات متعددة، يأتي في مقدمتها إعادة هيكلة المدينة، وهويتها على يد إسرائيل التي تسعى إلى إعطائها طابعاً هجيناً يجمع أسطرة الماضي اليهودي، بالقيم الغربية، وتشمل أيضاً تهديد هوية الفلسطينيين السياسية والثقافة واستمرارهم في الوجود في المدينة تحت الظروف القائمة الآن.. التي تخضع القدس لعملية تغريب واستلاب، وتخضع الهوية والثقافة الفلسطينية إلى عملية تفتيت مبرمج، ويتم ذلك من خلال إحداث طلاق كامل بين القدس كمدينة، وبين إنسانها الفلسطيني، وطلاق بين المدينة وتراثها وحضارتها، أي طلاق بين الجغرافية (السياسة المقدسية) التي استقرت عبر قرون طويلة، وبين هويتها وثقافتها التي أنتجتها».

تقوم إسرائيل منذ سنوات عديدة بتفريغ القدس من سكان العرب، وتقوم بعزل المدينة عن محيطها، وتحدث تشويهاً في تخطيطها الحضري، وتسعى مجموعات يهودية متعددة لهدم المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، وبناء هيكل يهودي مكانهما (الهيكل الثالث).. لذلك سكن الوجدان الفلسطيني منذ بدايات القرن الماضي هاجس الخوف على المدينة من الضياع بإيقاعه الرتيب المستنفر لأحاسيس التطيّر والقلق، وقد تعمّق هذا الشعور في عام ١٩٤٨ وبعد ذلك في عام ١٩٦٧، وهذا ما يفسّر جوهر الاهتمام الفلسطيني والعربي والإسلامي بالقدس، وهذه المشاعر تزداد تألقاً ووهجاً في كل لحظة يستشعر العرب والمسلمون خطراً أو تهديداً يحدق بالمدينة، ويعرّض كيانها ووجودها للضياع والاستلاب.

لقد تعرضت القدس العربية منذ احتلالها في عام ١٩٦٧ وحتى اليوم إلى سلسلة من الإجراءات التعسفية والأخطار المحدقة التي تهدف إلى إحلال تراث إسرائيلي هجين في المدينة بعيداً عن تاريخ وتراث وحضارة وفنون قديمة شهدتها منذ آلاف السنين..

❁ ❁ ❁

منذ اللحظات الأولى للاحتلال الإسرائيلي للقدس الشريف، قامت إسرائيل بتدمير واجتثاث حارة المغاربة، بما فيها من نسيج معماري وحضاري وإنساني دون رحمة أو شفقة، وقامت بعزل المدينة العربية عن محيطها، وبنت داخل المدينة المسّورة ما يسمى بـ«الحي اليهودي» أو «حارة اليهود» على حساب حارة الشرف العربية التي لم تكن تتجاوز عقارات اليهود فيها بضعة دور، وتم الاستيلاء على مجموعة كبيرة من البيوت العربية في قلب المدينة بعدة طرق وأساليب ملتوية، تحولت إلى سكن لمجموعات دينية متطرفة، وتوّجت هذه الإجراءات التعسفية القهرية بإنشاء مجموعة من المستوطنات التي شكلت حزاماً عازلاً للقدس عن محيطها العربي في بقية أجزاء فلسطين، وبجدار فصل عنصري أشبه ما يكون بقفص..

يقول المهندس يوسف سعيد النتشه، المختص بالآثار الفلسطينية: «لقد بالغت إسرائيل باستخدام جميع الوسائل والطرق الثقافية من أجل تفريغ المدينة من تاريخها وتراثها، ومن أولى الوسائل التي استخدمت، كانت محاولة تسويق شرعية

الاحتلال الإسرائيلي عبر سلسلة من الحفريات الأثرية.. وشملت مواقع عديدة في أنحاء المدينة كافة، وخاصة حول المسجد الأقصى المبارك، على امتداد الجدار الجنوبي، وتم الكشف في هذه المنطقة عن مجموعة من القصور الأموية، وكان أخطر هذه الحفريات ماعرف مجازاً بحفريات النفق والتي جرت أسفل الجدار الغربي للمسجد الأقصى وموازاته، وقد تضررت المباني العربية الإسلامية الواقعة بمحاذاة الجدار الغربي من جراء هذه الحفريات»..

عمليات التهويد للقدس الشريف، دفعت منظمة اليونسكو ولجنة التراث العالمي إلى اتخاذ قرارات عديدة وإرسال بعثات دولية لدراسة أوضاع المدينة، ومنع التعديات على الآثار والأوابد الدينية المقدسة، والتراث الثقافي للبلدة، ولكن إسرائيل -كعادتها- ضربت عرض الحائط بكل المواثيق والقرارات، واستمرت بعمليات التهويد والتخريب للآثار العربية الإسلامية التي تحفل بها مدينة القدس..

في ظل هذه الأوضاع الحزينة والمؤلمة لمدينة الزيتون التي نحتفل بها عاصمة للثقافة العربية، ماذا يمكن عمله للمساعدة في النهوض الثقافي فيها؟!

إن ضخامة التحدي والجهود الكبيرة التي تقوم بها إسرائيل، لطمس معالم المدينة، يستدعي من الجهات العربية والإسلامية وضع خطة بعيدة المدى، للنهوض الثقافي بالمدينة، وحماية تراثها العربي والإسلامي مثل: إقامة المكتبات ودعم المتاحف والقيام بالتنقيب الأثري في المواقع المحيطة بالقدس، وترميم الأوابد

والمباني التاريخية والدينية والمدنية التي يعود تاريخها إلى عهود تمتد منذ بدايات الإسلام وحتى العهود المتأخرة، والقيام بتوثيق معالم المدينة عن طريق إنتاج الأفلام الوثائقية عنها، وإعداد النشرات العلمية، والكتب والدراسات عنها ونشرها عالمياً بلغات متعددة، وتشجيع الصناعات التقليدية والحرف التي كانت تشتهر بها مدينة القدس منذ زمن طويل مثل: صناعة التطريز والحفر على خشب الزيتون، وصناعة الخزف والنقش على الصدف وغيرها..

القدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩، فرصة جيدة للثقافة علّها تعيد تجديد نفسها، عبر استعادة التراث الثقافي والحضاري لهذه المدينة المقدسة، لتصبح جزءاً من المعرفة، انطلاقاً من أن المعرفة هي قدرة إنسانية، تتصل بالنمو والعدالة، وتنتشر في جميع جوانب النشاط الإنساني.

الدراسات والبحوث

الدراسات والبحوث

أورسالم / القدس

د. علي أبو عساف *

تتجلى خصوصية القدس في كونها أقيمت في بقعة بوسط كنعان تمر بها الطرق التجارية من مصر عبر غزة إلى وادي الأردن فحوض اليرموك وحوران شرقاً وإلى حاصور في الحولة شمالاً ومنها إلى دمشق أو إلى البقاع وإلى الغرب منها تتقاطع الطريق من النقب في الجنوب إلى الجليل ونابلس في الشمال ومن أريحا في الشرق إلى الساحل في الغرب عبر مجدو. تحيط بها الجبال: في الشمال رأس المشارف وفي الشرق جبل الزيتون /جبل الطور

* باحث ومنقب عن الآثار - مدير عام الآثار والمتاحف الأسبق.

وفي الجنوب رأس المكابر ويحيط بالقدس العتيقة من الشرق وادي ستي مريم ومن الجنوب والغرب وادي الرباب وقد نشأت أور سالم القديمة فوق هضبة من الهضاب التي تقوم عليها القدس الآن وتتزود بالمياه من عين ستي مريم في السفح الشرقي للهضاب الجنوبية الشرقية وكذلك من نبع أيوب جنوبي بركة الحمرا.

وهي في هذا الموقع الحصين بين الجبال وفوق الهضاب التي تتوفر فيها المياه تتشابه مع مدن قديمة مثل عمون/عمان واذريعات/درعا وقد منحتها الطبيعة عيون ماء جيدة تشهد على غزارة مياهها الوديان المتصلة بها وكذلك وصول الهواء الرطب الغربي إليها ونسبة عالية من المطر يساعد على نمو الأشجار حولها.

تعود الأخبار الأولى المتعلقة بأور سالم إلى عصر الأسرة الثانية عشر في مصر التي جاء دورها في الحقبة من ١٩٩١-١٧٨٦ق.م وقد سطر اسمها واسم أميرها في الوثائق المعروفة عند الباحثين الآثاريين "Aechtungs Texte" وهو الاسم الذي أطلقه لأول مرة الباحث الألماني سيت Seth عبر بحث نشره تحت عنوان: احتقار أمراء أجانب شعوب وأشياء سطرت في كسر أواني فخارية من عصر الإمبراطورية الوسطى وذلك عام ١٩٢٦أما الباحث البلجيكي بوسني Posener فقد نشر مجموعة أخرى من هذه الوثائق تحت عنوان «أمراء وبلدان أسيوية ونوبية» عام ١٩٢٠وقد اخترت لها عنوان نصوص الاحتقار واللعنة وقد سطرت في أواني فخارية أو دمى طينية تمثل أسرى وقد سطر فيها اسم الأمير واسم المدينة أو البلاد وحينما يحين الوقت ويأتي الغرض الذي صنعت من أجله يرميها الملك فتتحطم وذلك أثناء طقوس دينية ليعبر بهذا الفعل عن تغلبه على الأمراء والمدن المسطرة في تلك الأشياء حين غزوهم.

درس الباحثون هذه الوثائق ويهمنا هنا ما يتعلق ببلاد الشام الجنوبية من أسماء مدن وأمراء وتتوزع على مجالات جغرافية واسعة تمتد من سيناء والنقب في الجنوب إلى فتحة حمص من البحر حتى قطنة = المشرفة[1] لقد وسمت هذه النصوص بالاحتقار وتوجيه اللعنة للأمراء وأوطانهم بوساطة الأرباب فلماذا؟

وقعت بمصر وبلاد الشام والعراق أحداث وتحركات بشرية تركت بصماتها على حياة الناس فخلال المرحلة الوسيطة الأولى بتاريخ مصر حوالي ٢١٦٠-١٩٩٤تراجع النفوذ

المصري في بلاد الشام وانتشر العموريون فيها وفي العراق وأدخلوا مفاهيم جديدة في ثقافة المنطقة تجلت في الأمور الدينية والفنون التشكيلية والمعمارية ونظم الإدارة وأثر وجودهم في حركة التجارة الدولية والمحلية وقد أشارت الوثائق المصرية إلى تعثر التجارة مع بلاد الشام في عبارة أن: «لا أحد يبحر شمالاً إلى جبلا[٢]؟» وتدل هذه العبارة على أن النشاط المصري التجاري نحو بلاد الشام قد توقف ونظن أن الممالك الجديدة قد تولت هي نفسها تسيير القوافل التجارية في جميع الاتجاهات وإلى مصر مما أغاظ ملوكها وتجارها فسعوا إلى الحد من نفوذهم واحتكارهم التجارة.

وتتوضح هذه الصورة من خلال توضع المدن التي ذكرت في النصوص المصرية فقد لاحظ الباحثون أنها تتوزع على الطرق التجارية المنبعثة من مصر نحو بلاد الشام مروراً بالساحل حتى جبلا وعبر السهول والوديان الداخلية نحو البقاع وحوران ودمشق.

وقد سميت مدينة أورشليم وكتبت روش ل م م =روشلم =اورشلم وكان أميرها وقتذاك يقرعمو=وقرعمو وتعني عمو الموقر وهو اسم أمير كنعاني لمملكة مدينة كنعانية كان لها دورها الفعال والنشيط في ثقافة وتحضر بلاد الشام وقد ذكرت بعد مدينة عسقلان الساحلية ويرموتا أي أن هذه المدينة كانت تتعامل تجارياً مع ميناء عسقلان لتصدير بضائع المنطقة عبره ولاشك أنها كانت على علاقات جيدة أيضاً مع عشتروت إلى الشمال الغربي من درعا وبصرى في الشرق وهي مدن ذكرت أيضاً في تلك النصوص لأن لها مكانة اقتصادية تحيط بها السهول الخصبة ويعنى سكانها بتربية المواشي ومما يشير بوضوح إلى مكانة أورسالم أنها ذكرت مرة أخرى حين بدأ حكم الأسرة الثالثة عشر١٧٨٥-١٦٣٣فقد نقش الاسم هذه المرة في دمية طينية تمثل أميرها الذي تشوه اسمه فأصبح مجهولاً. ومن المعلوم أن صنع دمية للأمير دليل على مكانته في موطنه ودوره البارز في مقارعة ملوك مصر وعدم الاعتراف بنفوذهم وفي إلقاء الضوء على مكانة المدينة في القرن الثامن عشر نستعين بنتائج التنقيبات الأثرية المتعددة التي جرت في أماكن متفرقة من المدينة وذلك حسب مايسمح به الحال،واسمحوا لي هنا أن أدون مايردده الآثاريون بهذا الصدد فهم يجمعون على أن ما من مدينة استحقت مثل هذا الاهتمام بالتنقيب فيها مثل القدس/ أورشالم

فقد بدأ التنقيب فيها عام ١٨٥٣واستمر حتى عام ١٩٩٤وجرت خلال هذه الفترة مئة وستة وعشرون ١٢٦عملية تنقيب كان أوسعها التي قام بها الإسرائيليون منذ عام ١٩٦٧وحتى عام ١٩٩٤والغرض منها التعرف على العصور التي تعاقبت على المدينة وما يهمنا هنا أن التنقيبات كشفت على جزء من سور المدينة الذي يعود إلى القرن الثامن عشر وكذلك جزء من شبكة المياه التي كانت تزود المدينة بها من نبع ستي مريم في الشرق ونبع أيوب في الجنوب جوار بركة الحمراء، ومدينة تتمتع بمثل هذه المرافق العامة تحميها الأسوار لاشك أنها كانت تحتضن السكان المبدعين الذين قاموا بهذه الأعمال[٣] ومعنى ذلك كله أن الأخبار المصرية عن عداوة أورشالم وأميرها لملوك مصر تدعمه الوقائع التي تدل على أن المدينة كانت محصنة يستطيع سكانها الدفاع عنها وعن مصالحهم لم تحمَّل مصر هذه العداوة فآسيا بالنسبة لملوكها مجال حيوي هام تنظر بعين الرضى لقيام المملكة الحثية في آسيا الصغرى١٦٠٠-١٤٠٠تقريباً وأطماعها في بلاد الشام الشمالية وكذلك تأسيس الدولة الميتانية في شمالي العراق والجزيرة ١٦٠٠-١٣٥٠ق.م تقريباً وتطلعها نحو مد نفوذها إلى بلاد الشام الشمالية على الأقل.ليس هذا وحسب بل نشب صراع بين الحثيين والميتانيين وتسابقوا في مد نفوذهم على بلاد الشام الشمالية.

كان ملوك مصر ينظرون بقلق لكل هذه التطورات فقاد آموس١٥٥٢-١٥٢٧ حملة عسكرية تتبع بوساطتها ملوك الهكسوس في كنعان وأصبحت القوات المصرية وجهاً لوجه مع ممالك المدن الكنعانية فتنبه أمراؤها إلى الخطر المحدق بهم فهبوا لمجابهته بقيادة أمير قادش الذي جمع حوله عساكر من مختلف ممالك المدن الكنعانية الآمورية والتقوا في مجدو المدينة المحصنة القوية مع جيش مصر بقيادة تحوتمس الثالث ١٤٩٠-١٤٣٦ق.م الذي حاصر المدينة طيلة سبعة أشهر شن خلالها الغارات على مختلف المدن في أرض كنعان وأخيراً أثمر حصاره وغاراته عن عقد معاهدة بين الأمراء وملك مصر أقسم فيها الأمراء يمين الولاء للملك وامتنعوا عن محاربته[٤].

لقد حقق تحوتمس نصراً مؤزراً على ممالك بلاد الشام لجم بوساطته جموح أو تفكير أمرائها في مهاجمة الجيش المصري من الخلف أثناء زحفه على بلاد الشام الشمالية لطرد الميتانيين منها وذلك بوساطة

يمـين الولاء الذي أقسمـه الأمراء وتعهدوا فيه بالامتناع عـن مد يد العون لأعدائه ثم وهذا الأهم أنه أخضع بلاد الشام الجنوبية لإدارة مصريـة مباشـرة وأصبحـت كنعان ولاية مقرها غزة تتبع لها المدن كافة ومنها أورشالم طبعاً.

انتهـى الصـراع بـين مصـر وميتاني بعقد معاهدة بين تحوتمـس الرابع١٤١٢-١٤٠٣ملك مصر وارتاتاما ملك ميتاني وبذل امنوفس الثالث/اخناتـون١٤٠٢-١٣٤٦كل جهـد ممكـن في الحفاظ علـى الاستقرار والسلم في بلاد الشـام والعراق.وقد عُرف عهده وعهـد سلفه(عصر العمارنة)نسبة إلى تل العمارنـة الذي يحوي أطلال عاصمة أخناتون=امنوفس الثالث وفيها كشف على أرشيف تضمـن الرسائل المتبادلة بينه وبين ملوك المنطقة ومنهم أمراء كنعان.

ويستـدل من هـذه الرسائـل أن بعض أمراء مدن كنعان وخاصة أمير شخيم لابابا بالقـرب من نابلـس قد أخـذ يضم المدن المجـاورة لمنطقته وهذا مافعلـه شووَّردات ملك حيبرون/الخليل الذي أراد ضم أورشالم له فوقـع الصدام بينه وبين اردخيبا ملكها. لم يفلـح شووَّرداتا في الاستيلاء على أورشالم فتحالـف مع مَلْكي أمير جيزر بين عسقلان ويافا ضد ارادخيبـا الذي تمكن من انتزاع مدينة كيللتي مـن يده وهي الآن خربة قلي شرقي أورشـالم ثم استعادهـا شووَّرداتا ثم خسرها مرة أخرى لصالح ارادخيبا لم يكف مَلْكي وشووورداتـا عن مهاجمة ملك أورشالم آرادخيبا فهاجموا مدينة ريودا غربي أورشالم التابعـة له ويساعدهـم في ذلك والي مصر على كنعان الدايه.وقـد انتزعوا منه مدينة بيت نينورتا=بيت لحم.لم تدفع هذه الأحداث ارادخيبـا للتخلي عـن علاقاته الجيدة مع ملوك مصر انسجاماً مـع تعهد أسلافه في الحفـاظ علـى علاقات جيـدة معهم وقد بذل كل جهـد في سبيل مـرور القوافل في أورشالم بسلام وأمان وفضلاً عن ذلك أرسل ارادخيبـا عشرة عبيد وإحدى وعشرين فتاة وثمانين أسـيراً إلى أمانوفس الثالث والتزم بتقديم الزيوت للقـوات المصرية وربما هو زيـت الزيتون الـذي اشتهرت بـه أورشالم وكذلك جمـع لهم قافلة مـن الدواب لنقل المؤن لصالح الجيش المصري.

لقـد جاءت التنقيبات الأثرية في المدينة بنتائـج معمارية تؤكد أن المدينة كانت أيضاً محصنة ومزدهرة في القرنين الرابع والثالث عشـر ق.م وقـد كشف على جـزء من هذه التحصينـات وأطلق عليه اسـم المدرج(٥)

الذي أقيم على السفح المطل على وادي ستي مريم وكان يعلوه حصن حصين وينسب أحياناً إلى اليبوسين الذين غزاهم داوود في القرن العاشر ق.م.

ويحكى أن داوود (صموئيل الثاني الإصحاح٥آية ٦-٩) لم يدخل المدينة أورشالم بل بقي في حصن صهيون خارج المدينة الذي بناه اليبوسيون وسماه مدينة داوود. لماذا لم يدخل داوود المدينة؟ليس لدي جواب بل ربما لأنه اعتاد على حياة الغزو والتنقل والرعي!! وقد نجد في حكاية بناء قصر له ما يشير إلى ذلك: يروى أن أحيرام ملك صور قد أرسل له معلمي البناء مع الخشب وكافة المستلزمات لبناء القصر وقد بني من الخشب (راجع صموئيل الثاني الإصحاح ٥: آية ١١-٢١) ولم يعثر على بقاياه أثناء التنقيب.ونرجح أن داوود ما أحب بناء القصور فبقي متمسكاً بالخيمة جرياً على التقاليد البدوية.

هذه هي باختصار حكاية بناء القصر أما حكاية بناء المعبد التي وردت في سفر صموئيل الثاني الإصحاح السابع فقد فكر داوود في أن يضع تابوت الرب الذي كان يتنقل مع الأتباع من مكان إلى آخر في بيت ثابت فاستشار الحكيم ناتان الذي خاطبته الملائكة ناهية أباه عن تنفيذ هذا العمل،ولما أبلغ داوود بالأمر تراجع وهو الذي يؤمن بتعاليم الرب ويتمسك بها.

يتفق الباحثون على أن سليمان قد حكم من عام ٩٦٥-٩٢٦ق.م خلفاً لداوود والده ويحكى أنه هو الذي بنى المعبد (سفر الملوك الأول الإصحاح ٦ والإصحاح ٧ آية١٣-١٥) بعد أن تراجع داوود عن فكرته وترك الأمر له.

وحينما اعتلى سليمان العرش أدى الصلاة أمام التابوت داخل الخيمة (راجع أخبار الأيام الثاني: الإصحاح الأول آية ١-٦). إذن لم يكن لداوود معبد أو هيكل في أورشالم!!كما أثبتت التنقيبات الأثرية ذلك أيضاً.

وقد دونت حكاية بناء الهيكل في سفر الملوك الأول الأصحاح السادس والسابع والثامن وآياتها متعددة ومتنوعة وغير متزامنة ولا تتطابق معظم آياتها مع الحكاية المدونة في سفر أخبار الأيام الأول الإصحاح الأول والثالث حيث حددت هنا البقعة على جبل موريا على بيدر أورنان اليبوسي (الآية ١-٢) خارج أورشالم التي لم يدخلها داوود واستقر في حصن صهيون ولم يعثر على آثار تعود لعصره وعصر خليفته سليمان[٧].

ليس هذا وحسب بل إن عدداً من الباحثين المشهورين يشكون في صحة روايات أسفار كتاب العهد القديم التي تروي حكايات عن داوود وسليمان لعدم ذكرهما في آية وثيقة أخرى معاصرة سطرتها الممالك المجاورة، ويتفق الباحثون على أن وصف هيكل سليمان الذي ورد في سفر الملوك الذي ذكرته أعلاه هو نقل عن أوصاف معابد انتشرت في بلاد الشام إبان النصف الثاني للألف الثانية ق.م والنصف الأول للألف الأولى ق.م وكان بعضها متهدم جزئياً لذلك جاء وصفها في سفر الملوك كما ذكرت أعلاه مبهماً وغامضاً(٨).

وفضلاً عن ذلك اتهم سليمان بعبادة الأصنام في سفر الملوك الأول الأصحاح أحد عشر فقد تزوج فتيات من مصر وعمون وموآب وصيدا وبنى لهنّ معابد. وبغض النظر عن رأي الباحثين في هذه الحكاية فإننا نعرف من الوثائق التاريخية أنه كان يوجد معبد لبعل وعشتار في أور شالم(٩) وربما أيضاً لرب موآب كاموش ورب عمون ملّكم.فهم جيران أورشالم.

ونرجح أن مدينة أورسالم التي بقيت لليبوسيين ولم يدخلها داوود وسليمان كانت تضم معابد لآلهة المنطقة اعتاد الناس على إقامة طقوسهم الدينية فيها حتى في عهد داوود وسليمان وربما أقدم هذا الأخير على العناية بها وسمح للسكان بممارسة عباداتهم فيها فإنهم بعبادة الأصنام والانحراف عن التقيد بتعاليم يهودا وعدم الاستماع إلى نصائح كهنته، ونظن أن معبداً من هذه المعابد التي كانت في أورشالم وحولها كان متميزاً فنُسب بناؤه إلى سليمان كما نُسبت إليها عجائب أخرى.

ويدعي الباحث الآثاري الإسرائيلي داوود وسِيشْكن أن جهوداً متواصلة بُذلت خلال مئة وخمسين عاماً بالتنقيب في أورشالم ولم تقدم أيّ دليل على وجود طبقة استيطانية معمارية أو سور أو حتى كسر فخارية تعود إلى عصر المملكة المتحدة(١٠) وهو في ذلك يردد آراء القسم الأعظم من الباحثين في تاريخ المنطقة القديم الذين يزعمون أن كتاب العهد القديم لا ينظر إليه على أنه وثيقة مكتوبة متزامنة مع وقوع الحدث فأسفاره قد دونت في القرن الخامس ق.م بعد مرور قرون على وقوعه ويمكن أن تكون الناس قد نسيته(١١).

هذا شيء والشيء الآخر أن مدينة اليبوسيين التي تقع إلى الشمال من مايسمى مدينة داوود لم يذكر شيء عنها في كتاب

العهد القديم وأغلب الظن لأنها بقيت مدينة يبوسية وبقي الإسرائيليون في حصن صهيون. وهنا لابـد من نظرة إلى الواقـع التاريخي لبـلاد الشام من خلال المشروع الآشوري في تكوين مملكة عالمية فقـد دأب ملوكها منذ سلمانصر الثالث وحتـى آشور باني بال أي القرن التاسع حتـى القرن السابع ق.م على إخضاع ممالك المدن الشامية وإلزامهم دفع الجزية وفي عهد تجلات فلصر الثالث ٧٤٢-٧٢٧ق.م أصبحت المناطق الجنوبية من بلاد الشام ومنها كنعان تحـت الإدارة الآشورية مباشـرة ولم يكـن لملوكهـا دور في شؤونهـا العامة وخاصـةً الاقتصادية التـي أدارها التجـار زد على ذلـك أن الضرائب المدنية والمعبديـة التي كانت تدفع للملوك المحليين تحولـت إلى خزينة آشور[١٣] والحدث الأهم في تاريخ أورسالم أن حاصرها سنحيرب عام ٧٠١وأجـبر حزقيا على دفـع الجزية.نظم سنحـيرب البلاد في ولايـات آشورية وضم أورسالم إلى ولاية أشـدود[١٣] وهذا يعني أن المدينة قـد انتزعت من السلطـة اليهودية وأصبحت بيد سلطة أخرى (انظر ما سيأتي) ليس هذا وحسب بل أعاد ملوك آشور الهيبة والقدسية إلى أربـاب كنعان ومعابدهم وفي أورسالم التي بقيت أربابها الكنعانية مقدسة حتى في عصر داوود وسليمان استمر الوضع فيها على حاله فمارس اليبوسيون طقوسهم الدينية وعباداتهم في معابدهم. وينسب إلى حزقيا حفر نفـق للوصول إلى ماء نبع ستي مـريم أثناء حصار سنحـيرب لأورسالم عام ٧٠١ق.م والواقـع أن النبع هو داخل السور الذي يعود إلى عصـر الكنعانيين في القرن الثامن عشر والوصول إليه لا يحتاج إلى نفق علماً بأن الكنعانيين قد شيدوا برجاً عظيماً حصيناً قرب النبـع كشفت عليه التنقيبات الأثرية[١٤] وآخر عند البركة الحمرا وامتدت القنـاة بينهما تحت الأرض وفوقها .إذن لا حاجة لنفـق فهو موجود أصـلاً وربما قام حزقيا بإصلاحه فقد عثر في عام ١٨٨٠على نقش كتابـي في القدس مشوه ويتعلق بحفر قنـاة أو جزء منها ولم يتفـق الباحثون على نسبـه ولا على عصره[١٥] وعلـى أية حال لم يذكـر الآشوريـون أنهم قطعـوا الماء عن المدينة أو حاولوا ذلك كعادتهم في مثل هذه الحالة. ويجمع الباحثون على أن الآشوريين لم يضغطـوا علـى أورشـالم مثلما حاصروا واحتلوا لخيش فهي المدينة الأكثر تحصيناً وأهمية.

مـرة أخـرى ظهرت مصـر على مسرح الأحـداث في بلاد الشام وذلك خلال القرن

السادس ق.م وعندما استولت عشيرة كلدو على السلطة في بابل وسقطت الإمبراطورية الآشورية سار ملك مصر نخو الثاني بجيش قوي نحو بلاد الشام وهزم جيش يوشيوه في مجدو واصطدم مع نبوخذ نصر في كركميش فانكسر الجيش وعاد إلى مصر وفرض الجزية على شيوخ يهودا ووضع على إدارة البلاد إيل ياخيم ولم يذكر أنه كان في أورشالم لأنها كانت قد سلخت عن الإدارة اليهودية منذ نهاية القرن الثامن ق.م.

بعد تراجع الجيش المصري لحق به نبوخذ نصر وفي كنعان أجبر يواخيم على الاعتراف بسلطته ودفع الجزية له ووصفه بأنه من يهودا ولما أصبح صدقيا شيخاً على يهودا أراد الانعتاق من نير بابل فامتنع عن دفع الجزية فأرسل نبوخذ نصر جيشاً عام ٥٨٩ق.م احتل أراضي يهودا وحاصر أورسالم ثم احتلها ونقل صدقيا إلى ربله جنوبي حمص مقر نبوخذ نصر ولم يذكر شيئاً عن أحوال أور شالم وفيما بعد أضيف إلى أخبار الحملة المدونة في سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٥:آية ٨-٣٠أنه بعد مرور شهر على أسر صدقيا ونقله إلى ربله حضر القائد العسكري البابلي نبو سردان ودمر المدينة !؟ وهنا نتساءل لماذا تعامل البابليون

مع أورشالم بهذه الطريقة والانتظار حتى مرور شهر؟ نحن نرجح أن هذا الخبر الذي لا تؤيده الأخبار البابلية قد حشر في الخبر الأساس.زد عل ذلك أن التنقيبات الأثرية لم تكشف عن آثار من عهد صدقيا؟!

بعد سقوط مملكة كلدو دخلت البلاد العربية من مصر حتى بلاد الشام والعراق ولأول مرة تحت سلطة أجنبية هي سلطة الأخمينيين.

ويقال أن كورش قد أمر بإعادة بناء الهيكل وعند انتشار الخبر في أواسط اليهود قامت المعارضة للفكرة بنشاط مجموع لمنع العمل بذريعة أن يهودا أرادت أن تنفرد بأعمال البناء و إبعاد الإسرائيليين عن المشاركة (عزرا الإصحاح ٤)وفي رأينا أن هذه المعارضة تعود جذورها إلى اعتراض اليهود على بناء هيكل للرب فهم اعتادوا على إقامة طقوس العبادة عند خيمته وأمام التابوت.ولم يعرف أنهم شيدوا معابد في أية مدينة والسعي إلى أورشالم مُجهد ومضني ففضلوا البقاء على طقوس عباداتهم البرية حتى في أور سالم كما أسلفنا.هنا يذكر السفر أن اليهود أعادوا بناء الهيكل أو بيت الرب ولم يذكروا أنهم أعادوا بناءه كما كان في عهد سليمان ! ربما لأن سليمان لم يأمر بتشييد

هيكل بل اكتفى بالسماح لسكان أورسالم بممارسة طقوسهم الدينية في معابدهم (انظر ماسبق) وجرى على هذا التقليد عزرا الذي أُتهم كما أتهم سليمان من قبله بالسماح بالزواج من غير الإسرائيليين ذكور وإناث ونجد الإشارة هنا إلى أن عزرا قد اعترف بأن اليهود في البلاد أصبحوا أقلية يحيط بهم الغرباء من كل جانب (راجع عزرا إصحاح ٩ آية ١١)فهل استطاعوا إعادة بناء الهيكل؟!

ويتساءل الباحثون لماذا تبنى كورش بناء هيكل في هذه المدينة البعيدة عن مقره في بابل؟والواقع أن إعطاء التعليمات بإعادة بناء الهيكل لا يعني بالضرورة تنفيذ العمل كما أن وصف كورش بأنه نفذ أمر الرب فيه شكٌ كما ونرجح أنه لم يقدم شيئاً لإعادة البناء[١٦] ربما وفي سياق عهده بإعادة ماخربه نبوخذ نصر سمح للجميع ومنهم يهودا بممارسة طقوسهم الدينية من غير تفضيل واحد على آخر ومما يدعونا للشك في صحة الخبر أن والي بلاد الشام الفارسي الذي كان يقيم في دمشق إبان عهد كورش الأول (عزرا أصحاح ٥ :آية ٣-٦) قد وجه سؤالاً إلى البلاط الفارسي يسأل عن صحة أمر كورش في إعادة بناء بيت الرب ولم تذكر الوثائق الأخيمينية شيئاً عن الجواب إنما ذكر في سفر عزرا أصحاح ٥ آية ٦ وما بعد والإصحاح ٦ حتى آية ١٢ نص أوامر كورش فقط ولم يتطرق إلى الجواب[١٧]!!

وفي العصر الهيلنستي بقيت الأقلية اليهودية في البلاد على دينها علماً بأن القسم الأعظم منها احتضن الثقافة الهيلنستية التي سادت المشرق وأخذ الطابع الديني المتأثر بالثقافة وطقوس العبادة الهيلنستية ينتشر وتبعته طبقات كثيرة من السكان وأصبحت المدارس الهيلنستية محط أنظار السكان أكثر من بيوت العبادة وخاصة في أورشالم[١٨] التي شهدت صراعاً بين الحاخامات على السلطة فانتصر الحزب الموالي للسلوقيين في عهد انتيوفس الرابع ١٧٥-١٦٣ وسار على قواعد الثقافة اليونانية.

وهنا لابد من التأكيد على نقطة هامة يجمع الباحثون على صحتها ودورها البارز في ثقافة المنطقة وتتمثل في أن اللغة الآرامية ومنذ القرن الثامن ق.م قد أصبحت لغة الناس في بلاد الشام والعراق وفي الدور الفارسي أصبحت لغة الدولة الرسمية تتخاطب بها مع إدارات البلاد . التي خضعت لها.

ويجمع الباحثون أن اللغة العبرية قد أصبحت لغة الكهنة فقط وعامة اليهود

يتكلمــون الآرامية – اليهودية وانخرطوا في ثقافة المنطقة.

وفي الختام نجمل ما قلناه أن فكرة بناء بيت للــرب في أور شالم قد اصطدمت على الدوام بمعارضــة المتزمتين اليهــود الذين رغبوا في أن تكون طقوسهم الدينية ثابتة لا تتغير وهي الصـــلاة أمام تابوت الرب الذي نُقل معهم مما دعا داوود للتخلي عن الفكرة وترك أمر تنفيذهـــا إلى سليمان وقد امتنع سليمان عـــن معاداة أرباب الشعوب الأخرى وبقيت معابدهـــم في أورسالم قائمة يدخلها بعضـــ اليهود أيضـــاً (راجع الملـــوك الأول إصحـــاح ١١) كمـــا أن احتـــلال الآشوريين للبلاد منذ القرن التاســع ق.م تبعه تحويل مناســك العبادة المحليــة إلى آشورية حسب مناســك عبادة آشور ففقدت المعابد المحلية استقلاليتهـــا وتحولـــت إلى آشوريـــة عنـــد الجميع بمـــا فيهم اليهـــود ولم يتغير الحال في دور البابليـــين والفرس وفضلاً عن ذلك نرى أن عبادات الأرباب الكنعانية والمشرقية القديمة إيـــل وبعل وعشتـــار وشمش وسن بقيـــت معابدها في كل مـــكان واتهم اليهود بعضهم لبعض في عبادتها.

وقد حـــوّل العـــرب الاســـم أورسالم إلى القدس عندما أصبحت أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين انسجاماً مع معنى الاسم القديم وهو المكان المقدس.

الهوامش

-1- W. Helck. Die Beziehgen Aegiptens zu Vorderasien im 3. Und. Jahrtausend V. Chr. 1962 p. 4968-

-٢- المصدر السابق ص ٦٥

-3- Biblical Archaeology Review 2004.Vol. 30 No.6 p. 20 ff

-4- W. Helek المصدر السابق ص 121-127

-5- Biblical . Archaeology 1997. Vol. 23 No. 5 p. 52

-6- Biblical Archaeology 2004. Vol. 30 No .6 p. 2031-

-٧- المصدر السابق ص ٢٦

-8- Biblical Archaeology 2000 .Vol. 6 No. 3 p. 44

-9- Worterbueh der Mytology 1. Abteilung. 2. liefrung p. 258.260

-10- Biblical Archaeology 2004. Vol 30 No. 6 p. 20

-11- Biblical Archaeology 1997 Vol. 23 No. 4 p. 43
-12- H. Metzger. Grundriss der Geschichte Israels 1997. p. 121122-
-13- The Aneient Near East Textes Relating to the old Testament 1969. Historicl Textes
-14- Biblical Archaeology 1999. Vol 25 No. 6 p. 24
-١٥- انظر المصدر المذكور في الهامش ١٣ ص ٣٢٧
-16- M. Noth. Geschiehite Israels 1954. S 277278-
-17- M. Metzger المصدر السابق ص 152-151
-18- M. Noth المصدر السابق ص 324- 326

صـــورة القدس في أشـعار الجهــاديات

د. عمر الدقاق *

القدس.. هذه المدينة العريقة المقدسة، ذات الوهج المتميز بين سائر المدن في تاريـخ البشرية، والمتألقة عبر العصور، مدينة الأنبياء والمرسلين، والمحجة الكـبرى للمسيحيين، والقبلة الأولى للمسلمـين، المدينة التي تحتضن كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة.. هذه المدينة الخالدة باقية أبداً في ضمير الأجيال وذاكرة الإنسانية، برغم شراسة الحقد وفداحة الجور ومحاولات الطمس والتشويـه، والتزوير والتهويد.. إن آفاق القدس لا تحد، ومجال القول فيها لا ينفذ..

* أستاذ بجامعة حلب وعضو في مجمع اللغة العربية بدمشق.

حرصت في دراستي هذه - تبعا لطبيعة موضوعها - على أن تكون نسيجا متلاحماً من معطيات الأدب ووقائع التاريخ، إذ الشعر ألق الحياة المتوهجة، يصور مناحيها، وينفعل بحوادثها، ويحمل - على وجه من الوجوه - أجلى ملامحها.

وإذا كانت مقولة «التاريخ يعيد نفسه، أو أن هذه الليلة شبيهة بالليلة البارحة» صحيحة ولو إلى حد ضئيل، فإن حال وطننا العربي اليوم في مواجهة الخطر الصهيوني في إبان القرن الحادي والعشرين شبيه إلى حد كبير بما كانت عليه حال البلاد العربية الإسلامية في أواخر القرن الحادي عشر وخلال القرن الثاني عشر إبان الغزو الصليبي الآتي من الغرب، ثم الغزو المغولي الآتي من الشرق. إذ العرب موزعون شيعاً وطوائف، ومفرقون دويلات وإمارات. فقد كان الحكام في واد وشعوبهم في واد آخر، وكان بأسهم فيما بينهم شديداً وتصارعهم على السلطة قد بلغ المدى. مع فارق بين الأمس بطابعه القومي السائد، الإسرائيلي - العربي. غير أن الغزو غزو في كل حال، والنزوع إلى التحرر هو أيضاً في كل حين.

لقد كان للأدب العربي إبان الغزو الصليبي لبلاد المشرق الإسلامي حيز هام في ضمير الأجيال العربية السالفة التي قدر لها أن تعيش حرارة تلك الأيام، بكل ما انطوت عليه من معاناة وقهر، ومن محن وآلام، وكذلك بكل ما حفلت به من مباهج ومسرات وانتصارات..

فقد واكب الأدباء، شعراء وكتاباً وخطباء، الأحداث الجسام في ذلك العصر، ولا سيما عبر القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، وبدا صوتهم أكثر جلاء وأعلى دوياً في ظل هذا المثلث القوي من الحكام العرب، عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين. فهم القادة العظام الذين قدر لهم أن يشهدوا المد الصليبي في بلاد العرب كما شهدوا انحساره، وأن يعاصروا أهم تلك الأحداث، بل أن يكونوا إلى حد كبير هم صانعيها.

على أن ما كان بالأمس، ليس في نظر العرب اليوم حقبة مضت وأياماً انقضت، وإنما هو ماض حي يسري نسغه في كيان الأمة، فتعيش على وهجه وتنتشي بألقه. ومن طبيعة الأمم أنها في فترات نهوضها تلوذ بماضيها، وتستوحي أمجادها السالفة، وتعيش على نشوة ذكرياتها الغابرة. والنهضة العربية الحديثة شأنها في ذلك شأن النهضة

الأوروبية قبلها، كانت ترمي منذ البداية، إلى بعث الماضي العريق، وإحياء التراث الغابر.

إن الأحداث يذكر بعضها ببعض، ولاسيما حين تكون قوية بعيدة الأثر في حياة الناس. فمن طبيعة الأمور أن يذكرنا الغزو الصهيوني الحديث لفلسطين وما جاورها من أرض العرب، بالغزو الصليبي القديم للمنطقة نفسها في المشرق العربي لاسيما أن كلا الغزوين ذو طابع استيطاني، وأنهما كليهما وفدا من الغرب، واستمدا بأسهما ومقومات بقائهما منه، فضلا عن تشابه عجيب في كثير من الوقائع والمواقف والملابسات والظروف التي اكتنفت الغزوين، فإذا هما في حصيلة الأمر من طبيعة واحدة.

ولئن كان من الآثار التي ترتبت على الغزو الصهيوني للوطن العربي أن ظهر في أدبنا الحديث شعر ونثر في مقاومة الغزاة، فقد كان من الآثار التي ترتبت على الغزو الصليبي كذلك أن ظهر عند أسلافنا أدب يقاوم الغزو ويلتحم بالأحداث ويصور المطامح والآلام..

كل ذلك ينم بوضوح على أن العدوان باق، والمعركة مستمرة، وأن الأدب في الأمس واليوم مواكب للحياة، مادامت هذه الحياة نابضة في جسد الأمة، مضطربة بين جوانحها.

صدمة الاجتياح وضرام الشعر

كان الهجوم الصليبي في البدء اجتياحا مفاجئا لبلاد الشرق الإسلامي لم يسبق له مثيل من قبل في التاريخ، فإذا الصدمة قوية والمفاجأة مذهلة، ولم يكن العرب، في حالهم تلك، يستطيعون شيئا تجاه أعدائهم. وهكذا أخذت مدنهم تتهاوى تباعاً كلقيمات سائغة دون عناء كبير لدى الغازين. إنها مرحلة المباغتة التي بدا العرب في إثرها وكأنهم يترنحون، فاختل فيهم التوازن و رانت عليهم البلبلة. حقا لقد كانت مقاومة عفوية ومعارك آنية، ولكنها آلت في معظمها إلى الإخفاق، وانتهى أكثرها إلى الهزيمة..

كانت هذه الضربة الأولى من العدو في واقع الأمر ذكية، فضلاً عن كونها صاعقة، فقد أدرك الصليبيون منذ البداية أن الطريق إلى القدس لا بد أن يمر أول الأمر عبر طريق متعرج طويل، فاختاروا لغزوهم جهة مأمونة وزاوية بعيدة، بحيث يكون ذلك في أقصى الشمال، وأيضا إلى قدر معلوم نحو الداخل في اتجاه الشرق، ومن

ثم النـزول إلى سواحل الشام والهيمنة على الموانئ والثغور لتبقى الخطوط متصلة مع الأوطان الأوروبية.

كان الهدف الأول احتلال الرها (أورفة)، وهي إمارة مسيحية كانت عهدئذ تابعة للدولة الإسلامية، وكانت تعد خامس المعاقل الدينية للنصارى، «وهذه الرها – كما يقول صاحب كتاب الروضتين – من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي أحد الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية، والرها»، وقد أضاف هذا المؤرخ إلى ذلك قوله «وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شر عظيم». فقد كانت استباحة الصليبيين للمدن في أعقاب كل احتلال، وتقتيل أبنائها وتخريب بيوتها أمراً لا محيد عنه. فامتلأت القلوب هلعاً، وكانت أهوال وكانت أحزان، كذلك كانت أشعار غزيرة تنضح بالأسى وتطفح بالمرارة.

ولعل جانباً من حال الطغيان والفوضى انعكس أول الأمر لدى شاعر لا نعرف له اسماً، ساقه ذلك الخطب الفادح إلى تصوير معاناة قومه بعبارات تنم على الفجيعة وتضج بالاستغاثة:

أحل الكفر بالإسلام ضيماً
يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع ودم مباح
وسيف قاطع ودم صبيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا
أجيبوا لله ويحكم، أجيبوا

وتوالت النكبات، وهام الكثيرون من سكان القدس وبعض مدن الساحل في الشام على وجوههم من وطأة الاحتلال الصليبي، حتى لاذ بعضهم بالعراق، وراحوا يروون في بغداد ما لقيه قومهم من أهوال، وكيف قاوم حماة بيت المقدس الحصار شهراً كاملاً، حتى تهدمت أسوارهم، ونفدت مؤونتهم، وقلت ذخيرتهم، فاضطروا إلى التسليم. واندفع الغزاة يهيج رؤوسهم الغيظ، وتضطرب نفوسهم بالحقد، وتلعب بعقولهم نشوة الانتصار، فذبحوا كل من لقوه من أهل المدينة المقدسة نساء وأطفالاً وشيوخاً فضلاً عن المحاربين. وذكر ابن الأثير أن الفرنج لبثوا أسبوعاً يقتّلون ويذبّحون، حتى إنهم فتكوا بعدد كبير ممن لاذوا بالمسجد الأقصى برغم أنهم منحوهم الأمان الذي طلبوه، ولم يرع العدو لهم ذمة ولا عهداً. فبكى الكثيرون في بلاط الخليفة وفي محافل

بغداد ما ناب إخوتهم من ضيم وهوان. غير أن أولي الأمـر ببغداد لم يزيـدوا شيئاً على تذراف الدموع السخيـة.. وكانت صيحات في واد لم تلـق ما تستحقـه من نخوة وطنية ولا دينيـة ولا إنسانية. وفي تلك الغمار نظم الشاعر الأبيوردي وهـو في العراق قصيدة مؤثـرة إثر سماعـه تلك الأنبـاء الفاجعة فقال:

مزجنا دماء بالدموع السواجم
فلم يبق منا عرضة للمراحم

وأدان الشاعر في بغـداد ظاهرة البكاء وبـين أن الدمـوع لا تجدي نفعـاً ولا ترد وطناً:

إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فشر سلاح المرء دمع يفيضه

وعلـى معهـود أقوال الشعـراء في مثل هذه الأحوال عمد الشاعر إلى إبراز فظاعة الهول ومن ثم راح يستصرخ ضمائر قومه :

وكيف تنام العين ملء جفونها
على نكبات أيقظت كل نائم
وإخوانكم في الشام يضحي مبيتهم
ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
دعوناكم والحرب تدعو ملحّة
إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تـراقـب فينـا غـارة عـربيـة
تطيل عليها الروم عض الأباهم

فالملاحـظ أن الشاعـر يعـزف لحنـه الحماسـي الشجي علـى وترين ركينين من القومية والدين، أو من العروبة والإسلام.

وكان لا بـد للمسلمـين أن يفيقـوا من الصدمة، ليدركوا هـول ما تعرضوا له وما صـاروا إليه. وما لبثـت الأحداث أن أنبتت من كان عليه أن يتصدى لهذا الأمر الجلل، فقـد جاد الزمن على الأمـة عهدئذ برجل ذكـي شجـاع ذي نظر وبأس، اسمه عماد الديـن زنكـي. وكان يحكم باسـم الخليفة أقاليم البصرة وواسط في العراق. لقد أعلن عمـاد الدين في مجلسه رفضـه واقع قومه المهين وقال على ملأ من سامعيه وهو ممتلئ غيظاً وحمية: «قـد ضجرنا مما نحن فيه، أفي كل يوم يملك البلد أميرة؟».

وكان أن ندبه السلطان محمود السلجوقي في أعقـاب تفاقم خطر الفرنجة ليتولى أمر الشـام ويزحف إليهـا، بعـد أن رآه أصلب رجاله عوداً وأشدهم بأساً.

وهكـذا كان عمـاد الدين هـو البطل المنتظر الذي التمع كالشهاب في دنيا الإسلام والعروبـة المتخبطـة في ظلمـات التفرقة

ووسـط رياح التصـارع على المغـانم. لقد بـدأت حملاته تتكلل بالنجاح ضد المنتفعين والخونة والمتخاذلين، وفي الوقت نفسه ضد الغزاة الطامعين والأعـداء المحتلين. فعلى يديه بـدأت حملات التحريـر والاسترداد. علـى أن أهم نصر حققه عمـاد الدين في حياتـه هو تحرير الرها، قاعـدة أول إمارة أقامهـا الصليبيون في الشـرق الإسلامي. ويبدو أن فتح الرها أهـاج قرائح الشعراء، ورأى فيه ابن القيسراني فتح الفتوح:

فتح الفتوح مبشراً بتمامه
كالفجر في صدر النهار الآيب
لله، أيـــة وقـفـــة بـدريـــة
مطرت سحائبها بأيمن صاحب

وهذا التطلع اللاهف نحو التحرر المنشود كان يتجلى بعد كل نصر يحققه العرب على الفرنجـة، كمـا يبـدو في كل قصيدة مدح ينظمها شاعـر، وفي كل سطر تهنئة يخطه كاتب. وأغلـب الظن أن الناس تفاءلوا بفتح الرها، ورأوا أن الاستيـلاء على هذا الثغر سوف يقود إلى استرداد القدس وعكا وسائر الساحل في بلاد الشام. وهذه الرغبة العارمة التي عبر عنها بعض الشعراء لم تكن عارضة عابـرة أو فرديـة محدودة بل كانـت أمنية جماعية تراود نفوس الجميع الذين كانوا يعيشون على أمـل رؤية ذلك اليوم الموعود. ومثل هذا الربط بين هـذا اليوم والغد، أو بين حاضر الأيام ومستقبلها عبّر عنه شاعر الزنكيين ابن القيسراني إذ قال:

فـإن يـك فـتـح الـرهـا لجـة
فساحلها القدس والساحل

ورأى أن الفرنجـة الدخـلاء الغاصبين لابد أنهم آخر الأمر راحلون:

فهل علمت علم تلك الديار
أن المقـيـم بـهـا راحـل..

ثم وقع المقـدور وحم القضـاء، ولفظ عمـاد الدين الشهيد آخـر أنفاسه في قلعة جعبر على ضفة الفرات بين يدي ولده اليافع نور الدين. وكأن القدر قد اختار هذا القائد الجديد لينهض بالأمر بعد أبيه، ويتسلم من بين يديه تلـك الشعلة الوهاجة، ثم ليمضي قدماً في مسيرة التحرير.

تحت لواء التوحيد

لقد هيأت الأقدار للحاكم الفذ والقائد الشجاع نور الدين محمود رجلاً آخر من هذا الطراز أو أعظـم منه يكون لزعيمه عضداً ولأمته سنداً. إنه صلاح الدين الأيوبي، الذي راح ينفـذ سياسة مولاه نور الدين، ويمضي

بها إلى أبعد مدى على صعيد توحيد الشمل وتحرير الأرض. إذ استطاع صلاح الدين أن يؤسس دولة جديدة في مصر بعد أن أطاح بخلافة الفاطميين.

ولعل قصيدة ابن سناء الملك في هذا الصدد ذات أهمية بارزة بين أمثالها، فهي فضلاً عن جمال معانيها وقوة مبانيها تنطوي على الشعور القومي الطاغي الذي كان يتعاظم يوماً بعد يوم، ويزداد اضطراماً كلما رفده زيت جديد في إثر فتح مبين. ومما يكسب قصيدة ابن سناء مزيداً من الشأن على هذا الصعيد أن ناظمها شاعر مصري فاضت نفسه بهذه المشاعر الإسلامية - العربية. فقد ذاب في ضمير الشاعر العامل الجغرافي وتلاشت المسافات في إثر نصر باهر انعقد لواؤه لصلاح الدين، حين دخلت مدينة حلب في حوزته، هذه المدينة الرابضة في أقصى الشمال من العالم الإسلامي، والقصيدة تقارب الستين بيتاً قال فيها :

وفي زمان ابن أيوب غدت حلب
من أرض مصر، وصارت مصر من حلب

ويشيد الشاعر المصري بهذا الحدث الذي انجلى عن النصر الخالص الناصع من خلال رايات صلاح الدين الصفراء الخفاقة، حيث جموع المقاتلين بحر زاخر، والسيوف تتدافع كالموج، والخوذات تبرق كحبات الزبد :

تبدو الفوارس منه في سوابغها
بين النقيضين، من ماء ومن لهب
وحل من حولها الأقصى على فلك
ودار من برجها الأعلى على قطب

ولعل من أهم ما تفصح عنه تلك القصائد الحماسية هو إعرابها يومئذ عن ضمير الأمة، وتصويرها ما امتلأت به نفوس العرب من استبشار وأمل في سبيل تحرير القدس واستكمال أسباب النصر المبين والفتح القريب، حيث يقول ابن القيسراني:

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب

واستبشر المسلمون باسترداد مدن الساحل والداخل، واستعادة بيت المقدس، وأيقنوا أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة وأنه لا يطهر ربوع القدس التي دنسها الغاصب سوى الدم الغزير، وقد عبر عن ذلك ابن القيسراني بقوله في قصيدة أخرى :

كأني بهذا العزم لا فل حده
وأقصاه (بالأقصى) وقد قضي الأمر
وقد أصبح (القدس) المقدس طاهراً
وليس سوى جاري الدماء له طهر

وكان أن مضى أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين على رأس جيش إلى القاهرة سنة ٥٥٩ هـ. وهكذا أصبح العرب في الشام ومصر تحت قيادة واحدة قادرة على أن تطبق بكماشتها على إمارة القدس الصليبية، واستطاع صلاح الدين بعد ذلك أن يحقق هدفاً كبيراً لا بد منه لبلوغ النصر الحاسم وهو توحيد شمل البلاد العربية، فدانت له مصر والشام والموصل وبلاد الجزيرة وديار بكر والحجاز واليمن وجزء من بلاد المغرب، وتدفق عليه المجاهدون من جميع تلك الأرجاء، وانصبت موارد الأمة في سبيل حركة الجهاد.

وكان من طبيعة الأمور أن يواكب الأدب تلك الأحداث الجسام وينفعل بما تنطوي عليه من انتصارات باهرة، كانت تهز ضمير الأمة، وتلهب قرائح الشعراء، وتشحذ ألسنة الخطباء. وقد ذكر بعض الدارسين زهاء خمسين شاعراً، منهم المصري والشامي والعراقي.. كانوا يقدمون إليه حيث كان، فيبادرون إليه مهنئين، وينشدون الأشعار مادحين وممجدين. وقد وصف العماد الأصفهاني بعض هذه المحافل من مثل ما أعقب سلسلة انتصاراته السابقة، وذلك قبل معركة حطين واسترداد القدس ببضعة عشر عاماً فقال: «كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل فحضر الشاعر سعادة الضرير – وهو من أهل حمص – ووقف ينشد هذه القصيدة في العاشر من شعبان سنة إحدى وسبعين وخمسمئة، وقد استهلها بالغزل:

حيتك أعطاف القدود ببانها

لما انثنت تيهاً على كثبانها

وذكر العماد أنه في اليوم التالي احتفل الحفل، بحضور أهل الفضل، فأنشد الشاعر بين يدي صلاح الدين:

لا يقعدنك ما حلوا وما عقدوا

هم الذئاب، وأنت الضيغم الأسد

وكان ممن قصدوا إلى دار العدل أيضاً بدمشق البهاء السنجاري، وهو من الموصل فأنشد قصيدة مطلعها:

جردت من فتكات لحظك مرهفا

وهززت من لين القوام مثقفا

وكان صلاح الدين دائب الحركة كثير التنقل، لا يكاد يستريح به جواده في أرض حتى ينهض إلى أخرى. وحين بلغ حمص مرة وعسكر بالعاصي، قصد الناس إلى خيمته مرحبين، وفيهم الشاعر مهذب الدين الموصلي حيث قال من قصيدة:

وما خضع الفرنج لديك حتى
رأوا مالا يطاق من الكفاح
ملأت بلادهم سهلا وحزنا
أسوداً تحت غابات الرماح

وكثيرا ما أرسل الشعراء بقصائدهم إلى صلاح الدين وهم بعيدون عنه يقرئونه التحيات ويقدمون له التهاني عبر قصائد مطولة، كما فعل سبط بن التعاويذي من بغداد، وأبو علي الحسن الجواني من مصر.. وقد ضاع الكثير من هذا الشعر الغزير، بل لم يبق من معظمه سوى القليل روت بعضه أو مطالعه كتب الأدب وكتب التراجم، مثل كتاب الروضتين، وجريدة القصر، ومثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان.. وكثيرا ما يرد ذكر لشعراء مدحوا صلاح الدين دون أن نعثر لهم في ذلك على شعر.

وربما يكون الشاعر أسامة بن منقذ أمير شيزر وفارسها من أشهر الذين أرسلوا إلى صلاح الدين إشادة ببأسه وحسن تدبيره، وقد بعث إليه بجملة من القصائد، الواحدة بعد الأخرى، في إثر بعض الأحداث التي كانت تستجد عهدئذ بين الحين والحين، من ذلك قصيدتان داليتان وثالثة ميمية وغيرها..

وكثيرون هم الشعراء الذين عاشوا في إبان القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وعاصروا أحداث عصرهم وواكبوا حياة صلاح الدين الحافلة بجلائل الأعمال وروائع الانتصارات، فبالإضافة إلى الذين سبق ذكرهم كان لعمارة اليمني شعر حسن في صلاح الدين حينما أشاد بجيشه الجرار الذي آخره في مشارف دمشق وأوله في ضفاف النيل.

على أن استرجاع الأرض ولا سيما بيت المقدس من أيدي الصليبيين كان الهاجس الملح أو الأمل الكبير الذي كان يضطرب في نفوس العرب ويتجلى على ألسنة أدبائهم، ومن أمثلة ذلك ما نجده في قول العماد الأصفهاني مخاطباً صلاح الدين وحاضاً إياه على مهاجمة القدس وقصم ظهر الفرنج :

وما يرتوي الإسلام حتى تغادروا
لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الإفرنج سوط عذابها
بأن يقسموا ما بينها القتل والأسرا

إلى أن يصل إلى بيت القصيد مطالباً بفتح بيت المقدس:

ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البكرا

والذي يعنينا في هذا المجال المحدود من شعر العماد الأصفهاني وغيره من الشعراء المعاصرين لصلاح الدين هو تعبيرهم – كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا – عن هذا الهم الدفين الذي كان يعتلج في نفوسهم بل في ضمير العرب والمسلمين كافة، إنه استعادة بيت المقدس ومسجده الأقصى وصخرته المشرفة، وهذا ما نجده أيضاً في قصيدة أخرى للعماد الأصفهاني إذ يقول مناجياً الملك الناصر:

فسر وافتح القدس واسفك به
دماء متى تجرها ينظف
وخلّص من الكفر تلك البلاد
يخلصك الله في الموقف

وحين غزا صلاح الدين ساحل فلسطين واستعاد غزة وعسقلان سنة ٥٦٦هـ انتعشت الآمال واشتدت العزائم، وأخذ الجميع يتطلعون بلهفة واستبشار إلى المرحلة التالية ونهاية المطاف.

وفي رأي عمارة اليمني أن هذا الفتح لمدن الساحل لم يكن لصلاح الدين سوى سلم نحو تحقيق الهدف الكبير، حيث يتطلع كل مسلم تطلع المشوق اللاهف إلى ما بعده وهو فتح بيت المقدس الذي طال انتظاره:

وهيجت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه إليك التشوق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه
قريباً، وإلا رائد ومطرِّق
هو البيت إن تفتحه، والله فاعل
فما بعده باب من الشام مغلق

لقد كان الهدف واضحا أمام القائد صلاح الدين منذ أن امتلك زمام الملك وتولى زعامة الأمة. غير أن الأمور مرهونة بأوقاتها، إذ كان لا بد من تحقيق جملة من الأعمال قبل خوض المعركة الفاصلة، وهكذا وبعد سلسلة من المعارك والغزوات تم خلالها افتتاح حصون وقلاع واسترداد قرى وبلدان، انعطف صلاح الدين إلى تدعيم الدولة وبنيانها.

وفي يوم مشهود توقف صلاح الدين في أعلى جبل المقطم بالقاهرة وهو على صهوة جواده عند مدخل القلعة (التي عرفت بعدئذ بقلعة صلاح الدين) ومن حوله أشد المحاربين بأساً وأعظم الفرسان شأناً، خرج الناس لتوديعه وقد غلبهم التأثر، واستبدت بهم الحماسة، وعلت ألسنتهم بالدعاء له، فاستمع في سرادقه إلى الخطباء والشعراء، آملين الخير على يديه حتى يظهره الله

على أعدائه. ثم مضى إلى دمشق ليستكمل استعداده متخذا منها قاعدة لجنده ومركز تجمع للمتطوعة والمجاهدين من سائر بقاع الشام والجزيرة.

الشعر في موكب النصر

في نهار الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ، ١١٨٧ م خرج صلاح الدين بجيشه من دمشق واتجه جنوباً، ثم انعطف قليلاً إلى جهة الغرب قاصداً إلى مدينة طبرية، فتمهل على سطح الهضبة ينتظر قدوم الصليبيين الذين اجتمعوا في أعداد كبيرة بمرج صفورية بأرض عكا، ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم، إذ انقسموا بين محبذ لمهاجمة صلاح الدين، ومؤثر بقاء جيشهم متمركزا في موقعه ليحسن التصدي للعرب.

ولم يطل بهم الأمر كثيراً، إذ قام صلاح الدين بهجوم مباغت على مدينة طبرية، وافتتحها في ساعة واحدة. وخلال نهارين من الهول تشتت شمل الفرنجة وراحوا يرجعون القهقري. فتبعهم العرب وأحاطوا بهم من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، ثم حملوا عليهم بالسيوف. واعتصمت أعداد كبيرة منهم في اليوم الثاني بتل حطين فضايقهم العرب أشد المضايقة. ويروي المؤرخون أن بعض الأشداء من جند صلاح الدين عمدوا إلى إفساد مياه آبار الأعداء، كما أشعلوا النيران في الأعشاب اليابسة المحيطة بمواقعهم، فزاد هذا من ارتباكهم، على حين كانت ضربات الجيش العربي تنهال عليهم دون هوادة، فتصدع كيانهم وانفرط عقدهم، واكتظت الأرض بقتلاهم، وعندئذ لم يجدوا بداً من الإقرار بالهزيمة، فاستسلموا للأسر بجموع كبيرة خوفاً من القتل. وكان في عداد الأسرى الناجين الملك (غود فري) وأخوه الملك (بلدوين) و(أرناط) حاكم الكرك والشوبك.

لقد كانت معركة حطين شديدة الوطأة على الصليبيين، ولم يسبق أن ذاقوا مثلها منذ قدموا من ديارهم غازين. وقد هزموا هزيمة نكراء كما تحطم جيشهم الجرار، فراحوا بين قتيل وأسير. وكان يوم تاريخي أغر في حياة المسلمين بات مقروناً على صعيد واحد بأمجادهم الكبرى أيام بدر والقادسية واليرموك..

وانطلق صوت الشعر يومئذ مهللاً لهذا النصر العظيم، وتكاثر الشعراء بباب صلاح الدين مهنئين، وتوالت عليه القصائد من

كل حـدب وصوب، وكلها رضى واستحسان، وسعادة واستبشار. ومن هذا القبيل قصيدة لعلي بن الساعاتي يقول فيها بنشوة عارمة:

جلت عـزماتك الفتح المبينا
فقد قـرت عيـون المؤمنينا

رددت أخيـذة الإسـلام لما
غدا صرف الزمان لها ضمينا

فيـا لله كـم سـرت قلوبا
ويـا لله كـم أبكـت عيـونا

ومـا طـبريـة إلا عـروس
تـرفـع عـن أكـف اللامسينا

قضيت فريضة الإسلام منها
وصدقت الأمـاني والظنونا

تهز معاطف القدس ابتهاجا
وترضي عنك مكة والحجونا

فلو أن الجماد يطيق نطقا
لنادتك: «ادخلوها آمنينا»

ففي (بيسان) ذاقوا منك بؤسا
وفي (صفد) أتـوك مصفدينا

فـلا عـدم الشـآم وساكنـوه
فتى تشفي بها الداء الدفينا

وقلب القدس مسرور ولولا
سطاك لكان مكتئبا حزينا

ويطيب للشاعر ابن الساعاتي أن يستلهم في قصيدتـه الطويلة مواطـن الإشراق في تراثـه العريق، فيضمن أبياتـه حيناً بعض آيات القـرآن الكـريم، إذ همت الجمادات بأن تقول (ادخلوها بسلام آمنين)، أو ينسج قوله على غرار بائية بشار مستعيراً صورته الذائعـة التـي تشـير إلى أن السيـوف في المعركة هي التي كانت تنير قتامة النقع حين أخذت تتهاوى كالكواكـب، فيهتدي ببريقها الفرسان:

يكاد النقع يذهلها فلولا
بـروق الماضيات لما هدينا

وفي موكب الفـرح الغامـر، إثر معركة حطين، ينظم الشاعـر فتيان الشاغوري ما حـدث في ذلك اليـوم، فيصـف جانباً من تفصيلات المعركة وجزئيات القتال على نحو قلمـا التفت إلى مثله الشعـراء في نزوعهم المعهود إلى الاقتضاب في الوصف والإسهاب في المديـح، ففـي قصيدة له نـرى طلائع المحاربـين الصليبيين بخيولهـم، المطهمة، يعتليها فرسانهم الأشداء وهم يتنادون لقتال العرب، ويطلقون صيحات الحرب:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم
يتذامرون على متون الضمّر

أوردت أطراف الرماح صدورهم
فولغن في علق النجيع الأحمر

وهذا القول يشير إلى ما كان من حقيقة قـوة الصليبيين ومـدى استعدادهم لملاقاة العرب، ومنحى الشاعر في الوصف هو عدم التهويـن من بأس العدو بـل إنصافه وبيان قدراته، وهذا يعيد إلى أذهاننا ما درج عليه كثير من شعراء الحماسـة عند العرب، ولا سيما ما عمـد إليه عنترة في معلقته. وتأثر الشاعر هنـا بالشاعر الجاهلي واضح على صعيـد الألفـاظ والمعاني، بصـدد تصوير منازلتـه لخصمـه العنيـد ،أو ما نجده في بائية بشار خلال وصفه لجيش العدو الذي كان في انتشاره كجنح الليل، وفي عدده كعدد الحصى، وفي كثرة سلاحه كغابة الشوك، أو مـا كان أخيراً من إشـادة المتنبي في ميميته بجيش الروم الذي زحمـت أطرافه الآفاق وبلغت زمامه أذن الجـوزاء.. ومع ذلك بدا اليوم من سـير معركة حطين أن الصليبيين على قوتهم لا قبل لهم بإيقاف المد الإسلامي، وليس بوسعهم قهر العرب الذين طالما أعدوا لهذا اليوم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيـل يرهبون به عدوهـم. وهكذا استعر لهيـب القتـال، وانبرى المجاهـدون العرب يذيقون أعداءهم الأهـوال، فلا يغادرونهم كما يقول فتيان الشاغوري إلا بعد أن ترتوي رماحهم السمر من دماء الفرنجة الحمر.

وفي المقاطـع التالية من القصيدة أيضاً أن أكثر ما كان يرى في زحمة الالتحام، حيث يفغر فاه الموت الـزؤام، رؤية مجاهد عربي وهـو ينقض كالشهاب في إثر مقاتل صليبي يركض بخفة أمامـه ركض العفاريت عساه ينجو بجلده من القدر المحتوم:

فهناك لم يرَ غير نجم مقبل

في إثـر عفـريت رجيـم مدبـر

وفي إثر ذلـك استطاع القائـد العربي اقتحام مدينة الكرك الحصينة ومن بعدها مدينة نابلس، والاستيـلاء على الكثير مما في ربـوع فلسطين من مواقـع وقلاع. وكان ابن سناء الملك شاعـر صلاح الدين يواكب هذه الأحداث ويصف هذه الانتصارات، ثم يصف مـا كان بعد ذلك تهاوى ما تبقى من مدن الشام تحت ضربات جيش صلاح الدين وقذف الحصون المعادية بمجانيقه:

فنابلس لما أن نزلت بربعها

أقامت بهم حق الضيافة والنزل

وقد رجمتها المنجنيقات إذ رمت

لشيخ لعين كافر جاهل رذل..

وكان أن تابع القائد صلاح الدين زحفه المقدسـ، فيمم وجهه شطـر بيت المقدس،

فبلغ أبواب المدينة يوم الأحد، الخامس عشر من شهر رجب سنة ٥٨٣هـ، ١١٨٧ م. وكانت القدس مدينة حصينة تحيط بها أسوار منيعة، فحاصرها العرب من جميع جهاتها، ونصبوا المجانيق لدك أبراجها. وقد احتمى الصليبيون في داخلها بعد أن عقدوا العزم على الدفاع عنها. غير أنهم بعد أن تحملوا الحصار نحواً من سبعة أيام أدركوا أن لا قبل لهم بذلك الجيش الظافر وقوته الضاربة، ولا سيما بعد أن خضدت شوكتهم، ووهت عزيمتهم، وتحققت في حطين هزيمتهم. فرأوا من الخير حقن دمائهم، وقر رأيهم على رفع رايات التسليم، وجرت مفاوضات على شروطه. وكان صلاح الدين كدأبه شهماً متسامحاً مع أعدائه ولم يتكبر أو يتجبر.

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣ هـ، الموافق لمنتصف تشرين الأول من عام ١١٨٧ م دخل الناصر المظفر المدينة المقدسة. وصادف ذلك أن المسلمين احتفلوا في تلك الليلة أيضاً بذكرى ليلة الإسراء. وكان نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً.

وفي إثر ذلك المنعطف التاريخي الحاسم طار صيت الناصر صلاح الدين، وعم الفرح والابتهاج جموع العرب والمسلمين، فدوت أخبار انتصاره في كل الأسماع، وانغمرت بمحبته كل القلوب، وغدا رجل الساعة وبطل الأبطال.

وما إن بلغت البشرى الجديدة بفتح بيت المقدس بعد حطين، أرض الكنانة، حتى هلل الناس وكبروا، وانطلقت ألسنة كتابهم وشعرائهم تتبارى في التعبير عن نشوتهم بهذا الفتح المبين، وكان صوت ابن سناء الملك من مصر صوتاً مدوياً ومنتظراً في عالم الأدب، وقصيدته كما هو شأن الكثير من أمثالها تجمع بين المديح والحماسة، إنه يخاطب البطل الأيوبي مرة أخرى اليوم بعد أن خاطبه بالأمس القريب في قصيدة سينية سالفة، حين حط ببأسه يومئذ على حطين، فيقول:

لست أدري بأي فتح تهنا
يا منيل السلام ما قد تمنى
قد ملكت الجنان قصراً فقصرا
إذ فتحت الشآم حصناً فحصنا
وجرت منهم الدماء بحاراً
فجرت فوقها الجزائر سفنا
قد ملكت البلاد شرقا وغربا
وحويت الآفاق سهلا وحزنا

كذلك بادر علي بن الساعاتي من جديد ويتساءل المذهول المفتـون، إلى تصوير وقع النبأ العظيم الذي جل عن أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب:

أعيا،وقد عاينتم الآية العظمى
لآية حال نذخر النثر والنظما

وكان طبيعيا في موكب الشعر أيضا أن يكون للعماد الأصفهاني شاعر صلاح الدين وكاتبه ما يقوله في هذه المناسبة، مشيدا بنصر مليكه العظيم، وما كان له على العرب والمسلمين من فضل عميم. وقد استهل قصيدته بالإعراب عن أساه لمفارقة مولاه منذ أن غادر ذلك القائد أرض الكنانة في حملته الكبرى مجاهدا لتحرير الوطن من دنس الاحتلال، فقال:

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا

ومن مصر أيضا صور نقيب الأشراف شرف الدين الجواني ذلك الفرح الغامر في إثر انتصارين خالدين: حطين والقدس، يكاد المرء لا يصدق أخبارهما فقال:

أترى مناما ما بعيني أبصر
القدس يفتح والفرنجة تكسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبّحوا واستغفروا
فتح الشآم، وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
حيث الرقاب خواضع، حيث العيون
خواشع، حيث الجباه تعفّر
ملك غدا الإسلام من عجب به
يختال، والدنيا به تتبختر

وتعكس القصيدة مشاعر الأمة يومئذ حين أتتها البشرى بتحقيق الأمل المنشود، بعد أن غلب التشاؤم على النفوس، وكاد الناس يستسلمون لليأس، فلا غرابة بعد ذلك أن يقر لدى المؤمنين بأن ما حدث كان نصرا من الله ووفاء بما وعد به رسوله، وأن تنطوي الأبيات على العديد من المعاني الدينية المعهودة في مثل هذه الأحوال من التسبيح والاستغفار، ومن التطهر والقيامة والحشر..

وكان فخر الكتاب الحسن بن علي الجويني قد صور انفعاله بتلك الأيام الغر فقال من قصيدة طويلة:

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء، وما
له سوى الشكر بالأفعال أثمان

ولعل من أهم ما يورده الشاعر في قصيدته أيضاً، فيما يقارب النزعة التوثيقية، إشارته إلى بعض الحقائق التاريخية، بل رصده للواقع السياسي والاجتماعي والنفسي لحال العرب عهدئذ قبل أن تكتحل عيونهم بمرأى ذلك الفتح المبين:

تسعون عاما بلاد الله تصرخ
والإسلام أنصاره صم وعميان

ومن هذا القبيل من ميل الشاعر إلى النزعة التوثيقية قوله بعد ذلك مبينا الطابع السريع بل الصاعق للمعارك الكبرى التي استطاع بفضلها صلاح الدين أن يحسم الصراع إلى حد كبير بين العرب والفرنجة:

في نصف شهر غدا للشرك مصطلما
فطهرت منه أقطار وبلدان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزلت فيه آيات وقرآن

وما أجمل المبالغة في هذا البيت الأخير.

وأنه لما يسترعي النظر في هذا الغمار من الخطب والأشعار أن تطير أخبار الفتح المبين إلى أقصى المعمورة وتلامس أسماع أبناء العمومة العرب في الأندلس، فتهز نفوسهم وتخفف عنهم بعض ما كانوا يعانونه من غفلة حكامهم ووطأة أعدائهم. ونحن واجدون صورة لهذه المشاعر في قصيدة نظمها ابن جبير الأندلسي الرحالة الشاعر وأشاد فيها بمواهب الناصر صلاح الدين :

أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر
ثأرت لدين الهدى في العدا
فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى
فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهدا صابرا
فلله أجرك من صابر
فتحت المقدس من أرضه
فعادت إلى وضعها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر

وكان بيت القصيد في قصيدة ابن جبير قوله، وكأنه القرار في نهاية النشيد السعيد:

وأدبر ملكهم في الشآم
وولى كأمسهم الدابر

وإذ تعود القدس إلى حوزة العرب، تشتد اللهفة على استعادة ما تبقى من مدن الساحل وفي مقدمتها صور، وبدا ذلك في قول فتيان الشاغوري يخاطب صلاح الدين:

فانهض (لصور) فهي أحسن صور
في هيكل الدنيا بدت لصور

كذلك يثير العماد الأصفهاني قضية صور وسائر مدن الساحل على هذا النحو من الاهتمام، ولا سيما بعد تحرير القدس، وهو الذي واكب بشعره معظم ما سلف من أحداث:

قل للمليك صلاح الدين، أكرم من
يمشي على الأرض، أو يركب الفرسا
من بعد فتحك يوم القدس ليس سوى
(صور)، فإن فتحت فاقصد (طرابلسا)
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه
من العداة ومن في دينه نكسا

❁ ❁ ❁

ثم كانت وفاة القائد العظيم صلاح الدين حدثا فاجعا، ولم يحدث لدويه نظير منذ وفاة الخلفاء الراشدين. وقد ارتاع له الشعر، فرثاه أحر الرثاء، وندب فيه تلك الخلال السمحة التي جعلته حبيبا إلى القلوب، أثيرا لدى النفوس، ورمزا للدفاع عن حمى الدين وربوع الوطن. وإن ما قيل من شعر ومن نثر أعقاب هذا النبأ الأليم كان شديد الغزارة، ويكاد في معظمه يبكي العظمة والقوة، والحزم والشجاعة، والعزة والكرامة، والتقوى والسماحة. ولعل قصيدة واحدة كقصيدة العماد الأصفهاني تصلح لأن تكون صورة للمشاعر المريرة في ذلك اليوم الحزين، كما أن كون أبياتها بلغت مئتين واثنين وثلاثين بيتا يشير إلى مدى انغمار النفوس بمشاعر الأسى والإجلال:

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء، وأقلعت حسناته

❁ ❁ ❁

الجهاديات في ميزان النقد:

وصفوة القول أنه كان للشعر العربي دور هام في أحداث هذا العصر، ولاسيما عبر القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وذلك في ظل المثلث القوي: عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين، وهم القادة العظام الذين عاصروا المد الصليبي في ديار الإسلام ثم انحساره، كما واكبوا الأحداث الجسام وكانوا في كثير من الأحوال هم صانعيها.

وغدا الشعر عهدئذ ترجمانا قويا لما كان يضطرب به ذلك العصر من وقائع وأحداث، بعد أن كانت مضامينه ضحلة محدودة. وإن في مواكبة القصائد لأحداث عصرها، وجعلها من القوافي مرايا لما حولها.. كل ذلك

أعطى الشعر سمة الحياة وطابع الصدق، وغدا هذا الشعر الموروث عن تلك الحقبة سجلا ذا أهمية معرفية في وصف الكثير من الأحوال والملابسات، بل تأريخ ما لا يستطيع التاريخ النهوض به من تصوير منازع الأمة ورصد ضميرها ومشاعرها. وكان الشعر يحفز القادة والحكام على العمل، ويقوي فيهم العزم على الجهاد، ويزيد في نفوسهم الشعور بالثقة والبأس. ومعلوم أن كثيراً من الشعر العربي، ولا سيما هذا الشعر الملتحم بالأحداث، شعر محفلي يلقى إلقاء في المساجد، أو ينشد إنشادا في المجالس، حيث يحرص كل حاكم أو قائد على أن يقع في نفوس القوم الموقع الذي يريدون.

ومن جهة أخرى، كان كل حادث سعيد من تسلم زمام الأمور أو قهر خصم، أو تحقيق انتصار على عدو.. حافزا يهيج قرائح الشعراء ويضاعف نظمهم، فتلتئم في إثر ذلك المحافل، وتنطلق الألسنة على المنابر.. ويكون لذلك كله وقع في إمتاع العامة وإرضاء الخاصة، حيث تغدو للأدب مهمة إعلامية ودعائية بالغة الأثر في تهيئة النفوس وتوعية العقول وتعبئة المشاعر.

وكان الحكام، ولا سيما القادة في هذا العصر، يحرصون على حضور هذه المحافل الحاشدة أيام الجمع والأعياد وفي أعقاب تولي الأمور وتحقيق الانتصارات، فيطربون لما يسمعونه من حمد وثناء، ويجودون على الشعراء بما يكون لديهم من فضل وعطاء.

وعلى صعيد آخر حرص الشعراء على ذكر مجموعة من أسماء القادة الأعلام والأمراء الحكام الذين ارتبطت شخصياتهم بالأحداث، وكذلك إيرادهم أسماء البلدان والمواقع والحصون التي كانت مسرحا لتلك الأحداث.. كل ذلك كفيل بان يضفي على تلك القصائد سمة واقعية بارزة.

وإن استقراء الأشعار التي تجاوبت فيها أصداء الغزو الصليبي يشير بجلاء إلى أن محورها كان صورة البطل، وما ينطوي عليه من الخصال والفعال، ومن ثم تمجيده ونسبة الفضل إليه، وهذا منحى يمكن تقبله وفهم دواعيه لأن الانعطاف الذي تحقق بخروج العرب من عهد الضعف والتمزق إلى عهد المنعة والتلاحم إنما مرده إلى همة أفراد بعينهم جاد بهم الزمان على الأمة بعد طول قحط واحتباس، فكان أن أنجبت تلك الأيام قادة عظاما مثل عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وأمثالهم، الذين ألفوا القلوب

المتنافرة وجمعوا الجهود المبعثرة، ورأبوا الصدع، ووحدوا الشمل.. وكان كل ذلك إيذانا بنصر من الله وفتح قريب..

ومع ذلك وبرغم التركيز على صورة البطل الفرد وما تنطوي عليه في أغلب الأحيان من مبالغات معهودة، فإن الشعراء لم يغفلوا دوما المجهود الجماعي للمجاهدين وسائر المقاتلين في الجيوش المظفرة، لأن هؤلاء في حقيقة الأمر هم الذين يجودون بالأرواح ويصنعون النصر، ومثل هذا المنحى ظاهر في قول ابن القيسراني :

وجند كالصقور على صقور
إذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا
وإن أبدوا عداوتهم أبادوا

واعتمادا على هذه المعطيات اتكأ الشعراء في تصوير معارك ممدوحيهم على الأوصاف السائدة في الشعر الحماسي الموروث، ولا سيما قصائد أبي تمام والمتنبي، وذلك لعدد من الأسباب، أولها منزلة هذين الشاعرين ومالهما من هالة في النفوس. ومنها أيضا قرب العهد من هذين الشاعرين العباسيين، كذلك تشابه الظروف والمواقف والمعارك تجاه عدو واحد بالأمس واليوم، وهو الفرنجة : روما وصليبيين..

لقد كان النموذج الشعري في كثير من الأحيان ماثلا في الأذهان، وسرعان ما كان الشيء بالشيء يذكر، فتقفز إلى الذاكرة روائع شعرية حافلة بالملامح الملحمية مثل بائية أبي تمام في (عمورية) المعتصم، أو ميمية المتنبي في (حدث) سيف الدولة.. فيكون لشعراء الحقبة الصليبية من ذلك معين ثر يتكئون عليه، ويغترفون منه. ومع أن هذا المنحى يغري بالتباري ويحض على التجويد إلا أنه في الوقت نفسه يبقي الشاعر دائرا في فلك الشعراء الآخرين، يستمد من معانيهم ويمتح من صورهم على حين ينأى بشعرهم عن سمات الإبداع وملامح الأصالة. وقلما كانت قصائد ذلك العصر تتجاوز السرد والنقل في إطار الوصف المعهود.

وأخيرا، لعل من أهم أسباب عدم تألق كثير من الشعر الذي قيل في ظل الحروب الصليبية،غلبة المنحى اللفظي وسيادة الزينة البديعية على الذوق الأدبي العام، فقد غدت عناصر السجع والجناس وغيرها من الزخارف الأسلوبية تيارا فنيا طاغيا قلما برئ منه كاتب أو شاعر. ..وطبيعي أن هذا يعني طغيان الشكل على المضمون

في الأدب ومن ثم افتقاد التعبير الفني في كثير من الأحيان لمقومات العبارة المتوثبة والصورة الحية.

وقد يكون في نهاية المطاف من أهم سمات الشعر في ذلك العهد من الوجود الصليبي في أرض العرب أن ذلك العصر لم ينجب شعراء كبارا في مستوى الفحول المتقدمين بحيث يكونون قادرين بما أوتوا من مواهب أن يعبروا عن أحداث عصرهم الجسام وانتصاراته العظام. لقد كانت قرائحهم كليلة، لم تسعفهم على أن يرقوا في فنهم إلى مستوى تلك الأحداث المتفاقمة ومعانقة نبضها المتسارع.

إن ما نهض به الأفذاذ كعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين من أعباء جسام ومهام عظام، في ظل واقع سياسي مضطرب ممزق، إنما يفوق إلى حد كبير ما قام به بعض الخلفاء العباسيين ثم القادة الحمدانيين. . ولكنهم برغم ذلك لم يحظوا بشعراء مبدعين على النحو الذي جاد بهم الدهر على أسلافهم. لقد كانت أجنحة الشعر في ذلك العصر أوهى من أن تنهض بتلك الأمجاد والبطولات. وهذا ما يجعل المرء يتساءل بحسرة : ماذا كان يمكن أن يكون عليه حال أدبنا العربي لو أن القدر أتاح لعباقرة الحرب والفروسية إبان الصراع العربي الصليبي شعراء كبارا يوازون عظمتهم بما يقابل ذلك من مواهبهم، ويكونون في مستوى الفحول المتقدمين الذين جاد بهم الزمان في العصور العربية السالفة مثل بشار وأبي تمام ومثل أبي الطيب وأبي فراس..

مصادر البحث:

١- الأدب في العصر الأيوبي - د. محمد زغلول سلام. القاهرة ١٩٦٨
٢- تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان، الترجمة العربية.
٣- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية - د. أحمد أحمد بدوي - القاهرة.
٤- خريدة القصر وجريدة العصر - العماد الأصفهاني. دمشق ١٣٧٥هـ.
٥- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - شهاب الدين أبو شامة. القاهرة ١٩٦٢.
٦- ابن سناء الملك - محمد إبراهيم نصر. القاهرة ١٩٧١.
٧- صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني - د. محمود إبراهيم. دمشق - عمان ١٩٧١.

٨- صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه – د. أحمد أحمد بدوي. القاهرة ١٩٦٠.
٩- ضياء الدين بن الأثير – د. محمد زغلول سلام. القاهرة.
١٠-فوات الوفيات – ابن شاكر الكتبي. القاهرة ١٩٥١.
١١-الكامل في التاريخ – عز الدين ابن الأثير. القاهرة ١٩٤٨.
١٢-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ابن تغري بردي. القاهرة.
١٣-نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة – نعيم الحمصي. اللاذقية ١٩٧٩.
وفيات الأعيان – ابن خلكان. القاهرة ١٩٤٨.

الدراسات والبحوث

الشــعر وتحرير القدس من الفرنجة

د. أحمد فوزي الهيب *

القدس العربية، بيت المقدس القِبلة الأولى للمسلمين قبل الكعبة المشرفة، فيها المسجد الأقصى الذي باركه الله تعالى، وبارك ما حوله، ومن حوله، وأسرى إليه - لعظيم فضله - بالرسول العربي الأعظم من البيت الحرام في مكة المكرمة، والذي أخبر الرسول (ص) أن منزلته تأتي بعد منزلة الحرمين الشريفين وحثّ المسلمين على زيارته بقوله: لاَ تُشَدُّ الرحال إلا إلَى ثَلاَثَة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام،

* باحث وأستاذ جامعي سوري.

والمسجد الأقصى[1]. وفي القدس أيضًا الصخرة المشرفة التي انطلق منها الرسول الأعظم في معراجه إلى السماوات العُلا وسِدرة المنتهى والخالق العظيم سبحانه وتعالى.

القدس العربية فتحها عمر بن الخطاب من الروم عام ١٥هـ سِلمًا، وكتب لمن فيها عهدًا، سُمِّيَ بالعُهدة العُمَرِيَّة، أمّنهم فيها على أنفسهم وأموالهم ودُور عبادتهم إلى أبد الآبدين، الأمر الذي جعلها مدينة السلام، يرتفع فيها الأذان من المآذن وصوت أجراس الكنائس في إخاء ومحبة وتسامح وأمان وسلام.

بقيت نسائم الأمن والأمان تسري فوق ربوع القدس، تجذب إليها العُبّاد والزُّهّاد والمتصوفة والحُجّاج من كل حدب وصوب، ومن جميع الأديان إلى أن أتاها الإعصار الفرنجي بحملاته المتلاحقة، والتي سمّاها زورًا وبهتانًا وتضليلاً بالحروب الصليبية، وادعى كاذبًا أنه يريد تحرير القبر المقدس من أيدي المسلمين، ليخفي بذلك أطماعه الحقيقية المادية الرخيصة، وليستغل روح الإيمان لدى بسطاء الناس والعامة.

زحفت حملات الفرنج كالجراد – حملةً بعد حملة قرونًا عدّةً – تنشر الدمار والقتل والخوف بين المسيحيين والمسلمين على حدٍّ سواء مستغلةً حالة الضعف والفرقة التي كان يرزح تحتها المسلمون في ذلك الزمن ببلاد الشام ومصر الفاطمية وغيرهما.

احتل الفرنجة الرُّها وأنطاكية ومعرة النعمان وطرابلس وغيرها، وارتكبوا من المجازر والفظائع ما تترفّع عنه الوحوش، حتى وصلوا إلى أسوار القدس، فحاصروها أكثر من شهر، وتخاذل الفاطميون في التصدي لهم ومقاومتهم وحماية القدس ومدّ يد العون لها على الرغم من أنهم كانوا يحكمونها آنذاك، وكانوا مسؤولين عن حمايتها، وحينما انسحبت حاميتها الفاطمية إلى قلعتها أيقن أهلها من مسلمين ومسيحيين بسقوطها، فلاذت – كما يفعل الضعفاء – جموعُهم بالمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة المشرفة، ولكن ذلك سهّل على الفرنجة احتلال القدس، فاندفعوا كالسيول الجامحة يهوون بسيوفهم الثقيلة على الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، وحتى على الدواب، وسرعان ما صاروا يمشون على أكوام من الجثث في دروب القدس، وقد زادتهم مناظر الدماء هياجًا في القتل، وحينما اقتحموا المسجد الأقصى كان الهياج قد بلغ حدَّ الجنون، فقتلوا كلَّ

حيٍّ فيه، قتلوا الزُّهّاد والعُبّاد كما قتلوا النساء والأطفال، وقتلوا المحاربين كما قتلوا العجزة، وكتبوا للبابا في روما أننا نخوض في دماء المسلمين إلى الركب، وقد كان لهذا دويٌ عظيم في قلوب العرب والمسلمين، وتألموا ألمًا كبيرًا، ولكن !.

بلغ عدد القتلى - كما قُدِّر - سبعين ألفًا، ولم يستطع الهرب إلا القليل، وفرغت المدينة من السكان. ثم فاوض الفرنجة الحامية الفاطمية على تسليم قلعة القدس والانسحاب، فقبلت وانسحبت تجر ذيول الخزي والعار.(٢) واستمر ظلام احتلال القدس هذا إحدى وتسعين سنة، من سنة ٤٩٢حتى تحريرها سنة ٥٨٣هـ.

سقوط القدس كان صاعقة كبرى أصابت العرب والمسلمين جميعًا، كما أصابت الشعراء بالذهول، فلم يستطيعوا التعبير عما في نفوسهم من حزن وألم، أو كأنه كمم منهم الأفواه لأنه حدثٌ جللٌ، لم يستطيعوا أن يوفّوه حقّه، أو كأنهم لم يجدوا بين أولئك الحكام الضعفاء آنذاك واحدًا مِنَ الممكن أن تثير أشعارهم حميته، ومع ذلك فثمة شعراء تحدثوا عن سقوط القدس بألم دامٍ وحزن كبير مثل أبي المظفر الأبيوردي الذي سجل هذه المأساة في قصيدة طويلة مطلعها(٣):

مزجنا دماءً بالدموع السواجم
فلمْ يبقَ منا عُرْضَةٌ للمراحم

ومنها:

وَكَيفَ تَنامُ العَينُ مِلءَ جُفونِها
عَلى هَفواتٍ أيقَظَتْ كُلَّ نائمِ
وإخوانُكم بالشامِ يُضحي مَقيلُهُم
ظُهورَ المَذاكي أو بُطونَ القَشاعِمِ
يَسومهُمُ الرومُ الهَوانَ وَأنتُمُ
تَجُرّونَ ذَيلَ الخَفْضِ فِعْلَ المُسالِمِ
وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومن دُمًى
تُواري حياءً حُسنَها بالمعاصم
بحيثُ السيوفُ البيضُ مُحمَرَّةُ الظُّبا
وسُمْرُ العَوالي داميات اللهازم

وحاول الشاعر أن يستثير حمية السامعين الدينية والقومية لدى العرب وغيرهم من الشعوب المسلمة على السواء فقال:

وبين اختلاسِ الطعنِ والضربِ وقفةٌ
تظلُّ لها الولدانُ شِيبَ القوادمِ
يَكادُ لَهُنَّ المُستَجِنُّ بِطيبةٍ
يُنادي بِأعلى الصَوتِ يا لَهاشِمِ
أتَرضى صَناديدُ الأعاريبِ بالأذى
وَيُغضي عَلى ذُلٍّ كُماةُ الأعاجِمِ
دعوناكمُ والحربُ ترنو مُلِحّةً
إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارةً يعربيةً
تُطيل عليها الرومُ عضَّ الأباهم

كما قال شاعر آخر في ذلك أيضًا قصيدة يستصرخ بها ويستنجد، منها[4]:

أحلَّ الكفرُ بالإسلام ضيمًا
يطولُ عليه للدين النحيبُ
فحقٌّ ضائعٌ وحِمًى مباحٌ
وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صَبيبُ
فقلْ لِذَوِي البصائر حيث كانوا
أجيبوا اللهَ وَيْحَكمُ أجيبوا

ولكن هذه الصيحات وأمثالها لم تذهب سُدًى، وإن تأخر عليها الجواب، فمثلما يشقّ ظلمات الليل المدلهمة فجرٌ يطرد نورُه جحافلَ الظلام شيئًا فشيئًا، وينير ما بين المشرق والمغرب، ظهرَ عمادُ الدين زنكي، ثم ابنه نور الدين محمود، وبعدهما صلاح الدين الأيوبي الذي تمّ على يديه تحرير القدس واسترجاعها.

وقبلَ فجرِ عمادِ الدين زنكي، كانت ثمة شُهُبٌ أضاءت بعض جوانب الظلمات، وخففت من غلوائها، ومن هذه الشهب محمد بن ملكشاه السلجوقي سلطان سلاجقة فارس والعراق، ورجالاته العظام، مثل مودود وسكمان وإيلغازي بن أرتق، ثم قسيم الدولة آقسنقر البرسقي الحاجب حاكم الموصل، والذي ساعده في جهاده، وأتمَّه من بعده ابنه المجاهد الكبير الشهيد عماد الدين زنكي.

كان عمادُ الدين زنكي أكثر وأكبر من قائد أو سلطان أو ملك، لأنه مؤسسُ المشروع التوحيدي التحريري النهضوي الاستراتيجي الذي كان يرمي إلى توحيد بلاد الشام ومصر والعراق، لأنه -أي العراق- العمق الاستراتيجي للشام، وكان في الوقت نفسه يهدف أيضًا إلى طرد الفرنجة إلى أوربا التي أتوا منها مدحورين. ولعل هذا المشروع - بشكل أو بآخر - لما يزل صالحًا لطرد الصهاينة من فلسطين وتحرير القدس ثانية في الزمن الحاضر.

ولئن لم يسعف العمرُ عمادَ الدين زنكي ليتمَّ مشروعه، ويحرر القدس فإنه استطاع أن يحرر الإرادة العربية والإسلامية، ويفجِّر العزيمة، ويضفي عليهما الصدق، فمحا بذلك الشعور بالهزيمة والعجز، وطرَدَ روح الخوف من الفرنجة الذي كان مسيطرًا على كثير من القلوب، فمهّد بذلك الطريق لابنه نور الدين محمود ثم لصلاح الدين الأيوبي من بعده، ليكملا مشروعه النهضوي التوحيدي التحرري الاستراتيجي العظيم، وهو تحرير القدس وغيرها من البلاد التي استعمرها الفرنجة.

ضمَّ عماد الدين حلب إلى ملكه عام ٥٢٢ هـ، فرحب به أهلها ترحيبًا يليق به

قائداً عظيماً من جهة، ويليق بها مدينة عربية أصيلة مجاهدة، وكان ذلك أول خطوة في مشروعه الكبير، واستطاع بعدها في عام ٥٣٢هـ أن يطرد الفرنجة من الرُّها، الأمر الذي كان له أثره الكبير في تحطيم الروح المعنوية لدى الفرنجة وتعزيز تحرير الإرادة وتفجير العزيمة لدى المسلمين.

بيد أن يد الغدر استطاعت أن تصل إلى عماد الدين زنكي، وهو يحاصر قلعة جعبر عام ٥٤١هـ، إذ اغتاله أحد غلمانه، وبذلك انقسمت مملكته إلى قسمين:

- قسم شرقي، عاصمته الموصل بيد ابنه سيف الدين غازي.
- قسم غربي، عاصمته حلب بيد ابنه نور الدين محمود.

تابع نور الدين محمود مشروع والده الاستراتيجي من عاصمته حلب الشهباء، فضم دمشق إليه، لأنها الطريق إلى القدس، بعدما تخلص من ملكها مجير الدين الذي كان يتعاون مع الفرنجة، ثم أتبع تملّك دمشق بتحرير الحصون المنيعة التي كان الفرنجة قد احتلوها من قبل مثل حارم وبانياس ودلوك ومعرة النعمان والبارة وغيرها، الأمر الذي جعل مملكتي آل زنكي الشرقية والغربية تمتدان من دجلة والموصل شرقاً حتى نهر العاصي ودمشق غرباً.

ولقد شجع هذا نورَ الدين ليخطو الخطوة الثانية في طريق تحرير بيت المقدس، وهي ضم مصر إلى سلطانه، والتي كان حكامها الفاطميون وكثير من رجالاتهم يتعاونون مع الفرنجة، وبعد محاولات حثيثة جادة مخلصة شجاعة نجح في ضمها إليه عام ٥٦٤هـ على يد قائده البطل أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي تفرّد بعد موت عمه أسد الدين في حكم مصر وإدارة شؤونها، فكان وقْعُ ذلك كله على الفرنجة كالزلزال داخل القدس المحتلة وفي غيرها، بل في الغرب الأوربي كله.

ولكن المنية لم تمهل نور الدين ليحقق مشروعه الاستراتيجي، إذ اختاره الله تعالى لجواره عام ٥٦٩هـ، فحمل الراية من بعده بعزم وتصميم تلميذه وابنه الروحي صلاح الدين الأيوبي، واستكمل المشروع الذي كان قد بدأه عماد الدين، وتابعه فيه ابنه نور الدين، لأنه – أي صلاح الدين الأيوبي – كان مؤمناً به وركناً مهماً – هو وعمه أسد الدين شيركوه – من أركانه.

ولكنّ الطريق إلى ذلك لم تكن ممهدة سهلة، إذ قامت مشكلات كبيرة كثيرة بعد

وفاة نور الدين، فابنه الملك الصالح كان صغيراً في الحادية عشرة من عمره، لا يقوى على تحمل الأعباء الضخمة التي كان يحملها والده نور الدين محمود، فطمع به الطامعون، وكلهم يدّعي الإخلاص، وهو منه براء، فانقسمت مملكة نور الدين في الشام، وكاد أن يفشل مشروع عماد الدين زنكي، والذي سار فيه نور الدين سيراً حثيثاً، وتضيع التضحيات العظمى التي بذلت فيه سُدى لولا أن أتى صلاح الدين من مصر إلى الشام، ليصحح المسير، فاستلم دمشق وحمص وحماة وحلب، واستطاع بعد خمسة عشر عاماً من العمل المضني الدؤوب أن يقيم جبهة متحدة قوية يشد بعضها بعضاً تمتد من الموصل شرقاً حتى بُرقة غرباً، ومن حلب شمالاً حتى اليمن وبلاد النوبة جنوباً ممهداً بذلك الطريق القويمة لتحرير بيت المقدس.

وكانت معركة حطين قرب طبرية عام ٥٨٣هـ، والتي حقق فيها صلاح الدين نصراً مؤزراً على الفرنجة أكثر وأكبر من معركة منتصرة، إذ كانت في حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى[٥]، ولقد أشار أبو شامة إليها بقوله: هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمة ولمعاقد النصر وقواعده مُبرمة مُحكمة[٦].

وبعد حطين انطلق صلاح الدين بسرعة لا تعرف الراحة والتريث ففتح عسقلان وما جاورها، ثم اتجه إلى بيت المقدس ليحاصره، ولما رأى الصليبيون قوته وإخلاصه وتصميمه، أيقنوا أنهم على وشك الهزيمة، فطلبوا منه الأمان، وبعد مداولات ومفاوضات وافق صلاح الدين أن يعطيهم الأمان، ودخل بيت المقدس محرراً مطهراً يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ في ذكرى الإسراء والمعراج[٧].

وثمة - في القديم والحديث - من لام صلاح الدين على قبوله بذلك الصلح، وأنه لم ينتقم ويفعل بهم كما فعلوا هم في أهل القدس عندما اقتحموها قبل واحد وتسعين عاماً، والحق أنَّ جانبَ الداعية المتصوف الزاهد المتسامح المُخْبِت لله في صلاح الدين تغلّب فيه على جانب القائد العسكري المنتقم، فقَبِلَ بما قَبِلَ، وسار في ذلك على خطى الرسول عندما دخل مكة المكرمة، وقال لأهلها أعداء الأمس: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء. الأمر الذي جعل صلاح الدين يسطّر في تاريخ البشرية صفحات نقية بيضاء ودروساً

لا تُنسى في التسامح والإنسانية، وجعل مؤرخي الغرب يمتدحونه ويثنون عليه ثناء عظيمًا، فقال رنسمان: المسلمون الظافرون اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما خاض الفرنج عند اقتحامهم القدس في دماء ضحاياهم، لم تتعرض - في أثناء دخول صلاح الدين لها - دارٌ من الدُّور للنهب، ولم يحلّ بأحد مكروه، إذ صار رجال الشرطة بناءً على أوامر من صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على الفرنجة، والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة الفرنجة في أثناء احتلالهم للقدس[٨].

وكان للشعر دوره المهم الفعال في فتح بيت المقدس، وكان كثير من الشعراء مدركين لدورهم في معركة تحرير القدس، وفي كل خطوة تحريرية سبقتها، وأدّت إليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فاغتنموا كل ما يمكن اغتنامه ليذكروا القدس، ويذكّروا بها، ويتحدثوا عنها، ويحثوا على استرجاعها في قصائدهم التي وصفوا فيها المعارك الجهادية ضد الفرنجة، أو التي رثوا فيها الأبطال الذين استشهدوا في ساح الجهاد، أو تهنئة القادة بالمناسبات المتنوعة أو غيرها، وأكثروا في ذلك إكثارًا لافتًا للنظر، الأمر الذي جعل من أشعارهم وثائق لتأريخ تلك الفترة، تكمل ما جاء في كتب المؤرخين من القدامى والمحدثين على حدٍّ سواء.

وصف الشعراء جميع معارك تلك المرحلة، بدءًا من سقوط القدس حتى تحريرها، ومدحوا أبطالها عماد الدين وابنه نور الدين ثم صلاح الدين وغيرهم من القادة والأبطال، والأمثلة كثيرة جدًا، لذلك سنكتفي بذكر بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر، حتى لا نطيل.

فمما مُدح به عماد الدين زنكي قصيدة مدحه بها القيسراني عند فتح الرُّها، أولها[٩]:

هو السيفُ لا يُغْنيكَ إلا جِلادُهُ
وهل طَوّقَ الأملاكَ إلا نِجادُهُ
سمَتْ قبَةُ الإسلام فخرًا بطوله
ولم يكُ يسمو الدين لولا عِمادُهُ
لقد كان في فتح الرُّهاء دلالةٌ
على غيرما عند العُلوج اعتقادُهُ
فيا ظفرًا عمَّ البلادَ صلاحُهُ
بِمَنْ كان قد عَمَّ البلادَ فسادُهُ
فلا مُطلَقٌ إلا وشُدَّ وثاقُهُ
ولا مُوثَقٌ إلا وحُلَّ صفادُهُ
ولا منبرٌ إلا ترنّحَ عُودُهُ
ولا مصحفٌ إلا أنارَ مِدادُهُ

ولم يكن فتح عماد الدين زنكي للرُّها إلا خطوة في مشروعه الاستراتيجي و مقدمة لفتح القدس وتمهيدًا له، وقد أشار ابن القيسراني إلى ذلك، فقال[10]:

فــإنْ يــكُ فــتــحُ الــرُّهــا لُجَّــةً
فسـاحلُها الـقـدسُ والسـاحلُ

ومن مثل ذلك ما مدح به ابنُ القيسراني أيضًا نورَ الدين محمود بعدما تملك دمشق، قال[11]:

لكَ اللّهُ إنْ حاربتَ فالنصرُ والفتحُ
وإنْ شئتَ صلحًا عُدَّ من حَزمك الصلحُ

إذا ما دمشقُ ملَّكتكَ عنانَها
تيقّنَ مَنْ في إيليا أنّه الذبحُ

وكذلك نجد ابـن القيسراني يحض نور الدين على فتـح القدس عندما فتح حصن (إنّب) شمال حلب بعد معركة حامية الوطيس بقوله من قصيدة[12]:

هذي العزائمُ لا ماتدّعي القُضُبُ
وذي المكارمُ لا ما قالتِ الكتبُ

فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذي لَجَب
يوليك أقصى المنى فالقدسُ مُرتقبُ

واستمر الشعراء في التذكير بالقدس وفي الحض على فتحها مع صلاح الدين الأيوبي أيضًـا كما كانـوا مع سابقَيْـه عماد الدين ونـور الدين، فلما فتـح صلاح الدين حلب، وكان ذلـك في شهر صفر مـن عام ٥٧٩هـ، مدحـه القاضي محيي الدين بن زكي الدين الدمشقي بقصيدة، منها[13]:

وفتحُكمْ حلبًا بالسيفِ في صفرٍ
مُبَشِّرٌ بفتوحِ القدسِ في رجبِ

فوافق فتح القدس كما ذكره القاضي ابن زكـي الدين نقلاً عن الفقيه مجد الدين ابن جهبل الحلبي، فكأنه كان إلهامًا من الله.

ومن ذلك أيضًا قصيدة للعماد الأصفهاني مدح بها صلاح الدين الأيوبي في مصر عام ٥٧٢هـ، منها[14]:

فَسِرْ وافتحِ القدسَ واسفكْ بِهِ
دماءً متى تُجْرِهـا يَـنْـظُـفِ

وخلِّصْ من الكفر تلك البلادَ
يُـخـلِّـصْـكَ اللهُ في الـموقـفِ

ومدح الشعراء أيضًـا أمراء الزنكيين والأيوبيـين، وذكروهـم كذلـك بالقدس واسترجاعهـا، ومن هـؤلاء الشعراء عمارة اليمنـي الذي مـدح صلاح الديـن الأيوبي قبـل أن يصير سلطانًا للبـلاد عام ٥٦٤هـ، وذلك عندما كان في مصر عاملاً لنور الدين محمود،قال عمارة اليمني[15]:

فـالـقـدسُ قـد أذَّنَ إغـلاقُـهُ
علـى يَـدَيْ يـوسفَ بالانفتاحْ

كما ذكَّر العمادُ الأصفهاني بفتح القدس

أيضًا أسدَ الدين شيركوه عندما استلم الوزارة في مصر عام ٥٦٤هـ مدركًا أنها خطوة مهمة في طريق استرجاع القدس، فقال[١٦]:

بالجِدِّ أدركتَ ما أدركتَ لا اللعبِ
كم راحةٍ جُنيتْ من دوحةِ التعبِ
فتحتَ مصرَ وأرجو أن تصيرَ بها
مُيَسَّراً فتْحَ بيتِ القدسِ عن كثبِ

كما حرص نصر بن الحسن الهيتي الدمشقي على أن يذكر اسم القدس دون سواها عندما مدح شمس الدين صدّيق بن جاولي أمير بُصرى الشام، وذكر أن انتصاراته على الفرنج في حوران كانت بأرض القدس، ولم يسمِّها بأسمائها، فقال[١٧]:

ولهُ بأرض القدس فيهم وقعةٌ
سَلبتْ مليكَهمُ لذيذَ منامِهِ

ولا شك في أن ذكر القدس هنا – وكان من الممكن أن يستعيض عنها بذكر غيرها – يدل على منزلتها لديه، ولدى ممدوحه، ولدى سامعيه على السواء، وعلى الإيحاءات التي يتركها ذكرها هذا!.

وأكد الشعراء أن أي انتصار كان يتحقق هو – في حقيقته – خطوة نحو تحرير القدس، الأمر الذي جعلهم يشعرون بابتهاج القدس وفرحها لذلك، وبخاصة إذا كان الانتصار هو فتح صلاح الدين لمدينة طبرية المهمة القريبة من القدس عام ٥٨٣هـ، قال علي بن محمد الساعاتي[١٨]:

جَلَتْ عزَماتُكَ الفتحَ المبينا
فقد قرَّتْ عيونُ المؤمنينا
تَهُزُّ معاطفَ القدسِ ابتهاجًا
وتُرضي عنكَ مكةَ والحَجُونا
فقلبُ القدسِ مسرورٌ ولولا
سُطاكَ لكانَ مكتئبًا حزينا

وأما التعازي بوفاة الأبطال فقد كانت مناسبات مهمة للتذكير بالقدس وضرورة تحريرها، فهذا العماد الأصفهاني يرثي نور الدين محمود، ويسأله عن وعده بتحرير القدس، وكأنه بذلك يُذَكِّر صلاح الدين بإنجاز المشروع الكبير الذي بدأه عماد الدين، وسار فيه نور الدين خطوات راسخة، وما ينبغي أن يتوقف بعد وفاته، قال العماد الأصفهاني[١٩]:

الدينُ في ظُلَمٍ لغَيبةِ نُورِهِ
والدهرُ في غُمَمٍ لفقدِ أميرِهِ
أَوَ ما وعدتَ القدسَ أنكَ مُنْجِزٌ
ميعادَهُ في فتحِهِ وظهورِهِ
فمتى تُجيرُ القدسَ من دنسِ العدا
وتُقدِّسُ الرحمنَ في تطهيرِهِ
يا حاملينَ سريرَهُ مَهْلاً فمنْ
عجبٍ نهوضُكُمُ بحمْلِ ثبيرِهِ[٢٠]

وتشبهُ أبياتَ العماد الأصفهاني السابقة - في تذكيرهـا بالقدس والحض على تحريرها - أبياتُه التي يعزي بها صلاح الدين في عمه العظيم أسد الدين شيركوه الذي توفي في مصر عام ٥٦٤هـ وكان وزيرها والحاكم الفعلي لها وأكبر قادة نور الدين محمود وركنًا مهمًا من أركان مشروع تحرير القدس[٢١]:

ولا تهملوا البيتَ المُقدَّسَ واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البِكْرا
تديمون بالمعروف طيِّبَ ذكركمْ
وما المُلكُ إلا أن تديموا لكم ذِكْرا

ولم يقف الشعر عند حد التذكير والحض والتحريض، وإنما تجاوز ذلك إلى التبشير بفتح القدس، وكأنه قَدَرٌ محتوم من الله تعالى، يُرى بالعين، ينتظر وقته المُقدَّر له، وهو قريب، قال العماد الأصفهاني بعدما استعاد نور الدين مدينة منبج شمال حلب من صاحبها غازي بن حسان الذي ساءت أحواله[٢٢]:

بشرى الممالك فتحُ قلعةِ منبجٍ
فَلْيَهْنِ هذا النصرُ كلَّ مُتوَّجِ
أبشرْ فبيتُ القدْسِ يتلو مَنبجًا
ولَتَنبجٌ لسواه كالأنموذجِ
فانهضْ إلى البيت المقدَّسِ غازيًا
وعلى طرابُلُسٍ ونابُلُسٍ عُجِ

وكان ثمة أبطال آخرون من المرتبة الثانية يشاركون الأبطالَ الملوكَ أصحاب المرتبة الأولى الآنفي الذكر أمانيَهم في استرجاع القدس، مثل الوزير المصري الفاطمي طلائع بن رزِّيك في قصيدة له بعثها إلى الأمير العربي والفارس الأشهر والشاعر العالم أسامة بن منقذ، قال[٢٣]:

أبى اللهُ إلا أن يكون لنا الأمرُ
ولو طار في أفق السماء به النَّسرُ
وترتجعُ القدسَ المطهَّرَ منهمُ
ويُتلى بإذن الله في الصخرةِ الذِّكرُ

ووجد الشعر أيضًا في المناسبات الدينية مناسبة طيبة لمدح الأبطال والتذكير ببيت المقدس، مثل قصيدة ابن منير الطرابلسي في تهنئته لنور الدين بشهر رمضان، ومنها[٢٤]:

فداكَ من صامَ ومن أفطرا
ومن سعى سعيَكَ أو قصَّرا
أبقاك للدنيا وللدين مَنْ
خَلاك في ليلهما نَيِّرا
حتى نرى عيسى[٢٥] من القدس قد
لجا إلى سيفك مُستنصِرا

ولم يكتف الشعراء بالتحريض على فتح القدس فقط، وإنما حرّضوا على تملّك البلاد وتوحيدها تنبيهًا منهم - وهم محقون - على أنه لا يمكن الوصول إلى فتح القدس من غير ذلك، فهذا ابن منير الطرابلسي يحرّض نور الدين على تملك دمشق وإدخالها في دولته، ويعرّض بصاحبها مجير الدين بقوله[٢٦]:

دمشقُ دمشقُ إنما القدسُ سَرْحةٌ
ومركزُها صَرْحٌ عليها مُمَرَّدُ
حموها لكي يحموا وقد بلغ المدى
بهم أجلٌ حَتْمٌ وعُمْرٌ مُحَدَّدُ
متى أنا رَاءٍ طائرَ الفتح صادحًا
يرفرف في أرجائها ويغرِّدُ

واللافت للنظر في الأبيات الآنفة الذكر التوكيد الذي نجده في البيت الأول منها، ثم ذلك الاستفهام في بيتها الأخير، ولكليهما دلالاته النفسية على الرغبة في تحقيق أي خطوة في طريق تحرير القدس، ولا شك في أن دمشق كانت من أكثر الخطوات أهمية في ذلك.

وفضلاً عن ذلك كان الشعراء يفيدون من قدسية بيت المقدس عند الله، الأمر الذي يجعل الثواب أضعافًا مضاعفة بغير حساب، قال ابن عساكر مؤرخ دمشق الأكبر يمدح نور الدين، ويهنئه بضم مصر إلى ملكه عام ٥٦٤هـ(٢٧):

وإنْ بذلتَ لفتح القدس محتسباً
للأجرِ جُوزيتَ أجراً غيرَ مُحتسَبِ
والأجرُ في ذاك عند الله مُرتقَبٌ
فيما يثيب عليه خيرُ مُرتقَبِ
والذكر بالخير بين الناس تكسبُهُ
خيرٌ من الفضة البيضاء والذهبِ

ثم طالبه في ختام قصيدته بتحرير القدس، ليظفر برضا الله تعالى ثم رضا الناس، قال:

فطهِّرِ المسجدَ الأقصى وحَوْزَتَهُ
من النجاسات والإشراك والصلبِ
عساك تظفرُ في الدنيا بحُسنِ ثنًا
وفي القيامة تلقى خيرَ مُنقلَبِ

وفضلاً عما تقدم من ذكر للقدس وتحريره نجد أن شابًا دمشقيًا من العامة - غفل التاريخ عن ذكر اسمه - كان أسيرًا في سجون الفرنجة بالقدس بثّ الحياة في بيت المقدس، وشخّصه وجعل منه إنسانًا شاعرًا، استصرخ صلاح الدين الأيوبي، لينجده وينصفه ويرفع عنه ما حاق به من ظلم، إذ إن جميع المساجد قد طُهِّرتْ ما عداه، فقال(٢٨):

يـا أيـهـا الملـكُ الـذي
لمعالم الصلبان نكّس
جـاءت إليك ظُلامةٌ
تسعى من البيت المقدس
كـلُّ المساجد طُهِّرتْ
وأنا على شرفي مُنَجَّس

ومثلما كان الشعر مواكبًا لجميع الخطوات المؤدية إلى بيت المقدس، يدفع إليها، ويغتنمها، ويستلهمها، ويدفع بها ومنها الأبطال إلى الوصول إلى الهدف المنشود، إلى مدينة السلام، ليعاد إليها السلام الذي افتقدته يوم احتلها الغزاة المتوحشون الحاملون لأحقادهم وأطماعهم، الآتون من الغرب الأوروبي البعيد، نقول: مثلما كان الشعر مواكبًا لكل ذلك، كان حاضراً مع الناصر صلاح الدين الأيوبي وجيشه المتسلح بالإيمان والشجاعة والعُدّة أمام أسوار القدس، فقد نضجت الثمرة وحان قطافها، وها هو ذا صاحبها، وهؤلاء جنده جند السماء، وهو وهم أفضل الناس جميعًا، قال العماد الأصفهاني، وذلك بعد الفتح[٢٩]:

رأيتُ صلاحَ الدين أشرفَ من غدا
وأفضل من أضحى وأكرم من أمسى
جنودُكَ أملاكُ السماء وظنُّهُمْ
عُداتُكَ جِنُّ الأرض في الفتك لا الإنسا

فلا يستحقُّ القدسَ غيرُكَ في الورى
فأنت الذي من دونهم فتحَ القدسا
ومن قبل فتح القدس كنتَ مُقدَّسًا
فلا عَدِمتْ أخلاقُكَ الطهرَ والقدسا
نزعتَ لباس الكفر عن قُدس أرضها
وألبستَها الدِّينَ الذي كشفَ اللُّبسا

ومن البديهي أن يكون لفتح بيت المقدس ولمحرره ولجنده النصيب الأوفر والأوفى من الشعر والشعراء، فهو الحلم الذي طال انتظاره إحدى وتسعين سنة من السنوات العجاف الملأى بالجهاد كرًّا وفرًّا وصبراً وبطولات، ففتّق القرائح وألان القوافي وأطال القصائد، فأنشد الشعراء القصائد الكثيرة صادقة طويلة مجلجلة، ولم يمنع من لم يستطع الوصول من الشعراء أن يرسلوا قصائدهم من الآفاق لتنشد أمام صلاح الدين، فلا عبرة بالأشباح وبُعدها، إذا كانت الأرواحُ قريبة ظمأى، وهي حقًّا قريبة قريبة جداً مهما بعدت المسافات، وهي ظمأى من أكثر من تسعين سنة تريد الرِّيَّ، ووجدته في القدس المحررة، وفي المسجد الأقصى المبارك، وفي مسجد صخرة معراج الرسول الأعظم، وفي كَفَّيْ صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى - كما وصفه البير شاندور المؤرخ الفرنسي المعاصر في كتابه العظيم

المنصف، وجعل هذا الوصف عنوانًا لهذا الكتاب[30].

وبعد فتح القدس جلس السلطان للتهنئة على هيئة التواضع وهيبة الوقار، ووجهه بنور البشر سافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وهابته تروع، وأخلاقه تضوع و... والقرّاء يقرؤون ويرشدون، والشعراء يُنشدون وينشدون[31].

ومن هؤلاء الشعراء الذين تحدثوا عن الفتح الأعظم أبو علي الحسن بن علي الجويني، قال[32]:

هذي الفتوحُ فتوحُ الأنبياء وما
لها سوى الشُكر بالأفعال أثمانُ
أضحتْ ملوكُ الفرنجِ الصُيْدُ في يده
صَيْدًا وما ضعفوا يومًا وما هانوا
تسعون عاماً بلادُ الله تصرخ والـ
إسـلامُ أنصَّارُهُ صُمٌّ وعُميانُ
فالآن لبّى صلاحُ الدّين دعوتهم
بأمرِ مَنْ هو للمعوان معوان
للنّاصرادُّخرت هذي الفتوحُ وما
سَمَتْ لها هِمَمُ الأملاك مُذْ كانوا
حَبَاهُ ذو العرش بالنّصر العزيز فقا
لَ النّاسُ داودُ هذا أم سليمان
لوأنّ ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزّلتْ فيه آياتٌ وقرآنُ
فالله يُبقيك للإسلام تحرسه
من أن يضام ويُلفى وهو خيرانُ
إذا طوى اللّه ديوانَ العباد فما
يُطوى لأجرصلاح الدين ديوانُ

ومن الشعراء أيضًا ابن جُبير الأندلسي، ومما قاله في هذه المناسبة العظمى[33]:

فتحتَ المُقدَّسَ من أرضه
فعادت إلى وصفها الطاهرِ
وجئتَ إلى قُدْسِه المُرتضى
فخلَّصتَهُ من يد الكافرِ
لكُمْ ذَخَرَ اللّه هذي الفتوحَ
من الزمنِ الأوّلِ الغابرِ
وخصَّكَ من بعد فاروقِه
بها لاصطناعك في الآخرِ
فكم لك بالشرق من حامدٍ
وكم لك بالغرب من شاكرِ

ومثلما ذكر الشاعر السابق ابنُ جبير عمرَ بن الخطاب مع صلاح الدين في هذا المقام، لأنهما كليهما قد شرفهما الله تعالى بفتح القدس، ذَكَرَ أيضًا الجَوَّانيُّ الحسيني محمد بن سعد نقيب الأشراف بالديار المصرية عمرَ بن الخطاب وشبَّهَ صلاحَ الدين به، وفي هذا تشريف لصلاح الدين وربطٌ واعٍ مستنير لحاضر الأمة بماضيها التليد، فقال من قصيدة له[34]:

أتُــرَى منامًا ما بعيني أُبصِرُ
القدسُ تُفتَحُ والفرنجةُ تُكسرُ
ومليكُهم في القيد مصفودٌ ولم
يُــرَ قبلَ ذا لهمُ مليكٌ يُؤسرُ
فُتِحَ الشآمُ وطُهِّرَ القدسُ الذي
هو في القيامة للأنام المحشرُ
يا يوسفُ الصِّدّيقُ أنتَ لفتحها
فاروقُها عُمَرُ الإمامُ الأطهرُ

وكذلك فعل ابن الساعاتي أيضًا، فذكر عمر بن الخطاب، ولكن بعدما ذكر الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكيف أن هذا الفتح قد سُرَّ به الرسول (ص)، فقال من قصيدة[٣٥]:

وقدساغَ فتحُ القدسِ في كلِّ منطقٍ
وشاع إلى أنْ أسمعَ الأسلَ الصُّمّا
حَبَا مكَّةَ الحُسنى وثنّى بيثربٍ
وأطربَ ذيّاك الضريحَ وما ضمّا
فليتَ فتى الخطّابِ شاهدَ فتحَها
فيشهد أنَّ السيفَ من يوسفٍ أضمى

ومــن الشعراء أيضًــا الرشيد بن بدر النابلسي الذي هنّأ صــلاح الدين بقصيدة طويلة – شأنه في ذلك شأن الآخرين – جعل هذا الفتح أعظم الفتوح طُرًّا، ووصف حالة الفرنج بعده، فقد صيّرهم قصةً من قصص الماضي البائدة، منها[٣٦]:

بمثل ذا الفتح لا واللّه ما حُكِيتْ
في سالف الدهر أخبارٌ ولا سِيَرُ
اللّهُ أكبــرُ صــوتٌ تقشعرُّ له
شُمُّ الذُّرى وتكاد الأرضُ تنفطرُ
أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظةً
فيها لأعدائكَ الآياتُ والنُّذُرُ

وابــن المُجاور الذي مــدح صلاح الدين بقصيدة، منها[٣٧]:

مَـلِـكٌ إذا أمَّ الملوكُ جنابَهُ
لاذوا بأكرم مَـنْ يُـؤَمُّ وأشرفُ

وثمة شعراء كثيرون جدًا، وقصائد طويلة كثيرة جدًا، من جميع بلاد العروبة والإسلام، الأمــر الذي يــدل علــى أن الفرحة كانت واحــدة عامة شاملة، كمــا كان الهمُّ واحدًا عامًا شامــلاً، وقد أشار إلى ذلك أبو شامة في قولــه: وكَثُرَ مدحُ الفضلاء السلطان عند فتح القدس، كما ذكر العماد الأصفهاني في نهايــة كتابه (البرق)[٣٨] جملة منها[٣٩]، وقد ضمّنها كتب التاريخ بين جوانحها، وجمعها بعض المحدثين في كتب مستقلة، حاولتْ أن تكون سجــلاً ذا أهمية معرفية في تأريخ ما لم يستطــع التاريخ النهوض بــه من تصوير منازع الأمة ورصد ضميرها ومشاعرها[٤٠]، وأن تعبر عن الفرحــة العظمى بهذا الفتح العظيم، كما حاولــت أيضًا أن توفّي صلاح

الدين ورجالاته بعض حقهم، فإن لم ترقَ إلى مستوى قصائد أبي تمام والمتنبي وأمثالهما من حيث الجـودة والإبداع فلـمْ تَقِلَّ عنها – إن لم نقـل: قد تفوقـت عليها – من حيث صـدق العاطفة وحرارتهـا وجَيَشانها. ومع ذلك فقد كانت بحقٍّ أفضل قصائد عصرها قاطبة من حيث المضمون والشكل.

وبعـد، وإن استعيـدت القدس فإن حـروب الفرنجة لم تنتهِ جميع فصولها بعد، وإن انتهى أهمها، لأنه كان لها ذيول وفصول أخرى، نرجو أن يكون لها حديث آخر.

أهم المصادر والمراجع

- أصداء حطين وصلاح الدين في الشعر العربي. عمر الدقاق. اتحاد الكتاب. دمشق ١٩٩٢.
- الأنس الجليل. العُليمي المقدسي. مكتبة المحتسب. عمان١٩٧٣.
- البداية والنهاية. ابن كثير.ت: أبو ملحم ورفاقه. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٥.
- خريدة القصر.العماد الأصبهاني. ت: شكري فيصل.مجمع اللغة العربية. دمشق ١٩٥٥.
- ديوان طلائع بن رزّيك. جمعه أحمد بدوي.نهضة مصر ١٩٥٨.
- الروضتين. أبو شامة.ت: إبراهيم الزيبق. الرسالة.بيروت ١٩٧٧.
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب. الحنبلي. ت: ناظم رشيد. وزارة الثقافة. بغداد ١٩٧٨.
- صحيح مسلم. دار الجيل ودار الآفاق الجديدة. بيروت.
- الفتح القسي في الفتح القدسي. العماد الأصبهاني.ت: محمد محمود صبيح. الدار القومية. القاهرة ١٩٦٥.
- مفرج الكروب. ابن واصل الحموي.ت: جمال الدين الشيال. مطبعة الجامعة. القاهرة ١٩٥٣.
- من معارك الجهاد في الإسلام. شاكر مصطفى.دار طلاس. دمشق ١٩٩٦.
- النجوم الزاهرة. ابن تغري بردي.وزارة الثقافة. مصر ١٩٦٣.
- الكامل في التاريخ. ابن الأثير.ت: خيري سعيد. المكتبة التوفيقية. مصر بلا تاريخ.

الهوامش:

١- صحيح مسلم ١٢٦/٤.

٢- من معارك الجهاد في الإسلام لشاكر مصطفى ٢٠٠.

٣- البداية والنهاية ١٢/ ١٦٧والنجوم الزاهرة ١٥٠/٥.

٤- النجوم الزاهرة ١٥١/٥.

٥- الحركة الصليبية ٨٠٦/٢.

٦- الروضتين ٧٥/٢.

٧- أفدنا في ما تقدم من عدد من المصادر. منها مفرج الكروب والروضتين والفتح القسي والبداية والنهاية والكامل والنجوم الزاهرة.

٨- تاريخ الحروب الصليبية ٢/ ٢٩٠ و ٧٥٢ و ٧٥٣.

٩- الروضتين ٤٦/١.

١٠-خريدة القصر. قسم شعراء الشام ١١٠/١ .

١١-الروضتين ٧٠/١.

١٢-مفرج الكروب١٢١/١.

١٣-الكامل١٢٥/١٠.

١٤-الروضتين ٤٥١/٢.

١٥-الروضتين ٨٠/٢.

١٦-الروضتين ٦٦/٢.

١٧-خريدة القصر. شعراء الشام ٢٣٥/١.

١٨-الروضتين ٣٠٥/٣-٣٠٦.

١٩-الروضتين ٣٦٨/٢-٣٧٠.

٢٠-ثبير جبل عظيم في مكة المكرمة. معجم البلدان ٧٣/٢.

٢١-الروضتين ١٧٩/١.

٢٢-الروضتين ٣٣/٢ والكامل ٣٢٩/١١.

٢٣-ديوان طلائع بن رزيك ٨١.

٢٤-الروضتين ٢٠٢/١-٢٠٣.

٢٥-أي أتباع عيسى على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه عوضًا منه.

٢٦-الروضتين ٢٦٣/١.

٢٧-خريدة القصر. شعراء الشام ٢٧٧/١.

٢٨-الأنس الجليل ٣١٨/١-٣١٩.

٢٩-شفاء القلوب١٥٠.
٣٠-طبع في دار طلاس في دمشق عام ١٩٩٣.
٣١-الفتح القسي ١٣٠.
٣٢-الروضتين ٣/٣٦٩-٣٧٠.
٣٣-الروضتين ٣/٣٧٢-٣٧٣ .
٣٤-الروضتين ٣/٣٧١.
٣٥-الروضتين ٣/ ٣٧٣.
٣٦-الروضتين ٣/٤٠٩.
٣٧-الروضتين ٣/٣٦٦
٣٨-اسمه البرق الشامي، طبع بتحقيق فالح حسين في مؤسسة عبد الحميد شومان، الأردن ١٩٨٧.
٣٩-الروضتين ٣/ ٣٦٤.
٤٠-أصداء حطين وصلاح الدين في الشعر العربي ٩١.

الدراسات والبحوث

من أعلام القدس
الدكتور إسحق موسى الحسيني
١٩٠٥م - حوالي ١٩٩١؟

د.عبد الكريم الأشتر*

-١-

كان معهد الدراسات العربية العليا (معهد البحوث والدراسات العربية اليوم)(*) الذي انتسبتُ إليه في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي يشغل بناءً عريقاً في حي من أحياء القاهرة، سكنه، على ما يبدو، بعض رجال الاحتلال الانجليزي يُعرف بحي (جاردن سيتي) على مقربة من مشفى (قصر العيني)[١] الذي يعود بشهرته، في ميدان الطب، إلى أيام محمد علي.

* أديب وناقد وأستاذ جامعي سوري.

وقد أنشأ المعهد الأستاذ ساطع الحصري، فأنشأ إضافة إلى غرف البناء قاعة كبيرة في الحديقة، جعلها مدرّج المعهد الكبير ليسع طلبة المعهد، في فروع الدراسة كلها.

«ما أزال إلى اليوم، بعد أكثر من نصف قرن، أتمثّل أرى الأستاذ الحصري، الطاعن في السن، وقد بسط على الحائط، من وراء المنبر، خريطة كبيرة للعالم العربي، ووقف، وبيده قضيب قصير، يشير إلى المواطن التي يتناولها الدرس، لا يعوقه عن الحركة شيء، مأخوذ بفكرته وبما يدعو إليه الطلبة المجتمعين في درسه، في قاعة المعهد الكبيرة.

على أنه كان، حينذاك، تخلّى عن إدارة المعهد إلى مؤرخ مصر الكبير الأستاذ محمد شفيق غربال، المغربي الأصل، من تونس. وكان هذا الأستاذ يخطو بيننا في هدوء وجلال وسعة في الفكر، يقرر في درسه أن السياسة الخارجية في كل بلد، ترسمها حقائق تكوينه الإنساني، التاريخي والجغرافي، فإذا حادتْ عنها رجَعتْ إليها، آخر الأمر.

وكان قسم البحوث والدراسات الأدبية والنقدية الذي انتسبتُ إليه، يرأسه ويدير شؤونه الدكتور إسحق موسى الحسيني، صاحب «مذكرات دجاجة» التي نشرتها دار المعارف في سلسلة (إقرأ)[٢]، واكتسبت شهرة واسعة، وقرأها له أناس كثيرون منا. وكنا نعرف أنه من فلسطين، ومن إحدى أسرها العريقة في بيت المقدس، ونعرف أنها قادت فيها حركة النضال ضد الحركة الصهيونية. وكان بعضنا لا يخفي اطلاعه على ما كان يطفو على سطح الأحداث فيها، من نزاع آل الحسيني وآل النشاشيبي، في بعض مراحل النضال وزعامته السياسية.

كان الدكتور الحسيني دقيق السمات، نبيل الطلعة، ربع القامة، أنيس الخطو، جميل الحضور، تولى تدريس الأدب في عصر النهضة الحديثة، في المرحلة الأولى من عمله في المعهد، مع إجمالٍ لأهم خصائص الأدب في الفكر الحديث، وعرْضٍ لأهم خصائص الفنون الأدبية. ووقف، من بعد، على أديبين ومفكرين كبيرين معاصرين فلسطينيين من القدس هما: خليل السكاكيني، وإسعاف النشاشيبي[٣].

وبدا منذ ساعاته الأولى حريصاً على رد قولة المستشرق (جب) التي رددها بعض مؤلفينا وكتّابنا، عن أثر غزوة نابوليون مصر (١٨٩٧) في هتك حجاب الجمود الذي فصل

العالَم العربي عن الحياة الأوروبية الحديثة، وأخرجها من حياة القرون الوسطى، وهيأها لدخول عصر النهضة، بتأثير أوروبة على نظمها الاجتماعية والسياسية.

وكان ردّه، يومذاك، يقوم على كلام الأستاذ ساطع الحصري[4]، في الردّ على هذا الزعم، وتفنيد حججه، والوقوف على غاية الحملة الاستعمارية، وإثباتها عن طريق تقارير نابوليون نفسه، عن «امتلاك مصر إلى الأبد»، وتقارير الجبرتي عن تعذيب المصريين على أيديهم بعد أن تحطم الأسطول الفرنسي في (أبي قير). وانتهى إلى القول: إنّ القائلين بتأثير هذه الحملة في النهضة، يشبهون من يقول: «إن صياح الديك هو السبب الموجب لشروق الشمس»!

وانتهى الدكتور إسحق موسى الحسيني، في محاضراته، بعدها، إلى العوامل التي صانت الأدب العربي في عصور الانحطاط، ومنها تفتّح البذور التي أُلقيت في عهد المماليك، في العصر التركي، وانحسار حكم الأعاجم عن بعض البلاد العربية، وأثر الإسلام والقرآن الكريم في حفظ اللغة العربية، وقوة التراث العربي الذي أثر في الفاتحين، وغلبهم على أنفسهم.

وعرض الحسيني بعدها للعوامل الفعالة في تجديد الأدب العربي: طاقته الفنية القوية، واستجابته لعوامل الحياة الحديثة، وحركة النهضة في عهد إسماعيل، وإرسال البعثات، واستقدام الخبراء، وتنشيط حركة الترجمة، وإنشاء مدرسة الألسن والمدارس الأجنبية، إلى جانب انطلاق حركة الطباعة، وإنشاء الصحف والجمعيات والأندية والجامعات، إضافة إلى اليقظة القومية، وتطور أجهزة الإيصال.

ووقف على المسالك والمناهج التي اتُبعت في دراسة الأدب الحديث، مثل المنهج الفكري في دراسة الاتجاهات، والمنهج التاريخي في دراسة مظاهر التطور عبر المراحل التاريخية، ووصّل هذه المناهج بالكتب التي اتبعتها: مثل «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث» لأنيس المقدسي و«تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجي زيدان، ولم يغفل عن نقد مسلك الأب لويس شيخو اليسوعي، في كتابه «شعراء النصرانية» لميله عن استقامة المنهج. واستمر في عرض اختلاف الأدباء حول تحديد المراحل التاريخية، ورجالها، وتفصيل خصائصها، في مصر وسورية ولبنان خاصة. وسمّى الصحف

والمجـلات التـي أنشئت فيهـا، ونصَّ على ظهـور بعض الفنون الأدبيـة الحديثة التي رافقت إنشاءها، وسمَّى بعض أعلام رجالها ومؤسسيها على اختلاف مناهجهم، وتعاقب الأدوار التاريخية التي عملوا فيها.

ووقـف على الفنون الأدبيـة، فدعا إلى كتابـة فهارس شاملـة بيوغرافية لما صدر، مـن الكتـب، في كل فن أدبـي، في الأقطار العربية، قطراً قطراً. ونبَّه إلى ضرورة قراءة مقدمات هذه الأعمـال لتبين مفهوم هذه الفنـون عندهم، وما كتبـه الغربيون فيها، لتحديـد مدى التأثر بآدابهـم التي سبقونا إليهـا. وعدَّد فنون الأدب شعـراً ونثراً مثل «الملحمـة»، و«القصيدة» وأحوالها، وما طرأ على صورتها ومضمونها، وأوصى بالاطلاع على المناهج الغربية في النقد الأدبي. وأفرد أدب المهجر بالدرس، واستخلص خصائصه الشعرية الفريدة.

ولحظ تأثر بعض أدباء المرحلة الأخيرة بالغـرب تأثـراً بالغاً خرج بهـم عن حدود الاحتفـاظ بالأصالـة، على حـين أساغه بعضهم إساغة قرَّبتهم منها.

ثـم إنـه جمع بعضـ تفصيـلات هذه الموضوعات في كتابٍ صغير، طبعه في المعهد، بعد سنـوات (١٩٦٣)، سمَّـاه «المدخل إلى الأدب العربي المعاصر».

والذي ننتهي إليه هنا: هو قدرة الدكتور الحسينـي الملحوظـة على الجمـع والفرز والتقسيـم، في كل مادة أقبـل على درسها. وإني لأنظـر اليوم في بعضـ دفاتري التي كتبتُها، وأنـا أستمع إليه في محاضراته التي ألقاهـا علينا، فتتوزَّعنـي خواطر أعيا في لمِّهـا، ويدركني عندهـا إحساس عميق بما صرف صاحبها، من وقتٍ وجُهد، في جمعها وحصرهـا والتنسيق بينها، وبما حمَّل نفسه من ثقل التبعات عنـد مَن وقف نفسه على تخريج الأجيال الجديدة التي كان يرجو أن تحمل الرسالة، من رجـال الفكر والبحث، في تلـك المرحلة الصعبة التـي أدركتُ، بعد انضمامـي إليه، في العمل، في القسم، مدى مرارة ما كان يضع فيها من نفسه، بعد ضياع الوطـن والبيت، وذهـاب النفس معهما إلى حيث تضيع معاني الحياة والموت جميعاً.

٢.

وإلى جانب هذا الذي أجملتُ الكلام عليه، أقام درسَه على التطبيق أيضاً، فتناول معنا بعض نصوص الشعر الحديث لأعلام شعراء

تلك المرحلة التي كنا فيها، من المعاصرين، مضموناً وصورةً، يريد أن يستطلع معنا اتجاهات هذا الشعر. وقد لاحظ حاجتنا إلى معرفة بعض شعراء الأقطار العربية، من غير مصر وسورية ولبنان والعراق: في الجزيرة العربية مثلاً، وفي اليمن، والبحرين والكويت، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وأقطار إفريقية العربية. ولاحظ أن دراستنا لبعض النصوص، من شعر هؤلاء الشعراء، وسيلة من وسائل تحقيق الصلة بين شعراء العالم العربي، من المُحدَثين.

وكان يتولى، معنا، نقد بعض هذه النصوص، على نحو ما فعل في دراسة قصيدة بشارة الخوري (الأخطل الصغير) التي سمّاها «جهاد فلسطين»، ونظمها سنة (١٩٣٥ - ١٩٣٦)، وألقاها في حمص، في حفلة أقيمت فيها، في أعقاب قيام الثورة الفلسطينية (١٩٣٥ - ١٩٤٠)، وحاولت حكومة الاحتلال الفرنسي يومها، منع إقامة الحفل، فنُشرت القصيدة في بيروت.

وقد رأى الدكتور الحسيني أن قارئ هذا النص قلما يحظى بأفكار واضحة ومعانٍ مجردة، وقال: إن العرب اعتادوا قراءة الشعر دون التمعن في معانيه، لهذا كان الشعر العربي غنائياً في أغلبه، يفتقر إلى التأمل العميق. على أن معظم الشعر العربي الحديث، في رأيه، شعر سطحي، لأن أصحابه لم ينصرفوا إلى تثقيف أنفسهم، باستثناء شعراء المهجر.

ثم إن الشاعر (الأخطل الصغير) لم يحفل بالعنصر الإنساني في جهاد الفلسطينيين، إلى جانب العنصر القومي، وكان يلزمه أن يثير في القارئ العربي غيرته، بصفته إنساناً، إلى جانب صفته القومية العربية، عدا عن تأثير النص حينئذٍ، حين يُترجَم إلى لغاتٍ أخرى، في القراء من غير العرب.

وكان عليه أيضاً، في رأيه، أن يثير في المسيحيين العرب غَيْرتهم، ويعني معنى افتقادهم غيرة المسيحيين في الغرب. كان عليه إذن أن يوفر في النص العنصر الإنساني واللغوي والديني جميعاً.

هذا مثلٌ من درسِهِ بعض النصوص الشعرية، ينطبق على نصوص أخرى للشاعر نفسه، مثل رثائه الملك فيصل، فقد أهمل فيه عنصر المضمون Le continent واهتم بالشكل La forme، فاضطر أن ينفخ فيه حتى يتسع. على أن أجمل ما فيه عنصر التصوير،

فصوره برغم تفككها، مثيرة، ولغته تطاوعه في تناولها.

وكان الدكتور الحسيني يقدم لدرس هذه النصوص بأسطر قليلة تضم بعض المعلومات عن حياة الشاعر، يستعين، من بعد، في أحكامه الفنية، بالرجوع إليها، على نحو ما لاحظنا في درس بعض نصوص إبراهيم طوقان، مثل نص (الفدائي) ونص (الشهيد)، إذ كانت الصور فيها قوية منتزعة من البيئة. والموضوع موحّد لم يُسبق إليه. هذا فضلاً عن حساسية اللغة التي رجع فيها إلى معاناة الشاعر الطويلة من المرض (القرحة)(٥) وأحوال النضال القومي في فلسطين من حوله، وبُعدِه معها، بُعداً تاماً، عن نزعة التكلف

وانتهى إلى ميخائيل نعيمة وتجديده في مضامين شعره، وبعده عن استغلال المناسبات فيه وإحاطته بالصور، وربطه بين العالم الخارجي من حوله، وعالمه الداخلي. وجعل من قصيدته (الطمأنينة) مثلَه في درسه:

سقفُ بيتي حديدْ
ركنُ بيتي حجرْ
فاعصفي يا رياحْ
وانتحبْ يا شجرْ

وعلى هذا النحو أيضاً تناول بالدرس موضوعين آخرين: «النقد الأدبي المعاصر» و «الأدب والقومية العربية».

ففي الموضوع الأول تتبع الرعيل الأول من هؤلاء النقاد، والعوامل التي دعتهم إلى إعادة النظر في القيم الأدبية المألوفة. وعرض للنظريات التي أتَوا بها، وحللها وردَّها إلى أصولها، وبيَّن أثر النقد في الأدب المعاصر، وألمَّ بأهم آثاره وأشهر أعلامه.

وعدَّ هذا البحث جزءاً من دراسة الأدب الحديث. وهو الموضوع الأول الذي حمَّل نفسه تبعة درسه، فضلاً على أن دراسة النقد الحديث تتيح التعرف إلى أهم كتبه، وتصنيفها حسب ظهورها، ليبدو التطورُ التاريخي فيها.

وعلى هذا النسق تمَّ الرجوع إلى أثر مدرسة الإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي واللغوي، التي قادها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وأثرها في الأدب العربي الحديث، وعرض بعدها لكتاب روحي الخالدي «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب» و«مقدمة الإلياذة» لسليمان البستاني الذي تصدى لترجمة إلياذة هوميروس شعراً، وكتاب «منهل الورّاد

في علم الانتقاد» لقسطاكي الحمصي. وخرج بعدها إلى كتاب «الديوان» الذي أصدره العقاد والمازني، و «الغربال» لميخائيل نعيمة، و «ثورة الأدب» لمحمد حسين هيكل.

ورأى أن تناول هذا الموضوع، على النحو الذي اختاره، يكفي في تبيّن أثر النقد العربي الحديث في الحركة الفكرية الأدبية، في المجتمعات العربية قاطبة، فاستغنى بهذا عن كتابة خاتمة للكتاب الصغير الذي طبعه له المعهد سنة ١٩٦٧ بهذا العنوان.

أما الموضوع الثاني «الأدب والقومية العربية» الذي تناوله أيضاً في صورة المحاضرات التي ألقاها على طلبة المعهد، في أقسامه كلها، قبل أن يجمعها في كتاب طبعه له المعهد أيضاً سنة ١٩٦٦، وعدّ إلقاءها على الطلبة «بقصد تثقيفهم ثقافة أدبية عامة» يقضي بها وجوب «اطلاعهم على ما ينبغي أن يطلع عليه كل مثقف في شؤون الأدب واللغة».

وقد دعا الطلبةَ في مقدمة الكتاب إلى توسيع اطلاعهم على ما نُشر من البحوث في موضوعه، وترديد النظر فيه وألا يكتفوا بما سمعوه من محاضراته عنه، أو بما يقرؤونه في الكتاب المطبوع.

وأعتقد أن مثل هذه الإشارة تفي باستكمال صورته التي طلع بها على طلبة المعهد، صورة المربي الواسع الاطلاع على حقيقة ما يقع في ميدان التربية والتعليم من قصور في المجتمع العربي كله، متمثلاً في الوقوف عند حد الحفظ والترديد، والعجز عن تجاوزهما إلى حدود الفحص والمساءلة، وتكوين الرأي الذاتي الخاص.

وتدور هذه المحاضرات المنشورة التي تلمّ بأحوال العالم العربي، وتقف على نواحي القوة والضعف فيه، وما تقتضي معرفتنا بها من العمل على «تأدية واجبنا نحوه»، وحث الطلبة على الرجوع إلى كتب الأستاذ ساطع الحصري، وقسطنطين زريق، وعبد الرحمن البزاز، والأمير مصطفى الشهابي، للنهوض برسالة المعهد القومية: «أن يكونوا دعاة القومية العربية في مختلف بلدانهم».

ولهذا تمت مراجعة الصلة بين الأدب والقومية العربية. ودور اللغة في صونها وتقويتها. وما تعاني الأمة العربية اليوم من غلبة المحكيّات العربية المفرّقة وصراعها مع الفصيحة الجامعة. على أن لهذه القضية وجوهاً مختلفة عرضنا لها في مواضع أخرى[٦].

وفي قضايا الصلة بين اللغة العربية وتقوية الانتساب إلى الأمة التي تتكلمها، قضية استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، وقضية المصطلح، وقضية شيوع الأمية في الأساس، والشكاة من التزام الحركات الإعرابية، ومثبّطات تيسير اللغة في الإجمال.

.٣.

تمت مناقشة رسالتي لنيل درجة الماجستير، من المعهد، أواخر سنة ١٩٦٠، واخترت الدكتور محمد مندور، للإشراف عليها، فوافقت إدارة المعهد على اختياري. وحضر الأستاذ محمد شفيق غربال، مدير المعهد، جلسة المناقشة. ثم استدعاني إليه بعدها، وعرض عليّ أن أبقى في المعهد، ويُجدَّد إيفادي إليه، لتحضير رسالتي لنيل درجة الدكتوراه. واستُحدثت في المعهد وظيفة جديدة باسم «المعيد» على أن يكلّف هذا المعيد بإلقاء محاضرات فيه.

كانت الغرفة التي خُصصت لي، مجاورة لغرفة رئيس قسم الدراسات الأدبية والنقدية، لصلتي فيه بدراسات المحاضرين في المعهد. هيأتُ نفسي للعمل برئاسة الدكتور إسحق موسى الحسيني. وأحببتُ أن تتمّ موافقته على موضوع المحاضرات التي ألقيها، فترك لي حق الاختيار، ولكنه نصح بأن تكون محاضراتي الأولى في موضوع «النثر المهجري» الذي نلتُ فيه شهادة الماجستير.

ثم لم أره بعدها يسألني عن المحاضرات، وأحسست برغبته في أن يراني دائماً صاحب الحق في اختيار ما أختاره لنفسي. صورة نادرة للمربين ما كنتُ أنتظر أن أرى مثلها في مؤسساتنا الثقافية.

وكان، في بعض الأيام، يصطحبني في طريقه إلى محطة المواصلات التي كان يستقل إحدى عرباتها إلى بيته في «مصر الجديدة». فنقطع معاً الطريق إليها من «جاردن سيتي»، ونخرج من محيط المعهد إلى رحاب الصلة الإنسانية الطلقة التي تنتفي عندها رسوم العمل فيه. وكان يحدثني في هذا الطريق أحياناً، عن حياته في فلسطين وبيته(٧) الذي خلّفه فيها، في القدس، بعد احتلالها، ومكتبته الضخمة التي ضُمّت بعد رحيله إلى مكتبة الجامعة العبرية. وكان حين يذكرها، يذكر معها ما انتهت إليه كتب أسامة بن منقذ فارس حروب الإفرنج «الحروب الصليبية» الذي سطا الإفرنج

في البحر على كتبه «أربعة آلاف مجلّد من الكتب الفاخرة» وخلّفوا في نفسه، كما يقول في كتابه «الاعتبار»[8]: «حزازةً صَحِبَتْهُ إلى آخر العمر».

وما أدري كيف انعطف بنا الحديث يوماً، فقال في أسىً: «لم أكن أريد الرحيل أبداً، ولكن بعض اليهود الشرقيين كانوا يهتفون إليّ، ويختارون، في خطابي، أحط صياغات العربية الدارجة: إرحل فنحن قادمون إليك، نريد.. زوجك وابنتك. فركبني الخوف ولم يبق أمامي إلا طريق الرحيل».

أذكر أني عندما انعطفتُ به إلى مشهد رأيناه في الطريق، فقد أحسستُ أنه يتفطّر، وإن حرص على أن يُظهر التماسك!

كان حنينه إلى القدس يملك عليه نفسه، ويتمنى لو يعود إليها ليُمضي ما تبقى من حياته فيها. وقد عاش عمراً مديداً قارب فيه التسعين (ت ١٩٩١م). وسمعتُ منه أنه كان صبياً يقف في جانب الطريق التي مرَّ منها الجنرال الإنجليزي (اللنبي) حين دخل القدس، في نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٧)[9].

وفي هذه الطريق أيضاً نقل إليّ صورة حية من صور دراسته في جامعة كامبريدج: أمسك به أستاذ العبرية في الجامعة يوماً، وهو يعرف مكان أسرة الدكتور الحسيني في فلسطين، وكان من أحبار اليهود، فقال له: «إن علينا، نحن وأنتم، أن نتحد في مواجهة أكَلَة لحوم الخنازير».

على أني، في المعهد، ما أذكر يوماً دعاني فيه إليه، للنظر في أمر من أمور القسم مهما علا شأنه. كان إذا عرض ما يدعو إلى البحث فيه، يحمل أوراقه ويقرع عليَّ الباب، ويدخل، فيجر كرسياً إلى مكتبي، ويقعد إلى جانبي يبادلني الرأي. كنتُ أقول لنفسي عندها: ما أكرمَه! ما أجلَّه! ما أنبلَ الأصل الذي يعود إليه!

كان يصحبني في جولات طويلة، نزور فيها بعض أصدقائه من رجال الفكر الفلسطينيين. وزرنا يوماً المرحوم محمد علي الطاهر أعلم الناس بالخريطة العمرانية والبشرية لفلسطين، وكان يعمل في بحث صعب يتصل بأخبار اليهود في القرآن الكريم، فكان يريد أن يثبت أن القرآن، في آيات بعينها، حكى، من أخبارهم، ما يحكونه هم عن أنفسهم، ورأيتُ الدكتور الحسيني يتسع صدره للنقاش اتساعاً يحتكم فيه إلى العقل، وإلى واقع النصوص. وجلستُ أستمع

إلى النقاش وقد خلبني فيه هدوء الحسيني وحرارة روحه ووضوح عقله. وما تزال هذه المسألة إلى اليوم تثيرني ذكراها.

ثم أخذتُ أزوره في البيت أحياناً، فأجده على حال من أحـوال النفس التي تعصرها آلام الغربة والوحشة والضياع. زرته يوماً فرأيته يستعيد بعض صـور القضية، وكان وحيداً في البيت، فرفع يده يلوّح بها في معنى من معاني الصـبر والتصميم. ثم هدأ وهو يقـول: «ولكنَّ الأمر مهمـا طال، فمفتاحه، في النهايـة، في أيدينا، والتاريـخ يسير إلى جانبنا».

كان بالـغ الحساسية، يقرب فيها أحياناً من درجة التطيُّر، لما عاني وما كان يعاني من ضغط الاستقرار.

ثم إني أنهيتُ عملـي في المعهد، وعدتُ إلى دمشق. ولكني كنت أزور القاهرة، فأزوره وأستطلع رأيـه في بعض ما يسألني فيه من شـؤون الدرس والتدريس في جامعة دمشق. وأذكـر أني، وأنا أتناول بعضـ أدب النكبة بالدرس، طالعني موقف العرب من قضيتهم قبـل أن تقـع النكبـة بسنـوات قليلة، فما رأيته موقفاً يرقـى إلى الإحساس بخطرها العظيم الماثـل في حياتنا، منذ مطلع القرن العشرين.

وذكـرت فجأة كتـاب الدكتور الحسيني (مذكرات دَجاجة) وكنت قرأته سنة صدوره (١٩٤٣)، قبـل وقوع النكبـة بسنوات قليلة جداً، كانت نذرها مجتمعـة فيها، فأذهلني أن أجد كاتبها فـرَّغ فيها للتأمل في مسائل كثيرة[١٠] جعـل معها القضية الكبرى مسألة بـين المسائـل. وخيِّـل إليّ، وأنا أقـرأ هذه المذكـرات، أن الدكتـور الحسينـي اختار فيهـا حلاً وجدتُه عميق الدلالة، إذ تدخلت «الدجاجة الحكيمـة» في «مجلس الدجاج»، فدعت إلى أن تعلـو الحكمة فوق القوة، في الدفاع عن المـأوى الذي احتلته أسرة أخرى من الدجـاج غريبة عن أسرتها. وطلبت من أفـراد أسرتها أن يكونوا مـن دعاة «المحبة والعدل والمساواة».

وكنـت سنة (١٩٧١) في زيـارة للقاهرة، فلقيت الدكتور الحسيني فسألته رأيه آنذاك فيما دعـت إليه «دجاجتـه الحكيمة» وقد احتلت الأسـرة الغريبة مـأوى أسرتها كله، وطردت أكثر أهله، وتجاوزته إلى ديار أخرى! فرفع الدكتور الحسينـي يديه إلى أعلى ما وصلتا إليه، وقال وهـو ينتفض: «إني، وأنا أدون المذكـرات، لم تخطر لي القضية ببال، ولم أردّهـا فيما كتبته فيها». ثم سكت قليلاً

وقال بعدها: «علـى أني لا أعفي نفسي من اللوم. فمثل هذا الكلام يستدعي أن يُدرَس قبل أن يُكتبَ»[11].

كان عمق إيمانه بقضيته مثلاً يستحق أن يُضـرب للناس. وكان في سمو خُلُقه ووضوح رؤيتـه وانحيـازه، في أحكامـه، إلى العقل، رجلاً قلَّ شبيهه في الرجال.

الهوامش:

١- نسبة إلى أحد رجال المماليك كان يملك القصر، أو يقيم في مكانه.

٢- العـدد ٨ مـن السلسلـة. وقـد قـدَّم لها الدكتـور طه حسـين، فوقف طويـلاً عند دجاجـة الدكتور الحسيني، وسمَّاها باسم «دجاجة فلسطين».

٣- نُفردُهما بالكلام، من بعد، في عدد مفرد من (المعرفة).

٤- انظر كتابه: (آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع) ص ٥٠.

٥- من طبيب إلى طبيبٍ فقبحاً لحياة، على الأطباء وقْفُ

٦- انظر كتابنا «العربية في مواجهة المخاطر» المكتب الإسلامي ببيروت ٢٠٠٦.

٧- كان هـذا بيتـه الأول الذي بنـاه في القدس الجديدة. ثم إنه، وهـو في القاهرة، جمع ما يمكِنه من بنـاء بيت آخـر، في القدس القديمة، ليعود إليـه. ولكن الاحتـلال سطا عليه أيضـاً سنة (١٩٦٧) وتمكَّن الحسيني، في آخر الأمر، أن يسكن جانباً منه، بعد عودته إلى القدس.

٨- انظر كتاب «الاعتبار» من تحقيقنا وتقديمنا ص٩٦ (المكتب الإسلامي ببيروت ٢٠٠٦).

٩- أظن أنه ذكر يومها أن ميلاده كان سنة ١٩٠٥.

١٠- انظـر كتابنـا: «من أدب النكبة» المنشور ضمن كتابنـا «تعريف بالنثر العربي الحديث» ص ٣٦٨ - ٩ (مطبعة ابن حيان بدمشق ١٩٨٢).

الحواشي:

(×) سَهِـر، في أيامـه الأخيرة في القاهـرة، على إنشاء هيئة علمية للقدس، وضـع لها نظامها الأساسي، وجعـل من معهد البحـوث والدراسات العربية (١شارع الطلمبات بجـاردن سيتي - القاهرة) مقراً لهـا، وسلَّمنـي يومـذاك، في زيارتي للقاهرة (١٩٧١) نسخةً من نظامهـا الأساسي المطبوع في كرَّاسة صغيرة. وفيما يلي صورة لأهم بنوده، قدَّم لنا بهذه الكلمات:

«إنَّ مدينـة (بيـت المقدس) من أقدم مدن العالم، وأعظمها قدسيةً، وأغناها بالآثار الحضارية والدينية والمدنية، حتى ليصحُّ القول: إنها، بكاملها، متحف منقطع النظير.

وشاءت إرادة الله أن يخصَّ المدينة المقدسة بعنايته، فجاء إليها وانطلق منها ومما جاورها وسرى إليها، أنبيـاء ورسـل يدعون إلى الأخوَّة بين الناس، والمحبة والعدل والسلام، الأمر الذي يُلحَظ في اسمها الأقـدم «أورسـالم» واسمهـا الأحدث «بيت المقدس»، ومـا تخللهما من أسماءٍ وثيقـة الصلة بالسِّلم والقدسية.

وانساق الإنسان، بإرادة الله، فأقام فيها المعابد والكنائس والمساجد، يؤمُّها العابدون من شعوب الأرض، أقصاها وأدناها، حتى أضحت بحق «العاصمة الروحية» لمعظم سكان العالم.

وتفـنن المؤمنـون في التعبيـر عـن حبهم لهذه المدينـة، وتعلقهم بهـا، وتفانيهم في خدمتهـا، فزخرفوا وزينوا وجمَّلوا وأبدعوا ما شاء الله لهم أن يفعلوا، دون حسابٍ لجهدٍ أو مال. وحسبنا أن نشير هنا إلى مـا ذكـره المؤرخون من أنَّ الخليفة عبد الملك ابـن مروان أنفق على بناء قبة الصخرة وحدها، خـراج مصـر لسبع سنوات. ثمَّ تبارى الخلفاء والأمراء والحكام ورجال التقوى والصلاح، في إنشاء المعابـد والمساجد والمدارس والزوايا والتكايا والبيمارستانات والأديرة، حتى اجتمع في المدينة ما لم يجتمع في غيرها من آثارٍ فنية غايةٍ في الروعة والإتقان.

وهـذه القدسيـة، وهـذا البـذل، جعلا المدينـة المقدسة، طـوال التاريـخ الإسلامي، في وضـع خاص لا يبيـح لأحـد أن يستقلَّ بملكيتهـا، والاستئثار بمقدساتها، ناهيك عن سلـب كنوزها وتغيير معالمها التاريخية. وقد أجمع الرأي العام الدوري، متمثلاً في قرارات هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ومنشورات الهيئات الدينية والثقافية العليا، على وجوب احترام مشيئة الله تعالى المتجلّية في كل شبرٍ من أرض المدينة المقدسة وكل حجر من حجارتها، وكل ذرة من ترابها.

وقـد هـزَّ الاعتداء علـى المدينة الجديـدة، سنة ١٩٤٨، وعلـى المدينة القديمة ١٩٦٧، ومـا تلا ذلك من تصريحـاتٍ عدوانيـة عنصرية، الضميرَ الإنساني، ولاسيَّما علمـاء التاريخ والآثار، وخشُوا أن يكون ذلـك بدايـةً = = لحركة من التدمير والتخريب، تعود بالإنسان القَهقَرى، إلى زمنٍ بدائيّ كانت فيه القبائل تتناحر في سبيل أهواءٍ وأساطير ما أنزل الله بها من سلطان.

إنَّ الإنسـان تعلَّـم، علـى مرِّ الزمـن والمحن، أن مَن يدَّعـي أنَّه أقرب إلى الله من غيره هـو أبعد عنه من غـيره، وأن مَـن يدَّعـي أنه مثال الكمال الإنساني، هو أبعد عـن الكمال من غيره. ولقد انقضى زمن الشعوبية بجميع أشكالها، من عنصرية وفاشستية، إلى غير رجعة.

ومــن أجـل دعم هذه المُثل العليا التي تمسّكت بها أمتنا، بحكم عقيدتها، ومن أجل أن يسود السلام في «مدينـة السـلام»، ومــن أجل ردع مَن سوّلت له نفسُه الاعتداء على الآثـار الحضارية التي خلّفتها الأديـان السماويـة، تداعــى نفرٌ من علماء التاريـخ والآثار إلى تأليف هيئة علميـة تضطلع بهذه المسؤوليـة، تمتـد عضويتهـا حتى تشمل كلَّ عـالِم مؤمن بتحقيـق هذه الأهـداف، ارتبط بالمدينة المقدسة بسبب من الأسباب.

وقـد اجتمعـت الهيئة التأسيسيـة في مدينة القاهرة، صباح الأربعاء ٤ مـن ذي القعدة ١٣٩١هـ الموافق ٢٢ ديسمبر

(كانـون الأول) ١٩٧١م، وانتخبـتْ تسعة أعضـاء لمجلس إدارتها، ووضعتْ دستـوراً لعملها آزرتْه الهيئات المختصة:

١) دكتور أحمد صدقي الدجاني، أستاذ في التاريخ الحديث.

٢) دكتور إسحق موسى الحسيني، عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة.

٣) دكتـور باهـور لبيب، مدير المتحـف القبطي سابقاً، وعضو المجلس الأعلـى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية حالياً.

٤) دكتور حسن ظاظا، أستاذ كرسي العلوم اللغوية في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

٥) المهنـدس حسين شافعي محمـد صدقي، وكيل وزارة الإسكان سابقاً، والمستشار الفني لوزارة الإسكان والتشييد، وكبير المهندسين المعماريين للمكتب المعماري الهندسي لإصلاح وإعمار الصخرة المشرّفة والمسجد الأقصى المبارك.

٦) دكتـورة سعاد ماهـر، وكيلة معهد الآثار بجامعـة القاهرة، وأستاذة الآثـار الإسلامية بمعهد الآثار بجامعة القاهرة.

٧) دكتور عبد المنعم أبو بكر، عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً، وأستاذ الآثار المصرية بمعهد الآثار بجامعة القاهرة حالياً.

٨) السيـد محمـد شيـت خطـاب، عضو المجمـع العلمـي العراقـي، وعضو مجمـع اللغـة العربية في القاهرة.

٩) دكتـور ناصـر الديـن الأسد، رئيس الجامعـة الأردنية سابقـاً، والرئيس المساعـد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ويسعـد الهيئـة أن تقدّم نظامها الأساسي لمن يطلبه، وأن تستنفـر علماء التاريخ والآثار لمساعدتها في

أداء رسالتها على الوجه الأكمل.

النظام الأساسي لهيئة القدس العلمية

الباب الأول: كيان الهيئة وأغراضها وشعارها

مادة (١) تنشأ في القاهرة هيئة علمية ذات شخصية اعتبارية مستقلة باسم «هيئة القدس العلمية»، وتكون مدينة القاهرة مقراً لها.

مادة (٢) أغراض الهيئة:

- دراسة تاريخ مدينة القدس وآثارها دراسة علمية.
- العمل للمحافظة على الشخصية العربية للمدينة، وآثارها الحضارية والدينية التي هي جزء لا يتجزأ من التراث الإنساني.
- تتبُّع ما يُكتب عن المدينة، وجمعه، وبحثه، وتفنيد ما يخالف الحق والواقع منه.
- إعداد البحوث والكتب عن تراث المدينة، والتعريف به، باللغة العربية واللغات الأجنبية.
- إصدار نشرة دورية تتضمن أنباء المدينة.

١١-مادة (٣) شعار الهيئة: يكون شعار الهيئة صورة مصغَّرة لقبة الصخرة.

الدراسات والبحوث



مشاهد مقدسية

من القرن السابع الهجري

د. بغداد عبد المنعم *

كم ثمة حقائق مختبئة طوتها حكمةُ التاريخ ربما لتترك الحاضرَ في واقعيته ولحظته ومشكلته..!

غيرَ أنَّ ما يقدمهُ التاريخُ هذه المرة يصلح أن يشكل نقداً لواقعٍ وجغرافيةٍ جديدة نسبياً إذ إن ما يقدمه هو تاريخ لبلاد الشام في القرن السابع الهجري.. ففي هذا الجزء المهم والنادر من كتاب الأعلاق الخطيرة يكونُ المؤرخُ المُجَدِّد ابنُ شداد قد حَطَّ رِحَالَهُ وأقلامَهُ في لبنان والأردن وفلسطين

* باحثة في التراث العربي (فلسطين)

ليقدمَ الخارطةَ السياسية والطبوغرافية للمدن الشامية في القرن السابع الهجري.

وكانَ قدَّم في جزئه الأول بقسميه تاريخ جند قنسرين وجند حمص وجند دمشق وتارخ مدينة دمشق.. لكنه في هذا القسم موضوع هذه الدراسة يقدمُ بالتأكيد (مع بقية المدن الشامية) مدينةَ القدس منذ ثمانمئة سنة ضمن الخارطة التاريخية لذلك الزمان، وفي تأريخ معماري تناول تكوينات من المدينة.. في حركية تأريخية مثيرة كان من بين مضموناتها توصيف التشكيل المعماري المقدسي الذي كان يتغير نسبياً خلال الحروب الصليبية والفتوح الصلاحية والأيوبية للمدينة.

فكأنَّا نحاول التقاط هذه اللحظة (لحظة القرن السابع الهجري) من عمر القدس الذي دنا من أربعة آلاف عام.. عتقٌ طويل قبل هذه اللحظة وتاريخٌ شاسع بعدها.. تكويناتٌ معمارية علَتْ وتحاورتْ وربما تهاوى بعضُها ثم أُعيدَ بناؤها مرات عديدة لتُشكِّل تاريخَهَا ليس من حجارتها فقط، ولكنْ من جغرافية مكانها الجبلي بين كتلتي جبال الخليل ونابلس اللتين تفوقانها ارتفاعاً، غَيْرَ أنها في الموقع الأكثر حصانةً وأهميةً.

(الكامل ٥) في تاريخ بلاد الشام.. عدة تحقيقات

وضع ابنُ شداد عز الدين المتوفى سنة / ٦٨٤ هـ / كتابَ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. وبالرغم من أن هذا الكتاب المهم بأجزائه قد تحول إلى التحقيق وطبع بكامل أقسامه – في حدود معرفتي – فإن ذلك لم يتم دفعة واحدة.. ولا بعملية تحقيق واحدة ومحقق واحد.. فالدكتور سامي الدهان يتحدث عن تجربته – والتي تعود إلى خمسينيات القرن الماضي– من خلال تحقيقه للجزء الثاني من الكتاب بقسميه: تاريخ دمشق، ثم تاريخ لبنان والأردن وفلسطين. فهو يقول في مقدمة القسم الثاني من هذا الجزء «ولكن أجزاءه تفرقت نسخها في أطراف المعمورة، فاستلبتْ كلُّ خزانة من خزائن الشرق والغرب جزءاً من كتابه الكبير وقام الدارسون بوصف مخطوطات الأجزاء الثلاثة.. وظلوا يتحدثون عنها منذ ثلاثين عاماً في المجلات والمؤتمرات..» [1]

ولكنْ، سنحاول أن نتابع أبعد التحقيقات والإصدارات في هذا الكتاب كيما نصل إلى خلفية واضحة عن المصدر التاريخي الذي نستند إليه. كان أول المحققين في كتاب الأعلاق المستشرق الفرنسي دومينيك

سورديـل Sourdel .D وذلــك بإصــداره القسم الأول من الجزء الأول المتعلق بمدينة حلب وقام بنشره المعهد الفرنسي للدراسات العربيــة بدمشــق سنــة ١٩٥٣ م. ثم حقق الدكتور سامي الدهان الجزء الثاني بقسميه مــن الكتاب وصــدرا عن المعهــد الفرنسي بدمشــق أيضاً بفاصل زمنــي كبير نسبياً.. فصدر القســم الأول المتعلق بمدينة دمشق سنة ١٩٥٦م والأقســام التالية (جند دمشق – جنــد الأردن – جند فلسطين – المزارات في الأجنــاد الثلاثة) فقد صــدرت في عام ١٩٦٢م. ثم حقق الأستاذ يحيى زكريا عبارة الجزء الثالــث (تاريخ الجزيــرة والموصل) وصــدر عن وزارة الثقافــة بدمشق بقسميه في سنــة ١٩٧٨م. وكانت آخــر التحقيقات للأستاذ يحيــى زكريا عبارة، تحقيق الجزء الأول مــن الكتــاب بقسميــه الأول المتعلق بتاريخ مدينة حلب والقسم الثاني (ما اشتمل على جند قنسرين وبــلاد العواصم والثغور وبلاد حمص) وصدرا عن وزارة الثقافة في دمشــق في عام ١٩٩١م. وقــد أعادت وزارة الثقافة طباعــة هذا الجــزء بقسميه سنة ٢٠٠٦ بمناسبــة احتفاليــة حلــب عاصمة للثقافة الإسلامية. وهكذا نكون قد حصلنا على وصف لعمليات التحقيق وسنوات النشر لهذا الكتاب المهم الــذي ما زال ينقصه أن يصــدر في طبعة واحدة بكل أجزائه ليشكل أهــم تاريــخ كامل لبــلاد الشــام ليس من الناحية التقليديــة فحسب، بل من الناحية المدنيــة والمعمارية. وليكون متاحاً للعمليات البحثية التاريخية عن بــلاد الشام ومدنها وخارطتها في القرن السابع الهجري.

(جنــد دمشــق – جنــد الأردن – جند فلسطين) الخارطة السياسية القديمة

هو القسم الثاني مــن الجزء الثاني من كتاب الأعــلاق، وهو من أكثر أجزاء الكتاب أهمية وندرة

«.. لا يقع القــارئ على تاريخ للبنان في مدنه وقراه، ولا يقع على تاريخ للأردن كما جاء هنا، ولا يكاد يجد تاريخاً لفلسطين منذ الفتح الإسلامي حتى القرن السابع الهجري يحوي المــدن والأصقــاع، ويشمل الحديث عــن الأماكن الإسلامية والمسيحية كما أورد ابن شداد في كتابه هذا فهذا كتاب تاريخي وحده يضم تاريــخ فلسطين والأردن ولبنان على صعيد واحد»[٢]

كانــت بلاد الشام حتــى عهد ابن شداد تخضــع لنظام الأجنــاد في تقسيماتها منذ الفتح الإسلامي والأجنــاد الشامية خمسة (جنــد قنسرين وفيها حلــب وجند حمص

وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين).

وجند دمشق كانت تضم (حوران وبصرى وأذرعات وعمان وبعلبك وصيداء وبيروت وطرابلس ومدن وقرى تتبعها)!! وجند الأردن وفيها (طبريا وبانياس وصفد وشقيف أرنون والسواد وبيسان وصور وعكا وحيفا) وجند فلسطين وفيها (الرملة وأرسوف والقدس والخليل ونابلس وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة).

بن هورين.. وطلب المخطوطة من مكتبة ليدن

في بحثهم المهووس عن نقطة من التاريخ يستندون إليها في وجودهم كدولة في أرض فلسطين، ومن واقع حملة قديمة – جديدة يقوم بها المستشرقون اليهود أو المتصهينون.. نشهدُ التسارعاتِ (البحثية) و(التنقيبية) تفتعل البحوثَ والدراسات للتقليل من الأهمية العربية والإسلامية للقدس وتسطيحها وتضخيم وافتعال وجود يهودي – صهيوني واستخراجه من تحت التراب أو من فوقه، أو من ورقة قديمة أو من تأويل أو من تحميل أو من تآمرٍ بحثي..!! ذلك ما يُشرعِنُ ويؤدلِجُ لممارسات الكيان الصهيوني الدؤوبة والمستمرة لتهويد القدس.

ذهب هؤلاء المستشرقون طويلاً وعريضاً.. غير أنهم اهتموا اهتماماً أكبر بفترة (الحملات الصليبية) وهي الفترة التي وضع ابنُ شداد فيها كتابه المذكور سابقاً.. وكانوا في ذلك يحاولون أن يجدوا دوراً لليهود في مقاومة الصليبيين على أن القدس هي مدينتهم !! ولأنه لا دليل على مثل هذا الأمر فقد ذهبوا في تجريح وتسطيح الوجود العربي الإسلامي فذكر أحدهم (يمانويل سيفان) بـأنَّ المسلمين لم يأبهوا للاحتلال الصليبي للقدس.. وإذ قالوا ذلك !! فإنهم شرعوا في البحث والتنقيب (كي يجدوا) شيئاً يساعدهم على التدبيج الأولي لحضور تاريخي لليهود في القدس، ليس ذلك فقط، بل وتسطير وترسيم مقاومة أبداها (اليهود) في مواجهة الصليبيين.. تُـدَاني أو تشابه تلك المقاومة المستمرة التي أبداها العربُ والمسلمون.. لكنَّ اليهود لم يكن لهم أدنى حضور سياسي مذكور في تلك الفترة، بل لم يكن هناك مثل هذه

المسألة الغريبة !!

وقد ركَّزَ هؤلاء المستشرقون الشغِفُون على الناحية الديموغرافية للقدس وأنها بقيت طوال العهود الإسلامية مدينة مُهملة بلا هوية عربية إسلامية.. ومع أن هذا كلاماً ليس علمياً ولا يستحق الرد عليه، غير

أني أقول لكتيبة المستشرقين هذه أن البعد المعماري في مدينة القدس وحده يُشَكِّلُ موسوعةً في تاريخ العمارة والفن المقدسي الإسلامي والمسيحي أيضاً وبالاعتماد على المرجعيات التاريخية العربية فقط.

وهكذا ونظراً لتأكيد المستشرقين على أهمية هذا الجزء من الأعلاق الخطيرة، فقد حاولَتْ الطلائعُ الأولى من المستشرقين اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين الحصول على نسخة منه بغية نشره. حدث ذلك بشأن هذه المخطوطة بالذات منذ سنة ١٩٤٧م (قبل أن تبدأ التحقيقات العربية وغير العربية للكتاب) في جامعة القدس المحتلة ومن قبل المستشرق (بن هورين).. فقد استلمت مكتبة ليدن طلباً بتصوير هذا الجزء من الكتاب عن النسخة المخطوطة لديها منه وكان هذا الطلب من فلسطين بتاريخ ١٣ / ٣/ ١٩٤٧م وقد أجابت بالموافقة. وكان هذا الاهتمامُ المبكر من العدو بالكتاب يبغي إلى نشره وترجمته، ولكنَّ هذا المستشرق مات قبل أن يحقق أي شيء من هذا. غير أننا نضم اعتقادنا إلى ما ذهب إليه سامي الدهان في مقدمة التحقيق من أن بن هورين كان يبحث عن مرجع يشير إلى وجود يهودي في هذه المناطق فكأنه حَسِبَ أن يرى عند ابن شداد إحصاءً بعدد اليهود في كل مدينة.. غير أنَّ ابن شداد لم يذكر في تاريخه أيَّ شيء من هذه الإحصاءات.. إذ أنَّ منهجيته التاريخية كانت بعيدة كل البعد عن أن تهتم بهذا الأمر الطائفي للغاية والجزئي للغاية.. ويبدو أنَّ الأمر الذي حَفَّزَ المستشرقَ اليهودي بن هورين للاهتمام بذلك أن بعض الرحالة اليهود كانوا يذكرون مثل هذه الإحصاءات، ولعله توسم أن يجدها عند مؤرخ مسلم مرموق مثل ابن شداد لكنَّه ما وجدها!! لا شكَّ أنَّ مدينة القدس غَدَتْ هدفاً أوروبياً مباشراً منذ سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦م [٣] استند بعنف إلى الشغف الديني.. وعلى امتداد هذه الفترة نشط الرحالة والمستكشفون الأوروبيون والذين شكلوا في بعض الأحيان فرعاً استشراقياً رفد الخطة الأوروبية العامة في تحميل الشرق على مشروعاتهم!

كانت البنية الأوروبية غير المتكافئة والمستندة في حروبها على الشرق الإسلامي إلى سبب ظاهري وحيد!! أدْلَجَ لها مشروعيةَ هذه الحروب وجعلها (مُقَدَّسة). كان في هذه البنية عدةُ جيوب يهودية ما فتئتْ تُظهرُ هويتَها بعزلتها الشديدة (الغيتو) وتُظهرُ

رغبةً (استشراقية خاصة!) داخل الرغبة الأوروبية العريضة والفصيحة يحدوها بعنف.. بل بوحشية مرضية (تشاغفٌ ديني).. وأيضاً إلى بيت المقدس..

كان (الجيب الأندلسي اليهودي) مندمجاً إلى حد حضاري وإنساني في المجتمع الأندلسي المسلم حتى إنَّ هؤلاء اليهود الأندلسيين هاجروا بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢م هرباً من محاكم التفتيش وانساحوا في البلاد العربية والإسلامية.

ويبدو أنَّ رحلة الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي[٤] التي ابتدأها سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥م من الأندلس إلى المشرق وزار خلالها فلسطين وذكر عدد اليهود في كل المدن المشرقية الإسلامية التي زارها فهو يذكر أن عدد اليهود في عكا كان ٢٠٠ يهودي وفي اللد يهودي واحد!! وفي نابلس لا يوجد يهود أبداً وفي الرملة ٣٠٠ يهودي.. ويبدو أنَّ مثل هذه الإشارات هي التي حَفَّزَتْ (بن هورين) للاهتمام بمخطوطات أخرى عَلَّها تُشرعن تاريخياً حضورَ دولة الكيان الصهيوني الغريب كزراعة لإمكانية أوروبية جديدة في الشرق الإسلامي في ذلك العام الحرج والإشكالي قبيل النكبة (١٩٤٧).

خطأ قديم.. بدءاً من كارل بروكلمان

احتملَ هذا الكتابُ ومنذ أن كان ما يزال مخطوطاً خطأً أضاف إليه تشتتاً غير تشتت مخطوطاته بأجزائها وأقسامها. وهذا الخطأ ناشئٌ من الخلط بين مؤرخين تشابها في الشهرة وتقاربا في الزمن.. فثمة مؤرخان حملا شهرة (ابن شداد) والغريب أنَّ كلاً منهما ألف كتاباً في السلطان الذي عاصره. ابن شداد بهاء الدين الذي عاش في زمن وكنف صلاح الدين الأيوبي وضع فيه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وهو كتاب مشهور وسيرة عرفها الناس وبها غطى على ابن شداد عز الدين الذي جاء بعده بحوالي خمسين سنة (ولد بهاء الدين ابن شداد في حلب سنة ٥٣٩ هـ وتوفي بها سنة ٦٣٢ هـ. أمّا عز الدين ابن شداد فقد ولد بحلب سنة ٦١٣هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٦٨٤ هـ) عاش عز الدين ابن شداد في زمن السلطان الظاهر بيبرس وألف فيه كتاب (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) وهي على ما أعتقد ما تزال مخطوطة. وحتى كارل بروكلمان – توفي سنة ١٩٥٦م – في كتابه الشهير المرموق (تاريخ الأدب العربي) خلط بين الاثنين ونسب أحد أجزاء كتاب الأعلاق الخطيرة ولعله المتعلق بتاريخ حلب لبهاء الدين ابن شداد[٥].

مشاهد مقدسية من القرن السابع الهجري

لن أجري مسحاً تاريخياً مكانه وموضوعه مدينة القدس بل سألتقط بضعة مشاهد، منها مشاهد سياسية تاريخية، وقليلٌ منها معمارية مدنية كتلك المتعلقة بالعمارة وتزويد المدينة بالمياه.

مشهدٌ عام لمدينة القدس في القرن السابع الهجري

يقدم ابنُ شداد وصفاً بانورامياً للمدينة بتوضعها وأبوابها، فهي مدينة ممتدة طولانياً على جبل يُصعد إليها من كل جانب، ويذكر لها أبواباً أربعة في الجهات الأربعة: في الغرب باب المحراب وعليه قبة داود، في الشرق باب الرحمة وكان يظل مغلقاً في زمن ابن شداد لا يفتح إلا في عيد الزيتون إلى مثله، وفي الجنوب باب صهيون وفي الشمال باب الغراب فإن الداخل من باب المحراب يتوجه من الغرب إلى الشرق في درب ضيقة فيغدو في كنيسة القيامة.. ويصف ابنُ شداد عمارتها بأنها من عجائب الدنيا[٦] أمّا الآن فلمدينة القدس سبعة أبواب مستعملة وثلاثة مغلقة، والسبعة المستعملة هي، باب العمود أو باب دمشق وهو في منتصف الحائط الشمالي لسور القدس، ثم باب الساهرة ويقع في الحائط الشمالي لسور القدس، وباب الأسباط الذي يقع في الجزء الشرقي من السور ثم باب المغاربة وباب النبي داود (صهيون) وهما في الحائط الجنوبي لسور القدس وباب الخليل في الحائط الغربي والباب الجديد الذي افتتح في نهاية القرن التاسع عشر عند زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لمدينة القدس. والأبواب المغلقة ومنها باب الرحمة والباب المزدوج والباب المثلث.. ويعتقد أنها جميعاً قائمة منذ العهد الأموي. إذن تغير عدد الأبواب وأماكنها وتغيّرت نسبياً أسماؤها.. وحديثاً أضاف الحضورُ التاريخي والسياسي الغربي اسماً رومانياً لبعض الأبواب فـ باب الساهرة عندهم هو باب هيرودوس، وباب الأسباط هو باب أسطفان.. !

المقدمةُ من مشهد قديم رفيع.. العُهدة العمرية

نقل ابنُ شداد النص التاريخي[٧] المتعلق بفتح القدس عن البلاذري ولعله أحد النصوص المشهورة جداً «قدِمَ أبو عبيدة على عمرو بن العاص وهو يحاصر إيلياء سنة ستة عشرة، فطلب أهلها من أبي عبيدة الأمان والصلح على ما صُولِحَ عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج على أن يكون متولي

العقد لهم عمر بن الخطاب بنفسه. فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك. فسار عمر رضي الله عنه حتى نزل بالجابية من دمشق، ثم صار إلى إيلياء فأنفذ صلح أهلها. وكتب لهم بذلك وذلك في سنة سبع عشرة.

وهذا المشهد المقدسي القديم يورده ابنُ شداد لألقه الشديد.. مشهدٌ يساوي بين كبرياء المنتصر وعدله !! ذلك حين تَصْدُرُ الأشياءُ عن قوة عميقة لها جذورها ومُعادلاتُها الحضارية، بل الثقافية، بل الأخلاقية.. تغدو هذه الأشياءُ متساويةَ الوجوه والقيمة، وتَحِلُّ كلمةُ الشرف محل حربٍ ومعركة ويَحِلُّ أقوى الخلفاء محل الرِّقة والعدل.. الرِّقة العربية في مدينة إيلياء !

حالةٌ نموذجية جمَعَتْ السياسةَ إلى العدالة الرفيعة.. في هذه الحالة ارتحلَ الخليفةُ القوي العادل صاحب المنجزات التأسيسية والاستراتيجية للدولة.. ارتحل عمر بن الخطاب صوبَ بيت المقدس لينجزَ الصُّلحَ بنفسه مع أهل إيلياء في نَصٍ عُرِفَ بالعُهْدَة العُمَرية.. ولكن أين تكمنُ العدالةُ الرفيعةُ في هذا المشهد؟ إنها تكمنُ أولاً، في حضور الخليفة نفسه ملبياً رغبة الأهالي وذلك بُعَيد الانتصار الكبير الذي حققهُ المسلمون في معركة اليرموك.. وكان في المنطقة حينذاك عددٌ غيرُ قليل من قادة المسلمين كان بإمكانهم القيام بهذه المهمة.. وثانياً، في كون الخليفة رفض أن يُصلي في كنيسة القيامة حتى لا يصبح ذلك تقليداً إسلامياً بعد حين ويُظْلَمُ المسيحيون في مكان عبادتهم.. وثالثاً، الاحترام العميق لهذه المدينة الحضارية العريقة.. وإذن كان سلوكُ الخليفة ينتمي إلى بُنية سياسية مُنتصرة ذات محتوى ثقافي وأخلاقي جازم في عدله المطلق..

مشهدُ استرداد بيت المقدس وعمارة الفتح

ينصبُّ حديث ابنُ شداد على الأحداث التي ألمّت بمدينة القدس قبيل الفتح الصلاحي للمدينة واستردادها من الصليبيين فيبدأ من خارج أسوار القدس: «نَصَبَ صلاح الدين يوسف بن أيوب المنجنيقات «وسلط على سوره النقوب، مما يلي وادي جهنم – الذي يقع في الجنوب والجنوب الغربي للقدس – إلى أن تسلمه يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان وثمانين» [٨] أي في سنة ٥٨٨ هـ.

ثمة رسالة [٩] قيّمة يوردها ابن شداد للقاضي عبد الرحيم بن علي البيساني [١٠]

في فتح القدس وسوف أستند إليها لأنها تقدم شرحاً مفصلاً يتحول في النهاية إلى شرح معماري وفني. ولن أتناولها بشكل كامل بل سأجتزئ منها ما يشرح حادثة الفتح ذلك الشرح الميداني فهو يذكر الأماكن والإجراءات..

القدس مخزن فوضوي للفرنجة ومرتزقتهم.. قبيل الاسترداد الصلاحي.

ليست المدينة إلا بأبعاد أساسية، منها البعد الديموغرافي ذلك الذي يشي بحركيتها ومقدار ما يمكن أن يصدر عنها من فعل عسكري أو مدني.

وهكذا عبّر القاضي عن هذه القضية في مبدأ رسالته، فهذا الوضع لا بد وأن الدولة الصلاحية قد بحثته بجدية خلال التحضيرات العسكرية وغير العسكرية لعمليات استرداد المدن والأراضي من الفرنجة القادمين من أوروبة «ولما لم يبقَ إلا القدس اجتمع إليها منهم كل شريد طريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إليه شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألبت وتآلفت على الموت فنزلت بعرصته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته» (١١)

يقدم النص السابق معلومة مهمة تؤكد أن مدينة القدس قبيل استردادها من قبل صلاح الدين / ٥٨٣ هـ - ١١٨٧م/ كانت ملجأً فوضوياً للفرنجة والجيوش المرتزقة التي انضوت تحت شعارات دينية عريضة، فتذهب إلى الموت في سبيل ذلك. وبالرغم من تحول المدينة إلى معسكر شاسع مشبع بالرغبات التطرفية التي أنتجتها أوروبة في هذا الوقت المبكر ودفعت بها خارج أرضها لتشر إرهاباً كبيراً في المشرق العربي الإسلامي.. وذلك قبل زمن طويل جداً من الصعود الضوئي لهذا المصطلح وفعالياته الإعلامية (والحقيقية!) في فاتحة القرن الحادي والعشرين.

غير أنَّ صلاح الدين ببنيته الجادة ومنظوماته العاملة الدقيقة تُظهرُ إدراكه للهشاشة التي بلغتها هذه التجمعات المعسكراتية الصليبية.. وتُوصِلُهُ كذلك إلى أن هذه المساحة الجبلية الصغيرة (مدينة القدس) هي النقطة الوحيدة التي بقيت لهم وبقوا فيها.. فما كان أمامه إلا الحصار والاستمرار في دك الأسوار.. وإن هو إلا زمنٌ لن يكون طويلا..

المعاينة والاستطلاع الميداني لمحيط المدينة

ينتقل القاضي بعد ذلك في رسالته ليسجل المعاينة الميدانية التي قام بها صلاح الدين ـ وبالطبع فريقُ مستشاريه العسكريين والسياسيين أو منظومات دولته – لمحيط مدينة القدس قبل أن يضع خطةَ وآلية الحصار «فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة. ولجج وعرة غريقة. وسور قد انعطف عطف السوار. وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار. فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها مُعَرَّج. وللخيل فيها مُتَوَلَّج»[١٢] رسم هذا الاستطلاع كما ورد في النص طبوغرافية المنطقة المحيطة بالمدينة وكذلك وضَعَ تصوراً عن أشكال التحصينات ونسبة منعتها ومقاومتها ويتم اختيار النقطة الأكثر ضعفاً والمواتية لبدء الحصار ومن ثم الهجوم.. فقد أسفر الاستطلاع عن مدينة جبلية تحيطها الأودية العميقة، كما ارتفعت حولها تحصينات رصينة مكونة من عناصر العمارة العسكرية التقليدية في ذلك الزمان (الأسوار والأبراج).

بدء الحصار وآلياته

يتقدم النصُّ في الحدث الذي يقوم بتسجيله على نحو متنوع ومثير إلى حد ما، مما يسمحُ لنا بمقارباتٍ من خلاله تعطيه ملامحَ إعلامية واضحة: «فنزل عليها وأحاط بها، وقُرِّبَ منها وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه. ويزاحمه السورُ بأكتافه. وقابلها ثم قاتلها. ونزل عليها ثم نازلها. وبرز إليها ثم بارزها. وحاجزها ثم ناجزها. فضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح. وصدع جمعها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد من الصَّفْح. فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة. وقصدوا نظرة من شدة وانتظار النجدة. فعرفهم الخادم في لحن القول. وأجابهم بلسان الطَّوْل»[١٣].

في آلية الحصار الصلاحية للقدس التمترس قريباً جداً من الأسوار ومن مرمى أسلحة الفرنجة، واستطلع المدينة وتمكن منها نظرياً ثم موقعياً (قابلها، نزل عليها، برز إليها، حاجزها) وهي الأفعال الأولى من الجمل الثنائية التي ذكرها في النص السابق والتي تدل على الفعل التالي التنفيذي الذي يليها (قاتلها، نازلها، بارزها، حاجزها) ولعلها دقة لفظية توازي دقة الفعل والتنفيذ.. ومن ثم كسر التجمع

الدفاعي المواجه.. وعن ذلك يميلُ الفرنجة إلى المناورة والخداع بطلب مهلة، وأما صلاح الدين فلم يكن ليميل معهم هذه الميلة ولديه سجل طويل من تحقيق الأهداف المتوالية وكانت آخرها هذه المدينة المهمة.

آلية الهجوم وأدواته.. وفسيفساء الحدث

يواصل القاضي نصه، ولئن كان الأسلوب الأدبي القائم على السجع قائماً بجلاء غير أن القاضي جعله وسيلةً جذابة وإلى حد ما ليست مملة ولا ممجوجة لفرز تفاصيل الحدث وتقديمه في جمل قصيرة واضحة يرصفها ليشكل منها فسيفساء الحدث.. فكأنه يقدم لقطات متوالية من عدة نقاط متقاربة «وقَدَّمَ المنجنيقات التي تتولى عُقُوبات الحصون عصيُّها وحبالها. وأوتر لهم قسيًّا التي تضرب ولا تفارق سهامَهَا نصالُها. فصافحت السور فإذا سهلمه في ثنايا شرفاتها سواك. وقدَّم النصر نَسْراً من المنجنيق يُخْلِدُ إخلاده إلى الأرض، ويعلو علوه إلى السِّماك» (١٤)

فكانت المنجنيقات هي الصفُّ الأول من الجيش الصلاحي المواجه مباشرة لأسوار القدس، وحينذاك بدتْ كم هي صغيرة هذه السهام فوق لوحة السور والأبراج. وإنَّ النص ليشفُّ عن وصف دقيق لآلية عمل المنجنيق ومقذوفاته التي تعلو إلى ارتفاع شاهق لتهبط بتسارع كبير فوق هدفها.. فتبدو من أجزاء هذه الآلة العسكرية من زمن الدولة الصلاحية (العصي – الحبال – الأوتار – القسي – السهام – النصال) ونلاحظ الشُّرفات كعنصر معماري من تكوين السور والأبراج.

نقب السور ودك حجارته

يسير حدث فتح القدس بصورة متنامية ويحدث الانتقال من الحصار إلى الهجوم ثم انهيار التحصينات ودخول المدينة «فَشَجَّ مدارعَ أبراجها. وأسْمَعَ صوتَ عجيجها صُمَّ أعلاجها. ورفع مثار عَجَاجها. فأخلى السورَ من السيارة. والحَرْبَ من النظارة. فأمكن النَّقَاب. أن يُسْفِر للحرب النِّقاب. وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب. فتقدم إلى الصخر فمضغ سَرْدَه بأنياب معوله. وحَلَّ عَقْدَه بضربه الأخرق الدال على لطافة أنْمُ. وأسمع الصخرة الشريفة حنينَه باستقالته. إلى أن كادت ترقُّ لمقالته. وتَبَرّأ بعضُ الحجارة من بعض. وأخذ الخرابُ عليها مَوْثِقاً فلن يبرح الأرض»(١٥)

أعتقد أنَّ أسلوبية النص التي قد تبدو غريبة أو مصنوعة هي إلى الدقة أقرب،

وإنما يبقى لكل زمن طرائقه.. ومبدئياً يمكن أنّ نطلق على هذه الأسلوبية الكتابية: الأسلوب التأريخي الكلاسيكي إن أحببنا امتطاء القالبية المصطلحية الغربية فهو يُشكل نصه تشكيلاً رصيناً مليئاً قوياً.. وهو بالعمق أسلوبٌ أدبي فاستخرج من حجارة السور (حنيناً ورقةً).. على كل فإن أسوار القدس بدأت بالتداعي وكان في هذا المشهد سقوط أبراج السور سقوطاً مريعاً بصوت هائل وانتثار غبار الانهيار والتفتت.. وهذا الضجيج الصوتي والهواجس والخطر أبعد السائرين والناظرين من الفرنجة فوق الأسوار، وحدثت فجوة في السور ودُكَّتْ الحجارةُ حتى تحولت إلى شكلها الترابي الأول، ولعل النَّقَاب (أداة من المنجنيق) هي التي تابعت تكسير الصخور بحديدة كبيرة مزودة بأسنان مدببة (أنياب). ولا ننسى مقدار المرح في هذا النص وهو مايدل على قوة تعبيرية تعكس ثقة وهدوءاً ويقيناً وتمكناً عسكرياً.

دخول القدس.. ومفاوضات التسليم

هذا الحصار الذي ظهرت فيه المنجنيقات وظهرتْ دقةُ تنفيذه فتح باباً إلى المدينة «وفتح من السور باباً. سدَّ من نجاتهم أبواباً. وأخذ يفت في حجره. فقال عنده الكافر: ياليتني كنت تراباً. فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور. كما يئس الكفار من أصحاب القبور وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور» [16] وهي ليست مفاوضات بالمعنى الدقيق بل محاولات من قبل الفرنجة للتقليل من الخسائر والقتلى.. وقد طلب ذلك من المسلمين قائدهم (ابن بارزان!) ولكن المسلمين كانوا دوماً مبتعدين عن العنف في كل مواجهاتهم التاريخية.. وكانت هذه إحدى المرات التي اشتُهرتْ بذلك، وبالفعل فإن الأمراء في الجيش الصلاحي أشاروا إلى الابتعاد عن العنف وتوفير الدماء لأن فتح المدينة قد تمَّ.

الشكل المعماري للقدس حين الفتح الصلاحي / نصٌ في تاريخ العمارة

ويبدو أنَّ الاهتمام بالمدينة وتكوين نصٍ يصفها ليؤرخ لها شَكَّل اهتماماً محورياً لكلٍ من ابن شداد والقاضي البيساني، والأخير يصفها حين انتُزعت من الفرنجة «حَمَوْها بالأسَل والصِّفَح. وبنوها بالعَمَد والصَّفَّاح. وأودعوا الكنائس بها وبيوت الدَّيوية والاسبتارية منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه. ولا ينطرد لألاؤه. قد لطف الحديدُ في تجزيعه. وتفنن في توشيعه. إلى أن صار الحديدُ. الذي فيه

بأسٌ شديد. كالذهب الذي فيه نعيم عتيد. فما ترى إلا مقاعدَ كالرياض لها من بياض الترخيم رَقْراق. وعمــداً كالأشجار لها من التنبيــت أوراق»[17] وأقيمــت أول صــلاة جمعــة في المسجد الأقصى في ٤ شعبان من نفس سنة الفتــح[18]. والأسَل والصفح هي الرماحُ والسيوف، وأما العمارة فكانت رفيعة ومنمقــة فتشكلت من الأعمــدة والجدران التي كُسيت بالحجر الرقيق العريض الأبيض (الصفــاح) وكانت هذه المــواد تتردد في كل التكوينات المعمارية التي أقامها الصليبيون في القدســ.. واستخدمت مادة الرخام على نطاق واسع.. كما يشير النص على استخدام الحديــد المشغول على نحــو واسع فامتدت إليــه إيحــاءاتٌ زخرفية مثلمــا امتدت إلى تيجان الأعمدة فخرجــت الأوراقُ والأزهار مــن صمت الحجــر وحوَّلــتْ الأعمدة إلى أشجار.. إلى كائن حي مُصَدِّر للجمال.

علينــا أن نشهــد بقوة هنــا كيف هذا التجردُ والعدل عند هذا القاضي الذي دعاه إلى وصــف (عمارة الأعــداء) هذا الوصفَ الراضــي الرائق فيكشف ذلــك عن خبيئة نفسية نقية وخالية من العقد والتطرف تنظر إلى العمارة نظــرة مؤنسنة مُشبعة بتحسس الجمال والبحث عنــه.. بعيداً جداً عن أي إغراضــ أو افتعال أو توتــر.. وهي حقيقة رافقتْ التاريخَ العربي الإسلامي العسكري والحضاري فكان أقرب إلى الرحمة والعدل ولو مع الأعداء القادمين من قارة أخرى.

قدس ما بعد الفتح.. ودويلات الأمراء الصلاحية.. عودة الصليبيين

وقــد تناولتْ البــلادَ (الشــام ومصر) خلافاتُهم الحادة وحروبهم معاً.. بعد الفتح أقطع صلاح الدين البلاد بين أولاده وكانت القدس لعز الدين جُرْديك النوري.[19]

كان مــن هــؤلاء الأمــراء العزيــز أخو الناصــر صلاح الدين عماد الدين أبو الفتح عثمــان وكانت له الديار المصرية. ثم اتفقوا علــى أن تبقــى فلسطين للعزيــز، والأردن للأفضل وعــاد العزيز إلى مصــر[20].. ثم تحدثُ مجموعة جديدة من الخلافات تبدأ بأن الملك العادل لما ملك مصر أقطع دمشق والأردن وفلسطين لولده الملك المعظم شرف الدين عيسى. واستمرت كذلك إلى حين وفاة الملك العــادل في سنة ٦١٥ هـ، وخلال نفس هذه الفــترة وصل الصليبيــون إلى دمياط وحاصروها فطلب الملــك الكامل أخو الملك المعظم صاحب فلسطين من أخيه أن يعطيه القدس وكوكب والطور ليعطها للفرنج مقابل دمياط[21]!! ثم حدثت المفاوضات بين الملك

الكامل والصليبيين وكانوا قد وصلوا إلى عكا وقائدهم فردريك فطلب من الملك الكامل أن يسلمه القدس وجميع ما فتحه صلاح الدين [٢٢] وبعد أن تشاور الملك الكامل مع أمرائه سلم القدس إلى الإمبراطور الصليبي وكان ذلك في سنة ٦٢٦ هـ وانسحب هو وجيشه وأمراؤه إلى تل العجول بين عكا والعائدية.. وتبقى القدس بيدهم إلى أن يتوفى الكامل بدمشق سنة ٦٣٥ هـ وتغدو دمشق بيد الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود ابن الملك العادل وتحصل بينه وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل مقايضات وهذه المرة مقايضة دمشق بسنجار (فيصل دمشق ومن ثم نابلس سنة ٦٣٧ هـ ويقبض الملك الناصر على الملك الصالح ويحبسه في الكرك، ثم يجمعُ جيشاً عظيماً يحاصرُ به القدس من جديد في نفس السنة.. وكان الفرنج قد قاموا بتحصينات إضافية في أسوار القدس فأقاموا برجاً جديداً أطلقوا عليه اسم (برج داود) !! وحصنوه لكن الملك الناصر دكه بالمنجنيقات وفتح القدس مجدداً..[٢٣]

رسالةُ الناصر إلى المستنصر بشأن القدس.. رسالة في تكنولوجيا العمارة !

الناصرُ فاتح القدس ثانية (الناصر داوود بن عيسى) والمستنصر هو الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور الظاهر بأمر الله.. أمير المؤمنين توفي سنة ٦٤٠ هـ.. هو الخليفة العباسي ما قبل الأخير، ويبدو أنّ هذا الخليفة كان متنوراً ومختلفاً وإن كان في زمن صعب ومتشابك فقدت بغداد في عهده مدينة عظيمة وهو الخليفة الذي بنى المدرسة المستنصرية الشهيرة.. لكنّ التتار داهموا بغداد في عهده أيضاً.

وأما هذه الرسالة المهمة فقد ذكر ابن شداد أن الناصر كتبها بيده وهي من إنشائه، وكونه فعل ذلك بنفسه فإن ذلك يدل على أمر ذاتي وأمر عام بآن معاً، وأمّا الذاتي فغبطة وفرحة عارمة سكبَتْ الحماسة في قلب الناصر ليكتب (رسالة الفتح) إلى الخليفة المتميز (المستنصر) في زمن اجتمع فيه فوق أرض المشرق العربي الصليبيون والتتار.. كتبَ له هذه الرسالة ليُعلِمَه بأن الجناح الغربي من دولة الخلافة غدا مُؤَمَّناً ومُسَيْطَراً عليه بمدينته المركزية (القدس) التي بقيت سلطتُها القائمة تدل على الوضع والحالة السياسية القائمة في بلاد الشام كلها.

وبعد مقدمة الرسالة الرصينة والمجيدة يبدأ الناصر باطلاع الخليفة على وضع

مدينة القدس عبر تحليله للأحداث «.. طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها. وانفساخ عقدتها. وعند ذلك أخلى الفرنج - خذلهم الله - القدس الشريف من سكانه وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ما صيّره من أوطانه وأقام به كند من كُنُودهم - جمع كند أي كونت Comte تخريج عربي للكلمة استخدمه المؤرخون العرب وهو أمير الجيش - ومقدم من جنودهم. وهو فارس مشهور من فرسانهم.. كان قد عمّر قلعة القدس في مدة الهدنة وحصنها، وملأها بالعدد والآلات وشحنها. ووصلها ببرج يقال له «برج داود» النبي عليه الصلاة والسلام ابتناه لنفسه مسجداً واتخذه لخلوته معبداً»[٢٤]

أهم ما في الرسالة ذكره للتطورات المعمارية العسكرية التي طرأت في المدينة من قبل الفرنجة أي إعادة ترميم القلعة وبناء برج عالٍ على الأسوار ووصله بالقلعة بواسطة نفق.. ومما يلفت الانتباه أنَّ الناصر يتابع بعد ذلك وصف البرج كأنه المهندس أو المعماري !! «وهو برج عظيم المقدار والحجم، مُبَار في المنعة الجبل.. قد بُني بالصُفّاح والعَمَد.. وهو من أسفله إلى ثلثه قد صُب فيه الحجرُ والكلس صباً. ورُدِم بقوة..»[٢٥]

وهو إذ يقدم هذا الوصف القوي الجليل فإنما ليذكر بعد قليل كيف أنه استطاع تدمير هذه الأسوار واختراق مناعاتها وحصاناتها وينتصر على الجموع الرهيبة التي احتشدت له خلف الأسوار وقاتلته[٢٦] غير أنّ لنا قراءةً إضافية في هذا النص وهي القراءة المدنية أو المعمارية ومواد البناء وآلية التعمير. كان من مواد البناء المذكورة في الرسالة الملكية : الصُفّاح وهي البلاطات الحجرية الرقيقة التي تستخدم في التكسية الخارجية، ومن العناصر المذكورة أيضاً (الأعمدة) فيشرح الملك الناصر أنَّ البرج تشكّلَ من أساس ذي ارتفاع كبير جداً وصل إلى ثلث العمود والمتشكل من الكلس المغموس فيه قطع من الحجر والذي نظراً لسيولته وليونته تم صبه صباً بغرض تنفيذ أساس مليء متجانس وصلب وكبير الأبعاد.. ويشرح الدائرة الخارجية للبرج بتشكلها من تناوب الأعمدة والجدران التي جرى تكسيتها بذلك البلاط الرخامي الرقيق والمتين (الصفاح).

ويُتابع الملك الناصر في رسالته شرح الآلية التي اتبعها في دك الأسوار المُحصَّنَة المُجددة، بأنه نصب صفاً طويلاً ومتقدماً من المنجنيقات، وكان في جيش الناصر فريقٌ اسمه (النقابون) متخصصون بنقب الأسوار

والآليات اللازمة لذلك، وفريق اسمه (الزراقون) متخصصون بتحضير القنابل المشتعلة وإرسالها إلى الأسوار والأستار[٢٧] ويسجل الناصر في رسالته الملكية كيف استمر الهجوم والاقتحام حتى تجسد الفتح «وأخذ العبدُ القلعةَ وتسلَّمها. وافترع ذروتها العليا وتسنمها. وتبرجت له أبراجها المصونة وتجلَّتْ..»[٢٨]

وأما العبد فهو الملك الناصر.. وأما القلعة العروس المتجلية فهي لُبُّ القدس ومركز قيادتها. لا يفوتُ الناصر ذكر مبادئ سرت في الحضور العسكري العربي الإسلامي تلك مبادئ الرحمة واللين والإنسانية.. وذلك مما حدث بالفعل بُعيد فتحه القدس، حين لجأ عدد من أفراد جيش الفرنجة إلى (برج داود) في سور القدس خوفاً وطمعاً بالخروج بأرواحهم وأسلحتهم.. غير أن الناصر يُسجل في رسالته أنه لم يوافق على ذلك بل وَجَّه النقابين لإيجاد نقوب في جدران البرج ومن ثم إحراقه من الداخل.. فلما وجد اللاجئون ذلك طلبوا الخروج بأرواحهم فقط فأُخلي سبيلهم[٢٩].. وبعد ذلك وكأنه يسائل الخليفة أو يستشيره بين أن يهدم القلعة أوييقيها موئلاً للمسلمين[٣٠] وأمّا برج داود فقد اتخذ فيه قراراً بأنْ «يغضُ من طَرْفه ويجدع أنفه. ويقلل من ارتفاعه. ويسهل من امتناعه. ويجعله مسجداً للركوع والسجود. لا معقلاً للجموع والحشود. ومعبداً يلتزم بمزاره. لا حصناً يُعتصم بأسواره..»[٣١]

والناصر هنا ينهي الحالة العسكرية لمدينة القدس ويحولها إلى مدينة (مدنية) ويجسد من خلال ما ذكره في رسالته بضعة مبادئ كانت باعتقادي تشكل الإطار العام للهوية المعمارية الإسلامية، كان في هذه الهُوية الابتعاد عن التطاول والارتفاعات الفارغة في البناء، ويمكن أنْ نلاحظ بسهولة كيف أن البناء الوحيد المرتفع في المدينة العربية والإسلامية القديمة هو (المئذنة).. فليس لبناء بحد ذاته تكبر وترفع.. والملك الناصر يريد أن يغض من طرف (البرج) وأن يجدع أنفه وفي النهاية أنْ يحوله إلى مسجد في مدينة حقيقية وليس إلى تحصين عسكري في معسكر. وبهذه المبادئ المعمارية الإنسانية يختم الناصر رسالته إلى الخليفة العباسي المستنصر.

ثم.. بيبرس وعمارةٌ في القدس

بقيت القدس بيد الملك الناصر حتى حدثت دورةٌ جديدة من الاتفاقات والمهادنات بين أمراء الأيوبية والفرنج.. فدخل الفرنجُ القدسَ مُجدداً وبقي الأمر كذلك حتى

الفتح الخوارزمي للمدينة بالاتفاق مع الملك الصالح نجم الدين وهو الفتح الثالث للقدس في فترة الحملات الصليبية سنة ٦٤٢هـ.. لكنَّ ثمة انتصار عريض يجتاحُ المشرقَ العربي حينَ ينكسر الاجتياحُ التتري في عين جالوت (٦٥٨ هـ - ١٢٥٩م) ويكون موقعُ المعركة في تخوم القدس، وتكون القيادة لمظفر الدين قطز.. وتغدو البلاد في النهاية بما فيها القدس بسلطة السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الذي سرعان ما يبدأ بعمارتها.. ففي سنة ٦٥٩ هـ يضع بيبرس خطة مالية ومشروعات للاعتناء بعمارة الحرم النبوي في المدينة المنورة والقدس.. لكنه اهتم أيضاً بالعمارة الخدمية التي تعيد للمدينة حيويتها الاجتماعية ورونقها الحضاري، فكان من التكوينات المعمارية التي بُنيت في عهده الخان الذي جعله خارج المدينة ووراء أسوارها ووضع له باباً نقله من القاهرة، وبنى أيضاً فرناً وطاحوناً.

مشهد (زيارات القدس)

يوردُ ابنُ شداد مصطلحُ (الزيارات) للتعبير عن العمارة المهمة دينياً التي عكف الناسُ على زيارتها، ولعله مصطلحٌ مستحدث في زمن ابن شداد، وقد يكونُ ذلك بسبب نشوء حالة كثيفة من العمارات التي تُزار.

أولى الزيارات التي يذكرها الصخرة المشرفة وبعد أن يشرح قداستها وما عرف عنها يقدم وصفها الهندسي والأبعادي «وعلوها مقدار ذراعين ودائرها يزيد على أربعة أذرع.. وتحت القبة منارة الأرواح، ذكروا أنَّ أرواح المؤمنين يجمعها الله فيها، وينزل في هذه أربع عشرة درجة، ويقال أن بهذه المغارة قبر زكريا عليه الصلاة والسلام»[٣٢].

ويذكر أن الرواق المحيط بالصخرة يقوم على ستة عشر عموداً رخامياً، وثمانية أركان لها أربعة أبواب من الحديد ويحيط بالصخرة نفسها درابزين من الحديد ارتفاعه قامتان. يعتبر نص ابن شداد المختصر عن الصخرة مهماً لأنه وصفَ الصخرةَ في زمنِ الاحتلالات الصليبية المتوالية والفتوحات الأيوبية المتوالية أيضاً. فهو يقدم عمارة إسلامية من القرن الهجري الأول تحمل دلالة عظمى.. فكل الاختبارات الأثرية التي أجريت على عمارة القبة أكدَّتْ أنَّ عمارة الصخرة بكامل أساساتها وجدرانها الخارجية هي من إنشاء الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (بدأ بناءَها سنة ٦٨ هـ / ٦٨٨م واكتمل سنة ٧٢ هـ / ٦٩١م) وهي بناءٌ متجانس لا يضم أي بقايا بناء قديم»

ومـازال بناء القبة قائمـاً بشكله وواجهاته الأمويـة في ساحة الحـرم القدسي جنوبي شرقـي القدس.. بجدرانه الثمنة الخارجية وبالسقف المحيط بزنار القبة والمائل باتجاه الجـدران الخارجية. مـن العناصر المهمة في القبـة تلك الفسيفسـاء.. نثاراتٌ دقيقة من الزجـاج والحجر والصـدف الخضراء والزرقاء على خلفيـة جدارية ذهبية.. تلك الزخرفـة التجريدية الرفيعـة تُشَكِّلُ خطاً منسجمـاً رفيعاً في تاريخ الفـن الإسلامي الخالص والمبكر.

ثـم ينطلق المـؤرِّخُ مباشـرة إلى المسجد الأقصى ويذكر أن محراب عمر بن الخطاب لم تغـيره الفرنج[٢٣] ومن قبة الأقصى يبدأ ويخبر عن آخر تجديداتهـا المعمارية بأنها تمت سنة ٤٣٦ هـ في عهد الإمام ابن العزيز (الظاهر لإعزاز دين الله) صاحب مصر .. والقبة نُفذَتْ تكسيتُهـا بالفصوص المذهبة وكذلك الكتابة والنقوش ويذكر ابن شداد أنها بقيت كما هي لم تغيرها الفرنج.. والحق مـا ذكره ابن شداد عن هـذا المسجد الذي بُنـي للمـرة الأولى في عهد عبـد الملك بن مـروان في سنة (٧٢ هـ / ٦٩١م) وثمة قول آخـر أن الذي بناه هو الوليد بن عبد الملك.

وعلى كل حال هو من عمارة القرن الهجري الأول أيضاً مثل قبة الصخرة غير أنَّ معالمه تغـيَّرتْ مـراتٍ عديدة.. ومـع الاحتلالات الصليبية أقام الفرنجة في جانب منه كنيسة وفي الجانـب الآخـر مقـراً للاسبتارية×× ومستودعـاً للأسلحـة في جهتـه الغربية.. ومـع التحرير الصلاحي للقدس أُعيد بناؤه وجُدِّدَ المحـراب ووضع المنبر النوري الشهير الـذي صنعـه نـور الدين زنكـي في حلب (٦١٤هـ).. وبشكل عام يعتبر الشكل الحالي للمسجد الأقصى هو شكله الأيوبي مساحته الداخلية (٨٠×٥٥) وفيه سبعة أروقة أوسط وثلاثة في كل من الجانبين الغربي والشرقي، وما زالت الأروقة الغربية للمسجد محكمة وشامخـة تمتد مـن الجنـوب إلى الشمال والقبـة تتصدر بيت الصلاة وللمسجد أحد عشـر باباً. ولقد بقـي المسجد الأقصى في مكانة سامقة عند المسلمين فقد شكل وحتى ١٩٦٧ مقـراً تدريسياً واحتفاليـاً وسياسياً عربياً وإسلامياً.

ومن هـذه الزيـارات يذكر ابـنُ شداد مغارةً يُقال لها مهد عيسى. وهي عند السور القبلـي وأحد أروقة المسجد الأقصى. ××× وقبة السلسلة[٢٤] وهي شرقي قبة الصخرة

وملاصقة لهـا، سداسية الرقبة وهي أيضاً عمارة أمويـة وكانت تستخدم لحفظ أموال المسلمين كمـا هي الحال في قبـة المال في صحن المسجد الأموي في دمشق.

ويتابع عن أهم عمارات القدس: كنيسة اليعاقبة، ويذكر أن بها بئر، يقال أن المسيح عليه الصـلاة والسلام اغتسل منها، وآمنت السامـرة على يـده عندهـا »[35] وحالياً مقر هـذه الكنيسة في القدسـ (اليعقوبية أو السريانيـة الأرثوذكسيـة) في كنيسـة مرقسـ. ومن الكنائس يذكـر أيضاً كنيسة السَّليق ويُذكـر أن مقولة كانت دارجة تفيد بأن المسيح عليه الصـلاة والسلام رُفع إلى السمـاء من موقع هذه الكنيسة[36] ويذكر أيضاً كنيسة صهيـون يقال أن المائدة نزلت علـى عيسى والحواريين بهـا[37] ثم وادي جهنـم وبه قبر مريم أم عيسى ينزل إليه في ست وثلاثين درجة وفيه الأعمدة الرخامية المنيعة الصلبة»[38]

وخارج القدس زيارةً أيضاً (عين سلوان) يقـال أن ماءها مثل مـاء زمزم وأنها تخرج من تحت قبة الصخرة وتمر بالوادي جنوبي القدسـ[39] كانت (سلـوان) قريةً مجاورة لسور القدس من الجهة الجنوبية ولا يبتعد عنـه إلا بضعة أمتار، لكنها اليوم من أحياء القدس، وعيون مائها (عين أم الدرج – بركة سلوان – البركة التحتانية – بئر أيوب – عين اللوزة) المصدر الوحيـد للمياه في القدس. ولعل اليبوسيين أقدم مَنْ جَرَّ مياه سلوان عبر نفق إلى داخل مدينة القدس.

أخيراً:

لقد كانت تلك بضعة مشاهد مقدسية من لحظات القرن السابع الهجري، اعتماداً على مصدرٍ كُتب في ذلـك القرن المليء بضجيج المعارك.. حيث كانـت القدس عاصمةَ تلك المواجهات وعاصمةَ ذلك القرن، فهي المدينةُ التي حملت أهم حدثين عالميين في تلك الفترة : الاندحار الصليبي وإيقاف الاجتياح المغولي .. كانت في كلا الحدثين عربية وإسلامية في صنـع الأحداث وفي تشكيـل المدينة. ولئن لهث المستشرقون اليهود للإيحاء بأن القدس بقيت زمنَ الاحتلالات الصليبية مدينةً ذات طابع عالمي (كوسموبوليتي) !! فتلك بالنسبة إليهم خطوة مهمة في مشروعهم الدائم لمحو الملامح العربية والإسلامية من وجه المدينة وروحها.. فبالنسبـة إليهم أن تكون القدس ذات طابـع عالمي أو حتى بيزنطي خيرٌ ألف مرة من أن تكون ذات طابع عربي إسلامي.

هوامش ومراجع البحث:

١- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد عز الدين. تاريخ لبنان والأردن وفلسطين. تحقيق سامي الدهان. المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق. ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢ م. م (١٥).

٢- الأعلاق الخطيرة ج٢ق٢. من مقدمة المحقق م (١٦).

٣- استغرقت الحروب الصليبية ما بين سنتي (١٠٩٦ – ١٢٩١م / ٤٩٠ -٦٩٠ هـ). وهي عبارة عن ثماني حملات عسكرية سبقتها حملة شعبية

٤- رحلة بنيامين التطيلي ترجمها إلى العربية عزرا حداد – بغداد – ١٩٤٥ م

٥- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار. جامعة الدول العربية. دار المعارف – مصر – ١٩٧٧م – ج٦ ص ١٢ وص ١٣.

٦- المصدر السابق ص١٩٨-١٩٩ .

٧- البلاذري، فتوح البلدان. نشر في مصر – ١٩٠١ – ص ١٤٥.

٨- الأعلاق، مصدر سابق ص ٢٠٣.

٩- وردت هذه الرسالة في الأعلاق، المصدر السابق من ص ٢٠٤ إلى ص ٢١٠.

١٠-ولد القاضي عبد الرحيم بن علي البيساني في عسقلان وتوفي سنة ٥٩٦ هـ ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ١/ ٢٨٤ والسبكي في طبقات الشافعية ٤/ ٢٥٣.

١١-الأعلاق، المصدر السابق ص ٢٠٤.

١٢-المصدر السابق ص ٢٠٥.

١٣-المصدر السابق ص ٢٠٥.

١٤-المصدر السابق ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

١٥-المصدر السابق ص ٢٠٦.

١٦-المصدر السابق ص ٢٠٧. ص٢٠٨. كان القائد العسكري الصليبي في القدس عند الفتح الصلاحي : غي دي لوزينيان.

١٧-المصدر السابق ص٢٠٨ – ص٢٠٩.

١٨-المصدر السابق ص ٢٠٩.

١٩-المصدر السابق ص ٢٢١ .وهو الأمير عز الدين جُرديك صاحب القدس من مماليك السلطان نور الدين ولقبه النوري صحب أسد الدين شيركوه إلى مصر.

٢٠-المصدر السابق ص٢٢٢.

٢١-المصدر السابق ص ٢٢٣.

٢٢-المصدر السابق ص ٢٢٣.

٢٣-المصدر السابق ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

٢٤-المصدر السابق ص٢٢٦ وص ٢٢٧.

٢٥-المصدر السابق ص ٢٢٧.

٢٦-المصدر السابق ص ٢٢٧ -ص ٢٢٨ - ص ٢٢٩ .

٢٧-المصدر السابق ص ٣٣.

٢٨-المصدر السابق ص ٢٣٠.

٢٩-المصدر السابق ص٢٣٠- ص ٢٣١.

٣٠-المصدر السابق ص ٢٣٢.

٣١-المصدر السابق ص ٢٣٣.

٣٢-المصدر السابق ص ٢٨٦.

انظر : - ريتشموند، قبة الصخرة المشرفة. أكسفورد - ١٩٢٤.

- كرسول، فن العمارة الإسلامية المبكرة، أكسفورد - ١٩٦٩.

- الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية - دمشق - ط١ - ١٩٨٤ - مج٣.

٣٣-المصدر السابق ص ٢٨٦.

×× الاسبتارية منظمة أسسها الصليبيون في السنة التي احتلوا فيها القدس(٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) جمعت بين الرهبنة والعسكرية، انشأت المشافي للاعتناء بالمرضى والحجاج المسيحيين، وأصبح لها نفوذاً واسعاً في جميع أوروبا. والداوية أو (فرسان الهيكل) مثل الاسبتارية.

٣٤-××× ذكر الداعية المسيحي يوستين مارتير أنَّ مريم ولدت المسيح ووضعته في مزود في مغارة قريبة جداً من القرية. في سنة ٣٣٠م بنى الإمبراطور قسطنطين الروماني كنيسة فوق المغارة دعيت بكنيسة القديسة مريم، ثم أعاد بناءها جوستنيان بشكلها الحالي وأصبحت تدعى كنيسة المهد.

٣٥-و(٣٦) المصدر السابق ص ٢٨٧.

٣٦-و(٣٧) و(٣٨) المصدر السابق ص ٢٨٨.

أطباء وبيمارستان القدس في الحضارة العربية الإسلامية

د. محمد ياسر زكور*

كما هي القدس مهد الأديان، فهي مهد الحضارات والعلوم التي ازدهرت كثيراً في ظل الحضارة العربية الإسلامية، ولاسيما في عهد صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فامتلأت البلاد العربية بالعلماء والأطباء، كما انتشرت فيها دور الاستشفاء، أو ما كان يدعى بالفارسية البيمارستان (بيمار= مريض، ستان= مكان)، ومن بين تلك البيمارستانات كان بيمارستان القدس الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي

* باحث في تاريخ العلوم الطبية. عضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم.

إضافة إلى العديد من البيمارستانات التي أنشأها في البلدان العربية منها القاهرة وعكا والإسكندرية وغيرها.

ومن القدس نشأ العديد من أعلام الطب العربي، وتوافد إليها الكثير ممن خدموا بصناعة الطب وعلّموا فيها، فمن هؤلاء كان على سبيل المثال لا الحصر:

جَبرائيل بن عبد الله بن بختَيْشوع

(٣١١-٣٩٦هـ/٩٢٣/١٠٠٥م)

الطبيب المشهور من عائلة كان أكثر أفرادها أطباء في بغداد، خدم المقتدر العباسي، وزار القدس ثم عاد إلى بغداد.[1]

يوسف النصراني

(كان حياً عام ٣٧٣هـ/٩٨٣م)

كان طبيباً عارفاً بصناعة الطب، فاضلاً في العلوم، صار بطريرك بيت المقدس زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي- أبو منصور نزار ثاني خلفاء الفاطميين بمصر، وذلك في السنة الخامسة من خلافته الذي تولى بين عامي (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥- ٩٩٦م)، وأقام في الرئاسة مدة ثلاث سنين وثمانية أشهر، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي فيها ودفن في كنيسة مار ثوادرس.[2]

محمد بن أحمد بن سعيد التميمي

(توفي ٣٨٠هـ/٩٩٠م)

طبيب كجده سعيد، ماهر في تركيب الأدوية، ولد بالقدس ونشأ فيها، درس الطب في مجلس الراهب أنبا زخريا بن ثوابه، زار عدة مدن ثم استقر بمصر ودخل في خدمة العزيز بن المعز الفاطمي، وصنف له كتاباً كبيراً في عدة مجلدات أسماه «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء».

ولما كان التميمي ببلده البيت المقدس معايناً لصناعة الطب وإحكام التركيبات، صنف وركّب ترياقاً سماه «مخلّص النفوس» وقال فيه: هذا ترياق ألفته بالقدس وأحكمت تركيبه، مختصر، نافع الفعل، دافع لضرر السموم القاتلة المشروبة والمصبوبة في الأبدان، بلسع ذوات السم من الأفاعي والثعابين وأنواع الحيّات المهلكة السم، والعقارب.. ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه في كتابه المسمى «مادة البقاء». ولما كان بمصر صنّف جوارشاً[3] وركّبه وأسماه «مفتاح السرور من كل الهموم ومفرح النفس» ألّفه لبعض إخوانه بمصر، وذكر صورة تركيبه وأسماء مفرداته، وكان منصفاً في مذكراته، غير رادّ على أحد إلا بطريق

الحقيقة، وكان التميمي هذا موجوداً بمصر في حدود سنة سبعين وثلاثمئة. وله مؤلفات أخرى غير ذلك.

وبالإضافة إلى ما أبدعه التميمي في الترياق والدخن الطارد للأوبئة، يُعد أول واضع لمبدأ مصفاة (شامبرلين) لتصفية الماء بالخزف، وذلك بوضع عدة طبقات من الخزف، أطلق عليها التصفية بالخزف المخلخل، كما ورد في كتابه «مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء»، وشرح فيه أسباب العدوى أيضاً.(٤)

البرّاق

(كان حياً سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م)

طبيب سوري، كان الطبيب الخاص لحاكم طرابلس الشام، الكونت ريموند، الذي أرسله لمعالجة ملك القدس بلدوين الثالث من مرض ألمّ به أثناء اجتيازه طرابلس في طريقه إلى بيت المقدس، غير أنّ حالة بلدوين ازدادت سوءاً، ومع ذلك مضى في طريقه حتى بلغ بيروت فمات بها في ١٠ فبراير سنة ١١٦٢م. وكان ينعم بصحة سليمة ورجولة فائقة، فاعتقد الناس أن عقاقير الطبيب البرّاق هي التي أدت إلى موته متأثراً بالسم. لم يتجاوز بلدوين الثالثة والثلاثين من عمره عند وفاته، واشتد حزن رعاياه لموته، بل إن الفلاحين المسلمين هبطوا من التلال لإظهار الاحترام لجثمانه عند تشييع جنازته إلى بيت المقدس.(٥)

الحسن بن الظُنْر(٦) الفارسي أبو علي المعروف بالظهير

(توفي ٥٩٨هـ/١٢٠١م)

ولد بقرية النعمانية بفارس، فقيه لغوي، طبيب، فلكي، رياضي، وكان يحفظ في المنطق أرجوزة ابن سينا، وكان قيماً بمعرفة قانون الطب، وعارفاً باللغة العبرانية. أقام مدة بالقدس فاجتاز به الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف فعرف منزلته من العلم، فضمه إلى صحبته وسافر معه إلى القاهرة، وتوفي فيها.(٧)

عبد اللطيف بن يوسف البغدادي موفق الدين

(٥٥٧-٦٢٩هـ/١١٦١-١٢٣١م)

العالم الموسوعي الطبيب الكيميائي، عالم بالتشريح والنبات والفلك والمنطق، موصلي الأصل، ولد ببغداد، وزار معظم البلاد العربية، وحدّث في بغداد والقدس وحران وبلاد الروم وملطية والحجاز، وكان قد اعتنى كثيراً بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها.

ويروي قصة ذهابه للقدس بقوله:

وشــاع أن صلاح الدين هــادن الفرنج وعاد إلى القدس، فقادتنــي الضرورة إلى التوجه إليه، فأخــذت من كتب القدماء ما أمكنني، وتوجهت إلى القدســ، فرأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة، والقلوب محبة... وأصحابه يتشبهون به، يتسابقون إلى المعروف كما قال تعــالى: «ونزعنا مــا في صدورهم من غل»، وأول ليــل حضرتــه وجدت مجلســاً حافلاً بأهــل العلم، يتذاكــرون في أصناف العلوم، وهو يحســن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأســوار وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلــك ويأتي بكل معنى بديع، وكان مهتماً في بنــاء سور القدس وحفــر خندقه، يتولى ذلك بنفسه.. فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينــاراً في كل شهــر على ديــوان الجامع، وأطلــق أولاده رواتب حتــى تقرر لي في كل شهــر مئة دينار. ورجعت إلى دمشق وأكببت على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع..»

ثم أقام عبد اللطيف البغدادي بالقاهرة وكان لــه الرتب والجرايــات من أولاد الملك الناصر صــلاح الدين، ولما ملــك السلطان العــادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، توجه الشيخ موفق الديــن إلى القدس، وأقام بها مــدة، وكان يــتردد إلى الجامــع الأقصى، ويشتغل الناس عليه بكثير من العلوم، وصنف هنالك كتباً كثيرة..[8]

داود بن أبي المنى أبي فانه أبو سليمان

(كان حياً سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م)

كان من أهــل القدس، وكان فاضلاً في الصناعــة الطبية، خبيراً بعلمهــا وعملها، متميزاً في العلوم، وهــو الذي ركّب الترياق الفاروق بالبيت المقدســ لمعالجة ابن الملك ماري مــن الجذام. ثــم انتقــل إلى الديار المصريــة، وحين حرر الملــك الناصر صلاح الديــن يوسف بــن أيوب سنــة ٥٨٣هـ كان أبو سليمان داوود قــد بشره بذلك، فأكرمه واعتنى بــأولاده حسب طلبه وما تمناه على السلطــان، وخلفه من أبنائه أيضاً في الطب مهــذب الدين أبو سعيــد، وموفق الدين أبو شاكر، وأبو نصر، وأبو الفضل.[9]

رشـيد الدين بـن يعقوب القدسـي أبو سعيد

(توفي ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)

طبيب من نصارى القدس، درس الطب في مجلســ رشيد الدين علــي بن خليفة في دمشــق، وكان متميــزاً في صناعــة الطب، خبــيراً بعلمها وعملها دخل في خدمة ملوك الأيوبيــين المعظــم والكامــل والصالح في مصــر ودمشق وتوفي فيها. لــه من الكتب :

عيـون الطب، وتعاليق علـى كتاب الحاوي للرازي.[10]

عبد السلام بن أحمد المقدسي المعروف بابن غانم

(توفي ٦٧٨هـ/١٢٧٩م)

طبيب فيلسوف، توفي ولم يبلغ الخمسين. مـن آثاره كتـاب «كشف الأسـرار عن حكم الطيـور والأزهـار» وله «رسالـة في تشبيه الإنسان بمملكة كاملة البنيان».[11]

عبـد الرحمـن بـن أبـي بكـر الحنبلـي المعروف بابن داوود

(٧٨٢-٨٥٦هـ/١٣٨٠-١٤٥٢م)

كيميائي عنده خـبرة بالأدوية المفردة، والنبات والأحجار والحيوان، وخاصة منافع لحوم الحيوان، ولد بدمشق ونشأ بها، عمل على مصالح البيمارستان القيمري بدمشق، ثـم رحل إلى القدس وتـوفي فيها. من كتبه «تسلية الواجم في الطاعون الهاجم».[12]

محمـد بـن عيسـى الصفـدي المعـروف بابن حامد

(٨٠٨-٨٨٧هـ/١٤٠٥-١٤٨٢م)

طبيب، ميقاتي، فقيه، ولد بصفد ونشأ فيهـا، ودرّس بدمشق، زار القدس ومكة، ثم عـاد إلى صفد وتوفي فيها ودفن في مدرسة أرقطاي.[13]

عبد الباسط بن خليل الغرسي المعروف بابن الوزير

(٨٤٤-٩٢٠هـ/١٤٤٠-١٥١٤م)

طبيـب، فقيه، مؤرخ. ولـد في ملطية، دخل المغرب فأخذ دروساً في النحو والكلام والطب، تولى عـدة نيابات في حماة وصفد والقدس والإسكندرية. من كتبه: «كتاب في الطب»، ورسالة في طبيعة الأفيون وتأثيراته العامـة وآراء بعض الأطبـاء في طبيعتـه وتأثيراته.[14]

كانت تلك لمحـة تعرفنا فيها على بعض من خدموا بصناعة الطب من الأعلام العرب القدمـاء، منهم من كان لـه موطن عمل في القدس، أو نشـأ فيها. وسوف نتحدث الآن عـن بيمارستان القدس وأهم الأطباء الذين خدموا فيه.

بيمارستان القدس

رحل السلطان صلاح الدين إلى القدس في اليـوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٨٣هـ وأمر بتشييد أسوارها، وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانـت قبـل الإسلام تعـرف بصَنْـد حَنَّة (Sainte anne) يذكرون أن بها قبر حَنَّة أم مريم عليها السلام، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يملك الإفرنج القدس، ثم لما ملك

الإفرنج القدس سنة ٤٩٢هـ أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، ولما فتح السلطان صلاح الدين القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الأشبيتار بقرب حمّامه مارستاناً للمرضى، ووقف عليها مواضع، وخصص أدوية وعقاقير غزيرة، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع أبي تميم.[١٥]

وأشار ابن القفطي[١٦] إلى بيمارستان القدس بقوله: إن يعقوب بن صقلاب النصراني أقام على حالته بالقدس في مباشرة البيمارستان إلى أن ملكه المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦١٥هـ.

وكتب الأستاذ العالم عادل جبر بك مدير المتحف الإسلامي ودار الكتب بالقدس الشريف قبل عام ١٩٣٩م عن هذا البيمارستان برسالة إلى الدكتور أحمد عيسى بك بالقاهرة صاحب «تاريخ البيمارستانات في الإسلام» فقال(١٧): إن بالقدس حارة تسمى الدباغة، والمشهور المتداول على ألسنة الناس أن البيمارستان الصلاحي (نسبة إلى صلاح الدين) كان في هذه الجهة، ثم أدركه الخراب، كما أدرك غيره من الآثار، ثم حدثت زلزلة في سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م فجعلته أثراً بعد عين، فعفيت آثاره واختلست أرضه، وتصرف فيه الحكام وغيرهم من الناس بالبيع والهبة، فوهب السلطان عبد الحميد قسماً من خراباته إلى الدولة الألمانية لمناسبة زيارة ولي عهدها للقدس الشريف سنة ١٨٩٦م فبنى فيه الألمان كنيسة افتتحها الإمبراطور غليوم الثاني سنة ١٨٩٨م وقال إنهم عثروا في خراباته على حجارة مكتوبة ناطقة باسم صلاح الدين وخلفائه من بعده.

نستنتج من ذلك أن هذا البيمارستان ظل قائماً حوالي ثلاثة قرون، ولا شك أن الكثير من الأطباء الذين كانوا بالقدس، خدموا المرضى فيه، غير الذين ذكروا في الكتب المختصة.

الأطباء الذين خدموا بصناعة الطب في بيمارستان القدس

قلت لا بد إنهم كثر، ولكن من أشهر من ذكر وخدم في هذا البيمارستان هما؛ يعقوب بن صقلاب النصراني المقدسي، ورشيد الدين الصوري.

يعقوب بن صقلاب(١٨) موفق الدين
(توفي ٦٢٥هـ/١٢٢٨م)

النصراني المقدسي المشرقي (أي شرقي القدس) الملكي، مولده بالقدس الشريف، قرأ فيه الحكمة والطب، وأقام سنين طويلة، وكان صاحب رأي وتدبير. وصفه العمري بقوله[١٩]: حكيم أطاح طبه رداء السقم، وأطار عن الأعضاء لوثة السأم، وكان كأنما خلق من طينة أفلاطون وجالس جالينوس حتى اخترمته المنون.

نشأته وشيوخه: قرأ على تاذوري الفيلسوف الأنطاكي نزيل القدس، وكان هذا الفيلسوف أخذ علوم الأوائل بأنطاكية وغيرها، واستوطن القدس وجعل داره بها شكل كنيسة (دير السيق)، كان خبيراً بالعلم الطبيعي، متقناً للهندسة وعلم الحساب، قوياً في علم أحكام النجوم والاطلاع عليها، وكانت له أحكام صحيحة، وإنذارات عجيبة، يقول ابن أبي أصيبعة: وأخبرني الحكيم يعقوب عنه معرفته للحكمة وحسن فطرته وفطنته شيئاً كثيراً، وتبتل للعبادة وأقرأ العلوم إلى حدود سنة ٥٨٠هـ، وقرأ عليه يعقوب هذا شيئاً من أوائل هذه الصناعة.

واجتمع أيضاً الحكيم يعقوب في القدس بالشيخ أبي منصور النصراني الطبيب، وتتلمذ عليه، وباشر معه أعمال صناعة الطب وانتفع به. وأبو منصور النصراني[٢٠] كان طبيباً مشهوراً عالماً، حسن المعالجة والمداواة، وخدم بصناعة الطب للملك الناصر صلاح الدين بن أيوب وبقي سنين في خدمته.

منزلته ومآثره:

أقام يعقوب بالقدس على حالته في مباشرة البيمارستان إلى أن ملكه المعظم عيسى ابن الملك العادل أبو بكر بن محمد ابن أيوب فاختص به، وكان حسن المعالجة بالتجربة البيمارستانية، ثم نقله المعظم عيسى إلى دمشق وأقام إلى أن توفي فيها.

وقال عنه ابن أبي أصيبعة[٢١]: كان أعلم أهل زمانه بكتب جالينوس ومعرفتها والتحقيق لمعانيها، والدراية لها، وكان من كثرة اجتهاده في صناعة الطب وشدة حرصه ومواظبته على القراءة والمطالعة لكتب جالينوس، وجودة فطرته وقوة ذكائه، أن جمهور كتب جالينوس وأقواله فيها كانت مستحضرة له في خاطره، فكان مهما تكلم به في صناعة الطب على تفاريق أقسامها، وتفنن مباحثها، وكثرة جزئياتها، إنما ينقل ذلك عن جالينوس، ومهما سئل عنه في صناعة الطب من المسائل والمواضيع

المستعصية وغيرها لا يجيب بشيء من ذلك إلا أن يقول قال جالينوس، ويورد فيه أشياء من نصوص كلام جالينوس، حتى كان يتعجب منه في ذلك، وربما أنه في بعض الأوقات كان يذكر شيئاً من كلام جالينوس، ويقول: هذا ما ذكره جالينوس في كذا وكذا ورقة من المقالة الفلانية من كتاب جالينوس، ويسميه ويعني به النسخة التي عنده، وذلك لكثرة مطالعته إياها وأنسه بها. ومما شاهدته في ذلك من أمره أنني كنت أقرأ عليه في أوائل اشتغالي بصناعة الطب ونحن في المعسكر المعظمي - وكان أبي أيضاً في ذلك الوقت في خدمة الملك المعظم رحمه الله - شيئاً من كلام أبقراط حفظاً واستشراحاً، فكنت أرى من حسن تأنيه في الشرح، وشدة استقصائه للمعاني - بأحسن عبارة وأوجزها وأتمها معنى - ما لا يجسر أحد على مثل ذلك ولا يقدر عليه، ثم يذكر خلاصة ما ذكره وحاصل ما قاله حتى لا يبقى في كلام أبقراط موضع إلا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة، ثم إنه يورد نص ما قاله جالينوس في شرحه لذلك الفصل على التوالي إلى آخر قوله، ولقد كنت أراجع شرح جالينوس في ذلك فأجده قد حكى جملة ما قاله جالينوس بأسره في ذلك المعنى، وربما ألفاظ كثيرة من ألفاظ جالينوس يوردها بأعيانها من غير أن يزيد فيها ولا ينقص، وهذا شيء تفرد به في زمانه.

وكان في أوقات كثيرة لما أقام بدمشق يجتمع هو والشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء عند دار السلطان ويتباحثان في أشياء من الطب، فكان الشيخ مهذب الدين أفصح عبارة، وأقوى براعة، وأحسن بحثاً، وكان الحكيم يعقوب أكثر سكينة، وأبين قولاً، وأوسع نقلاً، لأنه كان بمنزلة الترجمان المستحضر لما ذكره جالينوس في سائر كتبه من صناعة الطب.

فأما معالجات الحكيم يعقوب فإنها كانت في الغاية من الجودة والنجاح، وذلك أنه كان يتحقق معرفة المرض أولاً تحقيقاً لا مزيد عليه، ثم يشرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله في الوقت الحاضر.

وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث أنه كان إذا افتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عرضاً عرضاً، وما يشكوه مما يجده من مرضه حالاً حالاً إلى أن لا يترك عرضاً يستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره، فكانت أبداً معالجاته لا مزيد

عليها في الجـودة، وكان الملك المعظم يشكر منه هذه الحالة ويصفه ويقول: لو لم يكن في الحكيم يعقوب إلا شدة استقصائه في تحقيق الأمراض حتـى يعالجها على الصواب، ولا يشتبه عليه شيء من أمرها.

وكان الحكيـم يعقـوب أيضـاً متقنـاً للسان الرومي خبـيراً بلغته ونقل معناه إلى العربـي، وكان عنده بعض كتـب جالينوس مكتوبة بالرومي مثـل «حيلة البرء» و«العلل والأعراض» وغير ذلك، وكان أيضاً ملازماً لقراءتها والاشتغال بها.

وكان الحكيم يعقوب من أتم الناس عقلاً، وأسدهم رأياً، وأكثرهم سكينة، ولما خدم الملك المعظـم عيسى بن أبي بكر ابن أيوب، وصار معـه في الصحبة كان حسـن الاعتقاد فيه، حتـى إنه كان يعتمد عليه في كثير من الآراء الطبية وغيرها فينتفع بها ويحمد عواقبها، وقصـد الملك المعظـم أن يوليه بعض تدبير دولتـه والنظر في ذلك، فمـا فعل، واقتصر على مداومة صناعة الطب فقط.

وكان قـد عرضـ للحكيـم يعقوب في رجليـه نقرس، وكان يثور به في أوقات، ويألم بسببه، وتعسـر عليه الحركـة، فكان الملك المعظـم يستصحبه في أسفاره معه في محفة ويفتقـده، ويكرمـه غاية الإكـرام، وله منه الجامكية (مرتب) السنية والإحسان الوافر، وقـال له يومـاً: يا حكيم لم لا تـداوي هذا المرض الذي في رجليك؟ فقال: يا مولانا[٢٢] الخشـب إذا سوسـ ما يبقـى في إصلاحه حيلـة. ولم يـزل في خدمتـه إلى أن تـوفي الملـك المعظم، وكانت وفاته (رحمه الله) في الساعة الثالثة من نهار يوم الجمعة سلخ ذي القعـدة سنة أربع وعشرين وستمئة بدمشق، وملك بعده ولده الملـك الناصر داود فدخل إليه الحكيـم يعقوب، ودعا له وذكره بقديم صحبته، وسالف خدمته، وأنه قد وصل إلى سن الشيخوخة والهرم والضعف وأنشده:

أتيتكم وجلابيب الصبا قشب
فكيف أرحل عنكم وهي أسمال
لي حرمة الضيف والجار القديم ومن
أتـاكـم وكـهـول الحـي أطـفـال

وهـذا الشعر لابـن منقذ رحمـه الله، فأحسـن إليه الملك الناصـر إحساناً كثيراً، وأطلق له مالاً وكسوة وأمر بأن جميع ما قد كان له مقـرراً من الملك المعظم يستمر، وأن لا يكلف لخدمة، فبقي كذلك مُدّة، ثم توفي بدمشـق في عيد الفصـح للنصارى، وذلك في شهـر ربيع الآخر سنـة خمس وعشرين وستمئة.

رشيد الدين بن الصوري

(٥٧٣-٦٣٩هـ/١١٧٧-١٢٤١م)[٢٣]

هو أبو المنصور بن أبي الفضل ابن علي الصوري، قد اشتمل على جمل الصناعة الطبية، واطلع على محاسنها الجلية والخفية، وكان أوحداً في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها، وتحقيق خواصها وتأثيراتها.

وصفه العمري في مسالك الأبصار بقوله: «رجل تهادته الملوك، وهادنته الأيام لحسن السلوك، وكان الحظّ معه حيثما خيّم...».

نشأته وشيوخه:

ولد ابن الصوري بمدينة صور في لبنان ونشأ بها، ثم انتقل عنها واشتغل بصناعة الطب على الشيخ موفق الدين عبد العزيز ابن عبد الجبار بن أبي محمد السلمي بدمشق (توفي ٦٠٤هـ)[٢٤]، وقرأ أيضاً على الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، وتميز في صناعة الطب، وأقام بالقدس سنتين، وكان يطبب في البيمارستان الذي كان فيه. وصحب الشيخ أبا العباس الجياني[٢٥]، وكان شيخاً فاضلاً في الأدوية المفردة متفنناً في علوم أخرى، كثير الدين، محباً للخير، فانتفع بصحبته له، وتعلم منه أكثر ما يفهمه.

منزلته ومآثره:

اطلع رشيد الدين بن الصوري على كثير من خواص الأدوية المفردة حتى تميز على كثير من أربابها، وأربى على سائر من حاولها واشتغل بها، هذا مع ما هو عليه من المروءة التي لا مزيد عليها، والعصبية التي لم يسبق إليها، والمعارف المذكورة، والشجاعة المشهورة، وكان قد خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر ابن أيوب في سنة اثنتي عشرة وستمئة لما كان الملك العادل متوجهاً إلى الديار المصرية واستصحبه معه من القدس، وبقي في خدمته إلى أن توفي الملك العادل رحمه الله، ثم خدم بعده ولده الملك المعظم عيسى بن أبي بكر، وكان مكيناً عنده وجيهاً في أيامه، وشهد معه مصافات عدة مع الفرنج لما كانوا نازلوا ثغر دمياط، ولم يزل في خدمته إلى أن توفي المعظم رحمه الله؛ وملك بعده ولده الملك الناصر داوود بن الملك المعظم فأجراه على جامكيته، ورأى له سابق خدمته، وفوض إليه رئاسة الطب، و بقي معه في الخدمة إلى أن توجه الملك الناصر إلى الكرك، فأقام هو بدمشق، وكان له مجلس للطب وجماعة يترددون إليه، ويشتغلون بالصناعة الطبية، وحرر كثيراً في أيام الملك المعظم، وتوفي رشيد الدين بن

الصوري (رحمه الله) يوم الأحد أول شهر رجب سنة تسع وثلاثين وستمئة بدمشق.

من أهم مؤلفاته: «فوائد ووصايا طبية» أهداه لابن أبي أصيبعة فشكره بقصيدة في رسالة:

لعلم رشيد الدين في كل مشهد
منار علا يأتمّه كل مهتدي

حكيم لديه المكرمات بأسرها
توارثها عن سيد بعد سيد

حوى الفضل عن آبائه وجدوده
فذلك قديم فيه غير مجدد

تفرد في ذا العصر عن كل مشبه
بخير صفات حصرها لم يحدد

أتتني وصايا ه الحسان التي حوت
بنثر كلام كل فصل منضد

وأهدى إلى قلبي السرور ولم يزل
بإحسانه يسدي لمثلي من يد

وجدت بها ما أرتجيه وإنني
بها أبدأ فيما أحاول مقتدي

ولا غرو من علم الرشيد وفضله
إذا كان بعد الله في العلم مرشدي

وله أيضاً «كتاب الأدوية المفردة»، وهذا الكتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم، وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة، وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون، وكان يستصحب مصوراً، ومعه الأصباغ والليق(٣٦) على اختلافها وتنوعها، فكان يتوجه رشيد الدين بن الصوري إلى المواضع التي بها النبات، مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات فيشاهد النبات ويحققه، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها، ثم إنه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً، وذلك أنه كان يري النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريه إياه أيضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه إياه أيضاً في وقت ذواه (ذبوله) ويبسه، فيصوره، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه في الكتاب، وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه في الأرض فيكون تحقيقه له أتم، ومعرفته له أبين.

المصادر والمراجع:

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٦٥م.

حميدان، زهير: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، وزارة الثقافة- دمشق ١٩٩٦م، ٦ مجلدات.

رَنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية الباز العريني، دار الثقافة- بيروت ١٩٦٨م.

الزركلي، خير الدين: الأعلام، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م، دار العلم للملايين بيروت. ٩ مجلدات.

ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج: تاريخ مختصر الدول، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٩٧م.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ١٩٩٣م. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، (١١ مجلد).

العمري، ابن فضل الله، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى عقلة ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠١م.

عيسى، أحمد: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي بدمشق ١٩٣٩م.

عيسى، أحمد: معجم الأطباء، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، ١٩٨٢م.

القفطي، الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ: كتاب إخبار العلماء بأخيار الحكماء، مكتبة المتنبي- القاهرة.

كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م. (٤ مجلدات).

الهوامش

١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٢١٣. حميدان: أعلام الحضارة ج١ ص٢٧١.

٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٥٤٥. حميدان: أعلام الحضارة ج٢ ص٥٨١.

٣- الجوارش: نوع من المعجون يعطى عن طريق الفم.

٤- القفطي: إخبار العلماء ص٧٤. ابن أبي أصيبعة ص٥٤٦. حميدان: أعلام الحضارة ج٢ ص٢٦٣.

٥- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٥٨٣. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص١٧٤.

٦- الظئر: المرضعة لولد غيرها، ويضرب في قيمة الإلفة والتثبت بها.

٧- عيسى: معجم الأطباء ص١٦٤. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص٢٠٦.

٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٨٣. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٤٨.

٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٥٨٧- ٥٩٠. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص٢٢٧.

١٠-ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٥٩٩. كحالة: معجم المؤلفين ج١ ص٧١٨. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص٢٣٧.

١١-ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٦٣٢. الزركلي: الأعلام ج٣ ص٣٥٥. كحالة: معجم المؤلفين ج٢ ص١٤٥. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٢٨.

١٢-ابن العماد: شذرات الذهب ج٩ ص٤٢٢. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص١١.

١٣-كحالة: معجم المؤلفين ج٣ ص٥٧٢. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٢٩٣.

١٤-عيسى: معجم الأطباء ص٢٤٥ عن بدائع الزهور لابن إياس. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٦. الزركلي: الأعلام ج٣ ص٢٧٠. كحالة: معجم المؤلفين ج٢ ص٤٠.

١٥-عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٣٠. عن نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، وعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني.

١٦-ابن القفطي: إخبار العلماء ص٢٤٨.

١٧-عيسى: تاريخ البيمارستانات ص٢٣١.

١٨-صقلاب: الرجل الأبيض. وقيل الأحمر. وترجمته في القفطي: إخبار العلماء ص٢٤٨. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٢٢. (وفيهما اسمه بالنون: صقلان). ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٩٨. الأعلام للزركلي ج٨ ص ١٩٨ (وهو فيه بالسين: سقلاب). وعيسى: معجم الأطباء ص٥٢١، وتاريخ البيمارستانات ص٢٣٢. وحميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٥٠٤.

١٩-العمري: مسالك الأبصار ج٩ ص٣٩٥.

٢٠-ترجمته في ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٦١.

٢١-ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٩٧.

٢٢-في رواية معجم الأطباء (ياخُوَنْد). عيسى: معجم الأطباء ص٥٢١. عن الوافي بالوفيات للصفدي

وتاريخ مختصر الدول لابن العبري. خُونْد = أمير، مخدوم. بالفارسية (المعجم الذهبي).

٢٣-ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٩٩. العمري: مسالك الأبصار ج٩ ص٣٩٧. عيسى: تاريخ البيمارستانات ص٢٣٢. الزركلي: الأعلام ج٣ ص٢٣. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص٢٣٤. قطاية: شخصيات الطب العربي، ص بدون رقم.

٢٤-ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٧١.

٢٥-لعله عبد المنعم الجلياني (وفي فوات الوفيات لابن الكتبي: الجياني) قدم من الأندلس واستوطن دمشق (توفي ٦٠٣هـ). عن حميدان: أعلام الحضارة ج٥ ص٣٣٠، ينظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٣٠.

٢٦-اللِّيق: بالكسر، شيء أسود يجعل في الكحل. والليقة: صوفة الدواة، أو إذا بلّت. (المعجم الوسيط).

الدراسات والبحوث



القدس مركز صراع حضاري وثقافي
لا تلغيه تسويات إرغام مفتعلة

د. خير الدين عبد الرحمن *

يمثل الاحتفال بالقدس واستذكارها والتذكير بها، أيا كان المساق أو الإطار: دينياً أو حضارياً، تاريخياً أو تراثياً، ثقافياً أو فنياً تحدياً لاحتلالها من قبل الغزاة الصهاينة الذين تتصاعد إجراءاتهم لتهويد المدينة المقدسة وتهجير أهلها المتشبثين ببقائهم فيها في ظل ظروف أمنية واقتصادية وسياسية تجعل هذه الإقامة بحد ذاتها رباطا شجاعا ومقاومة صلبة وجهادا لا يدانى.

* باحث وأديب سوري

تتفـرد القدسـ بوضـع وخصائصـ تميزها عـن أي مدينة أخرى في العالم: إنها مدينـة الأنبياء والرسـل، ومهبط الديانات السماويـة الثلاث. مما جعل قداستها عامة لجميع أتباع الرسالات السماوية،على الرغم من سعي مغتصبيها المفسدين في الأرض إلى ادعاء احتكارهم إياهـا وتثبيته عبر وقائع شملـت بناء عشرات آلاف المباني التي تشوه المدينة وتزيـف وجهها المشـرق، واستقدام مئات الآلاف مـن لصوص الأرض والتاريخ من شتى أنحاء العـالم للإقامة فيها بحماية ترسانة حربية ورؤوسـ نووية،على أنقاض بنيتهـا المجتمعية والثقافيـة الطبيعية، في مسعى إلى إحلال الوهم والأكذوبة الصهيونية مـكان الإرادة الإلهيـة والتواصـل البشري للمقدسيين على امتداد آلاف السنين، وهما ما جعـل القدس من أهـم المراكز الروحية وأبرز مراكز التوحيد في العالم.

ليس الغزاة الصهاينة أول غزاة القدس، فهي مدينـة الحرب والسـلام التي حملت علـى كاهلهـا تاريخا حافـلا يناهز حوالي الستـة آلاف عام، تعرضت فيه لما لم تتعرض لـه أي مدينـة أخرى من غـزوات وحروب وأدعياء حـق باحتكارهـا.. وظلت القدس لألـف وأربعمئة سنة، على الرغم من الغزاة والمحن، موئلا لثقافة التسامح والمحبة، وقبلة للمؤمنـين كافة، مسلمـين ونصارى ويهود، يحجون إليهـا، ويطمحـون للإقامة فيها، كمـا سعى إليها طلبـة العلم من شتى الأمم والبلدان للدراسـة في مدارسها ومساجدها وأديرتها ومعاهدهـا الدينية والعلمية التي رفـدت الإنسانية بـآلاف الأئمـة والعلماء ورجـال الفلك والأطباء والعلـوم الإنسانية والطبيعية.

كانت القدس بحق مهدا لأقدم الحضارات وأعرقها، وظلـت حتـى في أحلـك فـترات محاولات الغزاة اغتصابها وانتهاك قدسيتها مشعلاً وزادا للثقافـة العربية ومنارة للفكر الإنساني، وهمزة وصل بين الحضارات. إنها المدينة التـي عاشت أوج ازدهارها ومجدها على امتداد الحكم الإسلامي لها الذي امتد زهـاء ثلاثة عشر قرناً. إنها المدينة التي بلغ ما قد كتب عنها ستة آلاف مجلد وكتاب. بل زاد عدد العلماء البارزين الوافدين إليها في عهد المماليـك وحدهم الذين امتد حكمهم زهاء (٢٥٠ عاماً) عـن ٨٠ من أهم العلماء الذيـن أقاموا فيها وراحوا يدرّسون في أكثر مـن ٤٠ مدرسة مـن مدارسها.. جاء هؤلاء إلى القدس من اثنين وعشرين بلدا، مكرسين عالمية هـذه المدينة. لكن عالميـة القدس لم

تخدش يوماً أصالتها المتمثلة بكونها مدينة عربية التأسيس والجذور والبناء والتاريخ والانتماء. صحيح أنها لم تكن يوماً عاصمة رسمية للدولة العربية/ الإسلامية، شأن المدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة وغرناطة، لكنها ظلت عاصمة روحية للأمة، ودرة الوطن العربي، وموئل التشبث بتسمية فلسطين (سورية الجنوبية) والتجسيد الأبرز للامتداد والتواصل التاريخي للثقافة العربية والتراث العربي، حتى عندما عانت خيانة حكام قايضوا الغزاة الفرنجة أكثر من مرة على دعم عروشهم البائسة في مقابل تخليهم عن القدس، على نحو ما يتكرر مجدداً تحت وطأة جائحة الغزاة الصهاينة حتى عندما بكت القدس مأساة غدر أولي القربى لم يترددوا في التخلي عنها والتفريط بها وعزلها عن محيطها العربي، ظلت وفية لذاتها العربية. لله درك يا قدس.. كم تشبثت بعروبتك في زمن عبث آخرون ممن تقمصوا دور يوضاس بانتمائهم.

تئن القدس اليوم حزناً وألماً من شدة وطأة الاحتلال الصهيوني العنصري عليها وإمعانه في تشويهها بتهويد الحجر والإدارة والوجه، وإذاقة أهلها العرب شتى صنوف الظلم والقهر والحصار والقمع والتجويع لتهجيرهم. جدران وأسوار إسمنتية تطوقها، وأسيجة وأسلاك شائكة وحواجز عسكرية تبعد أهلها عن مقدساتهم وأسواقهم، وأطواق متتالية من أحزمة بنايات شاهقة لغزاتها المدججين بالسلاح لتغيير وجه المدينة وإبعادها عن الذاكرة الوطنية للفلسطينيين في باقي أراضي وطنهم المغتصب، ولإحكام عزلها ومنع تواصلها مع باقي جسدها الفلسطيني والعربي.

كما تفننت سلطات الاغتصاب الصهيوني في أساليب ووسائل محاربة المؤسسات الوطنية والمجتمعية والثقافية والاقتصادية والدينية - الإسلامية والمسيحية- وكادت تجعل الدخول إليها للصلاة والتعبد فيها مستحيلاً، لا للقاطنين في مدن وقرى فلسطين الأخرى فحسب، بل لسكان القدس أنفسهم، ممن تواصلت إقامتهم فيها قروناً، جيلاً في إثر جيل. وضيقت على الساعين لزيارتها ومشاهدة آثارها ومعالمها، لطمس جوهر القدس العربي وخنق مؤسساتها الدينية الإسلامية والمسيحية التي تلاحقت الإجراءات الصهيونية لإخفاء حقائق مقدساتها وانتهاك حقوقها، وحقوق أهلها القانونية، عبر التخريب والهدم والحفريات والتزوير والتعتيم وتشويه تراث القدس،

وتغيير معالمها، وقتل هويتها الوطنية، وإزهاق روحها الثقافية، وتسطيح مناهجها وحياتها التعليميــة، وتدمير روابطهــا الاجتماعية، وتمزيقها ديموغرافيــاً وجغرافياً وقضائياً وإدارياً وخنقها اقتصادياً.

وبقدر ما لفلسطين من أهمية استراتيجية وجغرا- سياسيــة وتاريخيــة ورمزية، فإن أهميتهــا الدينية كمركــز روحي باركه الله وأطلق منــه الأديان السماويــة وربطها به، وجعــل أكثر الأنبياء يولدون فيها أو يعيشون فيها أو يمرون بها، تكرس ما جاء بشأنها في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، باعتبارها مركز الصــراع الرئيس، وباعتبــار القدس بالذات قلبها وجوهرها. وقد كانت القدس مركز استقطاب وجــذب وإشعاع منذ بناها العرب الكنعانيون قبل نحو سبعة آلاف سنة. جاء في الحديــث القدسي الذي نقله النبي محمــد عن الله عز وجل قولــه عن القدس وما حولها «أنت جنتي وقدسي وصفوتي من بــلادي، من سكنك فبرحمة مني، ومن خرج منك فبسخط مني عليه». وعن الصراع على فلسطين وفضل المرابطين فيها دفاعا عنها – وعن ودرتها القدســ – قال النبي محمد صلى الله عليه وسلـم: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهــم ولا ما أصابهم من البــلاء، حتى يأتيهم أمــر الله وهم كذلك»، فلما سألوه أين هم، قــال: «في بيت المقدس وأكناف بيــت المقدس» (رواه أحمد) وكذلك فقد قــال: «لا تقــوم الساعة حتــى يسوق الله خير عباده إلى بيــت المقدس فيسكنهم إياه». وهو قد قال أيضاً: «لنعم المصلى بيت المقدس، هــو أرض المحشــر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه، فــإن الصلاة فيه كألف صلاة، وليأتين على الناس زمان والقيد سوط، قوس الرجــل حيث يــرى منه بيــت المقدس خير لــه وأحب إليه من الدنيــا جميعا» (أخرجه البيهقــي). وكذلك قال فيه: «مــن أراد أن ينظر إلى بقعة من بقــاع الجنة فلينظر إلى بيت المقدســ». وقال أيضاً: إن الجنة لتحن شوقــا إلى بيت المقدســ، وبيت المقدس من جنة الفردوس، وهو سرة الأرض».

لعل هذا يفســر حرص هرتسل، مؤسس الحركة الصهيونيــة السياسية المعاصرة، أن يشــدد القول، على الرغم من كونه علمانيا، وغير متدين: «إذا حصلنا يوماً على القدس وكنــت لا أزال حيا، فســوف أزيل كل شيء ليــس مقدســا لليهود فيها، وســوف أحرق الآثــار التي مرت عليها قرون». وقال ديفيد بن غوريون، أبرز قائد صهيوني بعد هرتسل،

الذي كان بدوره علمانيا غير متدين، بل ويحتقر اليهود المتدينين علنا: «لا معنى لإسرائيل بدون القدس».هذا بالضبط ما جعل خمسا وعشرين منظمة إرهابية يهودية تنشط في الوقت الراهن لتدمير المسجد الأقصى وتفريغ القدس من أهلها العرب الفلسطينيين، فمصير مشروع الغزو الصهيوني لفلسطين وما حولها يرتبط إلى حد بعيد بمصير الصراع على القدس، المدينة التي شكل اسمها كلمة سر سحرية استخدمتها شبكات صهيونية ويهودية لاستقطاب تبني ودعم عدة كنائس مسيحية غربية لمشروع غزو فلسطين.

لم تبدأ المحنة مع استكمال احتلال القدس في حزيران ١٩٦٧، ولا باحتلال أحيائها الجديدة وضواحيها الغربية في العام ١٩٤٨، ولا حتى ببدء الغزو الاستيطاني لها في سياق المشروع الصهيوني عقب المؤتمر الصهيوني الأول في بال. لقد بدأت المحنة عندما ركز سدنة الاستعمار الأوروبي على استهداف الوطن العربي تجديدا لغزوات الفرنجة التي اتخذت الصليب ستاراً يخفي أحقادها وأطماعها، وهو تركيز ضاعفه شق قناة السويس وظهور بواكير الاكتشافات النفطية في المشرق العربي. كان تقرير لجنة كامبل بنرمان الذي تم وضعه في العام ١٩٠٧ واضحاً في مقاصده، إذ جاء فيه تحذير شديد للدول الغربية من وحدة العرب ونهوضهم، بالقول: «إن الخطر على كيان الإمبراطوريات الاستعمارية كامن في هذه المنطقة: في تحررها، وفي توحيد توجهات سكانها، وفي تجمعها واتحادها حول عقيدة واحدة وهدف واحد». وتضمن هذا التقرير البريطاني في قسمه الثالث دعوة صريحة إلى جميع الدول الاستعمارية ذات المصالح المشتركة بضرورة «العمل على استمرار وضع المنطقة المجزأ، المتخلف، كما هو، وعلى إبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك، وجهل، وتأخر، وعلى محاربة اتحاد جماهير المنطقة، ومنع ترابطها بأي نوع من الترابط: الفكري، أو الروحي، أو التاريخي، وعلى إيجاد الوسائل العملية القوية لفصلها عن بعضها ما أمكن...». قدم تقرير اللجنة مقترحاته العملية على النحو التالي: «لدرء الخطر عن الاستعمار العالمي والعمل على فصل الجزء الأفريقي من المنطقة عن الجزء الآسيوي وإقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا، بحيث يشكل قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة..» [1].

هكذا جاءت اتفاقية سايكس- بيكو في العام ١٩١٦ التي فتتت المنطقة إلى دويلات عديدة مفتعلة، وتصريح بلفور في العام اللاحق ١٩١٧ الذي أسس لفصل الجزء الآسيوي من العالم العربي عن الجزء الإفريقي عبر إقامة حاجز بشري قوي عازل محمي من القوى الاستعمارية على أرض فلسطين، التي هي أرض الاتصال البري الوحيد بين آسيا وأفريقيا، مركز وحدة العالم العربي أرضا وبشرا، وبؤرة التجزئة التي ما زالت تحميها وتكرسها القوى التي فرضتها في أوائل القرن الماضي.

ألقى السناتور الجمهوري من ولاية ماساشوستس الأمريكية هنري كابوت لودج مثلا، حين كان رئيسا للجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس الأمريكي، خطاباً في شهر حزيران ١٩٢٢ بمدينة بوسطن، أثناء انتفاضة فلسطينية ضد الانتداب البريطاني وموجات الهجرة والاستيطان الصهيونية التي اتسعت وتكثفت بحماية سلطات الانتداب وجيشه، مفسراً حماسه في استصدار قرار من مجلس الشيوخ الأمريكي، في نفس الأسبوع، قضى بتبني وتأييد تصريح وزير الخارجية البريطاني بلفور في العام ١٩١٧ الذي أعلن التزام بريطانيا دعم تحويل فلسطين إلى «وطن قومي لليهود»، والذي صادق الرئيس الأمريكي وودرود ويلسون عليه في رسالة بعث بها إلى الحاخام ستيفي وايز زعيم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة آنذاك. قال هنري كابوت لودج: «إنني لم أحتمل يوما فكرة وقوع القدس وفلسطين المقدسة تحت سيطرة المحمديين.. إنها لطخة في جبين الحضارة من الواجب إزالتها»[٢].

يشير هذا التصريح إلى جملة حقائق. فهو يدلل على انتشار النفوذ الصهيوني وتنسيق جهوده على امتداد العالم، ويشير إلى تركيز المشروع الصهيوني على الاستثمار الأقصى للعامل الديني وما تفرع عنه من خرافات وأساطير وصراعات، وبشكل خاص استثمار الأحقاد التاريخية التي دفعت إلى الغزوات الصليبية المتكررة لمشرق العالم العربي ومغربه، والتي كرستها الحركة الاستعمارية لاحقا، إضافة إلى استثمار الاختراق الذي نجح ناشطون يهود في إحداثه في عدة كنائس مسيحية في الغرب على أصعدة العقيدة والطقوس والتحالفات منذ نجحوا في غواية دمج العهد القديم (أي التوراة بعدما حرفوها) بالعهد الجديد (أي الإنجيل بصيغه السبعة) على الرغم

من أن الحركة الصهيونية كانت علمانية في فكرها وقياداتها وارتباطاتها. كما يشير إلى مدى عمق هذا الحقد التاريخي على العرب والمسلمين لدى أوساط غربية فاعلة، ومدى جهل تلك الأوساط بحقائق التاريخ والجغرافيا وسطحية تفكيرها من ناحية أخرى، ويؤكد أن الصراع حضاري وقومي وديني في الوقت نفسه، وأن القدس بالذات مركزه الرئيس.

وهكذا، نستذكر أنه عندما دخل الجنرال البريطاني اللنبي القدس يوم ١٩١٧/١٢/٩ على رأس جيش كبير، تنفيذا لوعد قطعه على نفسه أمام رئيس وزراء بريطانيا آنذاك، لويد جورج، بأن يقدم له القدس هدية عيد الميلاد في ذلك العام، وتأسيسا لتنفيذ تصريح بلفور الذي صدر قبل خمسة أسابيع بفرض إقامة وطن يهودي في فلسطين، قال ذلك الجنرال: الآن انتهت الحروب الصليبية!.. فالقدس تظل محركا لصراع مصيري شامل لا يوقفه احتلالها، بل يؤججه، ولا تلغيه اتفاقيات إذعان يوقعها هذا الحاكم أو ذاك، بل توسع مداه. لم تنته الحروب الصليبية وإن جرى الابتعاد بساحاتها الساخنة عن القدس غرباً إلى البوسنة، وشرقاً إلى الشيشان. إنها حرب مستمرة تثبتها الوقائع على الأرض والإعلانات الصريحة للقيادات الصليبية المتهودة..»[٣]. إن «النجاح اليهودي المعاصر في بسط الهيمنة ومد الأذرع الأخطبوطية في معظم أنحاء عالمنا، والتحكم بالنظام الاقتصادي العالمي وبالأوضاع السياسية لدول كثيرة كبرى وصغرى وبالحياة الاجتماعية والثقافية نشرا للفوضى والقيم المادية والفردية والإفساد الأخلاقي والإداري، من أجل تحطيم المجتمعات وجعلها سلسة الانقياد، مطواعة، بهيمية النزوات والشهوات، مخدرة العقول، قد جعل الكثير من الأوساط يتساءل عن سر قدرة أربعة عشر مليون يهودي على بسط مثل هذه السيطرة وتحقيق مثل هذا التحكم الهائل في مقدرات العالم. إن المسألة أكثر تعقيدا من حصرها بمدى انتشار الماسونية وواجهاتها، أو مدى نفوذ اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة والمافيا اليهودية في روسيا، أو السيطرة اليهودية التقليدية على أسواق المال والذهب، أو التغلغل اليهودي في الكنائس الغربية.. كل هذه عوامل معروفة ولها وجاهتها، لكن ما يعيشه العالم اليوم حصيلة تراكمات تاريخية طويلة لجهود قرون، لا سنوات معدودة، تم خلالها تهويد حضارة

مهيمنة بأكملها، وبالتالي تهويد مجتمعات كثيرة بوعيها أو من غير وعي..» (٤).

كتب مارتن لوثر، مؤسس الحركة البروتستانتية، حرفيا: «إن اليهود هم أبناء الرب ونحن الضيوف والغرباء.. وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادها» ! وهكذا اعتبر المهاجرون البروتستانت الأوائل إلى ما سمي لاحقا القارة الأمريكية أن أمريكا هي «أورشليم الجديدة» وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء، وشبهوا من أسموهم الهنود الحمر، أي سكان أمريكا الأصليين الذين أباد المستوطنون الأوروبيون غالبيتهم الساحقة، بعرب فلسطين القدامى الكنعانيين، وإذ بالاستعمار الصهيوني لفلسطين يصبح في عرف مستعمري أمريكا استمراراً وإتماماً لرسالة «سماوية وحضارية»، بعدما صبغ البروتستانت البيوريتانيون الأوائل أمريكا حين استوطنوها بصبغة مسيحية يهودية، تطورت إلى مسيحية صهيونية (رضا هلال، المسيح اليهودي ونهاية العالم: المسيحية السياسية والأصولية في أمريكا، مكتبة الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠). بهذا نستطيع تفسير قول جيمس بولدين، عضو الكونغرس الأمريكي لدورة ١٩٣٤-١٩٤٩: «قدر الهندي (الأحمر) الذي يواجه الأنجلو ساكسوني مثل قدر الكنعاني الذي يواجه الإسرائيلي: إنه الموت» (٥). ذلك لأن فكرة أمريكا، فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة عبر الاجتياح المسلح وبمبررات غير طبيعية هي محور فكرة إسرائيل التاريخية.

بل إن كريستوفر كولومبوس الذي ساقته الرياح إلى الأرض التي بات اسمها أمريكا وهو يظن أنه ذاهب إلى الهند قد أوضح بجلاء الغرض الرئيس من رحلته تلك، إذ جاء في مذكراته أنه دعا في صلاته لدى بدء الرحلة التي أراد أن يعود منها وقد ملأ سفنه ذهبا: «فليساعدني المولى برحمته على أن أحظى بهذا الذهب»، أما سر توقه لاحتضار تلك الكميات الهائلة من ذهب الهند فشرحه قائلا: «كان ذلك بنية الذهاب إلى مولانا الملك ومولاتنا الملكة (إيزابيل) لنتوسل إليهما من أجل أن يتخذا قرارا بإنفاق العائدات التي يمكن أن يجنياها من الهند لاستعادة القدس» (٦).

كذلك كان نداء نابليون بونابرت الشهير إلى يهود أوروبا يوم ٢٢/٥/١٧٩٩ للالتحاق بجيشه لدى بدء حصاره الفاشل لمدينة عكا الفلسطينية صريحاً بقوله أنه قد جاء بجيشه إلى فلسطين ليقيم مملكة لليهود في القدس.

لقد استعصت عكا على الجيش الغازي على الرغم من المذابح الجماعية التي ارتكبها والمجاعة التي تسبب بها، فارتد نابليون إلى مصر، وكان أول ما فعله افتتاح محفل ماسوني في القاهرة وآخر في الإسكندرية أناب في افتتاحه مساعده الجنرال كليبر، معتبراً أنه بهذا يعد إعداداً أفضل لجولة قادمة من غزوة صليبية – يهودية في فلسطين عنوانها الرئيس احتلال القدس.(٧)

الغريب هنا هو تجذر نتائج التضليل الذي مورس على الأوروبيين، وامتدادهم البشري في شمال أمريكا وأستراليا وسواهما، في سياق استغلال العامل الديني، على الرغم من الإقرار الصريح لمئات من القادة اليهود والصهاينة بحقيقة مقاصدهم. كتب الحاخام بينا نوزيغ مثلاً «الصهيونية هي المحك.. فاليهودي لن يقنع بإخراج الناس من النصرانية، وإنما عليه تهويدهم، فهو يهدم الإيمان الكاثوليكي والبروتستانتي، وينشر اللامبالاة، ويفرض فكرته العالمية وطريقة حياته على الذين أتلف إيمانهم، بينما هو يعمل على تحقيق رسالته التاريخية، وهي إبادة دِيانة المسيح».

اختار فاروق مردم بيك وإلياس صنبر عدداً من النصوص والشهادات التاريخية والدراسات الباحثة في المشروعية والحق العربي في القدس وارتباط العرب التاريخي والروحي بهذه المدينة على مر العصور، بعدما جرى تشويه المعاني الروحانية للتعلق الوجداني للمسلمين والمسيحيين بالقدس عبر ادعاءات صهيونية باطلة تحتكر الارتباط بالقدس، يجري تكريسها بالقوة العسكرية الغاشمة، منذ احتلال الجزء الغربي الحديث من المدينة سنة ١٩٤٨، ثم إعلان ذلك الجزء عاصمة لإسرائيل سنة ١٩٥٠، ثم احتلال المدينة القديمة سنة ١٩٦٧ وإعلان توحيدها تحت الإدارة الإسرائيلية وقوانينها، ثم إعلان المدينة موحدة عاصمة لإسرائيل انتهاكاً لقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة التي ترفض تغيير وضع القدس القانوني وفرض أمر واقع إسرائيلي من جانب واحد بقوة الاحتلال. تم جمع تلك المختارات في كتاب بعنوان (القدس بين المقدس والسياسي JERUSALEM: Le Sacre'et le Politiqe) صدر بالفرنسية سنة ٢٠٠٠. من المشاركين في الكتاب مونيك شومبير جوندرو وبيير أوبي ويواكيم مباركي وشمس الدين بن عبد الله المقدسي الذي ترجم نصوصه أندريه ميكائيل أستاذ الأدب العربي في الكوليج دي فرانس، وصلاح

ستيتيه وخليل عثمانيا وعادل مانع وإبراهيم دقاق. قالت سعاد الوحيدي في عرضها للكتاب [٨] إن أبشع ما صاحب «الاعتداءات التاريخية بحق المشروعية العربية في الأرض والتاريخ، وبحق الشعور العربي، والأمن العربي، والاستقرار العربي، هو تصور الصهاينة لعدوانهم هذا بأنه واجب ديني تنص عليه التوراة نفسها، ومبارك من الرب الذي اختارهم على شعوب الأرض جميعا! أي على نفس النحو الذي تصور معه الصليبيون في حملاتهم المشابهة ضد فلسطين بأنهم كانوا مأمورين من الإنجيل للنهوض بمهمة جهادية ! والذي لن يلغي بأي حال حجم الإشكال القائم فيما يتعلق بحق الفلسطينيين في أرضهم، وأن حقيقة المسألة إنما تكمن في مطلبهم الشرعي الطبيعي: ضرورة العودة لأرضهم واسترداد حقهم الطبيعي في الحياة الكريمة على ترابهم». هنا تجدر الإشارة إلى حقيقة أن غالبية الصهاينة الذين هاجروا إلى فلسطين واستوطنوا فيها على مدى السنوات المئة الماضية، وبشكل خاص على مدى السنوات الأربعين الماضية، لا يشعرون برابط روحي تجاه القدس أو فلسطين، شأنهم شأن كل القادة التاريخيين للمشروع الصهيوني والغالبية الساحقة من الذين قاتلوا في سياقه. بلغ الأمر بالباحث الإسرائيلي جدع جيلادي أنه قد أقسم في كتابه (إسرائيل نحو الانفجار) على أنه لم يلتق يهوديا واحدا يؤمن بالله حقا! وأكد استطلاع لمجلة نيوزويك الأمريكية أن «أكثرية اليهود الإسرائيليين اليوم يقولون إنهم لا يؤمنون بالله، ويصفون أنفسهم بالعلمانيين» [٩].

كان ديفيد بن غوريون (نبي) المشروع الاستيطاني الصهيوني لاغتصاب فلسطين شديد الوضوح عندما قال: «الدين وسيلة مواصلات فقط، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقت فقط، لا كل الوقت». وهو قد قال أيضا: «إن حياة اليهود لو تركت للحاخامات لظلوا حتى الآن كلاباً ضالة في كل مكان يركلهم الناس بالأقدام» [١٠].

قبل بن غوريون تعمد ثيودور هرتسل، مؤسس الصهيونية السياسية المعاصرة انتهاك الطقوس والشعائر اليهودية لدى زيارته القدس ليؤكد تميز نظريته اللادينية عن العقيدة الدينية. وكان ماكس نورداو (١٨٤٩- ١٩٢٣) الكاتب الألماني والزعيم الصهيوني صديق هرتسل المقرب، ملحدا يجهر بالإلحاد، وكان يرى أن التوراة «تعتبر كعمل أدبي أقل من أعمال هوميروس

والكلاسيكيات الأدبية»، وأنها «طفولية كفلسفة، ومقززة كنظام أخلاقي»، بل إنه وصل إلى حد القول بأنه «سيأتي يوم يأخذ فيه كتاب هرتسل- دولة اليهود- وضعاً مساوياً للكتاب المقدس، حتى لدى خصوم المؤلف من المتدينين» (١١).

لقد اعتاد يهود المعازل (الغيتوات) في أوروبة أن يرددوا في أعيادهم «العام القادم في القدس»، بحيث باتت هذه الجملة تتكرر تلقائياً ولا شعورياً على امتداد السنين والقرون، إلى أن استطاع تحالف الحركة الصهيونية السياسية مع الحركة الاستعمارية الأوروبية، ثم مع الإمبريالية الأمريكية الجديدة، تحويل هذه الجملة المتداولة أوتوماتيكيا بين أولئك اليهود إلى أمر واقع معزز بمئات الرؤوس النووية وأسلحة الدمار الشامل الأخرى في الترسانة الإسرائيلية، وبحماية وحصانة أمريكية مطلقة تعتبر أن المحافظة على نتائج الاغتصاب الصهيوني لفلسطين وتعزيزه، ودعم الدور الوظيفي للكيان الإسرائيلي أهم من أي اعتبار آخر، ولو احتاج الأمر إلى شن الولايات المتحدة حروبا ضد العرب والمسلمين. ولكن هل القدس غاية بذاتها للاستيطان الصهيوني، حتى في رؤية المتدينين اليهود؟ الجواب واضح في النص التالي الذي جاء في خطاب ألقاه الياهو سويسا، وزير شؤون القدس في الحكومة الإسرائيلية، أثناء اجتماع في مركز هراقظ للتعليم الديني، إذ قال حرفيا: «سوف نستمر في توسيع الاستيطان في القدس وحولها حتى تصل مستوطناتنا إلى دمشق»(١٢). إن القدس بالنسبة لمشروع الغزو الاستيطاني الصهيوني لفلسطين دجاجة تبيض ذهبا، وسبيل سهل لاستنزاف التبرعات والدعم ولاستقطاب المقاتلين والأنصار، لكنها ليست هدفا بذاتها. إن أطماع المشروع الصهيوني الذي يستغل بريق اسم القدس ويركز على الاستثمار الأقصى لمكانة المدينة وتأثيرها على المؤمنين هي أطماع شديدة النهم والاتساع، تتجاوز فلسطين إلى ما حولها، بل وتتجاوز حتى حلم الهيمنة الصهيونية على العالمين العربي والإسلامي إلى إطار كوني تجاوز الطمع به حدود الحلم إلى وضع البرامج والخطط وتشكيل مؤسسات وشبكات ومنظمات سرية وواجهات علنية. ألم يقل دزرائيلي، أول يهودي تولى رئاسة الحكومة البريطانية، إن الذين يحكمون فعلا ليسوا هم أولئك الذين يظهرون على المسرح، وإنما اليهود الذين يجلسون خلف الستار ممسكين بالخيوط التي تحرك هؤلاء؟

القدس مركز الصراع الرئيس المستمر، هذا ما أكدته مراحل الصراع ومعطياته ونتائجه المتوالدة والمتواصلة. كذلك خلصت غالبية الدراسات والمتابعات بشأن هذا الصراع إلى تأكيد هذه الحقيقة. لعل من بين أبرز تلك الدراسات دراسة موثقة للدكتورة فكتوريا فالتس Waltz Victoria الأستاذة في كلية تخطيط المدن بجامعة دورتموند الألمانية، أنجزتها بعدما أمضت عدة سنوات في فلسطين، ونشرتها في كتاب(تحديات القدس: مدينة في ملتقى الدين والسياسة، نشر أسندوف، مونستر، ألمانيا، ٢٠٠٠)، والذي ترجمه للعربية د. شاكر علي.

لقد أوضحت التطورات المريرة الدامية أن الصراع من أجل فلسطين، ومركزه الرئيس الصراع من أجل القدس، هو صراع حضاري ومصيري، تتحد فيه بالنسبة لأكثر من عشرة ملايين فلسطيني الأبعاد الدينية والقومية والوطنية والمجتمعية، ويتوقف على نتائجه المصير الجمعي، وكذلك المصير الشخصي لكل فلسطيني، سواء كان مشردا في المنافي، أم خاضعاً للاحتلال على أرض وطنه منذ العام ١٩٤٨، لا تتهيه أوامر من دولة عظمى، ولا استسلام من يستسهلون الإذعان وتغليب تشبثهم بمكاسب فردية أو فئوية عابرة صغيرة على حقوق ومصالح الأمة ومصيرها، ولا تلغيه تمنيات من أصابهم الوهن ممن يتذرعون بفهم سقيم لمقولة الواقعية السياسية، متغافلين عن حقيقة أن الأمر الواقع الذي فرضه الاغتصاب قابل للنقض بأمر واقع آخر تفرضه إرادة التحرير لدى الأمة. إنه صراع لا تحسمه أوهام من صدقوا أنهم أسياد العالم، مهما تمتعوا بدعم قوى كبرى وينفاق قوى أصغر شأناً، ومهما استثمروا أحقاداً تاريخية متراكمة وأطماع راهنة بنهب نفط العرب. ذلك أنه فوق القدس بالذات يحوم السر الإلهي الذي يدير الامتحان والمحنة، ويوجه مسار التطورات، ليميز الخبيث من الطيب، ويستنفر صحوة عربية/ إسلامية دفع الدم الفلسطيني ضريبة قدومها، لتبدأ نهضة حضارية متجددة طال انتظارها.

أدرك الحاخام اليهودي جاكوب نيوسنر هذا عندما قال يائساً: «وعدت الصهيونية بأن تكون الدولة اليهودية مركزاً روحياً للشعب اليهودي.. لكنها ورطت اليهود وتقودهم إلى حتفهم الأكيد، وربما الأخير.. إسرائيل الآن هي جحيم اليهود لا جنتهم»[١٣]..هذا ما يقوله أيضا حاخامات ومتدينون وعلمانيون وملحدون، صهاينة ومعادون للصهيونية على

حد سواء، ومراقبون ومفكرون من مجتمعات شتى. وهذا قبل كل شيء وعد الله القاطع لعباده المؤمنين.

لقد شهدت القدس عدة موجات استيطان صهيوني على امتداد المئة عام الأخيرة، لكن الدعوة إلى هذا الاستيطان بدأت قبل ذلك بزمن طويل، وتحديداً عندما زار الفيلسوف اليهودي الربي موسى بن ميمون القدس في العام ١٢٦٧فلم يجد فيها سوى اثنين من اليهود فقط، وقرر عندئذ دعوة اليهود إلى استيطان القدس وفلسطين [١٤].

نذكر هنا كيف وجه نابليون بونابرت نداء إلى يهود أوروبة للالتحاق به عند بدء حصاره الفاشل لمدينة عكا الفلسطينية، فقد دعاهم للحضور من أجل بناء مملكة يهودية في القدس، مما جعل بعض الكتاب يعتبر أن نابليون بونابرت هو الرائد الأول لمشروع الغزو الاستيطاني الصهيوني لفلسطين. فشل الحصار رغم المذابح الجماعية العديدة التي ارتكبها جيش نابليون حول عكا، ورغم المجاعة التي تسبب بها على امتداد شهور الحصار الستة، وارتد نابليون خائباً بجيشه، فتحول إلى مصر. انقلب بونابرت وعادى اليهود في أواخر حياته بعدما خذلوه [١٥].

عند محاولة إلغاء فلسطين بإعلان إقامة إسرائيل دولة على معظم الأرض الفلسطينية في العام ١٩٤٨، دون تحديد حدود لها، وعلى الرغم من أن قرار الأمم المتحدة في العام السابق بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية قد أوصى بوضع خاص للقدس تكون فيه تحت إدارة دولية، سعت القيادة الصهيونية إلى إقناع أكبر عدد من المهاجرين اليهود باستيطان مناطق غربي القدس وضواحيها، حيث أقيمت أحياء يهودية جديدة. لكن بقاء المدينة القديمة (الشرقية) في أيدي العرب آنذاك، وضمها مع ما قد نجا من الاحتلال الصهيوني من أرض فلسطين التي باتت تسمى الضفة الغربية لنهر الأردن إلى إمارة شرقي الأردن لتشكلا معاً المملكة الأردنية، قد جعل معظم اليهود يترددون في الاستيطان هناك. وظل الهاجس السائد لدى اليهود قوياً لنحو عشرين سنة بأن الجيوش العربية تستعد لتحرير فلسطين واسترجاعها، وأن التركيز الأكبر للهجوم العربي سوف يكون حول القدس.. لكن الانتصار العسكري الصهيوني الساحق في حرب حزيران١٩٦٧، قد خلق وقائع جديدة مختلفة تماماً إلى حين. فهو وإن فجر التناقضات البنيوية لمجتمع الغزو الصهيوني لاحقاً وعجل بتفاعل أمراضه

الكامنــة، على نحو مــا بدأ يظهــر بشكل خاص بعــد هزيمة الجيش الصهيوني في لبنــان سنــة ٢٠٠٦، إلا أنه قــد فجر على نحو فوري ومباشــر أوهام التفوق الفطري وغطرســة القوة والاستعــلاء العنصري في مجتمع الغزو الصهيوني الذي خضع آنذاك لوهم انتحاري بالقدرة على صنع الخوارق. وهكــذا لم تتردد الحكومــة الإسرائيلية بعد ثلاثــة أسابيع فقــط من احتــلال القدس القديمة والضفة الغربية، أي يوم ٢٨/ ٦/ ١٩٦٧، في إعلان ضم القدس الشرقية التي انتزعت من الجيش الأردني إلى أحياء القدس الغربية اليهودية، واعتبــار المدينة عاصمة موحدة لإسرائيل تخضــع للقوانين والإدارة الإسرائيليــة، على الرغم مــن الاعتراضات الدوليــة وقرارات مجلــس الأمن والجمعية العامة لــلأمم المتحدة برفض هذا الإعلان الإسرائيلي واعتباره باطلا لانتهاكه القوانين الدولية. عندئذ صــار التركيز شديدا على الاستيلاء على بيوت الفلسطينيين وأراضيهم في القدس وحولها بوسائل شتــى، لتعزيز الوجود البشري في المدينة وحولها. ولم تلبث الحكومة الإسرائيلية أن وسعت حدود بلدية القدس عدة مــرات، بحيث ضمت عشرات القرى والبلــدات الفلسطينية إليها، وراحت السلطــات الإسرائيلية تحول أراضي أملاك الدولة التي تمثل تاريخيا أكثر من تسعين في المئة من أراضــي فلسطين، وكذلك ما تقوم بمصادرته من الأراضــي الخاصة المملوكة من قبــل مواطنين فلسطينيين بذرائع أمنية أو سواهــا، إلى عدة أحزمة من المستوطنات تحيط بمدينــة القدس. فقــد أقيمت سبع وثلاثون مستوطنــة في منطقة القدس حتى العــام ١٩٩٠، وتم جلب ١٢٤ ألف مستوطن يهــودي حتى ذلك الحــين إلى ثمانية أحياء استيطانيــة جديدة في القدس هي رامات أشكول والتلة الفرنسية ونفي يعقوب وجيلة وراموت وتلبيــوت الشرقية والحي اليهودي في المدينــة القديمــة وحــي في قرية صور باهــر جنوب القدس [١٦]. وقد لوحظ أنه بعدمــا كسر تكتــل الليكود احتــكار حزب العمل (تكتل المعــراخ) للحكومة الإسرائيلية لنحو ثلاثــين سنة، راح التكتــلان يتناوبان السلطة، ويتشاركانها أحياناً، وصارت إقامة مستوطنات جديدة، وخاصة في القدس، أبرز حقول التنافس بينهما والتقرب إلى الناخبين، وكذلك استثارة المتبرعــين والمستثمرين من يهــود العالم الذين يعزفون عــن الهجرة إلى فلسطــين ويعوضون عزوفهم بدفع الأموال، إذ ترتفع مساهمات أكثر هؤلاء عندما تكون القدس مدخلا لمخاطبتهم.

اقتضت ظروف استراتيجية أو عملية نقل تركيز الاستيطان إلى مناطق أخرى أحياناً. فعندما اختل التوازن الديموغرافي في مناطق الجليل مثلاً، الجزء الشمالي مما اغتصب من أرض فلسطين في العام ١٩٤٨، والذي تشبث بعض الفلسطينيين من أهله بأرضهم آنذاك وقاوموا الاقتلاع والتهجير الذي وقعت غالبية السكان (نحو ٨٦٪) ضحية له، وبات عددهم يفوق المليون نسمة اليوم نتيجة ارتفاع معدلات توالدهم، بحيث انخفضت نسبة اليهود في تلك المناطق الخصبة والاستراتيجية إلى ٥٧٫٦ ٪ في العام ١٩٦١ ثم إلى ٥١ ٪ في العام ١٩٨٦، في ظل نمو حركة التحرر والثورة الفلسطينية وتصاعد كبير لنشاطها العسكري والسياسي آنذاك، داخل وخارج فلسطين، وخاصة في لبنان وسورية اللتين تحيطان بمنطقة الجليل، تم وضع خطة طوارئ لاستيطان يهودي مكثف في الجليل يضمن أغلبية سكانية يهودية. فقد وصل التخوف الصهيوني حد مناقشات علنية لهواجس احتمال إعلان السكان الفلسطينيين في الجليل استقلالهم أو ضم مناطقهم إلى سورية. شملت خطة الطوارئ تلك تعزيز الاستيطان اليهودي في مرتفعات الجولان السورية التي احتلها الجيش الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧ وأعلنت الحكومة الإسرائيلية لاحقاً ضمها إلى دولة إسرائيل وتطبيق القانون الإسرائيلي عليها وفرض الجنسية الإسرائيلية على العدد القليل المتبقي من سكانها السوريين. قضت الخطة برفع عدد المستوطنين اليهود في الجولان إلى ثلاثين ألف مستوطن بحلول العام ١٩٨٧، وتشجيع هذا الاستيطان بتقديم امتيازات ودعم مالي كبير للمستوطنين في الجولان، لكن العدد لم يتجاوز ٨٧٠٠ مستوطن في ذلك العام، ليقين غالبية اليهود بأن حرباً قد تنشب ذات يوم مع سورية، وأن تلك المرتفعات سوف تعود إلى سورية سواء بعد حرب مدمرة أو نتيجة مفاوضات تسوية. إزاء هذا الفشل الاستيطاني في الجليل والجولان، عاد التركيز الاستيطاني مجدداً على القدس وما حولها بهدف تحويلها إلى عاصمة كبيرة Metropolis تمتد ما بين مدينة رام الله شمالاً وبيت لحم وغوش عيتسيون جنوباً ومتسبيه يريحو شرقاً ومبسيرت تسيون غرباً، بحيث تقضم جزءاً كبيراً من مناطق قلب الضفة الغربية المحتلة، تكريساً لادعاءات دينية وقومية يهودية، وبحيث تصبح القدس قلعة معززة بثلاث حلقات

استيطانية متتالية [١٧]. وقد جاءت موجة تصاعد هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي مع انتصاف عقد الثمانينيات من القرن الماضي نتيجة ضغوط الولايات المتحدة ونمو النفوذ اليهودي في الاتحاد السوفييتي- الذي بدأت بوادر انهياره وتفككه عمليا آنذاك- لتعزز عملية استيطان القدس بشكل خاص على نحو غير مسبوق في التاريخ. إذ فاق عدد المهاجرين من الاتحاد السوفيتي إلى فلسطين المحتلة – يهودا وغير يهود – في تلك الموجة الجديدة المليون مهاجر، وكان فيهم مئات الآلاف من أصحاب الكفاءات العلمية الهاربين من الفوضى والأزمة الاقتصادية لدى تفكك الاتحاد السوفيتي. وصف اسحق شامير، رئيس حكومة العدو آنذاك،موجة الهجرة والاستيطان الكبرى تلك بمعجزة السماء العظمى!

بعد فترة أكثر من عقدين من السنين كان الجزء الأكبر من الكفاح الفلسطيني خلالها ينطلق من خارج فلسطين، جاءت انتفاضة الحجارة في العام ١٩٨٧ وما نجم عنها من اشتراك الشعب الفلسطيني داخل فلسطين بأكمله في الكفاح ضد الاحتلال فخلقت وقائع جديدة على الأرض، وخاصة عندما استمرت بزخم شديد متجدد لأكثر من سبع سنوات، متحدية القمع الوحشي لقوات الاحتلال. عندئذ واجه أكثر الإسرائيليين ساعة الحقيقة، وأدركوا أن القضاء على الشعب الفلسطيني بالإبادة الشاملة أو باستكمال الاقتلاع والتهجير الكلي أو بإدامة احتلاله واضطهاده أمر غير وارد، وبالتالي لا بد من حل سياسي تستثمر إسرائيل فيه ميزان القوى الإقليمي والدولي المختل كليا لمصلحتها، بحيث تحصل على أقصى ما يمكن من مكاسب استراتيجية واقتصادية وسياسية، وبحيث تفرض سريعاً وقائع جديدة على الأرض لرفع سقف هذه المكاسب في فلسطين وخارجها إلى الحد الأقصى الممكن. وهكذا جاءت مفاوضات أوسلو عقب حرب الخليج الثانية التي خاضتها الولايات المتحدة وثلاثون دولة أخرى ضد العراق، والتي جاهر الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب آنذاك أنه يخوضها أساساً لحماية إسرائيل وتكريس تفوقها نهائياً على العرب مجتمعين. نجم عن تلك المفاوضات الاتفاق المائع الملتبس غامرت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بقبوله آملة في جعله نقطة ارتكاز لتحسين شروط التسوية في المستقبل، بعدما بدا لها الأفق مسدوداً. لكن المفاوضات العقيمة اللاحقة لم تؤد سوى

إلى فرض إسرائيل شروطها أكثر في إطار هدفها الاستراتيجي: إنهاء الصراع وتطبيع العلاقات مع الدول العربية وتصفية القضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني الثابتة في مقابل فتات قليل من أرض بلا سيادة حقيقية لجزء من الفلسطينيين.

بلغ عدد المساكن التي بنيت للمستوطنين اليهود الجدد في العام ١٩٩٧ على أراض انتزعت من أصحابها العرب أكثر من أربعين ألف مسكن. بل إن فترة المفاوضات التي بلغت ذروتها في عهد حكومة ايهود باراك برعاية الرئيس الأمريكي بيل كلنتون قد شهدت أعلى معدلات بناء المستوطنات وتوسيعها في الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٦٧ التي كانت المراوغة الإسرائيلية تروج أنها على وشك أن تعاد للفلسطينيين. فقد ازداد عدد المستوطنين اليهود في العام ١٩٩٩ لوحده بنسبة ٥ر١٢٪، ووصل عددهم في تلك الأراضي إلى ١٩٢٦٨٠ مستوطناً [١٨]. لقد تسارعت عملية فرض أمر واقع عبر تكثيف الاستيطان الصهيوني في القدس وحولها بما يحقق تقطيع أوصال التجمعات السكانية الفلسطينية الكثيفة والسيطرة الإسرائيلية الدائمة على المعابر ومحاور المواصلات والمياه الجوفية والمرتفعات الجبلية في الضفة الغربية، مما يمنع وحدتها الكيانية وتواصلها المجتمعي وتطورها الاقتصادي.. وهكذا وافق كثيرون على ما رآه يزكيل لين، الباحث في منظمة بيتسليم الإسرائيلية إذ قال: «نحن نقف على أعتاب شيء ضخم، فليس من الواضح الشكل الذي سيبدو عليه الوضع النهائي للمستوطنات، لكن ضم معظم الضفة الغربية إلى إسرائيل يبدو مؤكدا»[١٩]. هذا ما أكده قرار الحكومة الإسرائيلية بناء جدار ضخم محصن يبتلع نحو ستين في المئة من أراضي الضفة الغربية بذريعة حماية التجمعات السكانية الإسرائيلية والمستوطنات من هجمات شبان الانتفاضة الفلسطينية الثانية، انتفاضة الأقصى التي انطلقت في العام ٢٠٠٠ وأثارت رعب الصهاينة بعملياتها الاستشهادية الكثيفة واستخدام صواريخ وقذائف هاون بدائية مصنعة محليا.

على الرغم من تأكيد قرار محكمة العدل الدولية في لاهاي بحسم عدم شرعية هذا الجدار المقام على أراض فلسطينية محتلة، والذي يغتصب مساحات هائلة من تلك الأراضي ويضمها إلى إسرائيل، ويضر بمصالح وحياة وحقوق ومستقبل الشعب الفلسطيني ويمنع التواصل الطبيعي بين

مدنه وقراه، وبين مئات آلاف الفلسطينيين وممتلكاتهم ومزارعهم ومواقع عملهم ومؤسسات الخدمات الصحية والتعليمية التي تخدمهم، فإن الحكومة الإسرائيلية تابعت بناء الجدار، وقررت في الذكرى السنوية الأولى لصدور قرار محكمة العدل الدولية الذي رفضته وتحدته استكمال بناء الجدار في محيط القدس بالذات وفق مخطط توسعها الجديد يوم ١/٩/٢٠٠٥. وبهذا يتم جعل مخيم شعفاط للاجئين الفلسطينيين المقام منذ العام ١٩٤٨ وقرية كفر عقب في الجهة الغربية من الجدار، فيعزلان عزلاً نهائياً عن القدس التي ارتبطت معيشة السكان كليا بها، مقدمة لسلسة من خطوات إسرائيلية ترمي إلى إخراج أكبر عدد ممكن من الأحياء الفلسطينية من المدينة، بينما يضم الجدار كافة الأحياء، بل المدن، الاستيطانية الصهيونية التي تم بناؤها في القدس الشرقية بشكل ينتهك القوانين الدولية منذ احتلالها في العام ١٩٦٧. كما يضم الجدار كل المستعمرات اليهودية المجاورة للقدس التي أقيمت على أراض قرى فلسطينية تمت مصادرتها واغتصابها، مثل جفعات زئيف ومعاليه أدوميم. قال الخبير الفلسطيني خليل التفكجي، مدير إدارة الخرائط في جمعية الدراسات العربية في القدس أن «ما يجري في القدس إنما هو مقدمة للمخطط الإسرائيلي المطروح للعام ٢٠٢٠، وهو أن تكون هناك أقلية عربية في داخل القدس، وأن يتم تطهير البلدة القديمة من الكثافة السكانية العربية.. إن إسرائيل تهدف من خلال عزل القدس عن باقي التجمعات الفلسطينية في الضفة الغربية تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية هي، أولاً: قضية الديموغرافيا التي ترى الحكومة الإسرائيلية بأنها يجب أن تحسم لصالح إسرائيل.. أما القضية الثانية فهي إقامة القدس الكبرى بالمفهوم الإسرائيلي وذلك بضم مستعمرتي جفعات زئيف ومعاليه أدوميم اللتين اصطلح على تسميتهما بالكتل الاستيطانية الكبرى. أما الهدف الثالث فهو أن يكون الفلسطينيون داخل حدود بلدية القدس الغربية أقلية تسهل السيطرة عليها من جميع النواحي»[٢٠].

لقد حاول شارون أن يجعل الانسحاب الإسرائيلي الاضطراري من قطاع غزة، والذي عرضته وتمنته عمليا كافة الحكومات الإسرائيلية السابقة للتخلص من أعباء احتلال هذا الشريط المزدحم بالفلسطينيين والملتهب بالمقاومة، غطاء لتمرير هجمة

استيطانية جديدة في القدس وحولها وفي مواقع استراتيجية أخرى يزمع أن يربطها بالكتل الاستيطانية الكبرى التي راح يوسعها حول القدس. ويعرف معظم الإسرائيليين جيداً أن هذه الهجمة تقلص إلى ما يقارب الصفر إمكانية قيام دولة فلسطينية قابلة للحياة والاستمرار. كما تعرف الإدارة الأمريكية والأوساط الأمريكية المهتمة بشؤون منطقتنا أن خطة الطريق التي أطلقها الرئيس بوش الابن لتسوية الصراع، والتي تعكس التحيز الأمريكي التقليدي لإسرائيل في معظم بنودها، لن تجد سبيلاً إلى التطبيق مع توسيع الاستيطان الصهيوني في القدس وقلب الضفة الغربية بدلاً من إنهائه. لذلك كان من السذاجة أن تفسر مقالة في صحيفة واشنطن بوست تعقيباً على قرار الحكومة الإسرائيلية توسيع مجمع معاليه أدوميم الاستيطاني بأن «رئيس وزراء إسرائيل لم يفهم على ما يبدو أن هذا العهد الجديد من الأمل في الشرق الأوسط يحتاج منه إلى كبح غرائزه الاستيطانية»[٣١]، فشارون يعرف جيداً ما الذي يفعله، ويجاهر بأنه لن يكف عن توسيع الاستيطان في القدس والضفة الغربية. بل إن مسحاً جوياً قد أثبت أنه في الشهر الأول الذي تلا توقيع الرئيس بوش خارطة الطريق جرى توسيع ثلاث وسبعين موقعاً استيطانياً صهيونياً في الضفة الفلسطينية المحتلة[٣٢]. نشير هنا إلى أن التوسع في مجمع معاليه أدوميم الاستيطاني الذي يضم ١٥ مستوطنة قد قرره وأعلنه رئيس الحكومة السابق ايهود باراك الذي صورته الولايات المتحدة رجل سلام، حيث قرر في العام ١٩٩٩ مصادرة اثني عشرة ألف دونم من أراضي فلسطينيي البلدات والقرى المجاورة لإنجاز هذا التوسع الاستيطاني ومده إلى مدينة القدس. وأكد الوزير حاييم آرون في اجتماع للحكومة يوم ١٩٩٩/١١/١٧ أن لديه وثيقة من قيادة الجيش الإسرائيلي عن نشاطات جارية آنذاك لتوسيع إحدى وستين مستوطنة، في الوقت الذي تطلق تصريحات رسمية إسرائيلية تتحدث عن الاستجابة لطلبات الرئيس الأمريكي كلنتون بتجميد الاستيطان لتسهيل المفاوضات! تذرعت المراوغة الإسرائيلية مراراً بأن التوسع الاستيطاني يتم لمواجهة «النمو السكاني الطبيعي في المستوطنات»، لكن افتضاح هذه الكذبة كان مدوياً ومتكرراً عندما أثبتت وثائق رسمية أن نسبا كبيرة متفاوتة من الوحدات السكنية في معظم المستوطنات

خالية من السكان وتنتظر استجابة مهاجرين جدد لمناشـدات المنظمة الصهيونية العالمية والحكومـة الإسرائيلية والوكالـة اليهودية لهم بالهجـرة. أكد المعلق الصحفي اليميني المتطرف (الياكيـم هعتسني) هذا بقوله إن الاستيطان والتوسع فيه لا علاقة لهما بالنمو السكاني، فكثـيرا ما يـترك أناس فيلاتهم الفاخرة في المدن ليعيشوا بضعة أسابيع في كرافانات (سيارات متنقلة) تتوقف في مواقع فلسطينيـة، لتعلنها مستوطنات جديدة، ثم تأتـي وزارة الإسـكان أو مؤسسـات أخرى لتبني مساكن ثابتة وتقيم بنية تحتية بذريعة أن تلـك مستوطنات قائمة. وكتبت صحيفة هآرتس أن «اتخـاذ النمو السكاني الطبيعي ذريعة لعدم وقف الاستيطان أكذوبة كبرى.. يجب قول الحقيقـة للجمهور.. هناك أكثر مـن عشرين ألـف شقة سكنيـة فارغة في المستوطنات حاليا، ومع ذلك يتلاحق تنفيذ برامج لا تنتهي لبنـاء المزيد بذريعة تغطية احتياجات النمو الطبيعي..»[٢٣]. وكتب ايتان هابر، المسؤول الحكومي المهم السابق مقالا قال فيـه: «المستوطنون هم العقبة، وشارون أسير مواقف مجلس رؤساء المستوطنات»[٢٤]. وقد تحـدث داني روبنشتاين في المقابل عن استمرار جيش الاحتلال الإسرائيلي في هدم آلاف البنايـات السكنيـة وتشريد أصحابها الفلسطينيين في العراء، وقتل وجرح عشرات الآلاف من الفلسطينيين[٢٥].

لقد توافق أكثر السياسيين والمحللين إلى حد بعيـد في تقييمهم لأهـداف الهجمات الاستيطانية الصهيونية المتصاعدة في القدس وحولها. فكتب د. أسعد عبد الرحمن بشأنها يقـول: «مصير عملية السـلام لن يتقرر في غزة بـل في القدس.. إن العقبـة الرئيسية وجوهر مشكلة السـلام ستبقى القدس بلا منازع. وفي الفترة الأخـيرة، قامت إسرائيل باتخاذ عدة خطوات وإجراءات داخل المدينة وحولهـا لتشديد قبضتها بعـد ضم أراض جديدة إلى داخل حدود بلديتها. ومن ضمن هذه الإجراءات توسيع الحدود البلدية لمدينة القدس وضـم أراض جديـدة إليها، وبناء مستعمرات إضافيـة حولها، وتوسيع القائم منها. وقـد أدت هذه الإجـراءات جميعها إلى خلق مدينة أكبر بعدة مرات من مساحة المدينة التي احتلتها إسرائيل في عام ١٩٦٧. وتهـدف المستعمـرات التي بنتهـا إسرائيل خارج الحـدود البلدية الأصلية للمدينة إلى تطويق المدينة وعزل الجهـة الشرقية منها عن باقي الضفة الغربية، لخلق واقع جديد يمنـع التواصـل الجغرافي ما بـين الضفة

والقدس الشرقية، بحيث تستحيل إقامة دولة فلسطينية متواصلة جغرافيا وقابلة للحياة... حقا، لقد كان شارون في منتهى الوضوح عندما قال إن الانسحاب من غزة سيقابله ضم أراض جديدة في القدس وحولها وكذلك في الضفة.. بناء المستوطنات.. كان سياسة متفقا عليها، ولو ضمنيا، بين الحزبين الرئيسيين في إسرائيل..إلا أن ما يقوم به شارون حاليا هو اتباع سياسة أكثر تركيزا ومنهجية هدفها الأخير الخنق التدريجي للقدس الشرقية عن طريق إحاطتها بسور من المستوطنات الإسرائيلية الكبيرة وزرع بؤر استعمارية صهيونية بداخلها بهدف تجزئتها وتقسيمها. ومن المؤكد أن قرار تعديل مسار جدار الفصل العنصري الذي اتخذته الحكومة الإسرائيلية سيسهم عند الانتهاء منه في ظهور مدينة القدس الكبرى.. ويبدو أننا سنواجه بعد الانسحاب من غزة مرحلة طويلة تتميز بالصراع، لكن أيضا بالجمود السياسي».[٣٦]

من ناحية أخرى، قال تقرير صدر عن الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية إن الحكومة الإسرائيلية تسعى حالياً إلى إزاحة حدود بلدية القدس لضم مزيد من قرى مناطق الضفة الغربية، في مزج لرؤية أمنية بالرؤية السياسية الصهيونية، تحقيقا للأهداف التالية:

١- تحسين الدفاع الصهيوني عن القدس في حالة مواجهة عسكرية أو أمنية.

٢- تحقيق نظرية القدس الكبرى استهواء لليهود خارج فلسطين ليضاعفوا تبرعاتهم المالية.

٣- خنق تطور ضواحي القدس الفلسطينية (العيزرية وأبو ديس) التي كانت السلطة الفلسطينية تأمل في جعلها جزءا رئيسا من عاصمة الدولة الفلسطينية.

٤- ضم الكتل الاستيطانية الصهيونية الكبرى معاليه أدوميم وجبعات زئيف وسائر المستوطنات الواقعة خارج بلدية القدس، بحيث يؤثر ضم سكانها إلى مدينة القدس الكبرى على المعادلة السكانية لصالح اليهود، بعدما بينت الدراسات الحديثة أن الفلسطينيين يشكلون اليوم ٣٥٪ من مجموع سكان القدس بشقيها الغربي والشرقي معا.

٥-إخراج قرى عربية فلسطينية (كفر عقب، منطقة مطار القدس) من حدود بلدية القدس، وبالتالي التخلص من سكانها.

قامت الخطة الإسرائيلية على الإجراءات التالية:

١- تعزيز الجهود الأمنية والاستيطانية الإسرائيلية في أحزمة مدينة القدس الثلاث التالية:

أ- حزام قلنديا (عطروت جبع)، مستوطنتي كوخاف يعقوب وبسجوت ومجمع جبعات زئيف.

ب- حزام جبع، عناتا، بما فيه مستوطنات آدم، علمون، ومجمع معاليه أدوميم.

ج- حزام جبل أبو غنيم الذي صودرت أراضيه قبل سنوات، ومستوطنة جيلو.

٢- إنشاء لواء عسكري خاص يكون مسؤولا عن إغلاق القدس عند الحاجة.

٣- فصل مناطق فلسطينية كثيرة عن القدس ومحيطها بحواجز عسكرية للجيش لا الشرطة.

٤- إغلاق جميع المؤسسات الفلسطينية الموجودة في القدس.

٥- إبعاد شخصيات فلسطينية قيادية وفاعلة من أبناء القدس عن المدينة.

٦- سحب البطاقات الشخصية الإسرائيلية الخاصة بسكان القدس من فلسطينيي أحياء القدس وضواحيها التي تقرر استبعادها من حدود البلدية الجديدة، أي قلنديا وبيت حنينا وكفر عقب، مع إبقائهم تحت السيطرة الإسرائيلية.

٧- اعتقال العاملين في أجهزة السلطة الفلسطينية من أبناء القدس وإبعادهم عن حدود بلديتها، وإغلاق مكاتب السلطة الفلسطينية في العيزرية وأبو ديس.

٨- تقليص نسبة سكان القدس الفلسطينيين إلى أقل من ١٢ ٪ بدل النسبة الحالية البالغة ٣٥ ٪ عن طريق إجراءات أمنية واقتصادية تضطرهم إلى الرحيل.

٩- استعجال إنجاز الأنفاق التي تشق حالياً في جبل المشارف، جبل الزيتون، لربط حزام القدس الشرقي بالقدس الغربية، تحاشيا للمرور في الأحياء العربية.

١٠- ربط المستوطنات اليهودية البعيدة عن حدود القدس بمستوطنات داخلها (آدم، نفي يعقوب).

١١- إقامة حواجز عسكرية معززة بالمدرعات في المعابر المؤدية إلى أحياء القدس المكتظة بالفلسطينيين، وخاصة الشمالية منها (شعفاط، حاجز الزعيم، المسالك المؤدية للعيزرية، أبوديس) وتحصين الحواجز الرئيسة في الرام وقلنديا بتجهيزات مراقبة إلكترونية وإسمنتية.

١٢- زيادة البؤر الاستيطانية في أحياء القدس العربية، وإنشاء ٢٠٥ وحدات سكنية

على الفور في رأس العمود لاسكان اليهود فيها، وبناء حي استيطاني يهودي جديد في جبل المكبر.

١٣- فصل كهرباء البؤر الاستيطانية اليهودية عن شركة كهرباء محافظة القدس الفلسطينية وربطها بالشبكة الإسرائيلية العامة.[٣٧]

إن الأساليب المتعددة التي يتم بها تنفيذ الهدف الاستراتيجي الإسرائيلي المتمثل بتهويد القدس وطرد معظم أهلها قد أخذت أشكالا متعددة مما يعتبرها القانون الدولي جرائم حرب في الأرض المحتلة وجرائم تهجير جماعي للسكان تحت الاحتلال. أصدر مهندس بلدية القدس الصهيوني مثلا قرارا في مطلع شهر حزيران ٢٠٠٥ قضى بهدم حي البستان في بلدة سلوان، وهي من ضواحي القدس الشرقية المتصلة بالمدينة، وتحويل هذا الحي إلى حديقة، بعد هدم مساكنه التسعين وتشريد أصحابها الفلسطينيين. الذريعة التي أوردها نص قرار الهدم هي أن تلك المساكن لم تحصل على ترخيص ببنائها من الإدارة الصهيونية لبلدية القدس، وبالتالي اعتبرها غير شرعية. لكن واقع الأمر- إضافة إلى أن القانون الدولي يعتبر تلك الإدارة الصهيونية محتلة وغير شرعية – هو أن تلك المساكن مبنية أصلا قبل الاحتلال الصهيوني للقدس القديمة وما حولها، وأن تراخيص بنائها قد صدرت من السلطة الأردنية التي كانت تدير القدس الشرقية وسائر أراضي الضفة الغربية حتى يوم ٦/٧ /١٩٦٧، وبالتالي فهي قانونية وشرعية. أدرك رئيس بلدية القدس الصهيوني لوبليانسكي أن الذريعة التي استند عليها قرار مهندس البلدية بهدم حي البستان في سلوان مهزوزة ومطعون بها بسهولة، فأضاف من عنده «شفهيا» ذريعة بالغة السخف إذ قال وفق ما نشرته الصحف الإسرائيلية أن هدم الحي هو لمصلحة سكانه وحرصا على حياتهم من الغرق فيما لو تحولت مياه الأمطار إلى سيول ذات يوم، ونسي رئيس البلدية الصهيوني أن القدس ليست واقعة في أوروبة التي ترعرع فيها، وبالتالي فإن أمطارها قليلة نسبيا ولا تتحول إلى سيول تهدم حيا بأكمله. كما أن المفترض برئيس البلدية من حيث المبدأ – لو كان أمر السيول وارداً وجدياً – هو تعزيز شبكة صرف مياه الأمطار والبنية التحتية عموما، وحتى ترميم وتقوية المهدد من جدران المنازل التسعين وأسقفها، لا هدمها وتشريد نحو ألف ساكن فلسطيني. إن هذا

الهدم واحد من آلاف الإجراءات الهادفة إلى اقتلاع غالبية باقي الفلسطينيين من القدس خاصة، ومن وطنهم فلسطين عامة، واستكمال تهجيرهم في المنافي. المفارقة هنا هي أن قرار مهندس في البلدية تشكل إدارة غير شرعية بهدم تسعين مسكنا أقامها أصحابها على ترابهم الوطني، وفوق أراض يمتلكونها شرعيا وقانونيا، ولم يغتصبوها من أحد، ولا سرقوا حق أحد أو اعتدوا عليه، قرار صار نافذاً بمجرد توقيعه من ذلك الفرد الذي يمثل احتلالاً غير شرعي بموجب القانون الدولي. أما عندما تقرر تقليص الخسائر البشرية والمادية الإسرائيلية بإخلاء المستوطنين الصهاينة من مستوطنات أقيمت بشكل غير شرعي في غزة على أراض محتلة بالقوة، وفوق ممتلكات خاصة جرت مصادرتها اغتصاباً وعدواناً من أصحابها، فقد احتاج الأمر إلى قرار من الحكومة الإسرائيلية، ثم إلى قرار برلماني من الكنيست، ثم إلى قرار قضائي قاطع من المحكمة الإسرائيلية العليا، إلى جانب تعويض ساكن كل مسكن في تلك المستوطنات الصهيونية غير الشرعية التي تقرر إخلاؤها وهدمها بمبلغ ثلاثمئة ألف دولار أمريكي، رغم أن تلك المستوطنات قد بنيت أصلا من أموال التبرعات والمساعدات الأمريكية!

تجدر الإشارة إلى تأكيدات متكررة جاءت على لسان رئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك أرئيل شارون، وعدة مسؤولين آخرين، بأن إخلاء مستوطنات غزة التي كان الإسرائيليون يتمنون الابتعاد عنها سريعاً على امتداد السنوات الأربعين الماضية لقسوة ما عانوه من مقاومة عنيفة لاحتلالهم، إنما يهدف إلى تعزيز الاستيطان في القدس وحولها. زاد في هذه القسوة شن واحد وعشرين ألفا وثمانمئة هجوم فلسطيني في قطاع غزة وحده ضد قوات ومستوطنات إسرائيلية خلال سنوات انتفاضة الأقصى، أي السنوات الخمس الأخيرة، وفقا لتقارير رسمية صادرة عن الجيش الإسرائيلي. يضاف إلى هذا أن إبقاء قطاع غزة تحت الاحتلال يفاقم الاختلال الديموغرافي في للمشروع الصهيوني، حيث أن في هذا الشريط الساحلي الضيق من الأرض في الزاوية الجنوبية الغربية من فلسطين أعلى كثافة سكانية في العالم. وبالتالي فالتخلص من العدد الكبير من الفلسطينيين في غزة يعدل الميزان لصالح أكثرية يهودية في فلسطين المغتصبة التي احتلت سنة ١٩٤٨، والضفة الغربية ودرتها القدس، أي ما احتل سنة ١٩٦٧.

تستهدف هجمات الاستيطان الصهيوني المتلاحقة في القدس وحولها تحقيق الحلم الدائم بتهويد القدس، سبيلا إلى تكريس تهويد فلسطين بأكملها، على أمل حسم الصراع الذي بدأ مع بداية الغزو الاستيطاني الاستعماري العنصري الاقتلاعي التوسعي لفلسطين.

تكمن المشكلة الرئيسة لقادة المشروع الصهيوني وسدنته في استعصاء حقائق الصراع على إدراكهم، إذ إن ما نجح فيه مشروع استيطان شعال أمريكا عندما قام على جثث الأمم التي عاشت لآلاف السنين على تلك الأرض، إلى أن أبادها المستوطنون الأوربيون متذرعين برسالة سماوية ورسالة حضارية وتفوق فطري للإنسان الأبيض يبيح له قتل الآخرين للاستيلاء على أرضهم، لن ينجح استنساخه الصهيوني في فلسطين التي لا يزال شعبها يقاوم هذا الغزو دون كلل لأكثر من قرن، مثلما قاوم غزوات عديدة على امتداد التاريخ ودحرها مدعوما بأمته. إن ظروف العالم قد اختلفت اليوم عنها قبل أربعة قرون. وفوق كل هذا، فإن نتيجة الصراع على فلسطين محكومة بوعد إلهي قاطع أوضح مسار ومآل الصراع على المسجد الأقصى الذي بارك الله ما حوله، أي القدس وأرض فلسطين كلها، بل وما وراءها أيضا. ذلك هو قول الله عز وجل:

«وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً(٤) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً(٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً(٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً(٧)» (الإسراء: ٤-٧).

الهوامش:

١- نصر شمالي، العودة إلى تقرير كامبل بنرمان، حوار، دمشق، ٢٠٠٣/٣/٤، ص ٢٤.

٢- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ترجمة أحمد عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٥ ص ٢١٨.

٣- د. خير الدين عبد الرحمن، القوى الفاعلة في القرن الحادي والعشرين، دار الجليل بدمشق ودار

إشراق بعمان، ١٩٩٦، ص ٢٩٨-٢٩٩.
٤- المصدر السابق، ص ٣٠٠.
٥- د. منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية، دار رياض الريس، بيروت، ٢٠٠٢.
٦- غـزو أمريـكا – مسألة الآخر، تزفيتان تودوروف، ترجمة عبـد الكريم حسن وسميرة بن عبو، مجلة «الوحدة»، العدد ٩٦، الرباط، سبتمبر ١٩٩٢، ص ١٣٠.
٧- د. خير الدين عبد الرحمن، مستقبل الحروب الصليبية، قيد النشر.
٨- الاتحاد، أبو ظبي، ٥/١١/ ٢٠٠٠، ص١٥.
٩- Newsweek، ١٩٨٠، ١١، ٣٠.
١٠-د. رشـاد الشامـي، القوى الدينيـة في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، الكويـت، الإصدار ١٨٦، حزيران ١٩٩٤، ص٥٤.
١١-أمنـون روبنشتايـن، مـن هـرتسل إلى جوش ايمونيم ذهابا وعـودة، دار نشر شوكن، تـل أبيب، ١٩٨٠، ص٢٠ -٢١، في: المصدر السابق، ص ١٩-٢٠.
١٢-مجلة كول هازمان الإسرائيلية، ٣٦/ ٥/ ٢٠٠١.
١٣-Herald Tribune، ١٩٨٧، ٣، ١٠.
١٤-رشاد الشامي، القوى الدينية، م.س.ذ، ص ٩٥.
١٥-د. خير الدين عبد الرحمن، مستقبل الحروب الصليبية، م.س.ذ.
١٦-(د. أسعـد عبـد الرحمـن ونـواف الـزرو، الغـزو الصهيوني وحلقـات الصـراع السياسـي الإجلائي الديموغرافي في فلسطين ١٨٨٢ – ١٩٩٠، الحلقة السادسة، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠/٥/١٩٩٠).
١٧-عـلاء سالم، هجرة يهـود الاتحاد السوفييتـي وديموغرافيـة الاستيطان في فلسطـين، مجلة شؤون فلسطينية، مركز الأبحاث الفلسطيني، نيقوسيا، العدد ٢١٥-٢١٦، شباط- آذار ١٩٩١، ص ٧٣.
١٨-هآرتس، ٢١/٢/٢٠٠٢.
١٩-الاتحاد، أبو ظبي، ١/٧/٢٠٠٢، ص ٢٩.
٢٠- د. أسعد عبد الرحمن، شارون: خطاب السلام المراوغ..، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٩/٧/٢٠٠٥، ص ٢١.
٢١-The Washington Post، ٢٠٠٥، ٣، ٢٣.
٢٢-د. عادل الصفتي، خرق الاتفاقيات الهشة، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٣/٦/٢٠٠٥.
٢٣-هآرتس، ١٥/٥/٢٠٠١.

٢٤-يديعوت أحرونوت، ٢٠٠١/٥/١٣.

٢٥-هآرتس٢٠٠١/٥/١٤.

٢٦-أسعد عبد الرحمن، القدس: برميل بارود يهدد بتفجير عملية السلام، الاتحاد، أبو ظبي ٢٠٠٥/٨/١٩، ص ٢١.

٢٧-حسين شويخ، جدار الفصل..، حوار، ملحق صحيفة البعث، دمشق،٢٠٠٥/٣/١.

الدراسات والبحوث

القدس وكتاب العهد القديم

د. أحمد أرحيم هبو *

كتـــاب العهد القديم هو كتاب اليهـــود المقدس في المقام الأول، وهو أحد قسمي الكتاب المقدس الذي يمثل قسمه الثاني كتاب العهد الجديد المعروف بالأناجيل الأربعة. ويتألف كتاب العهد القديم من ثلاثة أقسام هي: التوراة، والأنبياء، والمكتوبات.

وينقســـم كل واحد من هـــذه الأقسام الثلاثـــة إلى إصحاحات، ويسمي اليهود هذه الأقسام نسبة إلى الحروف الأولى (تنخ) اختصاراً، فالتاء (توراة)

* كاتب وباحث في التراث القديم - جامعة حلب.

أي «الشريعة والقانون» الذي أتاهم موسى عليه السلام به بحسب اعتقادهم، والنون أول حروف(نبيئيم) أي «أنبياء»، وهم أنبياء اليهود الكثر، والخاء هي في الكتابة (كاف) لكنها تلفظ خاء بحسب قواعد لفظ اللغة العبرية، وتعني اختصاراً (كتوبيم) بمعنى النصوص المكتوبة من تاريخ وشعر وأمثال وحكم وتاريخ. أما التوراة فتتألف من خمسة أسفار، والسِفْر، كما في العربية يعني الكتاب، والأسفار الخمسة هي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية. وينسب اليهود التوراة إلى النبي موسى عليه السلام، ولذلك تدعى أسفار موسى الخمسة، كما يقال لها في اليونانية (بنتاتوك) Pentateuch، مع أن مضمونها يشير في بعض مواطنه إلى أنه ليس واضعها.

و تتضمن أسفار التوراة أحداثاً تاريخية مر بها العبرانيون - كما كان أبناء إبراهيم عليه السلام من ابنه اسحق يُدْعَون- ثم صاروا يدعون إسرائيليين (بني إسرائيل) نسبة إلى إسرائيل الذي هو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم نفسه. وبنو إسرائيل هم الأسباط الاثنا عشر، أي القبائل الإسرائيلية التي غزت فلسطين واتخذتها موطناً لها، كما تروي أسفار العهد القديم، ولاسيما أسفار التوراة وأسفار الأنبياء.

وتتحدث أسفار الأنبياء ومنها سفر يشوع، وسفر القضاة، وسفرا صموئيل، وسفر الملوك الأول والملوك الثاني عن تاريخ بني إسرائيل بعد وفاة موسى، وقيام يشوع قائداً لهم من بعده، وعن تاريخهم في عهد القضاة (شيوخ القبائل) الذين حكموا الشعب بعد وفاة يشوع، وعن ملكية شاؤول الذي كان أول ملك حكم على بني إسرائيل، ثم عن وصول الملك داوود إلى الحكم الذي استغرق حكمه بحسب رأيهم أربعين سنة، ثم ابنه سليمان من بعده الذي حكم أيضاً أربعين سنة، ثم ينتقل الحديث في سفر الملوك الثاني إلى انقسام الدولة إلى مملكتين: واحدة في الجنوب وعاصمتها أورشليم، ويتكون شعبها من سبطي يهوذا وبنيامين، وشمالية وعاصمتها السامرة (عند نابلس اليوم)، وشعبها بقية الأسباط. كما يجري الحديث عن الحروب بين الدولتين، وحروبهما مع الآراميين الذين أسسوا ممالك لهم في سورية، وفي البقاع، ودمشق وحماة وغيرها، وصاروا يضغطون على بني إسرائيل، وأخضعوهم لنفوذهم، كما عاد المصريون للتدخل في شؤونهم، وعند ظهور الآشوريين الذين سادوا مناطق

الشـرق الأدنى القديم، وفرضـوا سيادتهم عليهم، وضايقوا الإسرائيليين، وقضوا على مملكة الشمال، ثـم حاول ملكهم سنحاريب الاستيلاء على أورشليم، ثم تراجع عنها. ثم ينتقل الحديث أخـيراً إلى سيادة الكلدانيين (الدولـة البابليـة الجديـدة) الذين دمروا هيكل سليمان بقيـادة ملكهم «نبوخذ نصر الثـاني»، وسبوا الشعب اليهـودي إلى بابل. ويتوقف الحديث في هذه الأسفار عند هذه الحادثة المأساوية عند اليهود الذين صاروا يدعون بهذه التسمية نسبة إلى دولة يهودا.

أمـا أسفـار المكتوبات فيُعنـى بعضها ولاسيمـا سفـر أخبار الأيـام الأول، وسفر أخبار الأيام الثاني برواية تاريخ الإسرائيليين منـذ الخليقـة حتى عهـد قورشـ، ملك الفرسـ، الذي سمـح لليهود بالعـودة إلى فلسطين لإعادة بناء هيـكل سليمان ويعنى كذلك خاصـة باستيطانهـم فلسطين التي تسميها أسفار العهد القديم «أرض كنعان». ويـرى المختصون بالدراسـات التوراتية أن الإسرائيليين غزوا «أرضـ كنعان» في نهاية العهـد البرونزي وبدايـة العصر الحديدي، أي في نهايـة القـرن الثالث عشـر وبداية القرن الثاني عشر قبـل الميلاد، وهو تاريخ يقدّرونـه من دون أن تكـون هناك قرينة أو حجـة تاريخية موثقـة تؤكد هـذا التاريخ الافتراضي.

وإذا عدنـا إلى المصـادر التاريخيـة الأساسية التي ترفدنا بالمعلومات الصحيحة عن هذه الفـترة التاريخية وعن الفترة التي سبقتها، فإننا نجدها عزيزة، قليلة، وتتمثل في ما يعـرف باسم رسائل تل العمارنة التي عثر عليهـا مكتوبة باللغـة البابلية والخط المسماري ويعود تاريخهـا إلى القرن الرابع عشر قبل الميـلاد في صعيد مصر، وتعطينا معلومـات عن أوضاع فلسطـين المضطربة وضعف نفوذ الفراعنة فيها. والمصدر الآخر هـو النصوص التي عثر عليها علماء الآثار في ختوشا (بوغازكوي اليوم في تركية) التي كانت عاصمة الحثيين، وهي منقوشة باللغة الحثية، وباللغة الأكدية. أما المصدر الثالث فيتمثـل في أخبار فراعنة الأسـرة التاسعة عشـرة سيتـي الأول (١٣٠٨- ١٢٩٠ق.م) وابنه رعمسيسـ الثاني (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) عن حملاتهما المتكـررة على سورية لإعادة النفوذ المصـري إليها، ثم حفيـده مرنبتاح (١٢٢٤- ١٢١٤ق.م).

ثم تكف المصادر المصرية عن الحديث عن فلسطين وإيراد ذكرها - كما كان الحال من قبل- وذكـر مدنها، ولاسيمـا أورشليم

حقبة من الزمـــن إلا لماماً، وذلك لأن مصر دخلت بعـــد رعمسيـــس الثالـــث (١١٨٢-١١٥١ق.م)، آخر ملوك الفراعنة المشهورين، والـــذي ذاد عن مصر ونـــأى بها عن خطر شعوب البحر القادمين من جهات بحر إيجة الذيـــن دمروا المناطق القريبـــة من سواحل البحـــر المتوسط الشرقيـــة بكاملها، وقضوا على دولـــة الحثيين التي كانت تنافس مصر في الشـــرق وتقف أمامها وتهـــدد سيطرتها على سورية، ووصلـــوا إلى مصر حوالي عام ١١٧٥ق.م عـــن طريـــق البـــر، وعـــن طريق البحر. ومـــن بين الجماعـــات المقاتلة قوم يدعون باسم «الفلسط» (في العبرية فلسط)، وهم الذين استقـــروا بعد هزيمتهم على يـــد رعمسيس الثالث على الساحل الشمالي لفلسطين التي يعود اسمها «فلسطين» إليهم، وهـــم الفلسطينيـــون الذين وقفـــوا للقبائل الإسرائيلية بالمرصاد عنـــد دخولهم «أرض كنعان» وجعلوها رهـــن سيطرتهم، ومارسوا ضغطاً كبيراً عليهـــم، وحاربوهم، كما تذكر أسفـــار العهد القديم، حتـــى في عهد ملك بنـــي إسرائيل الأول شاؤول الذي اضطر إلى طلب مساعدة الفتـــى الراعي داوود المقاتل البارع لردع الفلسطينيين وإيقاف تهديداتهم المتواصلة بعد انتصاره الأسطوري على بطل الفلسطينيين المسمى «جوليات»[1].

إذاً لم تعـــد المصـــادر المصريـــة تذكـــر فلسطـــين بإسهاب كما كانت مـــن قبل لأن مصر دخلت في حقبة من الضعف بعد عهد رعمسيس الثالث والأســـرة العشرين، لم تعد بعده إلى سابق قوتها، فانكفأت على نفسها، واضطربـــت أحوالهـــا الداخليـــة الإداريـــة والمعاشيـــة، وترددت سمعتها الخارجية طوال عهود الأســـر الحاكمة التالية التي انقسمت في أثنائهـــا إلى دولتـــين شماليـــة وجنوبية، بـــل ووصلت إلى الحكم أســـرة حاكمة ليبية الأصـــل (الأسرة ٢٢)، اشتهـــر منهم مؤسس الأســـرة «شيشنق» الذي حاول أن يعيد لمصر نفوذها في سورية، فوصـــل أورشليم حوالي عـــام (٩٣٠ق.م) فدمرهـــا في عهد ملكها « رحبعـــام » - كما يذكر سفر الملوك الأول[2] - و غنـــم كنوز داوود وسليمان. ثم خلف الأسر الليبية الأصل أسرة نوبية أيضاً. هي الأسرة ٢٥، وعاصـــرت الأســـرة ٢٤ في الشمـــال، واشتهـــر من أفرادها الملـــك «شاباكا» الذي وحد البـــلاد، وأخوه «شبتـــكا» الذي عاصر الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٥- ٦٨١ق.م) وسعى إلى مساعدة ملك يهوذا «حزقيا» على الآشوريين الذيـــن حاصروا أورشليم، وأرسل

أخاه «طاهرقا» الـذي خلفه في حكم مصر مـن بعد. و لكن الآشوريين هزموا المصريين واليهـود معـاً فدفـع ملك يهـوذا الجزية مضاعفـة للآشوريـين وأهـداه معها بناته وحظايـاه وموسيقييه، كما تذكـر المصادر الآشورية[٣].

أما كتـاب العهد القديم فيذكر رواية أخرى كذلك: «ولما رأى حزقيا أن سنحاريب قـد أتى علـى محاربة أورشليـم تشاور هو ورؤسـاؤه وجبابرتـه.. بعـد هـذا أرسـل سنحاريـب ملك آشور ووجهـه وعبيده إلى أورشليـم.. إلى حزقيا ملـك يهوذا وإلى كل يهوذا الذين في أورشليم يقولون: هكذا يقول سنحاريب.. على مـاذا تتكلون في الحصار في أورشليـم.. أليس حزقيـا هو الذي أزال مرتفعاتـه ومذابحـه (مذابح الـرب) وكلم يهوذا وأورشليم.. أمـا تعلمون ما فعلته أنا وآبائي بجميع شعوب الأراضي. فهل قدرت آلهة أمم الأراضي أن تنقذ أرضها من يدي.. والآن لا يخدعنكم حزقيا ولا يغوينكم هكذا ولا تصدقـوه. لأنه لم يقدر إله أمة أو مملكة أن ينقذ شعبه من يديّ ويد آبائي.. وصرخوا (أي عبيد سنحاريب) بصوت عظيم باليهودي (أي باللسـان العـبري) إلى شعـب أورشليم الذين على السور (سور أورشليم) لتخويفهم وترويعهـم.. وتكلمـوا على إلـه أورشليم.. فصلـى حزقيا الملك وإشعيـاء النبي لذلك وصرخـا إلى السماء، فأرسـل الرب ملاكاً فأبـاد كل جبار بأس ورئيس وقائد في محلة ملـك آشور. فرجـع (أي سنحاريب) بخزي الوجـه إلى أرضه. ولما دخـل بيت إلهه قتله هناك بالسيف الذيـن خرجوا من أحشائه. وخلصـ الرب حزقيا وسـكان أورشليم من سنحاريب ملك آشور»[٤].

ولكن سفـر الملوك الثـاني يذكر: «وفي السنـة الرابعة عشرة للملـك حزقيا صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها. وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور إلى لخيش يقول قد أخطأت. ارجع عني ومهما جعلت علي حملته. فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضـة وثلاثين وزنة من الذهب. فدفـع حزقيـا جميع الفضـة الموجودة في بيت الرب وفي خزائـن بيت الملك. في ذلك الزمان قشر حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه لملـك آشور. وأرسل ملك آشـور.. إلى ملك حزقيـا بجيش عظيم إلى أورشليم»[٥].

كتاب العهد القديم مصدر تاريخي؟

يلاحظ قارئ كتاب العهد القديم أنه كتاب وضعه أكثر من مؤلف، وكل واحد ينتمي إلى مدرسة تتميز عن الأخرى، أي مصدر له خصوصيته. وقد ميّز الباحثون ولاسيما في التوراة أربعة مصادر هي: «اليهوية» نسبة إلى اسم الإله «يهوه» التي تستخدم هذا الاسم، وهو اسم علم لله عندهم، ويقدر الباحثون تاريخ هذا المصدر ما بين ٩٥٠ - ٨٥٠ ق.م. والمدرسة التي تستخدم عبارة «إلوهيم» علماً على الله ويمكن اشتقاقه وفهم معناه من العبرية (الكنعانية) ومعناه «آلهة» اسم جمع من حيث الصيغة، ويؤول بأنه لفظ الجلالة أي «الرب، الإله»، ويبدو أن القبائل الإسرائيلية (الأسباط) العشرة التي استقرت في شمالي فلسطين هي التي اختارت استخدام هذه التسمية دون القبيلتين «السبطيتين» الباقيتين يهوذا وبنيامين، ويقدر الدارسون أن تاريخ هذا المصدر للتوراة يعود إلى ما قبل عام ٧٢٢ ق.م، وهو العام الذي يقال إنه سقطت فيه السامرة بيد الآشوريين ولم تقم لها بعد ذلك قائمة.

ويعتقد الباحثون أن هاتين المدرستين أو المصدرين قد يكونان أقدم من المصادر الأخرى - كما نوهنا - وهما يتفقان من حيث الموضوع في كثير من المسائل ويتصفان بأسلوبهما القصصي. وربما خلط اليهود بينهما من بعد، كما يتضح من الآيات التي تذكر الاسمين معاً، يهوه إلوهيم. والمدرسة الثالثة هي التي عنيت بالتشريع اليهودي، ويتجلى اتجاهها في السفر الأخير للتوراة، سفر التثنية، الذي تنسب إليه المدرسة، ويعتقد أنه أضيف إلى أسفار موسى الخمسة في زمن لاحق، ربما في الربع الأخير من القرن السابع قبل الميلاد فصار جزءاً من كتاب التوراة. ويرمز الباحثون التوراتيون لهذه المدرسة بالحرف اللاتيني D[٦] الذي يختصر اسم السفر باللاتينية Deuteromoium، أي «القانون الثاني» أما المدرسة الرابعة فهي التي تمثلها حواشي الكهنة وتفسيراتهم، ويرمز الباحثون التوراتيون لها بالحرف P، وهم يعيدون تاريخ ظهورها إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد أضيفت إلى التوراة في عهدي عزرا و نحميا، أي إلى الزمن الذي تلا عودة اليهود من السبي البابلي، ويبدو فيها تأثير الأفكار الدينية البابلية، ولا سيما ما يتصل بقصة الخلق (التكوين)، وقصة الطوفان[٧].

ويعود تاريخ تدوين هذه الأسفار جميعها بعد تركيبها وصوغها في عهد الكاهن الأكبر عزرا الذي ينسب إليه شكل أسفار موسى الخمسة بالصيغة التي نعرفها إلى حوالي عام (٤٠٠) ق.م أو إلى القرن الرابع على أبعد تقدير.

إن تنوع المصادر والتوجهات التي تمثلها المدارس الأربع التي ميّزها الدارسون التوراتيون جعل النص التوراتي مضطرباً من حيث وحدة الموضوع، إذ إن لكل طرف وجهة ورؤيا مختلفة، وإن اتفقت المدرستان الأولى (اليهوية) والثانية (الإلوهيمية) على الموضوع من حيث الجوهر، ولكن كل واحدة منهما كان لها أسلوب خاص، ولاسيما في سرد الأحداث، فيظهر الاختلاف في التفاصيل. ومثال ذلك كثير قد أشار إليه الدارسون، ومنه الآية الأولى من الإصحاح الأول التي تذكر «في البدء خلق الله السموات والأرض». ثم يرد في الآية الثالثة «وقال الله ليكن نور فكان نور».. «وفصل الله بين النور و الظلمة، ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً..» (الآيتان ٤-٥) وهذا في اليوم الأول للخلق، ولكن النص لا يذكر مصدر النور الذي يجب أن يكون الشمس والقمر، فالشمس والقمر بحسب النص سيكون دورهما في الخلق في اليوم الرابع وليس في اليوم الأول كما رأينا، وكذلك خلق الإنسان، إذ نرى أن الإنسان (آدم) باقتضاب قد خلق في اليوم السادس، وهو اليوم الأخير، وهذا منطقي، ولكن الآية (٢٧) تنص على أن الله خلقه «ذكراً وأنثى». بينما يرد في الإصحاح الثاني (الآية٧): «وجبل الرب الإله (يهوه إلوهيم) تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية». ثم بعد ذلك بزمن «فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم» (الآيتان ٢١-٢٢ من الإصحاح الثاني نفسه). ففي الرواية الأولى نجد الإنسان يخلق ذكراً وأنثى مباشرة، بينما نجد في الرواية الثانية أن الله خلق الرجل أولاً لوحده، ثم خلق حواء بعد زمن ليس بقصير عن طريق أخذ ضلع من ضلوع الرجل وتكوينها بعد ذلك، وذلك لأن الله رأى أنه ليس «جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له معيناً نظيره..» (الآية١٨ من الإصحاح الثاني).

ونرى مثل هذا الاضطراب النصي، وتعدد الرواية في قصة الطوفان، حيث يطلب الإله «يهوه» من نوح أن يأخذ معه «من كل حي..

اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك تكون ذكراً وأنثى» (الإصحاح ١٩، ٦). والمقصود بذلك - كما يتضح من النص - أن يأخذ نوح معه زوجاً من كل نوع من الحيوانات، الواحد ذكر والثاني أنثى ليستمر الجنس أو النوع في البقاء على وجه الأرض. لكننا نقرأ بعد ذلك في الإصحاح نفسه حديثاً آخر يتصل بعدد الحيوانات. ففي الآيتين (٢-٣) من الإصحاح(٧) يرد: «من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى. ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى. ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض». إذن المطلوب زوج من الحيوانات، ثم يتغير العدد فيصبح سبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة وزوجاً واحداً من الحيوانات غير الطاهرة. كما يلاحظ أن عدد أيام الطوفان غير موحد في النص، حيث نقرأ في الإصحاح نفسه(٧) الآية (١٧): «كان الطوفان أربعين يوماً على وجه الأرض». ثم بعد ذلك في (الإصحاح نفسه ٧ الآية ٢٤): «وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً». وهذا يعني أن عدد أيام الطوفان ليس محدداً، فلا نعرف ما هو العدد الحقيقي».

هذه الأمثلة من سفر التكوين الذي ينسب - كما ذكرنا - إلى النبي موسى (عليه السلام) تؤكد اضطراب النص التوراتي وتعدد روايته بما لا يقبل الشك، بل يفقد النص عنصر الترابط الضروري لفهم واستيعاب الرواية والحدث الذي هو شرط لا غنى عنه، ولا سيما في موضوعات بأهمية النص التوراتي الذي يمثل الكتاب المقدس عند اليهود، ويرقى لأن يكون بمثابة القرآن الكريم عند المسلمين والإنجيل عند المسيحيين.

ويضاف إلى ما سلف ذكره أن هذا الاضطراب في النص وتعدد الرواية يؤدي إلى تكرار الموضوع والألفاظ، بحيث تبدو الجمل في النص والأفكار المكررة سقيمة وتبعث على السأم والضجر. وهذه صفة تلازم سفر التكوين بخاصة في إصحاحاته وآياته كافة، وأحياناً في الآية نفسها، ومثال ذلك: (سفر التكوين ١١، ١): «وقال الإله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبذر بذراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه. فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً بزراً كجنسه وشجراً يعمي ثمراً.. كجنسه». وفي (١٦،١): «فعمل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم. الآية

(١٨): «(وجعلهـا الله).. لتحكم على النهار والليل».

الآية (٢٤): «وقـال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية لجنسها. بهائم ودبابات.. كأجناسها..» الآية (٢٥): «فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها..»

الإصحـاح الثـاني، الآيـة (٢): «وفرغ الله في اليـوم السابع من عمله الذي عمل. فاسـتراح في اليوم السابـع من جميع عمله الذي عمل..» الآية (٣): «.. وبارك الله اليوم السابع وقدسـه. لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمـل..» ويبدو التكرار للأفكار والألفـاظ في هذه الأمثلـة وغيرها مما لا مجال لسـرد ه هنا أمراً مألوفـاً في أسلوب النص التوراتي حتى صار صفة ملازمة له.

وثمة أمر لافـت يتصل بنسبـة التوراة إلى النبي موسى (عليـه السلام)، وهو لأنه أمر يستحيل الإقرار به وتمريره، وذلك لأنه ما من كاتب يذكر في نصـ كتابته أنه مات ودفن. ففي سفـر التثنية الذي يمثل السفر الأخير من حيـث ترتيب أسفار التوراة نعلم أن موسـى قد وصـل إلى نهاية الرحلة وأنه سينطق آخر كلماته إلى بني إسرائيل ويدعو لهـم، (الإصحاح ١، ٣٣): «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته»، ثـم يذكر كل سبط باسمه، ومن ثم في الإصحاح التالي (١، ٣٤) نقرأ: «وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نَبُو إلى رأس الفِسْجَة الذي قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان..»

الآية (٤): «وقال له الرب هذه هي الأرض التـي أقسمت لإبراهيـم واسحق ويعقوب قائـلاً لنسلـك أعطيها. قـد أريتك إياها بعينيـك ولكنـك إلى هناك لا تعـبر». الآية (٥): «فمـات هناك موسى عبـد الرب في أرض مؤاب حسب قـول الرب.» الآية (٦): «ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فغـور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم». الآيـة (٧): «وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات». ويبدو لنا بوضوح من قراءة مـا سبق، ومن متن النص التوراتي نفسه أن موسـى لا يمكن أن يكون كتـب هذا السفر وما سبقه، إذ لا يعقل أن يحدد الإنسان زمن موتـه وبصيغة الماضي، ولا عمره والسنوات التي عاشها، ثم مـكان القبر الذي لا يعلمه أحد حتـى اليوم، ولا يستطيع أحد أن يفهم معنى «حتى هذا اليوم».

إن هـذه الأمثلة التـي سقناها وغيرها كثير مما لا يعد ولا يحصى والتي يقع عليها المرء تدلل على أمر واحد هو أن كتاب التوراة

بخاصـة، وكل أسفار كتاب العهد القديم، لا تحمل أية مصداقية، أي ليس بمقدور المرء أن ينظر إليها نظرة الواثق والباحث في مصدر أو مرجع يركن إليه في المعلومات التي يبحث عنها في أية مسألة تاريخية، قل شأنها أو عظم. فهو كتاب تعدد كتبته ومؤلفوه، وحتى زمن تأليفه لا يمكن لأحد أن يحدده. وكذلك عندما تُنسب أسفار التوراة الخمسة إلى النبي موسى لا يستطيع أحد أن يؤكد هذه الشخصية. فهو شخصية غير تاريخية، ولم يرد في أية وثيقة تاريخية لا في مصر، حيث ولد وكبر وتلقى الدعوة من الله لهداية بني إسرائيل المضطهدين، كما تصف التوراة، ولا في أية وثيقة تاريخية عُثر عليها في البلاد المجاورة لمصر، في سورية مثلاً أو ما يجاورها أيضاً ذات صلة بمصر. حتى اسمه، أي موسى، لا تفسير له في اللغات المعروفة بالسامية، فهو يجب أن يكون من العبريين، بني إسرائيل، وهؤلاء ساميون بحسب الاصطلاح، ويتكلمون لغة كنعانية وهي اللغة العبرية، وهي إحدى اللغات السامية. كما هو معلوم. إننا لا نجد اشتقاقاً للاسم موسى في اللغة العبرية نفسها ولا في إحدى اللغات السامية. وهذا ما أشار إليه عدد من الباحثين الغربيين الذين تعمقوا بدراستهم عن كتاب العهد القديم، ولاسيما التوراة. ويعتقد بعضهم أن للاسم «موسى» علاقة باللغة المصرية القديمة التي فيها ما يشير إلى علاقة الاسم بالماء، أو «الطفل المُنتشل من الماء»[8] استناداً إلى الإصحاح (٢) الآية (١٠) من سفر الخروج حيث يرد في صدد الحديث عن قصة موسى الطفل على لسان ابنة فرعون أنها سمته «موسى (مُوشِه) لأنني من الماء انتشلته». وتثير لفظة «انتشلته» في العبرية، كما فسرها التوراتيون هنا مشكلة إذ أنها اللفظة الوحيدة في العبرية التي تدل على معنى «انتشل»، ولا تتكرر في موضع آخر من كتاب العهد القديم، وكأنها فُصِّلت تفصيلاً على الاسم موسى. ولدى المقارنة مع اللغة العربية نجد أن مادة «مسا» تعني بالفعل «إدخال اليد في رحم الناقة (أو الفرس) لاستخراج الماء منه إذا سطوت عليها فنُقِّيت الرحم كراهةَ أن تحمل، وكل استلال مَسْيٌ.[9] وهذا معنى مطابق صوتاً ومعنى للفعل العبري اليتيم - كما نوهنا- وهو فعل « مشا».

ولكن سيغموند فرويد، الباحث اليهودي والطبيب النفساني الشهير، الذي تطرق إلى اسم وشخصية موسى يرى أن موسى كان مصرياً لأسباب منها: أن اسم موسى لم يرد

في أسماء الساميين جميعاً من قبل، وأن اشتقاق الاسم موسى- كما بيّنا- من العبرية فيه تكلف، إضافة إلى أن صيغة «موسى» من الناحية الصرفية تعني أسم فاعل «المُنْتَشِل» أي «المُنقِذ» وليس «المُنْتَشَل» أو الذي يتم انتشاله ويُنْقَذ (من الماء). ثم لماذا تدعوه ابنة فرعون التي ربته في قصر أبيها، وهي مصرية ولا تعرف العبرية، باسم عبري، وأبوها يعتبر العبريين (الإسرائيليين) أعداءه ويأمر بقتل كل مواليدهم وأطفالهم.

ومن هنا فإن فرويد يشك باشتقاق الاسم موسى من اللغة العبرية، ويرى أن اللغة المصرية تعرف اللفظة «مُس» بمعنى «الطفل، الغلام، الابن» وهي عبارة يشتمل عليها اسم «تحوتمس» أي ابن (الإله) تحوت، و«رعمسيس»، أي «ابن (الإله) رع. كما يرى فرويد وغيره من المشككين بدعوة موسى إلى التوحيد أن هذا إنما استوحى دعوته من فكر الملك المصري أخناتون (أمنحوتب الرابع، أمينوفيس الرابع ١٣٦٤-١٣٤٧ق.م) الذي سبقه بالدعوة إلى وحدانية الإله، ولم يوفّق إلى نشر فكرته — كما كان يريد — فجاء موسى من بعده لنشر الفكر التوحيدي بين المصريين، فخاف فرعون مصر آنئذ من تلك الدعوة التي رفضها المصريون، وحارب كهنتهم صاحبها، وعرقلوا نشرها، إلى أن مات أخناتون، وانقلب الجميع عليها وعادوا إلى عبادة آمون والآلهة الآخرين، ولذلك قرر الفرعون اجتثاث فكرة التوحيد من أصلها، والقضاء على كل من يُشَكّ في تبنيه فكرة التوحيد والترويج لها، وإن كانت التوراة لا تشير إلى ذلك، بل تذكر خشية الفرعون من بني إسرائيل الذين كانوا يتكاثرون أكثر من المصريين، أصحاب البلاد أنفسهم، وغدوا يشكلون خطراً على البلاد، ويُخشى بأسهم.

كما يرى فرويد أن قوم موسى كان أكثرهم من الطارئين على مصر من الساميين البدو من عبريين وأدوميين وبابليين وكنعانيين وغيرهم، ومن غير الساميين النازحين من جنوب مصر ووادي النيل، ومن الصحراء الغربية ومن بحر إيجة والبحر المتوسط فهم أخلاط من البشر ممن لا تربطهم بمصر صلة[١٠]، ويذكر أنهم من أبناء إسرائيل وحدهم، ويدلل على ذلك ما تشتمل عليه التوراة من القصص والشرائع التي اقتبسها كَتَبَتَها من الأمم الأخرى، ولا سيما من البابليين الذين عاشوا أسرى بين ظهرانيهم عندما سباهم نبوخذ نصر الثاني(٦٠٥-٥٦٢ق.م)، سرجون الثاني قبله (٧٢١-٧٠٥ق.م).

ومن المعروف أن تدوين التوراة لم يتم قبل الكاهن عزرا وعودته من السبي البابلي مع وجهاء اليهود في عهد أرتاكسريس (أرتحشتا في التوراة) بعد دفعتين من العائدين اليهود بترخيص من الملك الفارسي (الاخميني) قورش الثاني لأول مرة بعد دخوله مدينة بابل عام ٥٣٩ق.م بمدة ليست بالطويلة، ولا سيما في عهد خليفة الملك الفارسي داريوس (٥٢٢-، ٤٨٦ق.م) الذي اكتمل في عهده بناء هيكل سليمان من جديد حوالي عام ٥١٦ ق.م وعزرا الكاهن هو الذي ثبت نص كتاب التوراة، أي أسفار موسى الخمسة، والتوراة تعني- كما ذكرنا من قبل- «الشريعة، والقانون» أي شريعة موسى وذلك بعد أن تمّ تركيبها وتأليفها، ووافق الشعب على صيغتها بعد قراءتها عليه، أي على الشعب(بني إسرائيل) في أورشليم[١١]- في احتفال عظيم، وذلك حوالي عام (٤٠٠ق.م) ومن المؤكد أن نص التوراة الذي وافق الشعب عليه لقي بعد ذلك على يد الكهنة تغييراً وتعديلاً، ولاسيما ما يتصل بالأحداث التي يُزعم أنها تاريخية، وكذلك ما يتعلق «بالعادات والتقاليد القديمة وأعطوها مفاهيم ومعاني تتناسب مع متطلبات نظام الإدارة التيوقراطي»[١٢].

ونخلص مما ذكرنا عن نص كتاب التوراة، من نقد وتنويه نتيجة لدراسات وأبحاث توراتية متعمقة نجدها في كثير من المؤلفات ذات الاهتمام بكتاب العهد القديم، نخلص إلى أن هذا الكتاب لا يمكن الاعتماد عليه في كتابة تاريخ جدي لبني إسرائيل، فلا وثائق تاريخية محلية أو خارجية تشير من قريب أو بعيد إلى ذلك التاريخ التوراتي القديم، ولاسيما الذي يقع قبل تدخل الآشوريين في عصر دولتهم الحديثة في أحداث المنطقة، وتطرق ملوكهم إلى ذكر المواقع الفلسطينية، ومنها السامرة والقدس، وفرض سيادته على سورية بكاملها، حينئذٍ فقط يأتي ذكر ما يدعى باسم ملوك إسرائيل «سامريا ويهوذا»، وحملهم على دفع الجزية للدولة الآشورية. وكذلك في سياق العلاقات العدائية بين مملكة دمشق الآرامية وإسرائيل، تلك الدولة التي يرد ذكرها في وثائق الشرق القديم وكانت حول مدينة السامرة (قرب مدينة نابلس اليوم). ثم تظهر مدينة أورشليم حاضرة لدويلة تدعى يهوذا. وكما تسقط السامرة على يد الملك الآشوري سرجون الثاني حوالي عام(٧٢٠ ق.م)، سقطت كذلك أورشليم على يد الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني في عام

(٦٨٧ق.م)، ومن بعد، ودمرت وسيق أهلها أسرى إلى بابل. وفي كلتا الحالتين كانت مصر المناوئة للسيادة الآشورية ثم للسيادة الكلدانية في سورية بلاد الشام بكاملها) وراء تمرد السامرة وأورشليم الذي كان سبباً لدمارهما والقضاء عليهما كلية.

ومن هنا فإن مصداقية كتاب التوراة تبقى بعيدة كل البعد عن الحد الأدنى لمصداقية المصادر التاريخية، لأن التاريخ لا يُعتمد عليه بغير الوثائق المعاصرة للأحداث التاريخية، وهذه تكون معتمدة وذات مصداقية عندنا تتقاطع مضامينها مع مصادر أخرى من المناطق المجاورة. وفيما يتصل بالتاريخ التوراتي لا بد من وجود وثائق تاريخية تذكر الأحداث التوراتية مصدرها من سورية التي قامت فيها دويلات الأموريين في قطنا وماري وحلب (يمحاض) ودويلات الكنعانيين على الساحل السوري، من مثل أوغاريت وجبيل وصيدا وصور، تلك الدويلات التي يفترض أن تكون معاصرة لبداية التاريخ التوراتي في عهد الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب، ثم امتداد ذلك التاريخ وقيام دولة إسرائيل الموحدة في عهد شاؤول وداوود وسليمان. وسورية التي تعد فلسطين جزأها الجنوبي هي أقرب المناطق إلى فلسطين حيث يفترض أن تكون الأحداث التوراتية قد وقعت فيها. وكذلك مصر التي لا ذكر فيها لإبراهيم وذريته من بعده، وصولاً إلى يوسف وموسى، وإلى داوود وسليمان اللذين تُصوّر أسفار العهد القديم دولتهما التي حكماها بأبهى وأعظم ما توصف الدول العظمى.

حتى الحفريات الأثرية التي جرت في الشرق الأدنى، وفي فلسطين نفسها لا تقدم شاهداً واحداً على وجود مثل تلك الدولة الموحدة، مملكة داوود وسليمان التي كانت أورشليم عاصمتها.

كانت التوراة وكان كتاب العهد القديم بمعلوماته التاريخية يعد المصدر الأول لكتابة تاريخ الشرق القديم، وتاريخ فلسطين بخاصة، إذا لم يكن من سبيل آخر لمعرفة ذلك التاريخ القديم قبل قراءة الكتابات التاريخية التي تم العثور عليها في بلاد الرافدين ومصر وسورية وآسية الصغرى، وفي شبه الجزيرة العربية وإيران، وهي الوثائق التي تعود إلى بداية ظهور الكتابة بأشكالها المتتالية: التصويرية والمقطعية المسمارية، والألفبائية. وقبل قيام البعثات الأثرية العلمية الجادة التي كشفت عن آثار الإنسان القديم ولاسيما في العصر الحجري

الحديث والكالكوليتي، وعصر البرونز بفتراته المختلفة، وفي عصر الحديد.. ليس هذا فحسب ما وضع حداً لأهمية كتاب العهد القديم، بل الأبحاث العلمية الرصينة الكثيرة التي ظهرت في مؤسسات علمية عالمية، ويقوم بها باحثون وعلماء مختصون في علوم الشرق القديم ولغاته. ونتيجة لذلك توصل عدد من الباحثين منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى أن مصدر التوراة الأساسي هو الحكايات الشعبية والقصص الخيالية التي كانت تتناقلها أجيال بني إسرائيل عبر الزمن إلى أن تمّ تدوينها في وقت يختلف الباحثون حوله، خلال وجود أحبار اليهود ووجهائهم في الأسر البابلي أو بعده حين جمع الكاهن عزرا أسفار العهد القديم، كما ذكرنا. أو ابتدأ في أثناء وجود أولئك في الأسر البابلي ولكنه اكتمل في بداية العصر الفارسي .والفارق هنا ليس كبيراً. ولكن بعض الباحثين الآخرين يرون أن التدوين لم يتم قبل مطلع العصر الهلنستي، وهو العصر الذي وقعت سورية فيه تحت الحكم السلوقي بعد إقامة الإسكندر المقدوني إمبراطوريته في الشرق وحلول خلفائه محل المملكة الفارسية الأخمينية، أي بعد زمن طويل من عودة اليهود من الأسر البابلي إلى أورشليم. ومهما تباينت الآراء، وتعددت الأسباب فإن مصداقية التوراة وما يليها من أسفار العهد القديم، ولا سيما سفر يشوع وسفر القضاة التي يبدو أنها تكمل الحديث عن تاريخ بني إسرائيل وإقامتهم دولة تضم كل القبائل الإسرائيلية على أرض كنعان، تلك المصداقية التي هي- كما عبّر بعضهم عنها – إنما هي أخيولة أدبية وقصة نسج خيوطها كهنة بني إسرائيل، ونسبوا أحداثها الأسطورية إلى موسى الذي يشكك عدد كبير من الباحثين في شخصيته، وفي وجوده أصلاً. وقد ذكرنا أن كل ما يرد في نصوص التوراة (يشوع و القضاة) لا وجود لما يدعمه لا في الوثائق التاريخية ولا في المكتشفات الأثرية. ونتيجة لذلك ما عاد للتوراة من الوجهة التاريخية أية قيمة علمية، وسقطت من بين المصادر لكتابة تاريخ الشرق القديم[١٣].

وأرى أن مهمة الكتاب المقدس ليست التأريخ للأحداث بقدر ما يجب أن تركز على الدين والشريعة. وإذا تطرق الكتاب المقدس إلى أحداث ومسائل تاريخية فمن باب العظة والاعتبار، كما هو معروف من القرآن الكريم.

اسم مدينة القدس في المصادر

حملت مدينة القدس عبر تطورها التاريخي عدة تسميات، لعل أقدمها هي تلك التسمية التي وردت في نصوص اللغات المصرية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، بصيغة روشاليموم، وهي نصوص يعود تاريخها إلى أواخر أيام حكم الأسرة الثانية عشرة في مصر، حين تردت الأحوال الإدارية والاقتصادية في البلاد، وصارت تتهددها الأخطار الخارجية، ومنها من جهة جنوبي سورية بعض المدن الفلسطينية[14].

ويظهر في اسم المدينة اسم الإله (شَلم) الذي تتأكد عبادته في فلسطين منذ ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد، ويؤكد عبادة ذلك الإله ومعرفة الناس له في الشرق من خلال اسم ابن الملك الآشوري أدد نيراري الأول حوالي (١٣١٠-١٢٨٣ق.م) وهو شُلْمانُ- أشَرِد، ويعني الاسم: «شُلْمانُ هو الأول»، وتظهر هنا الصيغة الاسمية إلحاق المقطع (آن) به. وربما يتضمن اسما ابني داوود (أبْشَلُوم) و(شَلُمو) (أبسالوم وسليمان) اسم الإله نفسه، وكذلك اسم ملك مؤاب شَلَمانُ الذي يذكره الملك الآشوري تجيلات بيليصر الثالث. كما يرد اسم الإله (شلم) في اسم العلم الأوغاريتي (صدق شلم)، مع اسم إله آخر هو صدق. ويعرف الإله شلم في أغاريت مع قرينه (شَحْر) حيث يوصفان بالرحمة والود[15]، ويذكر الاسمان متلازمين مع بعضهما. وهذا يعني أن الإله (شلم) كان من معبودات الشرق، ولاسيما الكنعانيين، المعروفة، ومن الواضح أن اشتقاق الاسم لغوياً يعود إلى مادة (سلم) التي تشترك بمعناها في اللغات السامية كلها، وهي التي تشتمل على معنى السلام والسلامة.

ويرد اسم (أُرُشَلِم) في رسائل تل العمارنة المصرية التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهي الرسائل التي كان يبعثها حكام الشرق الأدنى مدونة بالخط المسماري وباللغة البابلية إلى الفرعونين أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (أخناتون)، وتذكر رسائل بعض حكام المدن الفلسطينية (الكنعانية) تعرضهم للغزو والأذى على يد الخبيرو[16] وبعض الحكام الطامعين بالتوسع على حساب جيرانهم والمناوئين للحكم المصري.

كما يرد الاسم بصيغة (أُرُشَلِمُ) في نصوص الملك الآشوري سنحاريب التي يتحدث فيها عن حملته على سورية الجنوبية حيث كان المصريون يؤلبون سكان اليهود بخاصة وأرسلوا ضباطاً وجنوداً للوقوف إلى جانب

اليهود في أورشليم كما فعلوا مع سكان عدد من المدن الفلسطينية الأخرى، ولاسيما عقرون، فوصل سنحاريب إلى أورشليم وحاصرها، ولكن ملكها حزقيا بادر إلى دفع الجزية بعد أن رأى أن لا مهرب أمامه بعد أن جرده سنحاريب من المناطق القريبة. ويذكر سنحاريب أنه هاجم مملكة يهوذا التي استنجدت بالمصريين، فاجتاح المنطقة وضرب الحصار على أورشليم، فاضطر ملكها حزقيا تحت وطأة الحصار، وإزاء ما أصاب النجدة المصرية من هزيمة ساحقة على يد الآشوريين، إلى أداء الجزية مضاعفة إلى الملك الآشوري، كما ذكرنا.

أما نص (سفر الملوك الثاني ١٩:٣٥) فيذكر أن الجيش الآشوري حلّ به الموت الإلهي، وحام ملاك الرب فوقه ليلاً، وفي الصباح أصبحوا جثثاً. فانصرف سنحاريب، وذهب إلى عاصمته نينوى مهزوماً.

كما يذكر الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني أورشليم بالصيغة نفسها التي ذكرها الآشوريون، وذلك عندما يتحدث عن حملة مشابهة لحملة سنحاريب الآشوري لإخضاع سورية الجنوبية وجباية الجزية من حواضرها، وطرد المصريين الذين عادوا إلى تحريض السكان ضد الكلدانيين، ولا سيما أورشليم. فتجح في هزيمة القوات المصرية وملاحقة فلولها، ثم عاد إلى أورشليم، فحاصرها للمرة الثانية، واستغرق حصاره لها هذه المرة(١٧) شهراً حتى اقتحمها بجنوده حوالي عام (٥٨٧ أو٥٨٦ ق.م)، ودمرها، وأحرق الهيكل ونقل خزائنه، ونفى أربعين أو خمسين ألفاً من أهلها «لينوحوا عند مياه الفرات» بحسب قول التوراة. وأطلق اليهود على هذا النفي اسم «السبي البابلي الثاني». وكان الحصار الأول زمن الملك يهوياكين عام ٥٨٩ق.م، وبعده عيّن نبوخذ نصر الثاني صدقيا ملكاً على أورشليم بعد أن اقتاد معه إلى بابل (٢٠٠٠) يهودي.

وكما رأينا تدعى المدينة في العبرية الكنعانية أورشليم أيضاً، ولكن كتاب العهد القديم يجعل بداية الاسم ياء، فهي يرُشَلِيم، أو يروشَليم بإمالة اللام أو بفتحها ثم بكسر الياء، وكأن الصيغة إنما هي صيغة الاسم المثنى الذي ينتهي- بحسب قواعد اللغة العبرية - بالياء المكسورة وقبلها فتح ثم بالميم، كما تحرك عبارة السماء (شَمَيِم)، وعبارة (عَيْنَيِم) أي (عَيْنَيْن في العربية)، وعبارة (شْنَيِم) بمعنى (اثنين). وهذا اللفظ يعود طبعاً إلى نظام الحركات الذي وضعه علماء اللغة العبرية أواخر القرن السابع

وأوائل القرن الثامن الميلادي، للحفاظ على اللفظ الصحيح للكلمات العبرية الواردة في كتاب العهد القديم مستفيدين من نظام الحركات عند السريان والعرب.

ولكن تبقى مشكلة الياء في بداية الكلمة التي تبدو كياء المضارعة في الفعل المضارع من دون شك، وكأن لفظة (يِرُشَلِيم) تتكون من جزءين: الجزء الثاني اسم الإله (شَلِم)، أما الجزء الأول فيبدو لنا أنه صيغة فعلية من الجذر (يرى) في العبرية، أي أن فاء الجذر حرف علة، كذلك ولامه لفيف مفروق ويعني «رمى» وضع حجر الأساس «ويتبنى بعضهم المعنى» تأسيس، ويدخل في الاسم المركب يروشليم كما يرد في أسماء العلم (يِرُوال) و(يريئيا) و(يري إل)(١٧). وبذلك قد يعني الاسم أورشليم / يروشليم «المدينة التي أسسها التي هي من تأسيس(الإله) شلم». ويرد الاسم أورشليم في الكتابات النبطية، كما يرد في اللغة السريانية أورشلِم بإمالة اللام، كما في الصيغة العبرية(١٨).

ومن هذه الصيغة الأخيرة جاءت التسمية في مختلف اللغات Jerusalem. ويحتمل أن يكون الاسم مركباً من ثلاثة مقاطع (كلمات) هي (أُور) بمعنى «مدينة» في السومرية، ثم (شَ) أداة إضافة، أو اسم موصول، ثم اسم (الإله) لِم المعروف عند الأموريين، مثل الاسم زِمْري لِم، يَخدُن لِم، يجيد لِم... في مملكة ماري. وعبارة (شَ) رُكِّبَت بها أسماء أمكنة أخرى في المنطقة، مثل: أورشَ إمْريشو، أي مدينة الحمير..

وإذا تمعنا في ما ورد في التوراة عن أورشليم فإننا لن نجد الاسم، ولكننا نعثر على ما يشير إليها من دون ذكرها صراحة، بل يرد حديث عن المكان الذي اختاره الرب لإقامته وهو مدينة أورشليم، وهذا يصبح مؤكداً عندما يأمر الرب الملك داوود ببناء بيت لسكنه، لأنه منذ خروج بني إسرائيل من مصر لم يسكن في بيت بل كان يسير في خيمة(١٩).

والمطلوب هو بناء لتابوت العهد. أما الذي أنجز المهمة وبنى بيتاً (هيكلاً) للرب فكان ابن داوود الملك سليمان، وقد ساعده في البناء ملك صور الفينيقي حيرام الذي أرسل إليه الخشب والنجارين والبنائين(٢٠).

وبذلك يبدأ ذكر اسم المدينة يتكرر كثيراً، منذ أن اتخذها داوود عاصمة لمملكته، حتى هذا الوقت هي مدينة كنعانية، على الرغم من حديث سفر القضاة (١، ١-٨)عن انتصار سبطي يهوذا وشمعون على الكنعانيين والفرزيين، وهرب أدوني بازق (أو

أدوني صـادق) الذي يبدو أنه ملك أورشليم الكنعاني، ويدل على ذلك ما يرد في سفر القضاة (١٩، ١١-١٢)، وفيما هم عند يبوس (أي أورشليم).. قال الغلام لسيده نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده لا نميل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بني إسرائيل هنا.. «والحديث هنا عن رجل لاوي مرّ بالمكان» وفي تلك الأيام حين لم يكن ملك في إسرائيل..»[٣١]. وبحسب النصوص التاريخية في أسفار العهد القديم كانت أورشليم في المنطقة التي غزاها سبطا يهوذا وبنيامين واتخذاها موطناً لهما. ونقرأ في سفر صموئيل الأول (١٧، ٥٤) أنه كان لداوود خيمة في أورشليم، حيث قصدها من قبل الفلسطيني جوليات حاملاً رأسه بيده، أي إنه لم يكن يقيم في أورشليم، فهو من بيت لحم وكان يرعى غنم أبيه هناك.

وكانت أورشليم تدعى إذن يبوس أيضاً، وقد رأينا كيف ذكر الاسم في سفر القضاة(١٩، ١١)، الذي مرّ ذكره. والاسم كان أصلاً اسم سكان المدينة. ونعلم من سفر يشوع، الإصحاح (١٥) أن موطن سبط يهوذا كان على حدود أورشليم التي هي يبوس حيث نقرأ الآية (٨): «وصعد التخم في وادي ابن هيّوم إلى جانب اليبوسي من الجنوب هي أورشليم. وصعد التخم إلى رأس الجبل الذي قبالة وادي هيّوم غرباً..» وفي الآية(١٨) يذكر سبط بنيامين المجاور ليهوذا في الشمال وتمر حدوده أيضاً على اليبوسيين. أما اسم يبوس واليبوسيين فهو يدل على فرع من الكنعانيين أصحاب الأرض الأصليين الذين تذكر التوراة والأسفار التاريخية في كتاب العهد القديم أن القبائل الإسرائيلية احتلت بلادهم بناء على وعد الرب (يهوه) لها بإعطائها أرضاً موعودة، وتذكر معهم فروعاً أخرى من الكنعانيين، ومنهم اليبوسيون و العموريون والفرزيون والجرجاشيون والحوريون[٣٢].

ويذكر سفر أخبار الأيام الأول، الإصحاح (١١، ٤) «وذهب داود وكل إسرائيل إلى أورشليم أي يبوس. وهناك اليبوسيون سكان الأرض.. الآية(٥) فأخذ داوود حصن صهيون. وهي مدينة داود، الآية (٦) وقال داود إن الذي يضرب اليبوسيين أولاً يكون رأساً وقائداً»، ويفهم من ذلك أن داود لم يستطع أن يهزم اليبوسيين، بل اكتفى باحتلال الحصن، واستمر سكانها اليبوسيون في سكن مدينتهم، ولم يغادروها إلى أن جنح الطرفان إلى السلم، وأمن الطرفان بعضهما، واتخذها داوود عاصمة لمملكته، كما تذكر

الأسفار التاريخية في كتاب العهد القديم، ومن بعده ملوك يهوذا بعد انفصال المملكة المتحدة بوفاة الملك سليمان مباشرة، إلى أن دمرها نبوخذ نصر الثاني صاحب السبي البابلي.

ويفهم مما سبق ذكره أن القدس/ أورشليم، لم يكن لها شأن في تاريخ فلسطين (أرض كنعان كما تسميها التوراة) حتى صارت عاصمة للمملكة اليهودية، على يد الملك داود، ولكن ما جعلها تتبوأ منزلتها السامية عند اليهود هو اتخاذها مقراً لتابوت العهد، وبناء هيكل متميز خاص به زمن الملك سليمان. ومنذئذ أضحت أورشليم مدينة مقدسة لدى اليهود فعظموها وأحاطوها بهالة من الإجلال حتى بعد زوال مملكة يهوذا، وسقوط أورشليم بيد الكلدانيين، وعودة اليهود من السبي البابلي، حيث كانوا يبكون على أنهار بابل ويتعزون بأورشليم، كما يعبر المزمور (١٣٧). وحتى بعد تدمير الهيكل على يد الرومان في العام (٧٠) الميلادي، ثم أنزلها المسيحيون مكانة سامية إذ صار كتاب العهد القديم يمثل القسم الأول من الكتاب المقدس عندهم. ويعبر الإصحاح (٢١) من سفر رؤيا يوحنا عن هذه المكانة المقدسة أصدق تعبير وهو يصف أورشليم السماوية. ثم جاء الإسلام ليعزز مكانة أورشليم المقدسة، فكانت المدينة أولى القبلتين، وسماها المسلمون القدس؛ وبيت المقدس، والقدس الشريف. وكان العرب من قبل يطلقون عليها اسم أوريشَلم، كما قالوا: أوريسلم/ أوريشلوم/ أوريشلَّم بتشديد اللام. وأوراسلم / أورى سَلم، ورأى فيها اللغوي أبو عبيد اسماً عبرانياً معرباً. كما ورد اسم إيلياء، أي «بيت الله» وسميت إيلياء باسم بانيها وهو إيليا بن إرم بن سام بن نوح، كما يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان[٢٣].

المصادر والمراجع:

١- سفر صموئيل الأول، الإصحاح ١٧.

٢- الإصحاح ١٢: ١٦-٢٠.

3- Luckebill. The Annals of Sennacherib 1924; Ancient Records II.233f. .

كتابنا : تاريخ بلاد الرافدين، حلب ٢٠٠٣ ،ص ٢٤٥.

٤- سفر الأيام الثاني، الإصحاح ٣٢، ١-٢٤.

٥- سفر الملوك الثاني، الإصحاح ١٣-١٧.

٦- حسن ظاظا، الفكر الديني اليهودي، دمشق ١٩٨٧، ص٢٧.

- G.Stemberger. Geschichte der jüdischen Literatur. München 1977.p.12f.

٧- المرجع السابق Stemberger ، ص١٤.

٨- انظر قاموس اللغة العبرية الخاص بكتاب العهد القديم:

- Gesenius . Hebraisches und Aramaisches Handworterbuch über das Alte Testament. .17.Auflage .Berlin .Gottingen . Heideleberg 1962. S.466;M. Noth .G eschichte Israels. 2. Aufl . Berlin. 1954. S.45ff.

٩- لسان العرب ، مادة « مساء».

١٠- انظر : حسن ظاظا ، مرجع سابق ،ص ١٨.

Klines Bibellexikon. 3.Aufl. Konstanz 1964.S. 232f. -

وكذلك ليوتاكسيل،كتاب مقدس أم جمع من الأساطير ، ترجمة حسان اسحق ، ص١٦٨؛ دوغلاس ريد، الجدل حول صهيون ، ترجمة : أديب فارس ، دمشق ٢٠٠٥- ص ١١ -١٣ .

١١- سفر نحميا ٨، ١-١٣.

١٢- دوغلاس ريد ، الجدل حول صهيون ، مرجع سابق ص ٧٠.

١٣- للاطلاع على مزيد من الآراء حول هذا الموضوع ومن خاض فيه من الباحثين الذين شككوا في تاريخية التوراة انظر: توماس طمسن ، الماضي الخرافي، التوراة والتاريخ . ترجمة عدنان حسن، دمشق ٢٠٠١،ص ٣١-٣٤ ؛ ٣٥- ٣٧ ، عن الأصل الإنكليزي.

Thomas Thompson. The Bible in History. How Writers Create a Past .London 1999. -

- G.Garbini. History and Ideology in Ancient Israels (Translated from the 1986 Italien version). London 1988.

J.van Seter. Abraham in History and Tradition. New Haven 1975. -

Hayes and Miller. ed. Israel and Judaen History . Philadelphia 1977. -

١٤- نصوص اللعنات Execration texts هي دعوات كتبها الكهنة المصريون بالمداد الأحمر على أوان من الفخار الأحمر وتماثيل صغيرة من الطين تمثل أعداء مصر، يفترض أن يصب الكهنة عليها اللعنات ثم يحطموها في حفل خاص ، أملاً في أن يؤدي تحطيمها إلى تحطيم عزائم المذكورين عليها ، وينفي عن مصر خطرهم ويقيها من شرّ أعمالهم ونواياهم؛ انظر كتابنا : تاريخ

الشرق القديم(٣) مصر، صنعاء وبيروت ١٩٩٥، ص ١٧٩.

15- M. Pope.in : GÖtter und Mythen im Vordern Orient. WÖrterbuch der Mythologie. Band I. Stuttgart 1965. S.306307-.

١٦- الخبيرو جماعة لا انتماء لأفرادها، كانوا يعيشون على الغزو والقتال، ويؤجرون أنفسهم لعمل ما يطلب منهم مجتمعين أو فرادى، وذكرتهم المصادر المصرية والأغاريتية، ونصوص ماري والالاخ وقطنا وإيمار وشويت إنليل. انظر كتابنا: تاريخ سورية القديم، حلب ٢٠٠٤، ص ٢٧٣، الحاشية ١٦.

17-G esenius. Hebraisches.. Worterbuch. S. 318

١٨- المرجع السابق نفسه. وفي سفر التكوين ١٨:١٤ إشارة إلى المدينة عند ذكر اسم ملكي يدعى صادق، كان ملكاً على شاليم، انظر أيضاً سفر المزامير ٣:٧٦.

١٩- سفر صموئيل الثاني ٧، ١-٦. ويذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان (الجزء الخامس، ص١٦٧) في هذا السياق: رُوي عن أُبيّ بن كعب قال: أوصى الله تعالى إلى داوود ابن بيتاً. قال يا رب وأين من الأرض؟ قال: حيث ترى الملك شاهراً سيفه فرأى داوود ملكاً على الصخرة واقفاً وبيده سيف، بناه داوود وابن سليمان معه.

٢٠- سفر صموئيل الثاني ٥: ١١.

٢١- سفر القضاة ١٩: ١.

٢٢- انظر كتابنا: معالم حضارة الساميين وتاريخهم في سورية وبلاد الرافدين، حلب ٢٠٠٣، ص ١٧٩، وما بعد.

٢٣- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، الجزء الأول، ص ٧٩.

الدراسات والبحوث

هوامش مقدسية

يوسف الخطيب *

-١-

بيت المقدس.. بيت القصيد

عندما طلب إليَّ رئيس تحرير «المعرفة» الأخ الدكتور علي القيم، أن أتقدم بمثل هذا الإسهام المتواضع حول مدينة القدس، بمناسبة اختيارها «عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩»، فلقد قفز إلى الذهن فوراً ما كنت مسكوناً به، في الوعي، واللاوعي، ومنذ أمد بعيد، من أن هذه الحاضرة الجنوبية من إقليم الشام الكبير هي الأكثر أهلية وجدارة، لا لأن تتقلد الصفة

* شاعر وأديب فلسطيني

الثقافية وحدهـا، ولسنة عابرة وحسب، بل ولأن تكتسب مرةً واحـدةً وإلى الأبد، صفة «العاصمـة الفخرية» لهذه القـارة العربية المترامية الأطراف من المحيط إلى الخليج، لا لأية أسباب عاطفيـة، أو أهواء شاعرية، كما قد يتبادر للذهـن للوهلة الأولى، ولكن لأن أيـة نظرة علمية نافـذة في تاريخ هذا الجزء من كوكبنـا الأرضي عبر ثلاثة آلاف سنـة، ستؤكد لنا بما لا يقبل الشك أن «بيت المقدس» هذه هي «بيت القصيد» في مجمل ذلك التاريخ..

فلقد كانت، وما تزال، وربما ستبقى إلى أمدٍ غـير منظور، بؤرة التصـادم والصراع الدمـوي المستميت ما بـين الوطن العربي، بإقليمـه الشامـي الكبـير في المقدمة على الدوام، وبـين أعدائه وغزاتـه التاريخيين علـى اختـلاف مآربهـم ومشاربهم، بحيث أصبحت علـى مَرّ الأجيال وتعاقب العصور محَكّ اختبـار عافية الأمة العربية وشبابها، من سُقمها وهزالهـا واحتراقها في كثيرٍ من الأحيان على هيئة طائر العنقاء الأسطوري، إيذاناً واقتراباً من جلجلة بعث جديد..

إذ هكذا كانت في تخوم القرون الميلادية الأولى تعبيراً حياً وصارخاً عن بعثرة الأرومة العربيـة المركزيـة الواحـدة علـى ممالك وحضـارات موضعيـة متنافـرة، أو حتـى متناحرة، سرعان مـا انسحقت تماماً تحت هيمنة الروم والفرس علـى اتساع رقعة ما بـين وادي النيـل وما بين النهريـن، إلى أن استردت تمـام عافيتها القوميـة والروحية بتلك السرعة القياسيـة شبه الفلكية، سواءً أقلنا بفضـل الفتوحات الإسلاميـة الأشَدّ نظافةً والأغنى حضارةً في كل ما تعيه ذاكرة الإنسـان من فتوحـات، أو بفعـل استعداد الأمة العربية الكامن والكامل في ذلك الزمن المحمدي الفريد لتحقيق انبعاثها التأسيسي الأعظم على مر جميع العصور..

ثم هكذا كانت في أواخر القرن الميلادي الحادي عشر دعوة صريحة ومفتوحة لملوك أوروبـا وأمرائها لاجتياح كامل رقعة المشرق العربي بسبيل التمركز في قلبها الفلسطيني، فالمقدسـي على وجه التحديـد.. ويقيناً أن مواعظ بطرس الناسك ودموعه المسفوحة من أجل استنقاذ قبر سيدنا المسيح بالقدس، من أيدي «السراسنة» - أي العرب والمسلمين في لحمـة واحدة - مـا كانت لتجـد آذاناً صاغية في طـول أوروبـا وعرضها لولا أن الدولـة العربية الإسلاميـة في ذلك الحين كانـت في حالة مزرية من الضعف والتفكك وانصـراف كل ولاية، أو حتى مدينة أحياناً،

إلى الاهتمام بأوضاعها الخاصة في شبه استقلال، أو حتى انسلاخ عن جسد الدولة العام، مما جعل سقوط القدس من أيدي مماليكها الأرتقيين عام ١٠٩٩ لقمة سهلة وسائغة لغزاتها الصليبيين..

ثم هكذا أيضاً كانت القدس في مطلع القرن الفائت، العشرين، أشبه ما تكون بالعنوان البارز الكبير لما انتهت إليه حالة الشعب، والوطن، العربيين تحت ليل الحكم العثماني الظلامي الثقيل، في وقت كانت فيه القوة «(الصهيونية/ الصليبية)» في لحمة واحدة متماسكة بانتظار أن يلفظ الرجل التركي المريض أنفاسه الأخيرة بسبيل اقتسام تركته العربية المترامية الأرجاء، وإنما مع التركيز بوجهٍ خاص على جوهرة هذه التركة التي هي القدس وأكنافها الفلسطينية من إقليم الشام الكبير.. وعلى نحو ما كانت ذريعة «استنقاذ قبر السيد المسيح» في الصليبيات الغابرة مجرد أكذوبة تاريخية كبرى بهدف استلاب خيرات المشرق العربي، فكذلك أيضاً هي ذريعة «الصهيونية/ الصليبية» المعاصرة بأن لأتباع الديانة اليهودية حقوقاً تاريخية في أرض فلسطين، لم تكن في حقيقة الأمر أكثر من أكذوبة أخرى بسبيل السيطرة على مقدرات الوطن العربي بأكمله، عن طريق الإمساك به بقوة من عنقه الفلسطيني الضعيف، والمكشوف، بحيث لا تجديه نفعاً جميع محاولات انعتاقه إلا بحركة انبعاث قومي شامل وعميق..

فعلى هذا المتن المقدسي الأعظم والأشد زَخَماً، ربما على المستوى العالمي بأسره، سأكتفي الآن في هذا الإسهام المتواضع، بأن أعلِّق بعضاً من الهوامش المختلفة، ولكنها التي تشكل بالنتيجة نوعاً من الإضاءة الكافية، لا لمركزية مدينة القدس كعاصمة شرف فخرية للوطن العربي وحسب، وإنما، وبالقدر نفسه، لموقعها المركزي أيضاً في صميم أطماع غزاتنا التاريخيين، ضمن هذا التحالف الشيطاني الرجيم ما بين ورثة الروح الصليبية الغابرة، وغلاة الحركة الصهيونية الفاجرة..

-٢-

«الصليبية الصهيونية».. لماذا؟!..

على أن ما تجدر الإشارة إليه، والتأكيد عليه بقوة، هو أن استخدامنا هنا لمفردة «الصليبية» أو حتى «الصهيونية/ الصليبية» في صيغة واحدة، لم يكن، ولن يكون بهدف المزيد من استعداء العالم المسيحي ضد قضايانا العربية بعامة، والقضية

الفلسطينية منها بوجه خاص، لا ولا بقصد إثارة المشاعر والخواطر ضد أعداد هائلة من أتباع الديانة المسيحية على المستوى العالمي، ممن يكاد البعض منهم يتفهم قضيتنا المركزية الفلسطينية هذه، ويتعاطف معها أيضاً، ربما أكثر من عربٍ ومسلمين كثيرين، يَدلُّون على أنفسهم بأنفسهم، ولا حاجة إلى الإشارة إليهم في مثل هذا السياق.. وإنما الذي يُحتِّم علينا استخدام هاتين المفردتين.. «الصليبية – والصهيو صليبية».. هو أن أعداءنا أنفسهم لا يريدون أن يستخدموا أي بديل لهما على مرِّ مئات السنين.. إذ على الرغم من أن أجدادنا العرب الطيبين، سواءً من عامة الناس أو من طبقة العلماء والمؤرخين، قد حرصوا في الماضي على توصيف أعدائهم «بالفرنجة»، لا «بالصليبيين»، كنوع من الترفع عن إقحام الصليب، أو الديانة المسيحية بجملتها، في أوار ذلك العدوان الهمجي البغيض، إلا أن الغزاة القدامى مع ذلك قد أصرّوا على ابتذال «قداسة صليبهم» بأنفسهم عندما رسموه على دروع صدورهم، علامةً، وشعاراً، وعنواناً، لأبشع ما مرَّ بذاكرة الإنسان من صنوف العدوان..

ومع أن هذا التعصب الديني «الصليبي» الأعمى ضد رقعة مشرقنا العربي بأكمله ليست له أدنى صلة بجوهر المسيحية السمحاء التي هي في الحقيقة بنت هذا المشرق نفسه، وإحدى عطاءاته الحضارية العظمى لنوعنا البشري -(فالمسيح مسيحنا.. والمسيحية أولى دياناتنا على العهد الآرامي)- إلا أن المحرضين على مثل هذا التعصب المرذول في المجتمعات الغربية بعامة، من رجال دين مهووسين، أو أمراء أو قادة عسكريين مغامرين، أو طغمات بشرية مرتزقة وطامعة حتى الجنون في خيرات الشرق، لم يجدوا في جميع انحداراتهم المريرة في جملة حروبهم الصليبية الأولى ما يمنعهم من البَيات أو الكمون تحت السطح في محاولة استعدادهم وانتظارهم لفرصة اندفاعات عدوانية جديدة، يكونون هم فيها أشد قوة ونظاماً وأكثر عدةً وعتاداً وتنسيقاً مما كانوا عليه في عهد البابا أوربان الثاني، وبطرس الناسك، ووالتر المفلس، ومن شاكلهم.. بينما يكون مشرقنا العربي بالمقابل، في حالة أشد جهلاً وتخلفاً وظلماً وتجزئة مما كنا عليه حتى في عهد ولاة القدس وفلسطين من المماليك الأرتقيين.. وما حدث في حقيقة الأمر هو أن هذه الفرصة قد توفرت لهم في أفضل حالاتها في مطالع القرن الفارط العشرين..

فهـا نحن نرى ذلك الجـنرال الفرنسي البغيض حقـاً «غورو» وهو يـردد مأثورته الجبانـة الحاقـدة فوق قبر صـلاح الدين الأيوبي في دمشق: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين»!!.. مـن قبيل التأكيد على «الطبيعة الصليبية» الخالصـة لاحتلال هذا الشطر الرئيسي من إقليم الشام الكبير..

ثـم ها نحن نـرى أيضاً ذلـك الجنرال الإنكليـزي اللئيم هو الآخـر «ألنبي»، وهو يخاطب المقدسيين خصوصاً، والفلسطينيين عمومـاً، في الشطـر الجنوبي مـن الإقليم نفسـه، ومن علـى درج قلعـة القدس على مدخل باب الخليـل: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»!!

ثم ها نحن أخـيراً، وليس آخراً، نستمع إلى رأعي البقر الأميركـي الأحمق الرئيس جورج بوشـ -(وفي مطلع القـرن الحادي والعشريـن هذه المـرة)- وهو يُعبّـئ شعبه وحلفاءه في حربه التدميريـة المجنونة ضد عراقنا الذبيـح بوصفها «حرباً صليبية»!!.. فيما يستمتع البعض من أعراب هذا الزمان بتأبط ذراعه ومراقصته «رقصة السيف» في قلب جزيرتنـا العربية!!.. فأي حالٍ يا تُرى قد مرَّ بنا عبر تاريخنا الطويل أسوأ من هذا الحال؟!..

بـل ما جـدوى أن يحـاول البعض من كتابنا وأدبائنا، وحتى مفكرينا السياسيين إن وُجدوا، أن يُجرِّدوا جميع هذه الحروب من «روحهـا الصليبية» الكامنة في أعماقها؟!.. ولكنها هذه المـرة ليست الصليبية المتذرعة بحماية قبر السيد المسيح.. بل تلك الصليبية العجائبيـة الملتحمة عضويـاً «بصهيونية» أعداء السيد المسيح!!..

فعلى ذلـك آمل أن يكون واضحاً تماماً، وغنيـاً بالتالي عـن أية حاجـة للمزيد من التفسـير - ناهيك عن التبريـر - ما الذي أعنيـه علـى وجـه الضبـط «بالصليبية المعاصـرة»، إذ هـي في أبعـد موقـع على الإطلاق عن جوهر النصرانية النقي، بينما هي في الوقت نفسه في حالة استبطان عميق لأبشع ما في «الصهيونية» من شرور وأحقاد ضد بني الإنسان..

-٣-

في البدء كانت يبوس..

كانـت القدس عربيـة «يبوسيـة» منذ نشأتهـا الأولى، أي منذ أول حجر اتكأ فيها على حجـر.. فلقد بناها الملـك «الصادق» الـذي كان يُكنّى بملك «السلام»، قبل حوالي ألفي سنة من ميلاد السيد المسيح..

ومــن هنا وصفت المدينــة في أول الأمر بمدينــة «سالم».. ثم لما طغــى عليها الطابع الكنعاني، أضيفت إليها كلمة «أورو» الكنعانية التــي تعني (المدينة) فأصبــح اسمها بذلك «أورو-سالم».. ومن هذه التسمية (اليبوسية - الكنعانية) أي العربيــة السحيقة.. اشتق فيما بعد اسمهــا التوراتي بالرطانة العبرية «أور- شاليــم» وهو الذي يعتقــد البعض، خطأ أنه عبري الأصل..

والمعلوم لدينا حتى الآن بموجب الرواية الدينيــة التوراتيــة، وليس استنــاداً إلى أية حقيقة تاريخية ثابتة، أن النبي إبراهيم كان هو الذي قــاد أول موجــة «عبرانية» -(أي غــير يهودية ولا إسرائيلية)- في التاريخ إلى أرضــ فلسطين.. بينما كانت مدينة القدس (حتى بهذه الروايــة ذاتها) قائمة قبل ذلك بزمــن غير معلوم.. فلقــد خرج ملك سدوم لاستقبالــه، وملكي صادق ملك شاليم، (كما في الإصحــاح ١٤ من سفر التكوين).. وبعد ذلــك التاريخ لا قبله حدثــت مسألة الوعد الإلهــي الموهــوم، حيــث تدّعــي الخرافة التوراتية أن الرب خاطب إبراهيم قائلاً:

«لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (الإصحاح ١٥ من السفر نفسه)..

وبعد تلك الحادثة بما يقل عن قرن من الزمــان وقع الخروج العــبراني الشامل من أرض كنعان إلى أرض مصر، على حين بقيت البلاد قرابــة ألف سنة بعــد ذلك الخروج محتفظة بطابعها الكنعاني، ومن ثم الآرامي، أي العربي السحيق على الحالين..

ثــم في القرن الثاني عشــر قبل الميلاد، تمكن النبي موسى من أن يتزعم قومه اليهود هــذه المرة، أو الإسرائيليــين ، المطاردين في مصــر، ولكنهم ليسوا مــن «عبرانيي» النبي إبراهيم بأي سند تاريخي على الإطلاق، في حملة لغزو فلسطين، فخرج بهم من مصر إلى سيناء حيث تلقى الوصايا العشر على جبل الطــور، ولكنه خلال أربعــين سنة لم يتمكن مــن مواصلة الزحف شمــالاً، إلى أن قضى نحبه في قلب سيناء، وخلفه قائده العسكري يشــوع بن نون، الذي دخل أريحا حوالي عام ١١٨٠ق.م «وأحرقــوا المدينــة بالنار مع كل مــا بها . إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديــد جعلوهــا في خزانة بيــت الرب» (الإصحاح ٢٤ من سفر يشوع).. ولكن هؤلاء الغزاة اليهود، الآن، وليس العبرانيين أحفاد إبراهيم، لم تستتب لهم السيطرة الفعلية على بعض المدن الفلسطينيــة الأخرى، وخاصة القدســ، إلا في أواخــر القــرن التالي عام ١٠٤٩ ق.م.

فخلال هــذا الزمــن الطويــل كله من بداية التاريخ الفلسطيني القديم كانت صلة اليهــود مقطوعة تماماً بأرض كنعان، مع ما قد تدعيه بعضــ الروايات دون سند علمي موثوق مــن أنه قد سبق لهــم الاتصال بها خلال القــرن الرابع عشر بموجب وثائق تل العمارنة.. ومهما يكن من شأن تلك الرواية، فإن البلاد ظلت خلال هذا الزمن المديد كله محتفظة تماماً بطابعها العربي القديم، دون أن يقوم أي شاهدٍ تاريخي على أنها اختلطت قبل ذلك بالتأثير اليهودي أو الإسرائيلي من قريب أو بعيد..

وكما أن العلامــة اليهودي «تشومسكي» يُحــذِّر قراءه من اعتماد الروايات – ناهيك عــن الخرافــات الدينية– كمصـــدر لكتابة التاريــخ البشــري، لأن «التأريخ» علم عقلي يستلــزم التدقيق والتحقيــق، وليس مجرد «إيمــان» أعمى بما صَنَّفَــه كَتَبَةُ التوراة من حكايات، فــإن كامل علاقــة اليهود الأولى بأرض كنعان، فلسطين، وعلى قشرة السطح الخارجي لتاريخ هــذا الشطر الجنوبي من إقليم الشــام الكبير، تــكاد تنحصر ما بين القرون الأربعــة الأولى الممتــدة من القرن الحادي عشر إلى القرن السابع قبل الميلاد، حيث استطاعــوا أن يحققوا لأنفسهم نوعاً من السلطــة الزمنية علــى مواقع متفرقة مــن أرض فلسطين، خاصة على عهد النبي داوود، فَولَــدِهِ النبــي سليمــان، وذلك من خلال ما تعارف عليه المؤرخون اليهود باسم «المملكــة المتحدة» التي سرعان ما انشطرت في سنة ٩٧٥ قبل الميلاد، ليس إلى مملكتين اثنتين كما تحب الروايــة التوراتية أن تؤكد علــى ذلــك، وإنمـــا إلى شبــه «مَشْيَخَتَين» دينيتــين، عدوتين، متناحرتــين، إلى درجة التلاشي والاضمحلال.. أولاهما هي «مملكة يهوذا» التــي اتخذت «أورو- سالم» الكنعانية (المرطونة عبرانياً بلفظة «أورشاليم») مقراً لهـــا.. والثانية هي «مملكــة إسرائيل» التي لَطَــأَتْ إلى الشمال منهــا في مدينة نابلس المعروفة آنــذاك باسمهـــا الكنعاني القديم «شكيم»

وهكــذا، وبعــد أن اجتــث الآشوريــون والبابليون هاتــين «المملكتين – المشيختين» مــن جذورهمـــا ما بــين القرنــين السابع والسادس قبل الميلاد، فإن أرض كنعان ظلت هي نفسها أرض كنعـــان، بكامل مأهوليتها البشرية من جانب مواطنيها العرب الأصلاء المستديمــين على مَــرِّ جميــع العصور، في حين يرغب المــؤرخ اليهودي العادي بنزعته التقليديــة في تزوير كل ما يقع بين يديه من

أوراق العملة حتى حقائق التاريخ، في تصوير الوجود السطحي، والطارئ، والعابر، لنوعه اليهودي في ذلك الزمن المحدود، وكأنه يُشكّل كامل التاريخ الفلسطيني القديم، عن طريق إغفال، أو إسكات، أو حتى تحريم كل ما هو غير يهودي من ذلك التاريخ!!.. واستعاضوا عنه بذلك الكمّ الهائل من خرافات أسفار التوارة التي سرعان ما أصبحت بمنزلة «التاريخ المقدس» الذي ينبغي على قارئ «العهد القديم» يهودياً كان، أم مسيحياً مُتهوّداً كما في الطائفة البروتستنتية مثلاً أن يؤمن به على إطلاقه، وبدون أية محاكمة عقلية له من قريب أو بعيد، إلى ما يماثل دعوى «الهولوكوست» المعاصرة التي يستحيل على أعظم المفكرين العالميين أن يتعاملوا معها حتى بمنهج الشك «الديكارتي» الموصل إلى اليقين، وإلا دفعوا حياتهم، أو حريتهم، ثمناً لذلك أمام قوس العدالة الفرنسية مثلاً، وتحت سطوة قانون «فابيوس / غيسون»!!..

وعلى أية حال، فإن أي وجود لهذا النوع اليهودي في أرض فلسطين، خاصة من بعد أن أطلق الملك الفارسي «أحشويرش» سراحهم من الأسر البابلي.. ثم من بعد أن انقلبوا على منقذهم الفارسي هذا باصطفافهم إلى جانب خصمه الأقوى «الإسكندر الكبير» (كما في الإصحاح الثامن من سفر دانيال).. ثم من بعد أن اقتلع الرومان شوكتهم بصورة شبه جذرية في خربة «مسعدة» على الكتف الجنوبي الغربي للبحر الميت، فيما يعرف عالمياً بعقدة «المسادا».. فإن أي وجود لهم في أرض فلسطين عبر كل هذا الزمن المديد لم يزد عن كونه شبه وجود غجري، عابر، وسطحي، وغير محسوس..

وهكذا إلى ما بعد قرابة ألفي سنة.. مع انعقاد مؤتمر «بال» عام ١٨٩٧.. فمؤتمر «كامبل بنرمان» عام ١٩٠٦.. فوعد «بلفور» عام ١٩١٧.. فإعلان بن غوريون لإقامة دولته «الإسرائيلية» عشية الليلة البارحة فقط في عام ١٩٤٨.. وكل ما عدا ذلك من ادعاء بالوجود اليهودي المستديم في فلسطين، ما هو إلا قبضُ الريح، وباطل كل الأباطيل!!..

- ٤ -

لا يسكن معهم أحدٌ من اليهود!!

ها قد مر الآن ما يزيد عن عشرين قرناً على تأسيس مدينة القدس على يد الملك العربي اليبوسي «الصادق ملك السلام»، فيما هي الآن بانتظار أن تتشرف، ويتشرف

معها العالم كله، بميـلاد سيدنا المسيح على مرمـى الحجر منها، في مغـارة بيت لحم.. وخـلال هـذا الدهر المديـد كلـه، كانت مدينة القدس، أكـثر من أي موضع آخر في رقعة العالم القديم مركـزَ المثلث الحضاري المتسـاوي الأضلاع تقريباً، والذي ترعرعت الحضـارة الفرعونيـة في زاويته الجنوبية، والحضارات الآشوريـة والبابلية والفارسية في زاويتـه الشمالية الشرقيـة، والحضارة الهيلينية – وريثة الحضارة الإغريقية – في زاويته الشمالية الغربية..

لقد كانت القدس، في زمن السلم، نقطة تمازج وتفاعل ما بين هذه الحضارات التي تؤلف تاريـخ العالم القـديم.. وأما في زمن الحـرب، فلقد كان احتلالها بمثابة العلامة القياسية لزحف إحدى زوايا هذا المثلث على زاويتيه الأخريين.. ولعـل باستطاعة المؤرخ الآن أن يصنـف، على أسـاس وضع مدينة القدس في ذلك الزمـن السحيق، الأوضاع العامة لتلك الأثـافيّ الحضارية التي كانت سائدة في تلك الأزمنة..

في عـام ٦٣ قبل الميـلاد، احتل القائد الروماني «بومبي» مدينـة القدس، وفرض على الأقليـة اليهودية المقيمة فيها أن تقدم ذبيحة يومية أمام الهيكل باسم قيصر روما عوضاً عن الرب اليهودي.. «يهوه»

أمـا وأن معظـم المراجـع التاريخيـة، المتداولة، عن هذه الفترة، متأثرة إلى حد كبير بمنجزات المدرسة الأوروبية «النهضوية» في علم التاريخ.. ثم على اعتبار أن هذه المدرسة غالباً ما تستقي مادتها عن هذه المنطقة من مصـادر دينية، ذات جـذور يهودية توراتية بطبيعة الحال.. فـإن ما قد يتراءى للقارئ العادي، للوهلة الأولى، هو أنه لم تكن هنالك أقـوام أخرى تسكـن القدس في هذه الفترة غير اليهـود!!.. بل إن مؤرخـاً عربياً ذائع الصيت، هـو الدكتور «فيليب حتي»، يعطي قارئه الانطباع عن هذه الفترة، وهو يتحدث عن سورية الجنوبية، بأن اليهود هم جسدها الحقيقي، وليس السكان الأصليون في محور اهتمامه بأكثر من جماعات ثانوية تعيش على هامش الوجود اليهودي في فلسطين !!.. بل إن هذا المؤرخ العربي عينه، إذ يتحدث عما عدا القدس من المدن الفلسطينية القديمة، فإنه ينسب بناء مدينـة «طبرية» إلى اليهود مع أننا نعلم بصورة علمية قاطعة، أن الذي بنى المدينة هو «طيباريوس» الروماني، الذي جاء اسمها من اسمه.. «طبرية»..

ثم ها هي القدس الآن على أبواب فجر الدولة العربية، ولكن اسمها كان قد تغير في العهـد الروماني اعتباراً من منتصف القرن

الثاني بعد الميلاد، فأصبح «ايليا كابيتولينا»، ومن ثم «إيلياء».. وفي هذه التسمية الأخيرة يقول الفرزدق:

وبيتان.. بيتُ الله نحنُ ولاتُهُ
وَقصرٌ بأعلى إيلياءَ مُشَرَّفُ

والحقيقة أنه لم يكن في دخول القدس في ظل الدولة العربية ما تختلف فيه عن سائر المدن السورية والعراقية والعربية الأخرى، إذ كان ذلك «تحريراً وطنياً خالصاً» من ربقة احتلال أجنبي، فارسي وروماني ذميم، ولم يطلق عليه أجدادنا القدامى صفة «الفتح» بمعنى القهر، أو العدوان على قوم آخرين، وإنما بمعنى الفاتحة لمرحلة جديدة في تاريخ هذه الأمة المجيدة.. إلا أن ما امتازت به القدس عن غيرها في حركة التحرير تلك، كان «وثيقة الأمان» التي منحها الخليفة عمر بن الخطاب لأهل المدينة، ومعظمهم من نصارى شعبنا الفلسطيني العربي في ذلك الحين، مع أقلية محدودة جداً من النصارى الإغريق..

تقول وثيقة الأمان هذه.. أو «العهدة العمرية» بتسميتها الغالبة:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما أعطى عبد الله عمر، أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان».

«أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، سقيمها، وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من خيرها، ولا من صُلُبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحد منهم، ولا يَسكنُ بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود»..

«وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزيةَ كما تُعطي أهلُ المدائن، وعليهم أن يُخرِجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويُخلي بِيَعَهُم وصُلُبَهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعِهِم وصُلُبِهِم حتى يبلغوا مأمنهم، فمن شاء منهم قعد، وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يُؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم».

«وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله، وذمةُ رسوله، وذمةُ الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. كتب سنة ١٥ للهجرة»

وهنا لا يستطيع الدكتور فيليب حتي، ومن موقع المؤرخ والأستاذ الجامعي الأميركي،

أن يَمُـرَّ بهذه العهـدة ، الوثيقة، التي يصح اعتبارها مثلاً قياسياً أعلى للعدل والتسامح والتواضع، من دون أن يُـذَرذر عليها بعضاً من توابلــه التوراتية الحاقــدة، حيث يؤرخ لتحرير المدينة على كل هذا القدر من النبل والشهامــة والفروسيــة، بإقحامه القسري المكذوب لمثل هذه النادرة التافهة:

«إن دخول الخليفة المســن إلى القدس، راكبــاً جمــلاً، لابساً رثَّ الثيــاب، وكان في استقباله صفرونيوس حامي الكنيسة المعسول اللســان. قيل إنه التفــت إلى أحد مرافقيه وكلمه قائلاً: حقاً هذا رجس الخراب الذي تكلم عنه النبي دانيال، ورآه قائماً في المكان المقدس» !!..

لقد جهــل الدكتور «حتـي» أو تجاهل الحقيقة العظمى، والأسمى، في أمر تحرير القدس على هــذه الشاكلة الحضارية التي لا أظــن أن لها نظــيراً في دلالتها الإنسانية السامية، وهي أنــه كان في مقدور الخليفة ابن الخطــاب أن يأذن لأي مــن قادة جند الشــام العظام، خالــد، أو شرحبيل، أو أبي عبيدة، أو ابن العاص، بــأن يأذن أيَّ واحد من هؤلاء لنفرٍ محـــدودٍ من رجاله باقتحام مدينــة القدس عنــوة، وفي لمح البصر، ومن دون الوقــوع في أية محاذير عسكرية من أي قبيل، ولكنه، وبرغم ذلك كله، (خَفَضَ جناح الــذُلِّ مــن الرحمـــة) لأولى القبلتين وثالث الحرمــين، مسرى محمد وموئل المسيح، فما إن اتصل به «صفرونيوس» بسبيل أن يُسلّمه المدينــة يداً بيــد حتى رأينا فــاتح المشرق، والمغرب، وهــو يسعى إليه عن طيب خاطر، وعلى سنام ناقة تــناوب امتطاءها مع أحد مرافقيــه عبر مئات الأميــال!!.. فهذه، في اعتقادي، هي الأمثولة الإنسانية العليا التي كان ينبغــي لفيليب حتــي، أو غير حتي، أن يشدد التركيز عليهــا في مثل هذا السياق.. وبعيداً جــداً عن نبوءة «دانيال» أو غيره من كَتَبة التوراة!!..

علــى أن ما ينبغــي أن يستوقفنا طويلاً في نص «العهــدة العمرية»، وربما في سياق لاحق، هــو مطلــب «صفرونيوس» الحرفي والمُحــدَّد من الخليفة ألا يسكن مع نصارانا الفلسطينيــين القدامى في القدس أحد من اليهود.. ولهذا الأمر ما له من دلالة عميقة تستحــق مزيداً مــن الإشبــاع في غير هذا المجال!!..

-٥-

يهود هذا الزمان!!..

عاشــت القدس عصرهــا الذهبي حتى أواسـط العهد العباسي، ثــم أخذت تدخل

تدريجياً (مع اضمحلال الشخصية العربية) في الإطار الفضفاض للدولة الإسلامية..

لقد كان خطأ الدولة العباسية الذي لا يمكن اغتفاره تاريخياً، هو ابتعادها بمركز الدولة العربية من دمشق إلى بغداد على تخوم العناصر القومية الأخرى، وتحت تأثيرها بالضرورة، وذلك من حيث كان يجب في كرسي الخلافة أن يتوسط قلب الدولة، لا أن يلطأ بأطرافها البعيدة، خاصة في دولة كبرى مترامية الأطراف، وفي زمن يافع فقير المواصلات.. أما وأننا لا نستطيع أن نعيد صناعة الماضي، فلا أقل من وعيه وإدراك مغازيه..

ولكن، وفي أواخر هذا العصر الذهبي (من بعض جوانبه)، بدأت أوصال الدولة العربية تتفكك تدريجياً إلى أن ظهر في فلسطين عيسى بن الشيخ الشيباني الذي استقل بها عن بغداد المتهالكة آنذاك، وما إن أقبل القرن العاشر الميلادي حتى دخلت مصر والشام في ظل الدولة الإخشيدية، واعتباراً من ذلك التاريخ دخلت القدس، مع غيرها، تحت جنح الليل الشعوبي البغيض.. وهكذا.. لم يكن القرنان العاشر والحادي عشر، على طولهما، بأكثر من مقدمة تاريخية ستؤدي حتماً إلى تفتح الأطماع الأوروبية في الوطن العربي.. وخلال هذين القرنين من التعبئة والاستعداد على متسع البلدان الأوروبية، كانت الصورة العامة للقدس تدعو إلى الأسف والرثاء.. فلقد أخذت المدينة تتنازعها أيدي القادة العسكريين، وأشباه الخلفاء، إلى أن تقلبت خلال ما لا يزيد عن مئة وستين سنة على عدة عهود متناحرة، هي العهد الإخشيدي، فعهد الفاطميين، فعهد السلجوقيين، فعهد الأرتقيين عام ١٠٧٧.. هذا الأخير الذي أسلمها لقمة سائغة لأفواه الصليبيين عام ١٠٩٩..

على أننا، في أواسط هذه الفترة، تقريباً، سنقف عند نقطتين جديرتين بالملاحظة، أولاهما تُصوِّر حالة الازدهار والرخاء العام التي بلغتها مدينة القدس في ظل الدولة الفاطمية.. والثانية النقيضة لها، وفي العهد الفاطمي نفسه، تسجل انتقال النفوذ اليهودي من فلسطين كلها، وإحداقه بكرسي الخلافة في القاهرة..

فمن جهة أولى، يقدم لنا «المقدسي» هذا الوصف لمدينة القدس، في قوله:

«بيت المقدس ليس في مدائن الكور

أكبر منها.. ليست شديدة البرد، وليس لها حر، وقلما يقع بها ثلج.. تلك صفة الجنة.. بنيانها حجر، لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها ، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها.. عنبها خطير وليس لعنقتها نظير، وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب!!»..

وأما من الجهة الأخرى، المغايرة، فإن الشاعر الرضيّ (ابن البواب على الأغلب)، يصور لنا بغير قليلٍ من السخرية المرة ما قد بلغه النفوذ اليهودي من سيطرة على الخليفة الفاطمي وبطانته في القاهرة:

يَهُودُ هذا الزمانِ قد بَلَغُوا
غايةَ آمالِهم وقد مَلَكوا
العِزُّ فيهم، و المالُ عندهُمُ
ومنهمُ المستشارُ والمَلِكُ
يا أهل مصر لقد نصحتُ لَكُم
تَهُودوا، قد تَهَوَّدَ الفَلَكُ

وعند ذلك تماماً – أي مع تغلغل النفوذ اليهودي في السلطة الفاطمية- كانت نذر الحرب الصليبية الأولى تقرع بشدة على الأبواب..

-٦-

إذاً، ماذا يريد الشيطان؟!..

ما إن انتهى البابا «أوربانوس الثاني» من إلقاء خطابه الشهير في كليرمونت بفرنسا عام ١٠٩٥، حاثاً دهماء أوروبا على استعادة قبر السيد المسيح (من أيدي الغاصبين!!)، حتى دوت في أوروبا كلها صيحة الحرب المسعورة:

«هكذا يريد الله.. هكذا يريد الله»!!..

وغنيّ عن الذكر أن هذه الصيحة انطلقت في آن معاً من أفواه بعض المتدينين السذّج، ولكن، وفي الوقت نفسه من أفواه جميع التجار، واللصوص، وقطاع الطرق، والأمراء المغامرين..

وما هي إلا سنوات أربع، حتى كانت الجيوش التي استجابت لنفير البابا تدك أسوار القدس، وتجتاحها كيوم الطوفان.. وتذكر حتى المصادر اللاتينية نفسها أن الناظر كان يقع على أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام في الطرق وفي الساحات العامة.. وعلى الفور من تلك المذبحة الهائجة، والشاملة لأهل القدس كافةً، بعث (منقذو قبر السيد المسيح رسالة إلى قداسة باباهم) يبشرونه فيها بأن خيولهم في باحة

المسجد الأقصى كانت تخوض حتى الركب في بحرٍ من دماء المسلمين».. ولعل مما يقع في قناعة القارئ العادي، وإلى مرتبة اليقين، أن تلك اللطخة الصليبية الأشد سواداً في مجمل تاريخنا البشري، حاشا أن تكون من«إرادة الله» الرحمن الرحيم، إذ في مثل هذه الحالة، المستحيلة، ماالذي كان يمكن أن يريده الشيطان نفسه أفظع مما كان!!..

ولكن، ولئلا يقع عقلنا العربي والإسلامي في نفس الخطأ، للمرة الألف، فإن الضحايا الذين استهدفهم أولئك البرابرة الصليبيون لم يقتصروا في أي يوم من الأيام على العرب والمسلمين وحسب، وإنما كان مسيحيو المشرق العربي، وجُلُّهم من رأس النبع المسيحي الأورثوذكسي، على نفس تلك الدرجة من الاستهداف، والشواهد التاريخية على ذلك أكثر بكثير من أن تحصى، ولعل من أوجب الواجبات على مفكرنا العربي الأورثوذكسي المعاصر أن ينفض الغبار بقوة عن مثل هذه الحقيقة الصارخة، كي لا يكون من السهل مطلقاً على العديدين جداً من ضحايا الجهل والتخلف والتعصب الأعمى في بعض أوساطنا أن يضعوا (جميع النصارى) في نفس سلّة الحروب الصليبية بصفة جامعة مانعة، وعلى العكس تماماً مما أوصى به الله في قرآنه الحكيم!!..

وإلا، فما الذي يعنيه مثلاً مؤرخ الحملة الصليبية الفرنسية على مصر، «جان دوجوانفي» -(وبالاقتطاف من أنطولوجيا «رجال في الحرب» لإرنست همنغواي - ص٧٣)- عندما يهاجم بسخرية سمجة «من يدّعُون أنهم مسيحيون في الأراضي المقدسة، ومع ذلك فإنهم يحملون اعتقاداً شبيهاً باعتقاد البدو هناك، من أنه لا يمكن لرجل أن توافيه المنية قبل أجله المعلوم!!».. وتلك في اعتقاده هي الهرطقة الصُراح!!..

أو، مثلاً أيضاً، ما الذي يمكن أن يستخلصه القارئ من مصاحبته للعلامة «ستيفن رنسيمان» في كتابه الموسوعي بعنوان «تاريخ الحروب الصليبية- مج١ - ص ١٨٩»، وهو يصاحب بدوره تحركات القطعان الصليبية كذئاب جائعة في البر التركي، ليقول:

«وفي منتصف سبتمبر، أوغل بضعة ألوف من الفرنسيين في المغامرة حتى بلغوا أبواب مدينة «نيقية».. فقتلوا السكان المسيحيين في وحشية بشعة، وجرى القول إنهم قاموا بشواء الأطفال على السفافيد!!..

وكائنةً ما تكون الإجابة على مثل هذه التساؤلات المحقة، فلست أظن أن جائحة عدوانية أخرى وقعت على سطح كوكبنا

الأرضي هذا قد اتصفت بمثل تلك الهمجية القياسية التي اتصف بها احتلال الصليبيين القدامى لمدينة القدس.. وها هم حتى يوم الناس هذا، وفي أكثر من ألف دير ياسين متلاحقة حول القدس وفي أكنافها، وبشعار النجمة هذه المرة لا بشعار الصليب، يعاودون إدعاء إرادة الله لكل ما يقترفونه من أفاعيل الشيطان.. والرئيس جورج بوش في (حواراته الروحية مع ربه الخصوصي) أقرب، وأبشع مثال على ذلك!!..

-٧-

إيهاً بني الإسلام!!..

ولكن، وقبل أن نكتفي حالياً بهذا القدر من مثل هذه الهوامش المقدسية المفتوحة بطبيعتها على ألوف الخواطر والأفكار، بطول عمر المدينة، وبأهميتها المركزية الاستثنائية، فلعل ما ينبغي لنا أن نلاحظه بوجه خاص، وربما بمغزى عميق أيضاً، هو ما كانت عليه حياتنا الثقافية العربية من خُواء مريع، وفقر إبداعي مدقع في تلك المرحلة اللعينة بحق معنى الكلمة، حتى إننا نكاد لا نجد حَيّزاً محسوساً في خزانة التراث العربي لأية «استجابات» أو انعكاسات إبداعية عربية، على مستوى الشعر، أو حتى على مستوى النثر، بما يمكن أن يتكافأ من قريب أو بعيد مع حجم «التحدي» الصليبي الذي اكتسح رقعة المشرق العربي في ذلك الزمان كجائحة طاعون جهنمية مهلكة للحرث والنسل.. لا ولن نعثر أيضاً، من بعد اندحار تلك الصليبيات بحد السيف، ما يحكي لنا، وبمستوى إبداعي آبدٍ على مَرّ الزمان، قصة انتصاراتنا الظافرة تلك، ابتداءً من «حطين» صلاح الدين في دفع الغائلة الأوروبية الصليبية.. «فعين جالوت» الظاهر بيبرس في دفع الغائلتين المغولية والصليبية معاً..

وعلى أية حال، لقد استوقفني يوماً شاهدان تراثيان في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، أحدهما سردي تأريخي يلتقط فيه صورة جانبية سريعة لدخول الإفرنج لمدينة القدس.. والثاني المتصل به مباشرة شاهد شعري لأبي المظفر الأبيوردي حول الواقعة نفسها.. ولا شك أن لكلٍ من هذين الشاهدين دلالته الخاصة التي يستطيع إيصالها، حتى للقارئ العادي، بمنتهى السهولة واليسر -(أو ربما السخرية أيضاً)- فيما يتعلق بمأساة «إفطار الصائمين» في عاصمة الخلافة بغداد، من جراء ما سمعوه عن مأساة اجتياح القدس!!..

يقول ابن الأثير (في كامله في التاريخ- مج٨ - ص ١٨٩):

«وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين،وعلمائهم وعُبّادهم وزُهّادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف -(وأظن أن «ما يعنيه المؤرخ هنا هو حيّ المغاربة اللصيق بالحرم القدسي، والغاصّ منذ مئات السنين،بعشرات الألوف من أهلنا المغاربة

ثم، من بعد أن يعدِّد المؤرخ قناديل الذهب والفضة وما إلى ذلك من نفائس المسجد التي انتهبها اللصوص الصليبيون، يستكمل قائلاً:

«وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد.. فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا واستبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال، وسَبْيِ الحريم والأولاد، ونهب الأموال.. فلشدة ما أصابهم، أفطروا!!»

وأما عن الشاهد الثاني الشعري، لأبي المظفر الأبيوردي، وتالياً مباشرة لنادرة إفطار رمضان الآنفة الذكر!!.. فلست أتردد في الاعتقاد بأنه من أطيب ما قد رشح لنا من بين قصائد عصر الانحطاط الأدبي ذاك، بل ولعلي أيضاً أجد فيه من القيمة الشعرية العالية، نسبياً، ما يؤهله لأن يكون نصاً مدرسياً ثانوياً يضيف إلى ثقافة التلميذ العربي مَلْمحاً بارزاً عن وجوه الشبه ما بين فاجعة القدس بالأمس.. وفاجعتها الماثلة اليوم..

ومن القصيدة

مَزَجنا دماءً بالدموع السواجِمِ
فلم يَبقَ مِنّا عرصةٌ للمَراحِمِ
وَشَرُّ صلاحِ المرءِ دمعٌ يُفيضُهُ
إذا الحربُ شَبَّت نارُها بالصوارِمِ
فإيهاً بني الإسلامِ إن وراءكم
وقائعَ يُلحقنَ الذرى بالمناسمِ
أتهويمةٌ في ظلِّ أمنٍ وغِبطةٍ
وعيشٌ كَنُوَّارِ الخميلةِ ناعمِ
وكيف تَنام العينُ ملءَ جفونِها
على هَفَواتٍ أيقظتْ كُلَّ نائمِ

وإخوانُكم بالشام يُضحي مَقِيلُهُم
ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعمِ

تَسومُهُمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ
تَجُرُّونَ ذيلَ الخفضِ فعلَ المُسالمِ

وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ ومن دُمَىً
تُواري حَياءً حُسنَها بالمعاصمِ

وتلك حروبٌ من يَغِبْ عن غِمارها
ليَسلَمَ يَقرَعْ بعدَها سِنَّ نادمِ

أترضى صناديدُ الأعاريبِ بالأذى
ويُغضي على ذُلٍّ كُماةُ الأعاجمِ

فَلَيتَهُمُ إذ لم يَذُودوا حَمِيَّةً
عن الدينِ، ضَنُّوا غيرةً بالمحارمِ

وإن زَهِدُوا في الأجرِ إذ حَمِيَ
فَهَلّا أتَوْهُ رغبةً في الغنائمِ

دَعوناكُمُ والحربُ تَرنُو مُلِحَّةً
إلينا بألحاظِ النُّسورِ القشاعمِ

تُراقِبُ فينا غارةً عربيةً
تُطيلُ عليها الرومُ عَضَّ الأباهمِ

من وثائق القدس

حسين العودات*

اختـرت (٢٧) وثيقة تتعلق بمدينـة القدس معظمها قـرارات اتخذتها الجمعيـة العامـة لـلأمم المتحـدة والمنظمات التابعـة لها وهـي إذ تؤكد حقـوق العرب في فلسطـين، تدل على الصلف الإسرائيلـي المتمثل بتجاهل الشرعية الدولية بـل الاستخفاف بها وإهمالها وعدم تنفيذ قراراتها وتشير إلى عجـز الجمعية العامـة ومجلس الأمن والدول الأعضـاء إلزام إسرائيل بالامتثال لها.

* كاتب وباحث سوري.

لقد استمر العدوان الإسرائيلي على القدس منذ قيام دولة إسرائيل، ثم أخذ يتنامى سواء بهدم أحياء عربية أم بالاعتداء على الأماكن المقدسة، والأهم بضم القدس واعتبارها عاصمة لدولة إسرائيل، وأخيراً بهدم الأحياء العربية حياً بعد آخر وتوسيع نطاق المدينة بعد إلحاقها تحت اسم (القدس الكبرى) ثم إغراقها بالمستوطنات، وبديهي أن الهدم والضم والاستيطان أعمال عدوانية تخالف الشرعية الدولية التي - رغم ذلك - مازالت تتفرج على هذه الأعمال دون أن تلوي على شيء.

تؤكد الوثائق بما لا يقبل الشك عدم اعتراف أحد بهذه الأعمال الإسرائيلية الشائنة واستنكار المجتمع الدولي لها، وتدل على استخفاف إسرائيل بالقانون الدولي وإهانة الشرعية الدولية.

وثيقة رقم (١)

العهد العمري

وثيقة الأمان التي بعث بها الخليفة عمر بن الخطاب

لبطريرك النصارى صفرونيوس سنة ٦٣٧م، ١٥ هـ

الحمد لله الذي شرفنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان ورحمنا بنبيه محمد (ص) وهدانا من الضلال وأنقذنا به من التهلكة ووحد قلوبنا، ونصرنا على الأعداء وثبت أيدينا وجعلنا أخوة متحابين فاحمدوا الله يا عباد الله على هذه النعمة.

أما بعد فهذا عهد مني أنا عمر بن الخطاب أعطي للشيخ الوقور بطريرك الأمة الملكية صفر ونيوس على جبل الزيتون بمقام القدس الشريف في الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا وأين وجدوا أن يكون عليهم الأمان لأن الذمي إذا حفظ أحكام الذمة وجب له الأمان والصون منا نحن المؤمنين وإلى من يتولى بعدنا ولتقطع عنهم أسباب جوانحهم كحسب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم ودياناتهم وكافة زياراتهم التي بيدهم داخلاً وخارجاً وهي: القيامة وبيت لحم مولد عيسى (عليه السلام) الكنيسة الكبرى المغارة ذات الثلاثة أبواب قبلي وشمالي وغربي وبقية أجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحبش والذين يأتون للزيارة من الإفرنج والقبط والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابعين للبطريرك المذكور ويكون متقدماً عليهم لأنهم أعطوا من حضرة النبي الكريم

والحبيب المرسل من الله وشرفوا بختم يده الكريم وأمر بالنظر إليهم والأمان عليهم كذلك نحن المؤمنين نحسن إليهم ويكونون معافين من الجزية والغفر الواجب ومسلمين من كافة البلايا في البر والبحر وفي دخولهم للقيامة وبقية زياراتهم لا يؤخذ منها شيء. وأما الذين يقبلون إلى الزيارة إلى القيامة يؤدي النصراني إلى البطريرك درهماً وثلثاً من الفضة وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطاناً أم حاكماً أم والياً يجري حكمه في الأرض غني أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات. وقد أعطي لهم مرسومنا هذا بحضور جم من الصحابة الكرام عبد الله وعثمان بن عفان وسعد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وبقية الأخوة الصحابة الكرام. فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به ويبقى في أيديهم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل.

في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٥ للهجرة النبوية. وكل من قرأ مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن إلى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثاً ولرسوله الحبيب باغضاً.

وثيقة رقم (٢)

اقتراح هرتزل للسلطان عبد الحميد بإنشاء

جامعة يهودية في القدس

١٩٠٢/٥/٣

لي الشرف أن أتقدم لحكمة جلالتكم المتناهية بالاقتراح التالي: إني أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شبان تركيا لتتلقى التعليم في الخارج وما يتعرض له هؤلاء الشبان من ضياع خاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية مما يجعل الحكومة أمام أحد أمرين. إما أن تحرم هؤلاء من التدريب العلمي أو أن تعرضهم إلى مخاطر الغوايات السياسية. على أن هناك حلاً للمشكلة. وأنا أسمح لنفسي بكل تواضع أن أقدم لحكمة جلالتكم هذا الحل.

إننا معشر اليهود نلعب دوراً هاماً في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم والأساتذة اليهود يملؤون جامعات البلدان كما أن هناك عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين في جميع الحقول التعليمية لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في إمبراطوريتكم ولتكن في القدس مثلاً عندها لن يضطر الطلاب العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج بل يبقون في بلادهم

ويتلقــون فيها أفضــل التدريب وهم ضمن أحــكام بلدهــم، والجامعــة اليهودية تقوم بتقديم أفضل مــا تقدمه أحسن الجامعات ومدارس التدريب المهني ومدارس الزراعة. ولن تقــدم مثل هــذه المؤسســة إلا ما هو أفضل وعندها تقوم بدورها في خدمة العلم والطلاب والبلاد.

وثيقة رقم (٣)

لجنة التحقيق العسكرية (الإنجليزية) للتحقيق في أسباب الاضطرابات التي وقعت في القدس

في ٢٠ أبريل سنة ١٩٢٠[1]

قام الثائرون من العرب في مدينة القدس بهجــوم (وحشي) على اليهود وأموالهم وقد قتل خمسة من اليهود وجرح ٢١١ وقد أعيد الأمــن إلى نصابه بتدخل كتائب من الجيش البريطاني وكان عدد القتلى من العرب أربعة والجرحى ٢١.

وقد قررت لجنة التحقيق العسكرية ((لم يطبــع تقريرها)) أن أسبــاب الاضطرابات هي ما يأتي:

أ. خيبــة أمل العرب لعدم تنفيذ الوعود باستقلالهم التي يدعــون بأنها سنحت لهم أثناء الحرب.

ب. اعتقاد العرب بأن وعد بلفور يتضمن إنــكاراً لحق مصيرهم وخوفهــم من إنشاء الوطن القومي الذي يعني الزيادة الهائلة في الهجرة اليهودية التي ستؤدي إلى إخضاعهم لسيطرة اليهود الاقتصادية والسياسية.

ج. ازدياد حدة الشعــور بسبب الدعاية التــي تبث من خــارج فلسطــين مصحوبة بإعلان الأمير فيصل ملكاً على سورية التي أعيدت لهــا وحدتها وتنمو فكــرة الاتحاد العربــي والاتحــاد الإسلامــي مــن ناحية وبسبب نشــاط اللجنــة الصهيونية مؤيدة بمــوارد ونفــوذ اليهود في أنحــاء العالم من الناحية الأخرى.

وثيقة رقم (٤)

من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين

(المتعلق بالقدس) ١٩٤٧/١١/٢٩

الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية

١. إن الحقوق القائمة بما يتعلق بالأماكن المقدســة والمباني والمواقع الدينية لا تنكر أو يغض عليها.

٢. يجب ضمان حرية الوصول والزيارة والعبــور (ترانزيــت) بقدر مــا يتعلق الأمر بالأماكــن المقدسة، وفقاً للحقــوق القائمة وذلك لجميع القائمين والمواطنين في الدولة

الأخـرى وفي مدينة القدس والغرباء كذلك، دون مـا تمييـز في الجنسيـة مـع مراعاة احتياجـات الأمـن الوطني والنظـام العام واللياقة، كمـا تضمن حرية العبـادة وفقاً للحقوق القائمة مـع مراعاة صيانة النظام العام واللياقة.

٣ ـ يجب صيانة الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينيـة. ولا يسمح بعمل من شأنه أن يضـر بأي وجه بصفتهـا المقدسة. وإذا ظهـر للحكومـة في أي وقـت أن أي مكان مقدسـ معـين أو مبنى أو موقـع ديني في حاجـة للإصلاح، فيجوز للحكومة أن تدعو الطائفة أو الطوائف ذات الشأن للاضطلاع بمثـل هـذا الإصـلاح، ويجـوز للحكومة نفسهـا أن تضطلع به على نفقة الطائفة أو الطوائف المختصة إذا لم يتخذ إجراء خلال وقت معقول.

٤ ـ لا تستـوفي ضريبـة عـن أي مكان مقدسـ، وكل مبنـى أو موقـع دينـي كان مستثنـى من دفـع الضريبة بتاريـخ إنشاء الدولـة ويجب أن لا يقع تغيير في عبء مثل هـذه الضريبة يؤدي إمـا إلى الإجحاف في المعاملة بين مالكي وشاغلي الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينيـة. أو أن يقع هؤلاء المالكـون والشاغلون في مركـز أقل ملاءمة بالنسبة لعبء الضريبة العام مما كانوا عليه وقت تصديق تواصي الجمعية العامة.

٥ ـ لحاكم مدينة القدس الحق في أن يقرر ما إذا كانت أحـكام دستور الدولة الخاصة بالأماكن المقدسـة والأبنية والمواقع الدينية الموجـودة داخل حـدود الدولـة والحقوق الدينيـة المتعلقـة بهـا مطبقـة ومحترمة على الوجـه الأكمل، وأن يتخـذ بالاستناد إلى الحقـوق القائمـة جميـع القرارات في حـالات المنازعات التي قد تنشأ بين مختلف الطوائف الدينية أو بشأن الطقوس الدينية لطائفـة ما بالنسبة لهـذه الأماكن والأبنية والمواقع، ويجب أن يلقـى تعاوناً كاملاً وأن يتمتع بالمزايا والحصانات الضرورية للقيام بمهام منصبه في الدولة.

وثيقة رقم (٥)

قـرار مجلس الوصـاية رقـم ٣٣ تاريخ ١٩٤٨/٣/١٠

الطلب إلى الأمين العام توفير اعتمـادات متعلقـة بمشـروع نظـام القدس[٢]

إن مجلس الوصاية،

وقد أحاط علماً أن الجمعية العامة قد نصـت بقرارها الذي صـدر في ٢٩ تشرين الثـاني (نوفمبر) حـول حكومة فلسطين في

المستقبل، أن تدار مدينة القدس من قبل الأمم المتحدة بموجب نظام دولي خاص، واختارت مجلس الوصاية ليضطلع بالنيابة عن الأمم المتحدة بمسؤوليات السلطة الإدارية بالنسبة إلى المدينة، ويضع نظاماً مفصلاً للمدينة ويوافق عليه.

١ . يحيط علماً بالتقرير الذي رفعه حول مضامين الميزانية المتعلقة بمشروع نظام مدينة القدس (وثيقة t/١٤١ ، وبتقرير الأمين العام بموجب القاعدة ٦٥ من قواعد سير العمل للمجلس والنظام ٣٨ من أنظمة الجمعية المالية المؤقتة (وثيقة t/١٤٢).

٢ . يطلب من الأمين العام توفير الأموال اللازمة خلال عام ١٩٤٨ للنشاطات التي يجيزها مجلس الوصاية على أساس الجزءين الأول والثاني من تقرير لجنة مضامين الميزانية المذكورة أعلاه.

٣ . يقرر، بغية إعداد توصيات متعلقة بالميزانية ليعرضها مجلس الوصاية على الجمعية العامة في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨، الطلب إلى الأمين العام، آخذاً بعين الاعتبار مشروع نظام مدينة القدس ومضامين الميزانية الناشئة عنه، كما هو وارد في الوثيقة (t/١٤١) إعداد تقديرات بنفقات سنة ١٩٤٩ اللازمة لضمان القيام بمسؤوليات الأمم المتحدة تجاه مدينة القدس، لينظر فيها مجلس الوصاية في اجتماعه في حزيران (يونيو).

تبنى المجلس هذا القرار، في جلسته رقم٣٥.

وثيقة رقم (٦)

قرارات مؤتمر القدس

٣١ يناير سنة ١٩٤٩[٣]

١ . تأكيد عروبة فلسطين ووحدتها تبعاً لحق أهلها الأصليين في تقرير مصيرهم وعدم الاعتراف بأي حال يخالف هذا المبدأ.

٢ . تأكيد حق أهالي القدس ومنطقتها المذكورة في قرار الأمم المتحدة بأكثريتهم العربية في تقرير مصيرهم. ورفض الانصياع لأي حل يسلبهم حريتهم ويخضعهم لنظام حاكم دولي رفضاً باتاً.

٣ . دعوة الدول العربية وكل مفاوض عربي، وكل رئيس ديني إلى التمسك بهذا المبدأ والدفاع عنه.

٤ . دعوة الدول العربية إلى عدم التعاون

مع لجنة التوفيق الثلاثية في أمر من الأمور قبل تأمين حقوق النازحين العرب.

٥ . نشر كتاب أسود لتنوير الرأي العام العالمي عن عدوان اليهود على الأماكن المقدسة.

٦ . الدفاع عن القدس حتى النهاية، والاستعداد لاستئناف القتال مع المحافظة على حالة الحرب مع اليهود واستئنافها حتى الإنقاذ التام.

٧ . الإبراق إلى ملوك العرب ورؤساء حكوماتهم بالدعوة إلى الاتحاد والتضامن وإلى عقد مؤتمر عربي عام مستعجل، لتنظيم التعاون العربي على أسس جديدة جدية صادقة، ولوضع الخطط اللازمة للدفاع عن القدس ولاستئناف الجهاد العام لإنقاذ فلسطين.

وثيقة رقم (٧)

قرار من مجلس الوصاية

دعوة إسرائيل إلى إبطال نقل بعض الدوائر والوزارات إلى القدس[٤]

إن مجلس الوصاية؛

إذ يساوره القلق من نقل بعض الوزارات والدوائر المركزية في حكومة إسرائيل إلى القدس.

وإذ يعتبر أن مثل هذا العمل يتجاهل ويتعارض مع أحكام الفقرة ٢ من قرار الجمعية العامة رقم ٣٠٣ (الدورة ٤) الصادر في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩.

١ . يرى أنه من الأرجح أن عمل حكومة إسرائيل سيؤدي إلى جعل تنفيذ نظام القدس الذي عهد به إلى المجلس بموجب قرار الجمعية العامة الصادر في ٩ كانون الأول ديسمبر ١٩٤٩ أكثر صعوبة.

٢ . يطلب من رئيس مجلس الوصاية:

أ . أن يدعو حكومة إسرائيل إلى تقديم بيان خطي حول المسائل التي تناولها هذا القرار وإلى إلغاء تلك الإجراءات والامتناع عن أي عمل من شأنه أن يعيق تنفيذ قرار الجمعية العامة الصادر في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩.

ب . أن يبقى على صلة وثيقة بتطورات الأمور في القدس حينما لايكون المجلس منعقداً.

٣ . يطلب من الأمين العام إيصال هذا القرار فوراً إلى جميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة.

تبنى المجلس هذا القرار في جلسته رقم ٨.

وثيقة رقم (٨)

مذكرة الحكومة الأمريكية إلى حكومة إسرائيل

بشأن نقل وزارة خارجية إسرائيل إلى القدس

(٩ يوليو ١٩٥٢)

لقد نظرت الحكومة الأمريكية بعين القلق إلى القرار الذي أعلنته حكومة إسرائيل في ٤ مايو الماضي بشأن نقل وزارة خارجيتها إلى القدس.

والحكومة الأمريكية لا تزال تتمسك. كما كانت في الماضي. بوجوب اتباع نظام دولي خاص في القدس يكفل ليس فقط حماية الأماكن المقدسة بل كذلك إرضاء إسرائيل والأردن فضلاً عن بقية دول العالم.

ولما كانت مشكلة القدس لا تزال تحتفظ بأهميتها الدولية، فإن الحكومة الأمريكية ترى من الواجب إعطاء فرصة للأمم المتحدة لإعادة النظر في المسألة بغية وضع نظام للقدس يحفظ بطريقة مرضية مصالح دول العالم والدول التي يهمها الأمر مباشرة.

والولايات المتحدة. بناء على ذلك. لا تنظر بعين الارتياح إلى نقل وزارة خارجية إسرائيل إلى القدس.

وتود الحكومة الأمريكية كذلك أن تبلغ الحكومة الإسرائيلية أنها لا تنوي. تمشياً مع الموقف الذي نرى اتخاذه بشأن القدس. نقل السفير الأمريكي وموظفي السفارة الأمريكية في إسرائيل إلى القدس.

وثيقة رقم (٩)

مذكرة الحكومة الفرنسية إلى الحكومات العربية

بشأن وضع القدس كعاصمة لإسرائيل[٥]

سبتمبر سنة ١٩٦٦

إن موقف الحكومة الفرنسية بالنسبة للقدس مازال كما هو وإن حضور ممثليها إليها لا يعني بأي حال من الأحوال اعترافاً بضم أي جزء من منطقة القدس سواء للأردن أو إسرائيل، وأنها تعتبر القدس جغرافياً وقانونياً منطقة دولية حسب قرارات الأمم المتحدة وإن القنصل الفرنسي في القدس مستقل عن السفارة الفرنسية في عمان وتل أبيب، وإن اتصاله المباشر هو بوزارة الخارجية الفرنسية في باريس. ولهذا السبب لا يقوم خطاب التعيين لدى الحكومتين، وتنحصر دائرته القنصلية باختصاص حاكم القدس العربية وحاكم القدس المحتلة.

أما بخصوص دعوة إسرائيل سفراء

الـدول المعتمـدة لديها لحضـور الاحتفال بافتتـاح مبنى الكنيست، فلقد تلقى البرلمان الفرنسـي هذه الدعـوة. وفي حالة تلبيتها، فإن ذلك لا يعني اعـتراف فرنسا بالقدس عاصمة لإسرائيل. والاعـتراف لا يكون إلا بانتقـال السفير الفرنسي مـن تل أبيب إلى القدس، وبإغلاق القنصليـة الفرنسية في القطاع الإسرائيلي من تلك المدينة.

وثيقة رقم (١٠)

مذكرة الحكومة اليابانية إلى الحكومات العربية

بشأن وضع القدس كعاصمة لإسرائيل
سبتمبر سنة ١٩٦٦(٦)

إن الوفـد الياباني الـذي حضر افتتاح الكنيسـت لا يمثل الحكومـة اليابانية وإن اليابان متمسكة بقرارات الأمم المتحدة حول القدس. وهذه الزيارة لا تعني بأي حال من الأحوال تراجع اليابان عن موقفها واعترافها بالقدس عاصمة لإسرائيل، وإن رئيس المجلس النيابي الياباني قبل الدعوة التي وجهها إليه البرلمـان الإسرائيلي بحسن نية ودون معرفة بالإشـكالات والتعقيدات التي قد تنجم عن مثل هـذه الزيـارة. وقد طلبت الحكومة الإسرائيلية من رئيس الوفد الياباني أن يغرس شجـرة أمام مبنى الكنيسـت باسم اليابان، إلا أن الحكومـة اليابانية أرسلت برقية إلى السفـارة اليابانية في إسرائيـل تطلب فيها عدم القيام بهذا الإجراء. وفعلاً لم يقم به.

وثيقة رقم (١١)

مذكرة الحكومة البريطانية إلى الحكومات العربية

بشأن وضع القدس كعاصمة لإسرائيل
سبتمبر سنة ١٩٦٦(٧)

إنـه لو فرض أن السفـير البريطاني قد حضـر الاحتفال المذكـور، فهـذا لا يعني اعترافاً مـن قبل بريطانيا بالقدس عاصمة لإسرائيل، وعلى كل فإن الاعتراف بالقدس كعاصمـة لإسرائيـل ليـس وارداً بتاتـاً في سياسـة بريطانيا في الشـرق الأوسط. وإن السفـير البريطـاني في إسرائيل كثـيراً ما يدعـى إلى حفلات تقام في القدس من قبل الحكومة الإسرائيلية أو من قبل أفراد وليس مـن المعقول أن تعتبر الـدول هذه الزيارات اعترافاً ضمنياً من قبـل بريطانيا بالقدس كعاصمة لإسرائيل.

وقد حضر رئيس مجلس العموم البريطاني حفل افتتـاح الكنيست إلا أن ذلك لا يحمل أي مغزى سياسي نظـراً لأن المذكور حضر الحفل بصفته الشخصيـة، هذا إلى جانب

أن تقاليد البرلمان الإنكليزي لا تمنح رئيس مجلس العموم أية صفة سياسية.

وثيقة رقم (١٢)

إبداء الأسف للتدابير التي اتخذتها إسرائيل

لتغيير وضع مدينة القدس[٨]

إن الجمعية العامة:

إذ تشير إلى قرارها ٢٢٥٣ (د ١ . ط . ٥) المتخذ في ٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧.

وقد تلقت التقرير المقدم من الأمين العام.

إذ تحيط علماً مع أشد الأسف وأبلغ القلق بعدم التزام إسرائيل بالقرار ٢٥٣ (د ١ ط . ٥).

١ . تأسف جداً لتخلف إسرائيل عن تنفيذ قرار الجمعية العامة ٢٢٥٣ (د ١ ط . ٥).

٢ . وتكرر الطلب الذي وجهته إلى إسرائيل في ذلك القرار بإلغاء جميع التدابير التي صار اتخاذها والامتناع فوراً عن إتيان أي عمل من شأنه تغيير مركز القدس.

٣ . وتطلب من الأمين العام إعلام مجلس الأمن والجمعية العامة عن الحالة وعن تنفيذ هذا القرار.

تبنت الجمعية العامة هذا القرار، في جلستها العامة رقم ١٥٥٤ . بـ ٩٩ صوتاً مقابل لا أحد وامتناع ١٨.

وثيقة رقم (١٣)

تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة المرفوع إلى الجمعية العامة بشأن توحيد القدس

بناء على تقرير ممثله الشخصي أرنستو تالمان

أكتوبر سنة ١٩٦٧[٩]

قد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن إسرائيل ماضية في اتخاذ كافة الخطوات اللازمة لوضع الأجزاء التي لم تكن تحت سيطرتها من قبل تحت سيادتها.

كما جاء على لسان أرنستو تالمان في التقرير المذكور:

أكدت السلطات الإسرائيلية بإصرار أن عملية التوحيد لا رجوع فيها ولا يجوز التفاوض بشأنها؟

أما ممثلو العرب في المدينة المقدسة، فقد أبانوا للممثل الشخصي عن وجهة نظر قانونية ومشروعة جديرة بالاعتبار، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أنهم أدلوا إليه بوجهة نظرهم في منطقة خاضعة للسلطة العسكرية الإسرائيلية، وأنهم لم يكونوا من العاملين في الميادين المختلفة أسوة بمن لاقاهم من الإسرائيليين، وأنهم

يفتقــرون إلى أي تنظيم سياســي أو إداري يجمع كلمتهم ويعبر عنها.

فقــد أوضحــت الشخصيــات العربية للممثل الشخصي أن العرب يقرون بالسلطة الفعلية للاحتلال العسكري في ضوء طبيعته المؤقتــة، ويعارضون أي نوع مــن أنواع نقل السيــادة الإسرائيلية علــى القدس العربية عن طريق ضمهــا أو توحيدها داخل نطاق إسرائيل خلافاً للقانــون الدولي العام وجاء هذا على لسان الممثل الشخصي في تقريره حيث يقول:

((إن العــرب يقــرون بنظــام الاحتلال العسكــري كما هــو، وإنهم علــى استعداد للتعــاون مع ممثل هذا النظــام في معالجة القضايــا الراهنة الخاصة بشــؤون الإدارة والإنعاشــ العام. ولكنهــم يعارضون الدمج الإداري في نظــام الدولة الإسرائيلية، الذين يرون فيه خرقاً للقاعــدة القانونية الدولية المستقــرة التي تحرم علــى سلطة الاحتلال النظام القانوني والإداري في الإقليم المحتل، وتعطي السكان في الوقت نفسه حق احترام ملكيتهــم الخاصــة وحقوقهــم وحرياتهم الشخصية)).

كما جاء في هذا التقرير، أن الشخصيات العربية قد أكــدت للممثل الشخصي مراراً وتكراراً أن سكان القسم الشرقي من القدس لم تتح لهــم الفرصة في أن يعربــوا عما إذا كانوا راغبين في الحياة ضمن مجتمع الدولة الإسرائيلية أم لا، وعبروا عن وجهة نظرهم في أن هــذا يمثل انتهاكاً لحق تقرير المصير كما جاء في ميثــاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وأوضــح معظــم العرب الذيــن قابلهم الممثل الشخصــي ((إن الســكان المسلمين قــد صعقــوا لمــا قامــت بــه إسرائيل من أعمال الانتهــاك لقدسية الأماكن المسيحية والإسلاميــة وأنهــم يعتــبرون قيــام كبير حاخامي الجيــش الإسرائيلي ومعه آخرون بالصــلاة داخل الحرم الشريــف استفزازاً مدبراً للمسلمين)).

((كمــا تركــت البيانات التــي صدرت عــن المسؤولين الإسرائيليــين والشخصيات اليهودية عن إدعــاءات اليهود ومخططاتهم في منطقة الهيــكل آثاراً مفزعة وآثار نسف نحــو ١٣٥ منــزلاً في حي المغاربــة المقابل لحائط المبكى وتسويتها بالجرارات مشاعر القلــق البالغ. فقد أدى هذا العمل إلى طرد نحــو ٦٥٠ مسلمــاً من الفقــراء والمتدينين من مساكنهم القريبــة من المسجد الأقصى المبــارك ومسجد عمر وكانــت هذه المنازل

التي ضمت بينها مسجدين صغيرين من أملاك الوقف الإسلامي (وقف المجاهد أبي الغوث) وبعض الأهالي من العرب)). واتهمت الشخصيات العربية السلطات الإسرائيلية أيضاً بأنها قد انتزعت الحي اليهودي القديم وأخرجت من سكانه نحواً من ثلاثة آلاف ساكن بعد فترة إنذار محدودة، هذا إلى جانب اختيارها إحدى مدارس البنات الحكومية، وتضم مسجداً، على مقربة من الأقصى لتكون مقراً لمحكمة الحاخامين العليا، دون استشارة إدارة الأوقاف التي تتبعها هذه المدرسة. وفضلاً عن كل ذلك فقد ادعت السلطات الإسرائيلية صلاحيات تشمل المحاكم الشرعية الإسلامية، ومراجعة الخطب التي تلقى من منبر المسجد الأقصى في صلاة الجمعة وقامت بحذف بعض الآيات القرآنية منها، بما يخالف تعاليم الدين والشرع الإسلامي.

وأشار تقرير الممثل الشخصي للسكرتير العام إلى القلق الذي أعرب عنه ممثلو الطوائف المسيحية وإحساسهم الخفي بالنسبة للمستقبل وما قد يحمل في طياته من اضطرابات أخرى، لو أن الأماكن المقدسة بقيت تحت سيطرة دولة واحدة. تشد نفسها إلى ديانة واحدة، لم تخف قط ما تراه من أن أهدافها السياسية بالنسبة للقدس تتفق وأهدافها الدينية.

وأخيراً فقد أكد المواطنون العرب على اختلاف طوائفهم للممثل الشخصي أن المزيد من الانتهاكات الإسرائيلية للأماكن المقدسة وحقوق الإنسان لابد وأن يؤدي إلى اضطراب عنيف، يسفر عن نتائج جد خطيرة.

وثيقة رقم (١٤)

قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بالقدس[١٠]

٤ يوليو ١٩٦٧

في ٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٦٧ وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية ٩٩ صوتاً دون اعتراض وامتناع عشرين دولة عن التصويت، على مشروع قرار باكستاني (بالاشتراك مع غينيا وإيران ومالي والنيجر وتركيا) خاص بمدينة القدس. جاء في نصه: ((إن الجمعية العامة، إذ تشعر بقلق شديد إزاء الموقف السائد في القدس نتيجة الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع المدينة)).

١. تعتبر هذه الإجراءات غير مشروعة.

٢. تدعو إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات التي اتخذت والامتناع عن اتخاذ

أي عمل من شأنه تغيير وضع القدس.

٢ . ترجو السكرتير العام أن يقدم تقريراً إلى الجمعية العامة ومجلس الأمن حول الموقف وحول تنفيذ هذا القرار في موعد لا يتجاوز أسبوعاً واحداً من تاريخ اتخاذه.

وثيقة رقم (١٥)

قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بالقدس[١١]

١٤ يوليو ١٩٦٧

عادت الباكستان، بالاشتراك مع أفغانستان وغينيا وإيران ومالي وماليزيا والصومال وتركيا، إلى التقدم بمشروع قرار جديد يؤكد القرار الأول ويدعو مجلس الأمن إلى القيام على تنفيذه. ولكن ظهر في المناقشات أنه يصعب أن يفوز هذا المشروع بأغلبية الأصوات إذا بقيت فيه الفقرة الخاصة بدعوة مجلس الأمن إلى تنفيذه. وعلى هذا الأساس وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧ على مشروع القرار الآتي:

إن الجمعية العامة

إذ تذكر بقرارها رقم ٢٢٥٣ (الدورة الطارئة الخامسة) الصادر في ٤ تموز (يوليو).

وقد تلقت التقرير المقدم من السكرتير العام. وإذ تأخذ علماً مع الأسف والقلق الشديدين بعدم التزام إسرائيل بالقرار رقم ٢٢٥٣ (الدورة الطارئة الخامسة).

١ . تستنكر فشل إسرائيل في تنفيذ قرار الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ (الدورة الطارئة الخامسة).

٢ . تكرر دعوتها إسرائيل في ذلك القرار إلى إلغاء جميع الإجراءات التي اتخذت والامتناع عن اتخاذ أي عمل من شأنه تغيير وضع القدس.

٣ . ترجو السكرتير العام تقديم تقرير إلى مجلس الأمن والجمعية العامة حول الموقف وحول تنفيذ هذا القرار.

وقد وافقت الجمعية العامة على هذا القرار بأغلبية مئة صوت ضد لاشيء، مع امتناع ثماني عشرة دولة عن التصويت.

وثيقة رقم (١٦)

دعوة إسرائيل إلى إلغاء جميع إجراءاتها لتغيير وضع القدس[١٢]

إن مجلس الأمن،

إذ يستذكر قراري الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ (الدورة الاستثنائية الطارئة الخامسة) الصادر في ٤ تموز يوليو ١٩٦٧، والقرار رقم ٢٢٥٤ ((الدورة الاستثنائية الطارئة الخامسة)) الصادر في ٤ تموز يوليو ١٩٦٧.

وقـد نظـر كتـاب ممثـل الأردن رقم (٨٥٦٠/ S) حول الوضع في القدس وتقرير الأمين العام رقم (٨١٤٦/ S).

وقـد استمع إلى البيانات التي ألقيت في المجلس.

وإذ يلاحـظ أنـه منذ تبنـي القرارات المذكورة أعلاه، فقد اتخذت إسرائيل المزيد من الإجـراءات والأعمال التـي تتنافى مع هذه القرارات.

وإذ يذكـر الحاجـة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل، وإذ يؤكد رفضه الاستيلاء على الأراضي بالفتح العسكري.

١ ـ يأسف على فشل إسرائيل في الامتثال لقرارات الجمعية العامة المذكورة أعلاه.

٢ ـ يعتبر أن جميـع الإجراءات الإدارية والتشريعيـة، وجميع الأعمـال التي قامت بهـا إسرائيل بما في ذلك مصادرة الأراضي والأملاك التي من شأنها أن تؤدي إلى تغيير في الوضع القانـوني للقدس، هي إجراءات باطلة ولا يمكن أن تغير وضع القدس.

٣ ـ يدعو إسرائيـل بإلحاح إلى أن تبطل هذه الإجـراءات وأن تمتنع فوراً عن القيام بـأي عمـل آخر مـن شأنه أن يغـير وضع القدس.

٤ ـ يطلـب مـن الأمين العـام أن يقدم تقريـراً إلى مجلس الأمن حـول تنفيذ هذا القرار.

تبنـى هذا القرار في جلسته رقم ١٤٢ بـ ١٣ صوتا مقابل لا شيء وامتناع ٢.

وثيقة رقم (١٧)

خطاب وزير خارجية إسرائيل

إلى السكرتير العام للأمم المتحدة بشأن القدس[١٣]

١١ سبتمبر ١٩٦٧

هناك حقيقة بـارزة عن الحياة الراهنة في القدس، وهـي الحاجـة الطبيعية إلى ضمان الحقوق المتساوية والفرص المتكافئة لجميع سكان المدينة، عـن طريق تزويدهم بنفس الخدمات والتسهيـلات العامة. ولن يخدم فرض التجزئة والسدود بالمدينة أية مصلحـة دولية أو غيرهـا. بل سيؤدي ذلك إلى المزيد من التوتـر وإلى خلق التمييز ولا يمنع ذلك التسوية النهائية لبعض الجوانب ذات الأهميـة في وضع القدس والتي تكمن أصولهـا وقواعدهـا في الاهتمـام الدولي بالمدينـة، وأشير هنا إلى الحاجة إلى التغيير الصحيـح عن المصلحـة الخاصة للديانات الكبرى الثلاث في القدس، ونحن جد راغبين في تحقيق هذا الهدف بالتعاون مع المصالح الدولية المعنية. وإني لواثق أنه يمكن تحقيق

التقدم نحـو هذا الهدف في جو من الهدوء الدولي وهو ما لم يتحقق بصورة محددة حتى الآن.

وثيقة رقم (١٨)

قرار مجلس الأمن بشأن إلغاء إسرائيل لضم القدس إليها

٢١ مايو سنة ١٩٦٨ [١٤]

في ٦ أيار (مايـو) استأنف مجلس الأمن بحـث الموقف في القدس حيـث أدان بعض الأعضـاء (باكستان والاتحـاد السوفييتي) الإجراءات الهمجيـة التي ترتكبها إسرائيل ضد العرب في الأراضي المحتلة.

وبعد مشاورات طويلة ومعقدة، تقدمت الـدول الأفريقيـة والآسيويـة واللاتينيـة بمشـروع قرار إلى مجلـس الأمن صباح يوم ٢١ أيار (مايو) وافـق عليه المجلس بأغلبية ١٣ صوتـاً، وامتناع دولتين عـن التصويت هما الولايات المتحدة وكندا. وينص على ما يلي:

إن مجلس الأمن:

بعـد الإشـارة إلى القراريـن اللذيـن اتخذتهمـا الجمعية العامة لـلأمم المتحدة يومي ٤ و ١٤ تموز (يوليو) عام ١٩٦٧.

وبعد الاطلاع على رسالة مندوب الأردن الدائم عن الموقـف في القدس (س/٨٥٦٠) وتقرير السكرتير العـام (س/٨١٤٦) وبعد ملاحظة أنـه منذ اتخـاذ القرارين المشار إليهما اتخذت إسرائيل مزيداً من الإجراءات والأعمال المنافية لهذين القرارين.

وآخذاً بعين الاعتبار الحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل.

وبعد التأكيد أن الاستيلاء على الأراضي بالغزو العسكري أمر غير مقبول.

١ . يأسـف لعدم امتثال إسرائيل لقراري الجمعية العامة المشار إليهما.

٢ . يعتـبر أن الإجـراءات والأعمـال التشريعية والإدارية التي قامت بها إسرائيل. ومن بينها نزع ملكية الأراضي والممتلكات، التـي تهدف إلى تغيير الوضـع القانوني في القدس هـي إجراءات وأعمـال باطلة، ولا يمكن أن تغير هذا الوضع.

٣ . يدعـو إسرائيـل إلى أن تلغي بصورة عاجلة جميع الإجراءات التي اتخذتها فعلاً. والامتنـاع عن اتخاذ أي إجـراء يهدف إلى تغيير الوضع في القدس.

٤ . يطلب من السكرتير العام تقديم تقرير عاجل إلى مجلس الأمن عن الإجراءات التي تتخذها إسرائيل لتنفيذ هذا القرار.

وثيقة رقم (١٩)

دعوة إسرائيل مجدداً إلى إلغاء جميع الإجراءات

التي من شأنها تغيير وضع القدس[١٥]

إن مجلس الأمن:

إذ يشير إلى قراره رقم ٢٥٢ الصادر في ٢١ أيار (مايو) ١٩٦٨. وقراري الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ (الدورة الاستثنائية الطارئة ٥) الصادر في ٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧. ورقم ٢٢٥٤ الدورة الاستثنائية الطارئة ٥) الصادر في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧. المتعلقين بالإجراءات والأعمال التي تقوم بها إسرائيل والتي تؤثر في وضع القدس.

وقد استمع إلى البيانات التي أدلى بها الفرقاء المعنيون بهذا الموضوع.

وقد لاحظ اتخاذ إسرائيل مزيداً من الإجراءات التي أدت إلى تغيير معالم القدس وذلك بعد اتخاذ القرارات المذكورة أعلاه.

وإذ يؤكد المبدأ القائل بأن الاستيلاء على الأراضي بواسطة الفتح العسكري غير مقبول.

١ . يؤكد قراره السابق رقم ٢٥٢ (١٩٦٨).

٢ . يأسف على فشل إسرائيل في أن تظهر أي احترام لقراري مجلس الأمن والجمعية العامة المذكورين أعلاه.

٣ . يشجب بشدة جميع الإجراءات المتخذة لتغيير وضع مدينة القدس.

٤ . يؤكد أن جميع الإجراءات التشريعية والإدارية والأعمال التي اتخذتها إسرائيل من أجل تغيير وضع القدس، بما في ذلك مصادرة الأراضي والممتلكات، هي أعمال باطلة ولا يمكن أن تغير وضع القدس.

٥ . يدعو إسرائيل مرة أخرى وبإلحاح إلى أن تبطل جميع الإجراءات التي تؤدي إلى تغيير وضع مدينة القدس، كما يطلب منها أن تمتنع عن اتخاذ أية إجراءات مماثلة في المستقبل.

٦ . يطلب من إسرائيل أن تخبر مجلس الأمن دون أي إبطاء عن نواياها حول تنفيذ بنود هذا القرار.

٧ . يقرر أنه إذا أجابت إسرائيل سلباً أو لم تجب على الإطلاق، فإن مجلس الأمن سيعود إلى الاجتماع دون تأخير للنظر في الخطوات التي يمكن أن يتخذها في هذا الشأن.

٨ . يطلب من الأمين العام أن يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن حول تنفيذ هذا

القرار.

تبنى المجلس هذا القرار في جلسته رقم ١٤٨٥ بإجماع الأصوات.

وثيقة رقم (٢٠)

قرار مجلس الأمن بمطالبة إسرائيل بالرجوع عن كل إجراءاتها لضم مدينة القدس[١٦]

٤ يوليو ١٩٦٩.

مجلس الأمن:

إن مجلس الأمن بعد الاطلاع على قراره رقم ٢٥٢ الصادر في ٣١ مايو عام ١٩٦٨، وعلى القرارين السابقين الصادرين عن الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ و ٢٢٥٤ بتاريخ ٤و١٤ يونيو ١٩٦٧ على التوالي المتعلقين بالإجراءات والأفعال من جانب إسرائيل والمؤثرة على الوضع القانوني لمدينة القدس وبعد أن استمع إلى بيانات الأطراف المعنية في المسألة.

وإذ يلاحظ أنه منذ صدور القرارات السابق ذكرها اتخذت إسرائيل إجراءات أخرى ترمي إلى تغيير الوضع القانوني لمدينة القدس.

وإذ يؤكد المبدأ الوطيد القائل بأن اكتساب الأراضي بالغزو العسكري أمر لا يمكن الاعتراف به.

١ . يؤكد من جديد قراره رقم ٢٥٢ (١٩٦٨).

٢ . يأسف لعدم إبداء إسرائيل أي اعتبار لقرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن السابق ذكرها.

٣ . يستنكر بأشد العبارات كل الإجراءات المتخذة لتغيير الوضع القانوني لمدينة القدس.

٤ . يؤكد أن كل الإجراءات والأفعال التشريعية والإدارية التي تتخذها إسرائيل والرامية إلى تغيير الوضع القانوني لمدينة القدس. بما في ذلك مصادرة الأرض والممتلكات. غير مشروعة ولا يمكن أن يتغير ذلك الوضع.

٥ . يدعو إسرائيل مرة أخرى على وجه السرعة إلى الرجوع عن كل ما اتخذته من إجراءات يكون من شأنها تغيير الوضع القانوني لمدينة القدس وأن تمتنع في المستقبل عن كل الأفعال التي من شأنها أن تؤدي إلى مثل هذه النتيجة.

وثيقة رقم (٢١)

ملاحظة الغضب العالمي الذي سببه عمل تدنيس المسجد الأقصى ودعوة إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات التي من شأنها تغيير وضع القدس(١٧)

إن مجلس الأمن،

إذ يعبر عن حزنه للضرر البالغ الذي ألحقه حريق بالمسجد الأقصى المقدس في القدس يوم ٢١ آب (أغسطس) تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي.

وإذ يدرك الخسارة التي لحقت بالثقافة الإنسانية.

وقد استمع إلى البيانات التي ألقيت في المجلس والتي تعكس الغضب العالمي الذي سببه عمل التدنيس في أحد أكثر معابد الإنسانية قداسة.

وإذ يتذكر قراريه رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) الصادر في ٢١ أيار (مايو)، ورقم ٢٦٧ (١٩٦٩) الصادر في ٣ تموز يوليو ١٩٦٩ والقرارين السابقين للجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ (الدورة الاستثنائية الطارئة . ٥) الصادر في ٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧، ورقم ٢٢٥٤ (الدورة الاستثنائية الطارئة . ٥) في ١٤ تموز (يوليو) . وجميعها تتعلق بالإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتؤثر بوضع مدينة القدس.

وإذ يؤكد مبدأ عدم قبول الاستيلاء على الأراضي بالفتح العسكري.

١ . يؤكد القرارين رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) والقرار ٢٦٧ (١٩٦٩).

٢ . ويعترف بأن أي تدمير أو تدنيس للأماكن المقدسة أو المباني أو المواقع الدينية في القدس، وأن أي تشجيع أو تواطؤ للقيام بعمل كهذا يمكن أن يهدد بحدة الأمن والسلام الدوليين.

٣ . يقرر أن العمل المقيت لتدنيس المسجد الأقصى يؤكد الحاجة إلى أن تمتنع إسرائيل عن خرق القرارات المذكورة أعلاه وأن تبطل جميع الإجراءات والأعمال التي اتخذتها لتغيير وضع القدس.

. يدعو إسرائيل إلى التقيد بدقة بنصوص اتفاق جنيف وبالقانون الدولي الذي ينظم الاحتلال العسكري، كما يدعو إلى الامتناع من إعاقة المجلس الإسلامي الأعلى في القدس عن القيام بمهماته، بما في ذلك أي تعاون يطلبه ذلك المجلس من دول أكثرية شعوبها من المسلمين أو من مجتمعات إسلامية بما يتعلق بخططها من أجل صيانة وإصلاح الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس.

٥ . يدين فشل إسرائيل في الالتزام بالقرارات المذكورة أعلاه ويدعوها إلى تنفيذ نصوص هذه القرارات.

٦ . يكرر تأكيد الفقرة العملية السابعة من قرار رقم ٢٦٧ (١٩٦٩) القائلة أنه في حال إجابة إسرائيل سلباً أو في حال عدم إجابتها على الإطلاق، سيعود مجلس الأمن إلى الاجتماع دون عائق لينظر في الخطوات التي يمكن أن يتخذها في هذا الشأن.

٧ . يطلب من الأمين العام أن يتابع عن كثب تنفيذ هذا القرار، وأن يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن في أقرب وقت.

تبنى المجلس هذا القرار، في جلسته رقم ١٥١٢ بـ ١١ صوتاً مقابل لاشيء وامتناع ٤.

وثيقة رقم (٢٢)

إدانة حريق المسجد الأقصى (من قبل اليونسكو)[١٨]

إن المجلس التنفيذي:

١ . وقد أحزنه كثيراً الضرر الواسع الذي ألحقه بالمسجد الأقصى المقدس تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي، حريق مفتعل في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٦٩.

٢ . وإذ يدرك الخسارة التي مني بها تراث البشرية الحضاري.

٣ . وقد استمع إلى بيانات ألقيت أمام المجلس تشهد على السخط العالمي الذي أثاره هذا العمل المدنس للمقدسات.

٤ . يدين الحريق الإجرامي للمسجد الأقصى كما يدين جميع المسؤولين عنه.

تبنى المجلس التنفيذي هذا القرار في جلسته رقم ٨٣.

وثيقة رقم (٢٣)

قرار المؤتمر العام لليونسكو حول تغيير معالم القدس[١٩]

وإذ يلاحظ من تقرير المدير العام في الوثيقة (٢٠م/١٩) أن إسرائيل لم تغير موقفها من قرارات الأمم المتحدة واليونسكو المشار إليها أعلاه، ولم تتعهد بالامتناع عن القيام بالحفريات.

وإذ يسترشد بالقرارات السابقة التي اعتمدها المؤتمر العام منذ دورته الرابعة عشرة (القرارات ١٤م/١١، ١٥م/١٢، ٩و١٤، ٩، ١٦م/٨، ١٧م/١٠،١٠، ١٨م/ ٤٢٧، ٣، ١٩م/م ١٢٩، ٤).

١ . يقدم الشكر العميق للمدير العام على جهوده لتطبيق القرار (١٢٩، ٤) الذي اعتمده المؤتمر العام في دورته التاسعة عشرة.

٢ . يؤكد من جديد القرارات السابقة الصادرة عن المؤتمر العام لليونسكو فيما

يخص مدينة القدس، ولاسيما القرار (١٨م/٤٢٧، ٧٣) ويصر على ضرورة تطبيقها.

٣ ـ يدين سلطات الاحتلال الإسرائيلية لمخالفتها القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة واليونسكو، واستمرارها منذ الاحتلال وحتى الآن في تغيير معالم القدس التاريخية والثقافية وتهويدها.

٤ ـ يوجه نداءً عاجلاً وحازماً إلى إسرائيل لكي تتوقف نهائياً وفوراً عن الحفريات غير المشروعة وعن مواصلة اتخاذ التدابير التي تغير من طابع مدينة القدس ومن وضعها.

٥ ـ يطلب إلى المدير العام تقديم تقرير عن تنفيذ هذا القرار إلى المجلس التنفيذي في دورته السابعة بعد المائة.

الوثيقة رقم (٢٤)

الأسف لعدم احترام إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة

الخاصة بإجراءاتها لتغيير وضع القدس[٢٠]

إن مجلس الأمن،

إذ يشير إلى قراريه رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) ورقم ٢٦٧ (١٩٦٩) وقراري الجمعية العامة السابقين رقم ٢٢٥٣ (الدورة الاستثنائية الطارئة ـ ٥) الصادر في ٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧، ورقم ٢٢٥٤ (الدورة الاستثنائية الطارئة ـ ٥) في ١٤ تموز (يوليو) فيما يتعلق بالإجراءات والأعمال التي تقوم بها إسرائيل لتغيير وضع القطاع الذي تحتله إسرائيل من القدس.

وقد نظر في رسالة مندوب الأردن الدائم حول الوضع في القدس (S/١٠٣١٣) وفي تقارير الأمين العام (S.٨١٤٦) (S).٩٥٣٧) (s/١٠١٢٤ and add .s ١andz) ٨٠٥٢) (s/ ٩١٤٩/dd١.١.) وقد استمع إلى بيان الفريقين المعنيين بالأمر.

وإذ يؤكد مجدداً المبدأ القائل أن حيازة الأرض بالفتح العسكري غير مقبولة.

وإذ يلاحظ بقلق عدم امتثال إسرائيل للقرارات المذكورة أعلاه.

وإذ يلاحظ بقلق أيضاً أنه منذ اتخاذ القرارات المذكورة أعلاه اتخذت إسرائيل إجراءات تقصد بها تغيير وضع وصفة القطاع المحتل من القدس.

١ ـ يؤكد مجدداً قراري مجلس الأمن رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) ورقم ٢٦٧ (١٩٦٩).

٢ ـ يأسف على تخلف إسرائيل عن احترام القرارات السابقة التي اتخذتها الأمم المتحدة فيما يتعلق بإجراءات وأعمال

إسرائيل التي تؤدي إلى التأثير في وضع القدس.

٣ . يؤكد بأوضح العبارات الممكنة أن جميع الأعمال التشريعية والإدارية التي قامت بها إسرائيل لتغيير وضع مدينة القدس ومن ضمنها مصادرة الأراضي والممتلكات، ونقل السكان، والتشريع الذي يهدف إلى ضم القطاع المحتل، لاغية كلياً ولا يمكن أن تغير ذلك الوضع.

٤ . يدعو إسرائيل بإلحاح إلى إلغاء جميع الإجراءات والأعمال السابقة وإلى عدم اتخاذ خطوات أخرى في القطاع المحتل من القدس الذي قد يفهم منه تغيير وضع المدينة أو قد يجحف بحقوق السكان وبمصالح المجموعة الدولية، أو بالسلام العادل الدائم.

٥ . يطلب من الأمين العام أن يقدم بالتشاور مع رئيس مجلس الأمن، استعمال الوسائل التي يختارها ومن ضمنها ممثل أو بعثة تقريراً إلى مجلس الأمن كما يرى ملائماً وعلى أي حال خلال ستين يوماً من تنفيذ القرار.

تبنى المجلس هذا القرار في جلسته رقم ١٥٨٢ بـ ١٤ صوتاً مقابل لا شيء. وامتناع صوت واحد.

وثيقة رقم (٢٥)

رسالة إلى الرئيس كارتر من الرئيس السادات

(من الرسائل المتبادلة في اتفاقية كامب ديفيد)

أكتب إليكم لأعيد تأكيد موقف جمهورية مصر العربية بشأن القدس.

١ . تعتبر القدس العربية جزءاً لا يتجزأ من الضفة الغربية ويجب احترام وإعادة الحقوق العربية والشرعية والتاريخية في المدينة.

٢ . إن القدس العربية يجب أن تكون تحت السيادة العربية.

٣ . إن من حق السكان الفلسطينيين في القدس ممارسة جميع حقوقهم الوطنية المشروعة بوصفهم جزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني في الضفة.

٤ . عن القرارات الصادرة من مجلس الأمن وخاصة القرارين رقم ٢٤٢ ورقم ٢٦٧ يجب أن تطبق بشأن القدس وتعتبر كافة الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع المدينة لاغية وغير قائمة ويجب إبطال آثارها.

٥ . يجب أن تتوافر لجميع الشعوب حرية الوصول إلى القدس وممارسة الشعائر

الدينية وحق زيارة الأماكن المقدسة بدون أي تمييز أو تفرقة.

٦ ـ يجوز وضع الأماكن المقدسة لكل دين من الأديان الثلاثة تحت إدارة وإشراف ممثلي هذا الدين.

٧ ـ ينبغي ألا تقسم الوظائف الضرورية في المدينة، ويمكن إقامة مجلس بلدي مشترك يتكون من عدد متساو من كل من العرب والإسرائيليين للإشراف على تنفيذ هذه الوظائف وبهذه الطريقة فإنه لن يتم تقسيم المدينة.

وثيقة رقم (٢٦)

رسالة إلى الرئيس السادات من الرئيس كارتر:

لقد تسلمت رسالتكم المؤرخة في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ والتي توضح الموقف المصري بشأن القدس. وقد أرسلت نسخة من الرسالة إلى رئيس الوزراء مناحم بيغين لإحاطته علماً بها.

إن موقف الولايات المتحدة الأمريكية بشأن القدس يظل هو نفس الموقف الذي أعلنه السفير جولد بيرج أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٤ يوليو عام ١٩٦٧ وهو ما أكده من بعده السفير يوست أمام مجلس الأمن في أول يوليو ١٩٦٩.

وثيقة رقم (٢٧)

رسالة إلى الرئيس كارتر من رئيس الوزراء بيغين:

يشرفني أن أبلغكم يا سيادة الرئيس بأن البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) أصدر قانوناً في ٢٨ يونيو ١٩٦٧ يقضي بأن يكون في سلطة الحكومة عن طريق مرسوم تصدره إخضاع أي جزء من أرض إسرائيل الكبرى للقانون والقضاء والسلطة الإدارية للدولة على النحو المبين في المرسوم.

وقد قامت حكومة إسرائيل على أساس هذا القانون بإصدار مرسوم في يونيو ١٩٦٧ ينص على أن القدس مدينة واحدة غير قابلة للتقسيم وأنها عاصمة لدولة إسرائيل.

الهوامش

١- من كتاب يقظة العرب، جورج أنطونيوس.

٢- قرار رقم ٣٣ الدورة ٢، بتاريخ ١٠ آذار (مارس) ١٩٤٨.

٣- عن كتاب كارثة فلسطين، عبد الله التل.

٤- قرار رقم ١١٤ (الدورة الاستثنائية ٢) تاريخ ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩.

٥- عن كتاب قضية فلسطين في محيط العلاقات الدولية للدكتور عز الدين فودة.

٦- عن كتاب ((قضية فلسطين في محيط العلاقات الدولية)) للدكتور عز الدين فودة.

٧- عن كتاب ((قضية فلسطين في محيط العلاقات الدولية)) للدكتور عز الدين فودة.

٨- قرار رقم ٢٢٥٤ (الدورة الاستثنائية الطارئة. ٥) تاريخ ١٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧.

٩- عن كتاب ((قضية القدس في محيط العلاقات الدولية)) للدكتور عز الدين فودة.

١٠-القرار ٢٢٥٣. الدورة الطارئة الخامسة.

١١-القرار ٢٢٥٤. الدورة الطارئة الخامسة.

١٢-قرار رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) تاريخ ٢١ أيار (مايو) ١٩٦٨.

١٣-قرار رقم ٢٥٠ (١٩٦٨) تاريخ ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٦٨.

١٤-القرار رقم ٢٥٢ تاريخ ١٩٧٨.

١٥-قرار رقم ٢٦٧ (١٩٦٩) تاريخ ٣ تموز ١٩٦٩.

١٦-جريدة الأهرام تاريخ ١٩٦٩/٧/٥.

١٧-قرار رقم ٢٧١ (١٩٦٩٩ تاريخ ١٥ أيلول ١٩٦٩.

١٨-قرار رقم.٨٣ EX/ ٤.٣.١.١ - ١٩٧٠.

١٩-قرار رقم ٢٠/م/٦/٧ تاريخ ١٩٧٨/١١/٢٨.

٢٠-قرار رقم ٢٩٨ (١٩٧١) تاريخ ٢٥ أيلول ١٩٧١.

تاريخ القدس المسيحية قبل الإسلام

موسى ديب الخوري *

مقدمة تاريخية

كانت سورية قد خضعت منذ عام ٤٩ ق.م لاضطرابات وآثار الحرب الأهلية الرومانية الكبرى. ومع ذلك استطاع هيروذوس تحقيق فترة ازدهار خلال حكمه، وذلك بسبب ولائه لروما، وتثبيته لشريعة المملكة وتقوية جيشها. كما أسس مدناً جديدة مثل قيصرية وحصوناً مثل مسعدة. وفي أورشليم أنشأ قلعة أنطونيا إلى جانب الهيكل للمراقبة وحماية الثياب المقدسة التي لا يستطيع رئيس الكهنة عمل شيء دونها.

* باحث وكاتب ومترجم سوري

كذلك حاول هيروذوس الهليني التطلع إثارة الحمية الوطنية والدينية عند اليهود، هذا على الرغم من المظاهر الهلينية التي اتسم بها مثل سك نقود لا تحمل سوى أساطير يونانية وبناء هيبودروم ومسرح في أورشليم لا بل وتشجيع العبادة الإمبراطورية، في بعض مدنه. لكن مسعاه لم ينجح، وفي السنوات الأخيرة من حكمه اضطرمت الصراعات في عائلته وظهرت المعارضة الفريسية بقوة مجدداً. لكن هذه الثورة لم تبلغ مداها على المستوى الشعبي، ويبدو أن العامة أدركوا أهمية الانفتاح وضرورة وجود مثل هذا العاهل المنفتح. والحق إن القوة الدينية التي كانت تحرض اليهود على التمسك بإرث غير قابل للتغير كانت قد ضعفت كثيراً، وخاصة مع تفاقم صراع الأحزاب على السلطة.

عند موت هيروذوس عام ٤ ق.م. تقاسم ورثته مملكته. لكن أرخيلاوس الذي كان يفضله هيروذوس كان لا يزال فتياً ولا يستطيع مقاومة الانقلابات التي كانت تثار ضده. ولهذا لجأ إلى أخيه هيروذوس أنتيباس سيد الجليل، بمواجهة الذين كانوا يفضلون إدارة رومانية مباشرة وبمواجهة المدن ذات النظام اليوناني. وإذا كان أوغسطس قد أكد الميثاق مع هيروذوس، لكنه لم يترك لأرخيلاوس سوى لقب ملك. وترافقت هذه الأزمة مع ازدياد الاضطراب الذي تطلب التدخل المباشر للرومان، وتم تشجيع المتشددين. وهكذا رُفعت شكوى ضد أرخيلاوس إلى روما كونه لم يستطع إعادة السلام، فخلع عام ٦ ميلادية.

كانت اليهودية والسامرة خاضعتين في ذلك الحين لسلطة المفوض الإمبراطوري في سورية الذي كان يمثله وال أو حاكم يقيم في قيصرية. ومنذ ذلك الوقت لم يعد في أورشليم سلطة وطنية قادرة على موازنة السلطة الأجنبية. وباتت رئاسة الكهنوت بيد ممثلي روما. ومع ذلك، عمل هؤلاء بحذر، فلم يفرضوا العبادة الإمبراطورية على أورشليم. غير أن الولاة الرومان الذين كانوا يتعاقبون بسرعة في البداية لم يفكروا بغير الثراء. وقوى ذلك حركة معارضة وجدت في الموضوع التوراتي لملكوت الله التعديل الفكري والإيديولوجي للحقد على القيصر. وبرزت في تلك الفترة الحركة الزيلية. ويلخص يوسيفوس فلسفة يهوذا الناصري رئيس هذه الحركة ب: «التوق إلى الحرية مع الاعتقاد بأن الله هو الإله الوحيد» (الآثار اليهودية٢٣، ٦، I, XVIII).

ونلاحظ مع حلول حكم تيبيروس في

روما تحسناً ملحوظاً للإدارة الرومانية ممثلة بشخص بيلاطس البنطي الذي أقام عشر سنوات في قيصرية وجمع بين الفعالية والشدة. وسمح الهدوء الذي حققه لفيتيليوس حاكم سورية، الذي استقبل بحرارة في أورشليم خلال عيد الفصح عام ٣٧ ب.م، بتخفيض الرسوم قليلاً والسماح للكاهن الأكبر بامتلاك الثياب المقدسة الضرورية لوظيفته. وعندما حدث انقلاب كاليغولا، ثم كلوديوس عام ٤٠ ب.م، انتهز أغريبا حفيد هيرودوس الفرصة لإعادة بناء المملكة لفترة وجيزة. وعرف أكثر منه كيف يؤجج الوطنية الشعبية بتشجيعه كما هو متوقع للديانة القومية وباستمالة الفريسيين.

وعادت الاضطرابات بعد موت أغريبا عام ٤٤ ب.م، ورأى الرومان إشارات عصيان في بعض أعمال العنف فقرروا التدخل العسكري. وبعد هزيمة تعرضت لها الفرق التي أرسلها حاكم سورية، اعتقدت أورشليم أنها حققت استقلالها بقيادة كاهنها الأكبر وقائدها العسكري. لكن لعبة الأحزاب مزقتها. وقرر نيرون إرسال فسباسيانوس الذي استطاع تحقيق نجاح أولي أدى إلى هيجان الزيليين. وفي تلك الفترة انضم عدد من اليهود المنفتحين، الذين كانوا يرون في الإمبراطورية الرومانية ملجأ حقيقياً لإبقاء الوحدة السياسية والدينية لليهود، إلى الرومان، وكان أشهرهم فلافيوس يوسيفوس. وفي عام ٦٩ ب.م ترك فسباسيانوس القيادة لابنه تيتوس، الذي أصاب أورشليم بالضربة القاضية عام ٧٠ ب.م. وانتهى ما عرف بالحرب اليهودية عام ٧٤ ب.م بسقوط مسعدة.

نرى مع هذا العرض التاريخي المختصر جداً إلى الإطار السياسي والديني الذي ظهرت فيه عدة دعوات تحاول الخروج عن الإطار اليهودي التقليدي، ومنها الحركة الزيلية، والأسينية، والمعمدانية، وكذلك المسيحية. إن الصراعات التي حكمت المنطقة كانت تهيىء أرضاً خصبة لانتشار الدعوات إلى سلام روحي عميق لا تهزه الاضطرابات.

لقد عملت جماعات وفدت إلى المنطقة، مثل جماعات كثيرة كانت موجودة فيها، لاعتماد الثقافة الحضرية المتقدمة للأهالي المحليين، فأخذت عنهم مهارات الكتابة والحساب والزراعة والبناء والتجارة لا بل والفكر الديني العميق. لكن اليهود، الذين استمدوا من روحانية المنطقة بعداً كان جديراً برفعهم إلى معان وقيم إنسانية نبيلة،

لم يستطيعوا تصور الارتقاء فيه وبه دون إمكانية بناء دولة أرضية. وهكذا وقعوا في مطب عقدة الهوية التي لا ترجع فقط إلى عدم قدرتهم على بناء الكيان السياسي، بل في الجوهر إلى عجزهم عن تمثل المعنى العميق للإرث الحضاري الذي حملوه، والذي يتجاوز القوة السياسية أو الزمنية. ولهذا قال لهم المسيح، «أخذتم مفاتيح الحكمة، ولم تدخلوا، ولم تدعوا غيركم يدخل»!

وإذا أردنا أن نوجز الوضع الإداري في القدس وفلسطين عموماً في بداية العهد المسيحي، فقد كانت فلسطين إقليماً تابعاً للرومان (منذ عام ٦٣ قبل الميلاد)، وأصبحت مقاطعة رومانية قنصلية بعد عام ٧٠ للميلاد. ونحو عام ٣٥٨ حصل أول تقسيم لها: فأصبح القسم الجنوبي منها (النقب وشبه جزيرة سيناء) ولاية، وكانت عاصمتها إلوسا، ثم البتراء. ونحو عام ٤٠٠ قسمت المقاطعة الشمالية، فشكلت اليهودية والسامرة والمناطق الساحلية المقاطعة الفلسطينية الأولى (وكانت عاصمتها قيصرية)؛ وشكلت الجليل والجولان وقسم من تجمع المدن العشر فلسطين الثانية (وعاصمتها سكيثوبوليس)؛ أما فلسطين الجنوبية فأصبحت فلسطين الثالثة (وعاصمتها البتراء). ودام هذا الوضع حتى عام ٦٣٨. وفي عام ٦١٤ هز الاجتياح الفارسي عدة مدن فلسطينية ومنها القدس وقيصرية وليدا وغيرها. وبعد عام ٦٣٨ انتهى الحكم البيزنطي مع وصول العرب إلى المنطقة.

يسوع وبدايات المسيحية في القدس

كان اسم يسوع اسماً شائعاً في اليهودية القديمة، وهو اسم مشتق من لفظة عبرية تعني «الله يخلّص». ومن المدهش أن لفظة مسيح اليونانية، «كريستوس»، مشتقة من لفظة تعني «الممسوح»، وهي تشير إلى مسح ملكي، أو إلى مسيح متعلق بالنبوة، وهي تحمل المعنى نفسه لكلمة مسيح المشتقة من جذر عبري يعني «المسح». ونذكر من بين المصادر القديمة بعض المراجع التي ذكرت يسوع وكانت لكتاب غير مسيحيين، مثل تاكيتوس في Annales (III، ١٥، ٤٤) والمؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس في الآثار اليهودية (XVIII، ٣، ٣: XX، ٩).

تعد رسائل القديس بولس التي تعود إلى العام ٥٠ للميلاد من أقدم الوثائق التي تشير إلى موت وقيامة المسيح، إضافة إلى الأناجيل الأربعة التي تعترف بها الكنيسة، وهي تسرد أقوال وأفعال يسوع وتروي

معجزاتــه، بدءاً من الناصرة وحتى القدس. وكانت هــذه الأناجيل قد كتبــت باليونانية بعد استشهاد بطرس وبولس في عهد نيرون. وتعــود أقــدم مخطوطــات الأناجيل، حيث حفظت أجــزاء منها حتــى أيامنا هذه إلى أواخــر القرن الميلادي الأول، مشكلة أساساً تاريخياً صلباً، بحيــث تسمح لنا مع دراسة تاريخ الأدب المسيحي واليوناني. والروماني في المنطقة في ذلك الوقت، إضافة إلى عدد مــن الاكتشافات الآثارية الحديثة، بالتعرف على بعض ملامح شخصية يسوع التاريخية وفكــره وأعماله. غــير أن بعضــ المسائل المتعلقة بالترتيب الزمني لا تزال عالقة، وإن كانــت تعتبر غير ذات أهميــة كبرى بالنسبة لكتابة التاريخ القديم.

وفق متــى ولوقا، ولد يســوع قبل فترة وجيــزة من مــوت الملك هيرودوســ الأكبر، الذي مات في العام ٤ قبل الميلاد. وقد ولد في بيت لحــم، مدينــة داوود، في اليهودية، ثــم أقام في الناصــرة في الجليــل. ويشهد بولســ على نسبه إلى داوود (رومية، ١، ٣). وقام المسيح بالتبشير لسنتين ونصف تقريباً قبل صلبه على أيــدي الرومان الذي يمكن أن يــؤرخ حوال عــام ٣٠ للميــلاد، عشية يــوم سبت في إطار الفصــح اليهودي. وكان بيلاطس البنطي الحاكم الروماني لليهودية قد أصدر حكم إعدامه، وكتب سبب الإدانة على الصليــب: «ملك اليهود» (مرقس، ١٥، ٢٦). لقد جعــل هذا الاتهــام الساخر من يســوع خصماً ومعارضاً لسلطة قيصر. لكن في الحقيقة فإن أسباباً دينية الطابع وتتعلق بشكل خاص بموقع يسوع اتجاه هيكل القدس هي التي لعبت دوراً أساسياً خلال الدسائس التي قامت بها السلطات الكهنوتية اليهودية التي سبقت الحكم الروماني. ذلك أن نقاطاً عديــدة كانــت تجعــل المسيح علــى طرف النقيضــ مــع سلطات الهيــكل. والحق إن يســوع الناصري كان علــى صلة مع جماعة يوحنــا المعمدان، ولا نعلــم إلى أي حد كان قريبــاً من الكتبــة ذوي التبعية الفريسية - حيث كان يؤكد مثلهم علــى العناية الإلهية وعلى قيامــة الموتى- لكنــه بالمقابل كثيراً مــا كان ينتقدهم، بل إن يســوع كان يبدي تحرراً غريباً تجــاه شريعة موسى والموروث اليهــودي القديم. وفي الحقيقة فإن تحريره للإنسان طــال جميع الملل التي كانت تنادي آنذاك بالتجدد الدينــي أو بالأصولية على حــد سواء. وكثــيراً ما جــرى الحديث عن مقاربة حياته من حيــاة الأسينيين، ونسبت الفترة التي لا نعــرف الكثير عن حياته إلى

عزلة أمضاها في جوارهم. لكن في الحقيقة لا نستطيع عند التمعن في التعاليم التي خصصها للتلاميذ وفي مواعظه إلا أن نميز قدرته على الانعتاق من نير الميراث الفكري الضيق إلى قوة روحية حقيقية. وكان الذين يعاشرونه ويظلون قريبين منه يدهشون بل ويصدمون من قوة شخصيته ومن تصرفاته تجاه المنبوذين. ولعله لم يلجأ كثيراً إلى لقب المسيح في خطبه وأحاديثه، وكان هذا اللقب غامضاً جداً في ذلك الوقت، لكن صلته بالذي كان يشير إليه على أنه أباه الذي في السماء كان يدهش حتى تلاميذه المقربين. وفي صبيحة يوم الفصح تعرف عليه تلاميذه حياً بينهم واعترفوا به وآمنوا أنه ابن لله والههم.

بعد هذا الحدث، حدث ظهور المسيح لتلاميذه بعد قيامته هو المنعطف الذي تشكلت على إثره حركة صغيرة من المؤمنين الذين بدأوا يجاهرون في الأوساط اليهودية والرومانية آنذاك، وإن بصورة مبسطة وغير علنية تماماً، بإيمانهم بإله يختلف عن كل ما عرف حتى ذلك الحين في المشرق بل وفي العالم. إله جاء ليخلص الإنسان ويعيد صلته بالله. الآب. لكن هذا الموقف الفلسفي في المسيحية الناشئة لم يكن بمثل هذا الوضوح،

وكانت أورشليم في ذلك الحين مرتعاً، كما كان الشرق نفسه، لتيارات تأملية وعرفانية كثيرة، وكانت الملل والجماعات الدينية كثيرة في نواحي فلسطين وبلاد الشام عموماً. وكانت الصراعات القائمة مع قوى كبرى في الشرق لا تمنع بل على العكس تشكل أحد أسباب تسرب وترسخ بعض المعتقدات ذات الأصول البعيدة القادمة من بلاد ما بين النهرين أو من فارس وحتى من الهند. وفي ظل انتشار دعوات كانت قد بدأت تختبر تأملات روحية كبرى، فإن الوثنية التي كانت سائدة في بلاد الشام لم تكن بالوثنية الساذجة، ناهيك عن التأثيرات التي نلمسها بوضوح فيها من فلسفات المنطقة نفسها أو القادمة من اليونان ومصر أو من فارس. لقد جاء يسوع وسط هذا المخاض للمنطقة ليقول كلمته. وقد رسخت هذه الكلمة في نفوس أبناء المنطقة، وسرعان ما قبلت على خلفية المعتقدات التي كان الكثير منها يرجع في رمزيته وسرانيته إلى قرون بل وآلاف السنين. ولا شك أن التحول الكبير الذي أدى إلى انتشار المسيحية كان اعتمادها كدين رسمي للدولة الرومانية. لكن ذلك تم لا شك على خلفيات سياسية واستراتيجية للحفاظ على قوة الإمبراطورية.

الكنيسة المقدسية

يمكن القول إذاً إن أولى بوادر تشكل الجماعة المسيحية في القدس تعود إلى نحو العام ٣٠، عندما اجتمعت فيما عرف بالمنصرة جماعة من اليهود الذين كانوا يتشاركون إيمانهم بيسوع المسيح المنتصر على الموت والمنبعث بعد بقائه في القبر لثلاثة أيام. تشكلت هذه الجماعة حول التلاميذ الاثني عشر الذين كانوا قد تبعوا يسوع وعرفوه عن قرب خلال عدة سنوات. وكانت جماعة القدس مكونة بمعظمها على ما يبدو من دارسي العبرية، وكان يهود فلسطين يستخدمون الآرامية بسهولة إذ كانت لغة التواصل في كامل الشرق الأدنى، غير أن قسماً كبيراً منهم كانوا قادرين على فهم اليونانية أيضاً. وكان ذلك مدخلاً أساسياً للتلاقح الفكري مع التراث اليوناني خلال الفترة اللاحقة.

وعلى الرغم من الانفتاح الذي أثبتته الكنيسة فقد ظهرت الانشقاقات بسرعة في مجتمعات القدس، حيث كانت الأقلية الهلينية تقدر أن حق أرامل مجموعتهم كان مغبوناً في توزيع الأرزاق المشتركة. وعندها قرر الرسل الاثنا عشر تعيين نواب، يعادلون الحزانيم في الكنيس، وذلك لمساعدتهم في مهامهم على المستوى الدنيوي. لكن ما حصل أن هؤلاء النواب كانوا من المتهلنين اليهود الذين فسروا على طريقتهم الوصايا الموسوية. ولهذا رفعت شكوى ضدهم حول هذه النقطة إلى المحكمة العليا. وأثارت خطبة النائب اسطفانوس غضب المجلس حتى إنه لم يتمكن من إصدار الحكم، إذ اقتادت الجموع النائب اسطفانوس ورجمته خارج الأسوار. وفي هذه المرة لم يكن غملائيل قد تدخل، وكان تلميذه شاول، العلامة الشاب في الشريعة، والمعتز والمعضد بثقة المحكمة العليا، يحرس ثياب الجلادين أثناء تنفيذ الحكم بالموت.

كان ذلك بداية أول اضطهاد للمسيحيين المتهلنين. وقد تفرقوا في اليهودية والسامرة حيث وجدوا ملاذاً لهم في الكنائس. وكان ذلك حال بطرس وفيليبوس اللذين قاما باتصالات في السامرة مع اليهود المتهلنين، ومع أعضاء من الملل المعمدانية، ومع أشخاص حتى في غاية الغرابة مثل الساحر سمعان، الذي رأت فيه الأجيال التالية مؤسساً للغنوصية والذي طارده بطرس بحسب التقليد حتى روما.

على الرغم من إعدام اسطفانوس والتلميذ يعقوب (أعمال ٨٠، ١؛ ١٢، ١-

١٩). لكــن هذه الجماعــة استمرت وكبرت وكانــت تتألــف من اليهــود فقــط الذين استمــروا في ممارســة طقوسهــم اليهودية وعاداتهــم القديمة، وترأسهــا بعد عام ٤٤ (وحتى موته في عــام ٦٢) يعقوب المعروف بأخــي يســوع المسيح. في عــام ٤٩ حصل اجتماع بين التلاميذ والقدماء من الجماعة حــول مسألــة حساسة لم يكــن أحد يعرف الأبعاد التي يمكن أن تصل إليها، وهي تتعلق بالفروض والشروط التــي يجب أن تفرض على الوثنيــين المهتدين: وهذا الاجتماع هو الذي سمي بمجمع القدس (أعمال الرسل، ١٥، ٢ – ١٢). بــين عامي ٦٠ و٧٠ وخلال الاضطرابات اليهوديــة الأولى التي عرفت بالثورة اليهودية، تركت هذه الجماعة مدينة القدس إلى بيلا (لكن هذه الهجرة التي ذكرها عوسيــب لا يقبل بها جميع المؤرخين). ومن المرجح أن العديد من أفراد الجماعة عادوا إلى القدس بعد عام ٧٠. وكانت الجماعة لا تزال تبدو في غالبيتها من أصل يهودي، هذا على الأقل إذا اعتمدنا على أسماء الأساقفة الذين نقلهم لنــا عوسيب (التاريخ الكنسي، IV، ٥). وبعــد الثورة اليهودية الثانية، أقام هادريانوســ في موقع القدس مدينة جديدة أسماها آيليا كابيتولينا (عام ١٣٥)، ولم يعد باستطاعة اليهود البقــاء في المدينة. ولهذا يبــدو أن الجماعة المسيحيــة أصبحت هي الغالبة وكانت قد أصبحت تتألف في غالبيتها من الوثنيــين المهتدين، كما يشهد على ذلك أيضاً أسماء الأساقفة فيها (المرجع السابق، V، ١٢).

في بداية القرن الرابع كانت مدينة القدس قد أصبحت مجرد مدينة صغيرة في مقاطعة فلسطــين الرومانيــة، طالمــا أن عاصمــة المقاطعة كانت في قيصرية، لكن مجمع نيقيا اعــترف لأسقف القدس بــ «شرف» خاص، علــى الرغم مــن أنه كان خاضعــاً لأسقف العاصمة. وأدى تطور بناء الأماكن المقدسة والعناية بها إضافة إلى سلسلة من الأساقفة المميزين لإبــراز قيمة المدينــة دينياً. وكان مكاريوســ (٣١٤ . ٣٣٣) الموجــود في نيقيا قد اكتســب فيها ثقة قسطنطين الذي كلفه بالعمل علــى إبراز قيمــة الأماكن المقدسة والعنايــة والاهتمام بها. وتــلاه مكسيموس (٣٣٣ . ٣٤٨)، وكان أحد المجاهرين القدماء بالعقيدة خلال اضطهاد ديوقلسيان. وأثناء الأزمــة الأريوسيــة أصبح أحــد مناصري أثناسوس، بعــد أن كان قد وقع على إدانته في مجمع صور في عام ٣٣٥. وعرف كيريلوس (٣٤٨ . ٣٨٦) بتعاليمــه الدينية؛ وكان أحد

المشاركين أيضاً في أكثر من مرة بالأزمة الأريسوسية (ونفي ثلاث مرات). أما يوحنا (٣٨٦ . ٤١٧)، وهو بلا شك صاحب ومؤلف تعاليم الأسرار، فهو أحد أوائل ممثلي الأزمة الأوريجنيسية الأولى: فقد عارض إبيفانوس وجيروم، وكذلك فقد أسهم في الجدل حول بلاجيوس، ومنحه الغفران من تهمة الهرطقة في أحد الاجتماعات في القدس ثم في مجمع ديوسبوليس عام ٤١٥. وقد اتهمه جيروم بأنه يطالب أو يدعي لكرسيه أو لمنصبه في القدس لقب «الكرسي الرسولي». ومع ذلك فباسم هذا المبدأ إنما حصل الخلف الثاني ليوحنا، وهو جوفينال (٤٢٢ . ٤٥٨) من مجمع خلقيدونية (٤٥١) على أن يصبح لكرسيه سلطة على مقاطعات فلسطين الثلاث، مما شكل بالتالي البطريركية الكبرى الرابعة في الشرق.

غير أن هذا المجمع بالذات أثار اضطرابات في كنيسة القدس. فقد كان جوفينال في البداية أحد مؤيدي ديوسقورس الاسكندراني، وأدى قبوله بالصيغة الخلقيدونية إلى معارضة الكثير من المؤمنين والأتباع، والرهبان بشكل خاص. فلم يستطع جوفينال العودة إلى فلسطين، وانتخب الراهب ثيودوسوس ليخلفه، وكان لا بد من دعم الجيش لكي يمكن وضعه على الكرسي الأسقفي للقدس. غير أن التحالف بين مختلف فرقاء المقدس لم يكن أمراً سهلاً، بل على العكس تماماً، فلم يكن من الممكن القبول بهذا الفرض الأسقفي المدعوم من الجيش. وظلت معظم الأديرة في القدس وفي محيطها معارضة. وهكذا فقد ظل أساقفة القدس (أناستازيوس ومرتيريوس وسلوستيوس) على موقف واحد حتى نهاية القرن الخامس الميلادي، وهو القبول بالخلقيذونية في حدها الأدنى، وظلوا متسامحين تجاه القائلين بالطبيعة الواحدة. وفي عام ٤٨٧ وقع مرتيريوس على مبدأ الواحدية، كما فعل من بعده سلوستيوس وإيليا (٥١٦). ولم يمنع ذلك من عزل هذا الأخير لأنه رفض الاعتراف بسفيروس الأنطاكي. لكن خلفه يوحنا (٥١٦ . ٥٢٤) عاد إلى الخلقيذونية حيث أصبحت الكنيسة المقدسية منذ ذلك الحين فصاعداً أحد أهم وأصلب داعميها في الشرق: فكانت كنيسة القدس إحدى أوائل الكنائس التي أيدت الإصلاحات الخلقيذونية ليوستينوس (٥١٨) خلال المجمعين اللذين عقدا في آب وأيلول. وقد رفض البطريرك بطرس في عام ٥٤٣ التوقيع على «الفصول الثلاثة» لأنه رأى

أنهـا مخالفة للخلقيدونيـة. وعند موته في عام ٥٥٢ انتخب الأوريجنيون في فلسطين واحداً منهـم لخلافته، وهو مكاريوس، لكن جوستينيانوس أبدله بإفتوخيوس الذي كان قد شـارك في إدانة القائلـين بالأوريجينية في عـام ٥٢٣، والذي رأى بالتالي أنه مكلف بتطبيق هذه الإدانة على أتباع أوريجينس في فلسطين.

إن هـذا التاريخ المتسـارع من التقلبات المذهبية في القدسـ يعكس في الواقع حال المشـرق كلـه في القرون القليلـة الأولى من العهـد المسيحي. ولا بـد أن هذه الأحداث بالـذات التي كانت تتـم في جنوبي المشرق تحديداً وخاصة في القدس وبعض العواصم المسيحيـة الكبيرة جنوبي سورية مثل دمشق وبصرى، كانت تتصـل بالتطورات اللاحقة لتاريخ المنطقة الديني.

ولا بـد لنـا أن نذكـر هنـا أن أحداثاً سياسيـة كبرى كانـت وراء تغيرات كبرى في تاريـخ الكنيسة المشرقـي. ولا بد أيضاً من القـول إن بعض القـرارات الكـبرى التي اتخذت لتحويل الإمبراطورية الرومانية إلى دولة مسيحيـة كانت تأخذ بعـين الاعتبار الانتشار السريع والواسـع للعبادة الميثرائية في كافـة أنحاء الامبراطوريـة وفي الجيش الروماني نفسـه. فكان اعتمـاد ديانة مثل المسيحية رداً علـى التغلغل القادم من فكر فلسفي فارسي. وعلى هذا الإثر كانت رحلة (القديسـة) هيلانة إلى القدسـ واكتشاف الصليب وقبر المسيح، ومن ثم بناء الكنائس والأديرة، وتكريس الأعياد والطقوس، ووفود الحجاج إلى القدس كمحطة روحية في قلب الشـرق، وفيهـا الموروث المشرقـي كله، من ملل وأفكار وأديـان، بل ومن طقوس ورموز وشعائر كانت تمارس في الكثير من العبادات الوثنيـة المحليـة والوافـدة. ويعطينا هذا السرد المختصر إضافة إلى ذلك فكرة تحتاج إلى التوسع دون شك حول التأثيرات المتبادلة التي كان يمكن أن تتم بين المسيحية الناشئة وتراث المنطقة الفلسفي والديني. ومن جهة أخـرى، فإننا ندرك حجـم الافتراق الذي حصل بين المسيحيـة واليهودية، في القدس نفسهـا، وفي بدايـات الكنيسـة المسيحية، عندما نلاحـظ القدرة المسيحية على قبول الخبرات الروحية والتأملية في تراث المنطقة مقابل ضعف اليهودية المتقوقعة على ذاتها.

الكنائس والأديرة في القدس

أما فيما يتعلـق بالأعمال الأساسية من بنـاء وعمارة للمواقـع الدينية المسيحية في القدس، فقد بدأ ذلك منذ عهد قسطنطين،

وسرعان ما أصبحت القدس هي المدينة المقدسة بامتياز، ومركز الحج الأهم في العالم المسيحي كله. وبعد اكتشاف أجزاء من الصليب قرب الجلجثة وقبر المسيح (عام ٣٢٥)، خلال رحلة قامت بها الأوغسطه هيلانة، بنيت بفضل سخاء قسطنطين بازيليكة الشهادة (حيث تم وضع الصليب المكتشف، في جوار الجلجثة) وكذلك الكنيسة المقببة فوق قبر المسيح، وكذلك بازيليكة إيليونا على جبل الزيتون (فوق المغارة التي كان يجتمع فيها المسيح مع تلاميذه ويعلمهم ويحاورهم). وخلال القرن الرابع، شيدت أيضاً بمبادرة من أساقفة القدس وعدد من الأغنياء المتبرعين كنائس على جبل صهيون (في موقع تجلي المسيح بعد القيامة وموقع نزول الروح القدس، والذي اعتبر أيضاً فيما بعد موقع العشاء الأخير)، وفي جثسيماني (في موقع الآلام)، وعلى قمة جبل الزيتون (في موقع صعود المسيح إلى السماء بعد القيامة). وفي القرن الخامس الميلادي بنيت كنائس كثيرة في أنحاء متفرقة من القدس على مواقع نسبت إلى مشاهد من حياة من المسيح، ومنها قصر قيافا الذي أصبح كنيسة القديس بطرس، ومقر ومحكمة بيلاطس (كنيسة القديسة صوفيا)، وقبر العذراء مريم، وبركة سلوة، وبركة الغنم، وقبر لعازر في بيت عنيا ومواقع أخرى أقل أهمية. وبنت الأوغسطا أفدوكيا كنيسة أخرى ضمت رفاة القديس اسطفانوسوس المكتشفة في عام ٤١٥. وفي القرن السادس، بنى جوستينيانوس كنيسة القديسة مريم البتول الجديدة حيث وضع فيها بعضاً من ذخر العذراء مريم. وفي جوار هذه الكنائس بنيت أيضاً مضافات وخانات مخصصة للحجاج. وتضاعف كذلك في المدينة المقدسة عدد الأديرة، وخاصة على جبل الزيتون. ومنها دير ميلانيا الكبرى عام ٣٧٢ ودير ميلانيا الصغرى عام ٤١٧. وفي عام ٤٥٨ وسعت الامبراطورة إفدوكيا التي كانت تقيم في القدس سور المدينة وفق المسار الأوسع له بحيث ضمت جبل صهيون داخل السور. وكان عدد المسيحيين قد أصبح هو الأكثرية في القدس، وكان اليهود ممنوعين من الدخول إليها، إلا في ذكرى دمار الهيكل، وخلال العهد القصير الذي حكم فيه جوليانوس (٣٦١ - ٣٦٣)، حيث جرت محاولة لإعادة بناء الهيكل إنما باءت بالفشل. وكان عدد الحجاج الوافدين من كل أنحاء العالم القديم كبيراً جداً. وعبر هؤلاء الحجاج أثرت الطقوس المقدسية بكنائس

كثيرة في أرجاء العالم. ومن آثار ذلك ما نشهده حتى اليوم في الرابع عشر من أيلول في عيد الصليب، وهو ذكرى تكريس كنيسة الشهادة أو الصليب في القدس، حيث أصبح مناسبة لاحتفال دولي في كنائس ومواقع كثيرة في أنحاء العالم كله.

في عام ٦١٤ استولى الفرس على المدينة بعد حصار طويل، وقتل عدد كبير من سكانها، ونهبت معظم معابدها وأحرقت. ودام احتلال الفرس لها حتى عام ٦٢٩، وفي السنة التالية أعاد هرقل المنتصر على الفرس ذخر الصليب الذي كان هؤلاء قد أخذوه معهم إلى سلوقيا طيسفون. وقام البطريرك مودستوس بترميم جزئي لعدد من الكنائس. ولكن لم يمض وقت كثير حتى كان العرب قد وصلوا لمحاصرة المدينة، وبعد حصار دام سبعة أشهر رضخت المدينة للخليفة عمر بن الخطاب وفق شروط متسامحة، فأعطيت الحرية المدنية والدينية مقابل جزية سنوية. وهكذا كان على كل سكان القدس من غير المسلمين دفع ضريبة مزدوجة (الضريبة الشخصية إضافة إلى الجزية).

الرهبنة في القدس

مما لا شك فيه أن المسيحية التي نشأت في فلسطين انتشرت فيها أولاً. وانطلقت من القدس نفسها حيث كان تبشير يسوع قد انتهى. والحقيقة أن كنيسة القدس نشأت منذ ذلك الحين واستمرت حتى اليوم دون انقطاع. وكان أعضاء هذه الكنيسة في البداية من اليهود، ثم تحولت شيئاً فشيئاً إلى كنيسة لغتها اليونانية والغالبية من أبنائها من الوثنية المهتدين، مع استمرار وجود جماعات من أصول يهودية - نصرانية. وفي ظل تطور هذه الكنيسة وتأثرها بما كان يحصل في كنائس المشرق، تطورت رهبنة واسعة وهامة في فلسطين وفي القدس منذ القرن الرابع الميلادي، وساهم في انتشارها وتطورها وجود الأماكن المقدسة في القدس إضافة إلى الأديرة والكنائس الكثيرة التي بنيت. وكان كثير من الحجاج الوافدين إلى القدس يتخلون عن حياتهم المدنية ليلتزموا بحياة الرهبنة في جوار الأماكن المقدسة. وساهم ذلك بالمقابل في توسع وتطور الأديرة التي كانت قائمة في القدس وبيت لحم وفي مواقع أخرى ذات صفة مقدسة، حيث كان الرهبان يؤمنون الخدمة الكهنوتية وإقامة القداس واستقبال الحجاج. غير أن رهباناً آخرين اختاروا الابتعاد عن مواقع

الحجيج، إنما في أماكن غير بعيدة عن المدينة المقدسة. وكان أحد أوائل الرهبان المعروفين في فلسطين والقدس هو شريتون، القادم من آسيا الصغرى، والذي استقر في فاران عام ٣٣٠ على بعد نحو ٢٠ كلم شمال شرق القدس، حيث جذب الأتباع والتلاميذ له. وسرعان ما أسس ثلاثة أديرة على نمط المعتزلات في منطقته، وكان الرهبان يأتون ليعيشوا فيها في خلايا معزولة طيلة أسبوع، ثم يجتمعون في نهاية الأسبوع في الأبنية المخصصة لهم والمتمركزة حول كنيسة. ونحو عام ٤١١، أسس إفتيموس في هذه البادية نفسها ديراً جديداً حيث كانت تتم فيه طقوس الحياة المشتركة. وكان ارتباط هذين النمطين من الحياة الرهبانية والمنشآت الدينية سمة أصبحت أصيلة في الرهبنة الفلسطينية في الصحراء، حيث كرس تلميذ وخلف إفتيموس نمط الحياة المتقشف والناسك للرهبنة. وفي هذا النمط كان يعود لفترات إلى حياة المعتزلات بل وكان يستمر في عزلة ووحدة كاملة لوقت طويل. غير أن بعض أنماط الرهبنة الفلسطينية وخاصة في القدس استلهمت أيضاً شيئاً من حياة الرهبنة المصرية في ذلك الوقت، كما يبدو الأمر في حال هيلاريون أو عموماً بالنسبة لرهبان القدس في عام ٣٩٠ عندما زاروا مصر (تاريخ رهبان مصر).

خاتمة

يعد تاريخ القدس المسيحي، وخاصة خلال القرون الأولى للميلاد، تاريخاً شائكاً، ومليئاً بالفجوات، وكثير المنزلقات. والحقيقة أن الوقائع التاريخية القليلة تفرض على الباحثين التريث والحذر في طرح الاستنتاجات والتفسيرات حول الأحداث وأسبابها، ولهذا حاولنا أن نقدم في هذه الدراسة الموجزة لمحة عن التسلسل التاريخي للأحداث المسيحية في القدس قبل الإسلام. وتحتاج نقاط كثيرة لم نتطرق إليها أو أشرنا إليها سريعاً إلى دراسات معمقة من المنظور التاريخي. ومنها تاريخ الرهبنة، وتاريخ الانشقاقات الكنسية وخلفياتها، وتاريخ الطقوس والأعياد وتأثرها بالموروث المحلي، والعلاقات المسيحية اليهودية وتأثيرها على تطور الفكر الديني في المنطقة في القرون التالية.

المراجع:

- تيكسيدور خ.و كانيفيه ب، الحياة الدينية في سورية قبل الإسلام، ترجمة موسى ديب الخوري، سلسلة أبجدية المعرفة، ١٧، دار الأبجدية دمشق ١٩٩٦.
- أندريه دوبون سومر (تحت إشراف)، مخطوطات البحر الميت، الجزء الأول كتب الأسينيين، ترجمة موسى ديب الخوري، مقدمة المترجم، دار الطليعة الجديدة، دمشق ١٩٩٩.
- Abel F.-M.. Histoire de la Palestine depuis la conquête d'Alexandre jusqu'à l'invasion arabe. Paris. Gabalda. 1952.
- Ovadiah A. Corpus of the Byzantine Churches in the Holy Land. Bonn. 1970.
- Vincent H. Et Abel F.-M.. Jérusalem. Recherches d'archéologie et d'histoire. II. Jérusalem nouvelle. Paris. 19141926-.
- Leclant J. (sous la direction). Dictionnaire de l'Antiquité. Jérusaleme. puf. 2005.

ملاحظات
حول تاريخ القدس / أور-شليم

فايز مقدسي *

القدس أو أور- شليم كما هو اسمها الكنعاني القديم ويعني «حاضرة السلام» حيث أن الكلمة الأولى /أور/ سومرية - بابلية تعني مدينة. والثانية كنعانية وتعني السلام كما هو واضح. والإشارات التاريخية تشير إلى وجود هذه المدينة في الألف الثالث ق.م. فهي تكون بذلك واحدة من أقدم مدن الهلال الخصيب القديم. أما كون القدس أو أورشليم مدينة كنعانية الأصل فهذا من الأمور التي لا يرتقي إليها الشك. بدليل موقعها الجغرافي وبدليل

* باحث سوري مقيم في باريس.

أسماء المجموعات التي سكنتها منذ القدم وكلها مجموعات كنعانية مختلطة من أموريين ويبوسيين وحثيين وحوريين كما هو أمر أكثر الحواضر السورية القديمة التي كانت أشبه بحواضر عالمية /كوزموبوليت/. وأور شليم –القدس تشبه في ذلك/ أوغاريت كما كانت في الألف الثاني ق.م وإنطاكية/ عاصمة سورية الكبرى كما أضحت فيما بعد. حيث كانت تختلط الأقوام واللغات والثقافات ولكن يبقى العنصر المحلي مسيطراً عند عامة الشعب وأوضح صورة لذلك هي صورة المملكة السورية على عهد ملوك سورية الكبرى السلوقيين، ومن ثم على عهد الأمبرطورية الرومانية والبيزنطية ومن ثم الدولة الأموية التي كانت عاصمتها دمشق كما نعلم.

مدينة أورشليم التي لا نعرف الشيء الكثير عن تاريخها القديم لأسباب عديدة أهمها الاختلاط الذي حصل في تدوين تاريخ هذه المدينة التي تُعتبر مقدسة من وجهة نظر الديانات التي نسميها اليوم توحيدية: اليهودية والمسيحية والإسلام. والتي ليس هناك في الحقيقة ما يربطها مباشرة بهذه المدينة التي كانت موجودة وقائمة قبل وجود الديانات فلا اليهودية نشأت في القدس ولا المسيحية ولدت فيها ولا الإسلام ظهر على أرضها. بل إن هذه المدينة الحاضرة كانت، كما سوف نرى، مقدسة قبل كل الأديان التي ذكرناها، وحيث أن لقبها بمدينة مقدسة / قادش أو قدشو أو قاديشو/ قديم كما هو اسمها.

في الزمن الذي تقصه الروايات التوراتية /وسوف نفترض على صفحات هذا البحث أن كل ما هو مدون صحيح وتاريخي/ مع أن الحقيقة هي غير ذلك /هناك اسم يتردد كثيراً هو اسم /أرض كنعان/ وهي الأرض التي، ولأسباب مجهولة ودائماً حسب الرواية التوراتية المعروفة، وعد بها /يهوه إبراهيم. والحقيقة أن هذا الوعد الإلهي الشائع، والذي يعتبره الكثيرون، بمثابة حقيقة تاريخية، قد تم عقده مع إبراهيم حيث يتم منح أرض كنعان التي تفيض عسلاً ولبناً حسب الوصف التوراتي/ لإبراهيم ومن بعده لنسله. أما لماذا يمنح /يهوه/ هذه الأرض لشخص من بلاد ما بين النهرين / أور الكلدانيين/ (العراق اليوم) هو إبراهيم ولنسله من بعده فهذا أمر من الصعب الإجابة عليه. كما أنه من الصعب معرفة

الحكمة الإلهية من اختيار بلاد كنعان وليس غيرهـا وهي التي كانـت محاطة ببلاد كلها غنية و متحضرة.

ثم لماذا يستقـر إبراهيم في أرض كنعان التي وعد بها وبين سكانهـا الأصليين زمناً طويلاً كنازح لا يمتلك شيئاً حتى إنه يضطر إلى ابتيـاع مغارة لدفن زوجتـه بعد موتها وهو الموعود بكل هـذه الأرض. ولماذا يقوم إبراهيـم، وهو رجل تم اختيـاره على نحو إلهـي، بتقـديم فروض الطاعـة والتكريم والخضوع إلى ملك أورشليم الكنعاني الشهير /ملكي صادق/ الـذي يُوصف بأنه /كاهن الله العلي/ مما يـدل على المكانة الخاصة دينياً التي كانت للقدس آنذاك كما هو الأمر اليوم.

الأمر الثاني، وهـو بدوره معقد كما هو الأول، والوعد قد مُنح إلى من سيُطلق عليهم فيما بعد اسـم العبرانيـين أو اليهود، يتم، ومـرة ثانية، اختيار شخص آخر هو ضابط في الجيشـ المصـري على زمـن الفراعنة ارتكب جريمة قتـل أحد المصريين واضطر إلى الفـرار هـو /موسى/ ليقـود الشعب المختار إلى أرض كنعان. ثم فبأية لغة خاطب /يهوه/ موسى على الجبل وأعطاه الوصايا العشر، وبأية لغة خاطب موسى /يهوه/ وهو الـذي لا يعرف سوى اللغـة المصرية وتربى في القصـر الملكي الفرعـوني؟ خاصة وأن مـا سوف يسمـى باللغة العبريـة لن يوجد سوى بزمن طويل بعد ذلك. أي بعد اقتباس الداخلين الجدد إلى كنعـان اللغة الكنعانية كما تدل العبارة الواردة على المتن التوراتي في اعتراف صريح حول اقتباس العبرانيين للغة الكنعانية: «اقتبسـت شفة كنعان». ثم يجب على المرء أن يصدق أن البحر قد انشق ليتم العبور الذي سوف يعطـي اسمه للعبرانيين ثم ارتد على الجيشـ المصري ليغرقه. وأن يتم بعد ذلك اجتياز الصحراء باتجاه أرض كنعان ونحن نعلم اليوم ومن خلال الأبحاث العلمية الحديثة التي تعرضت للموضوع أن الطريق الذي يرسمه النص التوراتي للعبور وللدخـول إلى أرض كنعان لا يمكن أن يكون حقيقياً أو واقعيـاً، وأن كل الطرق المحتمل عبورهـا آنـذاك من قبل مجموعـة بشرية سـوف تؤدي إلى هلاك هـذه المجموعة في وقـت قليـل أو آن، وفي أحسن الاحتمالات، سوف لن يصل منها سوى قلة قليلة لا يسمح عددها بشـن حروب على الممالك الكنعانية القويـة والمتحضرة خاصـة أن هذه الممالك

كانت تتحالف فيما بينها كلما تعرضت لخطر خارجي أو لهجمات البدو الرحل.

ونحن نعلم مثلاً أن احتلال أورشليم من قبل اليهود (نذكر القارئ من جديد أننا انطلقنا من قاعدة أن كل ما ورد في الكتب الدينية والتاريخية هو صحيح وتاريخي وإن كان الأمر بنايفي الحقيقة) لم يتم إلا على أيام الملك داوود الذي جعل من المدينة عاصمة لملكته. أي بعد زمن طويل من دخول كنعان المفترض من قبل العبرانيين مما يدل على قوة ومنعة المدينة.

إذا تابعنا تاريخ المدينة نجد أن بناء المعبد أو الهيكل الذي ينسب إلى الملك سليمان، إن كان صحيحاً، لم يقم به العبرانيون أو اليهود، بل المهندس المعماري الكنعاني الشهير / حيرام/ من صور في لبنان. وللأمر دلالته ولنا عودة إليه.

في القرن السادس ق.م تم احتلال أورشليم وتدميرها من قبل الجيش البابلي وظلت لزمن طويل بمثابة أنقاض حيث تم إجلاء السكان اليهود إلى بابل كما هو معروف وذلك بعد الفتح الأشوري. ثم احتلتها جيوش الإسكندر المقدوني في أواخر القرن الرابع ق.م كما أنها خضعت للسيادة السورية على زمن الملك السوري السلوقي /انطوخيوس الرابع/ وبعد ذلك احتلها ودمرها القائد الروماني /تيتوس/ حيث خضعت المدينة للسيادة الرومانية ككل أنحاء الهلال الخصيب.

النصوص التوراتية تعطي للمدينة أهمية عظمى منذ اختارها الملك داوود كعاصمة لملكته ثم بناء الهيكل المنسوب كما سبق إلى الملك سليمان /انظر للتوسع سفر الملوك ١-٢/. غير أن المدينة لا تكتسب دورها الكبير في اليهودية حقاً وكعاصمة مقدسة وعلى نحو مركز إلا بعد السبي ويبدأ اسمها يذكر في قصائد المراثي التوراتية التي تقلد أسلوباً شعرياً كان شائعاً في الأدب البابلي القديم.

الأناجيل المسيحية أكدت بدورها على مكانة أورشليم واعتبرتها أرض المسيحية مع أن القليل من الأحداث الأساسية في المسيحية وفي حياة المسيح تمت في القدس. حتى صلب المسيح لم يتم في القدس وإنما خارج المدينة. والكنيسة الأولى تأسست في أنطاكية في سورية وليس في القدس. والرؤيا الشهيرة برؤيا القديس بولس التي غيرت مجرى المسيحية وأطلقتها إلى العالم إنما حدثت في دمشق وليس في أورشليم. كما

أن، وللأمر دلالة هامة، العبارة التي وردت على لسان /اشعيا/ «ها أن العذراء تحمل وتلد ابناً يكون اسمه عمانوئيل» والتي تم اعتبارها كنبوءة عن ولادة المسيح، نعثر عليها حرفياً في قصيدة «أعراس القمر» الكنعانية /أوغاريت/ وهي ترد على النحو التالي: «ها أن العذراء تحمل وتلد ابناً». وكلمة عذراء في النصين هي نفسها /غلمت/ مؤنث/ غلم أو غلام. يعني الصبية. والأمر الآخر المثير للانتباه في عبارة /اشعيا/ أنه يستخدم اسم /إل/ الكنعاني/ وليس أسم /يهوه/ في تسميته للمولود القادم /عمانوئيل/ الذي يعني «الله معنا» أو /إل/ معنا. وكان من المنطقي أن يقول «يهوه معنا» خاصة وأن العبارة موجهة للملك /أخاز/ ملك اليهودية في الجنوب الذي كان يستعد، وهو متخوف، لمعركة مع ملك دمشق الآرامي. أما اسم الإله الذي خاطب إبراهيم ونوح فلا ندري من هو لأن اسم /يهوه/ لا يظهر إلا على زمن موسى. أما الإله الذي صنع الإنسان والعالم حسب التوراة /انظر تكوين/ فهو /إيلوهيم/ صيغة الجمع من اسم /إل/ الكنعاني.

حتى تتضح الأمور ينبغي البحث في أعماق التاريخ عن شخصية الملك الكاهن ملكي صادق ملك أورشليم- القدس الذي التقى به إبراهيم بعد عودته منتصراً من الحرب التي شنها مع رجاله ضد تحالف عدة ملوك محليين كنعانيين وعاد منتصراً ومحملاً بالغنائم التي قدم العشر منها لملكي صادق. ثم ينبغي طرح السؤال كيف استطاع إبراهيم بعدد قليل من جماعته الانتصار على جيوش عدة ملوك. ثم لماذا بارك ملكي صادق إبراهيم؟ ولماذا يحمل ملكي صادق من بين كل ملوك زمانه لقب كاهن وملك ومن أين جاءته سلطة المباركة ولماذا كان ينبغي تقديم العشر له؟ ثم ولماذا يختفي بعد ذلك اسم ملك أورشليم أو شاليم أو سالم من المدونات التوراتية فلا يعود إلى الظهور إلا على زمن القديس بولس، أي في بداية القرن الأول الميلادي، حيث يأتي ذكره على لسان بولس في واحدة من رسائله حيث يعلن بولس المسيح كاهناً على رتبة ملكي صادق الكنعاني وليس على رتبة إبراهيم أو موسى ومن المفترض أنهما من رؤوس شعب يهوه المختار؟

أسئلة كثيرة هنا تطرح نفسها.

لماذا أعلنت الكنيسة المسيحية الناشئة المسيح ابناً لداوود أو من نسله ومتحدراً

من إبراهيم وجاء ليكمل شريعة موسى ولم تعلنه وريثاً روحياً لملكي صادق الكنعاني كما فعل بولس وهو الأمر الذي تم التغاضي عنه عند آباء الكنيسة الأوائل الذين أصروا على اعتبار الرسالة التي جاء بها المسيح رسالة لا تخرج من نطاق اليهودية والكتب التوراتية. لماذا نبوءة اشعيا ها هي العذراء تحمل وتلد ابناً نبوءة عن مجيء المسيح ومن نسل داوود، أما عبارة ها هي العذراء تحمل وتلد ابناً الواردة على متن نص «أعراس القمر» الأوغاريتي والتي هي أقدم من العبارة التوراتية بكثير ليست نبوءة عن مجيء المسيح ومن نسل كنعاني؟ لماذا، وبعد اكتشاف وقراءة النصوص الرافدية والكنعانية بأكثر من قرن من الزمن لا ننتبه إلى أن لفظة «البتول» الواردة في النصوص الإنجيلية والتي هي لقب مريم أم المسيح نجدها في اللغة الكنعانية /أوغاريت/ كلقب للربة /انات/ رفيقة البعل؟

تقص التوراة /تكوين/ لقاء إبراهيم مع ملك أورشليم الكنعاني /ملكي صادق/ الذي كان ملكاً على القدس القديمة وكاهناً لله العلي /في الأصل «إل-عليون»، ولقد قدم له إبراهيم أسمى آيات الإكرام والتبجيل مما يدل على المكانة السامية لهذا الملك -الكاهن الكنعاني. كما أن الأمر يدل على مكانة أور- شليم الكنعانية المقدسة منذ غابر الزمن عند الكنعانيين. والقدس كما نعرف اليوم، ومن الألواح التي عثر عليها، مدينة موجودة منذ الألف الثالث ق.م أي قبل ظهور العبرانيين على مسرح التاريخ بحوالي ٢٠٠٠سنة. غير أن الكتابات التوراتية المتأخرة جعلت منها مدينة يهودية وعاصمة روحية منذ القدم /انظر سفر المزامير وسفر أرميا وسفر الحكمة على سبيل المثال. وكل هذه الأسفار التوراتية دونت بعد النفي وبعد تعمير المدينة. وجدير بالذكر أن القديس / بولس/ جعل من المسيح كاهناً ليس على درجة إبراهيم أو موسى، وإنما على درجة ملكي صادق الكنعاني. ولهذا الأمر دلالة عظمى كما لا يُخفى. /انظر رسائل بولس. العهد الجديد/.

صعوبة الكتابات التوراتية الأولى أنها تطرح نفسها كنصوص تاريخية تسجل أحداثاً جرت في الواقع وتمت. والحقيقة أنها تسجل الأحداث كما يحلو لها أن تكون قد حدثت وبعد زمن طويل من حدوثها وعلى نحو يبدو اليوم، وعلى ضوء

الاكتشافات الأثرية الحديثة في المنطقة، غير مطابق للتاريخ القديم للهلال الخصيب الذي أصبح معروفاً حتى في أدق تفاصيله فإبراهيم، وعلى سبيل المثال، والذي يعتبر أبو اليهود، لم يكن ذات يوم يهودياً أو عبرانياً وإنما شخص من بلاد ما بين النهرين، هاجر، كما كان يحدث دائماً، من أرضه / مدينة/ أور /إلى/ حرّان/ ومنها إلى أرض كنعان، ودائماً حسب الوعد الإلهي والرواية التوراتية التي تذكر عنه أنه آرامي «آرامياً تائهاً كان أبـي» /تثنية/، نرى من خلال تحليل اسمه الأول /إبرام/ لغوياً أنه اسم ينتمي إلى لائحة الأسماء الأمورية. والوثائق التاريخية المسمارية تذكر وجود أو دخول الأموريون إلى بلاد ما بين النهرين منذ منتصف الألف الثالث ق.م أيّ منذ تأسيس / سرجون أو شاروكين للإمبروطورية الأكادية. وكان الأموريون في /أور/ يتعبدون على نحو خاص للربة /نين –جال/ (بالسومرية يعني الاسم السيدة الجليلة ونُقل إلى اللغة الأكادية على صيغة /شاراتو/ صيغة التأنيث لاسم /شارو/ أي الملك. ونين –جال كانت قرينة الإله /سين/ إله القمر أيّ إله مدينة حرّان التي توقف فيها إبراهيم أو أبرام كما كان اسمه في الأصل. لذلك نرى أن إبرام وزوجته سارا أو شارتو وجماعته يحملون جميعاً أسماء أمورية الطابع. أبرام يعني «الأب الجليل». لذلك فسارا زوجة أبرام هي في الأصل شارتو، أي الملكة أو الأميرة. ثم تحول اسم أبرام إلى إبراهيم /أي أبو الأمم أو الشعوب/ أو الشعب/ وشارتو إلى سارا أو ساراي. كما ودائماً على سبيل المثال لا الحصر، نجد مؤلف أو مؤلفي سفر التكوين التوراتي يفسرون اسم مدينة بابل على نحو خاطئ فيجعلونه من جذر /بلبل/ أي خلط بينما نعرف أن اسم بابل يعني /باب الله/.

وفي الحقيقة فالسرد التوراتي لدخول المجموعة العبرانية بقيادة موسى، ومن بعده يشوع بن نون إل أرض كنعان يأخذ غالباً صفة عقائدية، أي أن يهدف إلى تأكيد أمر معين ومحدد، بالنسبة إلى مؤلفيه الذين دونوا ما يقصونه من أحداث بعد حدوثها أو افتراض حدوثها بزمن طويل لذلك يصعب على الباحث أن يعتمد المدونات كوثائق تاريخية صحيحة. لقد حاول البحاثة الأثريون واللغويون في أوروبة ومنذ القرن التاسع عشر العثور، ومن خلال الحفريات والوثائق المسمارية، على آثار

تؤكد الدخول إلى كنعان أو «الأرض الموعودة التـي تسيل عسلاً ولبنـاً»[1] والتي وعد بها /يهوه/ إبراهيم وذريته من بعده إنما راحت جهودهم سدى رغم الحفريات والتنقيب في أكثر المدن المذكـورة في النصوص التوراتية التاريخيـة كأريحا وعـاي وغيرهما. ولقد جهدوا لكـي يعثروا في آثـار أريحا ما يدل حقـاً على احتـلال يشوع بن نـون المدينة وتدميره لها كما هو مذكور في التوراة غير أن الآثار لم تكشف عما يؤكد الرواية التوراتية. بالإضافـة إلى ذلك وجد البحاثـة أن أكثر آثـار المدن المذكـورة في التـوراة لاتتطابق في حقيقتهـا مع الوصـف التوراتي لها كما كانـت في ذلك الزمـن أي حوالي ١٢٠٠ق.م وعلى سبيل المثـال فمدينة /حاصور/ التي حسب النص التوراتي أحرقها يشوع بن نون لم تكشـف الحفريات التي جرت في أطلالها عـن أي حريق تعرضت لـه المدينة في ذلك الزمن. وكذلك الحال مع سور أريحا الشهير الذي تقول الحكاية التوراتية أنه انهار على أصوات الأبـواق التي نفخ فيها رجال يشوع بن نون الـذي بينت الحفريات أنه يعود إلى الألـف الثالث ق.م. وما مـن سور يعود إلى عهد الأحداث التي تقصها الرواية التوراتية.

وهنـاك عبارة أساسية ترد في الإنجيل على لسـان المسيح يقـول فيها: «قبـل أن يكون إبراهيم أنا كنت». أي، أن المسيح ينتمي إلى ثقافة هي ثقافة الهلال الخصيب والتي هي أقدم من إبراهيم والمرويات التوراتية بآلاف السنوات.[2]

صحيـح أن الوثائق والألـواح القديمة تشـير إلى هجرات سكانية إلى كنعان حوالي ١٢٠٠ق.م. إنمـا كانـت هـذه الهجـرات بمثابة نزوح مـن الأرياف والمناطق القاحلة الصحراوية إلى المدن والممالك العامرة كما كانت الممالك- المدن الكنعانية آنذاك حيث كان البـدو الرحل الذين يعيشون على تربية الأغنام، وكمـا يحدث دائمـاً، ينتقلون إلى المدن وإلى المناطـق الزراعية، ثم يستقرون فيهـا ويصبحون مع الزمن جزء من سكانها ويتحولـون مـن بـدوي متنقـل إلى مزارع مستقـر. ولعل العبرانيون /والاسم من جذر عـبر أي مـرّ، الذين جاؤوا مـع موسى إلى كنعان/ موسى مات قبل الدخول إلى كنعان/ هم هجرة من هـذه الهجرات التي اتخذت فيمـا بعد طابعاً دينيـاً قومياً. ونلاحظ أن التوراة التي تتحدث كثيراً عن حروب قبائل إسرائيـل/ كمـا أصبح الاسـم فيما بعد/

مـع الكنعانيين. لا تذكر شيئـاً عن احتلال المصريـين لمدن كنعانيـة في فلسطين وعلى مدى ثلاثة قرون ما بين ١٥٠٠ و١٢٠٠ق.م. أو أية مواجهة عسكرية مع الجيش المصري الفرعوني.

أضـف إلى ذلـك أن الوثائق العائدة إلى ذلـك الزمن لا تذكر شيئاً عن ذلك الدخول الشهير إلى كنعان وحتى الملك الشهير داوود الـذي جعل أورشليـم أو القدس عاصمة لمملكته وخلفه ابنه سليمان الذي بنى الهيكل الشهير فـإن الوثائق لا تذكـر شيئاً عنهما رغم أنهما يمثلان العصر الذهبي لإسرائيل ولا يذكـر أيضـاً أن داوود كان ملـكاً على القدس أو أورشليم مع أن الرواية التوراتية تؤكد أنه استـولى على المدينة وقهر سكانها اليبوسيين.

إن المرء يتسـاءل، في نهاية المطاف، كما فعل أكثر من باحث في السنوات الأخيرة وبعد الاكتشافات الأثرية التي كشفت تاريخ الشرق القديم وألقت الضوء علـى اقتباسات أكثر الكتب التوراتية عـن الأساطير والحكايات والأدب الرافدي- الكنعاني كحكاية الطوفان الشهير الذي عثر عليه في أحد ألواح ملحمة جلجامشـ وكتاب نشيد الإنشاد المنقول عن الشعـر الكنعـاني- الرافـدي وقصة أيوب وسفر الجامعة وسفر الأمثال إلخ.. يتساءل المرء هل يمكن لمجموعة بشرية بدوية تاهت في الصحـراء زمناً طويـلاً أن تتغلب على تحالف الجيوشـ الكنعانية المنظمة المدربة والقويـة التابعة لممالك قويـة وغنية وذات ثقافـة عالية. وكيف يمكن لمجموعة بشرية، إذا صحت الروايات، استقرت في مصر أكثر من أربعة قرون أن تتذكر وبعد ٤٠٠ سنة أنها جاءت من مكان آخـر وأن ترغب في العودة إليـه مع شخصـ مصري هـو موسى ومن حاشية الفرعون يبشر بإله لم يكونوا يعرفونه وأنكروه أكثر من مـرة وتخلوا عنه حتى في كنعان عندمـا أصبح البعـل الإله الكنعاني الشهير إلهـاً لهم. وحتـى إذا كانت حكاية بناء هيكل سليمان صحيحة فإن الذي وضع هندسـة هذا الهيـكل كان مهندساً معمارياً كنعانياً هو حيرام الشهير في التاريخ. كما أن حكاية بناء الهيكل تبدو وكأنها نقلت في أكثر تفاصيلها عن القصيدة الكنعانية/ أوغاريت/ التي تحمل اسم /معبد البعل/ حيث يتم بناء المعبـد على يد المهندس المعماري الكنعاني/ كوثر- خسيس/ ويتم استعمال خشب أشجار الأرز من غابات لبنـان وسورية كما يرد في

نص القصيدة. وهذا تماماً ما يحدث أثناء بناء الهيكل المذكور في الكتب التوراتية.

الحـروب العبرانيـة ضـد الكنعانيـين والحثيـين والحوريين وباقي سـكان كنعان تذكرها الكتب التوراتية بتفصيل وهي تقص تفاصيل الدخـول إلى أرض كنعان الموعودة أحياناً على نحو معقـول وأحياناً على نحو غير معقول وذلـك حين يشارك /يهوه/ إلى جانـب القبائل العبرانيـة في هذه الحروب ويضـرب أعداء هـذه القبائـل. والمقصود بالأعداء هنـا هم الكنعانيـون والأموريون والحثيون الذيـن تحالفوا معاً كشعب واحد لصـد هجمات هذه القبائـل البدوية. كما تقص التوراة الحروب التي نشبت فيما بعد بين إسرائيل وبين الممالك السورية في العهد الآرامي وعلى نحو خاص مملكة دمشق. غير أنها بالمقابل لا تذكر شيئاً على الإطلاق عن حروب مع المصريين وكأن مصر اختفت من الوجود مع أن الوثائق تذكر الوجود المصري في فلسطـين في منتصف الألف الثاني ق.م. وهنـاك على سبيـل المثال لوح يعـود لسنة ١٢٠٠ق.م. يذكر فيـه الفرعون/مرنفتاح/ الذي حكم بعد /رمسيس الثاني/ أنه حارب إسرائيل وانتصر علـى الإسرائيليين وقضى عليهـم. غير أن النصوص التوراتية لا تذكر شيئاً عن هـذه الواقعة. (نص اللوح موجود في كتاب زمن التـوراة /بالفرنسية/ تأليف ب.بورديـل وف.شاتونيـه) إضافة إلى ذلك فنصوص التـوراة الأولى والتي تعتبر نفسها تاريخيـة نادراً ما تأتي علـى ذكر مدينة أو مملكـة أورشليم سوى إشارات عابرة لا تدل على اعتبارها مدينـة ذات صفة خاصة أو مقدسة كمـا سبق وأشرنا. مع أن القدس أو أورشليـم أو وأيضاً أورسـالم كانت عاصمة روحية ومقدسة منـذ عهد طويل كما تدلنا حكاية ملكي صادق ملك المدينة وكاهن الله العلي /عليـون/. وكثيرون يعتقدون أن اسم القدس هو التسميـة العربية للمدينة بينما نعرف اليـوم أن الكلمة أو الجذر الكنعاني-الآرامي (ق-د-شـ) موجود كصفة للمدينة منـذ أقدم العهود. وكان يطلق على كل ماله علاقة بالآلهة والدين.

العلامة الشهير /ابن العبري ق.١٣ب.م/ يأتي على ذكر الملك ملكي صادق في حديثه عن إبراهيم في كتابه الشهير /مختصر تاريخ الدول/ حيث يقـول مانصه: «أخذ إبراهيم سارة امرأته وابن أخيه لوط وصعد إلى أرض كنعان وحارب ملوك /كدر لعمر/ وقهرهم.

وفي عودته من المحاربة اجتمع بملكي صادق الكاهن الأعظم وخر على وجهه بين يديه وأعطاه عشراً من السلب وباركه ملكي صادق. «وهي الحكاية المذكورة في التوراة. هناك اختلاف في أسماء الملوك واستعمال ابن العبري لكلمة /السلب/ التي يمكن أن تدل على غزوة بدوية. حيث أن سفر التكوين يذكر عدة ملوك مع /كدر لعمر ملك عيلام منهم/ /امرفل ملك شنعار/. واسم شنعار يعقد الأمور كثيراً لأن الأبحاث اليوم تميل إلى اعتبار /شنعار/ تحريفاً لاسم سومر.

أما انتصار إبراهيم، الذي يطلق عليه النص التوراتي هنا صفة عبراني وذلك قبل تاريخ العبور وقبل ظهور صفة عبراني بمئات السنين، على هذا التحالف القوي بعدد من الرجال يقدر بأقل من ٤٠٠ شخصاً، وانه لحق فلولهم إلى /حوبة/ التي عن شمال دمشق حسب السرد التوراتي فأمر من الصعب تصديقه تاريخياً. ثم تأتي حكاية المباركة: «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً. وكان كاهناً لله العلي. وباركه وقال مبارك ابرام من الله العلي مالك السموات والأرض. «هذه العبارة تبين أن إله ملكي صادق لم يكن إلهاً محلياً أو قومياً، بل رب الناس أجمعين. ويكفي هنا للتدليل على كنعانية أورشليم أن نذكر ما قاله «/حزقيال ١٥/ وهو يستنزل اللعنات على المدينة»: هكذا قال الرب لأورشليم: «مخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك أموري وأمك حثية». وحتى التعبير الذي يخاطب به /يهوه/ حزقيال: «يا ابن أدم»/(٢) هو تعبير كنعاني تحفل به القصائد والنصوص الأوغاريتية الكنعانية ونتابع ما يذكره ابن العبري: «ومئة سنة مضت من عمر إبراهيم ولد له اسحق من سارا ولما حصل لأسحق تسع عشرة سنة أصعده إبراهيم لجبل نابو (المكان مشكوك فيه وتتنوع فيه الآراء) ليضحي به (...) قيل في تلك السنة أتم ملكي صادق بناء أورشليم».

ثم يعود ابن العبري إلى ذكر ملكي صادق: «اسحق بن إبراهيم ولد له يعقوب وعمره ستون سنة. (..) وبعد عشرين سنة من تزوجه حبلت /رفقة/ امرأته. ولأنها تألمت بالحبل مضت إلى ملكي صادق لتسأله عن حملها فدعا لها وبشرها بأن أمتين عظيمتين في أحشائك(..) وفي تلك الأيام بنيت مدينة أريحو/ أريحا من سبعة ملوك كل منهم بنى لها سوراً» (١)

رغـم كل المبالغات الموجـودة في النص وتداخل الأزمنة فإننا نرى بوضوح أن أورشيلم تذكر دائماً مع اسـم ملكي صادق الكنعاني الـذي يأخذ هنـا صفة أخـرى تضاف إلى صفته ككاهن هي الطبيب والعارف فهو هنا أشبه بالأطباء السومريـين القدماء /آسو/ (والكلمة السومرية بقيت في العربية /آس/ أي الطبيب/ الكاهن. ومن الملفت للنظر أن اسـم /يسوع/ هو بدوره مـن كلمة /آس/ الطبيـب واسمه القـرآني /عيسى/ كذلك. والأناجيل حافلـة بالقصص التي تدل على المسيح كطبيب يعالج المرضى ويشفيهم وحتى إنه يطرد الأرواح الشريرة ويحيي الموتى وهو ما يفعله الأطباء السومريون القدماء /آسو/ كـم نعلم من النصوص المكتشفة. ولنتذكر أن القديس بولس، وكما سبق، جعل المسيح كاهناً على رتبة ملكي صادق وليس على رتبة إبراهيم أو موسـى أو داود. وهذا ما نقرأه أيضـاً في المزمور ١١٠: «جعلتك كاهناً على رتبة/ ملكي صادق». ونقرأ أيضاً في إنجيل متى: «وكان يسـوع يطوف كل الجليل ويعلم مجامعهـم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب فذاع خبره في جميع سورية». ولنلاحظ عبارة «كل سورية» وليس مثلاً كل إسرائيل أو اليهودية. وعبارة «يشفي كل مرض» ولاننسى أن المسيح عاش زمنـاً طويلاً في مدينـة /كفرناحوم/ قرب بحيرة /طبرية/ وهي مدينة لم يسكنها اليهود علـى الإطلاق وكان بـين سكانها عدداً من محبـيّ المسيح بدليل أنه كثـيراً ما كان يلجأ إلى بيـت واحد منهم. وبحـيرة طبرية التي جعل المسيح العاصفـة على أمواجها تهدئ والتي مشى على مياهها وعلى ضفافها كثر الخبز والسمك كانت تدعى بحيرة سورية.

في نهاية هذا البحث المختصر ينبغي أن نشير إلى أن مدينة أورشليم الكنعانية لم تتخذ أهميتها الدينية وصفتها المقدسة عند اليهود إلا في وقت لاحق وبعد نشوء مملكة السامرة في الشمال ومملكة إسرائيل في الجنوب التي كان فيهـا داوود ملكاً والتـي حافظ الكهنة فيهـا على عبادة يهـوه، بينما شاعت عبادة بعل الكنعـاني في أرجاء السامرة التي كانت عاصمة غنية ومختلطة السكان بحيث أن أهل الجنوب نظروا إلى سكان السامرة /وخاصة على عهد الملكة الفينيقية الكنعانية إيزابيل حيث أصبـح الدين الكنعاني هـو الشائع/ كمارقين. وأفضل مثال على ذلك ثورة النبي (إيلي أو إيليا) ضد عبادة البعل حيث لم تبق سوى قلة قليلة تتعبد ليهوه. /انظر النصوص

التوراتية/. ومــن غرائب الأمور أن /إيلي/ الذي ثار ضــد انتشار الديــن الكنعاني في أوساط اليهود يحمل هــو نفسه اسم /إل/ الــرب الكنعاني. وعلى هــذا النحو رسخت صفــة المدينة المقدسة لأورشليم عند اليهود في وقــت متأخر[٢] والحقيقــة أن الموضوع تحتــاج معالجته إلى كتاب كامل إنما اكتفينا هنــا ببعض الإشــارات الهامــة التي تلقي الضوء على المتناقضات الأساسية، وببعض الملاحظات التي وضعناها في صيغة أسئلة.

الهوامش

١- هــذه العبارة تــرد حرفياً وكما هي في قصيدة البعل وأنات الكنعانيــة التي عثر عليها في أوغاريت/ سورية حيث يرى الرب /إل/ في حلمه أن البعل إله الخصوبة قد عاد إلى الحياة وعادت الخصوبة إلى الأرض بعودتــه وصارت «السواقي تجري عسلاً والأرض تفيض لبناً». (انظر الترجمة العربية الكاملة للقصيدة في كتابي «بعل وعنات» دار الأبجدية دمشق).

٢- للتوسع راجع كتابي «الأصول الكنعانية للمسيحية» دار الأبجدية- دمشق.

٣- على نحو مشابه حدث في بداية تدوين الأناجيل خلط بين بيت لحم التي من المفترض أن المسيح ولــد في مغــارة فيها وبين بيت لحــم في الجنوب مدينة داوود. لأن بيت لحــم التي ولد فيها المسيح تقــع في الشمــال في الجليل. ويجب أن لا ننسى أن المسيــح كشخص تاريخي هو من الجليل /وهي منطقــة غير يهودية/. ويبدو أن أحد كتبة الأناجيل تعمد هــذا الخلط وجعل المسيح يلد في بيت لحم الجنوبية مدينة داوود حتى يؤكد أنه أي المسيح، من سلالة داوود وهو الأمر الذي نفاه المسيح كما نفى انتسابه إلى إبراهيم. ونلاحظ أيضاً أن المسيح على الصليب، وحسب الرواية، نادى /إل/ «إيلي، أيلي لما شبقتني» ولم يقل «يهوه».

المراجع

- التوراة.
- الأناجيل. رسائل بولس.
- مختصر تاريخ الدول. ابن العبري.

- Bordreul- Le temps de la Bible.
- Garelli& A. Lemaire- la Bible et ses personages.
- A. Caquot/ M. Szhycer/ A. Herdner- Textes ougaritiques.
- Pierre Debergé- Le proche- Orient asiatique let2.
- S. Cluzan- De Sumer ACanaan- Le monde de la Bible.

الدّراسات والبحوث

شعراء العرب يمجدون بيت المقدس

* حسن موسى النميري

يَرى الباحثُ في مَعاجِمِ اللُّغَةِ أنَّ مادَّةَ (ق د س) تُفيدُ شَيْئَيْنِ هُما: الطُّهْرُ والبَرَكَةُ.. وعلى هذا الأساسِ فَإنَّ بَيْتَ المَقْدِسِ تَعني: البيتَ المُطَهَّرَ؛ أي المَكان الذي يُتَطَهَّرُ بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ..كما أنَّهُ مُبارَكٌ.

والأرضُ المُقَدَّسَةُ عنــدَ مُعظَمِ المُفَسِّرينَ هي (مَدينَةُ القُدْسِ) وما حَولَها، وتَتَّسِعُ دائرَةُ الطُّهْرِ والبَرَكَةِ فَتَشْمَلُ بِلادَ الشامِ، ومِصرَ، والحِجاز.

* كاتب باحث في التراث العربي (فلسطين)

والأرضُ المُقدَّسَةُ طاهِرَةٌ في ذاتِها، مُطَهِّرَةٌ لِغَيْرِها. وذَكَرَ الفَيْروز آبادي في المُحيط أنَّ بَيتَ المَقدِسِ تُلفَظُ على شَكلَيْن؛ فتَقولُ: بَيتُ المَقْدِسِ (كَمَجْلِس - بِفَتْحِ الميمِ وسُكونِ القافِ وكَسْرِ السِّين). وتَقولُ: بَيتُ المُقَدَّسِ (كَمُعَظَّم - بِضَمِّ الميمِ وفَتْحِ القافِ وتَشديدِ الدّالِ المَفتوحة). أمّا إذا قُلتَ المُقَدِّس (كَمُحَدِّث - بِضَمِّ الميم وفتح القاف وتشديد الدال المَكسورة) فهُوَ الرّاهِبُ[1].

والقُدُّوسُ صِفَةٌ مِن صِفاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، تَعني الطّاهِرَ المُنَزَّهَ عنِ العُيوبِ والنَّقائِص، قالَ العَجّاجُ يَمدَحُ أبا العبّاسِ السَّفّاح:

قد علِمَ القُدُّوسُ، مَوْلَى القُدْسِ

أنَّ أبا العبّاسِ، أَوْلَى نَفْسِ

بِمَعْدِنِ المُلْكِ القَديمِ الكِرْسِ[2]

ورُوحُ القُدُسِ: جِبريلُ عليهِ السَّلام. سُمِّيَ بِذلكَ لأنَّهُ خُلِقَ مِنَ الطَّهارة. قالَ اللهُ تَعالَى في صِفَةِ عيسَى(المَسيح) عليهِ وعلى نَبِيِّنا الصَّلاةُ والسَّلام: ﴿وأيَّدْناهُ بِروحِ القُدُسِ[3]﴾

أي أيَّدْناهُ بِجبريلَ عليهِ السَّلام. وفي الحَديثِ أنَّ النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال (لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لا يُؤخَذُ لِضَعيفِها مِنْ قَوِيِّها) أي لا طُهِّرَتْ، ولا بُورِكَتْ.

والنِّسْبَةُ إلى بَيتِ المَقْدِسِ: مَقْدِسِيّ، ومُقَدَّسِيّ (كَمُحَدِّث).. قال امرؤ القيس يَصِفُ كِلابَ صَيْدٍ أشْلاهُنَّ الصَّيّادُ على ثَورٍ وَحْشٍ:

فَأدْرَكْنَهُ يَأخُذْنَ بِالسّاقِ والنَّسا

كَما شَبْرَقَ الوِلْدانُ ثَوبَ المُقَدَّسِ[4]

ومِن قَولِ امرئِ القيسِ هذا نَفهَمُ أنَّ نَصارَى العَرَبِ،كانُوا قَبلَ الإسلامِ يُعَظِّمونَ كُلَّ ما لَهُ صِلَةٌ بِبَيتِ المَقدِسِ. انْظُر كيفَ تَجَمْهَرَ أطفالُ النَّصارَى وتَزاحَمُوا وتَدافَعُوا حولَ هذا الرَّجُلِ (الرّاهِبِ أو الحَبْرِ أو المُقَدَّسِ) يَتَمَسَّحونَ بِهِ ويَلمَسونَ مَلابِسَهُ يُريدونَ اكتِسابَ البَرَكَةِ والطَّهارَةِ، حتّى (شَبْرَقُوا) مَلابِسَ المِسكينِ أي مَزَّقُوها وقَطَّعُوها، يَطمَعُ كُلٌّ مِنهُم أنْ يَحصُلَ على قِطعَةٍ مِن ثِيابِ هذا (المُقَدَّسِ) الذي حَظِيَ (وحَظِيَتْ مَلابِسُهُ) بِزيارَةِ بَيتِ المَقدِسِ، فاكتَسَبَتْ هذهِ الثِّيابُ طَهارَةً وبَرَكَةً عَظيمَتَيْن.

وبَيتُ المَقدِسِ مَدينَةٌ، كُلُّ شَيءٍ فيها مُقَدَّسٌ عندَ المُسلمينَ أيضاً؛ أرضُها مُقَدَّسَةٌ طاهِرَةٌ، وسماؤُها مُقَدَّسَةٌ، الهواءُ فيها مُقَدَّسٌ،والماءُ والشَّمسُ والقَمَرُ والفَواكهُ والسَّحابُ ووو..ففي القُرآنِ العظيمِ يَذكُرُ اللهُ جَلَّ وعَلا مُتَحَدِّثاً عنِ النَّبيِّ إبراهيمَ الخليلِ عليه السَّلام ﴿ونَجَّيْناهُ ولُوطاً إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها لِلعالَمين[5]﴾ ولا يَشُكُّ

أَحَدٌ مِنَ المُسلمِينَ أنَّ الأرضَ التي (بارَكنا فِيها) أيْ التي وضَعَ اللهُ بَرَكتَهُ وطُهرَهُ فيها هيَ أرضُ بَيتِ المَقدِسِ، وتَتَّسِعُ دائرَةُ البَرَكَةِ والطُّهْرِ مِنْ مَركَزِ الدائرة (مدينة القُدس) إلى ما حَولَها مِنَ البُلدانِ بِاتِّجاهِ الشّامِ، ومِصرَ، والحِجازِ [٦].

وقال تعالى أيضًا: ﴿سُبْحانَ الذي أسرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأقْصَى الذي بَارَكنا حَوْلَهُ [٧]..﴾ والعَبدُ الذي أُسْرِيَ بِهِ هُوَ نَبِيُّنا مُحَمَّدٌ صلى اللهُ عليهِ وسلم، وقد أُسْرِيَ بِهِ بِرفقَةِ جِبْرِيلَ عليهِ السَّلام، مِنَ المَسجِدِ الحَرامِ بِمَكَّةَ المُكرمةِ إلى المَسجِدِ الأقصَى بِبيتِ المَقدِسِ، ومِن هُناكَ عُرِجَ بِهِ إلى السَّماواتِ السَّبعِ في رِحلَةٍ مَشهورَةٍ في عَقيدَةِ المُسلمِينَ، وفي تُراثِهِم يُقالُ لَها رِحلَةُ الإسراءِ والمِعْراجِ.

وفي عقيدةِ المُسلمينَ أنَّ مَنْ يَزُرِ المَسجِدَ الأقصَى في بيتِ المَقدِسِ يَتَطَهَّرْ مِن ذُنُوبِهِ وآثامِهِ، ويَعُدْ كما وَلَدَتهُ أُمُّهُ، خالِيًا مِنَ الذنوبِ والخَطايا والآثامِ، لِذا فالقُدسُ مُعَظَّمَةٌ مُطَهَّرَةٌ عندَ جميعِ المُسلمينَ، تأتي قُدسيتُها في المَرتَبَةِ الثالثةِ، بعدَ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ، والمَدينَةِ المُنَوَّرةِ حَرَسَهما اللهُ تَعالَى. فالرَّسُولُ صلى اللهُ عليهِ وسلم، فَرَضَ ما يُشبِهُ الحَظْرَ على الارْتِحالِ إلى أيِّ مَكانٍ لِلحَجِّ، وطَلَبِ المَغْفرة، والتَّطَهُّرِ مِن الذُّنُوبِ، واسْتَثْنَى مِن ذلكَ ثَلاثَةَ أماكِنَ، وهيَ مَساجِدُ المُسلمينَ الرَّئيسَةُ الثَّلاثَةُ، وما ذلكَ إلاَّ لِكَونِها أشرَفَ المَساجِدِ وأفضَلَها؛ فقد رَوَى البُخاري عن أبي سعيد الخدري أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قال: (لا تُشَدُّ الرِّحالُ [٨] إلاَّ إلى ثَلاثَةِ مَساجِدَ: المَسجِدِ الحَرامِ [٩]، والمَسجِدِ الأقصَى [١٠]، ومَسجِدِي هذا).

إذًا فَمدينَةُ القُدسِ مَدينَةٌ ذاتُ قَدْرٍ عَظيمٍ ومُمَيَّزٍ في عَقيدَةِ المُسلمِينَ، لِذا فَهِيَ المُحَبَّبَةُ إلى قُلوبِهِم، القَريبَةُ المُلتَصِقَةُ بِمَشاعِرِهِم، فإذا ما ذُكِرتِ القُدسُ على مَسامِعِهِم، وجدتَ قُلوبَهم تَخفِقُ، وأحاسيسَهم تَهتَزُّ إجلالاً لِقَدرِها، وتَعظيمًا لِمَكانَتِها.

ولِهذا السببِ تلقَى لاسْمِ القُدسِ (أو بيتِ المَقدِسِ أو البيت المُقَدَّسِ) وقْعًا كبيرًا، وأثَرًا واضِحًا بارِزًا في أقوالِ الشُّعراءِ، إنَّكَ تَجِدُهم يَستَعظِمونَ الحَديثَ عَنها ويَتَسابَقونَ لِذِكرِها، ووَصْفِ جَلالَةِ قَدْرِها ومَكانَتِها المُمَيَّزةِ، تَقَرُّبًا إلى اللهِ؛ فالحَديثُ عنِ المُقَدَّسِ يَكتَسِبُ نَوعًا مِنَ التَّبجِيلِ والقَداسَةِ، أو يَتَعَرَّضُ الشعراءُ لَها تَقَرُّبًا لِلمُجتَمَعِ الذي يَطلُبُ الحَديثَ عن بيتِ المَقْدِسِ إرْضاءً لِقُلوبِهِم التي تَهفو إليها، وإراحَةً لِمَشاعِرِهِم التي تَنجَذِبُ تُجاهَها. فلا غَرابَةَ إذا وجَدتَ

أنّ الذي يصفُ بيتَ المقدسِ أو يتعرّضُ لجانبٍ من جوانبِ الحياةِ فيها ربّما يكونُ ذلك سببًا في رواجِ هذا الشعرِ، وشهرةِ قائلِه، وتبجيلِ مَنْ قيلَ فيه، وإعلاءِ مكانتِه بينَ الناسِ.

وسنجعلُ همَّنا في الصفحاتِ التاليةِ منصبًّا على إيرادِ أمثلةٍ مختارةٍ منتقاةٍ من الشعرِ الذي يصفُ قائلوهُ مدينةَ القدسِ، أو مسجدَها الأقصى، أو ما لَهُ صلةٌ بهذه المدينةِ ذاتِ المكانةِ الخاصّةِ، والقدرِ العظيمِ المرموقِ، آملينَ أنْ نُوَفَّقَ للوصولِ إلى أمثلةٍ من عصورٍ مختلفةٍ، ولشعراءَ تباينَتْ مشاربُهم وانتماءاتُهم، وسأجعلُ اهتمامي متّجهًا إلى الشعرِ الذي يصوّرُ نضالَ الأمّةِ وكفاحَها للصمودِ بوجهِ الطغاةِ الغاصبين، والفجرةِ الطامعينَ، وكثيرًا ما كانَ طمعُهم مصوّبًا باتّجاهِ مدينةِ القدسِ ومسجدِها الأقصى، وآملُ أنْ تعبّرَ أمثلتُنا عن تاريخِ هذه المدينةِ الباسلةِ المكافحةِ، وعن أحوالِ سكّانِها، وما تعرّضوا لَهُ من أحداثٍ، وما لاقوا من عنَتٍ وعناءٍ في كثيرٍ من أيّامِهم، ونرصُدُ أيّامَ الفرحِ والسرورِ التي كانت فيما نقدّرُ عزيزةً قليلةً، وذلكَ لأنّ الشيءَ الثمينَ يكثُرُ الطامعونَ فيه، ويبذلُ الطغاةُ الأقوياءُ ما يستطيعونَ لاقتنائِه والاستحواذِ عليه، وهلْ هناكَ ما هوَ أثمنُ منَ القدسِ؟ وأجلُّ من قدرِها، وأعلى من مكانتِها؟!.

قال شاعرٌ قديمٌ يتشوّقُ لأيّامٍ لَهُ قضاها في ربوعِ بيتِ المقدسِ، يصفُ لنا أوقاتًا أنيسةً، ويعبّرُ عن شوقٍ متواصلٍ مستمرٍّ:

أُحَيّي بِقاعَ القُدسِ ما هَبَّتِ الصَّبا
فتلكَ رِباعُ الأُنسِ في زَمَنِ الصِّبا(١١)
وما زِلْتُ في شَوقي إليها مُواصِلاً
سَلامي على تلكَ المعاهدِ والرُّبى(١٢)

× كانَ آباؤُنا نحنُ أبناءَ الشامِ حينَ يذهبُ أحدُهم لأداءِ فريضةِ الحجِّ، كانَ غالبًا ما يُعرِّجُ في طريقِ عودتِه، فيزورُ المسجدَ الأقصى (ذلكَ قبلَ أنْ يقعَ تحتَ الاحتلالِ) وكانوا يقرنونَ الحجَّ إلى الكعبةِ المطهَّرةِ بزيارةِ بيتِ المقدسِ، وكانوا يسمّونَ مثلَ هذه الحجّةِ (حجّةً بتقديسة).. ويمكنُ للمرءِ أنْ يقرأَ في الشعرِ ما يشبهُ ذلكَ، هذا المعلّى بن طريف مولى المهدي، يذكرُ ما يقاربُ ذلكَ. فيقولُ:

يا صاحِ إنّي قد حَجَجْتُ
وزُرتُ بيتَ المقدسِ(١٣)
وأتيتُ لُدًّا عامِدًا
في عيدِ ماري سرجسِ(١٤)
فرأيتُ فيه نِسْوَةً
مثلَ الظِّباءِ الكُنَّسِ(١٥)

وهـذا مـروانُ بـنُ الحَكَم يَقـرِن بينَ مَكَّـةَ المُكَرَّمَة وبينَ بيـتِ المَقدِس، وجَعَلَهما مُتَساويَتَـيْنِ وذلـكَ أنَّ واشِيًا جـاءَ وأساءَ للفَـرزدق (الشاعر المعـروف) وكان مروانُ وقتَها واليًا لمُعاويةَ على المَدينَةِ، فأمَرَ بإبْعادِ الفرزدق عن المدينة، وقال في ذلك:

قُلْ للفَرَزدقِ، والسَّفاهَةُ كاسْمِها
إنْ كنتَ تارِكَ ما سألْتُكَ فاجْلِسِ
ودَعِ المَـديـنَـةَ؛ إنَّـهـا مَحـذورَةٌ
والحَقْ بِمَكَّةَ أو بِبيتِ المَقدِسِ[١٦]

×وممَّا يُنسَبُ للحافظ ابن عساكر (صاحب تاريخ دمشق الشَّهير) قولُهُ يُحَرِّضُ نور الدين زنكي ويَحُثُّـهُ على دَحْرِ الصَّليبيينَ وتطهير المَسجدِ الأقصَى من بَغْيِهِم:

فالجِدُّ والجَدُّ مَقرونانِ في قَرَنٍ
والحَزْمُ في العَزْمِ والإدراكُ في الطَّلَبِ[١٧]
وطُهْرُ المَسجِدِ الأقصَى وحَوزَتَهُ
مـــــــــــنَ.............
عَساكَ تَظفَرُ في الدُّنيا بِحُسْنِ ثَنَا
وفي القِيامَةِ تَلقَى حُسْنَ مُنقَلَبِ[١٨]

وابـنُ القَيْسـراني يَمـدَحُ نـورَ الديـن زنكي[١٩] لَمَّا قَتَلَ (البرنس) صاحب أنطاكية عندَ حِصْـنِ (إنَّب)[٢٠] سنـة ٥٤٤ هـ فقامَ الشاعرُ يُهَنِّئُ المُجاهدَ (نورَ الدين) بالنَّصرِ المُؤَزَّرِ ثم يَستَحِثُّهُ ويُرَغِّبُهُ بمَزيدٍ منَ الإقدامِ والنُّهوضِ لتَحْريرِ بيتِ المَقْدِسِ:

أغَرَتْ سُيُوفُكَ بالإفرَنْجِ راجِفَةً
فُؤادَ رُومِيَّةَ الكُبْرَى لها يَجِبُ[٢١]
فانْهَضْ إلى المَسجِدِ الأقصَى بذي لَجَبٍ
يُوليكَ أقصَى المُنَى فالقُدسُ مُرتَقِبُ[٢٢]
وائذَنْ لِمَوجِكَ في تَطهيرِ ساحِلِه
فإنَّما أنتَ بَحْرٌ لُجُّهُ لَجِبُ[٢٣]
يا مَنْ أعادَ ثُغُورَ الشامِ ضاحكَةً
مِنَ الظُّبا من ثُغُورٍ زانَها الشَّنَبُ[٢٤]
مازِلتَ تُلحِقُ عاصِيها بطائِعِها
حتى أقَمْتَ وأنطاكيَةُ حَلَبُ[٢٥]

×وقال ابـنُ القيسـراني أيضًـا يَنتَظِرُ الخَلاصَ (خَلاصَ الأُمَّـةِ الإسلاميّةِ) على يَدَيْ عِمادِ الدين زنكي[٢٦] خاصَّةً وأنَّهُ أخَذَ على عاتِقِهِ تَحريرَ بُلدانِ العالَمِ الإسلامي من رِجْسِ الفِرنْجة، قال ابنُ القَيسراني:

كأنِّي بِهذا العزمِ، لا فُلَّ حَدُّهُ
وأقصاهُ بالأقصَى وقد قُضِيَ الأمْرُ
وقد أصبَحَ البيتُ المُقَدَّسُ طاهِرًا
وليس سوى جاري الدِّماءِ لَهُ طُهْرُ
وصَلَّتْ بِمِعراجِ النَّبيِّ صَوارِمٌ
مَساجِدُها شَفْعٌ وساجِدُها وِتْرُ[٢٧]

وقـال شاعـرٌ اسمُـهُ نَصرُ بـنُ حسن الهيتي[٢٨] يَمـدحُ أحدَ قـادةِ صلاح الدين الأيوبي، ويَصِفُ مَواقِفَهُ الجريئة:

وَلَهُ بِأرضِ القُدْسِ فيهم وَقْعَةٌ
سَلَبَتْ مَليكَهُمُ لَذيذَ مَنامِهِ
كَم جَحْفَلٍ للشِّرْكِ هَمَّ بِحَربِهِ
فَأَحَلَّ صَدرَ الرُّمحِ صَدرَ هُمامِهِ(٢٩)
فالليثُ في سربالِهِ والغيثُ بَيْـ
ـنَ بَنانِهِ، والبدرُ تحتَ لثامِهِ(٣٠)
قد جاءهُ جيشُ الفرنجِ مُنَظَّمًا
فَسَما إليهِ فَحَلَّ عَقدَ نِظامِهِ(٣١)

وقال العمادُ الكاتب (الأصفهاني)(٣٢) يرثي نور الدين زنكي، ويأسَفُ على رحيلِه، ومُغادرتِه للدُّنيا، قبلَ أنْ يُنجِزَ وَعدَهُ بتطهيرِ بيتِ المَقدسِ منَ الغُزاة:

أَوَما وَعَدتَ القُدسَ أنَّكَ مُنجِزٌ
ميعادَهُ: في فَتحِهِ وطُهورِهِ؟
فَمَتى تُجيرُ القُدسَ مِن دَنَسِ العِدا
وتُقَدِّسُ الرَّحمانَ في تَطهيرِهِ؟
كم قد أقمْتَ مِنَ الشَّريعةِ مَعلَمًا
هُوَ مُنذُ غِبتَ مُعَرَّضٌ لِدُثُورِهِ
أنتَ الذي أحيَيْتَ شَرعَ مُحمَّدٍ
وقَضَيْتَ بعدَ وفاتِهِ بنُشُورِهِ(٣٣)

وقال ابنُ مُنير الطرابلسي(٣٤) واضعًا كاملَ ثِقتِهِ بالمُستقبَل، وواثقًا مِنْ أنَّ أُسرةَ آلِ زِنكي هيَ المُؤهَّلَةُ لِتحريرِ بيتِ المَقدس، مِن رِجْسِ الفرنجةِ النازين، فها هو ذا يَدعو عمادَ الدين زنكي إلى بَذلِ كُلِّ جهدٍ، والتأهُّبِ لاستنقاذِ بيتِ المَقدس:

وغَدًا يُلقى على القُدسِ بها
كَلكَلٌ يَدرُسُها دَرسَ الدَّرينْ(٣٥)
بِكَ يا شَمسَ المَعالي رُدَّتِ الـ
ـرُّوحُ في المَيْتَيْنِ مِن دُنيا ودِينْ(٣٦)

× وفي الفترةِ الزَّمنيّةِ ذاتِها تقريبًا، جعلَ ابنُ القَيسَراني(٣٧) من فَتحِ الرُّها(٣٨) على يَدِ المُجاهِدِ عمادِ الدين زنكي مُناسبَةً للتَّذكيرِ بضَياعِ بيتِ المَقدسِ، والتَّحريضِ على فَتحِها وتَخليصِها من أيدي الغاصبينَ الفرنجة، وما فَتحُ الرُّها إلاّ مُقدمةٌ وبِشارةٌ لِفتحِ بيتِ المَقدسِ، وسائرِ المُدُنِ الواقعةِ على ساحلِ بحرِ الشامِ (البحرِ الأبيض المُتوسِّط). قال:

أمَا آنَ أنْ يُزهَقَ الباطلُ
وأنْ يُنجِزَ العِدَةَ الماطِلُ
فإنْ يَكُ فَتحُ الرُّها لُجَّةً
فَساحِلُها القُدسُ والسّاحِلُ
فهل عَلِمَتْ عِلمَ تلكَ الدِّيارِ
بأنَّ المُقيمَ بها راحِلُ(٣٩)

ونَتَقَدَّمُ معَ الزمنِ قليلاً، ويتَسلَّمُ القيادةَ صلاحُ الدينِ الأيوبي، ويَستمِرُّ على نَهجِ عمادِ الدينِ وابنِهِ نورِ الدينِ في التَّطَلُّعِ إلى تحريرِ البلادِ، وتَطهيرِها منَ الغاصبينَ الفرنجة، وتابَعَ مَسيرةَ تَقريبِ الصَّالحينَ،

فجَعَلَ العِمادَ الكاتبَ وزيرًا لَهُ، فَكرَّسَ هذا الوزيرُ كُلَّ جُهودِهِ وطاقاتِهِ بِاتّجاهِ الاسْتِمْرارِ في تَحريرِ البُلدانِ التي مازالت تحت سيطرَةِ الغاصبينَ، فها هو ذا العِمادُ يَحُثُّ صَلاحَ الدينِ على الاسْتِمْرارِ في مُحاصَرَةِ الفِرنجةِ لإخراجِهِم منَ الحُصُونِ التي أقامُوها في بِلادِ العربِ. وها هي ذي الجُهودُ قد أثمَرَتْ فقد انهزَمتْ جُنودُ الغاصبين:

هَزَمتُمْ جُنُودَ المُشْرِكينَ بِرَبْعِكُمْ
فلم يَلْبَثُوا خَوفًا، ولم يَمْكُثُوا ذُعْرا
ولن يَرتَوي الإسلامُ حتى تُغادِرُوا
لَكُمْ في دِماءِ الغادرينَ بِها غُدْرا
فَصُبُّوا على الإفرنجِ سَوطَ عذابِها
بِأنْ يقسمُوا ما بينَها القَتلَ والأسْرا
ولا تُهْمِلوا البيتَ المُقَدَّسَ واعزِموا
على فَتْحِهِ غازينَ، وافْتَرِعُوا البِكْرا
تُديمونَ بِالمَعروفِ طَيِّبَ ذِكْرِكم
وما المُلكُ إلا أنْ تُديمُوا لكم ذِكْرا[40]

ومدحَ العِمادُ الكاتبُ أيضًا صَلاحَ الدينِ سنة ٥٧٢ هـ وحضَّهُ على التَّحضيرِ لِفتْحِ بيتِ المقدسِ، فقد طالتْ غَيبَتُها عن أهلِها الشرعيين، وطالَ نَأيُهُم عنها، وازدادَ شَوقُها إليهِم وشَوقُهُم إليها..

فَسِرْ، وافتَحِ القُدْسَ، واسْفِكْ بِهِ
دِمـاءً، مَتَـى تُجْـرِها يَـنْظُفِ
وخَلِّصْ مِنَ الكُفْرِ تِلكَ البِلادِ
يُخَلِّصْكَ رَبُّكَ في المَوقِفِ[41]

وأبو الفَضلِ الجُليانيّ[42] وضَعَ على عاتِقِهِ تَمجيدَ بُطولاتِ مَنْ يُقَدِّمُ جُهدًا لِتَحريرِ بِلادِ العربِ منَ الغاصبينَ الفرنجة، فهو يَستَحِثُّ الزعماءَ والقادةَ في العالَمِ العربي والإسلامي، ومِنهم صلاحُ الدين، مُرَغِّبًا إياهم بِتَوحيدِ جُهودِهِم، ورَصِّ صُفوفِهِم، وجَمْعِ قُواهم وطاقاتِهِم لِدَحرِ الغاصبين الفرنجةِ، أولئكَ القَراصِنة الذينَ عَبَروا البِحارَ غُزاةً حاقِدينَ، ووَضَعوا هدَفًا لَهُم قَهرَ الشُعوبِ الآمِنَةَ، وسلبَ خيراتِ البِلادِ، واضطِهادَ العِبادِ، وجَيَّشُوا لِذلكَ كُلَّ المارقينَ واللُصوصِ، وعَبَّؤوهم ومَلؤوا قُلوبَهُم حِقدًا علـى المُسلمينَ، وحَسَدًا علـى سُكّانِ الشَّرقِ العربي الآمِنينَ:

اللهُ أكبَرُ أرضُ القُدْسِ قد صَفِرَتْ
مِنْ آلِ أصفَرَ، إذْ حَيْنٌ بِهِ حانُوا[43]
أسباطُ يُوسُفَ مِن مِصْرٍ أتَوا ولَهُمْ
مِن غيرِ تِيهٍ، بِها سَلوَى وأمتانُ[44]
لَهُم فِلسطينُ، إنْ يَخرُجْ عُداتُهُمُ
عَنْها، وإلاَّ عَدَتْ بِيضٌ وخُرصانُ[45]
حتى بَنَيتَ رِتاجَ القُدْسِ، مُنْفَرِجًا
ويَصعدَ الصَخرَةَ الغَرّاءَ عُثمانُ[46]

ولابنِ أيُّوبَ في الإفرنْجِ مَلحَمَةٌ
دلَّتْ عليها أساطيرٌ وحُسبانُ
ومَنْ أحَقُّ بمُلكِ الأرضِ من مَلِكٍ
كأنَّهُ مَلَكٌ في الخَلْقِ حنّانُ»[47]

وقال ابنُ الساعاتي[48] في إحدى قصائدِهِ القُدسيَّة، يُمَجِّدُ جُهودَ صلاح الدين، ويُشيدُ بفضلِهِ، لأنَّهُ أنقذَ بيتَ المَقدِس، وحرَّرها بالسَّيفِ من أيدي الغاصبين الفرنْجة:

هُوَ مُنقذُ البيتِ المُقَدَّسِ بَعدما
طالتْ، فما وجَدَ الشُّفاءَ شَكاتُهُ
بيتٌ تَأسَّسَ بالسُّكونِ، وإنَّما
عندَ الزّحافِ، تَحَرَّكَتْ سَكَناتُهُ
أمُشَتِّتَ الأعداءِ، وهيَ جَحافِلٌ
عن شَمْلِ دينٍ جُمِّعَتْ أشتاتُهُ[49]
أُوتيتَ عَزْمًا في الحُروبِ مُسدَّدًا
لا زَيْغُهُ يُخْشَى، ولا هَفَواتُهُ[50]
أحسَنْتَ بالبيتِ العَتيقِ، ويَثْربٍ
ولكَ الفَعالُ كَثيرةٌ حَسَناتُهُ[51]
هذي سُيُوفُكَ مُحْرِماتٌ دونَهُ
لِبُكائهِنَّ تَنَسَّمَتْ حُجُراتُهُ[52]

ويَبدُو للمُتَتَبِّعِ أنَّ ابنَ الساعاتي كأنَّهُ كانَ يَصطَحِبُ جُيُوشَ صلاحِ الدين، يُرافِقُها في غَزوِها، يُسايرُ الفاتحينَ، ويُماشي المُحاربينَ، فيُسَجِّلُ أدَقَّ ما يَفعلُون، مُتَتَبِّعًا وقائعَهم ومُصَوِّرًا مَواطِنَ انْتِصاراتِهِم، ويرصُدُ ما يُلاقُونَ مِن عَقَباتٍ. ها هو ذا يذكرُ لَنا فُتُوحاتِ صلاحِ الدين، ويُسجِّلُ بُطولاتِ جُيُوشِ المُسلمينَ:

جَلَتْ عَزَماتُكَ الفَتْحَ المُبينا
فقد قَرَّتْ عُيونُ المُؤمنينا
رَدَدْتَ أخيذَةَ الإسلامِ لَمّا
غدا صَرْفُ القَضاءِ بها ضَمينا[53]
تَهُزُّ مَعاطِفَ القُدْسِ ابْتِهاجًا
وتُرضي عَنكَ مَكَّةَ والحَجُونا[54]
فَلو أنَّ الجِهادَ يُطيقُ نُطْقًا
لَنادَتْكَ: ادْخُلوها آمنينا[55]
فقلتُ: القُدسُ مَسرورٌ، ولولا
سُطاكَ لَكانَ مُكتَئِبًا حَزينا[56]
أدَرْتَ على الفرنْجِ، وقد تَلاقَتْ
جُمُوعُهُمُ عليكَ رَحَى طَحُونا[57]
ففي بيسانَ ذاقُوا منكَ بُؤْسًا
وفي صَفَد، أتَوْكَ مُصَفَّدينا[58]

ويُتابِعُ ابنُ الساعاتي مَنهَجَهُ في دَعوةِ الخُطَباءِ والعُلماءِ والشعراءِ مُطالِبًا إيَّاهم أنْ يَجعَلوا مِن هذا النَّصرِ المُبينِ نَعني (فتحَ بيتِ المَقدِس) موضوعًا لِخُطَبِهِم ودروسِهم وقصائدِهِم، لِتَعُمَّ الفرحَةُ، وتَصِلَ أخبارُ البُشرى بالفَتحِ إلى مَشارِقِ بِلادِ الإسلامِ ومَغارِبِها، ويَتَمَنَّى لو أنَّ أميرَ المؤمنينَ عمرَ بنَ الخَطّابِ رضي اللهُ عنهُ شَهِدَ هذا الفتحَ

العظيمَ، وعلِمَ بهذا النّصرِ المُؤزّرِ فإنّه سيَشْهَدُ عندئـذٍ بجَلالِ هذا الفتْـح وعَظَمَتِه، ويُقِرُّ بإخلاصِ الفـاتِح وقُدرَتِه وسَيُثَمِّنُ تَصميمَهُ على الجِهادِ، والاستِمْرار في مُتابَعَةِ الفُتُوح..

قال ابنُ الساعاتي:

أَعَيًّا ،وقد عايَنْتُمُ الآيَةَ العُظمَى
لأيَّةِ حالٍ نَدَّخِرُ النَّثْرَ والنَّظْما[59]

وقد ساغَ فَتْحُ القُدْسِ في كُلِّ مَنطِقٍ
وشاعَ إلى أنْ أسمَعَ الأَسَلَ الصُّمّا[60]

فليتَ فَتَى الخَطَّابِ شاهدَ فَتْحَها
فيَشْهَدَ أنَّ السَّهْمَ من يُوسُفَ أصْمَى[61]

حَبا مَكَّةَ الحُسنَى، وثَنَّى بيَثْرِبٍ
وأطرَبَ ذَيّاكَ الضَّريحَ وما ضَمّا[62]

وأصبَحَ ثغرُ الدينِ جَذْلانَ باسمًا
وألسِنَةُ الأغمادِ تُوسِعُهُ لَثْما[63]

تَجاوزتَ ما أعيَا الجِبالَ مَنالُهُ
فَهل يَقظَةً كانتْ مَساعيكَ أو حُلما[64]

وكانَ الشِّهابُ الشاغوري[65] على صِلَةٍ طيِّبَةٍ بصلاح الدين، مَدَحَهُ وأشادَ بمَواقِفِه، وثَمَّنَ أعمالَهُ الجَليلةَ في تَحجيمِ أمْرِ الصَّليبيينَ، ممَّا سَهَّلَ على مَنْ أتَوا بعدَهُ اقتِلاعَهم واستِئصالَ شأفتِهِم.. مَدَحَ الشاغوري صلاح الدين وهو في قلعة دمشقَ بعدَ أنْ مَنَّ اللهُ بِفضْلِه على العربِ والمُسلمينَ بالنَّصرِ العظيم على يَدَيْ صلاح الدين:

أهدَى صَلاحُ الدينِ للإسلامِ إذْ
أرْدَى قَبيلَ الكُفْرِ ما لم يُكْفَرِ[66]

رَبُّ المَلاحِمِ لم يُـؤَرِّخْ مِثْلَها الـ
عُلَماءُ قِدمًا في قَديمِ الأعصُرِ

راياتُـهُ صُفرًا تَـرِدْنَ، وتَنْثَني
حُمْرًا، تَمُجُّ نَجيعَ آلِ الأصفَرِ[67]

لِمَ لم تدِنْ شُوسُ المُلوكِ لَهُ، وقَد
مَلَكَ السَّواحِلَ في ثَلاثَةِ أشْهُرِ[68]

واستَنْقَذَ البيتَ المُقَدَّسَ عَنْوَةً
مِن كُلِّ ذي نَجَسٍ بِكُلِّ مُطَهَّرِ[69]

وأرَيْتَهُم لَمَّا التَقَى الجَمْعانِ بالـ
ـبيتِ المُقَدَّسِ، هَولَ يومِ المَحْشَرِ

ورَدَدتَ دينَ اللهِ بعدَ قُطوبِهِ
بالمَسجِدِ الأقصَى بوَجْهٍ مُسْفِرِ[70]

والعِمادُ الكاتبُ الذي كانَ مُلازِمًا لِصَلاحِ الدينِ، باعتِبارِهِ كانَ وزيرَهُ ورفيقَ دَربِهِ، سَرَّهُ ما فَعَلَ صـلاحُ الدينِ، وأثلَجَ صَدرَهُ وصُدورَ جميعِ المُسلمينَ بِكافَّةِ فِئاتِهِم، فعَمَّتِ الفرحَةُ أرجاءَ العالمِ الإسلاميِّ مِن مَشرِقِهِ إلى مَغرِبِهِ، واستَبْشَـرَ الناسُ خَيرًا بِهـذا الفتحِ الجَليلِ والانتِصارِ العظيمِ، فقال يُهَنِّئُ صلاحَ الدينِ، ويُشيدُ بِنِضالِه وتَمَسُّكِه بِالحَقِّ، ويُؤَكِّدُ لَهُ أنْ لا أحَدَ يَستَحِقُّ أنْ يأتيَ النَّصرُ على يَدَيْه إلاَّ هُـوَ، لِطُهْرِ أخلاقِه، وعِفَّـةِ نَفسِه، ولا يَفتَحُ القُدسَ إلاَّ الطَّاهِرُ اليَدِ، العفيفُ النَّفْسِ:

رأيتُ صلاحَ الدينِ أفضلَ مَنْ غَدا
وأشرَفَ مَنْ أضحَى وأكرَمَ مَنْ أمسَى

فَلا يَستَحِقُّ القُدسَ غَيرُكَ في الوَرَى
فأنتَ الذي مِن دُونِهِم فَتَحَ القُدسا

ومِن قَبلِ فَتحِ القُدسِ كنتَ مُقَدَّسًا
فلا عَدِمَتْ أخلاقُكَ الطُّهرَ والقُدسا

نَزَعتَ لِباسَ الكُفرِ عن قُدسِ أرضِها
وألبَستَها الدينَ الذي كَشَفَ اللُّبسا

وعادتْ بِبَيتِ اللهِ أحكامُ دينِهِ
فلا بَطرَقًا أبقَيتَ فيها، ولا قَسًّا(٧١)

وقد شاعَ في الآفاقِ عنكَ بِشارةٌ
بأنْ أذانَ القُدسِ قد بَطَلَ النَّقْسا(٧٢)

ولَمَّا أفاءَ اللهُ على العالَمِ الإسلاميِّ عَودةَ بيتِهِ المُقَدَّسِ، وأكرمَهُم بهذا الفتحِ العظيمِ، وأعَزَّ اللهُ دينَهُ ونَصَرَ الحَقَّ، ودَحَرَ الباطِلَ، وارتَفَعَ صوتُ الأذانِ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ أرسَلَ صلاحُ الدينِ البِشارَةَ إلى الخَليفَةِ العباسي النَّاصر بِبَغدادَ، والذي كانَ صلاحُ الدين يَعُدُّ نَفسَهُ سَهمًا مِن سِهامِهِ، وقائِدًا مِن قُوَّادِ جُيوشِهِ، وكانَ الخليفةُ نَفسُهُ، يُعَدُّ رَمزَ وَحدَةِ الدولةِ الإسلاميَّةِ، والعَلَمَ الذي تَجتَمِعُ حولَهُ الشُّعوبُ الإسلاميَّةُ مُتآزِرَةً مُتَكاتِفَةً.. وكانتِ البِشارَةُ لِلخليفةِ قَصيدَةً قُدسيَّةً مِن نَظمِ العِمادِ الكاتِبِ..وجَّهَهُ إلى نَظمِها وتَحبيرِها صلاحُ الدين..قال العمادُ يُخاطِبُ الخليفةَ:

أَبشِر بِفَتحٍ - أميرَ المُؤمِنينَ - أتَى
وَصيتُهُ في جميعِ الأرضِ جَوّابُ(٧٣)

أحيا الهُدَى، وأماتَ الشِّركَ صارِمُهُ
لقد تَجَلَّى الهُدَى والشِّركُ مُنجابُ(٧٤)

بِفَتحِهِ القُدسَ لِلإسلامِ قد فُتِحَتْ
في قَمعِ طاغِيَةِ الإشراكِ أبوابُ

فَفي مُوافَقَةِ البيتِ المُقَدَّسِ لِلْـ
ـبيتِ الحَرامِ لِناتِيهِ وإعجابُ(٧٥)

وقال بدرُ الدينِ النابُلسي يُقَرِّظُ جُهودَ صلاحِ الدينِ، ويُشيدُ بِبُطولاتِهِ، ويُمَجِّدُ النَّصرَ العَظيمَ الذي أتى على يَدَيهِ، إذْ وَفَّقَهُ اللهُ وهيَّأ لَهُ فُرصَةَ هذا الفَتحِ المُبينِ فَتحِ بيتِ المَقدِسِ والمَسجِدِ الأقصى وكسرِ عُنفُوانِ البُغاةِ الغُزاةِ مِن الإفرنجِ.وها هو ذا حُلمُ المسلمينَ الكبيرِ يَتَحَقَّقُ بِفَتحِ بيتِ المَقدسِ، وها هي راياتُ النَّصرِ تَخفِقُ مُعلِنَةً فَرَحَ الأُمَّةِ وسُرورَها وزَغاريدِ البِشرِ تتَعالَى في جميعِ بُلدانِ العالَمِ الإسلامي، بعدَ أنِ انزاحَتِ الصَّخرَةُ الثَّقيلَةُ التي كانت ترزَحُ مُنطَبِقَةً على صَدرِ العالَمِ الإسلامي، والتي كانتْ تُؤَرِّقُ المُخلصينَ الشُّرفاءِ مِن أبناءِ الأُمَّةِ، وتَمنَعُ النومَ مِن زيارةِ أجفانِهِم. قال النابُلسي:

هذا الذي كانت الآمالُ تَنتَظِرُ
فَليُوفِ لِلهِ أقوامٌ بما نَذَرُوا

بِمثلِ ذا الفَتحِ -لا واللهِ- ما حُكِيَتْ
في سالفِ الدَّهرِ أخبارٌ ولا سِيَرُ
يا بَهْجَةَ القُدْسِ إذْ أضحَى بهِ عَلَمُ الـ
إسْلامِ من بَعدِ طَيٍّ، وهْوَ مُنْتَشِرُ
يا نُورَ مَسْجِدِهِ الأقصَى، وقد رُفِعَتْ
بعدَ العُيُوبِ بهِ الآياتُ والسُّوَرُ
يا مالِكَ الأرضِ مَهْدِها، فما أحَدٌ
سِواكَ من قائمٍ للمَهْدِ، يُنْتَظَرُ
ما اخضَرَّ هذا الطِّرازُ السَّاحِليُّ ذُرَى
إلاَّ لِتَعلو بِهِ أعلامُكَ الصُّفْرُ[٧٦]

وقال أبو عليٍ الحسَنُ بنُ على الجُوَينِي[٧٧] يَمدحُ صلاحَ الدينِ، ويَتَغنَّى بالفتحِ (فَتْحِ بيتِ المَقدِسِ) مُعـبِّرًا عن فَرحتِهِ وفرحَـةِ الأُمَّةِ بعودةِ القُدسِ إلى أهلِها الشرعيين:

جُنْدُ السَّماءِ لِهذا المَلْكِ أعوانُ
مَنْ شَكَّ فيهِم فهذا الفَتْحُ عُنْوانُ
هذي الفُتُوحُ فُتُوحُ الأنبياءِ، وما
لَها سِوى الشُّكرِ بالأفعالِ أثمانُ
أضحَتْ مُلوكُ الفِرَنجِ الصِّيدُ في يَدِهِ
صَيْدًا، وما ضَعُفُوا يومًا وما هانُوا
لِلنّاصِرِ ادُّخِرَتْ هذي الفُتُوحُ، وما
سَمَتْ لَها هِمَمُ الأملاكِ مُذْ كانُوا
لو أنَّ ذا الفَتْحِ في عَصْرِ النَّبِيِّ، لقَدْ
تَـنَـزَّلَـتْ فيـهِ آيـاتٌ وقُـرآنُ
إذا طَوَى اللهُ ديوانَ العِبادِ، فَما
يُطوَى لأجْرِ صَلاحِ الدينِ ديوانُ[٧٨]

وشاركَـتْ مِصرُ (كِنانَـةُ العربِ) أبنـاءَ عُمومَتِها أهلَ الشامِ فَرحتَهم بالنَّصرِ المُؤَزَّرِ، والفَتْـحِ العظيمِ على لِسـانِ نَقيبِ أشرافِها محمد بن أسعد بن علي بن معمر. الحُسيني الجوَّاني:

أتُـرَى مَنامًا ما بِعَيْنِي، أُبْصِرُ
القُدْسُ يُفتَحُ والفِرَنْجَةُ تُكسَرُ
ومَليكُهُمْ في القيدِ مَصْفُودٌ، ولم
يُرَ قَبْلَ ذاكَ لَهُم مَليكٌ، يُؤسَرُ
قد جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ الذي
وُعِدَ الرَّسُولُ فَسَبِّحُوا واستَغْفِرُوا
فُتِحَ الشَّامُ وطُهِّرَ القُدْسُ الذي
هوَ في القِيامَةِ لِلأنامِ المَحْشَرُ

ولم تكنْ بِـلادُ الأندلسِ (بالمَغربِ) بِمَنْأَى عن أفـراحِ المُسلمينَ في المَشـرِقِ، فأغاريدُ الفرحِ المَشرِقِيِّ تَجاوبَتْ أصداؤها في أرجاءِ فَردَوسِنا المَفقودِ، فتَحَرَّكتْ كَوامِنُ الشَّوقِ في أفئدَةِ ما تَبَقَّى مِنْ أهلِنا في المَغربِ، فانْطلقَتْ ألسِنَتُهُم بِتَرديدِ نَشْوَةِ النَّصرِ بِعَودَةِ الأقصَى السَّليبِ، وطهورِهِ، فهذا أبو الحُسَيْنِ بنُ جُبَيْرٍ الأندلسـي يُرَدِّدُ أناشيدَ الابْتِهـاجِ وأغنياتِ الانْتِصارِ المَشْرِقيَّةِ.. فيقول:

أطَـلَّـتْ عـلـى أُفْـقِـكَ الـزَّاهِـرِ
سُـعـودٌ، مِـنَ الـفَـلَـكِ الـدَّائِـرِ

فَتَحتَ لِلقُدسِ أبوابَهُ
فَعادَتْ إلى وضعِها الطّاهِرِ
وجِئتَ إلى قُدسِهِ المُرْتَضَى
فَخَلَّصتَهُ مِن يَدِ الكافِرِ
وأعلَيتَ فيهِ مَنارَ الهُدَى
وأحيَيتَ مِن رَسْمِهِ الدَّاثِرِ
لَكُمْ ذَخَرَ اللهُ هذي الفُتُوحَ
مِنَ الزَّمَنِ الأوَّلِ الغابِرِ
وخَصَّكَ مِن بَعدِ فاروقِهِ
بِها لاصْطِناعِكَ في الآخِرِ

أمّا شاعرُ الأندلس الحكيم أبو الفضل الجُلياني الأندلسي فقد شاركَ المشارقةَ فرحتَهم، فغرَّدَ بتمجيدِ هذا الفتح العظيم، وأشادَ بفضلِ الفاتح، فقال:

يا فاتحَ المسجدِ الأقصَى على دَهَمٍ
وقانِصَ الجيشِ لا يُحصَى بِقَفزَتِهِ[79]
أبشِرْ بِمُلكٍ كظَهرِ الشَّمسِ مُطَّلِعٍ
على البَسيطةِ فَتّاحٍ بِنَشْرَتِهِ
حتى يكونَ لهذا الدينِ مَلحَمَةٌ
تَحكِي النُّبُوَّةَ في أيامِ فَترَتِهِ[80]

وإذا ما انتقلنا لنُلقِيَ نظرةً على شِعرِنا المُعاصِرِ فإنَّنا نَجِدُ القُدسَ كامنةً خالدةً حيَّةً في أفئدةِ شُعرائنا المُعاصرين؛ يُمَجِّدونَ ذِكراها، ويُعلُونَ قَدرَها، ويُجِلُّونَ مَكانَتَها.. هذا خير الدين الزركلي يَرى كئيباً مَقهوراً حينَ يُلاحِظُ ما حَلَّ بالمسجدِ الأقصى...ها هُوَ يُخاطِبُ الوليدَ بنَ عبدِ الملك، ويُعلِمُهُ أنَّ الأقصَى الذي بَناهُ تُراثاً ومُصلًّى للعربِ والمُسلمينَ، قد أصبحَ مَهجوراً خَرِباً، وقد طُرِدَ أهلُهُ منهُ، فهذا بلفور جادَ بما لا يَملِكُ، فَمَنحَ الأقصَى لِمَنْ لا يَستَحِقُّ، فضاعَ (معروفُ بلفور) ابتلعَهُ شعبٌ أنانيٌّ جاحِدٌ، مَريضٌ مَهينٌ:

قُل (للوليدِ) وقد تَعالَى قَبْرُهُ
عن أنْ تُلِمَّ بهِ، فلستَ تَقولُ
المَسجِدُ الأقصَى وأنتَ أقمْتَهُ
حَرَماً، خَلا مِحرابُهُ المَأهولُ
أمسَتْ فِلسطينٌ مَناخاً لِلرَّدَى
وتُرابُها بدِمائِها مَجبولُ
في كُلِّ رابِيَةٍ جُسُومٌ مُزِّقَتْ
وبكُلِّ وادٍ أنّةٌ وعَويلُ
بِلفورُ مُوقِدُ نارِها، وعلى اللَّظَى
عَدنانُ مَحمولٌ وإسرائيلُ
أَيُبادُ قَومٌ كَي يَحِلَّ مَحَلَّهم
قَومٌ، ويَرعَى القاتِلَ المَقتولُ
تَوراةُ مُوسَى تَشتَكيكَ وتَحتَمي
باللهِ، والقرآنُ والإنجيلُ[81]

ويصفُ خير الدين الزركلي حالَ فلسطين والمسجدَ الأقصى غداةَ إرسالِ الأمم المتّحدة لجنة التَّحقيق التي رأسَها مستر (بل) والتي

لم يَكنْ لها هَدَفٌ في الحقيقة، إلاَّ إعطاء الغاصب فُرصةَ ترتيبِ قُوَّاته، وتهيئة الأجواء للانقضاض من جديد على لُقمةٍ أخرى من أرض فلسطين العربية. والأقصى وسُكّانُه الشرعيون في همٍّ وغمٍّ، يُصبحونَ على ما أمسَوا عليه منَ الهمِّ والغمِّ والحالِ السيِّئ:

صَرَخَتْ فلسطينُ الكليمةُ صَرخةً
تَشكُو ظُلامَتَها فسالَ عَقيقُها(٨٢)
هيَ شَهْقَةٌ حملتْ مآسيَ أمَّةٍ
بِشَبا الأسنَّةِ قد أُجيبَ شَهيقُها(٨٣)
لا بُدَّ للمَحزونِ مِنْ تأويهةٍ
وأشدُّ آهاتِ الصُّدورِ عَميقُها
للمَسجدِ الأقصَى المُبارَكِ حولَهُ
نَظَراتُ هَمٍّ مُوجَعٌ تَحديقُها(٨٤)

والشاعرُ الفلسطيني المجاهد عبد الرَّحيم محمود، يُخاطِبُ أحدَ زُعماءِ العربِ، وقد جاءَ يَزورُ المسجدَ الأقصى عام ١٩٣٥ والمُؤامَرَةُ في ذروةِ فُصُولِها، فرحَّبَ به وخاطَبَهُ قائلاً:

سَهْلاً وطِئْتَ، ولو نَزَلْتَ بِمُمْحِلٍ
يَوماً لأمْرَعَ منْ نُزولِكَ بَلقَعُهْ(٨٥)

لكنَّ نفسَهُ لم تُطاوِعْهُ على الاستمرارِ في الترحيبِ بالزائرِ الكريمِ، وفي نفسِهِ أنَّ العربَ، كُلَّ العربِ كانُوا مُقصِّرينَ بِحَقِّ المَسجدِ الأقصى، وفلسطين وشَعبِها، والمُستعمِرونَ الغربيون (وخاصَّةً الإنجليز) الأخباث الذين كانُوا يحتلُّون فلسطين يُوهِمونَ زُعماء العرب أنَّهم يَقفونَ على الحِيادِ، وأنَّ مَواقِفَهم مِنَ القضيَّةِ نَزيهةٌ، وهم في الحقيقة يُؤيِّدونَ الغُزاةَ المُهاجرين اليهودَ، ويَمُدُّونَهم بِكُلِّ أسبابِ القُوَّةِ والبَطْشِ، ويُكَتِّفُونَ أبناءَ فلسطين ويَحْرِمونَهم مِن كُلِّ وسائلِ الدِّفاعِ عن النَّفسِ والعِرضِ والوَطَنِ.. فعبد الرحيم يُخاطِبُ الزائرَ الكريمَ بِكلامٍ تُسيطرُ عليه مَرارةُ العِتابِ وغُصَّةُ الألَمِ النابعِ مِن قَلبٍ مُعذَّبٍ جَريحٍ:

المَسجِدُ الأقصَى أتَيتَ تَزورُهُ
أمْ جِئتَ مِن قَبلِ الضَّياعِ تُوَدِّعُهْ
حَرَمٌ تُباحُ لِكُلِّ أوكَعَ آبِقٍ
ولِكُلِّ أفّاقٍ شَريدٍ، أرْبُعُهْ(٨٦)
وغَداً-وما أدناهُ-لا يَبْقَى سِوَى
دَمْعٍ لَنا يَهْمِي وسِنٍّ نَقْرَعُهْ(٨٧)

والشاعرُ المِصريُّ الكبيرُ علي محمود طه يَرَى أنَّ بَغْيَ اليهودِ وظُلمَهُم قد تَجاوَزَ حُدودَ المَعقولِ؛ وأنَّهم طَغَوا وبَغَوا وأكثَروا في أرضِ العربِ الفَسادَ، وآنَ أوانُ تَحجيمِهِم، وإيقافِ طُغيانِهِم وجَبَروتِهِم، وانتِزاعِ مُقدَّساتِنا مِن بينِ أيديهِم:

أخي جاوَزَ الظّالِمُونَ المَدَى
فَحَقَّ الجِهادُ وحَقَّ الفِدا

أخي إنَّ في القُدْسِ أُختًا لَنا
أعَدَّ لَها الذَّابِحونَ المُدَى

أخي قُمْ إلى قِبْلَةِ المَشْرِقَيْنِ
لِنَحْمِيَ الكنيسةَ والمَسْجِدا

يَسُوعُ الشَّهيدُ على أرضِها
يُعانِقُ في جيشِهِ أحمَدا

فلسطينُ يَفدي حِماكِ الشبابُ
وجَلَّ الفِدائيُّ والمُفتَدَى

فلسطينُ تَحميكِ مِنّا الصُّدُورُ
فَإمّا الحيَاةُ وإمّا الرَّدَى

والشاعرُ السوريّ المُعاصِر شَفيق جَبْري يَتَساءَلُ مُتَعَجّبًا مَشْدُوهًا مِن لَهْوِنا وتَسامُحِنا، واليَهودُ يَعيثُونَ بِبيتِ المقدسِ فَسادًا، كيفَ اجتَمَعُوا على باطِلِهِم؟ وكيفَ نَتَفرّقُ عن حَقّنا؟ جاؤوا مِن مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها، ومِن مُنحَدَراتِها وسَوافِلِها فاتَّحَدَتْ قُواهُم وتآزَرَ أشرارُهم، بينَما نَحنُ ساهونَ لاهونَ، وبِحَقّنا مُتَهاوِنُونَ، وعنهُ مُتَفَرّقون.

أيَعيثُ اليَهُودُ في حَرَمِ القُدْ
سِ فَسادًا، والنَّومُ يَأخُذُ مِنَّا

لَفَظَتْهُم جَوانِبُ الأرضِ، شُذَّا
ذًا، فَتاهُوا القُرونَ قَرْنًا قَرنا[88]

ضَجِرَتْ مِنْهُمُ الشَّياطِينُ والإنْـ
ـسُ، فَأنّى نَحْنُو عليْهِمُ أنّى[89]

احْصُدُوهم حَصْدَ السَّنابِلِ حتى
تَتَداعَى صُهْيُونُ رُكْنًا رُكنا[90]

والشاعرُ الكبيرُ بَدَوي الجبلِ يَرَى أنَّ الثُّكْلَ واليُتْمَ قد انتَشَرا في وطَنِنا، وهذه أنّاتُ الثَّكالَى، وتأوُّهاتُ اليَتامَى تشهدُ بِشَراسةِ الهَجمَةِ علينا، ويُؤكّدُ أنَّ الاستشهادَ ذِروَةُ الإحسانِ، وأنَّ الجُودَ بالروحِ في سبيلِ الوطنِ أسمَى درجاتِ الكرمِ والسَّخاء:

هل في الشّآمِ وهل في القُدْسِ والِدَةٌ
لا تَشتَكي الثُّكْلَ إعْوالاً وإرْنانا

تِلكَ القُبُورُ فَلو أنّي أُلِمُّ بِها
لم تَعدُ عَيْنايَ أحبابًا وإخوانا

يُعطي الشَّهيدُ، فَلا واللهِ ما شَهِدَتْ
عَيْني كإحسانِهِ في الكَونِ إحسانا

وغايَةُ الجودِ أنْ يَسْقي الثَّرَى دَمَهُ
عندَ الكِفاحِ ويلقَى اللهَ ظَمْآنا[91]

وألقَى بدوي الجبلِ في ذكرَى عيدِ الجَلاءِ، بعدَ انْدِحارِ المُستَعمِرِ الباغي ببضعِ سنَواتٍ، وفي عهدِ الرئيسِ شكري القوتلي.. ألقَى قصيدةً عَصماءَ لَمّحَ فيها لبعضِ قادةِ العربِ الأنانيين الإقليميين، الذينَ كانتْ مَسؤوليّةُ بيتِ المَقدسِ مَنُوطَةً بِهِم، يُجَعجِعونَ بِألفاظٍ ويُطلِقُونَ تَصريحاتٍ نارِيّةً، لا هيَ حَمَتْ شَرَفَ القُدْسِ، ولا سانَدَ قائلُها جيرانَهُ في نِضالِهِم. فَحمَلَتْ بِلادُنا يومذاكَ هُمومَ

الأُمَّةَ على كاهلِها، ووَقَفَتْ بوَجهِ الغاصبِ وقفةَ البَطَلِ العنيدِ المُتمرِّدِ المُدافعِ عن حَقِّ أُمَّتِه، قال يُخاطِبُ الرئيس:

حَمَلتَ هُمومَ قَومِكَ، فاسْتَراحوا
وغيرُكَ لا اسْتراحَ ولا أراحا
بطاحُ القُدسِ دَنَّسَها مُغيرٌ
فَهل صانَتْ كتائبُهُ البطاحا
ولم يَغضَبْ لنا أيّامَ كُنّا
حِمًى نَهْبًا وشَعبًا مُستَباحا
ولا صَدَّتْ سَراياهُ عَدُوًّا
ولا هابتْ حَمِيَّتُهُ كِفاحا
نُجابِهُ بالحَديدِ ونَحنُ عُزْلٌ
فيُغْضي لا إباءَ ولا طِماحا
تَنَكَّرَ فهوَ لو كَشَفتَ عنه
أسَفَّ مَجانَةً وهوًى مِزاحا(٩٢)

والشاعرُ محمود حسن إسماعيل يُعلِنُ أنَّ قُبَّةَ الصَّخرةِ في بيتِ المقدسِ فَقدَتْ نُورَها، وغادرَها ضِياؤها، مُنذُ أنْ سيطرَ فيها الغُرَباءُ، واضطرَّ أهلُها الشرعيون للنُّزوحِ عَنها، فلا ترتيلَ فيها ولا أذانَ.. حتى شاركتْهم الحُزنَ طُيورُ المَساءِ، فعَزَّ عليها أنْ يَفقدَ الأقصى بَهاءَه، وأنْ يَخبُوَ في أنحاءِ القُدسِ صَوتُ الأذانِ، ورنينُ أجراسِ الكنائسِ، فهي(أيْ طُيورُ المَساءِ) تَهتِفُ مُغرِّدةً معَ بيتِ المقدسِ أشجانَ الحُزنِ، وترانيمَ الأسى والألَمِ، فتقولُ:

يا قُدسُ يا حبيبَةَ السَّماءْ
قُومي إلى الصَّلاةْ
وبارِكي الحَياةْ
ورَدِّدي التَّسبيحَ في المآذنْ
وأيقِظي الأجراسَ في المَدائنْ
وكَبِّري للهِ لا تُهادي
قُومي إلى الصَّلاةْ
وبارِكي الحَياةْ
لا تُوقفي الدُّعاءَ للرَّحمانْ
مَهْما لَقيتِ من أذى الشَّيطانْ(٩٣)

والشاعرُ الكبيرُ الأخطلُ الصَّغيرُ جعلَ جُرحَ فلسطينَ مُقدَّسًا مُعظَّمًا، يُقدِّسُهُ المُخلِصونَ مِنَ العربِ، مُسلِموهم ومسيحيوهم، يَجعلونَ القُدسَ قِبلَةً، يُكَرِّمونَها ويُجِلّونَها ويعَدّونَها مَوضوعًا لصَلاتِهم، وأدعيةً في تَسابيحِهم، كي لا تَغيبَ عن أذهانِهم:

يا جهادًا صَفَّقَ المَجدُ لَهُ
لَبِسَ الغارُ عليهِ الأرْجوانا
شَرَفٌ باهَتْ فلسطينُ بهِ
وبِناءٌ للمَعالي لا يُدانى

إنَّ جُرحَا سالَ مِنْ جَبْهَتِها
لَثَمَتْهُ في خُشوعٍ شَفَتانا
نَحنُ يا أختُ على العَهْدِ الذي
قَدْ رَضِعناهُ مِنَ المَهْدِ كِلانا
يَثرِبٌ والقدسُ مُنذُ احتَلَما
كَعبَتانا وهَوَى العُرْبِ هَوانا[٩٤]

وأمَّا نزار قبَّاني وبعدَ تَرَدُّدٍ مِنَ العربِ، وتَراخٍ مِنهم، وتَلَكُّؤٍ في قَبولِ الكفاحِ المُسَلَّحِ طَريقًا وحيدًا لاستنقاذِ الحُقوقِ، واستردادِ الهَيبَةِ والكَرامَةِ. بعدَ كُلِّ ذلكَ يُؤَكِّدُ أنَّ مَشاريعَ السَّلامِ ما هيَ إلاَّ حُقَنُ تَخديرٍ للشُّعوبِ، وأنَّ مَـن يُثَرثِرونَ بالعَدلِ ونَيلِ الحقوقِ بالوَسائلِ السِّلميَّـةِ، كُلُّ ذلـكَ ما هُـوَ إلاَّ إلهاءٌ للأُمَمِ المَغلوبَـةِ المَقهـورَةِ، ولَعِـبٌ بعَواطفِها.. وأنَّ الطَّريـقَ إلى فلسطينَ وتَحريرِ المُقدَّساتِ في بيتِ المقدسِ، هو استخـدامُ القُوَّةِ ولا شيءَ غيرُ القُوَّةِ.. قالَ نزار:

يا أيها الثُّوار
في القدسِ، في الخَليلِ، في بيسانَ، في الأغوار
في بيتِ لَحمٍ.. حيثُ كنتُم، أيُّها الأحرارْ
تَقَدَّموا.. تَقَدَّموا
فقصَّةُ السَّلامِ مَسرَحِيَّةْ..
والعَدْلُ مَسرحِيَّةْ.. إلى فلسطينَ طَريقٌ واحدٌ
يَمُرُّ مِنْ فَوهَةِ بُندُقِيَّةْ..[٩٥]

ويَرى عُمرُ أبو ريشة أنَّ مُقَدَّساتِنا المَسلوبةَ في بيتِ المَقدسِ، جَمَعتْ قُلوبَ العربِ ووَحَّدتْ مَشاعِرَ المُسلِمـينَ مِنَّا والمَسيحيين، ووطَّدَتْ ما بينَنـا مِنْ صِلاتٍ؛ رصَّتْ صُفوفَنا ومَتَّنَتْ روابِطَنـا، وتَخَطَّـتْ ذلكَ فشَـدَّتْ مَشرِقَنا العربِـيَّ بِمَغرِبِهِ، وأعادَتِ اللُّحمَةَ بينَ شامِنا وحِجازِنـا، وعِراقِنا ومصرِنا، وجميعِ أقطارِ بِلادِنا، لِتَقِفَ أُمَّتُنا طَودًا مَتينًا شامِخًا ثابِتًا، لا يَتزَحزَحُ في وجهِ الغاصبينَ المُعتَدين:

يا روابي القُدسِ يا مَجلَى السَّنا
يا رُؤى عيسَى على جفنِ النَّبي[٩٦]
دونَ عَلْيائكِ في الرُّحبِ المَدَى
صَهلَةُ الخَيلِ، ووهَجُ القُضُبِ[٩٧]
لُمَّتِ الآلامُ مِنَّا شَملَنا
ونَمَتْ ما بَينَنا مِنْ نَسَبِ
فـإذا مِصرُ أغاني جِلَّقٍ
وإذا بَغدادُ نَجوَى يَثرِبِ
ذَهَبَتْ أعلامُنا خَفَّاقَةً
والتَقَى مَشرِقُها بالمَغرِبِ
كُلَّما انقَضَّ عليْها عاصِفٌ
دَفَعَتْهُ في ضُلوعِ السُّحُبِ[٩٨]

ويُصَوِّرُ عُمرُ أبو ريشة بيتَ المَقدسِ زورَقًا سيِّئَ الحَظِّ لأنَّهُ يمخُرُ بَحرًا مِنَ الدِّماءِ، لَهُ أشرِعَـةٌ مُصاغَةٌ مِنَ الآثامِ والأوزارِ، تَمضي عليْهِ الليـالي، وتَمُرُّ عليهِ الأحداثُ، فتَقذِفُهُ

بِسهامِهـا، وترشُقُهُ بِنِبالِها، فليسَ مِنْ عَصْرٍ يمُرُّ، أو زَمَنٍ يفـوتُ إلاَّ ويَدَعُ في جَسَدِ هذا الـزورَقِ جِراحًا ونُدوبًا تَظَـلُّ ماثِلَةً في هذا الجَسَدِ، حتى يأتيَ عليهِ زَمَنٌ آخَرُ، فيُضيفُ هذا الآخَـرُ تَواقيعَ مِن جِـراحٍ حَديثَةٍ تُزادُ على جَسَدِ هذا الـزُّورَقِ ذي الحَظِّ العاثِرِ. ولَعَـلَّ أبرزَ هذهِ الجِـراحِ، تِلكَ التي وضَعَها عَهْـدُ الصَّليبيـينَ، فَما زالَـتْ أنيابُ هذا العهدِ ماثِلَةً أمامَ أعيُنِنا، ظاهِرَةً بارِزَةً، ومِمَّا يَزيدُهـا بُروزًا ووُضُوحًا أنَّ بعضَ أبناءِ (أُمَّةِ القُدسِ)كانُوا مِـنَ الفَجَرَةِ الغَـدَرَةِ، الذينَ أظْهَروا مِن جَشَعِ دُنْياهم، وفَسادِ طَواياهم، ما مَسَخَ وَفاءهم ولَطَّخَ كِبرياءَ نُفُوسِهِم. قال أبو ريشة:

والقُدْسُ، ما للقُدْسِ يَختَرِقُ الدُّما
وشِـراعُـهُ الآثـامُ والأوزارُ
أيُّ العُصُورِ هَوَى عليهِ وليسَ في
جَنْبَيْـهِ مِـن أنيـابِـهِ آثـارُ
عَهْدُ الصَّليبيينَ لم يَـبْرَحْ لَهُ
في مَسمَعِ الدُّنيا صَدَى دَوَّارُ
صَفَّ المُلوكَ فما استَباحَ إباؤهم
شَرَفَ القِتالِ، ولا أهينَ جِوارُ
نامُوا على الحُلْمِ الأبيِّ فَنَفَّرَتْ
مِنهُ الطُّيُوفَ بُنُـوَّةٌ فُجَّارُ
صَلَبُوا على جَشَعِ الحياةِ إباءهم
ومَشَوا على أخشابِهِ وأغارُوا[٩٩]

وتَشغَـلُ انْتِفاضَةُ الأقصَى (التي تتفاعَلُ أحداثُها في أيَّامِنا) بالَ شُعرائنا المُعاصِرينَ، وتُؤرِّقُهُـم وتُقِضُّ مَضاجِعَهم، لكنَّ الفَألَ الحَسَنَ ملأ قُلوبَهم، فَجَعَلُوا هذهِ الانْتِفاضَةَ رَمْزًا لِبَقاءِ أهلِنـا في فلسطين، ودَليلاً على خُلُودِ حياتِهِم، وتَشَبُّثِهِم بأرضِهِم، وصَوَّروها لَنا أمَلاً يَجـيءُ مَعَ حِجـارَةٍ يُلقي بِها على دَبَّاباتِ العَـدُوِّ فِتيانٌ أحداثٌ، يُحيُونَ الحُلُمَ الـذي وُئِدَ طِفـلاً ويَبعَثُونَ تَباشـيرَ الرَّجاءِ التـي كادتْ تَمَّحي آثـارُهُ، وتَمـوت.. هذا أحمد مفلح ابنُ فلسطين الذي جعل القُدسَ نِبراسـا يستَضيءُ بِهِ، ويَستَعينُ بِشُعاعِهِ على نَظْمِ قَوافيهِ، ها هو ذا جعلَ الانْتِفاضَةَ نَبضَ قُلـوبِ الجَماهيرِ، وجعـلَ المُنتَفِضينَ طُيُورَ الأبابيلِ،كَمـا جَعَـلَ حِجارَتَهم مِـنْ سِجِّيلٍ، فَذَكَّرَنا بِنَصْرٍ قَديمٍ مِنَ اللهِ، وغَوثٍ كَريمٍ مِن جَنابِهِ، نأمُلُ أنْ يَمُنَّ اللهُ علينا بِنَفحَةٍ مُؤَيِّدَةٍ مِـن نفحاتِهِ، ويَمُدَّنا بِهَبَّةٍ مِـن نَسائمِ جُودِهِ وسَخائهِ، فاللهُ جَلَّ وعَـلا بِقُدرَتِهِ وجَبَروتِهِ يُقَرِّبُ البَعيدَ، ويَجعَلُ المُستحيلَ مُمكِنًا.. بعدَ أنْ تَكالَبَ علينا مِنَ الأعداءِ من لم نَكُنْ نَتَوَقَّعُ، ولم نَكُنْ نَحسَبُ لَهُ حِسابًا.. قال المُفلح:

أرضٌ مُقَدَّسَةٌ وصَـدْرٌ عارِ
ودَمٌ يُـؤَجِّجُ ثَـورَةَ الأحـرارِ

مِنْ قُبَّةِ الإسراءِ شَبَّ أُوارُها
وتَلاقَحَتْ في سائرِ الأمْصارِ[100]

هذا لَعَمْري الانْتِصارُ بِعَيْنِه
شِبْلٌ يُزَلْزِلُ دَوْلَةَ الأشْرارِ

ما الانْتِفاضَةُ غَيْرَ نَبْضِ قُلوبِنا
ومَسيرَةِ التَّحْريرِ والإصْرارِ

لا يُدهِشَنْكَ عَزْمُهُم وصَهيلُهم
فَحِجارَةُ السِّجّيلِ كالمِسْعارِ

مِنْ أجلِنا نَذَروا الدِّماءَ زَكيَّةً
كَيما نَعيشَ بِعِزَّةٍ وفَخارِ[101]

وهكذا نَرَى أنَّ بيتَ المَقْدِسِ التي كانَتْ مَيدانَ الجِهادِ الذي تَتَلاقَى حولَهُ جميعُ أسلِحَةِ المُجاهِدينَ، وحُشودِ المُناضِلينَ ساعيَةً لِتَحْريرِهِ وتَطْهيرِهِ، واقْتِلاعِ آثارِ المُعْتَدينَ الغاصبينَ مِن جُذورِها، وقَذْفِها وراءَ أسوارِ المَدينَةِ المُقَدَّسَةِ، ظَلَّتْ مَيدانًا لِلمَعارِكِ بينَ الغُزاةِ الأغرابِ وأهلِ الدّارِ، وأصحابِ الحَقِّ. والقُدسُ في نَظَرِ الجميعِ بُؤبُؤُ العَيْنِ، ومُهجَةُ القَلبِ وبَلسَمُ الرّوحِ، ونَبْضُ الجَسَدِ، حيثُ يَشعُرُ الناظِرونَ أنَّ هذا الجَسَدَ ما زالَ حيًّا وأنَّ الأُمَّةَ مازالَتْ بِخَيْرٍ.. وسَتَظَلُّ القُدسُ مُحافِظَةً على قَدْرِها العَظيمِ، ومَكانَتِها الجَليلَةِ في قُلوبِ أبناءِ الأُمَّتَيْنِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، والمُحَرِّكَةِ لِمَشاعِرِ الغَضَبِ، وأحاسيسِ الحَنَقِ على المُعتَدينَ الغاصِبينَ وأعوانِهِم، ما دامَ جُنودُ العَدُوِّ يَغتالونَ حُرِّيَّةَ قُدسِنا، ويأسرونَ نَبْضَ أرواحِنا، ويَنتَهِكونَ حُرُماتِ أهلِنا في أقدَسِ بِقاعِ وطَنِنا.

الهوامش:

١- انظر القاموس المُحيط لِلفيروز آبادي (قدس).

٢- لسان العرب لابن منظور، وأساس البلاغة لِلزمخشَري (قدس) والكِرسُ: أصْلُ البِناءِ (أيْ هُوَ أولى بالخِلافَة).

٣- سورة البقرة الآية ٨٧.

٤- ديوانه ص٦٣. والبيتُ في اللسان والأساس (قدس) النَّسَا: مُؤْخَرَة الوِرك. شَبْرَقَ: مَزَّقَ.

٥- سورة الأنبياء الآية ٧١.

٦- انظر القدس بين رؤيتين ٤٣/٤٢ د. حسن الباش، وانظر تقويم بيت المقدس ص١٦٠ وما بعدها. د. عبد الفتاح عويس.

٧- سورة الإسراء الآية الأولى.

٨- الرِّحال: جمع رَحْل، والرَّحْلُ لِلجَمَلِ كالسَّرجِ لِلفَرَسِ، يُوضَعُ على ظَهْرِ البَعير. والرِّحالُ هُنا كِنايةُ

عـن السَّيْرِ والسَّفَرِ، والمُرادُ أنَّ هذهِ المَساجِد الثلاثة هيَ الوَحيدَةُ التي تُقْصَدُ للعِبادَةِ والتَّقَرُّبِ إلى اللهِ تَعالى.

٩- المَسجد الحَرام الذي بِمَكَّةَ (الكعبة) وما يُحيطُ بها.

١٠-الأقصى الذي بِبَيت المَقدس.

١١-الصَّبا - بالفَتْح -: ريحٌ تَهبّ من الشرق.

١٢-معجم البلدان لياقوت الحَمْوي ١٧١/٥.

١٣-صاح: مُنادى مُرَخَّم؛ أصلُهُ (يا صاحبي).

١٤-لُدّ: مدينة قُرْبَ القُدس.

١٥-معجم البلدان ١٥/٥. الكُنَّس: اللأتي دَخَلنَ الكِناسَ، وهو بيتُ الظَّبْي.

١٦-معجم ياقوت ١٦٦/٥.

١٧-الجَدُّ -بالفَتح-: الحَظُّ. الجِدُّ -بالكَسْر-: الاجْتِهادُ والعزيمةُ.

١٨-خريدة القصر / قسم شعراء دمشق ٢٧٧/١.

١٩-محمـود بـن زنكي المُلقّب بالمَلك العادل ٥١١- ٥٦٩ هـ= ١١١٨-١١٧٤م من المماليك حكم جزءًا كبيرًا مـن الشـام ومصر وبعض المغـرب واليمن، وخُطِبَ لَهُ في الحَرَمين، كانَ مُجاهـدًا، قاتَلَ الصَّليبيين، وبَنَى في دمشق عددًا من المدارس.

٢٠-إِنِّب- بِكَسْرَتَيْنِ وتَشديد النون - حِصْنٌ في ناحِيَةِ عزاز شمالي حلب.

٢١-الإفـرنج: الصَّليبيـون. راجِفَـة: مُزَلزِلَة. رُومِيـة: يَعني مدينةَ رومـا عاصمة البيزنطيين. يَجِبُ: يَخْفِق هَلَعًا وخَوفًا.

٢٢-ذو لجب: جيش كبير، كثير العدد.

٢٣-اللُّجُّ واللُّجَّةُ: مُعظَمُ الماءِ. لَجِب: مُضطَرِب.

٢٤-الظُّبَا: جمع ظُبَة: وهيَ حَدُّ السيفِ. الشنب: رِقَّةُ الأسنانِ وبياضُها.

٢٥-كتاب الروضتين لأبي شامة ٥٩/١ وانظر الأدب في بلاد الشام ٤٢٣ . د. عمر موسى باشا.

٢٦-عمـاد الديـن زنكي: هو أبو نـور الدين الشهيد، وهـو أول مُلوك الأسرة الزنكية، كانَ عادلاً رحيمًا بِشَعبِه، قاتَلَ الصليبيين واستردَّ مِنْهُم الرها وبعض المناطق الأخرَى.

٢٧-خريدة القصر ١١٣/١ وانظر الأدب في بلاد الشام ١٧١.

٢٨-قال ياقوت: هيت: قريةٌ في حوران (معجم البلدان ٤٢١/٥).

٢٩-الجَحفَل: الجيش الكثير العدد. الهُمام:الرجل الشجاع السَّخيّ.

٣٠-سرباله: ثِيابُهُ. بَنانُهُ: أصابِعُهُ.

٣١-خريدة القصر / قسم شعراء الشام ٢٣٥/١.

٣٢-عماد الدين الكاتب الأصبهاني، مؤرخ، عالم بالأدب، من أكابر الكتاب، ولد بأصبهان، وقدمَ بغدادَ حدَثًا = حيثُ تأدَّبَ وتَفَقَّهَ، ورحلَ إلى دمشق، فعمِلَ في ديوان الإنشاء لنور الدين زنكي، وبعدَ موت نور الدين عمِلَ وزيرًا لصلاح الدين، وبعد صلاح الدين لزمَ مدرستَهُ (العمادية) بدمشقَ وماتَ فيها، لَهُ مُؤلفات عديدة، لعَلَّ أشهَرَها خريدة القصر / انظر أعلام الزركلي ٢٦/٧.

٣٣-انظر الروضتين ٢٤٥/١ وأدب الدول المُتتابعة د. عمر موسى باشا.

٣٤-أحمد بن مُنير الطرابلسي (٤٧٣-٥٤٨هـ= ١٠٨٠ -١١٥٣م) شاعر من أهل طرابلس الشام، اتَّصلَ بنور الدين الشهيد ومدحَهُ بأبلغ قصائده، مات بحلب ولهُ ديوان مطبوع /الأعلام ٢٦٠/١.

٣٥-الكَلْكَل: الصَّدر. الدَّرين: الحشيش اليابس.

٣٦-انظر الروضتين ٤٠/١ والأدب في بلاد الشام ص١٩٨.

٣٧-محمد بن نصر المخزومي الخالدي، شاعر حلبي الأصل ولد بعكا، وماتَ بدمشقَ، ونسبَتُهُ إلى قيسارية على ساحل بَحرِ الشام لأنَّهُ أقامَ بها زَمَنًا / الأعلام ١٢٤/٧.

٣٨-الرُّها: (بالمَدّ (الرُّهاء) والقصر (الرُّها)): مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام /انظر معجم ياقوت ١٠٦/٣.

٣٩-الروضتان ٤٠/١ والأدب في بلاد الشام ٤٢٢، وأرادَ بالرَّاجل الفرنجة.

٤٠-الروضتان ١٧٩/١ والأدب في الشام ٤٢٦.

٤١-الروضتان ٢٤٧/٢ والأدب في بلاد الشام ٢٤٦.

٤٢-أبو الفضل الجلياني (٥٣١-٦٠٢هـ=١١٣٦-١٢٠٥م) اسمُهُ عبد المنعم بن عمر، وهو من أهل جليانة بالأندلس، رحلَ إلى دمشق وأقامَ فيها، وهو طبيبٌ وشاعرٌ وأديبٌ، كانَ صلاح الدين يَحتَرِمُهُ ويُجِلُّهُ، ولَهُ فيهِ مدائح كثيرة.

٤٣-صُفرَت: خَلَتْ. آلُ أصفَر، وبَنُو الأصفر: همُ الرومُ لِشُقرَةِ ألوانِهِم. الحَيْنُ: الهَلاك.

٤٤-يُشيرُ إلى مُساندَةِ القُوات المِصريَّة لأهلِ الشام. السَّلوى: طائر السُّماني. أمنان: جمع مَنّ، وهو غذاءٌ مُقَدّس كانَ يُنْزِلُهُ اللهُ معَ السَّلوى لِمَنْ يَرضَى عَنْهم من عبادِهِ.

٤٥-البِيضُ: السيوف. الخُرصان: الرماح.

٤٦-الرِّتاج: الباب.

٤٧-الأدب في بـلاد الشـام ٤٤٢ وانظر الروضتين ١١٦/٢. المَلِك - بكسر اللام -: السلطان والحاكم. المَلَك - بفَتْح اللام -: واحدُ الملائكة.

٤٨-ابـن الساعاتي(٥٥٣-٦٠٤هـ=١١٥٨-١٢٠٨م) علي بن محمد.. بن هردوز، شاعر خراساني الأصل، ولد ونشأ بدمشق، عاصَرَ الأيوبيين، ومدحَ صلاح الدين.

٤٩-الجحافل: جمع جَحْفَل وهو الجيش الكبير.

٥٠-الزُّيفُ: الغشّ والرداءةُ والفَساد. الهَفَوات: جمع هفوة: الغلطة.

٥١-البيت العتيق: الكعبة المُشَرَّفة. يَثْرِب: المَدينة المُنَوَّرة.

٥٢-أدب الدول المتتابعة ٤٨٩/٤٩٠ وانظر الروضتين ١٠٧/٢.

٥٣-الأخيذة: الشيء المأخوذ (المَنْهوب) ويعني القُدسَ.

٥٤-مَعاطِف: جَوانب. الحَجون: جَبل بِمكَّةَ.

٥٥-ادخُلوها آمِنينا: عِبارَةٌ تُقالُ لِمَن يُكرَمُ بدخول الجَنَّة.

٥٦-سُطاك: قُواكَ (يُريدُ أعمالَ المُجاهِد).

٥٧-الرَّحَى: آلةُ جَرشِ الحَبِّ وطَحْنهِ، وأرادَ مَعرَكَةً طاحِنَةً.

٥٨-بيسان وصفد: مدينتان بفلسطين. البُؤس: الشِّدَّة والمشقَّة.

٥٩-العِيُّ: العَجزُ عن التعبير (عكس الفصاحة).

٦٠-الأسَل: الرِّماح. الصُّمّ: جمع أَصَمّ؛ وهوَ المُصمَتُ (أيْ غير المُجَوَّف).

٦١-يوسف: هوَ صلاح الدين(اسْمُهُ يوسف بن أيوب). أصْمَى: أصابَ مِنْ هَدَفِه مَقْتَلاً.

٦٢-حَبا: أعطَى. الضَّريح: يَعني قَبْرَ النَّبيّ بِيَثْرِب(المَدينة المُنَوَّرة).

٦٣-ثَغـرُ الديـن: فَمُهُ. جَذلان: فرحان. الأغماد: جمعُ غِمْد؛ وهوَ بيتُ السيفِ، وأرادَ بِألسِنَتِها السيوف ذاتَها. اللَّثْمُ: التَّقبيلُ.

٦٤-الأدب في بلاد الشام ٢٦٨، وانظر الروضتين ١٠٦/٢.

٦٥-اسْمُهُ فِتْيان بن علي الأسدي، مُعلِّم وشاعر من أهل دمشق، من حيِّ الشاغور، وُلِدَ في بانياس ومات في دمشق.

٦٦-أرْدَى: قَتَلَ (والرَّدَى: الموت) قَبيل الكُفْر: جماعته. مالا يُكفَرُ بِمالا يَقدِرُ أحَدٌ على جُحُودِه.

٦٧-احمـرَّتْ راياتُـهُ مـن كثْرَةِ ما شَرِبتْ من دم الأعداء. تَمُجُّ: تَبصُقُ من كثرة الارتواء. النجيع: الدم. آل

الأصفر: الروم .

٦٨-شُوس: جمع أشوس وهو البطل الجريء .

٦٩-عَنوةً: قسْرًا، بالقُوَّة .

٧٠-ديوانه ١٤٢/١٤٣ وانظر الأدب في بلاد الشام ٢٩٦ .مُسْفِر: مُشْرِق .

٧١-البَطرقُ والبَطرِكُ -بالقاف والكاف-: رُتْبة من رُتَب رجال الدين المسيحي. والقَسُّ والقِسّيسُ: مِثْلُ ذلكَ .

٧٢-أدب الدول المُتتابعة ٤٨٧ . الآفاق: نَواحي البلاد . النَّقْس: الضَّربُ بالناقوس، وهو جَرس الكنيسة.

٧٣-صَيتُهُ: سُمْعَتُهُ. جَوّاب: مُنْتَشِر (يَجوبُ أنحاءَ الدُّنيا) .

٧٤-صارِمُهُ: سَيفُهُ. مُنْجاب: مُنْحَسِر .

٧٥-المُوافَقَةُ: المُماثلة، يعني اجتماعَ القُدسِ ومَكّةَ تحت سيطرة المُسلمين. تيهٌ: فَخْرٌ.

٧٦-انظر الروضتين ١١٨/٢ والأدب في بلاد الشام ٤٤٨ .

٧٧-لم أصِلْ إلى تَعريف لَهُ ويُنْسَبُ إلى جُوين وهي من أعمال خُراسان .

٧٨-انظر الروضتين ١٣٨/٢ .

٧٩-دُهُم: يُريدُ خيلاً دُهمًا أي سُودًا .

٨٠-انظر الروضتين ١٠٣/٢ وأدب الدول المتتابعة ٤٩٧ .

٨١-ديوان الزركلي ٢٣٠/٢٣١ .

٨٢-الكَليمة: الجَريحة. العقيق: السَّيْلُ .

٨٣-شَبا الأسنَّة: طَرَفُها الحادُّ، والأسنّةُ: رؤوس الرماح .

٨٤-ديوانه ٢٣٥ .

٨٥-المُمحل: المُجْدِب. أمرَعَ: أخصَبَ(وأمرَعَ عكس أمْحَلَ) البَلقع: الأرض القَفْر.

٨٦-أوكع: أحمق. آبِق: مِنْ أبِقَ العبدُ، إذا هرَبَ مِن سَيِّده. الأفّاق: الذي لا وَطَنَ لَهُ .

٨٧-ديوانه ١١٤/١١٥ . وقَرعُ السِّنِّ: تَعبيرٌ عن النَّدَم .

٨٨-لَفَظَتْهم: مَجَّتْهم ويَصَقَتْهم (أيْ رَمَتْ بِهِم).

٨٩-أنّى: كيف .

٩٠-الشعراء الأعلام في سورية ص٢٠٠ .

٩١-السابق ٢٥٦ .

٩٢-السابق ٢٦٨ .

٩٣-ديوانه ٣/١٣٩٧ وانظر أناشيد لها تاريخ للأستاذ خالد حمد ص١٤١ .

٩٤-أناشيد لها تاريخ ص١٨٤.

٩٥-أناشيد لها تاريخ/ خالد حمد ٢٢٦/٢٢٧ .

٩٦-السَّنا: الضّياء، ومَجلاهُ: مكانُ سُطوعِهِ .

٩٧-الوهج: البريق. القُضُب: جمع قَضيب وهو الرمح .

٩٨-الشعراء المعاصرون في سورية ٣٥٣.

٩٩-الشعراء الأعلام في سورية ٣٥٢.

١٠٠- شَبَّ: اشتعَل. الأُوارُ: لَهَبُ النار.

١٠١- ديوان (يا عيون الجليل)ص٣٩.

كتابات قبة الصخرة وزخارفها

أحمد المفتي *

في الألف الثالث قبل ميلاد السيّد المسيح عليه السلام، نزح اليبوسيون مع من نزح من القبائل الكنعانية من جزيرة العرب -وهم بطن من بطونهم الذين استوطنوا هذه الديار- فابتنى ملكهم الصّادق مدينتهم (يبوس) التي عرفت بمدينة السلام (القدس).

ويحدّثنا المؤرخون وعلماء الآثار، أن سكّان مدينة القدس، والقرى المحيطة بها يرجعون إلى أصل كنعاني، وأن لغتهم الأصلية هي الكنعانية.

* باحث في التراث العربي (سورية).

ويقودنا ذلك إلى أن جذور كتابتنا العربية التي تطوّرت عبر الأنباط والآراميين، قد انحدرت عن الكنعانية الأمّ التي ولدت في هذه المنطقة من بلاد الشام، وظلّت محافظة على جذورها بالرغم ممّا تعرضت له من محن وغزو وإبادة، ونمت بشكل طبيعي حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم.

لقد خضعت (القدس) واسمها الكنعاني (أورو –سالم) أي مدينة السلام للفراعنة المصريين منذ (١٥٥٠ ق.م) زمن تحوتمس الأول كما في ألواح تلّ العمارنة، وفي عهد تحوتمس الثالث (١٤٧٩ ق.م) أقام عليها حاكماً مصريّاً، وظلّت كذلك زمن امنحوتب الثالث وإخناتون ورعمسيس الثاني (١٢٩٢ق.م) وكانت مصدراً للأخشاب الثمينة. وفي سنة (٧٣٠ق.م) غزاها الآشوريون بقيادة ملكهم شلمنصر، وفي سنة (٥٩٩ ق.م) خضعت لنبوخذ نصر وأصبحت مستعمرة بابلية، وفي سنة (٥٣٩ ق.م) خضعت لكورش الفارسي، ثم للاسكندر سنة (٣٣٢ق.م) ثم للرومان سنة (٦٣ ق.م) وللبيزنطة سنة (٣٣٠م) ثمّ كان الفتح العربي الإسلامي سنة (١٥هـ- ٦٣٦م).

احتلّت القدس المكانة الرفيعة في قلوب المسلمين منذ بدء الدّعوة الإسلامية، فهي القبلة التي اتجه إليها نبيّهم محمد صلى الله عليه وسلم في صلاته قبل المسجد الحرام في مكة وهي التي ولاها وجهه حين بنى مسجده في المدينة فاتجه نحو الشمال، وهي التي أسري إليها بعد وفاة زوجه وعمّه في مكة وربط البراق على حائط مسجدها، وأمّ بالأنبياء ثم عرج إلى السموات العلا. وهي التي قال بحقها: لا تشدّ الرّحال إلاّ لثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى، وفيها نزلت الآيات الكريمة: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ» ولمّا استقرّت الدّولة الإسلامية في المدينة، وأصبح المسلمون على قدر من القوة لتبليغ الرّسالة والدعوة، توجّه النبي صلى الله عليه وسلم لغزو الرّوم، إلاّ أن الأجل وافاه وبَعْثُ أسامة لم يخرج بعد من المدينة، فأتمّ المهمّة أبو بكر الصديق، وأرسل إلى بلاد الشام الجيوش التي أقضّت مضجع الرّوم، وقهرت جيوشهم، وطردت هرقل من سورية إلى غير رجعة. وانتقل أبو بكر إلى الدّار الآخرة أثناء حصار مدينة دمشق، وتولّى من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فأرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح يأمره بفتح مدينة القدس. وسار أبو عبيدة

وحاصر المدينة مدّة أربعة أشهر فاستسلمت شرط أن يتسلم الخليفة عمر رضي الله عنه مفاتيحها من كبير أساقفتها البطرك (سفرونيوس) واتجه الخليفة إلى القدس، وكتب لأهلها وثيقة الأمان التي عرفت في التاريخ بالعهدة العمرية، وشهد عليها خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان. وكان أوّل مكان زاره كنيسة القيامة، وحان وقت الصّلاة وهو داخلها، فقال له سفرونيوس: مكانك صلّ، ولكنّه أبى، وصلّى على مقربة منها خشية أن يتخذ المسلمون صلاته ذريعة، فيأخذوا الكنيسة، وقابل النّصارى عمله هذا بالشكر، وقد بنى المسلمون فيما بعد مسجداً في المكان الذي صلّى عليه.

وسأل الخليفة عن الصّخرة التي عرج النبي صلى الله عليه وسلم من فوقها، فرآها وقد أصبحت عبارة عن مكبّ نفايات، فراح يحفن التراب، وينحضه بكفيه، وحذا الصحابة حذوه، فنظّفوا المكان، وأبرزوا الصخرة، وأمر الخليفة عمر أن يبنى فوقها ظلّة من خشب، وهي التي استبدلها عبد الملك بن مروان فيما بعد بهذا التصميم المعماري المثمّن الفريد.

وتجوّل الخليفة عمر في شوارع المدينة المقدّسة، وغشي أسواقها، وكانت لاتزال تئن من الخراب الذي أحدثه الغزو الفارسي سنة أربع عشرة وستمئة ميلادية. الآخرة من سنة (٧٣هـ -٦٩٢م) قضى الحجاج على ابن الزبير بعد عشر سنين من الخصام تنازع فيها الخلافة خليفتان واحد في دمشق والآخر في مكة.

بناء مسجد قبّة الصخرة والمسجد الأقصى:

في سنة (٦٦هـ -٦٨٥م)، فكّر عبد الملك أن يستبدل ظلة الخشب التي فوق الصخرة والتي كان عمر رضي الله عنه قد أمر بها، كما أراد أن يظهر عظمة الإسلام من خلال البناء، وقد شاهد عظمة الأبنية البيزنطية والرومانية والكنائس، وكان لابد من بناء يليق بعظمة الدولة التي باتت رقعتها تمتد شرقاً وغرباً. فكلّف اثنين من رجاله بإدارة المشروع وهما: رجاء بن حياة بن جود الكندي، وهو أحد العلماء والفصحاء في صدر الإسلام- وذكره الزركلي في الإعلام بـ رجاء بن حَيْوَة ابن جرول الكندي- ويزيد بن سلام وهو أحد مواليه من مدينة القدس، ورصد للمشروع خراج مصر لسبع سنين، وشرع البناؤون في البناء في ذات السنة (٦٦هـ)، وفرغوا منه سنة (٧٢هـ- ٦٩١م)، ولما كان قد بقي من

المبالغ المخصصة للبناء مئة ألف دينار، فقد أمر عبد الملك بها جائزة لرجاء ويزيد، فرفضاها قائلين: نحن أولى أن نزيده من حلي نسائنا، فضلاً عن أموالنا، فاصرفها في أحبّ الأشياء إليك، فأمر أن تسبك ذهباً وتفرّغ على القبّة والأبواب. ونقش اسم عبد الملك بن مروان وتاريخ الفراغ من البناء على قناطر التثمينة الوسطى من الناحية الجنوبية الشرقية من الداخل.

ويزعم اليعقوبي في تاريخه أن سبب بناء قبّة الصخرة هو خوف ابن مروان من ابن الزّبير. ولقد نقل روايته كلّ من كتب عن الصّخرة من مستشرقين وعرب. يقول اليعقوبي:

«ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم، إذا حجّوا، بالبيعة، فلمّا رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكّة، فضجّ النّاس، وقالوا: تمنعنا من حجّ بيت الله الحرام، وهو فرض من الله علينا! وبعد عشرة أيام، قرّر العودة إلى المدينة، ويروي المؤرّخون أنّه زار أبا عبيدة بن الجرّاح، قبل رحيله في بيته، فلم يجد عنده سوى لبد فرسه، وكان هذا فراشه، وسرجه، ووسادته، وكسر يابسة في كوّة بيته جاءه بها مع ملح جريش وكوز ماء من خزف فيه ماء.. فنظر عمر رضي الله عنه إلى ذلك.. وبكى وقبل أن يغادر أقام على بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان على أن يأتمر بأوامر أبي عبيدة ثم مضى..

اجتاح طاعون مدينة عمواس بلاد الشام، وقضى فيه يزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة، فولّى عمر أخا يزيد، معاوية ابن أبي سفيان ثمّ ضمّ إليه الشام، كما ولاّه عثمان نفس العمل بعد مقتل عمر.

ضمّت القدس إلى الشام (٢١هـ- ٦٤١م)، وخضعت لحكم معاوية مؤسس الدولة الأموية، فولّى عليها سلام بن قيصر، فأقام في المكان الذي كان يقوم عليه قصر هيرودس في عهد الرومان. وكان للقدس يومئذ سور، وكان على ذلك السور ٨٤ برجاً، وله ستة أبواب، ثلاثة منها فقط يدخل النّاس منها ويخرجون: واحد غربي المدينة، والثاني شرقيها، والثالث في الشمال، وكان يؤم المدينة، في الخامس عشر من شهر أيلول من كلّ سنة، جماهير غفيرة من مختلف الأجناس والأديان للتجارة، وكان فيها مسجد مربع الأضلاع، بني من حجارة وأعمدة ضخمة نقلت من الأطلال المجاورة، ويتسع لثلاثة آلاف من المصلين، ويعتقد أن هذا هو المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب.

بعد وفاة معاوية (٦٠هـ - ٦٧٩م) تولى الخلافة ابنه يزيد، ثم معاوية الثاني ابن يزيد (٦٤هـ - ٦٨٣م)، وانفصلت الحجاز بقيادة عبد الله بن الزبير عن جسم الدولة العربية الأموية، وتبعتها العراق واليمن فبايعته، وكذلك مصر، وانقسمت بلاد الشام إلى قيسيّة ويمانية، وكان نائل بن قيس الجذامي بفلسطين أن يميل إلى الزبير، وسارع مروان بن الحكم فأعاد مصر وقضى على نائل، ثم تولى الخلافة عبد الملك بن مروان في غرّة رمضان سنة (٦٥هـ - ٦٨٤م)، وابن الزبير على الحجاز والعراق واليمن، وفي شهر جمادى فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدّثكم أن رسول الله قال: لا تشدّ الرّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها، لمّا صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة، وعلق عليها ستور الدّيباج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيام بني أمية».

تلك هي رواية اليعقوبي، وفيها تضارب في الزمن والتاريخ، ذلك أنه قد ذكر في تأريخه أن عبد الملك قد أقام الحج في ولايته سنة ٧٢ الحجاج بن يوسف، وسنة ٧٣، وسنة ٧٤، وكيف لعبد الملك أن يمنع أهل الشام من الحج ويأمرهم بالمسير إلى الصخرة وهي لم يكتمل بناؤها بعد.. ولمّا اكتملت كان ابن الزبير قد قتل، وصارت مكّة في بيعته، فلماذا يأمرهم بالحج إلى القدس. إنه لمن المحزن أن يكتب تاريخ الأمويين بأيد أعداء الأمويين، وأن يضيع كل أثر للأمويين، وأن يكون جلّ تراثهم قد فقد وأحرق نتيجة الحقد السياسي والعشائري القبلي، وماندّ منه ووصل إلاّ نزر قليل لا يمدّنا بحقيقة الصورة التي كانوا عليها، كما يدلّنا على ذلك أيضاً التزوير الذي طال الكتابة التسجيلية التاريخية لبناء الصخرة، فقد جاء من بدّل اسم عبد الملك بالخليفة المأمون، وبقي تأريخ السنة ٧٢هـ كما هو، والمأمون جاء بعد هذا الزّمن.. وما رواية اليعقوبي إلاّ وهم وباطل يدحضه تأريخ سنة الفراغ من البناء..

لقد بنى عبد الملك مسجد قبة الصخرة ليضاهي في بهائه وسحره ما لكنائس النصارى من الروعة، ولا سيما كنيسة القيامة، فقد روى المقدسي أن عبد الملك عندما رأى قبّة القيامة، وكان المسيحيون

يحجون إليها مــن كل مكان، خشي أن تؤثر بفخامتهــا وروعتها على قلــوب المسلمين، فاعتــزم أن يبني في المقدس قبّــة مثلها أو أحسن -وقد فعل.

ترتفــع قبّة الصخرة التــي يبلغ قطرها ٤٤,٢٠مــتراً علــى رقبــة عاليــة، تتخللها ست عشرة نافذة، وتقــوم على أربعة ركائز واثني عشر عمــوداً مرتباً على شكل دائري حول الصخــرة المشرفة، يحيط بها المثمنان المتوازيان، يبلغ محيط الأول ٤٢,٤٥متراً، في حين يبلغ محيط الثــاني ٢٠,٦٠ متراً حيث يؤلفــان رواقين. وتتميز التزيينات الداخلية بالفسيفساء التي تعدّ مــن أجمل آثار الفن الأموي. ويزين الجزء الأعلى وفوق الرسوم النباتيــة شريط من الكتابــة الأموية بطول ٢٤٠مــتراً، ويعتــبر الشريط هــذا من أهم المصادر التي تصــوّر الحرف العربي الذي تطور مع الزمن ليصــل إلى حالته المبسطة زمن الأمويين.

لم يكن الخــط العربي قبل الإسلام، وفي صدره، فنّــاً من الفنون، وإنمــا كان وسيلة لتأريخ الأحداث والأمور المعاشية والأفكار، ولم يكــن العرب قد تذوّقــوا بعد جمال بنية الحــرف، وإنما ارتقــوا بحسهــم في نطق الحرف وتأثيره الموسيقــي على بنية الكلمة فحسب، ولم تكن الكوفة التي خطها سعد بن أبي وقاص بأمر من الخليفة عمر رضي الله عنهمــا سنة سبع عشرة للهجرة، والتي نسب إليها الخطّ، وأصبحــت زمن الخليفة عليّ رضي الله عنه موطن العلم والكتابة، لم تكن الكوفة هذه إلاّ موطن حرف تنازعت فيه مع البصرة أمــور الفقه والنحو والقراءات. أما جمال الحــرف العربي وفتنته وهيبته، فقد ولــد مع نشوء وتطوّر الحضــارة الإسلامية زمــن الأمويين، وإن شريــط الكتابة في قبة الصخرة الذي استخدم فيه الحرف العربي لأول مــرة بشكلــه الجليّ، لهــو دليل على طواعيته وبنيته الجمالية في زخرفة العمارة الإسلامية.

كما تشكل الآيــات القرآنية المنتقاة من ســورة آل عمــران في هــذا الشريط صورة الحــرف وأسلــوب الكتابة زمــن الأمويين وهي من غير نقــط أو ضبط، وقد سطرت بالفسيفســاء الذهبيــة على أرضــ زرقاء غامقــة، وفي إملائها علــى الرسم العثماني تأثــير واضح بإمــلاء وكتابــة الأنباط، من حذف الألف المدودة والتاء المبسوطة وغير ذلك. وثمّة كتابتان في الصخرة على النحاس (الباب الشرقــي والباب الشمالي) وهما من زمن عبد الملــك وذات التأريخ، وقد أضيف

اسم المأمون فيهما، وبدّل التاريخ في الباب الشرقي فجعله سنة (٢١٦هـ). أما الزخارف التي زينت فسيفساء البناء وجعلته آية من آيات الفن الإسلامي، فيكفي أن نشير إلى ما قالته مرغريت فان برشيم في كتاب القدس الإسلامية حيث تملكها العجب إثر الفحص الدقيق والعميق الذي قامت به:

«تملكني العجب بذلك الفن الرائع لأولئك الفنانين، فبينما كنت أقف على سقالة أتفحص الأعمدة المثمنة، أو على سلّم عال يصل ارتفاعه إلى عشرة أمتار من الأرض، لاحظت عن كثب فنّ وأسلوب أولئك الفنانين الذين تفوّقوا على كل ما أنتج في هذا الميدان في الغرب. وقد قاد بي الفحص الدقيق إلى الاقتناع بأن هذه التحفة الفريدة التي تعود للعهد الأموي، كانت من صنع فنانين سوريين محليين، وليس كما ذكر بأنها من صنع فنانين أجانب أتوا من بيزنطة، وقد أيّد ذلك دراستي للنصوص العربية القديمة والقريبة من بناء قبة الصخرة. هنا ترتبط نباتات الأقنث والزخرفة الغصنية والكرمة والأشجار وأكاليل الزهور والفواكه وقرون الخصب وكلها ممثلة بشكلها الطبيعي الرائع، أما التقاليد الشرقية الملمح إليها فتمثلها الزهور على شكل زهرة اللوتس أو الزنبق، وكلّ هذه العناصر أعطت الحياة وأفاضت الخيال، وإذا نظرنا ملياً نلاحظ زخارف الجواهر المتلألئة التي تزين المثلثات المحصورة بين أقواس البوائك، وإذا ما تعرضت للضوء تتبين قيمتها الكاملة حيث نجدها مختبئة في غصون الأقنث فوق أعمدة نفس الأروقة، في حين نجدها تختفي تماماً في غصون الأقنث المتحركة الساكنة التي تلتف وتمتد في حركة مستمرة فوق المقدمة الخارجية للرواق الدائري حيث تتلقى الضوء، وهنا يتأكد الإحساس الزخرفي للفنانين، بهذا الترابط الرائع بين السطح المعماري والزخرفة التي تغطيه، وتستمد الموضوعات الزهرية مثلاً قوتها من العمود الذي تنتشر فوقه ثم لا تلبث أن تكثر عند انحناء الأقواس ثم تعود لتقل عند قمتها، ولا توجد الرسوم التصويرية الآدمية في هذا الأثر الإسلامي حيث أن صور الإنسان وحتى الحيوان أحياناً كانت ممنوعة، ولذلك سمح لصناع الفسيفساء في قبة الصخرة باستعمال فن الزخرفة النباتية بمهارة، ورغم أننا نلاحظ ابتعاد الفنان هنا عن الزخرفة الهندسية الجامدة، إلاّ أنه فيما بعد، في القرون اللاحقة، نجدها من أهم مميزات الزخرفة الإسلامية، ومن الجدير

ذكره هنا أننا لا نجد تكراراً لموضوعات الزخرفة، كما لا نجد شكلاً من أشكال الأقنث أو الغصون أو الأشجار أو المناظر تتشابه، ونلاحظ الإلهام المدهش الذي غذّى العمل الفني».

لقد أصاب مسجد قبة الصخرة ما أصابه مذ بناه عبد الملك بن مروان بسبب الزلازال، والعواصف والأمطار، وقد حدثنا التاريخ أنه ما من حاكم من حكام المسلمين حكم القدس إلاّ وكان له بعض الفضل في ترميمه، فكان للمأمون يد فيه، وللحاكم بأمر الله الفاطمي أيضاً عند سقطوط بعض أجزاء القبة إثر زلزال، وحوّل الصليبيون مسجد الصخرة لمّا احتلوا القدس (١٠٩٩م) إلى كنيسة، وبنوا على الصخرة مذبحاً وكانوا يسمونها (Templum Domini) أي هيكل السيد العظيم، وأنشؤوا الحاجز المصنوع من الحديد المشبك، وهو الذي يفصل الصخرة عن المسجد، وكان قساوس النصارى يقطعون من الصخرة قطعاً يحملونها إلى بلادهم، فيبيعونها بوزنها ذهباً، وذلك مما جعل الصليبيين يكسونها بالرخام. ولما فتح صلاح الدين القدس، أزال ما على الصخرة من معالم الكنيسة، ومحا الصور والتماثيل ورفع الرخام، وكسا الجدران، وزين القبة بالنقوش الأيوبية الجميلة، ونلاحظ أثر الخط الجلي لأسلوب الثلث القديم في القبة وآية الكرسي، وحمل المنبر إلى المسجد الأقصى من دمشق، وكان قد صنعه محمد الاخترينى في حلب لنور الدين ليضعه في القدس بعد الفتح. وفيه من الخطوط والزخارف ما يعجز الإنسان عن وصفه، وقد احترق سنة ١٩٦٩ بيد المكر والحقد الصهيوني.

كما عني ملوك بني أيوب بعد موت صلاح الدين بمسجد الصخرة فكانوا يكنسونها بأيديهم ويغسلونها بماء الورد، وإن الحاجز الخشبي الذي يحيط بالصخرة نفسها من صنع الملك العزيز عثمان.. ولقد وضع صلاح الدين وملوك بني أيوب شارة فوق رؤوسهم وهي (المكنسة) دلالة على خدمة الحرم الشريف. واعتنى كذلك المماليك بقبة الصخرة وعمارة المسجد، فكان الظاهر بيبرس والملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري، والملك الناصر محمد بن قلاوون الذي نقش اسمه في أسفل رقبة القبة من الداخل بعد الترميم. وفي زمن الأشرف قاتيباي صنعت الأبواب النحاسية. وفي زمن الأتراك العثمانيين كسا السلطان سليمان القانوني الجدران من الخارج، وكسا

قبة السلسلة بالرخام والقاشاني، وكذلك السلطان محمود وعبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد الثاني، ومن الآثار الجميلة التي تظهر أسلوب تطور خط الثلث في قبة الصخرة ما خطه الخطاط شفيق سنة ١٢٩٣هـ- ١٨٧٦م من شريط القاشاني يحيط ببناء مسجد الصخرة، وقد سطّر فيه سورة يس بأسلوب مركب بسيط مقروء لا تكلّف فيه وبلون أبيض على أرضية زرقاء.

إن مسجد قبة الصخرة آبدة أثرية تحمل أساليب وخصائص الفن الإسلامي في العمارة والزخرفة والخط، وهو أثر غني لعصور إسلامية تميزت بطرز متعددة متنوعة تعزي الباحث بالدروس والاستنتاج والتحليل الذي لم يدرس بعد إلا وبشكل بسيط وجهود قام بها بعض المستشرقين.

الدراسات والبحوث

القدس بؤرة الإشعاع في الشعر العربي السوري المعاصر

محمود محمد أسد *

للقدس مكانة مقدسة لدى الديانات السماوية، ولها مركز البوح، وتمركز الأرواح. تحظى بالقدسية التي ما زالت تحافظ عليها لدى المسيحيين والمسلمين، وقد دافعوا عنها عبر العصور، وصانوا مقدساتها وكرامتها ووقفوا في وجه غزوات المغول والتتر والصليبيين والصهاينة الذين يعبثون بها وبمقدساتها، وفي القرون الماضية هُيّئ لها رجال مخلصون أعادوا لها وجهها وحريتها كصلاح الدين الأيوبي والزنكي ونور الدين محمود.

* أديب سوري

القدس في العصر الحديث تعرضت لوحشية الصهاينة الذين يحاولون بكل أساليبهم وأدواتهم طمس هويتها العربية والإسلامية، فأحرقوا المسجد الأقصى وحفروا الأنفاق تحت المسجد الأقصى، ونكّلوا بما تبقى فيها من آثار بناها الأمويون والعباسيون والطولونيون والفاطميون والأيوبيون والعثمانيون.

ولما تنزّل عرضة لسوء نواياهم وتخطيطهم على مرأى من العالم والعرب.. فالصهاينة راحوا يتطاولون على مقدساتها وآثارها دون رادع أخلاقي أو ديني أو قانوني، فبكاها الرجال والنساء والأطفال، واقترب من همها الشعراء العرب على مختلف انتماءاتهم وتياراتهم الأدبية، فكانت تفجعهم، فيؤلمهم سوء حالها ومآسيها، فذرفوا الدموع، وكشفوا الخطر، ودعوا إلى نصرتها، وأبانوا للعالم معاناتها من الاضطهاد والخراب، واستنجدوا بالرجال وحرضوهم للدفاع عنها، وقد خصها الشعراء بقصائد منفردة، أو ذكروها في معرض قصائد المناسبات وأطلق بعضهم عنوان دواوينهم للقدس، وهذه القصائد الكثيرة التي يصعب حصرها، وتضيق عنها ساحات الورق المعدة للكتابة، ولكنها على مختلف مدارسها الفنية وأشكالها تعكس مدى التحام الشاعر العربي الحديث مع هذه القضية المصيرية التي تشكل ركيزة من ركائز اهتمام الشعر العربي رغم جناية وتجنّي بعض الشعراء عليه، بخروجهم عن النص وتناسيهم القدس بعد التفاتهم إلى نزواتهم الخاصة وتنظيرات الشعر المحدثة.

في القدس ما يدفعنا للتعاطف والتلاحم ومن ثم المناصرة على مستوى الهوية القومية أو العقيدة ولذلك واقع القدس واقع مصيري، يمسّ شخصية الجميع إلا الذين انتابتهم حمى المروق. والحديث عن القدس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بفلسطين الأم والجوهر والدرة الثمينة.. وجلّ القصائد التي قيلت في القدس أو توقفت عندها سريعاً مزجت بالدموع والألم والحسرة والأنين، فهي صرخات ألم يغيب عنها مسرح السرور والبهجة، لأنّ شريطها الزمني يحكي سيرورتها الدائمة مع المآسي والآلام فلا عجب إن طغت الدموع والأنات واعتلى القصائدَ الصوتُ المباشر الذي يقرّر، وخاصة قصائد الشعر العمودي التي تفاوتت مستوياتها وإلى جانبها قصائد التفعيلة التي مالت إلى الإيحاء والهمس مبتعدة عن المباشرة لحد معين.. هذه أحكام عامة تحتاج إلى شواهد تثبت صحة الأحكام وتكشف معارجها وزواياها الحانية.

إن اقتصار المقالة على الشعر السوري المعاصر لغزارة النتاج وتنوعه، ولصعوبة التصنيف والإيفاء بكل جوانبه. ولأن سورية تعتبر فلسطين في مركز القلب، وقضيتها عبر التاريخ قضية مصيرية لا جدال فيها، واقتران القدس بدمشق مرهون بالانتماء القومي الذي يزكو في ربوع الشام ويتنامى ولذلك خصها شعراء الشام وتحديداً سورية ولبنان بالكثير من قصائدهم، ومازالت في مركز الاهتمام المصيري الرسمي والشعبي، للقدس مركزية لا تضاهيها سوى مكة، فلا عجب من غزارة القصائد التي لامست قدس الأقداس حبّاً وتقديراً وارتباطاً لا انفصام فيه وأسعفتني المجلات الأدبية والثقافية والدواوين المنشورة والكتب الأدبية والدراسات بالكثير مما قيل عن القدس ومعالمها وما انتابها، واكتفيت بالشعر المعاصر لتسهيل بسط البحث وهناك أبحاث مكملة للدراسة فالشاعر بدوي الجبل اقترب من جوهر القضية الفلسطينية فكان على مسافة قريبة من العقل والعاطفة في ملامسة القضية وكان كغيره يستغل كل مناسبة هامة ليتوقف عند القدس:

في قصيدته /يا وحشة الثأر/ الديوان ص ١٢٨ دار العودة وقالها في حفل تتويج الملك الفيصل الثاني:

دم بتونس لم يُثأرْ له، ودم
بالقدس-هان على الأيام-لاهانا
وما تحت سياط الظلم دامية
إلا عرفت عليها لحم أسرانا

ومع حلول النكبة يعري بدوي الجبل الواقع العربي وممارسات الغرب في أسواق النخاسة: فيقول ص ٣٢:

أسْلَمَ القدس من يحج إلى القدس
ويتلو الإنجيل وِرْداً فورداً
مدن القدس كالعذارى سبوها
وأرادوا لكل عذراء وغداً
غيرة الله، أين قومي، وعهدي
بهمُ يتهدون للشر نهداً

بدوي الجبل يوظف لغته الجزلة، وصياغته المتينة في تأجيج المشاعر وتحريك النخوة التي استسلمت للنوم واليأس فيقول ص ٨٠:

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا
رقّ الحديد وما رقّوا لبلوانا
هل في الشام وفي القدس والدة
لا تشتكي الثكل إعوالاً وإرناناً
قل للألى استعبدوا الدنيا بسيفهمُ
من قسم الناس أحراراً وعبداناً

ربط الشاعر بين دمشق (الشام) والقدس لأنه يعتبر المصاب والآلام واحدة ولذلك

بقي مهموماً وفي نفسه غصّة بعد جلاء الإفرنسيين عن سورية، فلم تكتمل فرحته فيقول في قصيدته (عيد الجلاء) ص ٩٤:

يا فلسطين هوى مستعر

من ربى الشام ونصر وولاء

تمّ صفُو الدهر لولا محنة

في فلسطين، وبلوى وشقاء

يا ربى القدس، وما أندى الربى

دمنا فيها ربيع ونماء

انتزعنا الملك من غاصبه

وكتبنا بالدم الغمر الجلاء

ولا يخفي الشاعر بدوي الجبل ألمه لما آل إليه أمر القدس ومقدساتها فيذكر العرب والمسلمين بمقدساتها وينسبها إلى تخاذلهم ص ٩٦:

هل درتْ عدنُ أنَّ مسجدها

الأقصى مكان من أهله مهجور

أين مسرى البراق والقدس

والمهد وبيت مقدّس معمور

لم يُرتّلْ قرآن أحمد فيه

ويزار المبكى ويتلى الزبور

أين آي الإنجيل؟ فاح من

الإنجيل عطر وضوء الكون نور

يا الذلُّ الإسلام، والقدسُ نهب

هُتكتْ أرضه فأين الغيور

وكذلك كان حال الشاعر عمر يحيى الذي ابتهج بالجلاء ولكنه لم يرض إلا بتحرير فلسطين والقدس فيقول في قصيدته /الجلاء /الديوان /منشورات وزارة الثقافة ١٩٨٠ ومطلعها ص ٣:

شُقَّ جيب الليل عن بيض الأماني

فاخفقي يا رايتي بين المغاني

ثم يقول متأثراً ومذكراً:

يا فلسطين بما يرضى العلى

سوف نرضيك، وما يرضي التفاني

لك في كل فؤاد خفقة

وعيون يعربيّات رواني

شرف الأقصى نمانا مجده

وقلوب باديات العنفوان

لا تقولي، نام عنّي فتيتي

إن من نام عن الضيم لَوانِ

يرى الشعراء في القدس حسنَ الانتماء وحسنَ العبادة، ولذلك خصوها بالحب الصافي ولم يتوانوا عن ذكرها في كل مناسبة، فقد حضرت في كل مناسباتهم وقدموها مقدسة مباركة لها تاريخها ودورها وقدسيتها فالشاعر عمر يحيى في ديوانه وفي حفل تكريمه الذي جرى بمدينته حماه يقول في قصيدته /ذكريات بحماه/ ص ٥٣:

أيـن مني مغنى أويـت إليـه
أرشف العلم والـزمـانُ زمانُـه
أينَ مني الأقصى ودار صلاح
دين درسا؟ وأين منّي مكانه؟
ستعودين يـا فلسطين مهما
أبرق السقط، أو نما طغيانه

حمــل الشعراء في سورية هــمَّ القضية كما حملها الثوار الذين ناضلوا واستشهدوا كسعيــد العاص وعز الديــن القسام وذهب الكثــيرون منهم إلى جيشــ الإنقاذ كالأديب الراحل عبد السلام العجيلي. وقد حضرت القدســ مرارا في قصائد عمــر أبو ريشة، وكان حضورهــا لافتــا ومؤثـــرا فيقول في قصيدة /قيـود/ وفي ذكرى رحيل المجاهد إبراهيــم هنانــو، والديوان منشــورات دار العودة /المجلد الأول/ ومطلعها ص ٥٢٢:

وطـن عليـه مـن الـزمـان وقـار
الـنـور مـلء شعابـه والـنـار

ثم يقول متألما وعارضا شريط المآسي:

أقسى جراح المجد جرح لم تكن
تقوى على تضميده الأحـرار
والقدس ما للقدس يخترق الدما
وشـراعــه الآثـــام والأوزار
أيُّ العصور هوى عليه وليس في
جـنـبـيـه مـن أنـيـابـه آثـار

عهد الصليبيين لم يبرح له
في مسمع الدنيا صدى دوَّار

في حنايا القصيــدة وغيرها بوح موجع، ونجوى موجعة وذكريات أليمة وإبر موخزة، فيقول في قصيدة (هذه أمتي) ص ٥١٦:

وسلوا القدس هل غفا الشرق عنها
أو طـوى دونـهـا شبـا مـرانـه
أيْ فلسطين، يا ابتسامة عيسى
لجـراح الأذى عـلـى جثمـانـه
يا تثنيْ البراق في ليلة الإسراء
والـوحــي ممسـك بعنـانـه
لا تنامي خضيبة الحلم خوفا
من غريب الحمى ومن أعوانه
إن للبيت ربــه، فدعيــه
رُبَّ حـاو رداه في ثعبانـه

وكذلك في حفــل تأبين المجاهد الوطني سعــد الله الجابري يذكر فلسطين والقدس ص ٤٥٠:

أي فلسطين، ما العروبة لولا
قبـس مـن سنـا الـنـبـوة هـاد

وينضم الشاعر عمر أبو ريشة إلى قافلة الشعــراء الذيــن فرحوا لجـــلاء المستعمر الفرنســي، ولكــن فرحتهــم لم تكتمــل لأن فلسطين تعاني من الإنكليز والصهاينة فيقول في قصيدة /عروس المجد/ ص ٤٣٧:

ما بلغنا بعد من أحلامنا
ذلك الحلم الكريم الذهبي
أين في القدس ضلوع غضّة
لم تلامسها ذنابي عقرب؟
يا روابي القدس، يا مجلى السنا
يا رؤى عيسى على جفن النبي
دون علياك في الرحب المدى
صهلة الخيل ووهج القضب

هذا الإحساس النبيل أنتج قصائد ترفل بالحب والإخلاص للقضايا القومية وفي مقدمتها فلسطين، فأبو ريشة في قصيدته /يا عيد/ يبدي تفاؤله بالعيد الكبير عيد التحرير ص ٩٣:

يا عيد ما افترَّ ثغر المجد، يا عيد
فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريد
يا عيد، كم في روابي القدس من كبد
لها على الرفرف العلويّ تعييد
سينجلي ليلنا عن فجر معترك
ونحن في فمه المشبوب تغريد

ولذلك لا غرابة إن سمعنا نداء قاسيا وتنديدا يطرق العقول والآذان، فيقول في قصيدة (هكذا) وهي معروفة ص ٧:

بدوي أورق الصخر له
وجرى بالسلسبيل البلقع
فإذا النخوة والكبر على
نزف الأيام جرح موجع
والبطولات على غربتها
في مغانينا، جياع خشّعُ
هكذا تُقتحمُ القدس على
غاصبيها.. هكذا تُسترجعُ

فالشاعر لا يتوانى عن السخرية المقرعة، ولا يقصّر بإبداء غضبه واستنكاره، فيقول في قصيدة /حماة الضيم/ ص١٤:

عاتبته ونسيت طيب نجاره
وأبيت أن تصغي إلى أعذاره
المجد يخجل أن يجيل الطرف في
ما هدّمَ الجبناء من أسواره
هل في روابي القدس كهف عبادة
تحنو جوانبه على أحباره
خشب الصليب على الرمال مخضّب
بدماء من نعموا بطيب جواره

وما زلت أتساءل: أين صوت أبي ريشة في حرق المسجد الأقصى وتهديمه والمجازر وقد كان على قيد الحياة، فهل كتب ولم ينشر ذلك، أم أنه فضل الصمت والتزم الوحدة التي آل إليها في آخر حياته، فأغلب قصائده التي ذكر فيها القدس وفلسطين تنتسب إلى مرحلة الشباب وهي مجرد إشارة واستفسار.

وفي ديـوان /نـوح العندليـب/ للشاعر شفيق جـبري ذِكـرٌ ووقفة عنـد فلسطين والقدس، وقد ورد ذلك في قصيدة (بطولات العـرب) والتي ألقاهـا في مهرجان الشعر العربي الأول دمشـق /١٦/ أيار /١٩٥٩/ وجاءت في ديوانه ص ٨٧ :

يا دامي الجرح لا جرح ولا ألم
الجرح بعد انتفاض العرب ملتئم
امسح دموعك إن ماجت موائجها
فكل ثغر على الأيـام مبتسم

ثم يتسـاءل تسـاؤل المستكر ما يجري للقدس:

فهل تظل سفوح القدس ضائعة
فأين ما سلبوا منها وما غنموا
إذا ضحكنا فما في جدّهم ضحك
وإن عبثنا بهم فالعابثون هم
سيندم العرب إن طال الشقاق بهم
وليس ينفع عض الكف والندم

فالشاعـر وضع يده على الجرح الدامي لأمتنا وهو جـرح الخلافات والتمزق الذي سينهـك الأمـة ويضعفهـا ولشفيق جبري قصيدة بعنـوان /تحية القدس/ وقد قيلت في إذاعة القدس ووردت في الديوان المذكور /نوح العندليب/ ص٩٦:

خـاطـرٌ مصبح وآخـر مُمسِ
ذكّراني السيوف من عبد شمس
ما نسيت العهود منهم، ولكن
موجة الدهر بالشدائد تنسي
يا نسيم الضحى على المسجد اللاّ
صي لقد هجت ذكرهم ملء نفسي
ليس لي حاضر يقيني حماه
إنما حـاضري نضـارة أمسي

فالشاعر يمـر بحالة إحباط ويأس من الحاضر ولا يجد علاجا أو بصيص نور إلا بربط الماضي مع الحاضر ليكون داعما للغد المأمول.

وهذا الشاعـر سليمـان العيسى الذي شغلـه الواقـع العربي وما فيـه ولكنه بقي متمسكا بمبادئه ومتماسكا أمام قسوة الواقع والمعاناة، فاستعان بالأمل والتفاؤل والإيمان بقدرة الأمـة العربية على تجاوز محنها وما أكثر القصائد التـي يتوقف فيها عند الهم القومـي وتحديدا فلسطـين، في قصيدة / نحن والعيد/ الواردة في ديوان /مع الفجر/ في المجموعة الكاملة مـن المجلد الأول ص ١٣٣، لا يستطيـع أن يحلـق بأجنحة الفرح والقدس أسيرة:

أي عـيـد أتـلـقـاه وأغـدو
مرحا أزهو على الكون وأشدو

ويــلادي ألــف جــرح يستبدّ
وثرى القدس دم ما جف بعد
أي عــيــد أتــلــقــاه رغــيــد
وعــدوّي مُــديــةٌ فــوق وريــدي

وترتفع آهات الشاعــر وألمه عاليا لتعبر عن غضبه وثورته فيسكب موجا من الغضب والتقريع فيقــول في قصيدة عدنان المالكي بعــد عام علــى مصرعه وفي ديــوان رمال عطشى. المجموعة ص ٣٩١:

أمسِ، والشارع في القدس خضيب بالدماء
لحت ومضا يتحدى الموت في عيني رجاء
(رجاء حسين الشهيدة)
وأرنّتْ ضحكة الفارس في سمع الفناء
تقرع الخلد، أنِ افتحْ.. إن ركب الشهداء

وفي مــكان آخــر مــن الديــوان /رمال عطشى/ يبــدو متحدياً ومتفائلاً فيقول في قصيدة /الأردن الثائر/ ويلغة تموز بالسخط والغضب ص ٣٧٢:

يا ضحايانا.. وعَطّرنا السماوات أضاحي
ما تعبنا.. ولقد كلّت ميادين الكفاح
يا روابي القدس، لن نهدأ من ساح لساح
أو يمور الوحي في جنبيك مزهوّ الجناح
يا روابي القدس، لن نهدأ من ساح لساح

شاعرنــا سليمان العيسى مــن الشعراء الذين أكثروا مــن النداء والتحدي والتقريع وزرع الأمل في سبيــل القضية الفلسطينية كعقيــدة قومية لا يأتيهــا الباطل فيقول / في عيد الوحدة/ وقــد ألقيت في المهرجان الكبير /١٩٥٨/ ووردت في المجلد الأول من المجموعة الكاملة ص ٥٤٤:

يا ليالي الضياع والقيد زولي
نحن باقون وحدة لن تزولا

ثم يقول:

أين أهلي في القدس فوق الضفاف
الخضر ضجّت في صدرهم أشواقي
أين أهلي؟ فالعيد في كل صدر
زغــردات تضــيء في الآفــاق

فالوحدة العربية وجود قومي وسبيل إلى التحريــر وعودة القدس إلى أهلها العرب، ومازالت القدس تشغل الإنسان العربي الذي يتــوق إلى الحق والخــير، فاعتبرها مركزا دينيا ومرتكــزا للثوابت، وذكرُ القدس يعني فلسطين ويوحي بالسيرورة التاريخية العريقة لهذه المدينة وهذا البلد الآمن، فالشاعر نزار قباني من الشعــراء المعاصرين الذين رفعوا صوتهم مــرارا وفي مواقف مصيريّة وفي كل مناسبــة أو مهرجان أو اتفــاق أو انتفاضة أو مأساة، فشغلتــه فلسطين، وذكرها مرارا وعبّر عــن غضبه وإدانته للواقع وتقريعه لما يجري ورســم طريق الخلاص، وورد ذكر

فلسطين والقدس والمدن الفلسطينية في الأعمال السياسية في /طريق واحد/ وقالها بعد النكسة ١٩٧٦ وهي مغناة بصوت أم كلثوم ص ٩٢٥:

يا أيها الثوار/ في القدس، في الخليل/ في بيسان، في الأغوار/ في بيت لحم، حيث كنتم، أيها الأحرار/ تقدموا.. تقدموا../ فقصة السلام مسرحية../ والعدل مسرحية../ يمر من فوهة بندقية.. /.

نزار قباني كان واضحا وجليّ الفكر في وقفته الشعرية مع القضية الفلسطينية، فلا يخفي قلقه وحزنه وثورته في قصيدة /حوار مع أعرابي أضاع فرسه/ والفرس لدى العربي يعني الكثير من وجوده ورجولته وفروسيته وكرامته. ص ٨٤٩:

/لو أن بحيرة طبرية../ تعطينا بعض رسائلها /

/لاحترق القارئ والصفحات../ لو أن القدس لها شفة/

/لاختنقت في فمها الصلوات../ لو أنَّ.. وما تجدي (لو أن) ونحن نسافر في المأساة.. /ونمد إلى الأرض المحتلة، حبلا شعريّ الكلمات../ ونمد ليافا منديلا طُرِّز بالدمع وبالدعوات../

إنه يضع يده على موطن الجرح والداء، فيوجه صوته إلى بؤرة الحدث ومركز الخلل وهذا نراه في قصيدة /الخطاب/ التي تبوح بما تعاني القدس وحجارتها وللعنوان دلالات كثيرة ص ٨٣٧:

/لم أعد أهضم حرفا من أكاذيب أمير المؤمنين/

صارت الألفاظ مطّاطا/ وصارت لغة الحكام صمغا وعجين/ خدّروني بملايين الشعارات، فنمت/

/واروني القدس في الحلم../ ولم أجد القدس، ولا أحجارها حين استفقت/

/فاعذروني، أيها السادة، إن كنت ضحكت/

/كان في ودّي أن أبكي.. ولكنّي ضحكت../.

ويقدم الشاعر نزار القدس وقد دنست وعريت واستبيح طهرها في قصيدة/ من مفكرة عاشق دمشقي/ ولكن الشاعر يميل إلى التحريض والتلميح وإثارة النخوة وهذا شأن الكثير من القصائد التي نحت هذا المنحى في التعبير والتصوير إلى حد المبالغة في التصوير وهذا يتنافى مع قدسية فلسطين والقدس والمقدسات تحديداً فيقول ص٨١٦ في مطلعها:

فرشت فوق ثراك الطاهر الهدبا

فيا دمشق، لماذا نبدأ العتبا

ثم يقول:

سقوا فلسطين أحلاماً ملونة
وأطعموها سخيف القول والخطبا
وخلّفوا القدس فوق الوحل عارية
تبيح عزة نهديها لمن رغبا
أيا فلسطين، من يهديك زنبقة
ومن يعيد لك البيت الذي خربا

لم يتوان الشاعر عن التعبير وبأشكال مختلفة ولكنه بقي في فلك المأساة وجوهر القضية التي تعتبرها قضية قومية مصيرية تخص كل عربي ومسلم، في قصيدة (منشورات فدائية على جدران إسرائيل) يقرع ويشير إلى جريمة حرق المسجد الأقصى ص ٧٧٩:

المسجد الأقصى شهيد جديد
نضيفه إلى الحساب العتيق
وليست النار، وليس الحريق
سوى قناديل تضيء الطريق..

ويبرز الشاعر نزار مكانة القدس بين الشرائع السماوية، فيسكب لوعته وحزنه لما آل إليها الأمر ويخصها بالتسمية (القدس) ص ٧٧٦:

في هذه القصيدة تخمد لغة المباشرة، وتشع لغة صافية موحية.

بكيت حتى انتهت الدموع..
صلّيت حتى ذابت الشموع..
ركعت.. حتى ملّني الركوع..
سألت عن محمد فيك، وعن يسوع
يا قدس، يا مدينة تفوح أنبياء
يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء..
يا قدس يا منارة الشرائع
يا طفلة جميلة محروقة الأصابع
حزينة عيناك، يا مدينة البتول
يا واحة ظليلة مر بها الرسول..
يا قدس يا جميلة تلتف بالسواد
من يقرع الأجراس في كنيسة القيامة؟
صبيحة الآحاد..
من يحمل الألعاب للأولاد..
في ليلة الميلاد..؟

أرى أنّ هذه القصيدة (القدس) من أعمق وأبلغ القصائد التي توقفت عند القدس في العصر الحديث لغنى الإيحاء وحسن الدلالة في كل لفظة توحي بالكثير من الأسى والحسرة.

وهذا ما يجعل الشاعر نزارا يتوجه إلى شعراء الأرض المحتلة وبعنوان (شعراء الأرض المحتلة) يحضهم على الثبات، وبالمقابل يُحمّل المثقفين رسالتهم ص ٧٧٤:

وتنادي، يا رب الأرباب

نحن الضعفاء، وأنت المنتصر الغلاب

نحن الفقراء، وأنت الرزّاق الوهاب

نحن الجبناء، وأنت الغفّار الوهّاب

شعراء الأرض المحتلة

ما عاد لأعصابي أعصاب

حرمات القدس قد انتهكت

وصلاح الدين من الأسلاب

ونسمّي أنفسنا كتّاب..

هنــاك الكثير من القصائــد التي قالها نزار في فلسطين والقدس والواقع العربي وستبقى شاهدا على مرحلة عصيبة رصدها نــزار في وقتها، وبروح ثائرة غاضبة لامست ضمائر الشارع العربي بأغلبيته.

هذه القدس المباركة كانت تعيش في وجــدان الشعراء السوريــين الذين هاجروا واستقــروا بالمهاجر، ولكنهــم بقوا معلقين بالوطــن وملتصقــين بالقضايــا المصيرية، وهــذا أمرٌ نعتزّ بــه فالشاعر الياس قنصل يقول بعد احتلال القدس /١٩٦٧/ من قبل الصهاينــة، ويبدي ألمــه وحسرته من مرارة الواقع:

إنا خسرنا القدس وهي وديعة

في عهدنا من سؤدد الخلّاق

ما كان من وهن سلاح ضياعها

بل من شيوع الذلّ في الأخلاق

قــدم شعــراء المهجر حبهــم لفلسطين ولأمتهم وألمهم حال القدس والأمة وتعاضدوا مع الأعيــاد الإسلامية وجلهــم مسيحيون وهــذا يبرز الوعــي والنقــاء والتآلف فهذا الشاعر نبيه سلامة وهو مغترب من حمص يقول مشيدا بالرسول في يوم مولده:

يا من يرون القدس في أحلامهم

وطنا يهيمن فوق التلمود

لا تستفيقوا فالحقيقة مرة

بين الحقيقة والمنام حديد

لو أقبلت دول السماء لعونكم

هبّت إلى ردّ السماء أسود

قالوا: هذا وطن اليهود وليتهم

قالوا هنا للتائهين لحود

وقد حرموا من الصلاة والزيارة والحج إلى القدس فيقول جورج صيدح في قصيدة /نكبــة فلسطين/ ما يُؤثّــر في النفس التي حرمت من حقها الشرعي والإنساني:

عبثا يا طيف تبلو جلدي

ليس لي بعد فلسطين جلد

وطني ماذا على النازح إن

ذكر القدس فصلّى وسجد

لطم الأعداء خديك ولم
يسمعوا منك سوى شكوى الوتد

وهذه المقطوعة من القصائد التي شخصت القدس وقدمتها كائنا يحس ويلطم ويتألم، ويتوجه الشاعر جورج صيدح إلى النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم في قصيدة (المولد النبوي) يستغيث ويرجو الخلاص:

يا من سريت على البرا
ق وجزت أشواط العنان
آن الأوان لأن تجَدد
ليلة المعراج آن
عرج على القدس الشريف
ففيه أقداس تهان
ضج الحجيج به وريـ
ـعَ ضريحه والمسجدان

بارك جهاد المؤمنيـ
ـن النافرين إلى الطعان
الضارعين إليك باسـ
ـم الآل والصحب والغران

بهذه البساطة والصدق، عبر الشعراء السوريون في المهاجر عن القدس وآلامها ومحنتها، فكان صوتهم صوت الحق بعيدا عن المبالغة والتكلف وهناك الكثير من القصائد والمقطوعات التي يمكن التوقف عندها، فاكتفيت بما يدل ويوحي، وقد مالت القصائد إلى الاهتمام بالحدث والمضمون الذي شغلها أكثر من اهتمامها بالجانب الفني لدى بعض الشعراء، ومن الشعراء السوريين الذين أكثروا من التعاطف مع قضية فلسطين الشاعر جاك صبري شماس، وربما يكون أغزر شاعر في معالجة قضية القدس وقد خصها بعناوين دواوين /عروس المدائن/ وبقصائد مختلفة منها (الأقصى يناشد ضمائركم) و(القدس للعرب) و(واقدساه) و(الجهاد المقدس) و(القدس عروس المدائن) و(المسجد الأقصى) وغيرها الكثير، وفي كل كلمة يسكب ألمه ويدعو إلى اليقظة ونصرة فلسطين ويستدعي الأبطال كصلاح الدين ويذكّر بالمقدّسات، وفي هذه القصائد يتجلّى صدق الإحساس وعمق المعاناة ونبل المقصد وسوف أكتفي ببعض الشواهد مما قلته، في قصيدة (الأقصى يناشد ضمائركم) من ديوان (الحب النبيل) ص ١٣:

أيهوّد الأقصى الحبيب يهود
وبنو العروبة في الخطوب قعود
والجامع الأقصى رهين شراذم
تلهو وتعبث بالتقى وتسود

ماذا أسطّر؟ يا صلاح الدين قم
جثمت على صدر النخيل قيود
قم يا صلاح الدين وابعث نخوة
ليصول في ساح الجهاد أسود
وتـؤوب للأقصى نضارة وجهه
ويفيء في القدس الحبيب خلود

إحساس الشاعر يتنامى مع أهمية الحدث، وهل هناك أقسى من معاناة القدس ومقدساته فيقول في قصيدة (واقدساه) المنشورة في ديوان (قصائد حب) ص ٨٥:

شموخك يا حبيبة ذو جلال
وطهرك ليس يُحصَرُ في مقال
فلسطينية شمخت وقارا
بأقدس موطن وأعـز آل

ثم يشير إلى مقدساتها وما تكابده، وبلغة مؤثرة:

وذاك الجامع الأقصى منارة
ومعراج النبي إلى المعالي
أيسلُبُ غادرٌ محرابَ قومي
وقومي أدمنوا عقم الفعال
ولو نادى قصيدي صُمَّ صخر
سمعت الصوت في ثغر الجبال
أيسلو مؤمن طهر الروابي
وأقدس بقعة ذات الجلال

ويلتفت الشاعر إلى واقع العرب والمسلمين وما جرى من مصائب دفعت ضريبتها القدس، فينادي وبصوت يكشف عما يعانيه من لوعة وأسى وذلك في قصيدته (القدس عروس المدائن) والمنشورة في ديوانه (عروس المدائن) ص ٣٢:

يا أمة الإسلام، ما جدوى امرئ
خلع الوقار معفرا بتراب
فالقدس تزحف في رباها أرقم
والشعب يلظى من سياط عذاب
والجامع الأقصى سجين عصابة
عصفت بكل مبادئ وعقاب
والمسلمون مدى المدائن والقرى
شلوٌ تبعثر في فضاء مصاب
يا قدس ماذا تستعيد بلاغتي
والأهل طعمُ صوارمٍ وحراب
ماذا تفيد عروبة بثرائها
وضميرها رغم الغنى كسراب

وتبقى هذه القصائد شاهدا على مراحل عصيبة، وهي تؤرخ لوجع دفين راح يوخز بسطاء الناس الذين يرون في القدس شقيقة لمكة ويذكرونه في كل مناسبة دينية فالشاعر عبد الباقي عبد الباقي في مجلة نهج الإسلام العدد /٩٩/ ٢٠٠٥ وبمناسبة الإسراء والمعراج يبوح ويذوب شوقا وألما، وتنتابه الحسرة:

إسراء أحمد في دجى الظلمات
زكّاه رب الخلق في الآيات
سبحان من أسرى بخير عباده
ليلا إلى الأقصى وفي العتمات
فالمسجد الأقصى -تبارك ربنا-
قد خصه بالخير والبركات
ليكون مسجده وأول قبلة
ويكون قدس الأرض والروضات
ليكون للأديان مهدا للتقى
ومُجمّع الإيمان والرحمات

ثم يقول متحسرا:

والمقدس المعمور معرج أحمد
مهد المسيح يئن بالويلات
عذرا رسول الله، إن جموعنا
لم يعملوا للنصر والعزمات

ولا تستطيع الشاعرة نجوى صالح هنداوي إخفاء حزنها وتضرعها لله وهي تؤدي فريضة الحج فاستحضرت القدس وما تعانيه فتقول: مجلة الحج والعمرة تشرين الثاني ٢٠٠٤ وعنوان القصيدة (الأنوار المكية) ص ٨٦:

سار الحجيج وفاضت الدمعات
بأريج مكة طابت النسمات

ثم تقول متوسّلة:

يا ربنا أصلح جنوح نفوسنا
فاض الهوى، وتوالت الزلات
يا أمتي، ضمّي الصفوف توحّدي
هذا العدو وراءه النكبات
فالقدس جرح قد توالى نزفها
في كل يوم للعلا هامات
فانصر إلهي كل حر صادق
أنت المجيب، وللقضا ساعات

في هذه الساعات المباركة عاشت الشاعرة محنة الواقع الإسلامي ورأت ما تكابده القدس، فالتجأت إلى الله بصدق وصفاء كشفا عمق الإحساس.

ولا يرى الشاعر مصطفى أحمد النجار في ديوانه (غنائيات عصرية) سوى الهم الإنساني وكان للقدس أكثر من قصيدة وذكر فيقول في قصيدة (فلسطين أم السيوف) ص ٨٣:

سلاما فلسطين أم السيوف
كتابا يعلّمنا الأبجدية
سلاما فلسطين أم الضحايا
وتبقين في القلب جرح القضية
سلاما عليك من الشعر كم
تستمد القصائد منك الحمية
ستبقين، والقدس رمز نهوض
وتبقين في القلب وهج القضية

وتأتي الذكرى الخمسون لنكبة فلسطين وما تحمله من آلام وصور مأساوية توحي إلى الشاعر عبد القادر الحصني في قصيدته (الضجيج) وقد وردت في كتاب (منتخبات شعرية) صدر عن اتحاد الكتاب العرب، وفي القصيدة استحضار للشهيد ص ٢٢٢:

سيحضر متشحا بالجبال ومؤتزرا بالسراب/ ويحضر بين يديه الجدود/ وسوف يكون شهيدا عليكم/ فما جاء إلا ليشهد هذا الشهيد/ سلام عليه/ سلام على الزعفران الندّى على شفتيه/ على القدس تهرق نور الألوهة في مقلتيه/ على قبة الصخرة المستريحة في راحتيه/ له يزدهي البيلسان/ ويأتلق المهرجان/ ويبتسم الأقحوان/ ويعبق في الأمسيات الأريج/ لعل شفيفا من الحزن يملأ قلب المكان/ فيخجل منه الضجيج../ ثقيلا يمر الضجيج/.

ويهمس الشاعر عبد الرحمن عمّار بلغة شفافة تعبر من خلالها أرقّ المعاني لتشكل رافدا من روافد الحب المدعم بالعبق الروحي تجاه القدس في قصيدته /يا.. ناي مدي الصوت/ من ديوان (طيور اليمام) ص ٣٦:

يا ناي كوني الموج يحملني
ويمـدني بالحلم ناهده
للقدس أقصاه، فلا سكن
إلا بما نبضت مساجده
مرموز أمته منارته
وحنين ماضيه يناشده
سبحان من أسرى بسارية
للحق، بارقةُ قلائدُه
من أجله انتفضت حواضره
ومضى إلى الأقصى مجاهده

هذا الدفء اللغوي يقابله حب وإيمان تجلّيا أيضا في قصائد الشاعر جلال قضيماتي وقد ذكره غير مرة ولكنه خصه بقصيدة حملت عنوان (القدس) من ديوانه (معارج الطين) واستنطق القدس وشخّصها فراحت تبث لواعج همومها وأساها ص ١٣٨:

ماذا أقول إذا عاد الربيع، فلم
يبصر سوى الريح والأشواك في طرقي؟
ترى، أقول: مضى من كان يغمرني
بالدفء والخير في ذاك المدى الأرق
ماذا أقول: أجفّ النهر أم حبست
عني السماء فعاث القحط في أفقي
أنا السجينة، لا أهل ولا وطن
مضى الجميع سوى الآلام والحرق

تحت الخيام أرى في كل منعطف
ظلّ التشرد والأوهام والقلق

ثم يجيبها الشاعر مُطمئِنّا ومُطَمئناً:

مدينة الصحو، ما جفّت مرابعنا
لك الحياة برغم الموت والأرق
سترجعين إذا عاد الربيع ندى
يهمي على السنبل النامي، على الشفق
غداً سيفتح (نوار) أضالعه
وينقذ الكون من سرباله الخلق

أحسن الشاعر لغة الخطاب واعتمد على التلميح والترميز بعيدا عن المباشرة ولم يخف الشاعر مطيع إدريس تفاؤله في عودة القدس إلى مكانتها وأهلها، وقد توجه إليها ثلاث مرات في ديوانه (لن ينتهي الإبحار) فيقول متفائلا بالشعب الفلسطيني الصامد ص ٣٢:

هو الشعب الفلسطيني/ هو الآتي/ على صهوات يرموك وحطين/ هو الحجر المغير.. / كل كفات الموازين/ غدا ستؤوب أسراب الحساسين/ غدا يا قدس.. / تسقط كل أوكار الجوارح والغرابين/ غدا سيعود للأقصى/ بلال كي يؤذن للملايين/.

فالشاعر مطيع إدريس تجاوز لغة التقريع واتجه إلى الأمل وزرع الثقة بالله والشعب وهذا منحى تجاوز البكائيات والاستسلام، فتشرق لغته كما يشرق عنوان الديوان وعنوان القصيدة التالية (إشراقة الغضب) فيخاطب القدس ويضمّدُ جراحها بلغة تتماوج بين الرقة والعنف ص ١٣:

صبرا يا قدس على ليل/ وحشيٌّ سوف يبدده/ إشراق من شمس نهار/ من فجر ولادة حطين/ وسنا اليرموك وذي قار/ من دفق دماء ترشفها أعراق تزفر كالنار/ تتحدى مدية جزار/ فالمجد لأطفال الأقصى/ ولكل أباة أحرار/

وللشاعر مصطفى بدوي قصيدة موحية تحملها لغة راقية وخيال مرهف بالإحساس (أغنية للقدس) من ديوانه (متعب وجه المرايا) فالشاعر يطلق لشاعريته ورؤاه الأمل فيتوجه إلى القدس ملامسا وجعها ص ٢٧:

بكل انعطاف الرؤى إليك/ أرى المستحيل/ هو الحب اجترح المعجزة/ وأسبر غور الزمن/ وأقتات بالأمل المرتجى/ وأصعد نحوك نسرا عزيز الجناح/ أنا الوجد والتوق والذكريات/ توغّلت في الجرح مني/ وأسرجت نحوي الرياح/ وهذا جناحي/ وصوتي الذي ما احتواه المدى/ رجوتك/ يا سدرة المنتهى/ بذلتُ لك القمح والأوردة/ ورحت أصلي.. أصلّي/ أرشّ التعاويذ فوق

الحصار/ لعل السبيل إليك تلين/ وينبض بالحب قلب الصغار.. /

أرى قصائد التفعيلة عالجت قضية القدس بلغة موحية وبرؤية هادئة ومشعّة مزجت بين الواقعي والفني وتجاوزت لحد بعيد لغة الصفع والتشريح، وإن مالت إليها فإنها أحسنت التوظيف، فالشاعرة الطبيبة ليس حجة في ديوان (نشيد المحبين) وفي قصيدتها (القدس والمسكين) تبدي ألمها وتحدد مسؤوليتها أمام مدينة لها قدسيتها ومكانتها ص ٦٥:

لو أعترف/ أكبر مني هذا الشرف/ أكبر مني أنت يا قدس/ أكبر من عثرات مرامي/ أكبر من صمتي وكلامي/ أرفع من قدري يا قدس/ كيف يا قدس/ كيف ساقف/ قرب جلال الموت حين ترجّل/ يستأذنك ببعض/ شبابك/ كيف يا قدس، كيف سأنجو؟/ والمهد مسيح يبكي/ آه يا قدسي/.

وكان للقدس نصيب في شعر الشيخ المرحوم محمد جميل العقاد والديوان حققه وجمعه الأستاذ محمد عدنان كاتبي.

والشيخ جميل العقاد عبّر ببساطة وعفوية وبلغة بعيدة عن التعقيد وهي أقرب إلى النثرية يتوجه بها إلى المسلمين والعرب لإنقاذ القدس وتطهيرها ص ٢٩٤:

أنقذوا الأقصى وصونوا قدسه
ثم صدّوهم، عليهم كبّروا
فهمُ وهمُ، وما همْ بالذي
تحسبوهم أنهم قد كثروا

وفي قصيدة (يا رمال القدس) يشيد بالصمود ورجال القدس ص ٤١٧:

أقوس النصر أم فوز مبين؟
حازه الأبطال في القدس الأمين
مهروا القدس نفوسا حرة
إنهم في الحرب حقا ماهرون
أنت يا قدس تراث خالد
وستبقى رمزنا في الخالدين
صانك (الفاروق) لما قد أتى
وبنوه سيتراهم حافظين
يا رجال القدس أبطال العرين
إن تصونوا القدس تضحوا ماكثين

من الطبيعي أن نجد التفاوت في مستوى النصوص، وأن تتمايز القصائد وتختلف الأساليب لأننا أمام موضوع مشترك يهمّ عامة الناس على مختلف تكوينهم وطباعهم ورؤيتهم فيشفع لهم نبل المقصد.

فالشاعر عبد الله يوركي حلاق يأبى السكوت والخنوع، ويشتاق للوثوب والمواجهة من أجل تحرير القدس وقد ألقى قصيدته (طفل فلسطين ثائر) في المؤتمر الأمريكي

العربي في فنزويلا ونشرت في ديوانه (عصير الحرمان) ص٨٧:

بيت لحم ولد الشادي بها
وجبال القدس معراج النبي
أوَ نرضى أن نراها مسرحا
للبغايا وعبيد الذهب
نحن في شوق إلى وثبتنا
يا جبال القدس ثوري واغضبي
ألف شعر لا يوازي طلقة
أفرغت في مهجة المغتصب
أين ترب القدس، هل تلثمه
شفتي في غدنا المرتقب
جدّتي قالت، إذا لم ترجعوا
وطني حَلّ عليكم غضبي

وللشاعر محمد منذر لطفي عدة قصائد يتغنى بها بأمجاد القدس ومكانتها ويدعو لنصرتها من خلال فرحته وتمجيده لحرب تشرين في مجلة نهج الإسلام العدد /٩٣/ ٢٠٠٣ يقدم ثلاثة مقاطع من كتاب تشرين جاء منها ص ٨٨:

تشرين أيقظت فينا ذكريات علا
عاشت مع الدهر نبراسا ومعتقدا
أنت الذي رد للساحات هيبتها
أنت الذي منح الجلّى يدا ويدا
لا يُرجِع القدسَ إلا الساحُ يا وطني
فهاته فكرا ثوريا جددا
فلا يخفك (بقدس العرب) مغتصب
ولا يروعك ما أخفى وما حسدا
فهذه ثورة الأحجار شاهدة
أن الطفولة أمضى همة ويدا

وإني لأعتز بانتمائي العربي الإسلامي وأجل المقدسات، وقد حظيت فلسطين والقدس وما انتابهما من نكبات وأحداث بالكثير من قصائدي التي نشرتها في دواويني والمجلات وحظي بعضها بالدراسات فقد كتب الكاتب أحمد حسن الخميسي مقالة نشرت في مجلة صوت فلسطين العدد /٣٧٣/ ١٩٩٩ أخذت عنوانا (قضية فلسطين في ضمير الشاعر محمود محمد أسد) ولي شرف النشر في أغلب الدوريات العربية عامة والفلسطينية خاصة ومما قلته:

يا قدس كم عبث الأعداء كم هتكوا
والناس في نفق والحق كالزبد
بحر من الحزن والأرواح هائجة
نزف من الدمع لم يفلح ولم يعد

وأقول:

القدس نامت على ذل وقد وقعت
في الأسر هل من رجال فيهم ذمم؟

وا لوعتي نحن أمسينا بلا أمل
أمات حسٌّ لنا أم أننا عنم؟
هبوا لإنقاذ شعب في العراء أوى
لحافه الثلج والأحلام تنهزم

وهناك قصيدة بعنوان (للقدس اعتذار) جاء فيها:

فالنائحات صراخُهنَّ مبدَّد
والعرض يهتك، والغيور سقيم
القدس ما عادت عروس عروبة
والمسجد الأقصى سباه الروم
تأبى العروبة أن يكون سلاحنا
صبرا، فحمل الخانعين عقيم
أحببت نبض عروبتي ورجالها
إن المحب بمن يحب يهيم

وكذلك يتوجه الشاعر عبد المجيد عرفة إلى القدس في قصيدته (من وحي الإسراء والمعراج) في مجلة صوت فلسطين ك٢/ ٢٠٠٠/ وفيها ملامسة حارة للقضية:

وسمعت في الأقصى نداء (محمد)
عبر المآذن في أرقّ نداء
يا أمتي، وأنا الفداء لقدسي
إن لم يعد بين الرجال فدائي
وخجلت من نسبي لدين محمد
وتفاخري بالأمة العرباء
يا صاحب المعراج هل من نظرة
للمسجد الأقصى وذاك رجائي
لترى جسوم المؤمنين وقد بدت
مزقا على المحراب والأرجاء
يا أيها الفاروق هذي قدسنا
ترنو إليك بحسرة وبكاء
عبث الطغاة بها، وداسوا موطنا
رحل الرسول إليه في الإسراء
والمسجد الأقصى الطهور وقد أتى
شارون يدخله بنعل حذاء

أوردت الكثير من القصائد والشواهد التي تبرز مكانة القدس ومعاناتها فكانت القصائد صورة عن واقعها وواقع العرب فارتفعت الأصوات بالشكوى والألم والتذكير والتضرع والتقريع.. وبعضها همس بلغة شعرية راقية وكلهم يشفع لهم سمو المقصد، هناك قصائد كثيرة لم أستطع ولن أستطيع حصرها ولكنني اكتفيت بما يعبّر ويؤدي الغرض إلى حد ما، وهي قصائد لشعراء معروفين لهم مكانتهم الشعرية البارزة ولشعراء مغمورين ولمدارس مختلفة من الشعر القديم والحديث ولشعراء مسلمين ومسيحيين ولشعراء سوريين مقيمين في سورية ومغتربين وهذا كله لم يكن إذا لم يجدوا

للقدس هذا الموقع الهام من القلوب والأرواح فكانت القصائد على مختلف مستوياتها وتوجهاتها تنبض بالإحساس والصدق وتمور بالقلق وترفرف للخير والأمل..

المراجع:

- دواوين الشعراء التي ورد ذكرها في الدراسة.
- الدوريات العربية التي ورد ذكرها في الدراسة.
- الاتجاه القومي في الشعر الحديث د. عمر الدقاق.
- أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية جورج صيدح.

التراث العربي المخطوط في بيت المقدس

إياد خالد الطباع*

إنّ المخطوطات عند أيَّة أمة هي الذاكرة المخطوطة للأمة، إذ تكون ذاكرة صخرية منحوتة، أو جلدية، أو بردية، أو ورقية.

وتُعدّ مخطوطـات العرب المسلمين واحدة من أكـبر مدونات ذاكرة هذه الأمة، فهي نتائج لعبقريـة التدوين، والتي تجلت بتدوين القرآن الكريم، في لحظـة مشقة من ذاكرة الإنسانية، ثم عصـر التدوين لكل آدابهم وعلومهم، وهو نفسه عصر النهضة والتذكر والسيادة العربية.

وأيّ معركة للعدو أفضل من المعركة مع ذاكرة الأمة المدونة في سجلات

* باحث في التراث العربي

الذاكرة الخارجية؟ خصوصاً في فترة مرض هذه الأمة وإصابتها في الرأس، أو في الذاكرة الداخلية بتعبير آخر.

• تراث فلسطين المخطوط:

كانت المكتبات الأولى التي عرفتها فلسطين هي:

- مكتبات الأديرة المسيحية، وكان بعضها موجوداً في فلسطين قبل دخول الإسلام إليها.
- مكتبات الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا بعد الفتح العربي الإسلامي، وأقدم مكتبات المدارس مكتبة دار العلم الفاطمية في القدس التي أنشأها الحاكم بأمر الله في القرن الخامس الهجري، على غرار مكتبة دار العلم الفاطمية في القاهرة.
- المكتبات الخاصة لدى الأفراد من العلماء ثم العائلات.
- المكتبات العامة، وقد ظهر أولها عام ١٩٠٠، وهي المكتبة الخالدية بالقدس.

وثمة جهود كثيرة بذلت في إنشاء مجموعات للمخطوطات في مؤسسات عديدة، تحتاج إلى تاريخ خاص بها، ومن الممكن أن نذكر في هذا السياق، ما قام به أحمد باشا الجزار في نهاية القرن الثامن عشر حين أنشأ في مدينة عكا ثلاثة آثار، هي المسجد، والسبيل، والسوق، وكان بالمسجد مدرسة، ومكتبة، ولم يبق من المدرسة سوى الأثر، أما المكتبة، وتسمى بالأحمدية، فما تزال بعض محتوياتها من المخطوطات موجودة حتى اليوم، وبعضها يحمل توقيع الجزار نفسه، وحظيت هذه المجموعة بفهرس مطبوع، هذه المجموعة موجودة الآن في الأرض المحتلة عام ١٩٤٨.

وفي بدايات القرن العشرين اهتم المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بإنشاء اثنين من دور الكتب الإسلامية في المناطق الفلسطينية، وهي:

- دار كتب المسجد الأقصى.
- دار الكتب الإسلامية في يافا عام ١٩٢٣، وهي مجموعة مخطوطات حفظت في مسجد النزهة في يافا، وتركت منسية، عددها ٢٣٩ مخطوطة، تمّ تصويرها على ميكروفيلم، وحفظت المخطوطات في مكتبة النادي الإسلامي في يافا، ومعظمها بالعربية، وقليل منها بالتركية، وأربع منها بالفارسية، ويعود أقدمها إلى القرن السابع الهجري.

وابتليت فلسطين بهجمة الصهيونية التي جمعت كل خصائص الاستعمار وفلسفاته، فكانت ضربة قاصمة للعالم العربي كله ما يزال يستشفي من آثار تدهور الدولة العثمانية والتخلف السياسي والاجتماعي والعلمي، ومن جروح الاستعمار الذي التهم غنائم السلطة الراحلة.

وحلت الكارثة في عام ١٩٤٨، فاحتلّ الصهاينة معظم فلسطين، ويمكن أن نلخص ما حدث في ما يلي:

١- سقطت في أيديهم مئات من المكتبات العامة وآلاف من الكتب والمخطوطات.

٢- دمّروا كثيراً من المكتبات تدميراً كلياً نتيجة الحرب.

٣- سرقوا الكثير من المكتبات، ونهبوا ما فيها.

٤- صادروا المقتنيات التراثية في المدينة المقدسة. ومنذ احتلال الصهاينة للقدس عملوا على سلب المخطوطات والوثائق المتعلقة بالقدس الشريف خاصة؛ تمهيداً للاستيلاء عليه في غياب الذاكرة العربية.

وقد تمّ إنقاذ عدد ضئيل من الكتب والمخطوطات التي نقلت بعد عام ١٩٤٨ إلى المدن الفلسطينية.

وإثر حرب ١٩٤٨ تعرض كثير من المؤسسات العربية الإسلامية وغيرها للتخريب والإهمال، وسقطت مدن عربية هامة، مثل عكا ويافا وغيرهما، وبما فيها من مخطوطات في يد الدولة الصهيونية، وعلى الرغم من وجود هذه المكتبات حتى في عكا ويافا، فقد نهبت إسرائيل منها قدراً كبيراً.

وكانت أول سرقة بعد ١٩٤٨ في فلسطين المحتلة، والثانية بعد نكسة ١٩٦٧ في الضفة الغربية وغزة، وبدأ التطاول على مكتبات القدس الشرقية، ومنها المكتبة الخالدية.

وهكذا لقيت المخطوطات على يد الصهاينة أنواعاً من العدوان تمثلت في:

- الإحراق والتدمير.
- النهب والاغتصاب
- التدخل في تحقيق بعض هذه المخطوطات بشكل انتقائي، يخدم أهدافاً صهيونية كما سنرى.
- منع السلطات الإسرائيلية ترميم المخطوطات الإسلامية التي يخشى أنها تتعرض للتلف يوماً بعد يوم.
- إفقار الشعب الفلسطيني حتى أصبحت حالة كثير من المخطوطات في مكتبة المسجد الأقصى ولدى كثير من العائلات سيّئة جداً، تعاني من سوء التخزين، ونقص الخبرات المؤهلة في المكتبات، وتهالك الأبنية، وكثير من المصائب الأخرى التي تترتب على الفقر والتجويع والإحباط، تلك التي تدمر الإنسان والبيئة والذاكرة.

• **المكتبة الخالدية* في القدس:**

تقع في طريق باب السلسلة بالبلدة القديمة، وهو من أبواب الحرم الشريف الرئيسة، وهي على بعد مئة متر من الحرم،

كما تطل على حائط البراق (وليس حائط المبكى، كما يقول الصهاينة، وينقل عنهم العرب !).

وتعود النواة الأولى لهذه المكتبة إلى وقف القاضي طه بن شرف الدين الخالدي، عام ١٦٦٠، ثم تابع وقف الكتب محمد صنع الله الخالدي، منذ عام ١٧٢٠، وتراكمت عليها مجموعات من المخطوطات من أفراد الأسرة، من اختيار مشايخ العائلة جيلاً بعد جيل، كما ساهمت فيها بعض سيدات الأسرة بشراء مجموعات من المخطوطات وجعلتها الأسرة مكتبة عامة منذ عام ١٩٠٠، وخصص لها إيراد من أوقاف العائلة بالقدس.

وتوجد المكتبة الخالدية في مبنى أثري قديم، هو ثاني أقدم بناء مملوكي في المدينة المقدسة، وهو مقبرة لثلاثة من الأمراء الخوارزمية الذين جاؤوا لمحاربة الصليبيين، أولهم الأمير حسام الدين بركنخان، المتوفى في ٦٤١هـ. بعض أبنائه قد بنى مقر المكتبة عام ١٨٩٨ مكان بناء متهدم ملاصق لهذه المقبرة، وتشمل مجموعة المكتبة دوائر هامة من التراث: تراث القدس وفلسطين الحالي، ثم التراث العربي الإسلامي، في دوائر متسعة.

وتضم المكتبة أكبر مجموعة من المخطوطات العربية في فلسطين، تصل إلى ألفي عنوان تقريباً، إلى جانب عدة آلاف من الوثائق وغيرها، اكتشفت صدفة عام ١٩٨٧ تحت السقف القرميدي للمكتبة، أثناء عمليات الترميم، وبعضها وثائق رسمية عثمانية وأوراق شخصية.

وقد افتتحت رسمياً بكونها مكتبة عمومية عام ١٩٠٠ وطبع لها في العام نفسه فهرس بعنوان «برنامج المكتبة الخالدية العمومية» صنفه أبو الخير محمد الحبال البيروني مولداً (يلاحظ أن كلمة برنامج استخدمت قديماً بمعنى فهرس، ومنها برنامج الشيوخ مثل برنامج المجاري.. إلخ).

وكان عدد المخطوطات آنذاك ٦٨٠ مخطوطاً إلى جانب مئات من الكتب، ثم ضمت إليها في ما بعد مكتبات آل الخالدي الخاصة في موجات متتالية.

وبعد النكسة ١٩٦٧، واحتلال إسرائيل لمدينة القدس، تعرضت المكتبة لمحاولات متكررة من الإسرائيليين المحتلين للاستيلاء عليها.

وقاد غورين كبير حاخامي الجيش الإسرائيلي سابقاً حملة ضارية للاستيلاء على المكتبة، واحتل الطابق الأعلى فوقها، وجلب عدداً من تلاميذ مدرسة ياشيفا التلمودية، التابعة لحركة يهودية من الغلاة، تحت شعار إعادة بناء الهيكل في ساحة الحرم القدسي الشريف، وتصدرت له لجنة عائلة الخالدي عام ١٩٨٢ وجمعت هبات

من العرب والمسلمين والفلسطينيين وتحركت على محورين:

الأول: اللجوء إلى المحاكم المحلية لدرء أضرار الحاخام.

والثاني: ترميم المكتبة وما تحتويه من كتب.

وبعد فشل الحاخام في الاستيلاء على المكتبة بدأت محاولات بلدية القدس للاستيلاء عليها، وكذلك بدأت مضايقات الجيش الإسرائيلي والمستوطنين المسلحين، وتصدرت لهذه المحاولات الآنسة هيفاء حيدر كامل الخالدي (ت ١٩٩٣)، حتى صدر إذن من البلدية بالسماح بترميم المكتبة.

وفي عام ١٩٨٩ سجلت جمعية أصدقاء المكتبة الخالدية في الولايات المتحدة، وانضم إليهم بعض كبار المستشرقين في الولايات المتحدة وأوربة.

وأصدرت جامعة كولومبية في نيويورك دراسة كتبها الدكتور رشيد إسماعيل الخالدي، عن محتويات المكتبة الوثائقية حول الهوية الوطنية الفلسطينية في كتاب بالإنكليزية صدر عام ١٩٧٧.

ومن خلال قصة المكتبة يمكن أن نبرز أوجه الصراع والمقاومة ضد الاحتلال الصهيوني في ما يلي:

- استمرار اهتمام أهل القدس عبر القرون بالعلوم الدينية والتراث الإسلامي.

- إنشاء المؤسسات العلمية بجوار الحرم الشريف، وإدراكهم لوجوب تثبيت وجودهم من خلال مؤسسات علمية مجاورة للحرم.

- دور الأوقاف الإسلامية.

- القدرة على الصمود، على الرغم من كل ما تعرضت له بعد تشتت معظم أفراد العائلة، منذ أحداث عامي ١٩٤٨ - ١٩٦٧ المحزنة. ولم يبق منهم في القدس سوى عدد قليل.

- منذ عام ١٩٦٧ استولت إسرائيل على أوقاف عائلية عديدة مما قضى على معظم مصادر الإنفاق على المكتبة.

- كما بدأت منذ عام ١٩٦٧ محاولات الاستيلاء على الطابق العلوي من المكتبة ثم اتجهت إلى الطابق الأرضي، حيث توجد خزائن المكتبة، واستمرار ذلك أكثر من عشر سنوات.

- لجأت أسرة الخالدي إلى المحاكم، وأسست جمعية أصدقاء المكتبة وجمعت التبرعات لرعايتها وترميمها.

- ومن أهم عوامل المقاومة والاستمرار إتمام وضع فهرس جديد بمقتنياتها، بعد أن كان لها فهرس صدر عام ١٩٠٠، وفهرس آخر مخطوط باليد.

- وقد بدأ وضع الفهرس الجديد منذ عام ١٩٨٥ وهو الآن على وشك النشر، وتقوم

بنشره مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، صنفه الدكتور نظمي الجعبة من جامعة بيرزيت الفلسطينية.

- كما بدأ ترميم المخطوطات ومنذ عام ١٩٩٥ بدأت أعمال ترميم مبنى كبير من أوقاف العائلة في الجهة المقابلة لمبنى المكتبة، ليصبح ملحقاً توضع فيه الكتب المطبوعة ولتبقى المخطوطات في المبنى القديم.

- وتلقت المكتبة معونات من اليونسكو والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي ومن المملكة الهولندية إلى جانب معونات أهلية.

- في العام (٢٠٠٠) تحل الذكرى المئوية للمكتبة وسوف يكون نشر الفهرس الجديد مظهراً من مظاهر الاحتفال بها.

- ويقوم الدكتور وليد الخالدي المقيم في كمبردج ماشوسيتس (الولايات المتحدة) برئاسة مجلس أمناء جمعية أصدقاء المكتبة. وهو مصدر أي باحث لمعظم المعلومات حول المكتبة.

- وفي قصة هذه المكتبة تتكامل الجهود الخلاقة للعائلة والفرد. وتتجلى أصالة التاريخ الضارب بعمق الأرض.

- ومن الجدير بالذكر أن أحد أفراد هذه الأسرة، وهو يوسف ضياء الدين الخالدي، أرسل إلى تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية رسالة في مارس ١٨٩٩ عبر صديق هرتزل، وهو كبير حاخامي فرنسا (صدوق كاهن) يحذره فيها من مجيء اليهود إلى فلسطين، ورد عليه هرتزل في أربع صفحات بالفرنسية، يقول فيها: إذا لم يوافق السلطان عبد الحميد على المخطط، فإن الصهيونية ستتوجه إلى بلد بديل غير فلسطين. وربما كانت هذه الرسالة هي الوحيدة الموجهة من هرتزل إلى شخص عربي.

بعض مظاهر الصحوة:

حتى عام ١٩٤٨ كان التعريف بالمخطوطات في فلسطين نادراً وفي أوائل الثمانينيات من القرن العشرين نشط الفلسطينيون للعناية بتراثهم، بعد أن انشغلوا بالسياسة طوال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات.

وقد ساعدهم على الاهتمام بالمخطوطات من أوائل الثمانينيات بعض الجامعات الفلسطينية، مثل جامعة النجاح الوطنية في نابلس، وجامعة القدس العربية في قرية أبي ديس، على أطراف القدس الشرقية القديمة، وكانت تنفق عليها الكويت منذ نشأتها حتى فترة متأخرة.

وأسهم مجمع اللغة العربية الأردنية والجامعة الأردنية ومؤسسة آل البيت في عمان، ثم مؤسسة الفرقان في لندن، في نشر فهارس للمخطوطات في فلسطين.

وبعد أوسلو وفي عهد السلطة

الفلسطينيــة أنشئــت وزارة للثقافة في رام الله وبهــا إدارة عامــة منبثقة عــن الوزارة للمكتبــات والمخطوطات، وهــي التي تتابع الآن أعمــال حصر المكتبــات الفلسطينية، وتزويدها بــالأدوات والإمكانيات، وتصوير المخطوطات ونقل المصورات خارج القدس.

كما أنشئــت في بيت المقدس عام ١٩٨٣ مؤسسة إحياء الــتراث والبحوث الإسلامية ، لحماية المخطوطــات مما تعرضت له من خطر الحروب والنهب.

ويقدر تقرير هذه المؤسسة أن مخطوطات فلسطــين كانت نحو خمسين ألف مخطوطة أصلية، لم يبق الآن إلا نحو ثمانية آلاف.

وقد جمعت مؤسسة بيت المقدس ستمئة مخطوطــة أصليــة، نحــو ٣٥٠٠ مخطوطة مصورة، ونصف هــذه المخطوطات مصاب بالأرضة وبالرطوبــة لسوء حفظها، وتحتاج إلى فهرسة.

ولعلّ من أهم علامــات الصحوة حصر مجموعــات المخطوطــات في فلسطــين، وقــد أصــدرت الإدارة العامــة للمكتبــات والمخطوطــات بــوزارة الثقافــة بالسلطــة الفلسطينية في حزيران ٢٠٠٠ دليلاً لمكتبات المخطوطات ومراكزها في فلسطين، حصرت فيــه اثنتين وعشريــن مكتبة، وقــد أعدته الإدارة، استجابــة لطلب أ.عصام الشنطي، وقــد استعانت بمصادر أخــرى للتدقيق في هــذا الحصر ، فوصل العدد إلى ٢٧ مكتبة، منها اثنتــان توجدان في فلسطــين المحتلة عام ١٩٤٨، وهما المكتبة الأحمدية في عكا، والإسلامية في يافــا . وكان أهم مصدر هو قائمــة بفهارســ المخطوطات صــادرة عن مؤسسة آل البيت بالأردن.

وفي ما يلــي قائمة بما أمكن حصره من هذه المكتبات:

- مكتبــات المخطوطات في فلسطين التي أمكن حصرها

مكتبــات في المناطق تحت يــد السلطة الفلسطينية:

في القدس (المدينــة القديمــة) الشرقية:

١- المكتبــة الخالديــة (لهــا فهارس مطبوعة، وفهرس حديث قد طبع الآن عام ٢٠٠٠).

٢- دار إسعاف النشاشيبي (في القدس الشرقية، ولكن خارج السور)

٣- مكتبة الخطيب.

٤- المكتبة البديرية (لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٧)

٥- مكتبة المسجد الأقصى (لها فهرس مطبوع من ثلاثة أجزاء)

٦- مكتبة الأنصاري.

٧- مكتبــة جامعــة القدســ (صدر

فهرس لمكتبة الدعوة وأصول الدين بجامعة القدس)

٨- مكتبة مؤسسة إحياء التراث (تابعة للسلطة الفلسطينية) وهي مصورات وقليل من الأصول.

٩- مكتبة إسحاق موسى الحسيني (لها فهرس بخط اليد ١٩٧٥)

١٠- مكتبة جمعية الدراسات العربية

في نابلس

١١- مكتبة نمر النابلسي (لها فهرس مطبوع ١٩٨٣).

١٢- مكتبة مركز التوثيق والمخطوطات (في جامعة النجاح).

١٣- مكتبة تفاحة (لها فهرس) ولها مصورات في جامعة النجاح.

١٤- مكتبة آل الجوهري (أو المكتبة الجوهرية) لها فهرس مطبوع عام ١٩٩٠.

١٥- مكتبة القمحاوي لها فهرس مطبوع عام ١٩٩٢.

١٦- مكتبة الصمادي لا فهرس.

١٧- مكتبة بلدية نابلس العامة.

١٨- مكتبة آل صوفان.

في الخليل:

١٩- مكتبة الحرم الإبراهيمي لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٣

٢٠- مكتبة جامعة الخليل.

في غزة

٢١- مكتبة الجامع العمري.

٢٢- مكتبة الجامعة الإسلامية.

في جنين

٢٣- مكتبة أوقاف جنين في قرية برقين مسجدان بهما مخطوطات.

٢٤- مكتبة آل جرار.

في البيرة (ملاصقة في رام الله)

٢٥- مكتبة الأرشيف الصحفي والوثائق (إنعاش الأسرة) توجد بها مصورات مخطوطات فقط.

في فلسطين المحتلة ١٩٤٨

٢٦- المكتبة الأحمدية في عكا لها فهرس مطبوع ١٩٨٢.

٢٧- المكتبة الإسلامية في يافا لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٤.

٢٨- حيفا فيها بعض المكتبات الخاصة لم نعرف عنها شيئاً.

٢٩- الناصرة أديرة

ومن الدليل الذي أعدته الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات بالسلطة الوطنية الفلسطينية، يتضح أن أكبر هذه المكتبات من حيث عدد المخطوطات يحتوي على ألفي عنوان تقريباً وأن بقية المكتبات يحتوي على مئات العناوين. وبعضها الآخر يحتوي على أقل من مئة ومن أمثلة ذلك:

١- المكتبة الخالدية وبها ٢٠٠٠ عنوان

ويدخل فيها محتويات المجاميع.

٢- مكتبة المسجد الأقصى وبها نحو ١٦٠٠ عنوان ويدخل فيها محتويات المجاميع.

٣- مكتبة دار إسعاف النشاشيبي وبها نحو ١٢٣٨ عنوان ويدخل بها محتويات المجاميع.

أما المجموع النهائي لعناوين المخطوطات شاملاً العناوين داخل المجاميع التي يحتوي المجموع منها على أكثر من عنوان. وبعضها رسائل صغيرة – فيصل حسب التقدير إلى نحو ٩ آلاف عنوان.

ومن بين هذه المكتبات نحو ثلاثة عشر مكتبة تمت فهرستها، ونشر لاحقاً اثنا عشر فهرساً، أحدهما في ثلاثة أجزاء (مكتبة الأقصى) وثمة فهرس لا يزال مخطوطاً، وهو فهرس مكتبة إسحاق موسى الحسيني في القدس.

هناك بعض لمظاهر الثراء في جهود الفهرسة يُمكن إجمالها في ما يلي:

١- المكتبة الخالدية في القدس

– صدر لها عام ١٩٠٠ عندما أعلنت مكتبة عمومية «برنامج المكتبة الخالدية في القدس . القدس: مكتبة جورجي حبيب حنانيا»

– صدر لها عام ١٩٦٧ مخطوط يشمل الكتب المخطوطة والمطبوعة.

– فهرس المكتبة الخالدية في القدس، تحت الطبع في مؤسسة الفرقان في لندن

٢- مكتبة المسجد الأقصى في القدس:

٣- «فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى»؛ وجاء في ثلاثة مجلدات حتى الآن وكلها من إعداد خضر إبراهيم سلامة كما يلي:

– الجزء الأول: صدر في القدس: دائرة الأوقاف العامة في طبعتيه الأولى ١٩٨٠ والثانية ١٩٨٣.

– الجزء الثاني: عمان الأردن مؤسسة آل البيت ١٩٨٣.

– الجزء الثالث: لندن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٩٩٦.

ويلاحظ أن إنشاء الفهارس يمتد تاريخياً إلى الوراء إلى بداية القرن العشرين عام ١٩٠٠ . تاريخ ظهوره أقدم فهرس وهو برنامج المكتبة الخالدية في القدس.

أمّا أحد عمل أمكن الاطلاع عليه فيعود إلى عام ١٩٩٦، وهو تاريخ نشر الجزء الثالث من فهرس مكتبة المسجد الأقصى، بمعرفة مؤسسة الفرقان في لندن.

وإذا استثنينا فهرس الخالدية الأول عام ١٩٠٠ فإننا نلاحظ أن الفهرس إنما صدرت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين أي في حدود عشرين عاماً.

وقد حظيت بعض هذه المجموعات بدراسات وصفية وببليوغرافية بلغ عددها خمساً تناول بعضها مخطوطات في موضوع معين، مثل:

١- مخطوطات فضائل بيت المقدس: دراسة وببليوجرافيا تأليف د.كامل جميل العسلي. عمان: مجمع اللغة العربية الأردنية ١٩٨١.

٢- فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة د.محمود إبراهيم الكويت: معهد المخطوطات العربية ١٩٨٥

وهناك بعض الدراسات الببليوجرافية التي تناولت مخطوطات فلسطين مع الاتجاه الانتقائي لجانب أو لآخر، ويعود أقدمها إلى عام ١٩٢٤ وهي كما يلي حسب التسلسل التاريخي:

١- خزائن الكتب العربية: وصف بعض المخطوطات في خزانة بيت الجوهري في مدينة نابلس والكتب موقوفة، ووصف كتاب في خزانة آل صوفان في نابلس/ محمد عزة دروزة مجلة المجمع العلمي العربي مج ٤، ١٩٢٤.

٢- مجموع نادر: مقالة بقلم عبد الله مخلص. مجلة المجمع العلمي العربي دمشق، مج ١٠، ١٩٣٠.

٣- دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها / محمد أسعد طلس. مجلة المجمع العلمي العربي دمشق مج ٢٠، ١٩٤٥ مج ٢١، ١٩٤٦.

٤- المخطوطات العربية في فلسطين: أبحاث جمعها وقدم لها د. صلاح الدين المنجد بيروت، دار الكتب الجديد ١٩٨٢.

وهناك دراسة حديثة تناولت مخطوطات فلسطين بشكل عام مع بعض التحليلات الإحصائية وهي:

٥- مخطوطات فلسطين واقع وطموح: بيت المقدس/ فؤاد عبيد القدس، منشورات مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني ٢٠٠٠.

ويلاحظ أن هذه أول دراسة تصدرها مؤسسة تابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية وهي بادرة تدل على اهتمام ووعي بأهمية هذه المخطوطات على المستوى الرسمي.

٦- قام مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني بإجراء دراسات ومسوحات خلال الأعوام الماضية بعد قيام السلطة الفلسطينية شملت تسع مكتبات فقط في مدينة القدس وهي:

مكتبة النشاشيبي – مكتبة مؤسسة إحياء التراث – مكتبة الأنصاري – مكتبة الخطيب – مكتبة الدراسات العربية– مكتبة المسجد الأقصى – مكتبة جامعة القدس – المكتبة الخالدية – مكتبة البديري.

دور بعض المؤسسات والعائلات في حفظ التراث المخطوط:

مجمع اللغة العربية الأردني:

قام المجمع بدور كبير في لم شتات التراث الوطني الفلسطيني المتناثر عن طريق تصويره وفهرسته ونشر هذه المدارس.

وتبنى منذ عام ١٩٨٢ طباعة فهارس المخطوطات العربية التي قام بتصويرها مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية وبشكل خاص المخطوطات الموجودة في مدن فلسطين، من المكتبات والمساجد والمتاحف.

- **الجامعة الأردنية:**

أسهم مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية في تصوير عدد كبير من المخطوطات من المكتبات العائلية والمساجد والمتاحف وقام بتكليف عدد من المفهرسين بفهرستها وكانت هذه الجهود في عدد من المدن الفلسطينية وشمل التصوير أيضاً مخطوطات المكتبة الأحمدية في عكا التي أنشأها أحمد باشا الجزار (١٧٢٠ - ١٨٠٤) وهي الآن في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨.

- **مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن(ويمبلدون)**

أسهمت المؤسسة في خدمة مخطوطات فلسطين بعملين هما:

- نشر الجزء الثالث من فهرس مكتبة المسجد الأقصى وكان الجزآن الأول والثاني قد نشرا من قبل.

- تبني نشر فهرس المكتبة الخالدية، وهو يشمل مخطوطات هذه المكتبة التي يبلغ عددها ألفي مخطوطة تقريباً أي ما يقرب من ربع المخطوطات الباقية في فلسطين كلها، حسب التقديرات الحالية وسوف ينشر هذا الفهرس قريباً ويمكن أن يقع في مجلدين أو ثلاثة.

- **عائلة الخالدي:**

سبق الحديث عن الصراع الطويل الذي خاضه بعض أفرادها. محاولات الاستيلاء على مبنى المكتبة القريب من حائط البراق وهو الموقع الذي تتركز فيه أطماع الصهيونية سعياً لتحقيق فكرة الهيكل الذي تحلم ببنائه، بعد تدمير كل ما يقع في المكان.

إن تضحية هذه العائلة بممتلكاتها وأموالها وجهود أبنائها للحفاظ على مجموعات المكتبة عمل يستحق كل التقدير والتسجيل في صفحات التاريخ وقد نشرت مشكورة أقدم فهرس للمخطوطات في فلسطين عام ١٩٠٠ عندما جعلت المكتبة مكتبة عمومية.

هـ-المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت في عمان،

حيث أسهم المجمع في نشر الجز الثاني

من فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى في القدس

- إدارة الأوقاف العامة مكتبة الأقصى:

نشرت ثلاثة فهارس للمخطوطات هي:

- الجزء الأول من فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى في القدس ١٩٨٣

- فهرس مخطوطات المكتبة البديرية مكتبة الشيخ محمد بن حبيش في القدس ١٩٨٧.

القدس

إن أكثر المخطوطات العربية والإسلامية موجودة في مكتبات المدينة المقدسة سواء المكتبات الخاصة أو المكتبات العامة ويعود ذلك إلى المكانة الدينية التي تحظى بها المدينة في نفوس المسلمين، ولعلّ هذه المخطوطات إضافة إلى الأماكن الأثرية وغيرها تشير إلى الارتباط الوشيج بين المسلمين على اختلاف مشاربهم وما تمثله هذه المدينة في عقيدتهم وتاريخهم وحضاراتهم من مكانة لا يمكن تجاوزها لا حاضراً ولا مستقبلاً.

ويوجد في المدينة المقدسة تسعة مراكز ثقافية (مكتبات ومتاحف ومساجد) تخص المسلمين وتحتوي على مخطوطات تتفاوت في عددها من مركز إلى آخر.

هذا ويبلغ عدد المؤسسات الإسرائيلية التي تمتلك مخططات إسلامية ثلاث مؤسسات ولم يتح لنا معرفة عدد المؤسسات المسيحية وما تملكه من هذا التراث وسنتناول محتويات الأماكن الثقافية العربية والإسلامية أولاً ثم الإسرائيلية بغض النظر عن الترتيب الهجائي الذي اعتمدناه سابقاً.

١- مكتبة العائلة البديرية:

تقع في البلدة القديمة بجانب باب الناظر أنشأها عالم صوفي درس في الأزهر الشريف، ولم يكتف بذلك بل عمل على تمتيها وكان إنشاؤه لها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي هذا العالم هو الشيخ محمد بن بدير الشهير بابن حبيش وفاته في ٢٧ شعبان ١٢٢٠ هـ / ٢٠ تشرين الثاني ١٨٠٥ م درس نحو ثلاثين عاماً في مصر عاد بعدها إلى القدس واستوطن فيها وسكن الزاوية الوفائية ومات ودفن فيها.

والحق أن المكتبة البديرية تعد خير مثال على أن المكتبات العائلية في فلسطين هي في الأصل مكتبات خاصة ووضع المخطوطات في هذه المكتبة جيد إذ تخلو من الأرضة مقارنة بالمخطوطات في مكتبات أخرى وإن كانت لا تخلو من بعض المشاكل كانفراط أوراق بعضها إلى غير ذلك.

ويبلغ عدد المخطوطات نحو سبع مئة

مخطوطة بالعربية ومنها:

- الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري نسخت في ٥٦٢هـ ١١٦٧م.
- مؤلفات الشيخ البديري مؤسس المكتبة وعددها ثمانية مؤلفات.
- منهاج الدكان لداود بن أبي نصر الكوهين العطار المتوفى ١٢٥٩ ولعلها نسخة المؤلف أو كتبت في عصره.
- البراهين النواقض لمباني ضلالات الروافض لإمام مسجد صفد وصيدا معروف بن أحمد وهي نسخة المؤلف كتبت في ١٥٦٠ وكان المؤلف قد زار مصر وشاهد إحياء ذكرى استشهاد الحسين وكتابه رد على كتب الشيعة ونقد لاحتفالاتهم.
- الأسانيد المباركة لابن حجر العسقلاني وهي نسخة المؤلف وتاريخها ١٤٤٩.

وصدر لها فهرس

- سلامة، خضر، فهرس مخطوطات المكتبة البديرية (مكتبة الشيخ ابن حبيش) القدس، إدارة الأوقاف العامة – مكتبة المسجد الأقصى، جزآن ٦٧٧ صفحة

اشتمل الفهرس على مقدمة عن مؤسس المكتبة وعن العائلة البديرية في أربع وعشرين صفحة ورتب الفهرس هجائياً ضمن ستة عشر موضوعاً تبدأ بالعلوم القرآنية فالعلوم الإسلامية فاللغة العربية فالأدب العربي فالتاريخ فالمنطق فالميقات فالحساب فالطب وأخيراً موضوعات متفرقة.

وقد ألحق بفهارس المخطوطات خمسة فهارس أو مسارد مرتبة هجائياً اشتملت على عناوين المخطوطات وأسماء المؤلفين والنساخ والأعلام الواردة في بند الملاحظات وهي تتضمن الأسماء التي وجدت مكتوبة على نسخ المخطوطات سواء من قرؤوها أو امتلكوها وأسماء الأماكن التي وردت على المخطوطات إلى جانب بعض المخطوطات التي لم يعرف مؤلفوها.

إن كل المخطوطات في فلسطين هي مخطوطات عربية فلسطينية ترجع ملكيتها إلى أهل فلسطين العرب الشرعيين مؤسسات وأفراد وأسر لكن ثمة جهات تمّ إنشاؤها بعد ظهور الكيان الإسرائيلي عام ١٩٤٨ جمعت فيها المخطوطات بالاستيلاء عليها أو شرائها من داخل فلسطين وخارجها وفي ما يلي بيان بهذه المجموعات في أماكنها الحديثة لتكتمل صورة تراثنا العربي في القدس.

مكتبة جامعة حيفا

تم تأسيسها عام ١٩٧٩ ويوجد فيها ست وأربعون مخطوطة جميعها باللغة العثمانية ويبدو أنها ألحقت بالمكتبة في عام ١٩٧٩ وهي في الأصل ملك لأحد الورثة وقام

بالتبرع بها للمكتبة ولا تملك الجامعة مخطوطات عربية.

القدس

١- المكتبة الوطنية ومكتبة الجامعة العبرية

تقع تحديداً في القدس الغربية أسست في عام ١٨٩٢ وتحتوي على ما يقارب نصف المخطوطات في فلسطين فقد بلغ عدد مخطوطاتها ٢١٤٢ مخطوطة منها أربعمئة مخطوطة بالفارسية، ومئة وعشرون مخطوطة مزينة بالرسومات، ومئة مخطوطة بالعثمانية إضافة إلى مئة وعشرين مصحفاً وعدة مئات من هذه المخطوطات تعد في النوادر.

وثمة ثلاثة مصادر لمخطوطات المكتبة الأول: مجموعة يهودا وهو تاجر يهودي عاش ١٨٧٧-١٩٥١، وأهديت مجموعته بعد وفاته للمكتبة وعدد مخطوطات هذه المجموعة ١١٢٥ مخطوطة.

أما المصدر الثاني: فقد قدمته الحكومة الإسرائيلية للمكتبة وعدد هذه المخطوطات ٥٤٣ مخطوطة إضافة إلى ما هو موجود في المكتبة وعددها ٤٦٥ مخطوطة.

الفهارس

لا توجد فهارس مطبوعة لمخطوطات المكتبة وقد قام المسؤول عن تقسيم المخطوطات بعمل بطاقات بالعربية لجميع المخطوطات والمؤلف والموضوع.

وتم حديثاً صنع فهارس مفصلة لجميع المخطوطات عن طريق الكمبيوتر ولكنها لم تنشر حتى الآن.

٢- متحف ذكرى ماثير (المتحف الإسلامي)

يقع في القدس الغربية في شارع بلماخ تحديداً أسس في عام ١٩٧٤ وهو متحف خاص أنشأته زوجة عالم الفن الإسلامي /ل-ماثير/ تخليداً لذكراه ويحتوي على ما جمعه الرجل أثناء حياته من مخطوطات وتحف إسلامية ويبلغ عدد المخطوطات تسع عشرة مخطوطة سبع منها بالعربية مصحفان وأربعة أجزاء من ربعات ومخطوطة عربية وجميعها مزينة بالرسوم النباتية والهندسية أما الباقي فهي فارسية مزينة بالرسوم أيضاً.

ومن مخطوطاته:

- رسالة دعوة الأطباء لابن بطلان وترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي
- فتوح الحرمين لمحيي الدين عبد الرحمن الناصري، وهي وصف مزين بالرسوم للحرمين الشريفين في مكة والمدينة.

الفهارس

ولا يوجد فهرس لهذه المخطوطات ولكن المتحف قام بعمل بطاقات للمخطوطات اشتملت على اسم المؤلف والعنوان والقياسات.

المتحف الإسرائيلي:

يقع في القدس الغربية، أسس عام ١٩٦٥، ويحتوي على أربعين مخطوطة بالعربية والتركية والفارسية وجميعها مزينة بالرسوم والألوان المختلفة.

ومن مخطوطاته:

- خمسة مصاحف ترجع للفترة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر.
- أربع نسخ من دلائل الخيرات لمحمد ابن سليمان بن الجزولي ترجع إلى القرنين السادس عشر والثامن عشر.
- قصة يوسف وزليخة لنور الدين عبد الرحمن الحامي نسخة من بخارى يرجع تاريخ نسخها إلى عام ١٥٧٠

الفهارس

لم تنشر فهارس لهذه المجموعة بشكل منفصل ولكن نشر المتحف كتاباً عن المخطوطات والأوراق التي تحتوي على رسوم شرقية مثل المخطوطات الإيرانية وضمن الكتاب صور عن المخطوطات العربية والكتاب هو:

Mistin R Islamic painting in the Israel mueum with the con tributins n'ama brosh Jerusalem Israel museum 1984 220 pp.

الهوامش

* تنسب العائلة إلى خالد بن الوليد وعائلة الخالدي من أقدم العائلات الفلسطينية، وأوثقها صلة بين المقدس، تولت مناصب القضاء والإفتاء والتدريس منذ القرن الثامن الهجري.

المصادر الرئيسة

١- كمال عرفات نبهان وآخرون، ندوة التراث العربي المخطوط في فلسطين، القاهرة: معهد المخطوطات العربية. (ومنه الاستفادة الكبرى في إعداد البحث).

٢- صلاح الدين المنجد، المخطوطات العربية في فلسطين، بيروت: دار الكتاب الجديد.

٣- فهارس المخطوطات العربية في العالم، كوركيس عواد، الكويت: معهد المخطوطات العربية.

الإبداع

شعر :

قصة :

الإبداع

سمفونية فلسطين

(تحية لمحمود درويش)

شعر

سليمان العيسى *

ذاتَ يومٍ.. سقطَ الخنْجَرُ في قلب الجَسَدْ

كانتِ الأرضُ الجَسَدْ..

أرضُنا المذبوحةُ الثَّكلى التي

تمتدُّ من حزنِ الزُّبَدْ

في أغاديرَ.. إلى حزنِ الزَّبَدْ

* شاعر العروبة الكبير.

في خليج التبرِ والدُنْ وغصّاتِ الشَّجَنْ
كلُه، في شهقةِ الجرحِ، وَطَنْ

الريحُ الغربيةُ العاتية ترافقُ سقوطَ الخَنْجَر في قلب الجَسَد.. الغَزو الشرس يجتاح.. و«سمفونيةُ فلسطين».. تجمع أولى ضَرَباتها، وتبدأ المقاومة، بنَبرتها التي سوف تستعصي على الموت.. نبرةٌ تجسدت في عبارة شعرية واحدة، أطلقتها «سمفونيةُ فلسطين». قالت العبارة للخنجر وهو في قلب الجسد، قالت له: «سَجِّلْ أنا عربي».

ومنذ ذلك اليوم.. تتوالى الطعنات.. وتحاول الريح الغربيةُ العاتية أن تسحق كل شيء في طريقها.. تزمجر تقصف، وتقتلع كل شيء. والعبارةُ الشعرية صامدة: «سَجِّلْ.. أنا عربي».

❁ ❁ ❁

وتحل النكبة..

«سمفونية فلسطين».. تواصل رحلتها في دنيا الغربة والتشرد، بعد أن فقدت بيتها، وقريتها، وصدر أمها، وقهوةَ أمها، ولكنها لم تفقد نبرتها الخالدة التي ظلَّت تجلجل:

«وطني، يعلِّمني حديدُ سلاسلي
عنفَ النسورِ، ورقةَ المتفائلِ
ما كنتُ أعرفُ أن تحتَ جلودنا
ميلادَ عاصفةٍ، وعرسَ جداولِ،

والتقي «سمفونية فلسطين».. التي «خَلَعت معاطفَها الجبالُ ودَثَّرتْها..»

التقيتها.. في كل مكان من أرض العرب..

يتلاقى المُشرَّدان.. في دمشق، وبيروت، وبغداد، والقاهرة، وصنعاء، وتونس، والجزائر، نعم.. يتلاقى المشرَّدان في كل مكان، ويذوب الجرحُ الصغير في الجرح الكبير، ويُسعدني، ويملؤني ثقةً بالغد، أن أستمع إلى «السمفونية» المشردة، التي تحمل قريتها المدمَّرة، وقهوةَ أمها، وهي تطير في الآفاق، حتى تصبح خفقةً في كل قلب، وصرخةً تمرد شاعرة في أرجاء الدنيا، وتُقرأ في أكثر من أربعين لغة من لغات هذا العالم.

وذات يوم.. يفاجئني النبأ.. كما فاجأ الجميع.. أن السمفونية قد توقفت، وأن محمود درويش قد رَحَل.. وأطرق.. وغيمةُ الحزن تلفُّني.. لأقول:

صوت فلسطين الشاعر.. المدوّي..

محمـود درويش لم يرحـل.. وإنما بـدأ الحياةَ الآن..

وأتمتم بيني وبين نفسي هذا المقطع من قصيدة قلتها ذات يوم:

أرأيتَ مِقْصَلَتي التي ماتت على عُنُقي..
وما ماتَ القتيلُ..
إني أُحاصِرُها..
وتعرفُ، وهي تَذْبَحني،
مَن الباقي؟
ومَنْ منا يزولُ؟

❁ ❁ ❁

إلى صديقي.. شاعـر فلسطين الأول..

أهدي هذه المقاطع مـن قصيدة لي بعنوان الفلسطيني الطائر.. ألم يكن هو الفلسطيني الطائـر، الذي شاء له البغـي والعدوان ألاّ يستقر في مكان؟

تقول القصيدة:

في الغَرْبِ.. يزرعونَكْ
في الشرقِ.. يزرعونَكْ
في العَتَمَاتِ السودِ، في الضَّبابْ
في رَجْفَةِ الحِرَابْ
تَوَدُّ لو تمحوكَ من ذاكرةِ الترابْ
ومن رُؤاهم..
حينما تنطبقُ الأهدابْ
عليكَ كابوساً، وحُلْماً أدمنَ العذابْ
لكنكَ.. الباقي على الزمنِ
حكايةُ الوطنْ..
يا رائعَ الشقاءِ والمِحَنْ!
يا سيدَ الشقاءِ والمِحَنْ!

حكايةُ الشعبِ الذي يقاسمُ السماءْ
بقاءَها.. ويبدعُ الحياة
من دمهِ المُجَفَّفْ..
المذرورِ في ضميرنا..
وفي ضميرِ قاتليهِ..
يُبدعُ الحياةْ..

❁ ❁ ❁

يا أيها المذرورُ في ضميرنا
وفي ضميرِ الأرضِ..
يا لَهَبْ..
يطهُرُ العَرَبْ
يؤرّقُ العَرَبْ

يا سُورةَ الزلزالِ في جَنَازةِ الغَرَبْ
في الشرق يزرعونَكْ
في الغربِ يزرعونَكْ
وراءَ صمتِ الصمتِ، والنسيانِ، يزرعونَكْ
يا هجرةَ الجذورِ في الترابْ
يا قصةَ العذابْ!
تَنَاثري في لحمنا، في دمنا الفسيخْ
في عَتماتِ الوطنِ «الزنزانةِ» الجريحْ
عساهُمُ إن أطبقوا الأجفانْ
في مَصْنَعِ القتلِ..
الذي يدعونه الزمانْ
يستشعروا الأمانْ
عسى يَدُ القاتلِ تستريحْ
من قصةِ الميْتِ الذي يقاسمُ الإلهْ
بقاءَه.. ويُبدعِ الحياة
من دمه المذرورِ في كل الجهاتِ يُبدعِ الحياةْ

❁ ❁ ❁

يا أيُّها الطائرُ من دَمٍ إلى دَمِ
خميرةً في رَحِمِ الترابْ
خميرةً.. يصنعها العذابْ
حتى إذا تشقّقَ الضبابْ
وانحسرت مواطئُ النعلِ عن الرقابْ
وجاء جيلٌ يمضغُ السمَّ، ونابَ «الأرقمِ»
ويرفع الحرابْ..
من دون أن يسألَ ماذا كانْ؟
وما الذي يكونُ؟ إنَّ الموتَ والحياةَ توأمانْ

حينئذٍ.. تكونُ أنتَ الرعدَ والمَطَرْ
والخِصْبِ.. والثمرْ

حينئذٍ.. تُفَجِّرُ الربيعْ
تعودُ بالجميعْ..
في قبضةٍ من ألَقٍ، ومن دَمٍ، تعودُ بالجميعْ
فَلْينثروكَ الآنَ.. كي تضيعْ
في وَهْمِهم.. في عُقْمِهم.. تضيعْ

يا أيها الطائرُ من دَمٍ إلى دَمِ
يا أيُّها الشعبُ الذي
يُشاطر السماءْ
عِنادَها.. ويُبدع الغَنَاءْ

عربية.. عربية

شعر

هارون هاشم رشيد *

-١-

عربية يا قدس مهما دبروا
لك في الخفاء.. وهينوا.. وتنكروا
عربية.. كيف المآذن تستبي
كيف القباب تباح.. كيف المنبر
عربية ما نبضة إلا على
أبواب مسجدك الطهور تكبر

* الشاعر الفلسطيني الكبير

مـاذا يـراد بنـا.. وأي شرعـة
ترضى بأن يخزى الجهاد ويقهر
مـاذا يـراد بنـا.. وأي خـرافـة
ما يفـرضـون.. ومـا تـراه يدبر

-٢-

عربية أرضاً.. سماء.. محتدا
عمـراً وتـاريـخاً يُضيء ويزهر
عـربيـة مـا دق بـابك غـاصب
إلا وزلـزلـه الـعنـاد الأكـبر
عـربيـة قـد حـاولـوا في حملة
محمومة يوماً، وعنك تقهقروا
جـاؤوك من أقصى الدنى في
هجمة،همجيةوتحالفواوتآزروا
فوقفت في وجـه الغزاة عزيزة
وصمدت،فاندحرالغزاةتكسروا
أين الصليبيون أين همو وقد
ذهبـوا فما لهم وجـود يذكر
والـيـوم عـادوا مـرة أخـرى كما
جاؤوا.. برايات الضلال تستروا
جاؤوا «يهوذا» خلفهم وأمامهم
وبـه بـفـريـة مـا يشيع تنكروا
جـــاؤوا بـأحـلام مـــزورة لهم
ضلوا.. وضل المقتفي والمصدر

كم يحلمون بأن تضيع معالم
لك شادها شعب عظيم خير
هيهات.. والإسلام أنت مناره
ولـــواؤه.. والملتقى والمحشر
ما «مكة» من غير اسمك يا ترى
أو ما «المدينة» دونه ما «الأزهر»
من غير «أقصاك» وغير رحابه
كيف الصلاة تجوز كيف تقدر
كيف المـآذن هل يحل أذانها
والمسجد الأقصى يغل ويؤسر
كيف العروبة لا تطأطئ رأسها
ذلاً.. وأقـداس لـهـا تتفطر
وبـأيـما حـق تـدير ظهورها
حتى يـدمـرك العـدو ويقهر
فيك العروبة.. وطدت أركانها
فأقيم بيت فيك أسس منبر

-٣-

عـربيـة يـا قـدس مـا من رملة
إلا وضمخها الـزكـي الأطهـر
دمنا جرى فيها.. فأثرى نبضها
وأحـالـهـا نـورا يـضـيء ويبهر
دمنا جرى فيها.. فرعرع نبتها
بـالحق.. يشرق رائعاً.. وينور
يا قدس أنت حياتنا ومماتنا
من غير وجهك.. نستهان وننكر

خضنا لأجلك كابراً عن كابر
هول الجهاد.. فما نكل ونحسر
آلاف.. آلاف الرجال استشهدوا
لتظل رايتك العزيزة تنشر
ليظل وجهك بالعروبة شامخاً
يزهو على الدنيا يتيه ويفخر
ليظل في جبل المكبر صوتنا
يعلو على أصواتهم ويكبر

-٤-

عربية يا قدس حتى ولو بغى
الباغي العتي.. وأفحش المستعمر
عربية مهما تحيك أصابع
في الليل من شر.. وينسج أغبر
عربية مهما يضل مغامر
ويحيد عن درب الصواب ويفجر
مهما يقول القائلون.. ويفترى
متحذلق.. ويشيع عنك مزوّر
عربية علمتنا أن الفدا
درب إلى الحق السليب ومَعْبَر
ويأنه بالدم ليس بغيره
الأوطان من ذل الدخيل تحرر
عربية مهما بنى أعداؤنا
«المستوطنات» العاليات.. وأكثروا
تاريخك العربي يبقى خالداً
أبداً بآيات الفداء يبشر

-٥-

عربية أهلي هناك بصبرهم
وصمودهم.. حملوا اللواء وكبروا
نادوا.. وليلهم طويل مرعب
والغاصبون.. تحكم وتَجَبُّر
عربية.. قالوا وأنياب الأذى
تغتال أمنهم الحبيب وتقبر
عربية «عمرٌ» ببابك واقف
يملى على التاريخ فيك ويأمر
وأبو عبيدة، والصحابة حوله
بالله بالقرآن فيك تجمهروا
حملوا إليك العدل أرفع راية
تبقى على مر الزمان وتعمر
وأتوك بالأمن الأمين ووطدوا
حكماً بآيات الكتاب يدبر

-٦-

يا ثالث الحرمين أول قبلة
للمسلمين.. ترى نهون ونصغر
وترى تفرط بالعهود بعهده
عُمرية.. تروي لنا.. وتكرر
قد نورت تاريخنا.. وتراثنا
عبر العصور.. ولا تزال تنور

يا قدس يا وطن النبيين الأولى
حملوا إلى الدنيا الضياء وبشروا
يا قدس يا وطن الرجال أشاوسا
ذادوا عن الحق الأبي وأنذروا
عربية مهما تكالبت العدى
عسفا.. وتاه الظالم المتجبر
عربية ما عــدوة.. أو ربوة
أو منحنى.. أو ملتقى أو مَعْبَرَ
إلا وفيـه تلفت وتأمل
منا.. وإحساس وحب أكبر
أنفاسنا.. خطواتنا.. أحلامنا
والذكريات.. تطلع وتحسر

-٧-

يا قدس أنت كفيلة يهوا إذا
عز الرجال.. المنجدون تعذروا
أين الغزاة.. أتوك من كلِّ الدُّنى
حشدوا سفائنهم إليك وأبحروا
وتجمعوا والشر ألوية لهم
في بابك الموصود حطوا عسكروا
زمنا.. وأنت الطود يشمخ صامدا
ويردهم.. ويصدهم.. ويكرر
حتى تلألأ نجم فارس أمة
في حلكة الظلماء راح ينور
ويداء صلاح الدين، يشرع سيفه
«والله أكبر» صرخة تتفجر
لبيك يا قدس السلام ومرحبا
بالعاديات.. وويل من لا ينفر
فإذا حصون الغاصبين تهدم
وإذا حشود الدارعين تبعثر
دحروا وأذيال الهزيمة خلفهم
ويمثل ما جاؤوا إليك تقهقروا
ما عاد منهم شارد أو وارد
مر الزمان عليهم وتحجروا
وبقيت «والمعراج» فوقك مشرع
أعلامه يحنو عليك ويسهر
ومحمد والأنبياء شواخص
أبصارهم لك و«البُراق» الأطهر
يا قدس مذ أسرى النبي «تشوقا»
لك والدنى بك تهتدي وتنور
يا قدس أبواب السماء جميعها
في سقفك الزاهي تضيء وتبهر

-٨-

ماذا نقول غداً لأجيال لنا
في الغيب ترتقب النهار وتنظر
ماذا نقول لهم إذا ما دنست
أقداسنا ومشى عليها المنكر
وإذا «حخامات» اليهود تحكموا
في المسجد الأقصى الحبيب وسيطروا

وإذا أبيحت قدسنا وتهدمت

وأذل مسجدنا.. وديس المنبر

وإذا العروبة للمت أذيالها

وتقهقرت وهوى الشهاب المقمر

-٩-

وطني الكبير أسامع أم يا ترى

صمت بك الآذان لا تتأثر

وطني الكبير عروبتي وأرومتي

باتت مهددة وأنت مقصر

القدس كيف القدس يسبى وجهها

ونظل في صمت ولا نتفجر

جدنا بما أسطعنا.. وما زلنا هنا

في القدس بالدم الطهور نسطر

أنا هنا في القدس فوق جبالها

ووهادها أبد الزمان نعسكر

ندعوك ياوطن العروبة فانتفض

واضرب بسيفك فالعداة تجبروا

-١٠-

عربية يا قدس كم من قائل

قد قالها.. ودماؤه تتفجر

عربية يا قدس أطلقها الآلي

حملوا الأمانة مخلصين وكبروا

عربية حتى ولو حشدوا على

أبوابك الدنيا.. فلا نتقهقر

عربية حتى ولو أقوى القوى

زعمت فنحن الحسم نحن الأخطر

عربية يا قدس مخطوط على

وجناتك الحرف الكريم مسطر

عربية «الله أكبر» تعتلي

قمم الجبال الشامخات وتنذر

تبقين ما بقي الزمان عزيزة

يا قدس مهما حاولوا أو دبروا

الإبداع

سرير النجاة

قصة

جمال سعيد حماد *

أسمر اللون شرق أوسطي كما يحلو للبعض وصفنا. جسده نحيل «جلده وعظم» يبتسم صدفة يتحدث نيابة عن خاله (أبو أيوب) الذي يتوسط الرجال الذين أتوا معي لخطبة فاطمة، حد الفيد وعقد وعزم وكأنه الآمر الناهي، بعد مغادرة الرجال بتمام الخطبة بقيت في منزل الخطيبة، ليس للجلوس معها، بل الفضول شدني لمعرفة سلطة شعبان على العائلة التي ستصبح عائلتي، عند اللحظة الأولى للهدوء سألت خطيبتي، عن سطوة الرأي لخالها

* باحث وقاص فلسطيني

حيث أحب أبناء أبا أيوب مناداته، وأم أيوب عمته وبكرها شهيد.

فاطمة حماتك تحبك منذ فترة ولن تبخل عليك بليلة سمر تقص عليك حكاية خالي التي لا نعرف عنها الكثير.

حماتي أسعد الله مساك، ما حكاية دلال وسطوة أبو أياد عليكم، وهو جد وقد تجاوز العقد الخامس.

أم أيوب آه يا ولدي «وبحسرة تتلوها زفرة حزن» الحمد لله الذي جعل شقيقي، قبل النكبة بسنتين متحمساً لشراء سرير ينام عليه ويتفاخر على أقرانه الذين ينامون على الأرض، ولم يكن يومها يعلم أن السرير سيكون حصنا لولده الصغير، كنا يا ولدي يومها منتهين من الحصاد، وكما تعلم عيشة الفلاحين وحياتهم تبدأ مع نهاية الموسم. فجأة دخل أبو عمر ممازحاً «إيش يما صهرك الجديد أخذك منا».

أم أيوب تعال يا ولدي واجلس، سأحدثكم عن ابن أخي قبل أن نلجأ إلى لبنان في الثماني والأربعين، حيث كنا نعيش بهناء وهدوء في منطقة إصبع الجليل نفلح ونزرع، حياتنا جميلة ومستقرة إلى يوم جاءنا لا نعلم عنه سوى الألم والحسرة، سمعنا عن اليهود وما يفعلون من خراب وقتل للأنفس، صمدنا في بيوتنا رافضين المغادرة مهما سمعنا عن الحرب، وكان أخي من وجهاء البلد حريصاً على عدم المغادرة، خاصة وهو فرح بأبنائه العشرة والسرير الجديد، وحصاده المريح.

فجأة انقطع التيار الكهربائي حيث يعيش لبنان حالة من الحرب والتقنين الكهربائي، دخلت العروس والقنديل بيمينها والقهوة بيسارها.

فاطمة ألم تنتهوا من خطيبي؟ أم أن الرواية أخذته مني.

أبو عمر اجلسي يا أختي فخالنا له حكاية شيقة.

تتابع الحماة سردها والحزن لا يفارق محياها

صوت المدرعات وجنازير الدبابات في كل زوايا القرية وكل بيت سمع أزيز الرصاص والقذائف دكت معظم المنازل دكاً حتى أصبح العالي مساوياً للأرض وهرع الأهل من شدة الفزع إلى بيارات القرية وحقولها.

أم أيوب منذ جفت دمعتها على بكرها الشهيد تعود دمعتها كريمة رغم مرور خمسة عقود على الحدث، منزل شقيقي كومة من الحجارة وسريره الجديد مغبراً وقطع الأثاث

تملأ جميع نواحيه، لاحياة في البيت الوجيه وزوجته والأبناء جميعهم أشلاء يا حسرتي، وبدأ أهل القرية الناجون يجمعون الأشلاء في ما تبقى من الأغطية..!

شعبان ذو الأعوام الخمسة ليس بين الجثث أين هو؟ وبدأ البحث والجميع يعودون بدون إجابة والحزن والقلق يعتريهم.

مر اليوم الأول وأذن لعصر اليوم الثاني، جاع شعبان فاضطر للمغادرة من تحت السرير.

صرخ مختار القرية فرحاً وهو أغبر أشعث من عناء البحث إن سرير عبد الرحمن قد حما ولده شعبان.

الإبداع

عــروس المطــر

قصة

هيفاء الأطرش *

حركة تنشط بوضوح داخل الـدار؛ أجساد تعبر الغرف وتجوب الأنحاء؛ انشغـالاً بحفلة الخطوبة هذا اليوم.. وأخـيراً تنطلق الزغاريد لتعلن خروج العروس حتى دار أبو وهدان؛ المستضيف للحفلة. ورويداً رويداً.. هدوء يسود أجواء المنزل ثانيةً؛ يضع أبو نادر رأسه فوق وسادة سرعان ما يغادرها؛ يرفع سماعة الهاتف.. ثم: (أم نادر هل نوران معك ؟).

- (ماذا ؟ لكنني أخبرتك أنني تركتها عندك؛ تلعب أمام الدار).

- (لا بأس؛ سأخرج لرؤيتها).

* قاصة فلسطينية

- (اتصل بي حالاً).

حثّ الخطا مسرعـاً؛ كان الجو يواصل استلاب الدفء الراحل مع المغيب؛ يطلق أبو نادر العنان لنظـره فيرمي به هنا وهناك.. يهرول.. يدور حول الدار؛ تهبُّ في صدره نار لم يعهدها من قبل؛ يصيح أبو نادر: (نوران.. حبيبتي نوران.. ولا مجيب!).

كانـت الريح تحيـك غيومـاً سوداء في الأفق.. يعـود إلى المنزل؛ يواصل البحث في كل زاوية فيه؛ يتصل بالجيران؛ نوران ليست في أي مكان هنا!

يقطـع الحفل صراخ أم نـادر: (ضاعت نـوران..) فينتفض الجميـع متناثرين في أنحـاء المنطقـة.. قالت الحاجـةُ أم عطا أنهـا شاهدت امـرأة تحدث نـوران؛ أثناء نشرها لملابـس الغسيل.. يمرّ الوقت عويلاً ويهدر الرعـد عند منتصف الليل؛ ويواصل الغيم نزيفه؛ والهاتـف لا يهدأ عن الرنين؛ وأم نـادر لم ترحم حطـام رأسها من اللطم والضـرب. قيـل إن امرأةً قامـت بخطف نوران؛ ابنة الثمانية أعوام؛ وتسليمها لسيارة جيش إسرائيلية. وبدأت الأفواه تجيد تمزيق الأعصاب بحكايا وقصص لا نهاية لها.

وأخيراً بعد ثلاثة أيام؛ قصف خبرٌ رأس أم نـادر؛ مفـاده أن نـوران مختطفة داخل الخـط الأخضـر، وسرعان مـا كانوا على موعد برجـالٍ لقيادتهم إلى هناك في اليوم التالي. كررّت أم نوران شرح تفاصيل ملامح ابنتها الغالية:

(كانت تلبس بلوزة حمرا صوف.. وبنطال مخمل.. وجزمة بسحـاب.. وجهها حنطي؛ شعرها خرنوبي اللون؛ يهدل على كتفيها..) وتصمتها غصة ثم بكاء أخرس..

كانـت السيـارة تطوي الأرضـ بسرعة كرجل أهــوج.. رنَّ هاتف الرجـل السائق: صحيـح! في أية منطقة؟ نعم نعم.. شكراً يا صديقي).

اشرأبَّ الأمل داخل خواطرهم؛ فحسب الجميـع أنهم قد أناخـوا المصيبة.. اعترى توتـرٌ واضحٌ محيـا الرجل الثـاني بجانب السائـق؛ عندما عُرف مكان نـوران. وكاد الوالـدان يخترقان صاج السيـارة للطيران إليهـا. كانت أصابع الرجـل الثاني تضغط على هاتفه بعصبيةٍ ونزقٍ بدا على تفاصيل وجهه؛ معطياً شارةً من محموله خان بها كل المشاعر وكل شيء بـلا استثناء، اهتالت أم نـوران من عدم تفاعلـه معهم وما يجري.. وبعد فـترة وجيزة؛ كانت إطـارات السيارة تهدأ أمام بيت أسندته سواعد امرأة سمراء عربيـة؛ بدت قوية.. تهـرول إليهم ثم تطل برأسها من نافذة السيارة؛ تنظر بعين ليست حزينةً ولا راجية.. ليست آملة.. ولا يائسة؛

قالــت بصوت لاهــث: (الله يحمل معكم.. الآن قبــل خمس دقائــق شاهدتهم يحملون طفلــةً ويضعونهــا في سيــارة انطلقت نحو الغرب.. فزعت أم نــوران؛ وتجدد بكاؤها؛ أمسكها زوجها من كتفها بحنانٍ متعب.

بينما كان الرجل الثاني مثل الذي فؤاده هــواء؛ وكان دائمــاً يجيد تقمصــن الحالة العكسيــة للبقيــة الموجوديــن في السيارة.. وهكذا اقتاتــت هذه العائلة لقم المعاناة بين شفرات مقص هذا الزمان الغادر؛ وبين خبر عاجــل بوجود نوران في مــكان معين؛ وبين نتيجة كارثية توصلهم إلى طريق مسدود.

كانت غرابــة المواقف المستجدة؛ تفرض نفسهــا علــى الواقــع؛ حتــى إن أبــا نادر وزوجتــه والسائق قد هجــس في صدورهم شيء مشترك نحو ذلك الرجل المرافق لهم؛ فكانــت كلُّ العيون توجز الكلام؛ لتضعه في قفص الاتهــام؛ فالطلاســم الممتدة خلال الخط الأخضــر كانت حركاته تفكها.. ومن ثم تفضحــه. أما رحلــة المخدوعين فتبقى شقيةً طويلة.

تعبــت أم نــادر وأبو نادر؛ حتــى أقعدا منتظرين مترقبين لأي خبر؛ كي ينقضا على الطرق بحثاً عن الغالية نوران.

وبَعُــدت الأيام.. قيــل أن الخاطفة قد سُلّمــت للجيشــن الإسرائيلــي؛ وقيــل إنها مجنونة.. لكــن خبر إطــلاق سراحها فيما بعد؛ ثم قصة قتلها الغامض (الواضح) دون عــودة البنت؛ وضع النقــاط على الحروف كعــادة كل القصص هناك!!.. لكن واقعهم؛ المفروضــن بشكل قاس أبقــى أخبار الطفلة حبيسة المجهول.

ورغــم كل الإشــارات السوداويــة التي تحطم الآمال؛ أوجست أم نادر في نفسها أن ابنتها ستعود.. هكذا هي قررت!!..

نــوران ستبقــى عروس المطــر؛ تتشح بالغيــوم؛ علها تهطل يوماً على سطح الدار؛ لتتــزع طرحة الغيــم البيضــاء؛ فتستحيل حقيقة؛ جسداً مفعماً بحرارة طفولة جديدة؛ فتهبط علــى الأدراج؛ لتصرخ: (أمي.. أمي لقــد عدت)!!.. لعل نــوران الآن تفكر كيف ستحضن أمها.. أين أنت يا نوران؟؟.. لا بد أنك تختزنين كمّاً هائلاً من العمر، الأخبار والذكريــات.. أعــرف أن النسيان لن يجد ضالته في مخيلتك؛ فعمــرك والوقت الذي توقف زمنك عنده؛ وقت اختطافك؛ لهو كفيلٌ بأن يحفر في أخاديد عروقك كل التفاصيل الحبيبة؛ الأهل والبيت.. الشارع والشجر.. سوف تعودين يا نوران.. لتنصبين مقصلة لمن فقدوا مظاهر الكرامة كي يصبحوا مكبّلين منقادين لشهواتهم وللغرباء، فيكون القصاص ممن هجّروك قسراً عن أحلى أيامك.

آفاق المعرفة

هوية القدس
من خلال منشآتها المعمارية

د. عفيف البهنسي ⭘

القدس قبل الإسلام

تمتعت القدس على مر التاريخ بقدسية كاملة، وكان سكانها الأصليون اليبوسيون، من الكنعانيين منذ الألف الثالث ق.م. وقد سميت دار السلام أورشاليم باللغة الكنعانية القديمة، بل باللغات العمورية. ثم كان ملكها «ملكي صادق» قد آمن بالتوحيد، وكان هو «الكاهن لله العلي» ق١٩ ق.م. ولعله أول من أطلق على القدس اسم أورسالم.

⭘ باحث ومفكر ورئيس جمعية أصدقاء دمشق.

كانت فلسطين قبل الفتح العربي ممراً للقوافل العربية تأتي من أنحاء شبه الجزيرة العربية. وكان المسافرون يقيمون فيها بعضاً من الوقت وتكون لهم تجارة ومصاهرة مع سكانها. ويقول الإصطخري إن هاشم بن عبد مناف والد جد الرسول دفن في غزة. وأن أبا سفيان والد معاوية اشترى ضيعة في البلقاء يقال لها بقنس، كما أنشأ عمرو بن العاص قصراً في بئر السبع أسماه «عجلان».

ومع الإسلام أصبح للقدس منزلة خاصة عند المسلمين بعد أن نزلت آية الإسراء الكريمة وأصبح بيت المقدس قبلة للمصلين حتى ١٥ رجب ٢هـ - ١٢ كانون الثاني/يناير ٦٢٣م. إذ تحولت القبلة إلى البيت الحرام حيث الكعبة المشرفة.

واستقر فيها عدد كبير من كبار الصحابة من أمثال أبي عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وأبي الدرداء ومعاذ ابن جبل وغيرهم. وقام بعض هؤلاء بنشر المعرفة وتأسيس دور العلم واللغة وأقيمت المساجد في جميع المدن. ويذكر ابن عساكر طريقة التدريس في ذلك العصر كما يذكر أسماء المدرسين وأخبارهم وطلابهم.

القدس عاصمة للثقافة العربية

عندما صدر قرار منظمة اليونسكو بتسجيل مدينة القدس في سجلات الممتلكات الثقافية، اعتمدت على ملف واسع تضمن الأوابد الأثرية والتاريخية العربية والإسلامية، والتي ما زالت قائمة في أنحاء المدينة، ولم يكن من بينها أي مبنى يهودي. وكان هذا القرار اعترافاً دولياً بالهوية العربية لهذه المدينة. بل قررت جامعة الدول العربية الاحتفال بمدينة القدس عاصمة للثقافة العربية، خلال العام ٢٠٠٩

القدس بعد الإسلام

بعد أن فتح أبو عبيدة عامر بن الجراح الشام عاد من قنسرين إلى بيت المقدس ليساعد عمرو بن العاص في فتحها. ولما اشتد على أهلها الحصار استسلموا وطلبوا الصلح على مثل ما صالح عليه أهل الشام، وطلبوا في ذلك عهداً على أن يوقّعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. ورغب عمر في أن يأتي بنفسه لزيارة بيت المقدس، ونزل الجابية قرب دمشق، ثم سار إلى بيت المقدس فأصلح أهلها وكتب لهم العهدة العمرية المعروفة في عام ١٦هـ/٦٣٧م، وأعطاهم الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم.

وكانت كنيسة القيامة محجاً للمسيحيين. وفي كنيسة قسطنطين صلى عمر بن الخطاب عند قمة الدرج المؤدي إلى المدخل.

الوظائف المعمارية في القدس

مع أن مدينة القدس لم تكن مركزاً سياسياً رئيسياً، بل كانت عبر التاريخ مدينة مقدسة، وأصبحت مع الإسلام أولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين. تتمتع باهتمام المسلمين وبتسابقهم لزيادة عمارتها وتنوع وظائفها، كالمساجد والمدارس، ثم ظهرت الأروقة، والميازين، والتكايا، والحجرات المستقلة، والمنابر والمحاريب المستقلة، والحمامات، والوكالات، والرباطات والخانقاوات، والزوايا، ودور القرآن والحديث. وغيرها.. وقد زال بعضها، وبقي أكثرها بعد ترميمه، وبات الحرم الشريف وعماراته علامة أساسية في هوية مدينة القدس الإسلامية العربية.

أول مسجد في القدس

لقد أراد عمر بن الخطاب أن يكرم منطقة الإسراء في المسجد الأقصى، كما ورد في الآية الكريمة (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ). الإسراء/١.

فأمر عمر أن ينشأ على قمة جبل موريا مسجداً للمسلمين على شكل مظلة فوق الصخرة المقدسة، و بقيت هذه المظلة حتى استبدل بها عبد الملك بناءً رائعاً يتناسب مع ما لهذه الصخرة من مكانة في قلب المسلمين.. ومما لا شك فيه أن هذا المسجد قد أنشئ، ولكن أحداً من المؤرخين المسلمين من أمثال البلاذري أو الطبري لم يتحدث عن بنائه. على أن المؤرخين من أمثال إلياس النصيبي وميخائيل السوري تحدثوا عن هذا المسجد وعن الأساطير التي رافقت ذلك.

وينقل كريزويل ما دوّنه أحد الرحالين «أركولف Arculf» الذي حج إلى بيت المقدس في عام ٥١هـ/٦٧٠م ورأى الجامع الأول. فهو يقول: «ولكن في ذلك المكان المشهور.. وهو واقع من جهة الجدار في الشرق، يتردد المسلمون على مسجد رباعي المخطط أقاموه بصورة بسيطة، وذلك بوضع عوارض كبيرة على بعض الآثار، ويقال إن هذا المكان يتسع لثلاثة آلاف رجل دفعة واحدة».

وحسب رواية يوسيفوس Josephus التي يذكرها كريزويل أيضاً فإن «المكان

يتألف من رواق ثلاثي الأجنحة كان على شكل بازيليكا Basilica تمتد أجنحتها الجانبية بعرض ٣٠ قدماً وارتفاع ٥٠ قدماً»..

ويطلق على المنطقة التي تقع اليوم في الجهة الغربية من المسجد الأقصى اسم جامع عمر، ولعلها كانت الموقع الذي أنشئ عليه أقدم جامع في بيت المقدس.

عمارة القدس

لم تكن مدينة القدس، قبل الفتح الإسلامي سنة ١٦هـ/٦٣٧م، إلا مدينة صغيرة تعرضت لاجتياح الفرس. ومنذ أن زار الخليفة عمر بن الخطاب هذه المدينة سنة ١٦هـ/٦٣٧م ليستلم المدينة ، ابتدأ الإعمار الإسلامي..

واستمرت مظلة الخشب على الصخرة المشرفة في قمة جبل موريا، حتى عهد عبد الملك بن مروان حيث أنشأ مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

على أن المسجد الأقصى المذكور في الآية الكريمة هنا، لا يعني المسجد الذي أنشأه عبد الملك بن مروان لاحقاً، وإنما يعني المكان المقدس الذي يُسجد فيه لله تعالى في مكان قصي يبعد عن المسجد الحرام في مكة المكرمة، المكان الذي يسمى الحرم الشريف.

عمران مدينة القدس

تعود جميع المدن الفلسطينية، ما عدا الرملة، إلى عهود سابقة للإسلام، وهي مدن عريقة جداً، ولكن تكوينها العمراني الحالي تشكّل في ظل نظام الحياة الاجتماعية الإسلامية .ومثالها مدينة القدس.

لقد تغيّر التكوين القديم الذي بدا في العهود الكلاسية شطرنجياً أحياناً وأصبح تكويناً عربياً صرفاً. فالمسجد الجامع هو المركز الأساسي للمدينة، وتقوم حوله المباني العامة والخاصة ،وقد تتحول الأبنية القديمة إلى وظائف جديدة مثل المدارس والحمامات ودور الحديث والشافي. ثم تقوم البيوت حول الحارات والدروب متواضعة الواجهات، ولكنها جميلة العمارة الداخلية، إذ تقوم على مفهوم العمارة المغلقة التي تنفتح في الداخل على صحن. وطرق المدينة ضيقة متعرجة منطاة بعقود حجرية أو مفتوحة. وتقوم منشآت وبيوت على تلك العقود التي تسمى ساباط.

ويحيط بالمدينة سور ذو أبواب، وقد تتوسع المدينة كي تنشأ أرباض خارج الأسوار

وتقسم المدينة القديمة إلى مناطق

سميت حارات أو خطط، وفي هذه الأحياء أسواق محلية صغيرة وورشات. وقد استقلت هذه الأسواق عن الأسواق الرئيسية، وبقيت بينهما علاقة الإمداد، وبلغ عدد الأحياء في المدينة من ١٠ إلى ٥٠ حياً. وكانت الأحياء تضم مجموعة سكانية منسجمة في دياناتها وفي انتسابها، ولذلك كانت الأحياء مقسمة تقريباً بحسب الأديان أو القوميات من أكراد وأتراك وقبائل عربية. ويجتمع القرويون النازحون إلى المدينة في أحياء مستقلة، وقد يجتمع أصحاب المهنة الواحدة فيشكلون حياً مستقلاً. وتتصف الأحياء بالتضامن السكاني لتحقيق الأمن والدفاع والتعاون الاجتماعي.

يبلغ امتداد القدس ضمن الأسوار كيلو متراً واحداً وتقسم المدينة إلى حارات أو خطط، وفي هذه الأحياء أسواق محلية صغيرة استقلت عن الأسواق الرئيسية. وطرق المدينة القديمة متعرجة، غُطي بعضها بعقود، وقد تقوم فوقها منشآت أو امتدادات عالية للبيوت.

وتشكل الأسواق القسم التجاري من المدينة، وفيها الخانات، والأسواق مغطاة بعقود متصالبة بالحجر المغموس. وتشتهر مدينة القدس بأسواقها التي ما تزال قائمة؛ ومنها سوق باب خان الزيت وسوق العطارين وسوق اللحامين وسوق البازار وسوق الباشورة وسوق القطّانين، وهي تعود إلى العهد العثماني.

ويقع الحرم الشريف ومنشآته في الناحية الجنوبية الشرقية من المدينة وأسوارها.

ومن أهم هذه المنشآت المساجد والمآذن والمدارس. وإذا استثنينا قبة الصخرة ومسجد الأقصى، فإن أكثر المساجد والمآذن في القدس تعود إلى العصر المملوكي.

الحرم الشريف

ما زال قطب هذه المدينة الحرم المقدس المؤلف من المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

تشكل الحرم القدسي على أرض واسعة تحيط بها الأسوار بطول يصل إلى ٤٩٢م من الغرب وإلى ٤٦٢م من الشرق وعرضه في الشمال ٣١٠م وفي الجنوب ٢٨١م، وله عدد من المداخل الرمزية مؤلفة من أقواس وأعمدة و سواكف أطلق عليها اسم الميازين، في هذه الساحة منشآت إسلامية تعود إلى مختلف العهود الإسلامية، هي مدارس ومساجد وقباب وأهمها قبة الصخرة والمسجد الأقصى. وكان العرب

الذين يــزورون القدس يتبركون بهذا الحرم ويطلقون عليه المسجد الأقصى.

أهمية مدينة القدس

عندما كان معاوية بن أبي سفيان والياً علــى القدس والشام في عهد الخليفة عمر، رمم الأسوار واعتنــى بالبساتين والأشجار، وبنى في عكا داراً لصناعة المراكب والسفن. وفي مدينــة القدســ نودي بــه خليفة على المسلمين، وكان هــو مؤسس الدولة الأموية واختــار قبل دمشق القدس عاصمة لمكانتها المقدسة عند العرب.

وفي عهــد عبد الملــك بن مــروان أمر بإنشـــاء قبـــة الصخرة سنة ٧٢هـــ/٦٩١م وابتدأ بإنشاء المسجــد الأقصى الذي أتمه فيمـــا بعد ابنـــه الوليد سنـــة ٨٧هـ/٧٠٥م. ولقــد أنفق عبد الملك مالاً وفيراً في القدس لإنشـــاء هذين الصرحــين للدلالة على قوة الإسلام وانتصاره، وأمر بتعبيد الطرق بين الشام والقدس، لتسهيل سبل الزيارة الدينية المقدسة للحرم القدسي.

وفي قبة الصخــرة وبعد إنجازها، تقبل الوليد بن عبد الملــك بيعة المؤمنين، خليفة على المسلمين، بينما كان أخوه سليمان ينشئ مدينة الرملة ومـــا فيها من مسجد وقصر، ودار للصباغين. ثم جاء أخوه الخليفة هشام ليبني قصر المفجــر في أريحا. وهو أضخم قصور الأمويين.

ورغم إهمـــال العباسيين لبـــلاد الشام، فلقــد زار القدســ عدد مــن الخلفاء مثل المنصور والمهـــدي والمأمون. وترك كل منهم أثره في إجــراء إصلاحات هامة في المسجد الأقصــى وفي قبــة الصخــرة. ويعــود إلى الخليفـــة المهدي فضل إعـــادة بناء المسجد الأقصى سنة ١٥٨هـ/٧٧٤م. بعد زلزال أتى عليه.

لقــد رزئــت بـــلاد الشـــام بالاحتلال الصليبي، وكانت القدس أصلاً الهدف الأكثر أهمية، تم ذلــك سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. وكان أول ما سعــى إليه هؤلاء الغـــزاة أن جعلوا قبة الصخــرة كنيسة رفعوا عليها الصليب؛ وهدمـــوا أطـــراف الأقصى وجعلـــوه مقراً لفرسان الاسبتارية.

ويعود المجد العظيم للبطل صلاح الدين الأيوبي الـــذي حرر القدســ سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وسجـــل هذا التاريـــخ على محراب المسجــد الأقصـــى الـــذي قـــام بتجديده، ومازالت الكتابة قائمة حتى اليوم في المسجد بعد تحريره. ثم قـــام بإعادة ترميم مسجد

قبة الصخرة، وسجل ذلك في محيط القبة من الداخل.

لقد كان الأيوبيون أبطالاً في التحرير وكانوا قدوة في الإعمار والإنشاء، ففي مدينة القدس وحدها قام صلاح الدين بإعادة بناء سور القدس سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م وتابع أولاده ذلك، كما قام بحفر الخندق حول الأسواق. وأنشأ الملك العادل أخو صلاح الدين الجامع العمري سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م وبنى سقاية لحفظ الماء وتموين القدس. وأنشأ ابنه الأفضل المدرسة الأفضلية والمسجد، وأنشأ قبة المعراج سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م وقبة سليمان والزاوية الجراحية والمدرسة الناصرية وزاوية الدركاه وزاوية الهنود.

وتابع المماليك أعمال البناء وأصبحت القدس أكثر ازدهاراً في عهدهم. وخلال حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون المملوكي، الذي امتد ثلاثة وأربعين عاماً، حفلت القدس بالعمائر المملوكية التي كانت نموذجاً رائعاً لتطور العمارة الإسلامية. ولقد قام هذا الملك بإنشاء أروقة المسجد الأقصى التي تمتد من باب الحرم حتى باب الغوانمة، وعمّر السور القبلي عند محراب داود. وقام بترخيم صدر المسجد الأقصى إلى حائط المسجد الجنوبي. وجدد تذهيب قبة المسجد الأقصى، وقبة الصخرة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، وعمّر الميازين مقابل باب حُطّة ومقابل باب شرف الأنبياء، وجدد عمارة باب القطانين وعمّر قناة السبيل عند بركة السلطان، وهي القناة الداخلة للقدس من عين العُروب. وأنشأ جامع القلعة ٧١٠هـ/١٣١٠م؛ ويتكون من حرم ذي محراب جميل.

وفي عهد السلطان الأشرف قايتباي تم إنشاء المدرسة الأشرفية وسبيل قايتباي في الحرم الشريف، والمدرسة المزهرية. وأنشأ السلطان برقوق المدرسة الجهاركسية وبركة السلطان وخان السلطان ودار الست.

كان عهد المماليك طويلاً استمر ما يقرب من ثلاثة قرون تركوا في القدس آثاراً كثيرة. وتلا هذا العهد مباشرة العهد العثماني منذ عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، الذي ابتدأ بأعمال الترميم التي قام بها السلطان سليمان القانوني في سور القدس وأقام برج اللقلق وبرج الكبريت، وأبراج أخرى. كما جدد أبواب القدس، مثل باب العمود وباب دمشق وباب الساهرة ٩٤٦هـ/١٥٣٧م، وباب ستي مريم وباب الخليل وباب النبي

داوود ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، وباب المغاربة وباب الخليل ٩٤٧هـ/١٥٣٨م. وأنشأ عدداً من السبلان في الطرق المؤدية للحرم الشريف، منها سبيل بركة السلطان وسبيل باب العتم وسبيل سليمان وسبيل باب الناظر وسبيل باب الأسباط.

وكان سليمان القانوني قد اهتم بتوسعة هامة في الحرم المكي في مكة المكرمة. كذلك قام في القدس باستبدال الزخارف الفسيفسائية في واجهة قبة الصخرة وأمر بتغطيتها بألواح القيشاني التي مازالت قائمة تحمل اسمه وتاريخ الترميم.

ولم تقتصر العمارة في القدس على بناء المساجد التي نرى شواهدها، بل هناك الخانات والسبل والأسواق والحمّامات والمدارس والأضرحة.

والخان هو فندق يأوي إليه التجار والمسافرون ومعهم تجارتهم وقوافلهم التي تبقى في الطبقة السفلى وفي فناء الخان. وأما الطبقة العليا فيه لمقامهم ونومهم. وهناك خارج الخان سبيل وحوانيت.

وأما السُبُل فهي أماكن لتقديم الماء لمحتاجه، وتقام مستقلة أو ملحقة ببناء. ومن أشهر هذه السبل في القدس سبيل السلطان قايتباي الفني بزخارفه وقبته، وسبيل باب السلسلة وسبيل الطاسات في عكا ويعود إلى القرن الثامن عشر.

وتنتشر الحمامات العامة مؤلفة من أقسام تقليدية، القسم البارد والقسم الحار والقسم الدافئ والقمّيم.

ومن أبرز المدارس الفلسطينية في القدس المدرسة التنكزية، وهي آية في الفن المعماري والزخرفي. والمدرسة الأشرفية والمدرسة الأحمدية. ولقد استوعبت المدارس النشاطات الثقافية والتعليمية وتبارى السلاطين والولاة والقضاة في إنشائها.

وتكثر في القدس الأضرحة والمزارات والمقامات والخوانق والرباطات التي أنشئ أكثرها في العهد المملوكي. ومن أهم الخوانق الخانقاه الصلاحية التي تقع قريباً من كنيسة القيامة، وقد اشتهرت بمئذنتها التي تعود إلى عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م. والرباط قلعة منيعة ذات أبراج في داخلها بيوت للسكن ومسجد.

خصائص العمارة الإسلامية في القدس

تحمل العمارة في القدس و فلسطين، شأنها شأن العمارة في بلاد الشام، الطابع العربي في مجمله، هذا الطابع الذي تكوّن في أماكن مختلفة في بلاد الشام. ولكن هذا الفن كغيره من الفنون السابقة له كالفن

الروماني، هو فن هذه المنطقة، وقد أبدعه سكانها ومواطنوها.

تتميز العمارة في القدس عن العمارة في بلاد الشام والبلاد العربية بخصائص فرضتها الصفة القدسية التي تتمتع بها ، كما فرضتها ظروف الزيارات والحج التي يمارسها السياح والمؤمنون على اختلاف دياناتهم، متهافتين على زيارة الأماكن المقدسة .

وأولى هذه الخصائص الطابع الوظيفي الذي سيطر على تلك المباني سواء أكانت إسلامية أم مسيحية. فلقد كانت المباني العامة متمثلة بالمساجد والكنائس لإقامة الصلاة والتدريس، والمدارس لتعليم الفقه والتحرر من الأمية، والخوانق والرباطات والأديرة لتقديم الخدمات للطلاب والمعلمين.

وعلى الرغم من الغنى والأصالة في طابع منشآت الحرم الشريف، فإن الغرض الأساسي لأعمال الإنشاء هو الوظيفة الدينية. وفي جميع أنحاء فلسطين نرى المباني عادية يتحدد طابعها حسب الضرورة والحاجة.

على أن منشآت الحرم الشريف فريدة في نوع وظائفها بين المنشآت الإسلامية. فقد أنشئت فيها المداخل- الميازين دون أن ترتبط بجدران مانعة، فهي بمثابة أقواس تذكارية أكثر من أن تكون مداخل ذات أبواب. كما أنشئت في الحرم قباب تذكارية وسبل، وهي منتشرة دون نظام مع غيرها من المنشآت التي كانت من توابع المساجد، ثم أصبحت مستقلة عنها وقائمة بذاتها كالمآذن والمنابر والمحاريب. فلقد انتشرت تلك القباب والسبل كي يستفيد المصلون من إقامة الصلاة في صحن الحرم.

ولقد ارتبطت المباني الإسلامية بالذكريات الدينية التي تعود إلى العهود السابقة للإسلام، وإلى الأنبياء السابقين للرسول الكريم، وما أسماء إبراهيم ويوسف وموسى إلا دلالة على ارتباط هذه المباني بتسميات دينية.

وكانت زيارة عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس علامة هامة في نشأة العمارة الإسلامية. فقد خلّدت هذه الزيارة بإقامة مساجد كثيرة تحمل اسم الجامع العمري مع أنها أنشئت في عهود لاحقة لهذه الزيارة.

وقد تبارى الخلفاء من أمثال المنصور العباسي والمهدي الفاطمي بالمشاركة في أعمال العمران، كما انصرف القادة العظام من أمثال صلاح الدين إلى تحرير

المدن الفلسطينية، وخاصة القدس، وإعادة المنشآت الإسلامية، وأصبحت سُنّة لدى الولاة والقضاة وحماة الحرمين. وأصبح الفخر كل الفخر أن يسجل هؤلاء أسماءهم على منشآتهم التماساً للبركة وتعبيراً عن الاعتزاز بما صنعوه. وقد قام ماكس فان برشيم Van Berchem بنشر هذه الكتابات التي أبانت أن عهد السلطان محمد بن قلاوون كان أزهى العهود، وأن هذا السلطان ترك من المنشآت ما يستحق دراسة مستقلة.

ولم يقصّر العثمانيون في عهد السلطان سليمان عن المشاركة المعمارية.

هوية المدينة

تؤكد المباني الإسلامية التي أنشئت خلال العهود المختلفة الشخصية الإسلامية التي تتمتع بها القدس القديمة التي مازالت محافظة على طابعها التقليدي. رغم انتهاكات اليهود وتغييراتهم الواسعة

وهذا الطابع التاريخي والديني الذي يميّز القدس أفسح المجال لإنشاء عمارات مسيحية هي كنائس وأديرة لها أهميتها عند السكان والحجاج. ولكن الأسلوب المحلي للعمارة فرض نفسه على جميع أشكال المنشآت على اختلاف انتمائها الديني. بل إن المعماريين من مصممين أو عمال كانوا دائماً من أهل البلاد ممن يدينون بأحد الأديان السماوية ويقومون معاً بإنشاء المباني دونما أي تفريق في وظيفتها. فلقد شارك مسيحيون في إنشاء الجوامع كما شارك مسلمون في إنشاء الكنائس.

وهكذا أصبح طابع العمارة القومي أقوى من أن يحمل سمة دينية متميزة. وبدا ذلك عندما فرضت السلطة السياسية تبديل استعمال المنشآت فتحقق لها الأمر دون أن يتطلب تعديلاً في عمارتها.

وقد كان هذا الطابع الموحد من الأمور القومية التي أكدت عروبة القدس وفلسطين، ولذلك فإن قوى الاحتلال الصهيوني وضعت خطة بعيدة المدى لتهويد المدن وتغيير ملامحها المعمارية، وهو أمر خطير فعلاً أدى إلى مسح الملامح الأصيلة وتقليص الوجود العربي في رقاع محددة أخذت تتناقص مع استمرار الوجود الاحتلالي الجديد، الذي يدعي العصرية والتحديث لإخفاء عملية التهويد التي لا تجد ستاراً يحميها.

القدس عاصمة للثقافة العربية

محطات على الطريق

محمد قجة *

لا يمكن لقلب عربي أن يخفق بلهفة وحماسة كما يخفق حينما يذكر القدس الشريف، المدينة التي دخلت الذاكرة القومية، والوجدان الجماعي، والبعد الحضاري، والقداسة بمفهوميها الإسلامي والمسيحي.

وهذه محطات موجزة في عمر القدس الشريف:

المحطة الأولى: (البدايات المقدسة)

تبرز هذه المحطة في إطار الجغرافية المقدسة التي أعطت كثيراً من الدلالات والرموز التاريخية، فبيت المقدس يضم الحرم القدسي (المسجد

* أديب وباحث ورئيس جمعية العاديات بحلب

الأقصى) بما يعنيه ذلك من ارتباط مع الحرم المكي (أول بيت وضع للناس)، وبما يعنيه ذلك من وصلة تاريخية هامة مع القِدَم المقدسي وارتباطه بالديانة الإبراهيمية، التي طبعت الديانات السماوية التالية.

وتتكرس هذه القدسية بالإسراء والمعراج. «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (الإسراء١). ومن هنا كان بيت المقدس يتمتع بهذه الهامة الكريمة العظيمة لدى المسلمين جميعاً، ومن قبلهم المسيحيين جميعاً.

وهكذا فإن قدسية المكان لا ترتبط بالمسجد الأقصى فحسب، وإنما هي قدسية قديمة تكرّست ببناء هذا المسجد العظيم.

وليس عجيباً في هذا السياق، تبادل مكان قبلة المسلمين بين المسجد الأقصى والحرم المكي (الكعبة).

«قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» (البقرة١٤٤).

❁ ❁ ❁

وفي إطار هذه المحطة القدسية تأتي الفتوحات العربية الإسلامية لمدينة القدس عام ١٧هـ، والعهدة العمرية التي كانت ترجمة للفكر الإنساني المعترف بالآخر، والمبني على أساس «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، و«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»، و«ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ».

وكان التساقط السريع للمعاقل البيزنطية في بلاد الشام مؤشراً على أنّ الوجود البيزنطي كان قشرة خارجية، وأنّ النسيج الديموغرافي للبلاد يتشكل من القبائل العربية والسريان وبقايا الشعوب القديمة التي سكنت المنطقة. وجاء الفتح الإسلامي المرن المتسامح يمنح الناس حرية المعتقد بعد القمع الفكري الذي مارسته بيزنطة على من تدعي أنهم هراطقة، لمجرد أنهم يخالفونها الرأي.

ونبقى في المحطة نفسها ولكننا ننتقل إلى الفترة الأموية، لنرى كيف شهدت عمارة القدس أيام عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) تطورها السريع والمذهل، من منطلق تكريس القداسة والعظمة وأبهة المكان، وتمّ بناء قبة الصخرة، وخصص خراج مصر لسبع سنين لأعمال هذا البناء الهائل الفريد.

واستمرت العناية بالقدس وعمارتها، ويمكن رمزيتها المباركة طيلة العصر العباسي، بما رافقه من حكم فاطمي أو إخشيدي للمدينة.

المحطة الثانية: (رحلة المنبر الخشبي من حلب إلى المسجد الأقصى)

استطاع الأوروبيون اللاتين خلال حروب الفرنجة، التي أطلقوا عليها تسمية الحروب الصليبية، أن يغتنموا فرصة تفكك إرادة القرار في العالم الإسلامي، وأن يغتصبوا مناطق من بلاد الشام أقاموا فيها (مملكة بيت المقدس)، وإمارات الرُّها وأنطاكية وطرابلس الشام، وذلك خلال عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م، وقد دمّروا بيت المقدس، وأحرقوا المسجد الأقصى، ومنبر الشهيد، وقتلوا عشرات الألوف من سكّان المدينة.

وكان لا بد للمسلمين أن تستيقظ فيهم روح المقاومة سريعاً، وبعد أقل من نصف قرن تمكّن عماد الدين الزنكي من يحرر مدينة الرها (٥٣٩هـ / ١١٤٤م)، وشرع -ومن بعده ابنه نور الدين- بالإعداد العسكري والاقتصادي والإعلامي والتعليمي لتحرير المناطق المحتلة وطرد الغزاة الفرنجة.

وفي مدينة «حلب» التي أصبحت مركز الجهاد ضد الغزاة الفرنجة (الصليبيين)، أمر عماد الدين بصنع منبر خشبي باذخ لنقله إلى بيت المقدس بعد تحريره. وتابع ابنه نور الدين هذا الموضوع، حتى تمت صناعة هذا المنبر عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م، وأقيم في جامع حلب الأموي الكبير انتظاراً لتحرير بيت المقدس، ونقل المنبر الخشبي إلى المسجد الأقصى.

وكان منبر جامع حلب الأموي قد أتى عليه حريق في زمن نور الدين نتيجة فعل تخريبي، فكان المنبر الجديد بديلاً.

وقد وصف ابن جبير هذا المنبر حينما زار مدينة حلب عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م، أي قبل نقل المنبر إلى بيت المقدس. ومما قاله فيه:

(وقد استفرغت الصنعة القريصية جهدها في منبره فما رؤي في بلد منبر على شكله وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجلّلت صفحاته كلها حسناً على تلك الصنعة الغريبة، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب، وعلا حتى اتّصل بسمّاك السقف، وقد قُوّس أعلاه، وشرف بالشرف الخشبية القريصية، وهو مرصع بالعاج والأبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا).

والمنبر الخشبي القائم اليوم في جامع حلب الأموي ليس منبر نور الدين الذي نتحدث عنه، وإنّما هو منبر تمّ صنعه على

غرار منبر نـور الدين بعد نقله إلى القدس، وذلك في بداية العصر المملوكي، أيام قلاوون المنصور وابنه محمد الناصر.

ومن المعلـوم أن الدولـة الزنكية انتهت بقيام الدولـة الأيوبية في مصر، وامتدادها إلى الشام. وحينما دخل مدينة حلب قال له الشاعر محيي الدين بن الزكي:

وفتحُكَ القلعةَ الشهباءَ في حلبٍ
مبشّرٌ بفتوح القدسِ في رَجَبِ

وقد ظـنَّ بعض الدارسـين أنَّ الشاعر يتنبّـأ بالموعد بحسابات فلكية، ولكن الواقع أنَّ هذا البيت الشعـري يحمل دلالة رمزية هامـة تتصـل بشهر رجب الـذي هو شهر الإسراء والمعراج. وبالتالي فإنَّ قدسية الفتح تتضاعـف إذا هو حدث في شهر رجب شهر الإسـراء والمعراج. وقد حـدث ذلك ودخل صـلاح الدين مدينـة القدس بعـد معركة حطـين الحاسمـة، وتمّت صـلاة الجمعة الأولى بعد التحريـر يوم ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٦ آب ١١٨٧م.

وألقـى خطبة الجمعـة محيي الدين بن الزكي نفسه، الـذي بشّر صلاح الدين بفتح بيت المقدس خلال شهر رجب.

وكان أول مـا فعلـه صـلاح الديـن أن أرسل إلى ابنه الظاهر غازي في حلب يأمره بإرسال المنـبر الخشبي من حلب لوضعه في الحـرم القدسي. وتمّ ذلـك في يوم مشهود وحفل عظيم.

وقد وصف المؤرّخ المعاصر لتلك المرحلة العماد الأصفهاني هذا اليوم المبارك فقال:

(لـمّـا فتحنـا القدس أمـر (أي صلاح الديـن) بتعمير المحـراب وترخيمه وتكميل حسنـه وترميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضى به الفرض. واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسـن رائع، بحسنه لائـق، وبجماله شائق، وبكمالـه فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملـك العادل نور الدين محمود بـن زنكي رحمـه الله، لبيـت المقدس قبل فتحـه بنيّف وعشرين سنـة، وأودعه له من ذخائـره عند الله حسنة، فأمر أن يُكتب إلى حلب ويُطلـب، فحُمل وعُمل على ما أمر به وامتثل، فجـاء كالروض النضـير، والوشي الحبير، عديم النظير.

وكان مـن حديث أحداثـه، ما ألهم الله نـور الدين رحمه الله لارتيـاح خاطره إليه وانبعاثـه، وقـد أوقع في ورعه، مـن النور الفائض من ينبوع ضلوعه، أنّ البيت المقدس بعده سيفتـح، وأنّ صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح، وهو من أولياء الله الملهمين، وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار

يعرف بالأخترينى من ضيعة تعرف بأخترين، لم يُلْفَ له في براعته وصنعته قرين، فأمر نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي على النعت المهندم والنحت المهندس، فجمع الصنّاع، وأحسن الإبداع، وأتمّه في سنين، واستحق بحق إحسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل، وحكم ما له دليل، وذكر جميل وأجر جزيل، لو كان إليه سبيل. وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنجة عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولا يقلون. أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا الكفر بالإيمان، وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب وأتعب رقم القوم، ويقول من له قوة اليقين، وعرف أن الله كافل بنصر الدين: اصبروا فلسرٌ هذه الأمة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: ﴿ويصنع الفُلْكَ﴾، وكلّما مر عليه ملأ. ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العباد، وأعبد الزهاد، وهو من الأولياء الأبرار، والأتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب. ويزيد قوة عزمه جداً، وتمده بحياء الحياة الربانية مداً، قد طهره الله من العيب، وأطلعه على سر الغيب، ونزّهه من الريب لنقاء الجيب. وشملت الإسلام بعده بركة، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولبّاه، وأحبه وحباه، وهو الذي سن الفتح، وسنّ النجح. واتفق أنّ جامع حلب في الأيام النورية احترق، فاحتيج إلى منبر يُنصب، فنُصب ذلك المنبر، وحَسُنَ المنظر، وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم، وشابه المحراب المنبر في الرسم، ومن رأى حلب الآن شاهد على مثال المنبر القدسي الإحسان.

ولما فتح السلطان القدس تقدّم بحمله ووضع به في محراب الأقصى تفريق شمله، وظهر سر الكرامة، في فز الإسلام بالسلام، وتناصرت ألسنتهم بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة.

ومن المعلوم أنّ منبر نور الدين الذي حمله صلاح الدين من حلب إلى المسجد الأقصى بقي هناك مئات السنين، حتى أقدم عنصري صهيوني على إحراقه يوم ١٩٦٩/٨/٢١، وقد تشكّلت لجنة لإعادة بناء المنبر في حلب، وذلك بقرار جمهوري أصدره الرئيس حافظ الأسد برقم /٢٥/ وتاريخ ١٩٧٨/١/١٥. ولن يحمل المنبر تحت طرب

الصهاينة -كما فعل بعض العرب ضعاف النفوس- وإنّما سوف يحمل يوم تحرير بيت المقدس نهائياً من رجس الصهاينة.

❁ ❁ ❁

المحطة الثالثة: (الخلفية التاريخية للحركة الصهيونية)

يقول المؤرخ اليهودي سايمون دوبنوف: (هناك أمثلة عديدة في التاريخ عن أمم اختفت من الوجود بعد أن فقدت أرضها وتفرقت بين شتى الأمم، ولكن ليس لدينا سوى حالة وحيدة فقط لشعب أمكنه أن يستمر على قيد الحياة لآلاف السنين رغم تشتته وضياع وطنه، وهذا الشعب الفريد هو شعب إسرائيل).

تلخص هذه الكلمات الزعم الأسطوري الذي تقوم عليه الحركة الصهيونية، والذي يرتكز على عنصرين:

أ- أن الأرض المفقودة والموعودة لليهود هي أرض فلسطين.

ب- أن اليهود هم الشعب المختار الذي لا يمكن أن يذوب رغم عوامل الزمان والمكان.

وقد انبثقت عن هذين العنصرين مقولة (الشتات اليهودي) الذي فرضته الشعوب والأحداث على اليهود، وهو في نظرهم لا بد أن ينتهي كما تعدهم بذلك أساطير التوراة والتلمود.

ربط المنظرون للفكر الصهيوني بين موضوع الشتات وأسطورة الميعاد، واعتمد البرنامج الصهيوني الذي نضج خلال القرنين الأخيرين على تطور ظروف مادية وفكرية في المجتمعات الأوروبية تركت أثرها في الأقليات اليهودية. وهذه الظروف يمكن اختصارها فيما يلي:

١- التطور الرأسمالي والثورة الصناعية في أوروبة. وذلك منذ مطالع ما يسمى عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر، مروراً بالكشوف العالمية، والمركنتلية الرأسمالية، والثورة الفرنسية، والتكنولوجيا، وغيرها. وقد غيرت هذه العوامل بيئة المجتمعات الأوروبية من إقطاعية إلى رأسمالية اهتزت معها أوضاع الأقليات اليهودية التي كانت تحتكر التجارة في أوروبة خلال أعمال السمسرة والوساطات.

وكان لا بد من أن يظن لذلك ما أطلق عليه «المسألة اليهودية» وهي ظاهرة اجتماعية أفرزتها دورة الاقتصاد الأوروبي بتحوله الرأسمالي والصناعي الذي أدى إلى تقليص دور اليهود التجاري وتهميشه

وحشره أكثر فأكثر في نطاق «الفيتو» وتقدمته كيهودي قذر مكروه منعزل في هذا الفيتو.

وأدى هذا التطور الرأسمالي الهائل إلى نشوء الاستعمار والجيوش الحديثة للسيطرة على مصادر المـواد الخام، واتخاذ الأسواق لتصريـف البضائع. وأدى ذلك إلى الحروب الطاحنة في أوروبة وخاصة: ١٨٠٠- ١٨٧٠ - ١٩١٤ - ١٩٣٩.

كان عدد اليهـود في فلسطين منتصف القـرن الماضي لا يزيد علـى خمسة آلاف. وخلال الحـرب العالميـة الأولى وقبل وعد بلفـور كان العـدد لا يزيـد علـى ٢٥ ألف يهـودي. ولكـن فكـرة «الوطـن اليهودي» كانـت قـد تبلـورت مـن خلال عـدد من الرواد الصهاينة، مثل: «هس» و«كاوتسكي» و«هرتزل». ورغم الخلافات حول مكان هذا الوطن: الأرجنتـين- مدغشقر- فلسطين، فإن فكرة فلسطين تغلبت. وبعد هرتزل تولى حاييم وايزمان الجانـب العملي في تشجيع الهجرات اليهودية إلى فلسطين. وقد وصف هرتزل الوطن اليهـودي الموعود بأنه سوف يكون «إنكلترا الصغرى».

واستطاعت الحركة الصهيونية أن تركب موجة العنصرية الأوروبيـة القائلة بالتفوق الأوروبي والمستندة إلى التوسع الاستعماري، فهـذه الحركة الصهيونية تعتقد أساساً أنها مشروع من مشاريع الرجل الأوروبي الأبيض ضد المنطقة المتخلفة شرقي المتوسط.

وحينما بـدأت العنصرية الأوروبية تتجه ضـد اليهود كما اتجهت ضد آسيا وأفريقيا والعـالم الإسلامي، اخترع اليهـود موضوع العداء للساميـة، ورأوا أنَّ الحل هو ضرورة التشبث بوطن قومي ينهي مشكلة الشتات.

وحينما انعقـد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال السويسرية يوم ١٨٩٧/٨/٢٩ كانت الحركـة الصهيونية قـد تبلورت في مطالبتهـا بأرض فلسطـين وطنـاً قومياً لليهود.

البعد السياسي للخطر الصهيوني:

حـاول هرتـزل أن يلعـب علـى جميع الحبـال السياسية الممكنـة، فاتصل بكافة القـوى السياسيـة الفاعلة أواخـر القرن الماضي، ومنهـا الدولـة العثمانية، محاولاً انتزاع وعد بالسماح لليهود بإقامة دولة لهم في فلسطين. وحينما زار الإمبراطور الألماني (ويلهـلم) القدس عام ١٨٩٨ كان هرتزل في طليعة مستقبليـه، وكان الرهان الصهيوني على أنَّ ألمانيا هي القوة التي يمكن أن تحقق لليهود حلمهم السياسي.

وعندما جاء حاييـم وايزمان إلى رئاسة

الحركة الصهيونيـة لعب الورقة البريطانية بعد رجوح كفة الحلفـاء في الحرب العالمية الأولى، وتم إعـلان وعد بلفـور الذي يعتبر النقطة الثانية الهامة بعد المؤتمر الصهيوني، وبـين الحدثين عشـرون سنة تمامـاً. وقد أعطـت بريطانيا ثلاثة وعود حول فلسطين تمثـل أولها بوعدها للشريف حسين على أنّ فلسطين ستكون جـزءاً من مملكته العربية المستقلة، والثاني من خلال اتفاقية سايكس بيكو بأن تكـون فلسطين تحت إدارة دولية، والثالث لليهود، وهو الوعد الذي صدقت به وكذبت بالوعدين الآخرين.

ولعب الزعيم الصهيـوني «بن غوريون» الورقـة الأمريكية بعد صعود نجم الولايات المتحدة خلال الحـرب العالمية الثانية وما بعدها، وأنّ الزعماء الصهاينة لا يخفون أنّ الدولـة اليهودية إنما هي وجود استراتيجي للولايـات المتحـدة الأمريكيـة في الشـرق الأوسط.

وكان وايزمـن يؤكـد، ومـن بعـده بن غوريـون، أن فلسطين يجـب أن تتسع لـ ١٥ مليون يهودي موزعين في العالم، وبمقدار ما يأتـي من يهـود إلى فلسطين يجب أن تتسع حدودها بحيث يمكن أن تتجاوز الأردن إلى خـط حديد دمشق المدينـة، وكل منابع نهر الأردن وروافده ومنابع الليطاني، بل إن حلم إسرائيـل الكبرى يصـل إلى النيل والفرات لاستيعاب العدد الأقصى من اليهود الموزعين في الشتات العالمي.

ولا تـزال الزعامـة الصهيونية ترفض فكرة الحدود الواضحـة لدولة «إسرائيل»، ونتنياهو يعلن بوقاحة أنّ حدود إسرائيل هي حيث يصل أي مستوطن يهودي.

ومن جهة ثانية يعتبر «الحلم الصهيوني» أنّ الأرض العربية مـن المحيط إلى الخليج هي مسـرح للنفـوذ السياسـي الصهيوني، ويجـب أن تبقـى في حالـة مـن الضعف والتفكك والتشرذم وسطحية القرار لتسمح للنفوذ الصهيـوني بالهيمنة وفرض قراراته بشكل فظ ومهين.

قام الادعاء الصهيوني على أن فلسطين أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض، وبالتـالي يمارس اليهود حقهـم التاريخي المزعـوم بالعـودة إلى وطنهـم. ورغـم كل الضغوطـات وممارسـات شـراء الأراضي واغتصابها بكافـة الطرق فإن الأرض التي كانـت بحوزة اليهود عام ١٩٤٧ تعادل سبعة بالمئة مـن مساحة فلسطين. وجـاء تقرير اللجنة البريطانيـة لعام ١٩٣٠: (إنّ الأرض أصبحت أرضاً خاصةً باليهود ولم تعد أرضا

يمكن للعربي أن يجني منها أي فائدة الآن أو في المستقبل).

تلعب إسرائيل منذ قيامها، وبالتعاون مع القوى العالمية التي تساندها، دور الدولة الاستيطانية التي تعتمد على التفوق العسكري والاستراتيجي ومحاولة المحافظة على هذا التفوق بالتنسيق مع مراكز الدعم الاستعماري وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. ولضمان هذا التفوق واستمراره تلجأ إسرائيل ومعها تلك القوى إلى تفكيك أقطار الوطن العربي وترسيخ الفكر الإقليمي فيها، وإثارة النزاعات العرقية والطائفية بهدف استنزاف تلك الأقطار وإلهائها بقضايا هامشية وداخلية. وإننا نجد أصابع إسرائيل بصورة مباشرة أو غير مباشرة في كل الأحداث الدامية والمؤسفة في لبنان، وحرب الخليج الأولى والثانية، والتمرد في السودان، ومتاعب مصر والجزائر، ومحاولة الامتداد لضرب إيران وباكستان كقوتين إسلاميتين قد تشكلان خطراً على الوجود الإسرائيلي. والتنسيق مع القوى المحلية المعادية للعرب كنظام الحكم التركي ونظام أرتيريا الجاحد. واختراق الصف العربي بالاتفاقيات الثنائية، والاستفراد بالجبهات العربية واحدة بعد أخرى: اتفاق كامب ديفيد، اتفاق أوسلو، اتفاق وادي عربة.

البعد الاقتصادي للخطر الصهيوني

إنّ أي حديث عن سلام فعلي مع إسرائيل إنما هو نوع من الوهم والخداع، فإسرائيل تريد سلاماً بشروطها وضمن مشروع الهيمنة السياسية والاقتصادية على المنطقة العربية بأسرها. وفي كتاب شمعون بيريز «الشرق الأوسط الجديد» بسطٌ واضح للأفكار الصهيونية التي تعتبر أن الثروات العربية واليد العاملة العربية رخيصة يجب أن يقودها ويتحكم فيها العقل الإسرائيلي المتطور والمتقدم، وأن إسرائيل هي الشريك الصغير الهام للإمبريالية الأمريكية، التي تسعى للسيطرة على الاقتصاد العالمي، تحت مظلة ما يسمى «العولمة»، وتأتي «الشرق أوسطية» ثمرة إسرائيلية للعولمة الأمريكية.

إنّ البعد الاقتصادي في المواجهة العربية الإسرائيلية يمكن قراءته من خلال أرقام معينة، فالسكان اليهود في فلسطين المحتلة يشكلون أقل من ٢٪ من سكان الوطن العربي، ولكن الناتج القومي للفرد في إسرائيل يفوق متوسط الناتج القومي للمواطن العربي، بما في ذلك دول الخليج، أكثر من ثلاث مرات. ويتصرف اليهود في إسرائيل ككتلة واحدة،

بينما يبقى القرار العربي متشرذماً ومتعادياً ومتصادماً، مما يخدم المصالح الإسرائيلية في نهاية المطاف.

وتستند إسرائيل إلى الدعم الأمريكي المطلق سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وتكنولوجياً واستراتيجياً، وهي تخطط بفظاظة ووقاحة لضرب المصالح الاقتصادية العربية وإفقار المجتمعات العربية، ومحاصرتها بمشاكل المياه: النيل- الفرات- دجلة، واستخدام هذه المشاكل ورقة ضغط، بالتنسيق مع القوى المعادية، مثل تركيا وأثيوبيا، وتمويل إقامة سدود في هذه الدول، في سياق حرب المياه المفروضة على الدول العربية.

إلى ذلك تعمل إسرائيل على إغراق الأسواق العربية بالمنتجات الزراعية والصناعية والاستهلاكية، عن طريق مباشر أو غير مباشر، أو بالتهريب (أسواق مصر والأردن مثلاً)، وفرض الاتفاقات والمؤتمرات التي تكرّس الهيمنة الإسرائيلية الشرق أوسطية، في إطار العولمة الأمريكية (مؤتمر الدوحة)، وفرض ما يسمى بالتطبيع الاقتصادي الذي هو في الواقع فرض سيطرة إسرائيلية تمزق المصالح العربية.

ومن هنا فإنّ موقف سورية الهادف إلى إلغاء مؤتمر الدوحة أو إفشاله إنّما هو موقف قومي ينطلق من زاوية حقيقية للمصالح العربية، ورؤية دقيقة للتضادّ العنيف بين المشروع العربي والمشروع الإسرائيلي، واستحالة لقائهما أو تطبيعهما تحت أي ظرف من الظروف. فالمشروع الإسرائيلي واضح جلي في سعيه لإلغاء فاعلية الدور العربي وتهميشه، وتحويل الوطن العربي إلى سوق استهلاكية وأماكن ترفيهية ويد عاملة رخيصة، في إطار السيطرة المطلقة للمصالح الإسرائيلية، ومن خلفها المؤسسات الاقتصادية العالمية، التي تدور في إطار العولمة الاستعمارية، كالصندوق الدولي، والبنك الدولي، والشركات متعددة الجنسيات.

ويجب أن يهدف المشروع العربي إلى إقامة حد أدنى من التنسيق والتكامل على مستوى اقتصاديات الوطن العربي، وعدم السماح لإسرائيل باختراق المنظومة الاقتصادية العربية وتمزيقها وفرض القرارات الفاسدة عليها.

البعد الاجتماعي والثقافي للخطر الصهيوني

ذات يوم قال موشي دايان: (إننا لا نحسب حساباً للعرب، لأنهم شعب لا يقرأ).

تقوم سياسة إسرائيل على رسم صورة للمواطن العربي كإنسان متخلف إرهابي عدواني. وهذه الصورة تستند إلى تراكم تاريخي أوروبي يعتمد الكراهية والتجني، وتقديم صورة مغرضة مشوهة عن العربي وعن التاريخ الإسلامي. وهذه الصورة إنّما هي انعكاس لمراكز صنع القرار الإعلامي في العالم الغربي الذي يسيطر فيه اليهود على الصحافة وأجهزة الإعلام والتلفزيون ودور النشر، ويفرضون على تلك المؤسسات الإعلامية والثقافية وجهة نظرهم، علماً بأنّ اليهود لا يشكلون إلا أقل من ٢٪ من السكان في الولايات المتحدة وفي فرنسا. والمثال الصارخ على هذه السيطرة كتاب المفكر الفرنسي «غارودي» حول الأساطير الإسرائيلية، والذي لم يستطع نشره في فرنسا أو غيرها بفضل الضغط اليهودي المنظم.

إن بؤرة الاهتمام الصهيونية بالمجتمعات العربية ترمي إلى ما يلي:

– ضرب البنى الفكرية والثوابت الأخلاقية، وتشويه القيم الإنسانية في تلك المجتمعات.

– زعزعة الثقة، والحرص على إنشاء أجيال تافهة سطحية لا تهتم بقضايا وطنها.

– عدم السماح بتدريس التاريخ العربي وسير الأعلام العرب، وخطر ذلك في الاتفاقيات الثنائية: كامب ديفيد، أوسلو، وادي عربة.

– تشجيع تجارة المخدرات وانتشارها وإدمانها، وبخاصة بين فئات الشباب في المجتمعات العربية (مصر والخليج).

– الحرص على نشر الإباحية والخلاعة عن طريق استخدام أجهزة الإعلام المختلفة، وعناصر الموساد (مصر، الأردن).

– الغزو الثقافي المبرمج في نطاق التطبيع الثقافي والعولمة الثقافية، وإلغاء الشخصية المحلية في نطاق النموذج الأمريكي العالمي.

– التسلل إلى مراكز القرار الثقافي والإعلامي في المؤسسات العربية، بالخديعة والمكر والرشوة والضغط، وصرف هذا القرار عن مساره السليم.

– تشجيع الفساد الاجتماعي؛ من رشوة وانحلال وانحراف وجريمة.

البعد السكاني الاستيطاني في الخطر الصهيوني:

– ضرورة تحقيق نظرية (أرض بلا شعب)، عن طريق تفريغ فلسطين من سكانها العرب، بطردهم أو إبادتهم أو الضغط عليهم لإجبارهم على النزوح والهجرة.

- خلق الظروف المناسبة للهجرة اليهودية إلى فلسطين التي مرت بمراحل هامة:

- الهجرة خلال الانتداب البريطاني على فلسطين ١٩١٨-١٩٤٧م.

- الهجرة بعد قيام دولة إسرائيل.

- الهجرة بعد عام ١٩٦٧م.

- الهجـرة اليهوديـة السوفييتية أوائل التسعينيات.

- تنظيم الحركات الإرهابية الصهيونية المتطرفة: شترين، هاغانــاة.. لقتل السكان العرب وطردهم: دير ياسين، قبية.

- التواطـؤ البريطـاني وتسهيل هجرة اليهود من أوروبـا إلى فلسطين خلال فترة الانتداب.

- المستوطنات وخطرهـا الرهيب على الأرض العربية والسكان العرب.

- قضيـة القدس كرمز عربي وإسلامي وعالمي، ومحاولة تهويدها.

- محاولـة إسرائيل نقـل أكبر عدد من يهـود العالم، بقصـد التوسع علـى حساب جيرانها العرب.

❁ ❁ ❁

المحطة الرابعة: (آفاق المستقبل)

لقد علمتنا تجارب التاريـخ أنّ الشعب المتماسك المتوازن المتشبث بثقافته وتاريخه، وهوية أمته لا يمكن أن يهزم.

وها هي الإمبراطوريات تتهاوى، والقوى العاتية الطاغية تسقــط، وها هي المقاومة بكل أطيافها ومعانيها ترسم ملامح الغد وإن لم يكن قريباً. فالتجربة الصهيونية محكومة بالانهيـار كالتجربة الفرنجيـة الصليبية، لأنها مبنية على أسس تخالف حتمية قوانين التاريخ.

وإذا لم يستطع جيلنا رؤية رايات النصر ترفـرف فـوق القدس عاصمـة الثقافة العربية، فإن جيــلاً تالياً سوف يحمل منبر المسجـد الأقصى ويزرعه بثبـات وقوة في مكانه الصحيح.

وإنّ غداً لناظره قريب

عمر أبو ريشة والقدس

د. أحمد زياد محبك *

اشتهر الشاعر عمر أبو ريشة (١٩١٠- ١٩٩٠) بمواقفه الوطنية والقومية الجريئة، فقد قارع المستعمر الفرنسي إبان احتلاله لسورية (١٩٢٠- ١٩٤٦)، كما نــدّد ببعض المواقف للحكومة السورية بعــد الاستقلال (١٩٤٦)، وكان موقفــه الوطني لا ينفصل عن موقفه القومي، بل كان شعوره القومي يطغى في كثير من الحالات على شعوره الوطني. ولقد حظيت القدس من اهتماماته ومشاعــره وعواطفه، مثلما حظيت من شعره وقصائده بأكثر مما حظيت به أي مدينة عربية أخرى، حتى مدينته حلب نفسها،

* ناقد أدبي وأستاذ جامعي

التي فيها نشأ وترعرع وأمضى معظم سني شبابه، وفيها دفن (١٩٩٠). لقد كانت القدس بالنسبة إليه طوال حياته المنطلق الذي يقوّم من خلاله أي موقف، فهي القيمة التي تثبت مقدار الإيمان بالإسلام، والتمسك بالعروبة، والإخلاص لهما، والموقفُ منها هو الموقف الذي يثبت مقدار الوفاء للشعب، وتحقيق أهدافه وأحلامه في الحرية. وكان الشاعر في كل مناسبة وطنية أو قومية، يذكر القدس، لأنها حاضرة دائماً في وجدانه، وفي وجدان كل عربي، ولأنها اللحمة والسدى أيضاً في كل مناسبة، لأن قضيتها لا تنفصل عن أي قضية عربية أخرى. وليس ذلك الموقف من القدس بغريب، فالقدس هي قلب العرب النابض، وعاصمة فلسطين، ومهد السيد المسيح عليه السلام، ومسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهي أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، وهي التي دخلها عمر بن الخطاب، فجعلها ملتقى الأديان، وأرسى فيها قواعد السلام، بل جعلها مدينة السلام، ثم غزاها من بعد الصليبيون، وظلوا فيها مئتي عام، حتى حررها فيما بعد صلاح الدين الأيوبي.

- ٢ -

فالشاعر يتغنى ببطولات الشعب العربي في سورية، وعلى رأسه المجاهد إبراهيم هنانو وهو يقارع المحتل الفرنسي، وينشد في حفل تكريمه قصيدة مطولة عنوانها قيود (١٩٣٧)، وفيها يقول (الديوان . طبعة دار العودة . ١٩٧٢، وسائر الإحالات في البحث تشير إلى هذه الطبعة ، ص٥٥٢):

وطن عليه من الزمان وقار
النور ملء شعابه والنار
تغفو أساطير البطولة فوقه
ويهزها من مهدها التذكار
فتطل من أفق الجهاد قوافلٌ
مضر يشدّ ركابها ونزار

وفي سياق الفخار بالبطولة وربط الماضي بالحاضر، ينعطف الشاعر إلى القدس، ليندد بالمستعمر الإنكليزي، ويقرنه بالغزو الصليبي، ويصور ما ألحق بالشعب العربي في فلسطين من أذى، فيقول: (ص٥٥٧-٥٥٩):

والقدسُ ما للقدس يخترق الدّمَا
وشراعُه الآثامُ والأوزار
أيُّ العصور هوى عليه وليس في
جنبيه من أنيابه آثار

عهد الصليبيين لم يبرح له
في مسمع الدنيا صدى دوار
صف الملوك فما استباح إباؤهم
شرف القتال ولا أهين جوار
ناموا على الحلم الأبي فنفرت
منه الطيوف بُنَيَّةٌ فجار
صلبوا على جشع الحياة وفاءهم
ومشوا على أخشابه وأغاروا
وبكل كفٍّ غضة سكينة
وبكل عرقٍ نابض مسمار

ثم يتحدث عن دعم الإنكليز اليهود وتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين وإقامة كيان لهم، ويندد بخيانة الإنكليز للعهود التي قطعوها للعرب، ثم يؤكد أهمية الحفاظ على الحق، ويحذّر من الضعف، فيقول (ص٥٥٩ - ٥٦٠):

مدّوا الأكف إلى شراذم أمة
ضجّت بنَتْنِ جسومها الأمصار
ورمَوا بها البلدَ الحرامَ كما رمت
بالجيفة الشطَّ الحرامَ بحَارُ
وبنوا لها وطناً وعبق محمد
وابن البتول بأفقه زخّار
أين العهود البيض ترقب فجرَها
بتلهُّفٍ صبيّابةُ أبرار
ولّت وفي حلق العروبة بُحّةٌ
وعلى مراشفها العطاش غبار
إن الضعيفَ على عريق فخاره
حَمَلٌ يشدُّ بعنقه جزار

وواضح أن الشاعر يحذّر في البيت الأخير من خطورة الاستكانة والتواكل والنوم على المجد الغابر، لأن الحق لا تحميه إلا القوة، وصاحب الحق من غير قوة حمل ضعيف يقاد إلى حتفه.

- ٣ -

ويستشهد في جبل النار بفلسطين المناضل سعيد العاص، وهو ابن حماه، مما يؤكد وحدة الشعب العربي، ووحدة النضال ضد المستعمر، أيّاً كان، وأينما كان، سوء في سورية أم فلسطين، فهما بلد واحد، والشعب شعب واحد، وتقام له في دمشق وحماه حفلات التأبين، ويقف فيها عمر أبو ريشة ليرثيه بقصيدة مطولة عنوانها شهيد (١٩٣٧) وفيها يقول (ص٥٦٩ - ٥٧١):

ياشهيد الجهاد ياصرخة الهول
إذا الخيل حمحمت في الساح
كلما لاح للكفاح صريخ
صحت لبيك ياصريخ الكفاح
تحمل الحملة القوية والإيمان
أقوى في قلبك المفراح

فكأن الحياة لم تلق فيها
مايروّي تعطش الملتاح
هبةً في يديك كانت ولما
رامها المجد عفتها بسماح

ويذكر بوعود الحلفاء للعرب، ووقوف العرب إلى جانبهم في الحرب العالمية الأولى، وتقديم العون لهم، على أمل نيل الحرية والاستقلال، ثم يندّد بنكث الحلفاء لتلك الوعود، وما جرّ على العرب من احتلال أقطارهم، وسلبهم الحرية، يقول مخاطباً سعيد العاص (ص ٥٧٢- ٥٧٤):

أي فتى المجد، إنه العمر يومٌ
لخسار وآخرٌ لرباح
إن من سامك المنون لقوم
لم يحيوا على الحجا والفلاح
خفروا ذمة العهود وصمّوا
الأذن عن صرخة الهضيم اللاحي
كم وعود معسولة سكبوها
في فؤاد العروبة المسماح
فحشدنا لهم جيوش ولاء
ومددنا أكفنا للصفاح
وسفكنا الدم الزكي وزيّنّا
جبين الرحى بغار النجاح
وأردنا الأسلاب منهم فكنا
نحن أسلابهم ونحن الأضاحي

والشاعر لا يضعف، ولا يدخل اليأس إلى قلبه، بل يظل متمسكاً بالحق، وهو يؤكد أن العرب لن يتخلوا عن فلسطين، حيث استشهد سعيد العاص في جبل النار، بل يؤكد أن مأساة فلسطين ستظل منارة تضيء للعرب طريق الكفاح، حيث يقول (ص ٥٧٤- ٥٧٥):

جبل النارِ لن ننام كما نمتَ
جريحَ العلى كسيحَ الطُماح
لك حبٌ في قاسيونَ وصنينَ
وسَيْناء مالَهُ من براح
أنت للعرب كالمنارة في الساحل
لاحت لأعين الملاح

والشاعر يبدع في القصيدة نفسها تصوير الصراع بين العرب في فلسطين والعداة المحتلين، ويقدم لوحة فنية متميزة، إذ يصور جبل النار في فلسطين يهتز غضباً من ظلام الطغاة، وتنطلق النسور العربية، تاركة فراخها، لتصارع قوى الظلام، ولكن هذه القوى تسلط نيرانها على النسور، فتحترق أجنحتها، وهي تنشب مخالبها في جسد الظالم، وتأبى إلا أن تسلم الروح وتروي الأرض بدمائها، يقول (ص ٥٦٤- ٥٦٨):

ياظلام الأجيال قصَّ جناحيك
فهذي طلائع الإصباح

مرود كحَل الجفون الكسالى
فأفاقت على السنا اللمّاح
فصحا من عليائه الجبل الهاجع
واهتزّ مفعم الأتراح
وتعالى صياحه يتوالى
فاشرأبت نسوره للصياح
تركت في الوكون أفراخها الزغب
وهبت على أزيز الرياح
وتبارت عصائبا فالفضا الرحب
بساط من مخلب وجناح
غضب البغي فانبرى يحشد الهول
ويرنو إلى الأذى بارتياح
شقّ فكّي جهنمٍ فأسالت
في الروابي لعابَها والبطاح
فاقشعرت من وهجة القلل الشمّ
وأجّت شوامخ الأدواح
وتدجّى الدخان يحجب عين الشمس
عن مأتم الثرى المستباح
فتهاوت تلك النسور وأزرت
بالمنايا على اللظى المجتاح
تنشب المخلب المعقّف في البغي
وتزجي المنقار في إلحاح
ولسان اللهيب يلعب بالريش
ويطوي الجراح فوق الجراح
غضبة للنسور لا النصر فيها
بمتاح ولا الونى بمباح
لم تُزَحْزَحْ تلك المخالب إلا
بعدما جُرِّدَتْ من الأرواح
فتلاشى الدخان عن وَثَبَات البغي
في بركة الدم النضاح
وسرى الليل مالئاً جبل النار
سكوناً لولا نشيد الأضاحي
يادماء النسور تجري سخاء
بغرام البطولة الفضاح
أنبتي العز سرحة يتفيا
بأظاليلها شتيت النواحي
أنت دمع السماء إن لهث الحقل
وجفت سنابل وأقاحي

فالشاعر يبدع في تصوير الصراع بين قوى الحق والباطل، الخير والشر، العرب والصهاينة، وهو يستعير صورة الليل والظلام والنيران تغالبها النسور وتنشب فيها مخالبها وتبذل الروح والدم لتسقي الأرض العطشى، والشاعر يؤكد أن قوى الحق على استعداد دائم للتضحية والفداء، وإن كانت تعلم أن الغلبة لن تكون لها، وحسبها فخراً وشرفاً أنها تثبت بطولتها، وتؤكد حقها، كما يؤكد الشاعر أن هذا الدم لن يضيع عبثاً فهو الذي سينبت شجرة العزة.

وصورة الصراع مبتكرة، وهي حافلة بالصور الجزئية البديعة، فالبغي يشق فكي

جهنم، والـثرى في مأتم مستباح، والنسور تتشب المخلب في البغي وتزجي المنقار، والعز بعد ذلك سرحة، والدماء دمع السماء يروي الحقل الظامئ. إن القصيدة مبنية على فنية عالية، وصور جديدة، ومعان بعيدة، وليس فيها إلا قدر قليل من المباشرة والخطابة ، على الرغم من أنها قيلت في مناسبة، وأنشدت في حفل، وكانت موجهة إلى جمهور حاشد من المتلقين. وإذا دلّ هذا على شيء، فإنه يدل على أن الشاعر يأبى إلا أن يجوّد فنه، ولو كانت قصيدته في مناسبة، فهي تصدر عن موهبة، لايمكن إلا أن تعبر عن ذاتها، أقوى مايكون التعبير.

- ٤ -

وفي عام ١٩٤٥ قبل أن يتم لسورية الاستقلال، تفتتح دار الكتب الوطنية بحلب، وفي حفل الافتتاح يلقي الشاعر قصيدة مطولة عنوانها «هذه أمتي» (١٩٤٥)، وفيها يعتز بالعروبة وقدرتها على نفض غبار الأيام، والنهوض ثانية لتصنع العزة، ثم يلتفت إلى القدس، ليشير إلى غدر الأحلاف بالعرب، ونكثهم بعهودهم لهم، وتشجيعهم اليهود على الهجرة إلى فلسطين، فيقول (ص٥٢٦- ٥٢٧):

وسلوا القدس هل غفا الشرق عنها
أو طوى دونها شبا مُرّانه
أهتاف خلف البحار بصهيون
وحدب على بناء كيانه
ومن الهاتف الملح؟ أحرٌ؟
أين صدق الأحرار من بهتانه
أين ميثاقه؟ أتنحسر الرحمة
في دفتيه عن عدوانه ؟
يالذل العهود في فم من
أجرى على عزّها دما فرسانه

ثم يشيد بطهر الأرض المقدسة، ويستنكر تدنيسها بالعدوان، ويؤكد أن الحق لابد سينتصر، وأن الباطل سيدحر وينهزم، فيقول: (ص٧٢٥- ٥٢٨):

أي فلسطين يا ابتسامة عيسى
لجراح الأذى على جثمانه
ياتثني البراق في ليلة
الإسراء والوحي ممسك بعنانه
لاتنامي خضيبة الحلم خوفا
من غريب الحمى ومن أعوانه
إنّ للبيت ربّه فدعيه
ربّ حاو رَدّاه في ثعبانه

ومما لاشك فيه أن الشاعر لايرفع دعوة التسليم حين يقول إن للبيت ربه فدعيه، بل يعبر عن ثقة بأن الباطل سينهزم من غير

شك لأنه يحمل في داخله بذور فنائه بسبب اعتمـاده علـى الزيف والباطـل، كالحاوي الذي يعتمد على الأفعى في كسب عيشه.

- ٥ -

وأقيمـت حفلـة ثانيـة في دار الكتـب الوطنية بحلب، عـام ١٩٤٧ في ذكرى جلاء المستعمـر عن سورية، فيلقي عمر أبو ريشة قصيـدة مطولـة عنوانها: «عرس المجد» (١٩٤٧) يفخر فيها بمجد العرب، ويعبر عن فرحة كبيرة بالاستقـلال، يقول في مطلعها (ص ٤٣٧):

ياعروس المجد تيهي واسحبي
في مغانينـا ذيـول الشهب
لـن تـري حفنـة رمـل فوقها
لم تـعطـر بـدمـا حـرّ أبـي
درج البـغي عـليهـا حقبـة
وهــوى دون بـلـوغ الأرب

ثم يخاطب في تضاعيف القصيدة القدس الشريـف فيتغنّى بطهر أرضه ثـم يؤكد أن المصـاب في فلسطـين قد وحّـد العرب ولمّ شملهم وأنهم جميعـاً لن يتخلوا عن الحق، فيقول (ص٤٤٧- ٤٤٨) :

ياروابي القدس يامجلى السنا
يـاروُى عيسى على جفن النبي
دون عليائك في الرحب المدى
صهلة الخيـل ووهـج القضب
لـت الآلام منـا شملنـا
ونمـت مـابـيـنـنـا مـن نسب
فـإذا مـصـر أغـاني جلّق
وإذا بـغـداد نجـوى يـثرب
ذهـبت أعـلامهـا خـافقـة
والتـقى مشرقهـا بـالمغرب
كلما انقضّ عليها عاصف
دفنتـه في ضلـوع السحب
بـورك الخطب فكم لف على
سهمه أشتـات شعب مغضب

والشاعر بذلك يـدل على رؤية تتمسك بالحق، وتثق بالمستقبـل، وترى في المصيبة نفسها مايحقـق الخلاص، ولكن من خلال وحدة العرب.

- ٦ -

ولكـن هذه الرؤية الواثقـة المتفائلة، ما تلبـث أن تصاب بفاجعة كبيرة، عندما ترتد القوى العربيـة على أعقابهـا عام ١٩٤٧، ويعلن الكيـان الصهيوني في ١٥ أيار ١٩٤٨ عن قيام دولة إسرائيل، فينفجر الغضب في قلـب الشاعر، ويعاتب أمتـه بقسوة، منكراً عليهـا تقصيرها في الدفـاع عن الحق في

قصيدة له شهيرة عنوانها «أمتي» (١٩٤٧) يقول في مطلعها (ص٧):

أمتي، هل لك بين الأمم
منبر للسيف أو للقلم
أتلقاك وطرفي مطرق
خجلاً من أمسك المنصرم
ألإسرائيل تعلو راية
في حمى المهد وظل الحرم
كيف أغضيت على الذل ولم
تنفضي عنك غبار التهم

وسرعان مايصب الشاعر نقمته على القادة العرب آنئذ ويحملهم المسؤولية، ويعاتبهم بحدّة بالغة، فيقول عنهم: (ص١٠)

ربّ وامعتصماه انطلقت
ملء أفواه البنات اليتم
لامست أسماعهم لكنها
لم تلامس نخوة المعتصم

ثم يلتفت إلى الشعب العربي ليحمله المسؤولية كلها، ويلومه على سكوته عن حكامه، فيقول (ص١٠- ١١):

أمتي كم صنم عبدته
لم يكن يحمل طهر الصنم
لايلام الذئب في عدوانه
إن يك الراعي عدو الغنم
فاحبسي الشكوى فلولاك لما
كان في الحكم عبيد الدرهم

والقصيدة مفعمة بالحدة وشدة الانفعال، وهي تضج بالأسئلة والنداءات، وقد عني الشاعر فيها بالطرافة والإدهاش، وتعدّ إحدى قصائده المتميزة، وقد لقيت في حينها رواجاً كبيراً، وحسبها أنه استهل بها ديوانه الذي أصدره عام ١٩٧١.

- ٧ -

وينتاب الشاعر بعد ذلك قدر غير قليل من الاكتئاب والحزن، وهو يرى القدس تتهك، وقوافل اللاجئين تجرّ خطا الألم والشقاء والعذاب، والعرب لاهون عنهم عابثون، فيطلق قصيدة مطولة عنوانها «حماة الضيم» (١٩٤٨)، وفيها يقول (ص١٧-٢٠):

هل في روابي القدس كهف عبادة
تحنو جوانبه على أحبارِهِ
خشب الصليب على الرمال مخضب
بدماء من نعموا بطيب جواره
فإذا سبيل الحق منفض الصوى
تاهت به الطلقاء من زوارِهِ
وإذا قوافله العجاف طريدة
والبغي يقذفها بمارج نارِهِ

كم متعب جرّ السنين وراءه
ومشيبه يبكي جلال وقاره
متلفتاً صوب الديار مودّعا
وخطاه بين نهوضه وعثاره
كم حرّة لم تدر عين الشمس ما
في خدرها أغضت بطرف كاره
وبناتها وجلى تضج أمامها
والرجس يدفعها إلى أوكاره
بمن استجارت هذه الزمر التي
مد الزمان لها يد استهتاره
العري ينشرها على أثيابه
والجوع يطويها على أظفاره
فلربّ سكير شدا مترنّحا
ودموعها ممزوجة بعقاره
ولربّ متلاف أشاح بوجهه
عنها وملء البيد سيل نضاره
حسبت بناء العرب مسموك الذرى
تتحطم الأحداث دون جداره
فإذا البناة على ذليل وسادها
تغفو عن الشرف الذبيح وثاره

وعلى الرغم من هذا الألم، وما يراه الشاعر من مظاهر الضعف والبؤس والتشرد، فإنه لايفقد الأمل، ويظل على ثقة بأن فجر الخلاص قادم، فيقول (ص٢٠):

مهلاً حماة الضيم إن لليلنا
فجراً سيطوي الضيم في أطماره
ماnam جفن الحقد عنك وإنما
هي هدأة الرئبال قبل نفاره

ومما لاشك فيه أن هذه الثقة بالنهوض إنما هي مستمدة من التمسك بالحق العربي، ومن قوة هذا الحق نفسه.

- ٨ -

وها هو ذا العيد يمرّ بالشاعر، فلا يهنأ به، ولا يحس فيه بسعادة، لأن روابي القدس مستباحة، ولكنه يثق بأن خلاصها قادم، ويعبّر عن ذلك في قصيدة «ياعيد» (١٩٤٩) وفيها يقول: (ص ٩٣- ٩٥):

ياعيد، ماافترّ ثغر المجد، ياعيد
فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريد
طالعتنا وجراح البغي راعفة
وما لها من أساة الحي تضميد
فتلك راياتنا خجلى منكسة
فأين من دونها تلك الصناديد
ياعيدكم في روابي القدس من كبد
لها على الرفرف العلوي تعبيد
سالت على العز إرواء لعفته
والعز عند أباة الضيم معبود
سينجلي ليلنا عن فجر معترك
ونحن في فمه المشبوب تغريد

والقصيدة تدل على حزن يحزّ في أعماق الشاعر، لما نال القدس من عدوان، ولما هو

عليه حال العرب من تقصير تجاهها، كما تدل القصيدة على تضحيات العرب في فلسطين ونيلهم الشهادة، والشاعر يمجّد أرواحهم، ومن خلال هذه التضحيات يمتلك الثقة بالنصر. إن الحزن حالة لابدّ منها، تزيد الحسّ رهافة، والوعي قوة، ولا تعدم الرجاء، ولا تفني الأمل، بل لعل تلك الحالة تزيد الأمل قوة.

- ٩ -

وتمر على النكبة عشر سنوات، ويطل العام الجديد ١٩٥٩، فيجد الشاعر المأساة ماتزال كما هي، احتلال، وتشريد، وقهر، فلا يهنأ الشاعر بقدوم العام الجديد، ويجد غرفته كئيبة خاوية، على الرغم من امتلائها ببطاقات التهنئة التي يراها فارغة من معناها، وهذا مايعبر عنه في قصيدة عنوانها «عام جديد» (١٩٥٩) وفيها يقول (ص٦٤):

وحدي هنا في حجرتي
والليل والعام الوليد
وحدي، وأشباح السنين
العشر ماثلة الوعيدْ
كم حطّمَتْ مني ومن
زهوي ومن مجدي التليدْ
وقفت لتنشر كل جرح
كان في صدري وئيدْ
من صيحة الوطن الطعين
ورقدة الوطن الشهيد
وكآبة الشيخ الطريد
ودمعة الطفل الشريد
وتململ الأحرار في
أغلال حكام عبيد
وتكالب الأقزام فوق
ذيول عملاق عنيد
وحدي هنا في حجرتي
والجرح والفجر الجديد
ورسائل شتّى تقول
جميعها عاماً سعيد

إن حزن الشاعر في العيد، وإحساسه بما يعانيه وطنه وأمته من هوان الاحتلال والتشريد والقهر، لهو دليل على أن الشاعر يحمل الوطن والأمة في وجدانه دائماً، وأن فرحة الإنسان لاتكتمل إلا بفرحة الوطن، وتلك هي في الحقيقة معاناة كل مواطن عربي.

إن ذلك كله يؤكد أن القضية الفلسطينية هي قضية كل عربي، يعيش نبضها كل يوم، ويحس بمأساتها، ولا يهنأ في عيشه، والأرض المقدسة مدنسة، والقدس الشريف منتهك،

والشقيق الفلسطيني يعاني من التشريد أو الاحتلال.

- ١٠ -

ولذلك يصعب على الشاعر أن يسمع أن أحد الأغنياء العرب قد أنفق مبلغاً كبيراً على ملذاته، في الوقت الذي تعاني فيه القدس من جراحها فيثور غضب الشاعر، وينقم، ويمضي ليرسم لوحة لذلك الغني، يسخر فيها منه، ويهزأ، في قصيدة له عنوانها «هكذا» (١٩٥٤) وفيها يصور جود ذلك الغني وإنفاقه على ملذاته، فيقول (ص٢٦-٢٧):

قال: ياحسناء ماشئت فاطلبي

فكلانا بالغوالي مولع

أختك الشقراء مدت كفها

فاكتسى من كل نجم إصبع

فانتقى أكرم مايهفو له

معصم غضٌ وجيد أتلع

وتلاشى الطيب من مخدعه

وتــولاه السبات الممتع

ثم يعلّق على موقف الغني، ساخراً، في تفجع مرّ، فيقول في ختام القصيدة (ص٢٧):

هكذا تقتحم القدس على

غاصبيها هكذا تسترجع

وفي هذا الختام مايحزّ في الأعماق، ويثير الشعور بالمرارة والألم، بالإضافة إلى مافيه من سخرية وإدانة.

- ١١ -

وفي كل مناسبة، ينعطف الشاعر إلى القدس، ليعبر عن واقعها المؤلم، ففي حفل تأبين الشاعر اللبناني الأخطل الصغير عام ١٩٦٩ يلقي أبو ريشة قصيدة مطولة، عنوانها «بنات الشاعر»، يرثي فيها الشاعر، ويأبى إلا أن ينطلق بما في نفسه من حزن وأمل، حزن على واقع فلسطين، والأمة العربية، وأمل في المقاومة الفلسطينية وحركتها فتح التي أعلن عنها عام ١٩٦٥.

وهاهو ذا يخاطب الشاعر الأخطل الصغير ويبوح له بما في جوانحه من ألم على أمته، فيقول: (ص٧٥- ٧٦):

ياراقداً في حمى النعمى ومضجعه

مازال يندى عليه العشب والزهر

نجيُك اليوم من أزرى الزمان به

وردّه عن مدى آفاقه الكِبُر

جناحه بعدما طال المطاف به

مخضّب من شظايا الشهب منكسر

يمشي الهوينا على صحراء رحلته
وصحبه الليل والأشباح والسهر
كانت له في هضاب الشرق ألوية
نَسْج الكرامة معقود بها الظفر
يسائل القدر المحموم في خجل
عنها فيغضي على استحيائه القدر

وهــذا البوح الحزين لا يعبر عن مشاعر فرديــة خاصة، إنما يعبر عن مشاعر وطنية قومية شاملة، مرجعها الحزن على واقع الأمة العربية وما نالها من ضيم، ولكن الشاعر لا يفقــد الأمل، فعزاؤه في كتائب الفتح، وأمله في رجال المقاومة، الذين يصنعون المستقبل، يقول الشاعر (ص٧٦-٧٧):

كتائبُ الفتح في إعصار عاصفة
بالحقد والغضب العلوي تنفجر
من كلّ أمرد ما أدمى مراشفَه
في رعشة الشوق إلا الوحلُ والمدر
وكلّ حسناءَ ما باعت أساورها
إلا لتشتري بها ما الموتُ يدّخر
كتائبُ بالنضال الحق مؤمنة
إذا الطواغيت من إيمانها سخروا

ولكن، على الرغم من هذا الأمل برجال الفــداء والتضحية، يظل الشاعــر حزيناً، بسبب يأسه من الحــكام العرب، وهو يدين في القصيــدة نفسهــا مؤتمــر القمة الذي عقدوه آنئــذ في الرباط، ثم يعلن في الختام عــن ألمه الشديد لأنه لم يقل كل ما كان يريد أن يقــول، فما تزال في الصدر غصة، يقول (ص ٧٨):

عفواً بشارة بعض البوح ضقت به
فسال فوق فمي حرّان يستعر
خنقت بالدمعة الخرساء أكثره
وأقتل الدمع مالا يلمح البصر

- ١٢ -

ولذلــك يعلّق الشاعــر الأمل على الملك فيصــل عندما يعلن عــام ١٩٧٥ عن عزمه علــى تحريــر القدس، فيتمثــل فيه صلاح الدين محرر القدس، ويتوجه إليه في قصيدة مطولة عنوانها «أنا في مكــة»، فيقول في مجموعة «أمرك يارب» (ص ٥٧):

ربعُ حطينَ موحش يا صلاح الدين
إلا مــن ذكــريــات غــوال
سِرْ بنا صوبه وصلّ بنا في القدس
واضــرب حــرامــه بــالحــلال

- ١٣ -

ولكــن فجأة يغتــال الملــك فيصل عام ١٩٧٥، فيرثيــه الشاعــر بقصيــدة مطولة عنوانها «أمرك يــارب» (١٣٩٥هـ ١٩٧٥م)، وهمــا الكلمتــان اللتــان نطق بهمــا الملك

فيصل وهو يجود بروحه، وقد جعل الشاعر القصيدة على لسان الملك، وصوره وهو يودّع الدنيا، ويتوجــه إلى ربه بالنداء، معبراً عن أمنيته الأخيرة، وهي تحرير القدس، فيقول في المجموعة نفسها (ص١٤):

لي بعدُ يا ربّ من دنياي أمنيةٌ

تقتاتُ بالوعد منها كلّ أشجاني

أردتُ أختم فيها العمر مقتحما

أحقادَ حطين في مضمارها الثاني

وأن أصلّي وكفُّ القدس تحمل لي

رضاكَ في المسجد الأقصى وترعاني

ما كان أكرمها في العمر أمنية

ما كنت أحسبها تمضي وتنساني

والشاعــر يدرك أن الملك فيصل لم يفقد الأمل، كمــا أن الشاعر نفسه لم يفقد الأمل فكلاهمـــا يثق بالشعب، ويعرف أن القوم لن يتخلوا عن الحق، ولن ينسوا الأمانة، ولا بد مـــن تحرير القدس، ولو طـــال الأمد، يقول الشاعر علـــى لسان الملك فيصل وهو يجود بروحه (ص١٦):

يا رب ماضاع عهد القدس إن له

قومي الأباةَ أعادي كلّ عدوانِ

أمانة لك لن يرموا بحرمتها

ولن يجروا عليها ذيل نسيانِ

أكاد ألمحهمْ في ظل مسجدها

وخالدٌ من سنا محرابه دانِ

وبذلــك يعبر الشاعر عـــن رؤية قوامها التمسك بالحق، والثقـــة بالشعب، والتفاؤل بالمستقبل، والأمل بتحقيق النصر.

- ١٤ -

وتلك الرؤية، هـــي رؤية كل عربي يؤمن بالحـــق ويتمسك به ويناضـــل لأجله، وتلك المعاناة هي معانـــاة الشعب العربي كله، من المحيط إلى الخليج.

وهي معانـــاة شعب، ورؤيـــة شعب، تعدّ قضية فلسطـــين بالنسبة إليـــه قضية حق ووجـــود، وهي قضيـــة حاضـــر ومستقبل، ولذلك لايفقد المرء الأمل، ولو وافاه الأجل، لأنها قضية شعب وتاريخ ووطن.

ولعل في هذا كله مايؤكد انتساب الشاعر إلى أمته وشعبــه وتاريخه، بل مايؤكد عمق ذلك الانتســـاب وقوته ورسوخــه وصدقه، فهـــو انتساب شاعر وعـــى القضية، وعاش تاريخها، وعـــرف أبعادهـــا، ذاق فيها المرّ، ورأى النكبـــة والنكسة، ولكنه لم يقنط، وظل متعلقاً بالقضية.

- ١٥ -

ومثلما أخلص أبو ريشة للقضية في فكره ووجدانه ومواقفه، كذلك أخلص لها في فنّه، فكان يجوّد شعره، ويتقنه، ويعنى بصوره، ويجدّدها، وينتقي ألفاظه، ويجوّدها. ولعلّ أهم ما سيذكر له جرأته في انتقاد الحكام العرب، وتحميلهم مسؤولية ضياع القدس وفلسطين، والتنديد بحرصهم على عروشهم، كما سيذكر له دائماً ثقته بشعبه، وأمته، وتعليقه الأمل دائماً على الجندي والمقاتل والفدائي، وحماة الوطن، وإدراكه أن القوة دائماً هي السبيل إلى النصر. ومن أهم المعاني التي كان يردّدها طهر القدس ونقاؤها، وإشارته إلى مكانتها لدى المسيحيين والمسلمين، فهي مهد عيسى ومسرى محمد، عليهما السلام، وكان يراهما دائماً متعانقين. كما كان يرى في الصهاينة دائماً شرذمة من اليهود الكاذبين الظالمين الطغاة صانعي الأكاذيب مدنسي الحرم المقدس. وفي هذا السياق كان يندّد دائماً بالإنكليز، لنكثهم وعودهم للعرب، ومنحهم العهود لليهود. وكان ما يفتأ يمجد الشهداء، ويأسى لآلام المشرّدين، واللاجئين، ويؤكد انتصار الحق بالقوة. وما كان يهنأ بعيد بل كان في كل عيد يذكر القدس، كما يذكرها في كل مناسبة، لأنه كان يحمل القضية في وجدانه.

وأمل الشاعر بالمستقبل، وثقته بالشعب، وتفاؤله بالنصر، ماكان ليمحو نغمة حزن كانت تشيع في كل ماقاله عن القدس وفلسطين، مثلما هي شائعة في شعره كله. كذلك لايغيب التاريخ عن شعره في القدس، ففي كل حين تأتلق أسماء خالد وصلاح الدين وكتائب الفتح، مثلما تألقت في شعره قصائده عن محمد وخالد والمتنبي والمعري. وإذا دلّ شيوع الحزن في شعره كله وتألق التاريخ على نزوع رومانتيكي، فإنه يدل على ماهو أهم من ذلك، ألا إنه الصدق والأصالة وتميز الصوت وخصوصيته.

ويلاحظ أخيراً أنه كان يعالج تلك المعاني بلغة شعرية راقية، فيها قوة وفيها متانة، وفيها صور جديدة، وإشارات بعيدة، شفيفة، حتى في القصائد التي يعرف أنه سيلقيها في مناسبة، وأمام جماهير حاشدة. لقد كانت المناسبات تقدح زناد قريحته، وتثير فيه شاعريته، وتحرضه على القول، فيجود فيها مثلما يجوّد في غيرها، فإذا هو مجوّد في قصيدة المناسبة مثلما هو مجوّد في غيرها، وإذا دلّ هذا على شيء، فإنه يدل

على شاعر صادق، مخلص لشعره وفنه، في الحالات كلّها.

- ١٦ -

ويبقى عمر أبو ريشة بعد ذلك كله واحداً من مئات الشعراء العرب، الذين اعتنقوا القضية الفلسطينية، وعشقوا القدس، وتمسكوا بالحق العربي، وناضلوا بشعرهم وفنهم، وأحياناً بدمهم وأرواحهم، في سبيل النصر، ولم يكن أبو ريشة الصوت الفرد الوحيد. ولا بد من القول أيضاً إن أولئك الشعراء أيضاً هم ضمير الشعب، وصوت الأمة، وما التزام الشعراء القضية الفلسطينية إلا جزء من التزام الشعب العربي في كل مكان وكل قطر لهذه القضية، التي هي قضية العرب والمسلمين، ومقياس انتمائهم إلى أمتهم وأرضهم وشعبهم وتاريخهم. وإذا كان الشاعر يمتلك الأمل، ويحمل الثقة والتفاؤل، فلأنه يرى الشعب كله يضحي ويناضل، من أجل تحقيق ذلك الأمل.

المصادر

أبو ريشة، عمر، من شعر عمر أبو ريشة، دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٧.

أبو ريشة، عمر، ديوان عمر أبو ريشة، دار العودة، بيروت، ١٩٧١.

أبو ريشة، غنيت في مأتمي، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢.

أبو ريشة، عمر، أمرك يا رب، دار الأصفهاني، جدّة، ١٣٩٨.

القصائد وفق تاريخ كتابتها

١- قيود، (١٩٣٧)، ألقيت في حفلة الذكرى للمجاهد إبراهيم هنانو، شعر ١٣٦/١٤٢ الديوان ص ٥٥٢- ٥٦١، من البحر الكامل، مطلعها:

وطن عليه من الزمان وقار ... النور ملء شعابه والنار

٢- شهيد، (١٩٣٧) ألقيت في الحفلة التذكارية في حماه ودمشق للشهيد البطل سعيد العاص الذي استشهد في جبل النار بفلسطين، الديوان ص ٥٦٢- ٥٧٥ شعرص ١٩٩- ٢٠٨ من البحر الخفيف، مطلعها:

نام في غيهب الزمان الماحي ... جبل المجد والندى والسماح

٣- هذه أمتي، (١٩٤٥)، ألقيت في حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية في حلب بعد العدوان الفرنسي،

وخروج الشاعر من السجن، شعر ص١٥٤- ١٦٣ الديوان، (ص ٥١٦- ٥٢٨)، من البحر الخفيف، ومطلعها:

ماصحا بعد من خمار زمانه ... فليرفّه بالشدو عن أشجانه

٤- عرس المجد: (١٩٤٧) ألقيت في الحفلة التذكارية التي أقيمت في حلب، ابتهاجاً بجلاء الفرنسيين عن سورية، شعر ١٤٥- ١٥٣ الديوان (ص ٤٣٧- ٤٤٩)، من البحر الخفيف، ومطلعها:

ياعروس المجد تيهي واسحبي ... في مغانينا ذيول الشهب

٥- بعد النكبة (١٩٤٨)، ألقاها بعد نكبة ١٩٤٨ في حفل ضم رئيس الوزراء في عهده وهو جميل مردم بك، وقد هجاه ببيتين لم يثبتهما في الديوان، ولكن الناس يتناقلونهما شفاهاً، يقول فيهما:

كيف تبغي أمة عزتها ... وبها شبه جميل المردم

إن أرحام البغايا لم تلد ... مجرماً في شكل هذا المجرم

والقصيدة في الديوان ص (٧-١١) وهي من البحر الرمل، ومطلعها:

أمتي هل لك بين الأمم ... منبر للسيف أو للقلم

٦- حماة الضيم: (١٩٤٨) الديوان ص١٤- ٢٠، من البحر الكامل ومطلعها:

عاتبته ونسيت طيب نجاره ... وأبيت أن تصغي إلى أعذاره

٧- ياعيد، (١٩٤٩) الديوان ص ٩٣- ٩٥، من البحر البسيط، ومطلعها:

ياعيد ما افتر ثغر المجد ياعيد ... فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريد

٨- عام جديد (١٩٥٩) الديوان ص ٦٤- ٦٦، من مجزوء الكامل، ومطلعها:

وحدي هنا في حجرتي ... والليل والعام الوليد

٩- هكذا: (١٩٥٤) الديوان، ص(٢٥- ٢٧)، من البحر الخفيف، ومطلعها:

صاحِ يا عبد فرقُ الطيب ... واستعر الكأس وضج المضجع

١٠- بنات الشاعر: (١٩٦٩) ألقيت في حفل تأبين الشاعر اللبناني الأخطل الصغير (الديوان ٦٧-٧٨) من البحر البسيط، ومطلعها:

نديك السمح له يخنق له وتر ... ولم يغب عن حواشي ليله سمر

١١- أنا في مكة، بلا تاريخ، مجموعة أمرك يارب، ١٣٩٨هـ، ص ٣٧- ٥٧، من البحر الخفيف، مطلعها:

لم تزالي على مخاليا لي ... موئل الحقّ ياعروس الرمال

١٢- أمرك يارب، ١٣٩٥هـ، مجموعة أمرك يارب، ١٣٩٨هـ، ص ٩-١٩، ومطلعها:

يا ربّ أمرك هذا لاأطيق له ... رداً فأمرك ياربي تولاّني

لنجعل القدس رمزاً

د. عزت السيد أحمد ٭

جراح القدس بليغة عميقة..

كبرياؤها نازف..

وكرامتها منتهكة..

وأهلها يستغيثون..

والعالم (يتفرج) ويصفق

وكأنَّهُ يستمتع بعرضٍ مسرحي

وحماةُ القدس يقهقهون

يتبادلون اتهامات التقصير

٭ باحث في علم الاجتماع (سورية).

ويتشاتمون
يدّعون حمل الأمانة
ويزايدون
والقدس تستغيث
وأهلها يستغيثون
والكبرياء تنزف
والكرامة تُجْهَضُ
ويعلو الأنين
من أين نبدأ؟
كلُّ البدايات كانت خاطئة
وبعد كلُّ بدايةٍ بدايةٌ خاطئة
ونترك المبادرات للآخرين

أمران يوقفان المفكّر أو الكاتب في حيرة: أن تضيق مخيلته عن فكرةٍ ينسجُ حولها كلامه في موضوعٍ ينبغي أن يقول فيه شيئاً، وأن تتزاحم عليه الأفكارُ المتكافئة في أهميتها في موضوعٍ واحدٍ فيحار في الفكرة الّتي يبدأ بها كلامه، لأنَّ كلَّ فكرةٍ تفرض ذاتها بوصفها الأكثر أهميةً. والحديث عن القدس عند أي مفكر أو كاتبٍ أو باحثٍ هي من هذا القبيل الثاني، لأنَّ القدس ليست محض مدينةٍ كغيرها من المدن في أيِّ مستوى من مستويات الكلام أو الأفكار الّتي تفرضُ ذاتها حتّى لو كانت هذه الأفكار مشتركةً مع مدنٍ أُخرى.

فإذا كان الكلام عن القدس بوصفها مدينةً محتلةً، ومن ثمَّ المعاناة من الاحتلال، فإنَّ فكرة الاحتلال والمعاناة منه فكرةٌ تشترك فيها كثيرٌ من المدن، ولكنَّ القدس وحدها من المدن الّتي احتلَّتْ تتعرض لاحتلالٍ من نوعٍ مختلفٍ عن كلِّ أنواع الاحتلال عبْرَ التاريخ هو الاحتلال الاستيطاني، ويختلف هذا الاحتلال الاستيطانيُّ عن كلِّ ما يمكنُ أن يسمى احتلالاً استيطانياً أيضاً بأنَّهُ يقوم على تزويرٍ جليٍّ للتاريخ، ومزاعمَ واهيةٍ لا تصمد لحظةً أمامَ أيِّ مناقشةٍ تحترمُ أدنى أوليات العقل، ويضاف إلى ذلك مما يرتبطُ به أمران على الأقلِّ خطيران:

أولهما أنَّه على الرَّغم من هشاشة هذه المزاعم وقابليتها للتداعي والانهيار أمامَ أي مناقشةٍ عقليةٍ أو علميَّةٍ أو أخلاقيَّة... فإنَّ العالم الغربي كله تقريباً، وخاصَّة الحكومات منه، تقف وراء هذا الاحتلالِ وقفةً حديديَّة، وتبذل الغالي والرخيص للدفاع عن الاحتلال، وتصويره على أنَّهُ حقٌّ شرعيٌّ، وفي المقابل من ذلك تماماً تتجاهل هذه الدول حقَّ الأهل الأصليين للمدينة تجاهلاً غريباً مُريباً يجعل الحليم حيراناً

ويفقد الحكيم صوابه. ولا نبالغ في هذا السياق إذا قلنا إنَّ السياسة الغربيَّة تنطلق من قناعة أكيدة واثقة بأنَّ الكيان الصهيوني كيان مزروع في مكان لا انسجام قط بينه وبَيْنَ المحيط الذي زرع فيه، ولذلك سمعنا الكثير من التصريحات التي صدرت عن مسؤولين غربيين تعلن صراحة أنَّ إسرائيل وجدت لتبقى، وقد كثرت هذه التصريحات مع انطلاقة مؤتمر مدريد للسلام العربي الصهيوني في عام ١٩٩٢م، وطبيعة هذا التصريح تكفي وحدها لتوضح أنَّ الغرب يتعامل مع الكيان الصهيوني على أنَّه كيان مزروع في غير أرضه، وعلى أرض لها أهلها، ولذلك تبدو الازدواجية واضحة في السياسة الغربية تجاه هذا الموضوع.

ثانيهما أنَّ هذا العالم الغربي، وهو الذي زرع هذا الاحتلال وكرَّسه وصان وجوده، وبممارسة تفقأ عين كلِّ عقل ومنطق، لم يكتفِ بالاقتناع المريب بهذه المزاعم الواهية، المتناقضة الَّتي تفتقر إلى أدنى حدود التماسك مع المنطق أو العقل أو التاريخ، بل يريد أن يفرض على أهل القدس وعلى العالم العربي والإسلامي أن يقتنعوا بهذه المزاعم، ويعتقدونها قبل دينهم ديناً، بل لَقَد كشفت بعض الوثائق عن سعي الإدارة الأمريكية لمنع العالم الإسلامي، ومنه العربي، من تدريس الآيات القرآنية الَّتي تحض المسلمين على الجهاد، أو حتَّى تتحدَّث عن اليهود!!! وفي هذا السياق أيضاً نجد تسابق السياسيين الأمريكيين خاصَّةً، والغربيين عامَّة، في الاعتراف بالقدس عاصمة للكيان الصهيوني، وعدم تقسيم القدس بوصفها عاصمة لهذا الكيان. وكذلك نجد التجاهُلَ الأعمى الحاقد للسياسات الصهيونية في تهويد القدس وإقامة المستوطنات فيها، والسعي الدائم لتهجير المقدسيين، ومنعهم من ممارسة حقوقهم وشعائرهم في القدس، وكذلك العمل على إزالة كل الملامح العربيَّة والإسلاميَّة من القدس عن طريق هذا التهويد.

أمَّا إذا أردنا الحديث عن معاناة أهل القدس من الاحتلال فإنَّ الأمر سيطول بنا كثيراً، لأنَّهُ على الرَّغْم من اشتراك كلِّ المدن المحتلة بالمعاناة فإنَّ معاناة أهل القدس مختلفةٌ أيضاً عن كلِّ معاناة، وحسبنا من هذا الاختلاف الصورة المقلوبة الَّتي تصل إلى العالم عن هذه المعاناة، فعلى الرَّغْم من وضوح الوحشية الصهيونية في اغتيال الأطفال والأبرياء بالطَّائرات والدَّبابات ومختلف الأسلحة النارية، وعدم امتلاك

أهــل القدس أكثر مــن الحجارة للدفاع عن أنفسهم فإن العالم الغربي يتحدث عن إرهاب فلسطينـــي، وعنف فلسطينـــي، واعتداءات فلسطينيَّة..!!! وتزداد الصُّورة فاجعيَّةً هنا عندمـــا نشاهد الإعلام الغربي والحكومات الغربيـــة تتهافت على استرضـــاء الاحتلال الغاشـــم وتسويغ وحشيتـــه وتصويرها على أنَّها براءة الحمـــلان الوديعة. ويتكالبون في الضَّغط على أهل القدس لإيقاف (إرهابهم المدجج بمختلـــف أنواع الحجارة والحصى) الذي يهدد أمن الاحتلال!!! ولذلك لا عجب في أن نجد غير واحدٍ من أمثال ديفيد روتم النائب في الكنيســـت الصهيوني يعرب عن استعداده لتفجير المسجـــد الأقصى ومحوه من الوجود إذا كان هذا هو الطريق الوحيد للإفراج عن الجنود الإسرائيليين المحتجزين لدى حركتي حمـــاس وحزب الله». وأضاف «إنَّ إزالة المسجـــد الأقصى من الوجود قد يحقّق السَّلام الدَّائم»، وذريعته في ذلك: «أنَّ النّزاع الفلسطيني الإسرائيلي ليس سياسيَّاً.. إنَّما هو صراع بـــيْنَ الدِّيانة الإسلاميَّة التي لا تريدنا هنا، والديانة اليهودية، التي تريد الاستقرار في فلسطين».

سنفترضـــ أنَّ ذلـــك كله أمـــرٌ مقبولٌ أو عاديٌ في سياق الصـــِّراع أيَّا كان مضمونه، وخاصَّةً في حقِّ القـــوي في تصوير الصِّراع كيفما أراد ووافق مصالحه، ومن ثُمَّ فإنَّنا لن نلوم الغرب على عقليته المقلوبة هذه. ولكن الـــذي لا يمكن تغافله أو تجاهله هو المنطق المقابل لهذا المنطق، أي المنطق المقابل لمنطق القوة وهو منطق الحق والتاريخ، هذا المنطق الذي سينصف القدس، وسيعيد لها كرامتها وكبرياءها ومكانتها، فمهما انقلبت الحقائق، ومهمـــا زوِّر التاريخ والواقع، وحَتَّى لو كانت القدس مدينـــة ككل المدن لا خصوصيَّةً لها فإنَّها تبقـــى وطناً له أهلـــه وأصحابه، كلَّنا يعرفُ أنَّ سموَّ الوطـــن في النفس وقداسته لا تأتـــي من كون مائه غير الماء، ولا من كون هوائه غير الهواء، ولكن لأنَّهُ وطن، وقد أثبت التَّاريـــخ أنَّ الوطن لا ينســـى ولا يموت ولا يمكـــن أن يخرج من النفس حَتَّى لو خرجت النفس منه!!!

هذا يعني حقيقة أساسيَّة واحدة هي أن المستقبل، قَرُبَ أم ابتعد، الذي سيعيد الحقَّ إلَى نصابه لن يرحم المتخاذلين من حاضرنا، ولـــن يغفر تكاسلهم وقلة حيلتهم.. فلماذا لا يحسب هؤلاء لهذا اليوم حسابه؟!

ولكـــن لعنـــة التاريـــخ لن تكـــون قليلة، وحسابـــه لن يكون يسيراً، لأن القدس ليست كأي مدينـــة من المـــدن، فاسمهـــا القدس،

والقدس مــن القداسة، وأي مدينة في العالم اسمهــا القداسة غير القدســـ؟! وأي مدينة في العــالم اجتمعــت فيها مقدســات أديان الله الثلاثــة معاً غير القدســـ؟! وأي مدينة في العالم تســاوت محبتها وقدستها في قلوب المؤمنــين بالله من كل الأديان غير القدس؟! وأي مدينة دُنست قداستها وانتهكت كرامتها في ظــلِّ الصّمت الرّهيــب المريب من العالم معظمه؟!!

بقدر هذه القداسة، وبقدر هذه الجرائم سيكون الحساب والعقــاب؛ لمن قصَّر، ولمن سكت، ولمن شارك، ولمن قام بالفعل.. فلنفكر في يــوم الحساب هــذا لأنَّه لن ينجــو آثمٌ أبداً.

يجــب أن نسعــى بــكلِّ مــا نستطيــع، وبمختلــف الأساليــب والوسائــل المتاحــة والممكنة كي نعيد للقدس كرامتها وكبرياءها وشموخها، القدس أكبر من كلِّ الرموز فلماذا لا نجعلها رمزاً؟! يجب أن نعلنها رمزاً يتقدَّم كل الأحداث والأخبار كي لا تفارق الأذهان لحظــةً أو ومضةً لأنَّ غيابهــا عن الأذهان خيانــة، وقبولنا بالخيانة كفــرٌ، وليس بعد الكفر ذنب.. ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.

آفاق المعرفة

القدس تحت الاحتلال الإسرائيلي ومحاولة طمس الهوية العربية

د. محمد يحيى خراط *

عند قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م بقرار ظالم من منظمة الأمم المتحدة، قسمت القدس إلى «شطرين»، القدس الغربية وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي، والقدس الشرقية وبقيت عربية ضمن ما يعرف «بالضفة الغربية» والتي كانت تحت الإشراف والإدارة الأردنية.

في ذلك الحين كانت مساحة القدس الشرقية المغتصبة تبلغ ٢٠٢٣١ دونماً. ومع بدايات الاحتلال الصهيوني للقدس الشرقية عام ١٩٦٧م، بدأت

* باحث في التراث العربي ووزير سابق

خطواتُ تهويدِ المدينـة ومحيطها، بالتزامن والتكامـل مـعَ الإجـراءات الصهيونيـة علـى الأرض ضـدّ العـرب وتجمعاتهم في المنطقـة. في هذا السيـاق، أعلنت سلطاتُ الاحتلال عن توحيد شطري القدس بتاريخ ١٩٦٧/٦/٢٨م. وطبقـاً لنهـج السيطـرةِ علـى أكبر مساحـة ممكنةٍ مـن الأرض معَ أقلّ عـددٍ ممكنٍ من المواطنـين العربِ، تمّ إدخال ٢٨ قرية ومدينة عربية ضمن حدودِ القدس التـي ضُمّتْ، فاتسعت هذهِ الحدودُ مـن ٦,٥كم إلى ٧٠,٥ كم، ولتصبحَ مساحةُ القدس بشطريـه ١٠٨,٥ كم٢، ثم توسيعها لاحقاً سنـة (١٩٩٠م) إلى ١٢٣كم٢، ثم إلى ١٣٦كم٢ حالياً. ولا يخفى أنّ عمليةَ التوسعِ المتكـررةَ هـذهِ ترمي إلى قضـمِ المزيد من الأراضي لتكونَ خارجَ المساومةِ السياسيةِ في أيِّ حلٍّ مستقبلي لمشكلة القدس.

وحسب دراسةٍ صدرتْ عن مركز العودةِ الفلسطيني في لنـدنَ، قُدِّر عدد المقدسيين الذين هُجِّروا من ديارِهم وانتزعت أملاكُهم منهم عام ١٩٤٨م بنحو ثمانيةٍ وتسعينَ ألف شخص، وقُدِّرت مساحةُ أملاكهم بنحو ٢٧٣ ألف دونم. وبلـغ عددُ القرى المقدسيةِ التي تعرّضت للتهجيـرِ والمصـادراتِ ٣٩ قريةً. وبعـد ٥٠ عاماً (أي في العـام ١٩٩٨م) بلغَ عددُ اللاجئين الذين تعود أصولهم إلى هذه القرى أكثر من ٦٠٠ ألف شخص.

وفي نطاق الممارسـات الصهيونيةِ التي تأطّرتْ بنهج تهويدِ القدس، تتابعت عملياتُ التهجير التـي تعرض لها المواطنونَ العربُ. ويتبين من متابعةِ مفـرزاتِ تلك الممارساتِ ما يلي:

- خـلال السنـواتِ الثلاثـين ونيّـفٍ الماضيةِ، تم إجبارُ نحو سبعينَ ألف مقدسيّ على النزوح.
- منذ العام ١٩٨٢م، ترفضُ سلطاتُ الاحتـلال تسجيـل آلافِ المقدسيين الذين وُلدوا في المدينة ولا تعترف بهم كمواطنين.
- مواصلـةُ التضييـقِ علـى المقدسيين لدفعهم إلى اليأسِ والرحيلِ.
- أسفـرتِ الممارسـاتُ الصهيونيـةُ عن خفضـِ عددِ الفلسطينيـين في المدينة القديمةِ، فيمـا ارتفع عددُهـم في مناطق محيطة بالمدينة (بيت لحم، بيرنبالا، الرام، أبو ديس، العيزرية.. إلخ).

وحسـب تقريـرٍ نشرَهُ الجهـازُ المركزي

للإحصاء الفلسطيني (حزيران/يونيو ٢٠٠٠م) بلغت المساحةُ الإجماليةُ للأراضي التي صادرتها سلطاتُ الاحتلال من مناطق ٨٥٪ من إجمالي مساحة هذه المناطق.

وفي القدس القديمة ومحيطها، انتهجت السلطاتُ الصهيونيةُ أساليبَ متنوّعةً للاستيلاء على العقارات والمباني العربية منها:

– إصدار القائدُ العسكريُّ الصهيونيُّ في المنطقة أمراً بتاريخ ١٩٦٩/٦/٢٥م بمصادرة سبعةَ عشرَ عقاراً ومتجراً وأماكنَ دينيةً في منطقة باب السلسلة، وحيِّ الواد يقطنها مئةٌ وخمسةُ أشخاص، وذلك لإقامة قوات الأمن فيها ونُقلت ملكيتُها للحكومة التي سلّمت قسْماً من هذه العقارات للمستوطنين في عام ١٩٩١م.

– الاستيلاءُ على بعض العقارات العربية في عقبة الخالدية والسرايا والسعدية وغيرها بوسائل عديدة منها: الترغيبُ بمبالغَ كبيرةٍ من المال، الاحتيالُ بتوقيع عقودٍ بينَ مستأجرين ثانويين لهذه المباني (أو حتى مع أشخاصٍ لا يمتّون لها بصلة).

– التهديدُ والمضايقاتُ مثل أصوات الضجيج وإلقاء القاذورات وغيرها كما حصل مع المجاورين لمدرسة «شوفوبانيم».

– الاعتداءُ والقتلُ كما حدث مع الشهيدة فاطمة أبو ميالةَ التي قُتلت عام ١٩٨٣م من قِبَل المستوطنين والاستيلاءُ على بيتها.

– محاولةُ الاستيلاء على المناطق الخالية من السكان والتي تعود ملكيتها إلى أطرافٍ متعددة وقد تكرّرت في أكثرَ من موقعٍ في البلدة القديمة، ومن ذلك استيلاؤهم على ساحة جامع خان السلطان وحاكورة الصبرة، واستخدامُ أسطحة سوق العطارين واللحامين والخواجات كطريقٍ للمستوطنين وإقامة جسورٍ على هذه الأسطحة، وذلك لربط الحي اليهودي بمنطقتيِّ القرمي وعقبة الخالدية، علماً بأنّ ملكيتها تعود للأوقاف الإسلامية وللوقف الذريّ للعائلات الإسلامية المقدسية.

– قيام دائرةُ القيّم على أموال الغائبين بوضع يدها على البيوت التي يملكها مواطنونَ عربٌ خارجَ القدس، ممّن لا يحملون هوية القدس التي أصدرَتْها سلطاتُ الاحتلال، وتأجيرها للمستوطنين كطرفٍ ثالث، كما حصل في بيت عدنانَ خميس قرش

في حارة السعدية ودار مراد في حي الشيخ جراح ودار أحمد شحادة الفراعين وبيوت آل عباس في سلوان وغيرهم كثيرون.

- وفي الحالات المتنازع عليها، كان المستوطنون يقتحمون العقار لخلق واقع جديد على الأرض، وإذا لجأ صاحبُه أو مستأجره إلى المحكمة فإنّ القضية تستغرقُ سنوات، ويكون المستوطنون خلالها قد سُمح لهم بالبقاء في العقار المتنازع عليه، كما فعلوا في دار الزور في عقبة السرايا ودار محمود أبو سنينة في عقبة الخالدية وإحدى غرف بيت عارف أبو صبيح في الحيّ نفسه ودار عابدين وسابيلا في باب حطة.

لقد بلغ عدد المستعمرات الصهيونية التي أقيمت على أراضي محافظة القدس (حسب التحديد الإداريّ الفلسطينيّ) ٤٣ مستعمرة تقوم على مساحة من الأراضي تزيد عن ٤٦ ألف دونم.

ويُلاحظ أنّ سلطات الاحتلال الصهيونيّ استمرتْ في إقامة المستعمرات على أراضي القدس بالرغم مما يسمّى عملية «السلام» مع القيادة الفلسطينية، وذلك في تسابقٍ محمومٍ مع الزمن، بهدف خلق أمرٍ واقع استيطانيّ يحول دون أيّ تغييراتٍ على الأوضاع القائمة، خلالَ مرحلة التسوية النهائية.

على الرغم من أنّ جميع المستعمرات في القدس تشكّلُ عواملَ مولّدةً للصراع والمواجهة، كونها أقيمتْ على أراضٍ مغتصبةٍ من أصحابها الشرعيّين، إلا أنّ هناك نقاطاً ساخنةً يمكن أنْ تسهمَ في زيادةِ التوتر بينَ المواطنين العرب والمستوطنين اليهود في المدينة.

السياسة الصهيونيّة إزاءَ عرب القدس:

لقد كانت أولى وسائلِ تهويد القدس التي اعتمدتها السلطاتُ الصهيونيةُ ولاتزال تعتمدها حتى الآنَ هي ذاتُها التي استخدمَتْها العصاباتُ الصهيونيةُ قبل عام ١٩٤٨م وبعده، أيْ عملياتُ القتلِ والتدمير. فقد أمطرَتِ القواتُ الغازيةُ مدينةَ القدسِ عامَ ١٩٦٧م بوابلٍ من القصفِ المتواصل بالقنابل المحرقة، جواً وأرضاً، وبالأسلحة الرشاشة، ممّا أدّى إلى استشهادِ ٣٠٠ مقدسيّ من المدنيّين، كانَ بينهُم عائلاتٌ بكاملها داخلَ منازلها، وبعضهم في الطرقات والأزقة أثناءَ

فزعهم وهروبهم من جحيم النيرانِ المسلطةِ عليهم.

ودمّرت القنابلُ الصهيونيةُ مئاتِ العقاراتِ السكنيةِ والتجارية، داخلَ السورِ وخارجَه، وأحرقت عشراتِ المخازن، وألحقت أضراراً فادحة بالمساجد والمشافي وسواها. وقامت السلطاتُ الصهيونيةُ بعد أربعةِ أيامٍ من دخول القدسِ الشرقيةِ، وفي أقلَّ من أسبوع، بإزالة ١٣٥ داراً في حي المغاربةِ المجاورِ للحائط العربي للحرم القدسي (يسكنها ٦٥٠ شخصاً) ومسجد الحيّ ذاته، ونحو ألفيّ منزلٍ ومخزنٍ في المناطق مجردةِ السلاح. وتبع ذلك هدمُ عددٍ آخرَ من العقارات بينها مجموعةٌ متفرقةٌ من الدور بلغت ٢٤ داراً نسفها الجيشُ الصهيونيُّ بحجّة الانتقام من أعمال المقاومةِ. ولجأت السلطاتُ الصهيونيةُ عامَ ١٩٦٩م إلى نسف وتدمير ١٤ مبنى دينياً وأثرياً، بحجّة الكشف عن امتداد الحائط الغربيّ، ومنها مسجدٌ إسلاميٌّ والزاويةُ الفخريةُ. وكان من نتيجة هذه الأعمالِ تشريدُ ما يقربُ من ألفِ شخصٍ آخرينَ من سكان القدس.

وفي السنواتِ اللاحقةِ توالت عملياتُ القتل والتدمير الصهيونيةُ التي تعرّض لها المقدسيّون، وبلغت خلالَ السنواتِ الممتدةِ بينَ ١٩٨٨-١٩٩٩م ١١٠ شهداء. نصفُهم في العامين ١٩٨٩ أو ١٩٩٠ (أي خلالَ الانتفاضة الأولى) وتمّ هدمُ ٢٩٨ منزلاً في الفترة ذاتها. هذا باستثناء تدمير المباني بحجة (أسبابٍ أمنية!).

وفي الحقيقة فإن هدمَ المنازلِ العربيةِ في القدس كان دائماً لأسبابٍ سياسيةٍ واعتباراتٍ صهيونيةٍ واضحة، أبرزها:

- التضييقُ على المواطنينَ المقدسيين بهدفِ إجبارهم على تركِ المدينةِ وإلغاءِ حقّهم بالإقامة في القدس، وسحبِ هوياتهم في مرحلةٍ لاحقةٍ بذريعة نقل مركزِ حياتهم إلى خارج المدينة.
- إعطاءُ مجالٍ أكبرَ للتوسّع اليهوديّ على حساب الأرضِ الفلسطينية، واستخدامِ هدم البيوت بحجّةِ عدم ترخيصها كأداةٍ لتفريغ المدينة من مواطنيها العرب، مقابلَ ضخّ المزيد من اليهود إلى المنطقة.

ومن الحالات المعبّرة عن استمرار عملياتِ القتلِ الصهيونية، ما حدث إبّانَ انتفاضة الأقصى التي انطلقت منذُ يوم

الجمعة الدامي (٢٠٠٠/٩/٢٩م). إذ اقتحمت مجموعاتٌ كبيرةٌ من قوات الاحتلال ساحات الحرم القدسي وهي تطلق النارَ عشوائياً باتجاه المصلينَ المسلمين، وكانت حصيلةُ اليوم الأول هي استشهادَ ٤ أشخاص وجرحَ أكثر من ٢٠٠ شخص (توفي أحدهم لاحقاً). وكانت الإصاباتُ في الجزء العلويّ من الجسم، الأمرَ الذي يعني أنّ الجنودَ الصهاينةَ رأوا في المصلين أعداءً ينبغي قتلُهم. ولولا عواملُ الحيطة التي اتّخذها الفلسطينيون لكان عددُ الإصابات في ذلك اليوم أكبرَ. وفيما بعد تواصلت المواجهات، ومنعت السلطاتُ الصهيونيةُ دخولَ الفلسطينيّين إلى القدس أيام الجمعة لأداء الصلاة. وبلغت حصيلةُ تلك المواجهات خلالَ شهرين من الانتفاضة عشرةَ أشخاص من البلدة القديمة والقرى المجاورة لها (٢٤) فضلاً عن أكثرَ من ٣٠٠ شهيد ونحو ١٣ ألف جريح من مختلف الأراضي الفلسطينية وتعرّضت غالبيةُ القرى إلى قصفٍ مركّز من الدبابات والحوّامات الصهيونية أسفر عن تدمير مئات المباني والمنشآت، هذا إلى جانب الممارسات الإجرامية الأخرى.

وبعد تهجير غالبية عرب القدس، سعَتْ سلطاتُ الاحتلال إلى تذويبِ ما يمكنُ من الأقلية العربية الباقية في المدينة، فلجأت إلى فصلِ هذه الأقلية عن سكان الضفة الغربية، وأصبح هؤلاء بالاسم جزءاً من سكانِ دولة «إسرائيل» لكنّهم ظلّوا عملياً بمثابة أجانبَ محرومينَ من حقوق المواطنة ومن الخدمات البلدية، وتعرّضوا لجميع أنواع القهر والتمييز العنصري.

خلالَ عملية التهويد الشاملة، أصدرت السلطاتُ الصهيونيةُ (في ١٩٦٨/٨/٢٨م) قانوناً جديداً لتطبيقه على عرب القدس أسمَتْه «قانون التنظيمات القانونية الإدارية لسنة ١٩٦٨م. ومن القيود والشروط التي يفرضها هذا القانونُ على أبناء القدس مايلي:

- كلُّ عربي صاحبِ عملٍ أو مهنةٍ وكان يمارسُ عملَهُ أو مهنتَهُ يجب عليه أنْ يحصلَ على رخصة «إسرائيلية» وبموجب القوانين «الإسرائيلية».

- كلُّ شركة عربية (خاصة أم عادية أم محدودة) قائمة في القدس ومسجلة بموجب القوانين الأردنية، عليها أنْ تعيدَ تسجيلَ

نفسها لدى المحاكم «الإسرائيلية» وبموجب القوانين والأنظمة «الإسرائيلية».

- كلّ عربي يعمل طبيباً أو مهندساً أو محامياً أو مدقق حسابات عليه أنْ يتقدّم للسلطات «الإسرائيلية» بطلب موافقة تتيحُ له الاستمرارَ بمهنته بموجب القوانين «الإسرائيلية».

- كلّ عربي صاحب امتياز أو علامة تجارية أو اختراع عليه أنْ يعيد تسجيلَ امتيازه أو علامته أو اختراعه لدى السلطات «الإسرائيلية» وبموجب القوانين «الإسرائيلية».

ونلاحظ هنا أنّ تكرار عبارة «بموجب القوانين الإسرائيلية» يعني إعادةَ تشكيلِ الهوية الخاصة بجميع أشكال الأنشطة والأداء العام لعرب القدس، لتكون النتيجةُ تهويداً للشخصية العربية المقدسية، حسبَ الأهداف الصهيونية.

لقد تعدّدت أساليب التضييق الصهيونيةُ على عمليات البناء والإسكان العربية، فتمّ تقليصُ المساحات المخصصة للإنشاءات السكنية للعرب شرقيّ القدس، وتصنيفُ غالبية الأراضي الخاصة بهم كمسطحات خضراءَ يمنعُ فيها البناءُ، لتكونَ احتياطاً استراتيجياً للاستيطان اليهودي، وشُقّتْ شوارعُ تهدف إلى منع البناء العربيّ وصودرت أراضٍ واسعةٌ لاعتبارات واهية متنوعة.

في نطاق هذه الأساليب، لم تخصّص السلطاتُ الصهيونيةُ للأبنية السكنية العربية سوى ٥ كم٢ في المناطق الواقعة شرقيّ القدس من أصل ١٧,٥ كم٢ حددت للبناء، أي نحو ٧٪ من مجموع الأراضي التي صودرت منذُ العام ١٩٦٧م وفي الوقت ذاته، لا تسمح سلطاتُ الاحتلال للعرب بتشييد أكثرَ من ثلاثة طوابقَ في المبنى الواحد (مقابل السماح بثمانية طوابقَ لليهود) وتضع أمامَ هذا التشييد عقباتٍ وشروطاً قاسيةً تكاد تكون تعجيزيةً منها رسومٌ وضرائبُ تصل إلى مئات آلاف الشيكلات فضلاً عن المصاعب القانونية والبيروقراطية لذا يواجه العربُ خياراتٍ صعبةً منها: مواصلةُ العيش في المكان ضمنَ أوضاعٍ وظروفٍ خانقة، أو تكبدُ مصاريفَ عالية للبناء القانوني، أو المغامرة بالبناء دون ترخيص، أو مغادرة المدينة.

والنتيجةُ نشوءُ قوةٍ طاردة تدفع العربَ للنزوح عن المدينة. ولا يخفى ما لهذا النزوح

من آثارٍ كارثيةٍ على مستقبل القدس، في المنظورين السياسيّ والاستراتيجي.

و بعدَ الإحصاءِ السكانيّ الذي أجرته سلطاتُ الاحتلال لسكان القدس الشرقية المحتلة عامَ ١٩٦٧م، تبيّن أنّ هناك ٦٦ ألفَ مواطنٍ فلسطينيٍ مقدسيٍ ظلوا داخلَ حدود المدينة. آنذاك لم تقم السلطات بمنح هذا العدد الحقَّ للمواطنة بموجب القانونِ الصهيونيّ، بل منحتهم «حقَ الإقامة»، والفرقُ واضحٌ بين الحالتين، إذ أنّ الأولَ يعني حقاً أبدياً لا يملكُ أحدٌ إلغاءَهُ إلا ضمنَ ظروفٍ معينة تتعلق بأمن الدولة، ومن قِبَلِ السلطات الشرعية وليس سلطات الاحتلال. أمّا الثاني فيعني أنّ وزيرَ الداخلية يملك الصلاحيات في كلّ وقتٍ لإعطاء تعليماتٍ يمكن بموجبها حرمانُ الشخصِ من الإقامة في المدينة، ويطبّق موظفو الداخلية هذه التعليمات بصورةٍ آلية دونَ الرجوع إلى أيّ مرجعٍ آخرَ.

كان النصُّ القانونيُّ المعتمدُ في هذه الحالة ما ورد في «قانون الدخول لإسرائيل» (لعام ١٩٥٢م) الذي طبّق على سكانِ القدس واعتبروا بموجبه مقيمين موجودين بتصريح هويةٍ تتيح لهم السكنَ والعمل، وذلك على غرارِ أيّ أجنبي مقيمٍ في القدس ويحمل هذه الهوية. وفي العام ١٩٧٤م صدرت أنظمةٌ تحكُمُ مسألةَ الدخول إلى «إسرائيل»، وكانت المادةُ الحاديةَ عشرةَ من هذه الأنظمة تنصُّ على أنّه يكون الشخصُ خارجَ «إسرائيل» إذا وُجِد خارج حدود دولة «إسرائيل» مدة ٧ سنوات أو أكثرَ، أو حصل على الإقامة الدائمة والجنسية في دولة أخرى «وفسّرت الأجهزةُ الصهيونيةُ هذه المادةَ بأنّ أيّ مقدسيّ يقيمُ خارجَ القدس في الضفة الغربية أو خارجَها ينطبق عليه هذا التعريفُ، أيّ إمكانُ سحبِ هويته المقدسية».

وفي التطبيق العملي، سمحتِ السلطاتُ الصهيونيةُ للسكان المقدسيين وسواهم من المناطق المحتلة بالسفر إلى الدول العربية عن طريق الأردنِ أو السفرِ إلى الخارج عن طريق مطارِ اللد، وذلك على أملِ ألا يعودوا إلى موطنهم. وكانتْ مدةُ تصريح الخروج عبرَ الجسورِ معَ الأردن ثلاثَ سنواتٍ، أمّا الخروجُ من مطار اللد فكان يتمّ بواسطة وثيقةِ سفرٍ سياسيةٍ تصدرها وزارةُ الداخلية الصهيونية ومدتها سنةٌ واحدةٌ. أما بالنسبة

للسكان المقدسيين الذين سكنوا مناطقَ الضفةِ الغربيةِ فلم يكونوا بحاجةٍ إلى تصريحٍ معيّنٍ للدخول إلى القدس وحافظوا على الإقامة، ويبلغ عددُ هؤلاءِ حالياً نحو ٧٠ ألف مقدسيٍّ من أصل نحو ١٧٠ ألف مقدسيٍّ يحملون الهوياتِ الصادرةَ عن وزارة الداخلية الصهيونية.

وفي أوائل العام ١٩٩٦م، قامت سلطاتُ الاحتلال بتبليغ المئاتِ من السكان المقدسيين بأنّ تصريحَ الإقامةِ الدائمةِ قد انتهى ولهذا فعليهم تركُ القدسِ وتسليمُ هوياتهم، ووُجّهت هذه الإجراءاتُ على وجه الخصوصِ للمقدسيين المقيمين خارجَ حدود بلدية القدس. وطُبّقت بأثرٍ رجعي، مما عرّض الألوفَ منهم إلى خطر سحبِ الإقامةِ الدائمةِ وشطبِ أسمائهم من سجلات السكّانِ، بحجّة أنّهم نقلوا مركزَ حياتهم إلى خارج المدينة أو البلادِ. ولوحظ أنّ حملةَ مصادرةِ هوياتِ الإقامةِ قد تصاعدَتْ في عهد حكومةِ اليمين الصهيوني (برئاسة نتنياهو) لكنّها استمرّتْ في عهد حكومة باراكَ. وحسب إحصائية فلسطينية بلغَ عددُ المقدسيين الذينَ صودِرَتْ هويةُ إقامتهم في المدينة خلالَ السنوات ١٩٩٦-١٩٩٩م ما مجموعُهُ ٢٩٥٥ حالة مبلّغاً عنها، وذلك من أصل نحو ٦١٧٩ حالةً مصادرةً للهويات المقدسية منذُ العام ١٩٦٧م.

تعبيراً عن الرفض التام للإجراءات الصهيونية، أقامت عشراتُ العائلاتِ المقدسيةِ اللواتي سُحبت هوياتُهم مخيمَ الصمودِ والرباطِ على أرضٍ وقفيةٍ في حي الصوانة المقدسيِّ، بهدف الضغطِ على سلطات الاحتلالِ وحملِها عن التراجع عن إجراءاتها والكفّ عن حرمان العربِ من الإقامة في مدينتهم. ولكن وفي الوقت ذاته، وكردِ فعل عكسي شهدت مدينةُ القدسِ عودة كثيفة من أبنائها إلى الاستقرار في مدينتهم، ونشطت مؤسساتٌ أهلية وغيرُ حكوميةٍ في تمكين العائلاتِ من مواجهة الظروف القاسية التي تكتنف الإقامةَ في المدينة. وقامت أطرٌ وفعالياتٌ فلسطينيةٌ بتنظيم أنشطةٍ إعلاميةٍ وحقوقيةٍ وسياسيةٍ واجتماعيةٍ ترمي إلى تعزيزِ صمودِ أبناءِ القدس.

أقلقتْ هذه الظاهرةُ السلطاتِ الصهيونيةَ، فحاولت تهدئةَ التوتّرِ باعتماد

مناورة جديدة تقضي بالكف عن سحب هويات المقدسيين (أواخر العام ١٩٩٩م) وأخذت تُطبقُ مناورتها هذه بصورة محدودة، وذلك بانتظار فرصة أخرى يتمّ الإعدادُ لها وتكون بمثابة حلّ جذريّ يترتّبُ عليه تفريغُ القدس من أكبر عدد من مواطنيها العرب.

في إطار التوجّهات الصهيونية المستقبلية إزاءَ مسألة المواطنة المقدسية للعرب في المدينة وضَعَ طاقمٌ مِنَ المسؤولين والخبراء والصهاينة خطةً جديدةً، من المتوقّع تطبيقُها لدى إنضاج ظروفها الذاتية، تتضمّن تقسيمَ العرب في القدس إلى خمس مجموعات، كما يلي:

- المجموعة الأولى: تشملُ سكانَ القدس الشرقية الذينَ شَملَهمُ الإحصاءُ الصهيونيُّ عامَ ١٩٦٧م، والذينَ يقطنون رسمياً داخلَ حدود بلدية القدس ويحصلون على تأشيرات إقامة دائمة. وهؤلاء تعترفُ السلطاتُ الصهيونيةُ بإقامتهم ويمكنُهُمُ الحصولُ على حقوقهم الإدارية والاجتماعية والخدمية.. إلخ.

- المجموعة الثانية: تشملُ سكانَ القدس الذين كانوا يحملون تأشيرةَ الإقامة الدائمة التي أُلغيَت من قِبَل السلطات الصهيونية لأسباب متعددة، ويقيم هؤلاء في تجمّعات محيطة بالقدس ويبلغ عددهم نحوَ ٧٠ ألف مواطن. وترى سلطاتُ الاحتلال أنّ من حقّ أولئك السكان الاحتفاظُ ببطاقاتهم (الزرقاء) لتكونَ بمثابة تصريح لعبورهم الخطَّ الأخضرَ لكنْ يتمّ حرمانُهم من الحقوق المدنية والاجتماعية والصحية والتعويضات ولا يملكون حقَّ المواطنة في القدس.

- المجموعة الثالثة: تتكونُ ممّن جاؤوا للسكن في القدس عن طريق جمع الشمل، وكان هؤلاء يعامَلونَ كمقيمين أجانبَ، ثم سُمِحَ لهم بالإقامة الدائمة، وتعتزمُ السلطاتُ الصهيونيةُ حرمانَهم من جميع حقوقهم الاجتماعية والصحية.. إلخ.

- المجموعة الرابعة: تضمّ مواطني القدس الذي يقيمون فيها لكنّهم يحملون بطاقات الضفة الغربية (مثلَ سكان: بيت حنينا القديمة، الشيخ سعد، بيت إكسا، الولجة، بيرعونة) ممن ليس لهم مدخلٌ أو مخرجٌ بينَ قراهم والمناطق المجاورة إلا عبر حدود بلدية القدس الغربية الكبرى. وهؤلاء ستكون بطاقاتُهم شبهَ تصاريحَ خاصة

تخوّلهم الدخولَ أو الخروجَ إلى مناطقهم وإلى حدود غربيِّ القدسِ فقط، دونَ منحِهم حقَّ المواطنةِ المدنيةِ والاجتماعيةِ وسواها، وعدم اعتبارهم مواطنين مقدسيِّين، على الرغم من استمرارِ فرضِ الضرائب على ممتلكاتِهم وأنشطتِهم.

– المجموعة الخامسة: تتألفُ من سكان القرى الفلسطينيةِ المحيطةِ بالقدس التي شملها حقُّ الاقتراع للمجلس التشريعي الفلسطيني (مثل: العيزرية، أبو ديس، بدو، حزما، مخماس، الرام) وهي تجمّعاتٌ لن يكونَ لسكّانها أيُّ حقوقٍ ويمكنهم الحصولُ على تصاريحِ دخولِ القدس، مع إرغامِهم على دفع الضرائبِ لأنّهم ينتمون إلى المجالِ «الإسرائيلي»، بينما سيكونون من الناحيةِ الإداريةِ تابعين للسلطةِ الفلسطينية.

إنّ من شأنِ تطبيقِ هذه الخطةِ إضافةَ تعقيدٍ آخرَ إلى مواطنة العرب في القدس، وسوف يترتّب على ذلك تقليصُ أعدادِ هؤلاءِ العربِ، وحصولُ الكيانِ الصهيوني على مكاسبَ سياسيةٍ وعمليةٍ تسرع وتأثّر في تهويد المدينةِ.

إزاءَ هذا الواقع المؤلم لسكان القدس بشكل خاص والفلسطينيين بشكل عام انطلقت انتفاضة الأقصى التي تحوّلت على الساحة العربية-الإسلامية إلى قوةِ توحيدٍ هائلةٍ يكاد لا يضاهيها أيُّ حدثٍ آخرَ، ففي الدائرة الأولى استقطبت المواجهةُ جميعَ شرائح الشعبِ الفلسطيني وقواه وفعالياته في الضفة والقطاع، وتلاشى «الخطُّ الأخضر» بانخراطِ عربِ فلسطينَ المحتلةِ منذ ١٩٤٨م في الانتفاضة، مؤكّدين بالشهداء والجرحى والخسائرِ الماديةِ وحدةَ الشعبِ والأرضِ والقضيةِ، ومعبّرين عن مركزيةِ القدسِ في انتمائهم الدينيّ والوطنيّ. وفي الدائرةِ الثانيةِ عمّتْ مواقفُ التأييدِ والتضامنِ مع الانتفاضةِ مختلفَ العواصمِ والمدنِ العربيةِ والعالميةِ. وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على مكانةِ القدسِ والمدافعين عنها لدى العرب والمسلمين وقوى السلم والحرية في العالم.

وفي هذا المنحى، أفضتِ انتفاضةُ الأقصى إلى جملةٍ من الدروسِ والعِبَرِ التي عمّقت مساريْها بين مجملِ ثوابتِ الصراع العربي الصهيوني، وفي مقدّمتها:

– في زمن الأفرادِ قد تستطيعُ سلطاتُ الاحتلالِ أنْ تحقّق نصراً عسكرياً أو أنْ

تفرضَ الأمرَ الواقعَ بالقـوة الغاشمة، بيدَ أنّه في «زمن المجمّعات» يخسر الصهيونيّون أيَّ معركةٍ حتى قبـل أنْ تبدأ، بفعل القدرةِ الواعدةِ في الجانب العربيِّ الإسلامي.

- إنّ السيطـرةَ الصهيونيةَ على القدس جعلت المدينةَ والمسجـدَ الأقصى أقربَ إلى المسلم من ظلّه، وأنّ لعبةَ الموتِ التي تمارسها قواتُ الاحتلالِ أخفقت في بلورة حالةِ الردع التي يتوخّاها الصهيونيّون.

- أثبتت عملياتُ إطلاق النارِ وإجراءاتُ الإغـلاق وحرمانُ المسلمين من الوصول إلى الحرمِ القدسيِّ أنّ سلطاتِ الاحتلالِ تسعى إلى مواصلـةِ نهجها عبرَ تأجيج المشاعر وتصويـر الأمـرِ علـى أنّه مجـرّدُ كراهيةٍ إسلاميـةٍ لليهود. وفي هـذا تزييفٌ لطبيعة الصـراعِ وأسبابِه المتعلقةِ باغتصاب الأرضِ وتهجـير سكانِهـا، وتغطيةٌ علـى المساعي الراميةِ إلى شلِّ قدرةِ الباقين في الوطن على البقاءِ والصمود.

- تشـكّل قضيةُ القدسِ مدخلاً واسعاً للتاريـخ الحقيقّي الـذي يكتبـه الشهداءُ والجرحـى بدمائهم، كبديـلٍ لرواية التناخ (العهد القـديم) وللأضاليل والترهاتِ التي روّجها العابثـونَ بهذا التاريخ. وفي ضوء ما يجـري، فمن غيرِ الممكن عزلُ هذهِ القضية عن مجمـلِ الموضوعاتِ التي يـدور حولها الصراع.

- يمكن، منذُ الآنَ، اعتبارُ أيِّ حلٍّ وسطٍ «قد يتمّ التوصلُ إليه بشـأن القدسِ، قنبلةً موقوتةً قابلةً للانفجـار في أيِّ لحظة، لأنّ حلاً كهذا سوفَ ينتقصُ بالضرورة من الحقّ العربيِ الإسلامي الثابتِ في القدس، ويعطي لليهود شرعيةً ترفضُ الأمةُ التسليمَ بها.

توكّـد هذهِ الدروس أنّ الاحتلالَ يواجهُ أفقـاً مسـدوداً. فقضيـة القدسِ تختزل في سياقهـا الطبيعـي صراعَ الوجـودِ بينَ نقيضين يتعـذّر التوفيقُ بينهمـا، أولاهما استمرارُ العملِ لاستكمال المشروع الصهيوني الاحتلالي، وثانيهمـا رفضُ الأمةِ الانصياعَ إلى مشيئة أعدائِها، مهما بلغت قوتُهم.

وفي خضم هذا الصـراع فالأملُ معقودٌ على المخلصين من العربِ والمسلمين لإنقاذ القدسِ مـن براثن الاستعمـارِ الاستيطاني الصهيوني وعودتِهـا عاصمةً لفلسطين، ولا سبيلَ إلى ذلك إلاّ بوحدةِ العربِ، فبالوحدةِ تعودُ القدسُ وبالفرقة لن تعود.

المراجع:

- حسين، غازي: الاستيطان اليهودي في فلسطين من الاستعمار إلى الامبريالية، اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٣م.
- روبرتس، ج.م. ترجمة فارس قطّان: موجز تاريخ العالم ج١، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ٢٠٠٤م.
- زريق، قسطنطين: الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول (معنى النكبة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان ط٣ – ٢٠٠١م.
- سويد، ياسين: الفن العسكري الإسلامي، أصوله ومصادره، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
- هيكل، محمد حسنين: الانفجار، حرب الثلاثين سنة ط١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة – مصر.
- وايزمن، حاييم: مذكرات حاييم وايزمن، دار الفنون للطباعة والنشر، بيروت، ودار قانون النهر للأبحاث والدراسات الإنسانية، صور ٢٠٠٦م.
- يوسف، محسن: سكان القدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، مجلة المؤرخ العربي (العدد ٥٧ – ١٩٩٩م)، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب – بغداد – العراق.

حائط البراق الشريف

المسمى خطأ بحائط المبكى

شمس الدين العجلاني*

بدأت الحركة الصهيونية مسيرة التنقيب حول المسجد الأقصى بحثا عما تدعيه من بقايا هيكل سليمان عام ١٨٩٠ باسم «جمعية صندوق استكشاف فلسطين» بهدف إيضاح ما جاء في التوراة وتأكيد مزاعمها حول حق اليهود التاريخي في فلسطين العربية.. وتوالت الجمعيات والمؤسسات والمنظمات بأسماء مختلفة ومتعددة في البحث والتنقيب حول وتحت المسجد الأقصى، بهدف واحد هو إثبات المزاعم اليهودية الصهيونية في هيكل سليمان المندثر..

* باحث وكاتب في التراث العربي (سورية).

وعلى مر السنــين تثبت هذه الحفريات والتنقيبات أنه لا وجود لآثار هيكل سليمان في مدينــة القدس العربيــة، لقد قال العلم والتاريــخ كلمته بالنسبة لهيكل سليمان فقد أكدت الدراسات أنه لا يوجد أي آثار عبرانية تعود إلى الــدور الأول من العصر الحديدي «١٢٠٠ – ٥٩٠٠ ق.م».

هذا مع العلم أن الدكتورة كاثلين كينون قامت عام ١٩٦٠ بإعادة التنقيب في الأماكن التــي سبق وأن جرى فيهــا التنقيب الأثري وذكــرت في تقريرهـــا أن المكتشفــات التي توصلــت إليها لم تكن إلا من العصر اليوناني في القرن الثاني ق.م. وكذلك جاء في تقرير البروفســور اليهودي بنيامين مــازار الذي أصدرته الجمعية الأثريــة الإسرائيلية عام ١٩٧٠ أن الجدار الجنوبي للأقصى هو بناء إسلامي وما تحت الآثار الإسلامية تعود إلى أيام مدينة «إيليا»، وكذلك نفت عدة مصادر أخرى يهودية وغربيــة أن يكون لما يسمى بـ «حائــط المبكى» أي علاقــة بهيكل سليمان المندثر.. في حــين تؤكد الحركة الصهيونية الآن أنــه الجزء المتبقي من هيكل سليمان.. فالأنسيكلوبيديــا اليهودية التي نشرت عام ١٩٠١ لم تتضمن مادة تتعلق «بحائط المبكى» تحــت أي اسم، غير أن تلك التي نشرت عام ١٩٣٩ تضمنــت مادة عــن الحائط المذكور مع اسمه اليهــودي.. وأيضا الانسيكلوبيديا الصــادرة عن جامعــة كولومبيا عام ١٩٦٤ تحت اســم كولومبيا فايكتــغ دسك أشارت في الصفحة ٩٠٢ تحــت مادة القدس فقرة المسجــد الأقصى ما يلــي: «جزء من جدار الحرم يعتقد أنه مصنوع من حجارة مأخوذة مــن معبد سليمــان وهذا المسمــى «حائط المبكــى» مقدس لدى اليهــود. وأيضا أشار الشيخ عبد الحميد السائح نقلا عن الأستاذ العامري عــن دائرة المعارف البريطانية، أنه ليــس من المؤكــد أن الهيــكل كان في حرم المسجد الأقصى (مجلــة القدس العدد ٢١ تاريخ ١/٨/١٩٨١).

وفي مذكرة قدمها الأستاذ رفيق الدجاني مدير الآثار الأردنية إلى لجنة المتخصصين في الحفريات التي عقدتهــا إدارة فلسطين – الأمانــة العامة للجامعــة العربية – عام ١٩٧١ ذكــر فيهــا أن الحفريــات منذ أكثر من قــرن فشلــت في العثور علــى إثباتات قاطعــة مقنعة مــن آثار الهيــكل في الحرم الشريــف.. وفي مقابلة صحفيــة (صحيفة تشريــن أيلول ١٩٨١) مــع الدكتور هورست كلينغــل مدير الدراســات الشرقية القديمة في أكاديميــة العلوم بألمانيــا الديمقراطية

ذكر: «هذه الحفريات لا تتم لهدف علمي بل تمثل استثارة واستفزاز للشعب العربي لأن هذه التنقيبات من وجهة النظر العلمية الحقيقية لا حاجة لها إطلاقا. ومن المبادئ المعروفة في علم الآثار احترام النصب والآثار المعمارية والتاريخية. فمثلا لو كان هناك معبد تاريخي هام تحت الجامع الأموي بدمشق أو تحت الجامع الكبير في حلب لما جاز هدمها بحجة التنقيب عن ذلك المعبد، كما لا يجوز مثلا هدم أثار تدمر للبحث عن آثار أخرى تحتها».

ومع كل ذلك يحفرون وينقبون ويبحثون.. أحاطوا القدس العربية بمستعمراتهم الإرهابية.. هدموا معالمها العربية.. أعلنوها عاصمة أبدية لهم ومنحوها زورا وبهتانا جنسيتهم العنصرية.. وما زالوا يحفرون وينقبون، لقد سرقوا كل شيء الزيتون والقمر وزرقة السماء، وصادروا كل شيء الطفولة والبسمة والتاريخ.. وما زالوا يحفرون وينقبون والمدينة المقدسة صامدة وأبناؤها صامدون يدافعون عن المسجد الأقصى بالبندقية وغصن الزيتون ويستصرخون أبناء الوطن العربي الكبير من المحيط إلى الخليج لتحريره من نير الاستعمار الصهيوني..

الجدار الغربي للمسجد الأقصى:

يحيط بالمسجد الأقصى من جهاته الأربع سور الحرم الشريف وهو سور عظيم منيع عنيَ المسلمون به وبما حوله في مختلف العصور لما له من التأثير في المحافظة على هذا المسجد المبارك، أنشؤوا فوقه المدارس والزوايا وحبسوا ما حوله من الخارج أوقافا حتى أصبح محاطا حينئذ داخلا وخارجا بألوف المتعلمين والعابدين والزائرين.

وفي الساحة من القسم الغربي من هذا السور مكان له قيمة عظمى عند المسلمين لأنه موضع البراق الشريف نسبة إلى براق النبي، صلى الله عليه وسلم، ليلة الإسراء. فكان له منهم عناية خاصة، إذ حبسوا ما يحيط ويتصل به أوقافا على المسلمين وعلى زاوية الشيخ الإمام العالم العارف أبي مدين شعيب بن الشيخ المجاهد العالم أبي عبد الله محمد بن أبي مدين شعيب المغربي. وأنشئت هنالك منازل الوقف متراصة بحيث أحاط المسلمون سكانها بمكان البراق الشريف من الخارج إحاطة مؤدية إلى حراسته. وقد بلغ من تراص هذه المنازل حول هذا المكان الذي هو جدار الحرم وبقية أبنية هذا الوقف استعمل ممر ليسلك منه السكان المسلمون إلى منازلهم.

هذا المر الخاص الموقوف وقفا إسلاميا

لم يمانع المسلمون فيما مضى الزائرين والسائحين على اختلاف طوائفهم وأديانهم وفي جملتهم اليهود من الوقوف للنظر إلى تلك الناحية التاريخية الأثرية من الخارج.

غير أن اليهود أخذوا تدريجا يقلبون هذه الزيارة العادية إلى مراسم دينية، الأمر الذي انتبه إليه المسلمون في حينه وأخذوا يقفون دون أية محاولة من هؤلاء الطامعين يخرجون بها عن حدود الزيارة العادية.

مطامع اليهود ومحاولاتهم قبل الاحتلال:

يرمي اليهود منذ أمد بعيد إلى غاية رهيبة هي انتزاع المسجد الأقصى من يد المسلمين بزعم أنه (الهيكل)، ولكنهم لم يكونوا يصرحون هذا قبلا لأن البلاد المقدسة كانت في حراسة المسلمين أنفسهم، وإنما كانوا يحاولون من آن لآخر إغفال ذوي الشأن والاستفادة من إباحة الوقوف خلف الجدار المذكور ليمنحوا تساهلا أوسع.

ولكن هذه المحاولات لم تكن تجديهم نفعا رغم ما كانوا يتوسلون به من شتى الوسائل وخصوصا في عهد الحكومة العثمانية. فقد دأب زعماؤهم على التوسل إليها بمختلف الطرق وبألوان من المطالب التي قد تخفي تحتها تلك الغاية من تأسيس حق لهم في ذلك المكان الإسلامي المقدس يكون خطوة في سبيل تحقيق مطامعهم الرهيبة، فكانوا يحاولون حينا أن يصحبوا معهم كراسي ومقاعد يجلسون عليها وحينا آخر يحاولون وضع موائد ومصابيح وغيرها.

غير أن ولاة الأمور حينذاك كانوا يحظرون عليهم ذلك ويقمعونه بشدة ويمنعونهم من أن يتجاوزوا الزيارة العادية بوضعها وشكلها إلى أيسر يسير، كما ظهر ذلك من الوثائق ومن قرارات (مجالس إدارة اللواء) في زمن الحكومة العثمانية.

محاولات اليهود بعد الاحتلال البريطاني:

لم يكن فشل اليهود المتكرر في عهد السلطات الإسلامية ليقلع بهم عن تلك المطامع الرهيبة، ولكنها خبت في نفوسهم كما تخبو النار تحت الرماد.

فما أن كان الاحتلال وما أن منحو الوعد البريطاني القومي اليهودي بفلسطين حتى تطاير ذلك الرماد وعادت تلك المطامع تتأجج وظهر لهيبها على ألسنة زعمائهم وغوغائييهم في جميع العالم، فأخذوا يعلنون ما كتموا متخذين من الاحتلال والوعد بالوطن القومي قوة ظنوها كافية لتحملهم من الاستهانة بالرأي العام..

حائط البراق الشريف :

تطالعنا وسائل الإعلام المختلفة و منها العربية بين الفينة و الأخرى بأخبار حول المسجد الأقصى و يذكرون اسم حائط البراق الشريف خطأ باسم حائط المبكى و هو التسمية اليهودية ظهرت كما سيمر معنا حديثا..

يطلق الصهاينة اسم حائط المبكى على حوالي ثلاثين مترا من الحائط الغربي للحرم الشريف البالغ طوله ١٠٠م وعلوه ٢٠م ويزعمون أن هذا الجزء من الحائط هو الأثر المتبقي من هيكل سليمان.

إن هذه الناحية من الجدار، هي مكان البراق الشريف نسبة لبراق النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ليلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وإن المسلمين في جميع الأقطار يجلون الإسراء الذي جاء نصا في القرآن الكريم. وهذا الجدار هو جدار المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين، الذي هو عند المسلمين عامة بمنزلة حرم مكة المشرفة وحرم المدينة المنورة، وكل جزء من الحرم الشريف وكل جدار يحيطه بما فيه هذا الجدار الغربي هو في عقيدة المسلمين جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى المبارك الذي أشار النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى فضل زيارته والصلاة فيه، وشد الرحال إليه، من أدنى الجهات وأقصاها.

هذا ويمتد أمام هذا الحائط رصيف بعرض أربعة أمتار تقريبا وعلى مسافة قصيرة من الرصيف وإلى الجنوب منه يتشكل ضمن الحائط تجويف صغير تذكر الكتب الدينية الإسلامية أن الرسول العربي محمد «صلى الله عليه وسلم» ربط براقه «دابته» به أثناء إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى لقوله «صلى الله عليه وسلم» أتيت بالبراق فركبته، حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء. (رواه أنس بن مالك) ومنذ ذلك التاريخ يطلق اسم البراق الشريف على هذا الحائط تيمنا بربط الرسول «صلى الله عليه وسلم» لبراقه به.

وتعود تاريخ أحجار هذا الحائط إلى عصور مختلفة فالأحجار المنحوتة الضخمة في أسفله تعود إلى زمن هيرودوس ويعلوها أحجار غير منحوتة تعود إلى العصر الروماني والطبقات العلوية من الحجارة تعود إلى عام ١٥٠٠م وذلك حسب رأي أغلبية علماء الآثار.

وقصة (حائط المبكى) بدعة ابتدعها

زعماء الصهاينة حديثا لربط اليهود من جميع أنحاء العالم بأي أثر مقدسي لهم في فلسطين يثير مكامن الشعور فيهم بغية تجميعهم لإعادة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى، وبعد أن رأى هؤلاء الصهاينة أن قضية الحائط تجاوزت أهميتها الدينية إلى الناحية السياسية التي يمكن استغلالها على صعيد أوسع وأشمل أكدوا من خلال مؤتمراتهم ووسائل إعلامهم المختلفة. أن هذا الجزء من حائط البراق الشريف هو في الأصل جزء باق من هيكل سليمان لذا يجب الكشف عنه وإلحاقه بالممتلكات الدينية اليهودية.

وأوضح دليل على أن قضية حائط المبكى هي قضية مستحدثة أن الموسوعة اليهودية التي نشرت عام ١٩٠١ لم تشر من قريب أو بعيد إلى أية مادة تتعلق بالحائط المذكور مع اسمه اليهودي «حائط المبكى» بينما تلك التي نشرت عام ١٩٣٩ تضمنت مادة تتعلق بالحائط مع اسمه اليهودي وعلى أنه من بقايا هيكل سليمان..

هذا وحين اشتد ساعد اليهود في فلسطين العربية بدعم من الاستعمار الغربي أخذوا يتقربون من الحائط لإضفاء الصفة اليهودية عليه وتغيير وضعه التاريخي وصفاته الإسلامية، فبدؤوا يتسللون إليه ويضعون حوله الستائر ويضيئونه بالمصابيح ويتجمهرون حوله أيام السبت وهذا مما أثار حفيظة المواطنين العرب ضد المحاولات اليهودية الرامية إلى قرار حقوق ثابتة لهم في حائط البراق الشريف.. وبدأت الاشتباكات اليومية بين العرب واليهود إلى أن بلغت ذروتها عام ١٩٢٩، مما اضطر الحكومة البريطانية آنذاك للتدخل للحد من انتفاضة الشعب العربي، فطلبت من عصبة الأمم المتحدة «الأمم المتحدة حاليا» تشكيل لجنة للتحقيق في ملكية الحائط واتخذت عصبة الأمم قرارا يقضي بتشكيل لجنة دولية للتحقيق في ملكية حائط البراق الشريف وكانت مهمة هذه اللجنة:

(تسوية الحقوق والمطالب للعرب واليهود).

وفي ٢ أيار من عام ١٩٣٠ تشكلت هذه اللجنة من:

١ - الياس لوففون: وزير الشؤون الخارجية في حكومة أسوج سابقا وعضو مجلس الأعيان رئيسا.

٢ - تشارلس باردي: رئيس محكمة

العدل في جنيف ورئيس محكمة التحكيم النمساوية – الرومانية المشتركة عضوا.

٣ – فان كمبن: حاكم الساحل الشرقي لجزيرة سومطرة سابقا عضوا.

وبتاريخ الخامس من أيار من عام ١٩٣٠ وافق مجلس عصبة الأمم على مباشرة اللجنة عملها فاجتمعت اللجنة لأول مرة في جنوى ومن ثم انتقلت إلى القدس العربية بتاريخ ١٩حزيران ١٩٣٠ وعقدت هناك ٢٣ اجتماعا في الفترة الواقعة بين ٢٢ حزيران و ١٩ تموز استمعت خلالها إلى العديد من المواطنين والأهالي العرب بالإضافة إلى المستوطنين اليهود وتقدم إلى اللجنة ٢٩شاهدا استدعاهم وكلاء فريق المسلمين، ومن أبرز وكلاء المسلمين أمين عبد الهادي، أمين التميمي، فخري الحسيني، الشيخ حسن أبو السعود، الشيخ راغب الدجاني، مقابل ٢٢ شاهدا استدعاهم وكلاء فريق اليهود، ومن أبرز وكلاء اليهود هم: المحامي مردخاي الباشي و داوود أيلين والحاخام موشي بلاو. وأبرز وكلاء المسلمين ٢٦وثيقة ومستند تثبت ملكيتهم لحائط البراق الشريف مقابل ٣٥ وثيقة أبرزها اليهود، وقد توصلت اللجنة إلى عدة قرارات ورفعتها إلى عصبة الأمم في شهر كانون الأول من عام ١٩٣٠ كان من أهمها:

– للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءا لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف الإسلامي.

إن أدوات العبادة وغيرها من الأدوات التي يحق لليهود وضعها بالقرب من الحائط بالاتفاق بين الفريقين، لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تعتبر أو أن يكون من شأنها إنشاء أي حق عيني لليهود في الحائط أو في الرصيف المجاور له.

– يمنع جلب المقاعد والسجاجيد والحصر والكراسي والستائر والدواب إلى الحائط.

– لا يسمح لليهود بنفخ البوق بالقرب من الحائط.

هذا وقد توصلت اللجنة الدولية إلى قرارها هذا في كانون الأول سنة ١٩٣٠، ورفعت نسخة إلى الحكومة البريطانية، ونسخة أخرى إلى مجلس جمعية الأمم «الأمم المتحدة حاليا».

ويعتبر قرار هذه اللجنة أول وثيقة دولية تثبت حق العرب والمسلمين في ملكية حائط البراق الشريف..

ومع كل ذلك لا زالوا يحفرون وينقبون ويبحثـون.. عن أي أثر يثبت زعمهم الباطل في هيكل سليمان الذي قال التاريخ كلمته به و أنه هدم و خرب و اندثر آخر مرة على يد القائد الروماني طيطس في شهر آب من عام ٧٠ ميـلادي.. وما زالوا يحفرون وينقبون، لقد سرقـوا كل شيء الزيتون والقمر وزرقة السماء وصادروا كل شيء الطفولة والبسمة والتاريـخ.. وما زالـوا يحفـرون وينقبون والمدينة المقدسة صامدة وأبناؤها صامدون يدافعون عـن المسجد الأقصـى بالبندقية وغصن الزيتـون ويستصرخون أبناء الوطن العربـي الكبـير مـن المحيـط إلى الخليج لتحريره من نير الاستعمار الصهيوني..

مكانة القدس في المناهج المدرسية

أحمد حسن الخميسي *

القدس مدينة عريقة ضاربة في أعماق التاريخ، تنظر إليها الشعوب والقبائل والدول نظرة احترام وتقدير، لما لها من ماضٍ مجيد، وحاضر نضالي مشهود ومستقبل بالتحرير موعود، ولما فيها من آثار وأماكن خالدة، تُذَكِّرُ بعبقريّة الإنسان، وعبق الزمان، وطهارة المكان.

لذلك كله لاقت القدس الاهتمام البالغ قديماً وحديثاً، فقد ضحّى من أجلها الأجداد ويستشهد في سبيل تحريرها الأحفاد، وتحتفي بها وسائل

* مدرس وباحث تربوي (سورية)

الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، فهي من أكثر مدن العالم حضوراً على شاشات التلفزة والفضائيات لمكانتها في الماضي والحاضر، ولما يجري فيها من أحداث.

وقد أجمع العالم على أن تكون هذه الدرّة (مدينة القدس) عاصمة للثقافة العربية لعام ١٤٣٠ هـ-٢٠٠٩ م.

ولكي ينشأ أبناء الأمة على حب وطنهم والذود عنه، ويعرفوا خصائص المدن و مكانها ومكانتها، اعتنت المناهج المدرسيّة بالقدس الشريف، فما من كتاب إلا وفيه خارطة فلسطين ماثلة في صفحاته، وقبة الصخرة شامخة في مصوراته.

وسنقلب الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية التي هي جزء من التعليم الأساسي في الجمهوريّة العربية السوريّة، لنرى كيف يتعرف أطفالنا على مدينة القدس التي تحتل القلب في الوطن العربي الممتد من المحيط الأطلنطي إلى الخليج العربي.

أهداف المناهج المدرسيّة:

مما تهدف إليه المناهج المدرسيّة في سورية: تربية الأطفال على الجوانب المعرفيّة والقيّمية والجماليّة.

فكيف قُدّمت مدينة القدس ضمن هذه الجوانب؟

إنّ مدينة القدس وردت في كتب التاريخ والجغرافية والقوميّة والقراءة والتربية الإسلاميّة في المرحلة الابتدائيّة، وفي كل كتاب من هذه الكتب يتم التركيز على جانب من الجوانب التي تتعلق بمدينة القدس.

فكتب التاريخ قدمت معلومات تاريخية، وكتب الجغرافية قدمت معلومات جغرافيّة وكتب التربية الإسلامية وكتب التربية الوطنيّة قدمت قيماً ومبادئ حول مدينة القدس، وقدمت القراءة والنشيد والمطالعة جوانب أدبية وجماليّة.

وسنرى ذلك جلياً في الفقرات التالية:

القدس في التاريخ المدرسي:

ينبغي للتلاميذ في المرحلة الابتدائية أن يتعرفوا على تاريخ الأحداث الرئيسية التي مرت بها أمتهم، فيعلموا زمانها ومكانها.

ومن المدن التي شغلت حيزاً من التاريخ في المرحلة الابتدائية (مدينة القدس) فقد جاء الحديث عن تاريخها القديم وتاريخها العربي والإسلامي وما حدث في القرن العشرين بشكل موجز، يفي بالغرض الذي وضعت المادة من أجله.

فعن تاريخ القدس في القديم يقرأ التلاميذ: (غزا العبرانيون بعض الممالك الكنعانيّة، وتمكنوا منها بأساليب الغدر

والخديعة مستغلين عدم وجود دولة موحدة تقف في وجه أطماعهم، فاحتلوا أريحا وارتكبوا فيها فظائع تشبه مذبحة دير ياسين، كما احتلوا يبوس (القدس) وشكيم (نابلس)[1]. وعن تاريخ الفتح الإسلامي ورد ما نصه: (في عهد الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- تمكن المسلمون من استكمال تحرير سائر المدن الهامة في بلاد الشام، فأصبحت دمشق وحمص وحلب وجميع المدن الأخرى جزءاً من الدولة العربية والإسلامية ما عدا مدينة القدس التي اشترط أهلها حضور الخليفة عمر بنفسه لتسليمه المدينة، وقد حضر الخليفة وكتب لأهل القدس عام ١٥هـ/٦٣٦م عهداً بممارسة حريتهم الدينيّة والمدنيّة، مما جعله ميثاقاً مشرقاً في تاريخ الإنسانيّة لما يحمله من قيم الحريّة والتسامح والسلام)[2].

وتعرضت القدس بعد الفتح الإسلامي للغزو الصليبي، وحدثت معركة حطين وتحررت القدس على يد صلاح الدين.

فماذا يعرف التلاميذ عن تلك المعركة وعن بطولة صلاح الدين؟

«سيطر الإفرنج على القدس والمدن الفلسطينيّة مهد الحضارات والديانات السماويّة، وكانت بينهم وبين العرب هدنة معقودة، خرقها أرناط أمير الكرك بتعرضه لقافلة عربية، وعندما علم صلاح الدين الأيوبي بذلك، أراد الانتقام من أرناط وإعادة الوجه العربي لمدينة القدس، فوحد جيوش العرب في جبهة واحدة تضم العراق والشام ومصر وفلسطين والتقى الجيشان بالقرب من بحيرة طبريّة حيث دارت معركة تحقق فيها النصر الساحق للعرب.

وتعتبر معركة حطين من المعارك الحاسمة في التاريخ، إذ وضعت حداً لعدوان الإفرنج، وطهرت أرضنا العربيّة من المعتدين»[3]

لقد وقفت الكتب المدرسيّة الابتدائية ثلاث وقفات تاريخيّة رئيسيّة:

الأولى: تأسيس الكنعانيين ممالكهم في بلاد الشام وفلسطين وغزو العبرانيين لهم، ثم فتح الجيش الإسلامي لمدينة القدس أيام الخليفة عمر بن الخطاب وبعدها الغزو الإفرنجي لفلسطين، وتحريرها على يد صلاح الدين الذي انتصر على الغازين في معركة حطين وطردهم من أرض فلسطين.

وفي العصر الحديث اجتياح إسرائيل للقدس في حرب حزيران عام ١٩٦٧ م واحتلالها وارتكاب الجرائم الفظيعة فيها، هذه الجرائم التي لا تزال مستمرة إلى أيامنا هذه.

ولكن هذه المرحلة لم تسلط عليها الكتب المدرسيّة الأضواء، ولم تتعرض لما تعانيه مدينة القدس من هدم لمقدساتها وحفر الأنفاق تحت مسجدها الأقصى وتغيير لمعالمها وحرق للمسجد أكثر من مرة والاعتداء على المصلين وقتلهم داخل المسجد وخارجه، فمن حق الأطفال أن يعلموا ماذا يفعل الصهاينة بمدينة القدس الخالدة، ليكون لهم موقفهم الشجاع في الوقت الحاضر وفي المستقبل من هذا الأخطبوط الذي يمد جذوره في ربوع بلادنا الحبيبة فلسطين.

تحديد المكان والزمان:

عرّفت الكتب المدرسيّة مدينة القدس بشكل واضح ومختصر، وحددت موقعها في الخريطة الجغرافيّة، وبيّنت مكانتها عند العرب والمسلمين، فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهي مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ومنها معراجه إلى السموات العُلا وفيها قبة الصخرة، وفيها كنيسة القيامة وفيها ما فيها من المعاني والمغاني التي تهفو إليها قلوب المؤمنين.

تحت عنوان «أهم المدن في فلسطين» يقرأ التلاميذ: «القدس: مدينة قديمة، عاصمة فلسطين، تضم عدداً من المقدسات: كالمسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة، وفيها مدن مثل: غزة، حيفا، عكا»[٤].

وتضمن المحور الوطني في كتاب القراءة للصف السادس بضعة دروس هي: فلسطين (قراءة)، أطفال الحجارة (قراءة)، يوم الأرض (نشيد)، تحرير الأرض المغتصبة (تعبير).

ورد في درس فلسطين: «تقع فلسطين من البلاد العربية موقع القلب من الجسد، فهي تتوسط البلاد العربية، وفيها مهد السيد المسيح، وبيت المقدس، والمسجد الأقصى أولى القبلتين» [٥]

وقد بيّنت عدة مصورات في كتاب الجغرافية والتاريخ موقع القدس في فلسطين وفي العالم العربي والعالم.

وبعد أن عرف الأطفال موقع القدس وما فيها من المقدسات، عرفوا قيمة القدس التاريخية والدينيّة والقوميّة من خلال العبارات والمعلومات والتوجيهات التي تضمنتها الكتب المدرسيّة.

فالقدس مهوى أفئدة المسيحيين لأنَّ فيها كنيسة القيامة، وإليها توجه المسلمون في صلاتهم قبل أن يأمرهم الله بالتوجه إلى الكعبة المشرفة وهي مدينة الأنبياء وهي مكان إسراء ومعراج خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام.

فماذا ذكرت الكتب المدرسيّة عن الإسراء والمعراج؟ لقد ورد في كتاب التربية الإسلاميّة للصف السادس ما يلي:

- الإسراء: هو ذهاب الرسول صلى الله عليه وسلّم ليلاً من المسجد الحرام بمكة إلى بيت المقدس في فلسطين وصلاته في المسجد ورؤيته الأنبياء والرسل عليهم السلام.

- أما المعراج: فهو عروج رسول الله صلى الله عليه وسلّم من بيت المقدس ومن فوق الصخرة المشرفة المعروفة الآن إلى السماء بصحبة جبريل عليه السلام.

كان الإسراء والمعراج في ليلة واحدة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وبعد عام الحزن، وقد سرى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بجسمه وروحه وكامل وعيه وإدراكه، ليس مناماً يراه النائم.

وعندما عاد إلى مكة طلب منه المشركون أن يصف بيت المقدس. فقال: دخلته ليلاً وخرجت منه ليلاً، كيف لي بوصفه؟

فإذا بجبريل عليه السلام يحمل صورة بيت المقدس لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فبدأ رسول الله يصفه باباً باباً وأبو بكر يقول صدقت... صدقت، حتى سمي يومها بالصديق».[6]

إنّ في قصة الإسراء والمعراج دروساً وعبراً، يستقيها التلاميذ، فيدركوا من خلالها أنّ للقدس مكانة سامية، وينظروا إليها نظرة إجلال لما فيها من دور للعبادة، ولأنها كانت محط رحال الأنبياء والعلماء وقواد التاريخ، ولما حوته من آثار تدل على عظم الأمم التي سكنتها على مر العصور.

ومما يعزز مكانة القدس في نفوس الأبناء ويعمق المعلومات في ذاكرتهم ونفوسهم -أيضاً- ذكر بعض الأسئلة في نهاية كل بحث، ليجيب عليها التلاميذ مثل: اذكر بعض المدن المقدسة في الوطن العربي؟[7]

ومن أين تستمد فلسطين قداستها في نظر العرب؟[8]

حب القدس والدفاع عنها:

يحرص مؤلفو الكتب المدرسيّة على غرس حب القدس في نفوس أبنائنا، ودعوتهم للدفاع عنها والاستعداد للقاء العدو، وذلك بالتسلّح بالعلم والتدريب على القتال في المستقبل.

وهذه الدعوة أخذت أسلوبين الأول تحريضي، وذلك بذكر بعض جرائم العدو وبطشه قديماً وحديثاً، مما يولد لدى التلميذ اندفاعاً لمقاومة الاحتلال ودفع جرائم العدو والانتصار عليه.

والثاني: دعوة مباشرة لاستنهاض الهمم وإذكاء الحميّة للذود عن المقدسات.

فبعد أن ذكر كتاب التاريخ فظائع العبرانيين في القدس ونابلس -كما مرّ سابقاً- قال: ما فعله العبرانيين في الماضي من جرائم وإرهاب هو ما يفعله الصهاينة اليوم في فلسطين والجولان. (٩)

ويدعو التلاميذ لأخذ العبرة والعظة من التاريخ واتخاذ صلاح الدين وغيره من الذين قاوموا العدوان قدوة لهم.

يقول بعد أن ذكر انتصار المسلمين في حطين: «ونحن اليوم جدير بنا أن نأخذ العبرة من تاريخنا العربي، ونعيد إلى فلسطين وجهها العربي المشرق الأصيل». (١٠)

وفي هذا الكلام شحذ لهمم التلاميذ ودعوة لقتال العدو كما جاهدهم البطل صلاح الدين.

لقد سطر المسلمون ملاحم البطولة في أرض المعارك، وضربوا أروع الأمثلة في تعاملهم مع الشعوب لأنهم عاملوهم بالرحمة والتسامح والسلام.

وذلك ما نلمسه في دخول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- مدينة القدس عام ١٥هـ -٦٣٦م وكتابته عهداً يسمح بممارسة أهل المدينة حريتهم الدينيّة والمدنيّة، مما يجعل هذا العهد ميثاقاً مشرفاً في تاريخ الإنسانيّة لما يحمله من قيم الحريّة والتسامح والسلام والعدالة.

هذا عن مكانة القدس الجغرافيّة ومكانتها في عقول المسلمين ونفوسهم.

فماذا عن الجوانب الأدبيّة والجماليّة لمدينة القدس؟

القدس في أدب الأطفال المدرسي:

لم يغفل أدب الأطفال في المدرسة الابتدائيّة عن قضية مدينة القدس، بل وقف عندها وقفات مضيئة، عبّر بالنشيد الملحن والقصة الفنيّة الهادفة والتعبير الجميل عن عظمة مدينة القدس في التاريخ وحبها في القلوب، ومشاعر الأطفال تجاهها، وإنها مدينة المدائن وعاصمة العواصم التي لن تنام لنا عين ولن يغفل لنا جفن حتى تغدو حرّة أبيّة كما كانت موئل العباد وأهل السلام والتسامح في العالم.

ولإيصال ذلك كله، احتوى المنهج المدرسي الابتدائي على نشيد «زهرة المدائن» للأخوين رحباني في كتاب لغتي الجميلة للصف الثاني الجزء الثاني، طبع الكتاب أول مرة عام ١٩٩٨م ونشيد «القدس» في دليل المعلم في التربية الموسيقيّة للصف الثاني الابتدائي، طبع أول مرة عام ١٩٩٧م وهو من كلمات

محمد نــور الدين الطوشي، ألحان إلهام أبو السعود.

وثمة قصة معبرة عن الواقع الفلسطيني في كتــاب «قصص مختــارة» المقرر للصف السادس بعنــوان «مظاهرة في غزة» للكاتب أديب النحوي.

ومن الأناشيــد الحلــوة المحببة لقلوب الأطفال نشيــد «فلسطــين داري» للشاعر سليمــان العيسى الــذي ورد في كتاب لغتي الجميلــة للصف الثاني، ونص فلسطين في كتــاب لغتي الجميلة للصــف الرابع الجزء الثاني الــذي طبع لأول مرة عــام ١٩٩٩م، يذكــر فيه القدس عاصمة فلسطين فيقول: هــي أجمل بقــاع الدنيــا وفيهــا المسجد الأقصى ثالث الحرمــين الشريفين وكنيسة القيامة...[١١].

وفي هذا النصــ يسأل معن والده: وهل من عودة يا أبي.

الأب: إنني لواثق، ولكن لا بد من الوحدة وتضافر الجهود العربية.

-ولكــي نتعرف على القيــم التي حاول أدب الأطفال أن يغرسها في نفوس التلاميذ، نقــرأ النشيدين ثم نرى مــا فيهما من قيم تتصل بالقدس والقضية الفلسطينيّة.

نشيد القدس

القدس ستبقى عربية
وستبقى نور الحريّة
وسنرفع راية أمتنا
شامخة رغم الهمجيّة
فوق ذراها
رغم المحن
فوق رباها
عبر الزمن
سيحررها الشعب العربي
ويزيل وجود المغتصب
ويعيد إليها بسمتها
لتكون منارة كل أبي
فالقدس لنا
رغم المحن
فالقدس لنا
عبر الزمن
وينادي كل الأطفال
ويصوت هدّار عال
القدس لأمتنا كانت
وستبقى عبر الأجيال
القدس لنا
رغم المحن
القدس لنا
عبر الزمن[١٢]

نشيد زهرة المدائن

لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي

يـا قدس يـا بهيـة المساكن يـا زهـرة المدائن

يا قدس، يا قدس

يا مدينة الصلاة أصلي

عيوننا إليك ترحل كلّ يوم

تدور في أروقة المعابد

تعانق الكنائس القديمة، وتمسح الحزن عن المساجد

الغضب الساطع آتٍ

وأنا كلي إيمان

الغضب الساطع آتٍ

سأدق على الأحزان

من كل طريق آتٍ

بجياد الرهبة آتٍ

البيت لنا

والقدس لنا

وبأيدينا للقدس سلام

للقدس سلام

للقدس سلام

للقدس سلام (١٣)

نجد في نشيد القدس تأكيداً على عروبة القدس، فهي عربية وستبقى عربية، لأن الشعب العربي مصمم على تحريرها لما ورد في النشيد:

سيحررها الشعب العربي

ويزيل وجود المغتصب

فالقدس لنا

رغم المحن

فالقدس لنا

عبر الزمن

وفي نشيد «زهرة المدائن» توجه إلى الله بالدعاء كي يحفظ هذه الزهرة من عبث العابثين وطمع الطامعين وجرائم المعتدين، فهي مدينة بهيّة في مساكنها، شامخة في مآذنها وكنائسها، ترفع رأسها تتحدى المصاعب والمحن، لأنها مدينة الوحدة والتسامح والسلام.

فلها منا التحية والسلام، ونحن عاقدون العزم على تحريرها:

الغضب الساطع آتٍ

وأنا كلي إيمان

الغضب الساطع آتٍ

سأدق على الأحزان

من كل طريق آتٍ

بجياد الرهبة آتٍ

مــا أجمــل أن يــردد الأطفــال هذين النشيديــن بكلماتهمــا الحلــوة الرقيقــة المعبرة وهم يرفعــون أيديهم ويسلمون وهم ينشدون.

وأخيراً: [إنّ المناهج المدرسيّة، قد قدمت صورة مبسطــة لمدينة القدس تناسب عقول الأطفال وفهمهــم، وزودتهم بثقافة تاريخيّة وجغرافيّــة، وغرســت فيهــم حــب الوطن والدفــاع عنه وخاصــة القدس والأماكن المقدسة في الوطن العربي.

نتمنــى أن يزداد هذا التوجه في المناهج المدرسيّة القادمة، ويتم التركيز على الصمود البطولي لشعبنا في الأرض المحتلّة ضد هذا العدو الصهيوني الذي يقتل الأبرياء، ويهدم البيوت، ويقتلع الأشجار، ويعيث في فلسطين فساداً ودماراً لتقوى في نفوس أطفالنا ثقافة المقاومــة وروح البطولة منذ الصغر ويشبوا على حــب الوطن والدفاع عنه، فإما النصر وإما الشهادة..

الإحالات

١- مجموعة من المؤلفين. تاريخ العرب القديم -الصف الخامس- وزارة التربية دمشق عام ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.
٢- مجموعة من المؤلفين. التاريخ الصف السادس-وزارة التربية دمشق ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص١٢٠.
٣- مجموعــة مــن المؤلفين. التربية القومية الاشتراكيّة- الصف السادس-وزارة التربية دمشق ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص٩٩.
٤- مجموعــة من المؤلفين- جغرافيــة الوطن العربي -الصف السادس- وزارة التربية-دمشق ٢٠٠٨-٢٠٠٩م ص١٢٩
٥- مجموعة من المؤلفين-لغتي الجميلة-الصف السادس -وزارة التربية- دمشق ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص ٥٤.
٦- فئــة مــن المختصيــن -التربيــة الإسلاميّة -الصــف السادس- وزارة التربيــة- دمشق عــام ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص١٠٠.
٧- لغتي الجميلة -الصف السادس- مرجع سابق ص٥٧.
٨- جغرافية الوطن العربي -الصف السادس- مرجع سابق ص١٣٠
٩- تاريخ العرب القديم -الصف الخامس-مرجع سابق ص٤٩
١٠-التربية القوميّة الاشتراكيّة -الصف السادس-مرجع سابق ص١٠٠
١١-مجموعة من المؤلفين -لغتي الجميلة-الصف الرابع-وزارة التربية-دمشق عام ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص١٤٤
١٢-مجموعة من المؤلفين-دليل المعلم في التربية الموسيقيّة- الصف الثاني- وزارة التربية -٢٠٠١م.
١٣-مجموعة من المؤلفين -لغتي الجميلة- الصف الثاني- وزارة التربية- دمشق ٢٠٠٧-٢٠٠٨م.

القدس نسيج السماء وأيقونة المبدعين

محمود حامد

إذا كانت القدس تشكل النسيج السماوي لتراب يُعتبر الأقدس فوق خارطة الفلك الكوني، فإن مبدعيها هم نسيجها الذي أضاف لقداسة المسمى وهج الإبداع الخلاق، حيث أنتجت قيمة من رجالات الكفاح والفكر، وكوكبة من روّاد العلم والمعرفة ستظل أسماؤهم في لوحة شرف الحياة تلك الكواكب المضيئة والتي أثرت ساحة الثقافة العربية والإنسانية، في وقت مبكر من الزمان، بعطائها الفاعل والحيّ والذي شكّل إضافةً مهمةً في

* أديب وشاعر فلسطيني

تاريخ الفكر العربي والإنساني يبقى على الدوام في ذاكرة الأجيال المتعاقبة نبراساً وضاءً بقيمه ومعاييره قائماً وعابراً في الأيام على امتداد الحياة. مبدعون استلهموا من قُدسية رحابها، وقداسة اسمها المتفرد في المسميات عذوبة ما كتبوا، ونداوة ما أبدعوا، وطلاوة ما خلفوا لنا من أفكارهم وأعمالهم، وآثارهم، ما يحق لنا أن نفخر به على امتداد الحقب... ونعتبره امتداداً حيّاً ولائقاً لتاريخنا القيمي والمعرفي، وجزءاً حيوياً ومهماً واستكمالاً للأسس والدّعامات التي رفع الأوائل صروحها الملحمية على امتداد الأرض والزمان، وجاء السلف لاستكمال رحلة البناء والعطاء ضمن سلسلة مترابطة اللحمة والقيمة، مجددة الأصول والثوابت، تضع في اعتبارها ووجدانها رفعة الأمة والوطن، بما يليق بهما، وبتلك المكانة العالية التي تبوأها فوق رحابة الأرض بما أنتجت، والسماء بما وهبت.

في وقت كان فيه الوطن العربي ينهض من ركامات القهر والاستبداد، ويشهد بداية الصحوة، والمد القومي العارم، وبزوغ شمس الحرية والاستقلال الوطني على امتداد الأرض العربية، كان البُناة المبدعون يؤسسون لثقافة راهنة تحمل آثارها، وتمضي بها إلى أبعد نقطة في الكون الشاسع للتعريف بتاريخنا وحضارتنا، وتراثنا الذي اتجهنا به، خارج حدودنا ليقف العالم أجمع على ما قدّمنا وأنتجنا وأبدعنا، وليضع حداً لعصور الهيمنة والاستعمار والاستعباد، وأن الكيان الإنساني استنبات سماوي واحد، عليه أن يسعى لإقامة صرح الخير والمجد على الأرض، وليس كيانات الشر والدمار والخراب.. آنذاك كانت القدس حاضرة النهوض، وحاضنة رجالات الفكر والنضال.. لذا كانت السبّاقة في تقديم كوكبة فرسان القلم والبندقية، وزخرت بأسماء في قوائم الخالدين على الصعيدين الوطني والمعرفي. آن الأوان وفاءً لتلك الأسماء أن نسترجعها في ذاكرة كادت تنسى في خضم الحوادث والنكبات. من نحن، وما قيمة هذا التراب حضارياً وتاريخياً، وإنسانياً؟!! وأن نستلهم مما كان ما يمكن أن يكون فيضاً ملحمياً للأجيال القادمة من المستقبل ما يجعلها تفخر وتعتز بنا تماماً، كما نحن في اعتزازنا وفخرنا وبالأوائل الخالدين. وها نحن ندخل رحاب أولئك الصفوة من البشر والمعرفيين الكبار استئذاناً بفتح ملف القدس من جديد، وهي تمضي بخطواتها الصامدة والثابتة نحو غد تكريمها اللائق والعظيم.

إذا كانت القدس أيقونة السماء، فإن مبدعيها هم نسيجها الخلاق، وها نحن نفتح ملف أولئك المبدعين، وفاءً لهم، واسترجاعاً لماضيهم العريق، وأسماء الرجالات كثيرة تشكل بمجملها تلك الحقول المعرفية المهمة، ولعل من أبرز المعرفيين المقدسيين: إسعاف النشاشيبي وإسحق موسى الحسيني، شريف النشاشيبي، أحمد سامح الخالدي، القائد الشهيد عبد القادر الحسيني، خليل السكاكيني، بندلي الجوزي، ونصري الجوزي، ثيودوري قسطنطين، جورج الصايغ، د.موسى الحسيني، منيف الحسيني، ومحمد يوسف الحسيني، وأسماء عديدة تدخل في صياغة تلك الشجرة الخالدة.. نختار منها عند وقفتنا هذه أديب القدس المبدع إسعاف النشاشيبي والذي تمتد فترة تواجده الحياتي والإبداعي بين عامي ١٨٨٢م و١٩٤٨م عام الفاجعة، ونكبة فلسطين.. علم من أعلام فلسطين، وسليل أسرة مقدسية تاريخية الجذور والنسب في بيت المقدس، أسرة يرجع نسبها إلى [١] أحمد بن رجب النشاشيبي.. جدّ الأسرة النشاشيبية، وأحد رجال الملك الظاهر جقمق.. والذي جاء واستقر في فلسطين في مدينة القدس، وأسس هناك لعائلة سيكون لها في مستقبل الأيام تاريخها النضالي والأدبي لأسماء عدة من تلك الأسرة الثرية بما لها. وفكر أبنائها ما يجعلها مع أسر مقدسية أخرى مهمة تشكل تاريخ القدس التاريخي والديني، والنضالي كذلك؛ ولعل إسعاف النشاشيبي سيشكل فيما بعد، من خلال سيرته الأدبية والمعرفية دعامة هامة في تاريخ القدس الأدبي ما يضعه في كوكبة الرجال الأوائل الذين يذكرون في مقدمة من يذكر من ذاك النسيج المقدسي العظيم والذي يشكل الدعامة الكبرى والتاريخية لتاريخ فلسطين النضالي والثقافي المعاصر.

في بدء حياته الأدبية والدراسية والمعرفية التحق إسعاف النشاشيبي أسوة برفاق عمره المقدسيين بأحد الكتاتيب المنتشرة في القدس آنذاك في أحيائها، وحاراتها العديدة، وأظهر منذ البدايات نبوغاً في المعرفة والتحصيل العلمي والأدبي[٢]: وبعد أن أكمل دراسته الابتدائية حمله والده عثمان النشاشيبي، وله من العمر اثنتا عشرة سنة، إلى دار الحكمة في بيروت، وهناك تتلمذ للشيخ عبد الله البستاني، حيث أمضى في هذا الصرح العلمي ثلاث سنوات.. بعدها، وضع نصب عينيه أن «لا مدرسة من قبل، ولا مدرسة من بعد..» وإلى هذا الحد وكفى من العلم

والتحصيل العلمي.. كانت تلك خطوة.. بل رؤية طارئة في حياته ومضت كالبرق واختفت لحظة ومضها الخاطف لأن كل ما فيه يميل للعلم والتحصيل.

في دار الحكمة كان زميله الأثير الأمير شكيب أرسلان[٣]: وفي دار الحكمة تأثر إسعاف بأستاذه الشيخ عبد الله البستاني الذي توسم فيه النجابة، والانكباب على درس العربية والعب من معينها العذب، فطبعه البستاني بطابعه اللغوي، فكان من أعلم علماء العصر بها، ومن أطولهم باعاً في أدبها، ومن أشدهم رعايةً لها، وحرصاً عليها. الفترة التي تلت كانت فترة إعلان الدستور، في هذه الفترة عاد إسعاف من بيروت إلى القدس، وبدأ مرحلة جديدة في حياته هي مرحلة القراءة والكتابة والنظم. يومها بدأ يلتقي زملاءه من المثقفين وأصحاب القلم، والفكر المتحفز لخوض غمار الكتابة والإبداع.. وخاصة تلك الفئة المثقفة بثقافة الغرب بمدرستيه الفرنسية والإنكليزية، وتنقلت تلك الفئة في حقول متعددة من الأعمال ولكنها في النهاية استقرت تماماً في مجال الفكر والأدب وعبر حياته الحافلة بالعطاء والأدب ظلَّ إسعاف النشاشيبي يردد شعار العمر، والذي استلهمه من صديق عمره اللغوي الأب أنستاس الكرملي (إنَّ اللغة العربية هي لغة الله والملائكة، وإذا شاء الأولياء والقديسون أن يتخاطبوا في السماء، فإن أفواههم لا تتفتح، وألسنتهم لا تنطلق، إلا بلغة العرب)!!

في تلك الفترة المتقلبة بعواصفها واجتماعياتها المتضاربة، واجه النشاشيبي وزملاؤه تيارين متضادين من الأفكار: تيار المتحمسين لآرائهم وأفكارهم وتحصيلهم الدؤوب، وتيار الغلاة من عموم الناس والذين قاوموا فكرة العلم والأدب، وتحمسوا لفكرة الذهاب لحقول الأعمال الأخرى، وخاصة والد إسعاف والذي كان يتمنى فيه أن يكون رجل أعمال يتولى أمور الثروة التي يملكها آل النشاشيبي آنذاك وهم قوم ثراء وغنى.

كان خليل سكاكيني الصديق الحميم لإسعاف لذا توجه إليه الأب النشاشيبي لائماً لأنه يعرف الصلة الحميمة التي تربط السكاكيني بولده.. قال له[٤]: يا سكاكيني!! أهذه آخرة من يقرأ مقدمة «شميل»؟ يعني مقدمة كتاب شميل على مذهب دارون!!؟ يضيف سكاكيني: في تلك الفترة أعلن الدستور، وانتفضت الأمة، وزال القبر والكفن، وأقبلت على الحياة.. رجعت إلى القدس من أمريكا، وعاد إسعاف إلى

ملازمتـي وجعلنا نكتب ما توحيه الظروف. في تلك الآونة جاء المرحوم حَنَّا العيسى من يافا إلى القدس، وأنشـأ مجلة «الأصمعي»، وفتح المجـال للمثقفين للكتابـة فيها فكان النشاشيبـي، والسكاكيني مـن أوائل وقدوة الكتـاب المبدعين. حمـل النشاشيبي طوال عمـره لقب «أبو الفضـل»، وكان مثله فيما يكتـب بديع الزمـان الهمـذاني. هي رياح الحرب العالميـة الأولى، وريـاح التغيير في حيـاة النشاشيبي حيـث تم تعيينه في تلك الحقبـة أستاذ للعربيـة في الصلاحية التي أنشاهـا القائد التركي أحمد جمال باشا في بيت المقدس في هـذه الفترة العاصفة يذكر نصـري الجوزي المقدسـي في كتابه «تاريخ المسرح الفلسطيني ١٩١٨م- ١٩٤٨م- طبعة قبرصـن أبريل ١٩٩٠م ما مفـاده: أن نهضة ثقافية عارمة تجتاح مدن فلسطين وأن بناء المدارس والمعاهد الوطنية زاحف كالعاصفة على تراب فلسطين ومن مدرسي تلك الفترة السكاكينـي والنشاشيبـي، [٥]: وفي هـذه المعاهد العلمية نشطت الحركة المسرحيَّة، إذ كانت تقوم معظم المدارس بعرض مسرحية أو فصل تمثيلي في نهاية العام الدراسي أو في مناسبات الأعياد الدينية والوطنية(ص١٤) -المصـدر السابق- وهذا دليـل على تقدم الحركـة الثقافية والمسرحيـة في فلسطين علـى سائـر الأقطار الأخـرى. خلال هذه الحقبة قام إسعاف بتأسيس مكتبته الكبرى في منزلـه، وكان البيت مقصـد أهل العلم والأدب، لكـن نكبة ٤٨ أتت على تلك المكتبة بكاملها عندما قام مرتزقة مأجورون باجتياح أحياء القدس العربية وسرقة المكتبة بما فيها وبيـع نفائس الكتب والمخطوطات لأصحاب الأفـران لتصبح وقوداً للنار والأفران.. وفي هذه الآونة كان الاستعمار البريطاني الغاشم قد بسـط نفوذه على تراب فلسطين كافة.. يومها كان النشاشيبـي قد عين ستة مدراء مديـراً للمدرسة الرشيدية في بيت المقدس، ثـم مفتشاً للغـة العربيـة في إدارة المعارف العامَّة. آنذاك قام إسعاف بتنظيم المدارس الأميريَّة، وأصلح التعليـم، وجدد المناهج.. وقام وزملاؤه بمتابعة الصحافة الفلسطينية التي تصـدر، والكتابة فيهـا.. وتخصيص زوايـا للشعر والنـثر، والمقـالات الوطنية الثائـرة.. كما قام النشاشيبـي بالكتابة في الصحافة المصرية والسورية.. ولقد أعجب به الزعيم الوطني سعد زغلول إعجاباً قوياً لدى إقامتـه في مصر، وهناك أسس منتداه الثقافي والذي غـدا محجَّ الكتّاب والأدباء.. وكانـت صداقته المتميزة مـع أمير الشعراء

أحمد شوقـي، ومع أحمد حسـن الزيات، والكتابة في مجلة الرسالة القاهرية والمشاركة في مبايعة شوقي للشعر.

مع انتهـاء القرن التاسـع عشر ومجيء القـرن العشريـن غابـت أشيـاء كثيرة عن مسـرح الحياة، وحلّت محلهـا أشياء أخرى، كانـت التطلعـات الوطنية أهمهـا، وبزوغ شمس التيارات القومية والتحررية، وظهور شخصيات قيادية على امتداد الصّعد كافة، ولعلّ ظهور التيارات والمذاهب الأدبية يمثل تلك المفاتيـح التي آذنت بانفتاح الفكر على نتاجات الفكر كافة وخاصة تلك القادمة مع ريـح الغرب لتتح فكرهـا وأدبها، عبر هذا كله كان إسعاف النشاشيبي ينهل من مدرسة التراث بينما ذهب زملاؤه إلى المدرسة الغربية الفرنسيـة والإنكليزيـة. كان إسعاف علماً مـن أعلام الفكر العربـي، ولقيمته الأدبية والمعرفية اختـاره أعضاء المجمـع العلمي العربي بدمشق عضواً في هذا المجمع.. كما ذكر السكاكيني آنذاك وصاحب كتاب أعلام الفكـر والأدب في فلسطين يعقوب العودات (البدوي الملثم) في كتابه ط٢/ والذي صدر عام ١٩٨٧م.. وذكر العودات أن النشاشيبي استقـال عام ١٩٣٠م مـن عمله في معارف حكومـة فلسطين وتفرغ لكتبـه، والكتابة.. وأن مرجعـه الهـم ذاك المخطـوط المعنون «الأمة العربية الأهـم»، والذي اشتغل عليه زمناً طويلاً جهداً وعمراً فقدت أصوله بعد وفاته، ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.

ينقـل العودات في كتابـه الكلمة المؤثرة التـي قالهـا الزيـات في مصـاب العروبة بإسعاف النشاشيبي: «أهكذا، وفي أسرع من رجع النفس، يسكت اللسان الذليق، ويسكن العصـب الثائـر، ويخمد الذهـن المتوقد، ويقف الفـؤاد الذكي، ويصبـح النشاشيبي نعيـاً في الصحف، وخبراً في البلاد، وحديثاً في المجالـس، لا يقـول فنسمـع، ولا يكتب فنقرأ.. سبحانك يـا رب.. شعاع أرسلته ثم رددته، وروح بثثته ثم استعدته، وظل بسطته ثم قبضته، ولواء رفعته ثم خفضته، وبنو آدم العاجزون الضعـاف لا يملكون أمام أمرك البادي، وسرّك المكنـون إلا أن يشكروا على العطاء والأخـذ، ويحمدوا علـى المحبوب والمكروه»..

كان النشاشيبـي دوحة فكر وأدب وارفة الظـلال، وكان بمنتدياته التـي أسسها في القدس ودمشـق والقاهرة ملاذ أهل الأدب والثقافة، لقد كان مرجعاً مهماً لطلاب العلم والمعرفة.. كان البحر الزاخر بكنوزه وأفكاره الخالدة.. وللآراء الحادة التي انغرست فيه،

وتشبع بها، فليس من المستغرب أن يكون من الثوريين العرب الأوائل الذين جاد بهم الزمان في حقبة هي الأخطر بداية في انبثاقها الثائر للتيارات الوطنية والقومية والنهضوية.

يكمل الزيات رثاءه للنشاشيبي بقوله: «لا تستطيع أن تذكر له كتاباً من كتب العربية لم يقرأه، ولا بيتاً من شعر الفحول لم يحفظه، ولا خبراً من تاريخ العرب والإسلام لم يروه، ولا شيئاً من قواعد اللغة، ونوادر التركيب، وطرائف الأمثال لم يعلمه فهو طراز أبي عبيدة والمبرد».. إنه خاتم طبقة من الأدباء اللغويين.. ولعل أجمل ما قيل في رثائه شعراً قصيدة ألقاها عبد الغني حسن حين مات صديقه إسعاف، ودفن في مصر عام ١٩٤٨ عام النكبة بعيداً عن أرض فلسطين:(٧)

يستوي الموتُ في المكان النائي
ومكانِ الأجدادِ والآباءِ
يا غريبَ المماتِ: ما نحنُ إلاّ
غرباءَ، في منزلِ الغرباءِ
كلُّ أرضٍ ضمّتكَ فهي وسادٌ يستوي عندها مصيرُ الفناءِ
مَنْ دَعَتْهُ مَنيّةٌ لبلادٍ
ماتَ فيها إجابةً للنداءِ
مَنْ تَفُتْهُ المنونُ في بأساءٍ
لَمْ تَفُتْهُ المنونُ في النَّعماءِ
أخطأتْكَ الأقدارُ والبأسُ يغلي في فلسطينَ، والحمى في دماءِ
وأصابتكَ في مكانٍ أمينٍ
رُبَّ آمنٍ يجد حبلَ الرَّجاءِ
لَمْ تَمُتْ ميتةَ الجبانِ ولكن
مُتَّ في العلمِ ميتةَ الشُّهداءِ

أحب النشاشيبي المتنبي شاعراً لا ندّ له ولا شبيه لذا يقول فيه: (إن المتنبي شخص ثالث بين كل مثقفين، فما دار حوار بين مثقفين إلا استشهد أحدهما أو كلاهما ببيت للمتنبي).

ولقد ذهب في حبه للغة العربية حد الوله، وسنلمح هذا في خطبته الشهيرة وعنوانها: «قلب عربي وعقل أوروبي»، يوم دعي لتأبين صديقه أمير الشعراء أحمد شوقي حيث قال فيها: (وهذه العربية التي هيمنا -أيها العربي- حبها، وليس ثمة عادل، وعبدناها، ولا يعيب عبادتها عندنا إلا جاهل، لن يثبت في هذا الكون حولها، ولن ينتقل في «دار الندوة» يوم القول قولها إلاّ إذا عرفت هذه المدينة الغربية، والعربية كالغربية ربة مدنية، وحالها بصحبة المدنيات مشتهر. فإنها لما ظلعت عن جزيرتها لاقت في طريقها المدينة الإغريقية.. فما صعرت عنها خدها، ولا تعبست، وما أدلت بفضلتها -وإنها لذات فضلة- ولا تعجرفت، واستيقنت أنها أعلم

منها، فأطالت الجثوم بين يديها، وحدثت عنها).

تلك ملامح شخصية مقدسية فريدة، تستنهض الذاكرة لاسترجاعها فكراً وملمحاً من ذاك العبير المقدسي المحوّم بين الزرقة السماوية الرحبة، وفلك الكون المسافر للأبد. وللمكانة الخالدة لهذا المبدع المقدسي أطلقت وزارة التربية والتعليم الأردنية اسم إسعاف النشاشيبي على مدرسة أميرية في بيت المقدس.

المراجع

١- من أعلام الفكر والأدب في فلسطين- يعقوب العودات (البدوي الملثم)- طبعة ثانية عام ١٩٨٧م.

٢- تاريخ المسرح الفلسطيني ١٩١٨م- ١٩٤٨ نصري الجوزي المقدسي- طبعة قبرص- نيقوسيا- شرق برس- إبريل ١٩٩٠م.

القدس في الأدب العربي الحديث

هبة الله الغلاييني *

استأثرت مدينة القدس الشريف باهتمام المسلمين منذ العصور الأولى للفتح الإسلامي نظراً لمكانتها الدينية التي أشار إليها القرآن الكريم في أكثر من آية، وأكدّتها السنة النبوية الشريفة في عدد غير قليل من الأحاديث والأقوال المأثورة.

وعلى الرغم من تعاقب السنين وتقادم الزمن، فإن هذه المكانة الرفيعة بقيت آخذة بنفوس المسلمين وألبابهم دون أن يعيروها تراخٍ أو وهن، وقد شارك

* مترجمة وباحثة سورية

المجتمع الإسلامي، على مختلف عصوره ومستوياته، في التعبير عن احترامه لمدينة بيت المقدس بجميع الوسائل التي يملكها سواء بالأقوال المكتوبة أو الأفعال المادية في مجالات البناء والعمران وإن المصنفات الدينية والمؤلفات التاريخية قد ازدحمت صفحاتها ذوات العدد، بالشواهد الناطقة على حرص جميع الشخصيات الإسلامية، عبر عهودها المتباينة على تخصيص هذه المدينة المقدسة بالنعوت السامية.

اختيار «القدس» عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٩، وهو خير دليل على استمرار الاهتمام بهذه المدينة المباركة، والحفاظ على مكانتها في نفوس المسلمين والعرب قاطبة.

وفي هذه الدراسة سنستعرض أهم ما كتب عن القدس في الأدب العربي الحديث. سواءً في الشعر أو في القصص والرواية أو في المسرحية.

القدس في الشعر:

إن معظم الشعراء الذين عرضوا للقدس أو تناولوها في قصائدهم في أواخر القرن التاسع عشر، كانوا يشيرون إليها -في الغالب- ضمن جو ديني خالص - ولم تكن مقصودة لذاتها. وخير دليل على ذلك ما نظمه الشاعر الشيخ يوسف النبهاني،الذي كان معظم شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وتتبع سيرته وتسجيل أحداثها، من ذلك قصيدته «الإسراء والمعراج به صلى الله عليه وسلم» التي نظمها عام ١٨٩٦ م، وتحدث فيها عن إسراء الرسول عليه السلام من مكة إلى القدس، ومعراجه من المسجد الأقصى في القدس إلى السماوات العلى، يقول:

رسل الله هم هداة البرايا
ولكل محجة بيضاء
خص منهم محمداً بالمزايا الـ
ـغر منها المعراج والإسراء
مر في طيبة وموسى وعيسى
ولقد شرفت به إيلياء
ثم صلى بالأنبياء إماماً
وبه شرف الجميع اقتداء

فالشاعر يذكر اسم «إيلياء» من أسماء بيت المقدس، ويجعل النبي عليه السلام يمر بطيبة في إسرائه وهو أمر مألوف، أما أن يمر في «الإنسان» كما يتضح من قوله «مر في طيبة وموسى وعيسى» فهو أمر غير مألوف، والذي دفع الشاعر إلى ذلك، أنه تتبع تفصيلات الإسراء والمعراج.

وهنــاك محاور شعرية ثلاثــة نظّم فيها الشعــراء شعرهــم عــن القدســ في هذه المرحلة.

أولاً: الشعر الديني:

وردت القدســ في عــدد مــن قصائد الشعراء في فلسطين والأردن، والتي نظموها لتعبر عن موضوعات دينية خالصة. ولم تكن القدســ مقصودة لذاتهــا، وإنما وردت في هذه القصائـد، لأنها ذات صلة وثيقة بتلك الموضوعــات الدينيــة والتاريخيــة، أو أنها تشكّل معلماً رئيسياً من معالمها.

فالشاعر «وديــع البستاني» والذي سمّى ديوانه «ديــوان الفلسطينات»، يعد من أكثر الشعراء الذين كتبوا قصائد عن القدس وما يتصل بها، سواء أكانت تتعلق بالجانب الديني أم غيره من الجوانب الشعرية الأخرى.

من أهم قصائده التــي نظمها في إطار ديني قصيــدة «تحية العلــم»، التي تحدث فيها عن أرض فلسطين المقدّسة، يقول:

أرض توطنها عيسى وشرّفها
ومات موسى إليها ناظراً أمماً
أرض محمد وافى بيت مقدسها
ومن عُلاه إلى رب السماء سما
فقدسوها ولا تبتغوا بها ثمناً
نجساً فبائعها شارٍ بها الندما

وقد اتضح أن عدداً من الشعراء – ومنهم البستــاني – كانوا ينظمون هذه القصائد – في كثــير من الأحيــان – في مناسبات دينية معروفة، كذكــرى المولد النبــوي الشريف، والإسراء والمعــراج، مؤكديــن صلة القدس بحادثة الإسراء والمعــراج، ومبينين أهميتها وقداستها، ومركزّين على فضائلها ومزاياها التــي اتسمت بها. فالقدس «أولى القبلتين»، و«حاضنــة الأقصــى» و«مدينــة الإسراء» و«مســرى النبي» و«مدينــة الطهر» و«تراث المسلمين».

ووقــف محمــد العدنــاني في قصيدته الإسراء عنــد ارتباط وطنه فلسطين بإسراء النبي عليه السلام، وذكر أن حبه لوطنه قد نما وازداد بسبب هذه الصلة، يقول:

أسرى إلى الأقصى دُجى من مكة
جسد ابن عبد الله والحوباءُ
وسما به نحو السماوات العلى
رب نــداه مــالــه إحـصــاءُ
والمسجد المبــارك حولــه
هـزتـه عـزة أحـمـد التعساءُ
ما أنتَ يا وطني سوى أنشودةٍ
في كهف أضلاعي لها أصداءُ
يا موطني أسرى إليك المصطفى
فتتوجت شرفاً بـه الآلاءُ

وقد التفت الشعراء، في عدد من قصائدهم، إلى استحضار بعض الشخصيات التاريخية، والمرتبطة بالقدس ارتباطاً وثيقاً، وذلك للتعبير عن فقد أملهم في حاضر الأمة العربية، التي لم تستطع أن تنقذ القدس من جلاديها فها هو وديع البستاني يستذكر مجيء عمر بن الخطاب إلى القدس، وتسلّمه لمفاتيحها من البطريق، مما يجعل للقصيدة قيمة تاريخية لأنها تبرز جانباً مهماً من جوانب تاريخ القدس في عصر الخلفاء الراشدين.

أما الشاعر كامل الدجاني، فقد استحضر صورة البطل صلاح الدين الأيوبي من أعماق التاريخ، ليحدثه عن حالة القدس المهينة في مقطوعة قصيرة له، يقول:

يا صلاح الدين قُم وانظر إلى
حالة في القدس تستذري العيون
أبدل العِزّ الذي تعرفه
ذلة واستأسد المستضعفون

ثانياً: الشعر الوطني والقومي:

إن أكثر الشعر الذي اشتمل على القدس في هذه المرحلة هو الشعر الوطني والقومي. فقد عَرَض الشعراء للقدس في إطار حديثهم عن مقاومة الأعداء، وثورات الشعب الفلسطيني المتتالية، ورفض المهمات التي كانت تناط بلجان التحقيق والتقسيم، إضافة إلى استكشاف معالم صورة القدس كما بدت في قصائد الشعر القومي، التي نظمها الشعراء في استنهاض همم العرب وقادتهم، للدفاع عن فلسطين وإنقاذ القدس من أيدي مغتصبيها.

١ - الشعر الوطني:

أ - موقف الشعر الوطني من البريطانيين:

سجل التاريخ الحديث أن البريطانيين هم الذين عملوا على توطين اليهود الصهاينة في فلسطين، منذ حصل اليهود على وعد بلفور، وزير الخارجية البريطاني، الذي يقضي بتأسيس وطن لهم في فلسطين.

وقد شنّ الشعراء هجوماً عنيفاً على البريطانيين، من خلال حديثهم عن وعد بلفور، واحتلالهم للقدس، أو تعاطفهم مع اليهود.

فالشاعر حسني زيد الكيلاني، في قصيدته «يا وعد بلفور يا شؤم المواعيد» ينبئ عن موقفه بوضوح من هذا الوعد. حين أخذ يستذكر في القصيدة بطولة صلاح الدين الأيوبي وانتصاره في حطين، وأخذ يتخيله وهو يخوض وهو يخوض معركة التوحيد من جديد، ثم خاطب العرب قائلاً:

حيّوا فلسطين حيّوها مجاهدة
مهد العرانين والشم المناجيد
إني لأشتم أنفاسَ المسيح بها
وروح أحمد في سراه إذ نودي

ووقف عند احتلال البريطانيين للقدس الشاعران «وديع البستاني» و«مطلق عبد الخالق» في قصيدتين لهما:

فقد نظّم البستاني قصيدته «صوت الشعب» عام ١٩٢٥ م، وخاطب فيها المندوب السامي البريطاني قائلاً:

يُريد المارشال صلاة شكر
ليهنئه انتداب واحتلال
أقد حررتها قُدساً؟ وممن
ومن ذا حطَّ لما قيل شالوا
أتحرير وسيفك فوق رأسي
لعمرك إنه القول المُحال

ونظّم الشاعر «مطلق عبد الخالق» قصيدة «يوم الهوان».. يوم فتح القدس التي بلغت خمساً وثلاثين بيتاً، بعد مرور عشرين عاماً على احتلال البريطانيين للقدس. وقد برز في القصيدة الاحتفال بالطباق ليبيّن الشاعر أن لهذا اليوم وجهين متضادين: وجهاً باسماً للبريطانيين، ووجهاً حالكاً للعرب، وحين تلح على الشاعر ذكرى احتلال القدس نجده يثور في وجه البريطانيين، في صياغة تقريرية مباشرة أحياناً، إذ يقول:

ذِكراكَ يا يوم الهوان مريرة
ذهبت بميعة صبوتي وشبابي
يا من فتحت القدس مهلاً ما انتهت
ما زال في الميدان بعضُ صعاب
ما زال بينكم - إلبتي - وبيننا
في هذه الدنيا رصيد حساب
هذي عناصر كرهنا موروثة
لكم ونورثها إلى الأعقاب

ب- موقف الشعر الوطني من اليهود:

كان اليهود يخطّطون بدهاء ومكر لتثبيت وجودهم في فلسطين، ولذا فقد عملوا على إنشاء الجامعة العبرية بعد الانتداب البريطاني على فلسطين، إذ أقاموا في الرابع والعشرين من تموز عام (١٩١٨)م حفلة كبرى لوضع أساس الجامعة العبرية في القدس، وشارك في الاحتفال مطران الانجليز «مكنس» ومفتي القدس الشيخ كامل الحسيني

وقد ثار الشاعر «وديع البستاني» لهذه المشاركة، وأنكر عليهما صنيعهما في قصيدته «الفتوى» التي نظمها في اليوم نفسه الذي تم فيه الاحتفال يقول:

أفتني بالله بالكعبة بالـ

حجر الأسود بالركن الأغر

إن علت في غرها شامخة

فوق رأس الطور تلهو بالعبر

وغدتْ جامعة عبرية

ونهى الحاخام فيها وأمَرْ

أيقولُ الشيخ والقس اتئد

إن للمطران والمفتي حجرا

ومضى الشاعر بعد ذلك يحذّر من الخطر الذي سيترتب عليه إنشاء هذه الجامعة في القدس، ويستذكر مجد عمر ابن الخطاب الذي افتتح القدس، وحررها من الصليبيين ويدعو العرب إلى تكوين جيش قوي ينتصرون به على أعدائهم. وقد اقتربت المسافة بين الشاعر والقدس في قصيدته هذه، حيث كان مبصراً لما يفعله الأعداء في فلسطين والقدس، ويحدّق فيما يحدث حوله، دون أن يشير إلى الحدث فقط.

٢ - الشعر القومي:

لعلّ من طلائع القصائد التي تذكر القدس أو تشير إليها في إطار من الشعر القومي، قصيدة «آمال وآلام» التي نظمها الشاعر فؤاد الخطيب، بعد إعلان الدستور العثماني عام ألف وتسعمئة وثمانية (١٩٠٨) في معرض إنكاره على العثمانيين تحاملهم على اللغة العربية، إذ غدت القدس في قصيدته تعني فلسطين أو ترمز إليها لأنها عاصمتها التي تعرف بها.

وقد أكثر الشعراء في فلسطين والأردن من ذكر القدس ومقدساتها، وهم يدعون العرب إلى نصرة فلسطين وأهلها، وقد ألحّوا على ترداد اسم القدس والصخرة والمسجد الأقصى لإثارة نخوة العرب، وتحريضهم لإنقاذ المقدسات، وتخليصها مما تتعرض له من احتلال وإيذاء.

وحين تحدثت الشاعرة «فدوى طوقان» عن يقظة الشرق في فترة مبكرة من حياتها الشعرية، لم تستطع أن تنسى القدس، وتقدمها لنا في صورة حزينة تهز فؤادها الجريح للعرب، كما يتضح من قصيدتها «يقظة الشرق» التي تقول فيها:

هو ذا العيد أقبل اليوم محد

وأ بروح في بردتيه جديد

فيه شيء من اعتزاز قديم

عرفته له خوالي العهود

في فؤاد القدس الجريح اهتزاز

لكم رغم صبره المنكود

انثنى مرهفاً على الجرح يشدو

ويحيي أفراحكم في العيد

كما يوم الشاعر البستاني جامعة الدول العربية، التي لم ترد القدس في بنودها الرئيسية، في إطار عتابه خير الدين الزركلي عام ١٩٤٥، إذ يقول:

أجامعة وما للقدس فيها
سوى الذيل المعلق بالبنود
وما معنى العروبة في حماها
وفي قلب الحمى وطن اليهود

ثالثاً: الشعر الاجتماعي:

رسم شعراء فلسطين والأردن صورة لما كان يجري في القدس من أحداث أو مؤتمرات أو حياة اجتماعية، تتناول أحداث الحياة اليومية، كالحفلات التي كانت تقام للاستقبال والترحيب والوداع،أو تلك التي كانت تخصص لرثاء الشخصيات الهامة والأبطال الشهداء، إلى جانب الإشارة إلى تقليد المرأة العربية في القدس للمرأة الأجنبية في زيّها وبعض عاداتها، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية المتنوعة.

وكانت قصائد الشعراء في معظمها تركّز على ترديد عبارات الترحيب والثناء في إطار من الصياغة الفنية المباشرة التي تجعل هذه القصائد نظماً لا شعراً. وهناك قصيدة تفوقت على مثيلاتها من القصائد – وقيلت في مناسبة اجتماعية، خصصت للاحتفاء بأحد القادمين إلى فلسطين – وهي قصيدة الشاعر عبد الرحيم محمود التي – سماها «نجم السعود» وقدّمها بين يدي الأمير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت، عندما زار فلسطين ومرّ بعنتبا ونزل في القدس ضيفاً على سماحة المفتي. وأثر قضاء معظم أيام الزيارة في القدس.

وقد خاطب الشاعر عبد الرحيم محمود الأمير قائلاً:

يا ذا الأمير أمام عينيك شاعر
ضمت على الشكوى المريرة أضلعه
المسجد الأقصى أجئت تزوره
أم جئت من قبل الضياع تودعه
حرم تباح لكل أوكع آبق
ولكل أفاق شريد أربعه
الطاعنون وبوركت جنباته
أبناؤه أعظم بطعن يوجعه
سر يا أمير ورافقتك عناية
نجم السعود وفي جبينك مطلعه

وقد استوقفت هذه القصيدة عدداً من الباحثين الذين امتدحوا الحس التنبؤي عند الشاعر، الذي أشار إلى الكارثة في وقت مبكر قبل وقوعها، ومبرزين قدرته على تصوير الهم الجماعي من خلال همه

الذاتـي، ورؤيته الشاملة التي استطاعت أن تصور الواقع وتستشرف أبعاد المستقبل.

وقد عرض بعض الشعراء في قصائدهم تأثر المـرأة العربيـة في فلسطـين بالمرأة الأجنبية، ولكنه تأثر خارجي، يتعلق بإظهار مفاتن المرأة للرجـال، والتفنن في الملابس، كما نجد في قصيدتين من قصائد البيتجالي منكـراً فيها على نساء القدس هذا التأثر أو التقليد مـن وجهة نظر أخلاقية، وكانت القصيدة الأولى بعنـوان «غانيات القدس» وقال فيها:

يـتـخـطـرن في الـشـوارع تـيـهاً
بـحـلـيّ مـن أسـاور وعـقـود
يـتـلـفـتن تـــارة بـــازدراءٍ
ويـتـقـهـقـهـن تـارة كـالـولـيد
من بـنـات الـيـهـود جـئـنـا إلـيـنـا
مـن أوروبـا بـكـل زي جـديـد
مشهد من مشاهد القدس هذا
في غـنـى عـن دلائـل وشـهـود
غـانـيـات الأعـراب مـهـلاً فإنـا
في احتياج إلى الصلاح شديد
احذري الزي هذبي الطفل كوني
بمثل النبل والتقى للوليد

وقد كـرّر البيتجـالي هـذه المعاني في قصيدتـه الثانية بعنـوان «مساء السبت في القدس».

وعندما نتحـدث عن الشعر الاجتماعي الـذي اشتمل على القدس، علينا أن نشير إلى قصيـدة «إبراهيم طوقان» أو مقطوعته التي سمّاهـا «القدس» وافتتحها بذكر «دار الزعامة والأحـزاب» دون أن يشير صراحة إلى القدس:

دارَ الزعامة والأحـزابِ كان لنا
قضية فيك ضيعنا أمانيها
هل تذكرين وقد جاءتك ناشئة
غنية دونَها الأزواج تفديها
تود لو وجدت يوماً أخاً ثقة
لديك يوسعها براً ويحميها
قضية تبذوها بعدما قتلت
ما ضرّ لو فتحوا قبراً يواريها

❁ ❁ ❁

القدس في القصص:

إن الحديـث عن القصص حول القدس له عدة اتجاهات، أهمها:

١- الاتجـاه الـذي يغلّـب الإيقـاع الاجتماعي أو الرواية الاجتماعية.

٢- الاتجاه الذي يغلّب الرؤية الدينية في النسيج.

٣- الاتجاه الذي يغلّب الحس الوطني والقومي.

١ - الاتجاه الذي يغلّب الرؤية الاجتماعية:

عرضت قصص القدس التي تمثل الاتجاه الذي يغلّب الإيقاع الاجتماعي وشبكة العلاقات على سائر الروابط، عرضت لأبعاد اجتماعية متنوعة، فقد تناولت بعض القصص الهموم الاجتماعية اليومية لسكان مدينة القدس، ومعاناتهم من الاحتلال، وأصطدامهم بها يفرضه عليهم من قوانين وأنظمة تتعلق بحياتهم الاجتماعية، كالحصول على تصريح عمل، أو منع خروجهم من القدس إلى البلاد العربية الأخرى، أو الضائقة المالية التي يمرون بها، كما عرضت بعض القصص لصورة المرأة في القدس، إذ تناولت نموذج المرأة الأم، إلى جانب نموذج المرأة المناضلة التي تقاوم الاحتلال.

ففي قصة «الليرات العشر» لعمير دعنا، تناول الكاتب هموم العمال العرب في مدينة القدس تحت الاحتلال، واصطدامهم بقوانين الاحتلال وأنظمته، كما نجد في قصة «يوم تحت الاحتلال» لعبد الرحمن عباد، التي تعرض ما حدث مع الأستاذ خليل الذي فصل من عمله في التربية واضطر ليكون عاملاً وفي أول يوم يعمل فيه مع يونس في حاكورة يمتلكها اليهود، يأتي الموظف الاسرائيلي ويعطيه مخالفة بعشرين ليرة، لأنه يعمل دون تصريح، وما تكاد تمر ساعات حتى تأتي سيارة إسرائيلية، وتأخذ العمال العرب، ومنهم الأستاذ خليل إلى السجن، لأن لغماً انفجر قرب تلك المنطقة التي عمل فيها يوماً واحداً!

صورة المرأة:

عرضت قصص القدس صورة المرأة، فبينت لنا أدواراً مختلفة لها في الحياة:

وأهم هذه القصص:

- التحديق في المرآة لـ خليل السواحري
- عودة الغريب لـ رشاد أبو شاور
- تحت سقف الليل لـ أحمد عودة
- ابتسمي يا قدس لـ نبيه القاسم
- عهد من القدس لـ نجوى قعوار فرح.

وتعكس القصص السابقة صوراً مختلفة للمرأة في القدس، ففي قصتي «عهد من القدس» لنجوى قعوار فرح و«حتى لا ننسى» لجمال بنورة، تبدو فتاة مثقفة، تنتمي لحركة معينة لها لقاءات خاصة بالشباب المنتمي للحركة، كما جاء في القصة أو تحمل أفكاراً متحررة تؤمن بها، كما جاء في القصة الثانية التي تعرض -إلى جانب ذلك- أفكار المرأة اليهودية في صورة أخلاقية مبتذلة.

وعلى الرغم من تصوير القصتين لوضع المـرأة المثقفـة، إلا أن القدس لم تكن فيهما مكاناً جامداً تجري فيه الأحداث، وإنما نرى لها حضوراً واضحاً، دون أن يشغل الاهتمام بالمرأة كاتبي القصتين عن القدس.

ونلتقـي في قصتي «ابتسمـي يا قدس» لنبيه قاسـم، و«عودة الغريـب» لرشاد أبي شاور، بنموذج الفتاة المقاومة في القدس.

فوفـاء بطلة قصة أبي شاور يلقى عليها القبض في القدس بتهمة وضع المتفجرات في إحـدى دور السينمـا الإسرائيليـة، أما الفتـاة «بشرى» فقد قتل الأعـداء والدها، لأنه رفض أن يتخلّـى عن بيته لهم. ولكنها تنتقم لوالدها، وتثأر له من قاتليه، إذ قامت بعمليـة جريئة في حي الحبشة ضد الغريب وموكبه، كما يقول الكاتب، الذي جعل بطلة قصته مشدودة إلى القدس متعلقة بها، حين جعلها تصرخ رافضة تغيير اسمها وصورتها، لأن القدس عندها كالأم «ولا يمكن للواحد منّا أن تكـون له أكثر من أم في وقت واحد» وهذا أكسب القصة قيمة، وأشاع في أحداثها نبض الحياة وحرارتها.

٢ - الاتجاه الذي يغلّب الرؤية الدينية في النسيج:

لم يكـن هنـاك قصصـاً كثـيرة، تغلّب الرؤية الدينية في نسيجها، ولعل ذلك عائد إلى أن تلـك القصائـد كان يكتبها الشعراء في مناسبـات دينية وثيقـة الصلة بالقدس كالإسراء والمعـراج، أما كتّـاب القصة فلا يكتبـون قصصهم ليعبروا بها عن احتفائهم بالمناسبـات، دينية كانت أم غير ذلك، وذلك لا ينفي وجود بعض الإرشادات التي تحمل بعداً دينياً في قصص القدس المختلفة، ولكن الرؤية الدينية لم تكن هي الرؤية الغالبة على نسيجها.

وهنـاك أربـع قصص، تعـد ذات رؤية دينيـة، الأولى قصـة «موعـد في القدس» لسليمان المشينـي، والثانية قصة «الراكبون إلى بيـت المقدس» ليوسـف صالح، والثالثة «الحانوت» لإبراهيم العلم، والرابعة «أعدّوا لهم» لسعادة أبي عراق.

وقـد غلب علـى هذه القصـة المباشرة والولـع بسرد الأحـداث، بأسلـوب يقترب مـن المقالـة الصحفية، كما جـاء في قصة «الحانوت» لإبراهيم العلم.

ولعل مـن أكثر القصصـن الدينية صلة بالقدس قصـة «الراكبون إلى بيت المقدس»

ليوسف صالح، التي تعرض لرحلة أحد أفراد المدينة المنورة، وقد خرج في شلّة من قومه لزيارة بيت المقدس، بغية التعرف إلى المكان الذي عرج منه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء.

٣- الاتجاه الذي يغلّب الحس الوطني والقومي:

سنقف هنا عند ثلاث من القصص التي تمثّل قصص القدس - وتغلّب الحس الوطني على نسيجها، الأولى «نفس تنباك» لخليل السواحري، والثانية «حكاية للأسوار القديمة»، لمفيد نحلة، والثالثة «بعد الحصار، قبل الشمس بقليل» لأكرم هنية.

كما هناك بعض القصص التي تتناول موقف العرب من فلسطين بعامة، والقدس بخاصة، مبينة تقصيرهم تجاهها، أو موقفهم المرفوض منها، كما يتضح من قصة «مروخ هبا مار سادات» لمحمد علي طه، وقصة «فصول في توقيع الاتفاقية» لعادل الأسطة، وقصة «الشيخ مكتوم يصلّي في أورشليم» ليوسف طاهر العبيدي.

يتحدث يوسف طاهر العبيدي في قصته «الشيخ مكتوم يصلي في أورشليم» عن أحد شيوخ الخليج الذي يسافر إلى باريس، ويحلم بالقدس، ويتمنى أن يصلي ركعة واحدة فيها ثم يموت. ويذهب إلى إحدى حانات باريس، وهناك يقع في فخاخ (الموساد) الإسرائيلي، الذين يعرفونه بفتاة جميلة شقراء اسمها «أورشليم»، وحين يستبّد به السكر تسيطر عليه الفتاة وتزعم له أنها القدس، فيقضي معها ليلته، مقابل أربعمئة ألف فرنك فرنسي! فالقصة تمتلىء بالسخرية المرّة، ويشيع فيها النقد اللاذع للعرب الذين يمثّلهم عند الكاتب - الشيخ مكتوم - والذين يحلمون بالعودة إلى القدس والصلاة فيها بالقول فقط، بينما أعمالهم لا تمكنهم من ذلك. وقد تدخّل الكاتب في بناء أحداث القصة تدخلاً مباشراً، وبخاصة حين روى لنا كيف قضى الشيخ مكتوم ليلته الآثمة مع أورشليم (الموساد)، يقول: «إنه صلّى بها، وصلّى لها، وتعبّد في محرابها.. ولكنه نسي بأن القدس ما زالت ثابتة واقفة راسخة الأقدام، رافعة رأسها نحو السماء».

القدس في الرواية:

تفاوتت عناية روايات هذه الفترة بالقدس وما يتصل بها. نجد بعض الروايات تذكر القدس عرضاً، أو في قلة اهتمام نراه في عدد منها. غير أن هناك بعض الروايات التي توجّه إلى القدس اهتمامها، أو تكاد تقصر تناولها عليها والروايات المتصلة

بالقدس يمكن أن تندرج تحت محورين اثنين:

المحور الأول:

وهو المحور الذي تغلّبت الرؤية الاجتماعية في رواياته على نسيجها الفني. وتناولت هذه الروايات هموم الفلسطينين داخل الوطن وخارجه، والحديث عن رحيلهم وتشتيتهم في الآفاق، بعد مغادرة وطنهم.

المحور الثاني:

وهو المحور السياسي المتمثّل في الصراع مع الأعداء.

أما الروايات التي غلبت الرؤية الاجتماعية على نسيجها الفني فتمثّلها رواية: «آلام نازحة» لأحمد عويدي العبادي

ورواية «إلى اللقاء في يافا» لهيام رمزي الدردنجي

ورواية «السفينة» لجبرا إبراهيم جبرا

و«البحث عن وليد مسعود» لجبرا إبراهيم جبرا، أيضاً

و«الدم والتراب» لعطيّة عبد الله عطيّة

ورواية «الرحيل» لمفيد نحلة - ورواية «طريق إلى البحر» لفاروق وادي.

أما روايات المحور السياسي المتمثل في الصراع مع الأعداء فتمثّلها الروايات التالية:

«جراح جديدة» لعيسى الناعوري.

و«سداسية الأيام الستة» لأميل حبيبي

و«الوقائع الغريبة في اختفاء أبي النحس المتشائل» لإميل حبيبي

و«حارة النصارى» لنبيل خوري

وقد سيطرت النكسة على معظم أحداث الروايات التي صدرت بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، فعرضت لتشرد الشعب الفلسطيني وما كان يدور من قتال في مدينة القدس في تلك المعركة. ولكن ذلك لم يكن إلا تسجيلاً للواقع، ونقلاً له كما هو في واقع الحياة.

وبدت صورة القدس وما يتصل بها تفوق هذا «الواقع التسجيلي»، وإن لم تكن صورتها فيها مفعمة بالحركة والحياة.

القدس في المسرحية:

إن المسرحيات التي عرضت للقدس كانت قليلة العدد، وربما يعود ذلك إلى جملة من الأسباب أهمها: قلّة المسرحيات المؤلفة في فلسطين إذا ما قيست بالدواوين الشعرية، والمجموعات القصصية، والروايات. وكان كثير من هذه المسرحيات إما مترجماً، أو معّداً إعداداً مسرحياً، ولكنه في الأصل منقول عن عدد من المسرحيات العربية، بعد إجراء شيء من التعديل والتغيير عليها.

وكانت المسرحيات التي عرضت للقدس تهتم في معظمها - بالجوانب التاريخية إلى جانب القضايا الاجتماعية، دون أن تكون هذه القضايا منفصلة عن بعضها، وإنما كانت تتداخل فيما بينها.

ومن هذه المسرحيات: «فتح بيت المقدس» للنادي الكاثوليكي في حيفا

و«فلسطين مأساة عائلات الشهداء المجاهدين» لسعيد شقير

و«وطن الشهيد» لبرهان الدين العبوشي

و«القدس الشريف» لشكري سعيد

ومسرحية «طالب الثأر ما قعد» لهدية عبد الهادي.

و«أسرة الشهيد» لمحيي الدين الحاج عيسى

و«راحيل» لنجاتي البخاري

و«الطريق إلى القدس» لعابدين بسيسو

و«شعب صامد» لأحمد عبد العزيز دحنون

وغيرها من المسرحيات. غير أن ما يتضح لنا أن صورة القدس في الأدب المسرحي في هذه الفترة، صورة مفككة الأجزاء لا تحمل قضية مصيرية، أو همّاً جماهيرياً من الهموم التي يحملها المسرح، ويعرضها أمام الجمهور أو المتلقين. وكان كثير من هذه المسرحيات يعد للطلبة أو الناشئين، ليقوموا بتمثيلها، مما جعل أصحابها - في الغالب - يكتبون تلك المسرحيات بأسلوب يوافق «السن المدرسي»، كما أن معظم الذين عرضوا للقدس في مسرحياتهم، كان همهم موجهاً لإبراز الأحداث التاريخية التي مرت بفلسطين وأهلها، ولكن تناولهم لتلك الأحداث كان أقرب إلى تناول المؤرخين والصحافيين منه إلى تناول المبدعين، فالمبدع قد يعرف ما يعرفه المؤرخ، لكنه ليس مطلوباً منه أن يقف عند دور المؤرخ، وإنما عليه أن يتخطاه، حتى لا يقوم بنسخ الواقع وتكراره كما هو.

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أن الذين عرضوا للقدس في مسرحياتهم لم يكونوا - في معظمهم - من المبدعين المتفوقين الذين يحسنون التعامل مع القضايا الحياتية، ويدركون كيفية عرضها على الجمهور. كما أن المسرحيات نفسها كانت ضعيفة وهشة لا تكاد في الغالب تتجاوز النظم، إن كانت مسرحية شعرية أو الوصف أو تسجيل الواقع إن كانت مسرحية نثرية.

وكل ما ذكرناه أسهم إلى حد كبير في رسم صورة غير مضيئة للقدس في المسرحية، بل لقد بدت القدس فيها ظرفاً تاريخياً تجري فيه الأحداث، دون أن تكون قادرة على تحريك هذه الأحداث والتفاعل معها.

المصادر والمراجع

١- الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة المقدسي، ج ١ صفحة ١٧٩.
٢- القدسيات في شعر الحروب الصليبية، ناجي عبد الجبار محمود عبد الجابر.
٣- مجلة الكرامة، السنة ٨، العدد ٩٠، تشرين الأول ١٩٨٤، صفحة ٢١-٢٥.
٤- آلام نازحة، أحمد العويدي العبادي.
٥- الرواية في الأدب الفلسطيني، أحمد عطية أبو مطر، صفحة ١٥١.
٦- سداسية الأيام الستة، أميل حبيبي، عدد تشرين الثاني ١٩٦٨.
٧- جراح جديدة، عيس الناعوري صفحة ١٢١.
٨- ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، فاروق وادي.
٩- مأساة فلسطين، سعيد شقير.
١٠-مسرح الاحتلال في فلسطين، ياسر الملاح.
١١-نشأة الرواية والمسرحية في فلسطين، د. ابراهيم السعافين.
١٢-وطن الشهيد، برهان الدين العبوشي.
١٣-شعب صامد، أحمد عبد العزيز دجنون.
١٤-القصة العربية في فلسطين المحتلة، عادل الأسطة.
١٥-دراسات في القصة المحلية، نبيه القاسم. صفحة ١٣٩.
١٦-القصة الفلسطينية القصيرة في الأراضي المحتلة، فخري صالح صفحة ١٣٦.
١٧-المفاتيح الدور في الأقفال، علي الخليلي.

حفريات «صندوق اكتشاف فلسطين» البريطاني - الصهيوني

سليمان عبد المنعم*

الدولة البريطانية تصبح صهيونية قبل نشوء الحركة الصهيونية بنصف قرن حيث لحظت التهديد الذي شكله محمد علي عندما احتل بلاد الشام ووصل إلى الحدود التركية.

فقد نشأت عند البريطانيين مسألةُ مستقبل فلسطين وهل ستبقى بيد تركية أم ستفوز بها بريطانيا العظمى، لأنها - أي بريطانية - بدأت تفكر في ضم عكا وقبرص إلى الإمبراطورية البريطانية وأخذت تسعى لضمان حرية طريق الهند من أي دولة أخرى وخاصة بعد حملة نابليون.

* باحث في تراث فلسطين (فلسطين).

فيمــا سبــق وبهــذا الخصوصــن كتب الأيرل شافتسبري بالمرستون وزير الخارجية البريطاني يقــترح إقامة مستعمرة بريطانية (دومنيــون) وأضــاف أن المنطقة تحتاج إلى المال والعمل وتحــدث في رسالة أخرى /في ٢٥ أيلــول ١٨٤٠/ كتب عن اليهود بوصفهم تجار بارزيــن وقال إن المنطقــة تحتاج إلى مال وسكان واستنتــج أن اليهود يستطيعون تزويدها بالمطلوب وسأل شافتسبري أوليس لبريطانية مصلحة في ذلك؟؟

وفي تصريحات كثيرة لكتاب بريطانيين ومسؤولين دعوا إلى بسط النفوذ البريطاني علــى سورية (فلسطــين) واستخدام أبناء إسرائيل أو العبريين في استيطانها على نسق المستوطنــين الأوروبيين في أمريكا، وهذا ما يفســر كل ما حدث فيما بعد، وما صدر من كتب وتصريحات وخطب دعمت الاستيطان في فلسطين وكانت مقدمة لوعد بلفور وغيره من مساعــدات بريطانية صريحــة لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

تشارلز ولسن وتنقيبات مبكرة في القدس

ويعد أن تمكن بعض المستوطنين اليهود من الإقامة في القدس أخــذوا بالسعي إلى تحقيق بعض أهدافهــم التوراتية المزعومة ومحاولــة الكشــف عــن آثــار في فلسطين وخاصة في مدينة القدس تدعم هذه الأوهام حيــث فشلوا في كل مــكان قاموا بحفره ولم يتوصلوا إلى أي دليــل يُطَمئن آمالهم فكان عملهم دائمــاً في محاولة البحث عن هدف مزعــوم لا يقوم له أي دليــل سوى رواياتهم وأحلامهــم. وممن قاموا بهــذه الحفريات النقيب تشارلز ولسن[1] حيث نزل في تاريخ /٣٠ أيلول ١٨٦٤/ إلى ميناء يافا هو وأربعة عرفاء وتابعوا السفر فوراً ودون توقف ورغم مخاطر الطريــق وحلول الظلام، وصلوا إلى المدينــة المقدسة وفي اليوم التالي كان ولسن يمثل حكومتــه وكان البنــد الأول في خطة مهمته اجتماعاً مع القنصل البريطاني الذي كان سيتــولى مهمة توفير الصلــة الرسمية مــع عزت باشــا المحافظ العثمــاني لمدينة القدس فتــم الترحيب به من قبل السلطات الرسمية.

وبسرعة بــدؤوا العمل مباشرةً وحددوا خطاً أساسياً في الجهة الجنوبية الغربية

وراحوا متتبعين الإجراءات التضاريسية النموذجيــة ونشروا سلسلة مــن القياسات المثلثية لابتداع شبكة رئيسية تزيد مساحتها عــن اثني عشر ميلاً مربعاً سيتم في إطارها تسجيل جميع التفاصيــل المادية ونقلها إلى الخرائط الأم للقدس.

ولاحظ ولسن وجود مجمع هائل من الصهاريج تحت الأرض داخل الحرم الشريف، وباشر بأعمال تنقيبية هناك وعملية التقصي هذه كانت أشمل وأعمق من أية عملية تمت في السابق، وولسن وفريقه وضعوا بعناية مخططاً لجميع الملامح السطحية، ونزلوا إلى سلسلة من الأقبية الموجودة تحت الأرض مكتشفين أن القياسات السابقة كانت في العديد من الحالات مستندة إلى الخيال أكثر من اعتمادها على الواقع فأين الهدف الكبير الذي يداعب أحلامهم، أم هو كذبة كبرى على التاريخ والناس..؟

أما وجود الصهاريج الكبيرة لم يكن قابلاً للدحض وبدا لهم كما تخيلوا أن الموقع القديم للهيكل كما لو أنه النقطة المركزية لشبكة مياه واسعة، مما دفع ولسن إلى الإحساس بضرورة تنقيب قنواته ومجاريه المائية عبر زحمة البيوت والمباني المحيطة بالأسوار الداعمة للحرم الشريف.

كان جميع مكتشفي القدس السابقين قد حصروا أعمالهم التنقيبية بالآثار المرئية فوق سطح الأرض، أما ولسن وفريقه فقد نزلوا إلى ما تحت الأرض زاحفين عبر المجاري والبلاليع ونازلين إلى قلب الصهاريج غير المستعملة، فما لبثوا أن تعثروا بصورة غير متوقعة من قبل. ففي حجرة تحت الأرض إلى الشمال مباشرةً من (حائط المبكى) اليهودي كما اعتقدوا، تمكن الفريق من التعرف على قنطرة أثرية ضخمة متصلة بالسور الخارجي للحرم عُرفت بقنطرة ولسن وهي شبيهة بقنطرة رينسن (باحث آثاري قام بأعمال وحفريات لنفس الهدف ولكنه لم يفلح بشيء) وهي قنطرة موازية تماماً لهذه القنطرة وتمثل مدخلاً إضافياً آخر من داخل (الهيكل اليهودي المفترض) .

وهكذا فإن المؤشرات العظيمة الدالة على بهاء القدس القديمة كانت مدفونة هناك في شبكة بلاليع المدينة الشرق أوسطية الحديثة، وهكذا بات واضحاً لولسن أن من شأن متابعة عمليات الاستكشاف تحت الأرض أن تنطوي على قدر كبير من المكاسب المتعلقة بالمعلومات الأثرية القيمة، فأمر بحفر ممر رأسي تحت المدينة الحالية وبلغ الحفر أكثر من ثمانين قدماً ومزيداً من التنقيب، ولكنه ارتأى ترك ذلك لبعثات أفضل تجهيزاً لمثل هذه المهمة.

الملكة ورعايتها لصندوق اكتشاف فلسطين

وجرى تصوير هذه المكتشفات في بريطانيا على أنها فتح كبير في الوصول إلى الهيكل المطلوب فقامت الدنيا ولم تقعد تأييداً لهذه الاكتشافات.

وبعد صلاة افتتاحية ترأسها أسقف لندن وليم طمسن رئيس أساقفة يورك يوجز أهداف جمعيته لدعم هذا العمل فكشف بوضوح عن التوجهات المستقبلية للعمل إذ قال: (إن هذا البلد، فلسطين عائدة لكم ولي إنه لنا أساساً، فقد منحت فلسطين إلى أبي إسرائيل بالعبارات التالية.. هيا أمش في الأرض طولاً وعرضاً لأنني سأعطيك إياها) ونحن عازمون على المشي عبر فلسطين بالطول والعرض لأن تلك الأرض التي نتوجه إليها بوصفها منبعاً لجميع آمالنا إنها الأرض التي نتطلع إليها بوطنية صادقة تضاهي حماسنا الوطني لدى النظر إلى انكلترا القديمة العزيزة هذه، وأبلغ الحضور بعد الشرح والتوضيح بأن الملكة فكتوريا بالذات كانت قد تفضلت بالموافقة على أن تكون الراعية (وليّة النعمة) الرسمية لصندوق اكتشاف فلسطين.

وبعد أن انتشر تسويق هذا البرنامج في بريطانيا وغيرها من البلدان الأوروبية، تطور الدعم لهذا الصندوق، فقام الصندوق بإرسال إشارات واضحة للجمهور عن مدى كفاءة تنقيب ولسن العالية بنشر كتابين كبيرين عنها، فكان المجلد الضخم الأول للنص التفصيلي متضمناً مخططين مرسومين بوضوح لمدينة القدس أحدهما بمقياس (١/ ٢٥٠٠٠) والثاني أكثر تفصيلاً من الأول بمقياس (١/ ١٠٠٠٠) وإضافة إلى ذلك كانت ثمة مخططات معمارية دقيقة لكل من كنيسة القيامة وقبة الصخرة وغيرهما من المعالم الأثرية الهامة في أرجاء المدينة لإثارة العواطف لدعم أهداف وهمية يدعون إليها.

ويرهن ولسن على أن اكتشاف فلسطين كان أمراً عملياً قابلاً للتنفيذ، ثم ما لبس أن ضُخت العديد من المساهمات في صندوق (اكتشاف فلسطين) من جانب جامعتي أكسفورد وكمبريدج والمحفل الماسوني الأعظم ولجنة تحسين سورية.

وهكذا باتت الأرض ممهدة لدعم المزيد من التقصي، وكانت حملة جديدة توشك أن تبدأ.. ولكن ورغم كل الدعم والجهود المبذولة توقفت أعمال تشارلز ولسن وفريقه لأنها لم تحقق شيئاً ملموساً من الأهداف المعينة.

تشارلز وَرّن .. سراديب جديدة

وفي عـام (١٨٦٧م) وعلـى نفس المنوال وترويج الأكاذيب بدأ تشارلز وَرّن(٣) بحفر سراديـب رأسية في نقاط مختلفة إلى جهتي الجنـوب والغرب من الحـرم الشريف، وفي تموز جرى مـد الحفريات إلى جهة الزاوية الجنوبيـة الغربية من سور الحرم وقد تبين أن هـذا السـور المهيب المنتصـب بارتفاع يصـل إلى ثمانين قدماً عـن مستوى سطح الأرض ممتـداً مسافـةً مئة قـدم أخرى تحت الأرض وفي الزاوية عثر المنقبون على علامـات اعتقـدوا أن النحاتين الفينيقيين قد وضعوها.

وعندمـا صُدمَ هذا البحـث والتنقيب بعثرات كبيرة منها مالية -كما قالوا- وأهمهـا عدم إدراك التنفيذ مبتغاه من الكشـف عـن الهيكل في دعـم تخرصاتهم فأوقف وَرّن أعمال التنقيب وعاد إلى انكلترا مطالباً بتعزيزات جديدة لنفس الهدف.

تنقيبات متنوعة

وحتـى العـام (١٨٨٣م) كان النشـاط الأثري لمختلف الجاليات الأجنبية في القدس لا يـزال مطبوعاً بدمغـة الهواجس الدينية والسياسية (فالجمعية الأرثوذكسية الروسية في فلسطـين) قامـت بأعمـال التنقيـب في ممتلكاتهـا القريبـة مـن كنيسـة المهد وثمة دراسـات إضافية كانـت تتم من قبل الدونيميكان الفرنسيين عند موقع كنيستهم الجديـدة – أيضاً – إلى الشمال من المدينة على أيدي الأوغسطينيين بالقرب من ديرهم على جبـل صهيون ومـن قبـل القساوسة البيض عند القديس اسطفان وعلى يد القس صـلاح مريـل المستكشف السابـق لصالح جمعية (استكشاف فلسطين الأمريكية) وكل هـذا كان مدفوعاً بحماسـ الجمهور العام من متدينـي انكلترا وأوروبـة وأمريكا إلى اكتشاف أوابد ذات مغزى ديني وفي مقدمتـه قبر السيـد المسيح عليه السلام.

أما الدافع وراء الكثير من أعمال الحفر والتنقيـب في القدس كان كامنـاً في مسألة صحة المواقـع المقدسة التقليديـة المعلقة، والتنقيبـات الروسيـة بالقرب مـن كنيسة القيامـة خصوصاً كان قـد أعاد خلافات قديمة في مسألة حساسة.

فتحت إشـراف مهندس سويسري المولد ومراسل غير متفرغ لنشرة صندوق فلسطين يدعـى كونر أوشيك حيث كان قد ميز بقايا سـور مدينة قديمـة إلى الشـرق مما يدل أن الموقـع كان خـارج المدينة في عهد يسوع

وهـذه الحقيقـة اعترضت عليهـا تقارير بروتستانتية.

ويعـد أخـذ ورد بين علمـاء الآثار كل لـه رأيه ومع حلول صيـف (١٨٩٧م) كانت الحفريـات قـد تعقبت الحـدود الجنوبية للمدينـة القديمـة ونفذت عـدة عمليات سبر تجريبيـة داخلها فكشفوا عـن أسوار وتحصينـات وشـوارع مرصوفة وتمديدات مياه وأطلال كنيسة عائدة إلى القرن الخامس الميلادي غـير أن ما هو أهم من جميع هذه المكتشفات أنه تم تسليط الضوء الكامل لأول مرة لتعقب آثـار القدس، فالسفح الجنوبي للمدينة رغم بقائه الآن خارج الأسوار، فقد كان جـزءاً عضوياً من المدينـة من العصر البرونزي إلى الحقبة البيزنطية.

وإن الأشغال المستمرة تمخض عن قدر كبير من الفوضى وتداخل المباني

والمقالع وأكوام القمامة ومخلفات الحت. وفكـرة البحث عن أبـدة معينة مذكورة في الكتـاب المقدس تبين أنها فكرة غير عملية، أما ما هو أكـثر أهمية بما لا يقاس فكانت متمثلـة بالمبـادرة أولاً إلى قـراءة تفاصيل التطور التاريخـي للمدينـة لاكتساب فهم أشمل لأحقابها المختلفة.

فعمليـات الاستكشاف في القدس كانت مـن الآن فصاعـداً تتطلب ليس المال أو الحماس بل أجيالاً من العمل الآثاري المكثف والمتراكم باضطراد وبذلك المعنى فإن العلم قد انتصـر كي يتقدم باتجاه مرحلة جديدة أكثر حداثة.

وفي العشرين من حزيران عام (١٨٩٧م) تم إغلاق الحفريات المقدسة للمرة الأخيرة لأنهـا لم تصل إلى كشـف أي ادعاء توراتي، وإن وعيـاً علميـاً كان قـد بـدأ يحل محل الأساطير التاريخية العريقـة والعتيدة عن المدينة وعليه فقـد بات منذ عام (١٨٩٥م) على جميـع المرشحين لشغـل وظيفة دليل سياحي المستحدثة في حينه مطالبين باجتياز امتحان في تاريخ القدس الذي كان مستمداً في معظمه إلى الاستنتاجـات التي أفرزتها حفريـات (صنـدوق اكتشـاف فلسطـين) الأثرية ولكـن هذه الوظيفـة أخذ يسيطر عليها أفراد من المستوطنات اليهودية، وبدأ نفوذهم بمرور الأيـام يبرهن على أنه أقوى من مساعي أي من البعثات التبشيرية.

وهـذا مـا استمـر بعـد قيـام الكيان الصهيوني الغاصب والمخرب والقاتل للبشر والحجـر ومحاولته اليوميـة إلى ضرب كل ما يخالـف الأهـداف الصهيونية الوهمية والكاذبة حتى هذه الدقيقة.

فالكيان يقوم بحفريات كبيرة تحت الحرم الشريف بحجة اكتشاف الهيكل المزعوم حتى بات الحرم وما حوله مهدداً بالانهيار في كل لحظة وبذلك ينتهي أمرُ الحرم ويصبحون أمام أطلال تدعوهم إلى بناء جديد.

أنفاق مستمرة وبناء جديد

والآن يخطط العدو إلى بناء كنيس جديد أمام الحرم الشريف ويحجب الرؤية مبدئياً عن الحرم، ثم محاولة لإظهار المباني حول الحرم والتي طال أساساتها الحفر من قريب أو بعيد وأُعلن أنها آيلة للسقوط وتلك مقدمة لإخلائها وإجلاء سكانها الأصليين منذ آلاف السنين إلى أماكن بعيدة عن هذا المشروع ويدعم هذا أيضاً بناء المستوطنات التي تطوق المدينة وتخنقها وتطرد سكانها.

ومع هذه الزحمة من التخريب للمدينة القديمة فإن حفر نفق البراق ودعمه بنفق آخر جديد يوازيه يجعل هذا المشروع في نهايته كما يصرح الصهاينة في كل آن ودون إخفاء أي جزء من هذا المخطط، وقد تمت أكثر هذه المحاصرات والإعاقات التي تمارس على الشعب الفلسطيني بشكل مشاريع مصورة ومعلنة لدى وسائط الإعلام العالمية، وهو نوعٌ من الاستعراض الإعلامي وذلك بند أساسي من معركة العدو ضد الحرم الشريف والقدس وفلسطين وغيرها من المقدسات العربية.

فنحن كعرب وفلسطينيين نقول لو كان في القدس عندما دخلها المسلمون في السنة الخامسة عشرة للهجرة معبد أوكنيس أو هيكل يهودي لأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالإبقاء عليه بل لأمر بصيانته ورعايته والمحافظة على نقوشه ومحتوياته مثلما أمر بالمحافظة على كنائس المسيحيين ومزاراتهم وما فيها من صور وصلبان وتماثيل.

ولو كان في القدس مبانٍ أو هياكل أو آثار يهودية لما كان هناك ما يدعو جنرالات إسرائيل أمثال (موشي ديان) و(بارين) و(وايزمان) و(هرتوغ) إلى أن يتحولوا جميعاً إلى علماء آثار وهواة حفريات ينبشون تحت الأرض في القدس وما حولها يفتشون عن معابد يهودية قديمة بائدة من غير أن نسمع وحتى الآن عن اكتشاف شيء مما ينقصهم في هذا المجال أو يحقق خيالاتهم المزعومة.

وبالرغم من كل هذه الحقائق فإنه في هذه الأيام تتعالى أصوات اليهود في أنحاء العالم بكل ما تنتجه لهم وسائل الدعاية

والإعلام مـن أساليب التضليـل والافتراء فنسمع ونقرأ ونرى في كل يوم من يقول: إن المسلمين أخذوا القدس من اليهود ثم أخذوا فلسطين واستولوا على هذه البلاد وحكموها قروناً ثم نهض اليهود من سباتهم واستبدلوا ضعفهم بقوة السلاح فاستردوا من المسلمين بلدهم اليهـودي ومدينتهـم اليهودية، إنها والحقيقـة أكذوبة من أكبر الأكاذيب قالوها وصدقوهـا والحقيقـة أن المسلمين حرروا القدس من الرومان الذيـن حكموها آلاف السنـين وكان قد حكمهـا كل من المصريين والآشوريـين والبابليين ودخل المدينة نبوخذ نصر ملـك بابـل وأحرقها وتركهـا مدينة مدمرة ثم حكمها الفرس ثم جاء الإغريق وحكموها، ودخلهـا الرومان وكان كل حاكم يدخلها يحرق ويدمر ولا يُبقي لمن كان فيها مـن قبل أي أثر، ولم يكن لهم كنيس أو هيكل فسمـح لهـم الرومان دخـول معبدهم ولما ساءت العلاقات بين الرومـان واليهود أمر الإمبراطور (نيرون) بحرق القدس كما أحرق روما فلم يبقِ من معبد القدس الروماني سوى حائط وهو ما يسمونه (حائط المبكى) وكان هذا في سنـة ٧٠ ميلادية.. وهكذا لما دخل المسلمون القدس في السنة الخامسة عشر للهجرة لم يكن فيها أي أثر يدل عليهم.

الهوامش:

١- النقيب تشارلز ولسن من الهندسة الملكية البريطانية في عصر التقنية الصناعية.

٢- تشارلز وَرَن مسؤول التنقيب في القدس (١٨٦٧ – ١٨٧٠).

الأبيوردي ومرثية القدس
مدينة ضائعة وشاعر مُضَيّع

إسماعيل مروة *

حين كنا طلاباً درسنا قصيدة للشاعر الأبيوردي تحمل عنوان القدس، وقد مررنا على هذه القصيدة عَرَضاً كما مرّ غيرنا، ولم تثبت في أذهاننا، بل ولم نحفظها كما حفظنا لأبي الطيب أو المعرّي أو أبي فراس.. ولست أدري كيف التصقت بي هذه القصيدة منذ قرأتها! فلا تزال صورها ماثلةً في ذاكرتي حتى وقعت عيني في مكتبة الرصيف ذات يوم جمعة على كتاب بغلاف كرتوني أبيض للدكتور الراحل ممدوح حقي بعنوان (الأبيوردي).

* كاتب وإعلامي وناقد سوري.

اقتنيته يومها دون أن أعرف الكثير عن الشاعر، وربما كان دافع الاقتناء يومها رخص ثمن الكتاب الذي عرفت قيمته فيما بعد..

وحين تخصصت في قسم اللغة العربية بدأت أمارس هوايتي باقتناء الكتب على ضيق ذات اليد، وكان ديوان الأبيوردي بمجلديه الصادر عن مجمع اللغة العربية بدمشق وبتحقيق علمي عالٍ للدكتور عمر الأسعد من أوائل الدواوين التي اعتنيت بها.. وبحثت عن قصيدة القدس فيه فلم أجدها، وعندها عرفت أن القدماء لم يضعوا عناوين قصائدهم، وصرت أبحث حسب الأصول العلمية على المطلع والقافية، فقرأت القصيدة وحفظتها ثم غبت عنها زمناً فنسيتها..

وفي عام ١٩٩٥ عادت القصيدة قسراً إلى اهتمامي، فقد عرض عليَّ الصديق الدكتور هاني صالح في شتاء ذلك العام ترجمته لكتاب كتبته المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه (التوجه الأوروبي إلى العرب والإسلام – حقيقة قادمة وقدرٌ محتوم) وطلب إليَّ أن أستخرج له الأشعار الموجودة في الكتاب، ليأخذها من مصادرها العربية بدل أن تتم ترجمتها مرّة أخرى بطريقة غير شعرية، وبين هذه الأشعار كانت قصيدة (القدس) للأبيوردي، وهنا تملكني العجب، وأنا أرى اهتمام المستشرقين بهذه القصيدة، في الوقت الذي لا نلتفت فيه إليها..

ومجدداً يحدثني الصديق الدكتور علي القيّم عن عدد في مجلة المعرفة عن مدينة القدس، ودون تردد قلت له: قصيدة القدس للأبيوردي.. مصادفات عديدة ربطتني بهذه القصيدة، ولكنها بمجملها مصادفات سعيدة، فوجدتني بعد انغماس سنوات في الإعلام ومتابعته أعود إلى مكتبتي وأنفض الغبار عن بعض كتبها، لأمارس بتلذذ لا يعدله تلذذ دور الباحث المنقّب – مع أني لست هو – وأجمع الكتب من أجل دراسة قصيدة تمثل مرحلة فاصلة في تاريخنا مع سقوط القدس بيد الإفرنج فيما عُرف بالحروب الصليبية، هذه القصيدة التي تذكرنا بسقوط القدس، وتعيد إلينا الأمل بتحريرها وإن طال الزمن، ولكن من هو صاحب القصيدة الأبيوردي؟

الأبيوردي العالم النحوي القارئ الشاعر:

لم يكن الأبيوردي شاعراً فحسب، بل كان عالماً ذكرت كتبُ التراجم مؤلفاته، ونحوياً وضعه مترجمو النُحاة في ذروة النُحاة، وتحدثوا عن تصانيف في النحو واللغة لم يأت

بها غيره، وهو مؤرخٌ ترك تصانيفَ تاريخيةً عديـدة، وهو إلى ذلك أحد قُـرّاء نيسابور، ويعـد ذكر كلّ ما ذكر يأتـي المصنفون على جانبه الشعري، وكأنّ شعره، وهو من النسق الأعلى في الشعر، يأتـي من نافلة اهتمامه وعلومه!

يذكر الزركلي في الأعـلام، وهو مفتاح كتب التراجم في عصرنا، الأبيورديَّ، فيذكر عام وفاته، ولا يذكر ولادته، فيقول: «محمد بن أحمد بـن محمد القرشـي الأموي، أبو المظفر، شاعـر عالي الطبقة، مـؤرخ، عالم بـالأدب، وُلد في أبيـورد في خراسان ومات في أصبهـان كهلاً. من كتبـه: تاريخ أبيورد، المختلـف والمؤتلـف في الأنسـاب، طبقات العلمـاء في كل فنّ، أنسـاب العرب، ديوان شعر..» ثم ذكر بعض أقـوال العلماء فيه.. بعـد ترجمة الزركلي عرفـت سبب اهتمام المستشرقـين بـه، فهو ليس شاعـراً مجيداً فقـط، بل إنه عـالم ومـؤرخ ونسّابة. ولكن كيف يغيـب عالمنا عنّا وتُعيد زيغريد هونكه اكتشافَه؟ بل إنّ أعجب العجب أنني عندما بحثت في ترجمته في الكتب القديمة وجدت نماذج مختارةً من شعـره، ولكن الكتب كلّها – عدا ديوانـه – لم تذكر قصيدته العظيمة عن القدس..! ومع ذلك حـين استشهدت هونكـه بالأبيـوردي، استشهـدت بـه في حديثها عـن الحمـلات الصليبية، وتحت عنوان: «وصمة عارٍ على الجبين الأوروبي»، وكان شعر الأبيـوردي للتدليل على همجية الأوروبيـين وحملاتهم العدوانيـة، فتقول: «فـلا عجب أن يكون هناك حتى يومنا هذا وصمة لا تُمحى علـى الجبين الأوروبي في الوعي والإدراك العربي. وقد ترك الشاعر أبو المظفر الأبيوردي العنان لخياله في هذه الأبيات والألم يعتصـره لانتصار الغزاة على شعبـه، فكان هذا الألم شعـراً يدعو فيه إلى الجهاد..» ص ٧٤

الطريف أنّ ما تـراه هونكه وصمة عار لا نعرفـه ولا نحفظه ولا نردده، مع أنّه كان دعوة إلى الجهاد واستنهاض الهمم!

حتى كتبنا القديمة لم تستشهد بقصيدته التي رأتها هونكه حافزاً للجهاد، فأي قراءة نمارس؟ وأي تاريخ نسترجع؟!

أما السيوطي في (بُغيـة الوُعاة) فيذكر الأبيوردي بنسب كامل ويقول في علمه نقلاً عن السمعاني: «أوحد عصره، وفريد دهره، في معرفة اللغة والأنساب وغير ذلك، وأورد له من شعره بما عجز عنه الأوائل من معانٍ لم يُسبق إليها، وأليـق ما وُصف به قول أبي العلاء المعرّي:

وإنّي وإنْ كنت الأخيرَ زمانُه
لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

أخذ عن عبد القادر الجرجاني، وإسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي، وأبي بكر بن خلف الشيرازي، ومالك بن أحمد البانياسيّ، وروى عنه جماعة. وصنّف كتباً منها: المختلف والمؤتلف، طبقات العلم، تاريخ أبيورد، تاريخ نسا، وغير ذلك، وله في اللغة مصنفات لم يُسبق إليها..» ١/ ٤٠

وبعد أنّ قرأت ترجمته في بغية الوُعاة، وعلى الرغم من عهدي الطويل معه، وجدتُ رغبةً في الاستزادة، عسى أنْ أقدم شيئاً علمياً ذا قيمة، لا يكون مجرد إنشاء وتدبيج مدحيّ، فتابعت ترجمته في معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي فوجدت الحموي على تحفّظه وشدّته، يخصه بترجمة طويلة، ويذكر أسماء كتبه وقصته، ويورد شيئاً من شعره، ليس بينها قصيدة القدس، فيقول فيه: «كان فاضلاً في العربية والعلوم الأدبية، نسّابة ليس مثله، متكبراً عظيماً» ٥/ ٢٣٦٠

وهذا ما أورده القفطي في كتابه (المحمدون من الشعراء) ولم يزد على الصفات شيئاً. ٤١

لم أشأ أن أقتبس من ترجمته الكثير تجنباً للتكرار، فما أوردتّه الكتب مأخوذ عن السمعاني في الأنساب، وتوالى الاقتباس في شذرات الذهب والبغية وغيرهما من الكتب التي ترجمت له، ويذكر محقق كتاب إرشاد الأريب.. الأستاذ الدكتور الراحل إحسان عباس من الكتب التي ترجمت للأبيوردي: «إنباه الرواة، المنتظم، معجم البلدان، وفيات الأعيان، العِبر للذهبي، سيرة أعلام النبلاء للذهبي، تذكرة الحُفّاظ، الوافي، مرآة الزمان، مرآة الجنان، طبقات السبكي، البداية والنهاية، النجوم الزاهرة، بغية الوعاة، شذرات الذهب.» وهذه القائمة التي ذكرها الدكتور عباس أثبتها لا للدلالة على كثرتها، بل للدلالة على تنوع معارف الأبيوردي وعلومه، فمن كتب الأنساب إلى التراجم والأعلام والحفاظ والمحدثين وطبقات العلماء، وكل هذا ونحن لا نعرف شيئاً يُذكر عن أبي المظفر الذي قال عنه الزركلي شاعر عالي الطبقة!.

الأبيوردي في الكتب الحديثة:

الأبيوردي العالم في كل فن، الفاضل المتكبر، الشاعر عالي الطبقة، الذي لم تخلُ الكتب القديمة من ترجمة له، والذي بكاه الشاعر أبو الفتح البستي بقوله:

إذا ما سقى الله البلاد وأهلها
فخصّ بسقياها بلادَ أبيوردِ
فقد أخرجت شهماً نظيرَ أبي سعدِ
مُبرّاً على الأقران كالأسد الوردِ
فتىً قد سرت في سرّ أخلاقه العُلا
كما قد سرت في الورد رائحة الورد

الديوان: ص ٢٤٢

معجم البلدان: أبيورد

لا نجد لهذا الشاعر الكبير، على كِبَره، ترجمة في كتب الأدب الحديثة، والأمر مستنكر حقاً، خاصةً أنّ زماننا هذا هو زمان تواريخ الأدب والمصنفات التي ادّعت أنها معجمية تجمع لجميع الشعراء والأدباء والأعلام! فلا شوقي ضيف ولا بطرس البستاني ولا غيرهما جاء على ترجمة له، مع أنهم ترجموا لمن هم أقل منه قيمة فنية وأدبية، والكتب التي تناولت الفنون المتعددة لم تترجم له ضمن أي نوع من التأليف!

فلماذا أُهمِل شاعرٌ مثل الأبيوردي؟

ولماذا غابت أشعاره التي لا تقل عن أشعار الفحول؟

ولماذا أُهملت قصيدته في القدس؟

الأبيوردي وتاريخ عمر فرّوخ:

أذكر أنّ أحد أساتذتي قال لي عندما سألته عن تواريخ الأدب العربي وأفضلها: أفضل كتب تاريخ الأدب للباحثين كتاب الدكتور عمر فرّوخ، فلا يفضله سوى تاريخ الرافعي لما فيه من رؤية عميقة، وعندما اقتنيت هذين الكتابين فيما اقتنيت، عرفت معنى ما قاله أستاذي، ففي مرات لا أستطيع إحصاءها كان تاريخ الأدب العربي للدكتور فرّوخ الملاذ الذي أعود إليه فأجد بُغيتي، والأمر لا يتعلق بجانب واحد، بل إنه يتجاوز الكتب الأخرى في عدد من الأمور:

- الاستيعاب
- حُسن التقسيم والوضوح
- التوثيق وذكر المصادر
- النقد والتعليل
- الشرح والتحليل

وحين أردت شيئاً عن الأبيوردي عُدت إلى الدكتور عمر فرّوخ بعد أن نفضت يدي من الكتب الحديثة، فوجدت الدكتور فرّوخ قد جمع شتات التراجم القديمة المنثورة في الكتب العربية، وقام بتبويبها وتنظيمها، وحكم على ما يصلح منها فأثبته، واختار الوجه الصحيح مما اختُلف فيه بعد إخضاع للدرس والتحليل، وذكر المصادر التي يمكن العودة إليها، وفوق هذا وذاك، كان الكتاب الوحيد الذي أثبت قصيدة الأبيوردي عن مدينة القدس. وبذلك تفرّد

عن الكتب القديمة والحديثة حين أخذ هذه القصيدة بين مُنتقياتــه من الديوان، وذلك قبل أن يطبع الطبعة العلمية في مجمع اللغة العربية بدمشق، وبتحقيق من الدكتور عمر الأسعد.

وبعد حديث عن حياتــه وتنقلاته وما عصــف به يذكــر الدكتور فــرّوخ بعبارات مكثّفة:

«كان الأبيوردي أحــد القرّاء في أبيورد، وكان محيطــاً بالعلوم العربية والأدبية وبعلم النسب، ثم هو مــن مشاهير الأدباء وشاعر فصيح متــين السبك رائق المعاني. أمّا فنون شعــره فهي المديح والفخر والهجاء والعتاب والغزل والوصف والأدب.

والأبيــوردي مصنف بــارع حاذق له من الكتب ...» ٢١٧/٣

وفي المختــارات مــن شعــر الأبيــوردي يقول:

«لمــا استــولى الفرنجــة (الصليبيــون) على بيــت المقدس (٢٢ شعبــان ٤٩٢ هـ / ١٥/٧/١٠٩٩م) قتلوا فيما ذكر ابن الأثير في المسجــد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً. وكان أمراء المسلمين في ذلك الحين مختلفين متنابذين، فنظم الأبيوردي في ذلك قصيدة ...» ٢١٩/٣

ديوان الأبيوردي وقصيدة القدس:

ديــوان الأبيــوردي كبير، وشعــره كثير، وقد تنــاول مختلف فنون الشعــر كما أشار الدكتور فــرّوخ، وعند استعراضــ الديوان علــى ضخامتــه نجــد إهمالاً كبــيراً لهذه القصيدة، ولــولا أنّ النشرة علمية لضاعت القصيــدة! لكن المنهج الذي اختاره الدكتور الأسعد في التحقيق حفظ لنا هذه القصيدة من الضيــاع، فضمّن قسم الزيادات نجد قصيــدة القدس مستدركــةً بالاعتماد على الكتب والمصادر القديمة.

وقصيدة القدس هــي وحيدة في ديوان الأبيــوردي، إذ يفصــل بــين قصيدته عند سقوط القدس ووفاتــه ثلاثة عشر عاماً، لم يقــل قصيدة أخرى عنهــا أو عن الحوادث التي تلت سقوطها، ومــع أنها وحيدة فإنها استطاعت أن تكــون علامة فارقة للشاعر، وأن تكــون أصدق القصائد عن سقوط بيت المقدس.

تقع القصيدة في اثنين وعشرين بيتاً من البحر الطويل جمــع فيها الأبيوردي – كما سنرى – كل ما أراد أن يقوله، وكلّ ما يمكن أن يُقال.

«وقال أبو المظفــر الأبيوردي لما استولى

الفرنجـة على البيت المقدس في سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة، قصيدة:

مزجنا دماءً بالدموع السّواجم
فلم يبقَ منّا عَرضَةٌ للمراجم
وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضُه
إذا الحرب شُبّت نارُها بالصوارم
فإيهاً بني الإسلام إنّ وراءكم
وقائعَ يُلحقنَ الذُرا بالمناسم
أتهويمة في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ
وعيشٍ كنوّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مُقيلُهم
ظهورَ المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ
تجرون ذيل الخفض فعلَ المُسالم
وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومن دُمىً
تواري حياءً حُسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرّة الظُبا
وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة
تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروبٌ من يغبْ عن غمارها
ليسلمَ يقرعْ بعدها سنّ نادم
سَلَلْنَ بأيدي المشركين قواضباً
ستُغمدُ منهم في الطُلى والجماجم
يكاد لهُنّ المستجنّ بطيبةٍ
ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يُشرعون إلى العدا
رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى
ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى
ويُغضي على ذلّ كماة الأعاجم
فليتهم إذ لم يذودوا حميةً
عن الدين ضنّوا غيرةً بالمحارم
وإن زهدوا بالأجر إذ حَمِسَ الوغى
فهلاّ أتوه رغبةً في الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى
فلا عطسوا إلا بأجدعَ راغم
دعوناكم والحرب ترنو مُلِمّةً
إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارةً عربيةً
تُطيل عليها الرومُ عضّ الأباهم
فإنْ أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه
رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

٢ / ١٥٦ – ١٥٧

القصيدة والموضوع:

تمثل القصيدة واقع سقوط بيت المقدس تحت الاحتلال الصليبي، وموضوعها ليس رثاءً وحسب، بل إنّ الشاعر الأبيوردي بما عُرف عنه من غرور وتكبّر، كما ذكرت

كتب التراجم القديمة، كان صاحب موقف مختلف، فهو يصور ويرثي ويستنهض الهمم، ويعرض حال المسلمين والعرب الذي أدّى إلى هذا الواقع المؤلم، وكذلك قدّم صورة مؤلمة لأفاعيل المحتلّ، ودعا إلى إنقاذ مدينة القدس وحرائرها من أيدي المستعمرين الذين لم يرعَوا ذمّةً، ولم يحفظوا عهداً للناس الآمنين.. ولم يكتفِ الشاعر بالبكاء، بل قدّم واقعاً وخَلُص إلى نتيجة، وهذه النتيجة لا تخصّ شخصاً محدّداً، بل يمكن أن يكون كل عربي معنيّاً بها، من الناس العاديين وحتى الحكام.

وهذا الموضوع على جلالة قدره وخطورته لم يحظَ من الشاعر الذي يعود بنسبه أو يعيده نسبه إلى معاوية بن محمد، ومن ثم إلى أبي سفيان، بأكثر من هذه القصيدة، وربما كان ذلك لقرب عهد الاحتلال من وفاته، وربما كان لأنّ الشاعر استحضر كل ما يمكن أن يقال في الموضوع الجلل، ولم يحدث ما يستدعي قولاً جديداً.

بين الضعف والقوة:

كان الشاعر أبو المظفّر، كما تذكر المصادر، يلقّب نفسه ب(المعاويّ) نسبة إلى جدّه معاوية بن محمد والذي ينتهي نسبه إلى أبي سفيان، وقد قام أحد الحكام بشطب الميم من نسبه في رقعة وصلت إليه، وتشير مجمل الأخبار التي ذكرها المؤرخون إلى اعتداده بنسبه وتكبّره، ومنظرانيته، إذ كان مهتمّاً غاية الاهتمام بشكله ومظهره، وفوق ذلك هو أحد العلماء المعدودين، وأحد القرّاء ورواة الحديث. وهذا كلّه جعل الشاعر مغروراً، مما أدى إلى ظهور هذه المواصفات جليّةً في شعره، ولا يتسع المقام لذكر ذلك في شعره النجدي أو العراقي، وفي قصيدته القدس تظهر صفاته الحقيقية، فهو العالم القارئ المستقرئ للواقع لا يجامل الواقع ولا يحاول تجميله، ولا يرتكز إلى الأمجاد الغابرة، شأنه في ذلك شأن الشعراء الآخرين، وإنّما يلتقط صورة واقعية مرّة، فهو أمام ضدّين اثنين: القوّة والضعف ومن خلالهما يصوّر المفارقة المؤلمة، والتي يسعى من خلال تصويرها إلى استنهاض الهمم، ويدعو إلى الجهاد من أجل استخلاص مدينة القدس من براثن الصليبيين، وجعل عناصر القوة والبطش كلّها في المحتلّ الغازي القادر، وعناصر الضعف في العُزّل أهل القدس، وفي العرب والمسلمين عموماً، وما بين القوة والضعف تكمن دعوته لتجاوز هذا الضعف.

قوة العدوّ:

(الحرب شبت نارها بالصوارم)

(تسومهم الروم الهوان)

(دماء أُبيحت)

(السيوف البيض محمرّة الظبا)

(سمر العوالي داميات)

(الطعن والضرب)

(سللن بأيدي المشركين قواضباً)

(ستغمد في الطلى والجماجم)

(الحرب ترنو ملمّة)

ضعف العرب:

(مزجنا دماءً بالدموع)

(شرّ سلاح المرء دمع)

(أتهويمة في ظل أمن وغبطة)

(تنام العين ملء جفونها)

(تجرون ذيل الخفض)

(دماء أُبيحت)

(دمىً تواري حياء حسنها)

(لا يشرعون إلى العدا رماحهم)

(يجتنبون النار خوفاً من الردى)

(لا يحسبون العار ضربة لازم)

(ليتهم ضنّوا غيرةً بالمحارم)

(فهلاّ أتوه رغبة في المغانم)

(أذعنت تلك الخياشيم)

بين قـوة العدو القـادم وضعف العرب الذي يلازمهـم تبرز صـورة المفارقة التي يريد الشاعر من خلالهـا أن يشحذ الهمم من أجل نجدة القدس، وهو لم يترك عنصراً من عناصر التحفيـز إلا واستخدمه، ابتداءً من استثارة الغـيرة والحمية على الأعراض والنسـاء اللواتي أُبحنَ في الحـرب، مروراً بالتذكير بالقوة العربيـة، وانتهاءً بالتحفيز المـادي الذي يمكن أن يحصلـوا عليه فيما لو أنجدوا بيت المقدسـ، وكأنه بذلك قسم المسلمين والعرب إلى جماعات، بعضها يثور لغيرة، وبعضها يثـور لنخوة وعزّة، وبعضها يثور لمكسب ومغنم، فإن لم تهبّ جماعة هبّت أخرى، وبالنتيجة فإن ما يريده الشاعر من نجدة سيتحقق بطريقة أو بأخرى. فهل كان لـه ما أراد؟ وبعدَ كمْ من السنوات تحقق ما أراده ودعا إليه الشاعر؟

قيمة القصيدة:

تكمـن قيمة القصيـدة في علوّها فنّياً، فهي قصيدةٌ قويةٌ مبنىً ومعنى، وبعيدة عن الثرثرة، واختار لهـا الشاعر البحر الطويل المناسب لتصوير مأساة طويلة، واختار الميم المكسـورة التي تنتهي بدعـوة مفتوحة تدل علـى الألم والتوجـع.. كما تكمـن منطقية الشاعـر الـذي دعا العـرب والمسلمين إلى نجدة القدس المدينـة الغالية المقدّسة دون

اللجوء إلى أي شعار مقدس، على الرغم من معرفته وعلمه، وإنما لجأ إلى استخدام المعاني الإنسانية العالية، وإلى استثارة الغيرة والحمية، وهو بهذا تقدم أشواطاً بعيدة على شعراء زماننا الذين تحدثوا عن مأساة القدس التي تكررت .. لذلك بقيت قصيدة الأبيوردي وعاشت على الرغم من إهمالها كنموذج من نماذج الشعر الذي حفظ لنا التاريخَ طازجاً.

تسجيل حيّ للهمجية:

القيمة الحقيقية للقصيدة هي في أنها تسجيل تاريخي لهمجية المحتلّ، والشاعر هنا لا يريد أن ينقل صورة عبر وسائل الإعلام، وإنما يسجّل وثيقة أدبية تاريخية لاجتياح مدينة مقدسة مسالمة ليس فيها أي عنصر من عناصر القوة، ولا يهبّ أحدٌ لنجدتها، فالقوة التي جاء بها المحتلّ تمثّل ذروة القوة في ذلك الوقت، والقدس لا تملك إلاّ الدمع ومعاصم الحرائر، وهذا المنطق الذي استخدمه الشاعر، قد يراه بعضهم استهانة بالشعور العام، لكنه ليس كذلك، فلا يعتمد على بطولات فردية، ولا على فخرٍ أجوف، ولا يستنجد بتاريخ قوي للعرب والمسلمين. إنّ الشاعر يصور واقع سقوط الأعزل بين أيدي المتسلّح بكل أنواع السلاح، القادم للغزو عن سابق إصرارٍ وتصميم، ويسجل للتاريخ وصمة عارٍ على جبين الحملات الصليبية التي ادّعى أصحابها أنّ المسلمين والعرب يفعلون الأفاعيل. وهذه الصورة هي التي كانت سبب أنّ أبدأ البداية التي اخترتها من زيغريد هونكه وشهادتها على الحروب الصليبية، فهي التي رأت أنّ هذه القصيدة أظهرت العار الذي التصق بالأوروبيين وحروبهم المقدسة كما يزعمون، وليست هذه النتيجة قراءةً عربي فيما جاء. وقد اختارت هونكِه هذه القصيدة لما فيها من صورٍ مؤلمة لوحشية الحروب الصليبية وهمجيتها أمام شعب مسالم أعزل! فكيف رأت هونكِه هذا ولم نره نحن أصحاب القضية؟!

وستبقى هذه القصيدة شاهدة على ما حلّ في بيت المقدس على أيدي القوات الأوروبية الغازية التي حملت اسم حروب الإفرنج عند العرب، والحروب الصليبية عند الأوروبيين أنفسهم.

القدس بين الأمس واليوم:

من قبل الميلاد كانت القدس قلب الصراع، وعلى الدوام كان العرب يسترجعون مدينة القدس، ومع الميلاد ازدادت مدينة القدس اشتعالاً وصراعاً بين المسيحية واليهودية، ومع توالي الأحداث حاول الأقوام

تغيير هوية مدينة القدس جغرافياً وسكّانياً، ولكنّ هذه المحاولات باءت بالفشل، وجاءت جيوش الإسلام وكانت القدس آمنةً سليمة، وصارت لـدى المسلمين في مكانتها المقدسة لكونهـا أولى القبلتـين ومعـراج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء.

ولو عدنـا إلى التاريـخ والأدب لعرفنا قيمـة القدسـ ومنزلتها لـدى المسيحيين الذين يطلقون علـى زائرها لقب (مقدّس) ويتم التـبرّك بهذا الزائر والتمسّح بمسوحه وثيابـه، وكذلك عنـد المسلمين، فحتى عام ١٩٦٧ كان أغلب الحجاج الذين يؤمون بيت الله الحـرام في مكة المكرمة يكملون حجهم بزيـارة القدس، وقد توقّف هذا الطقس مع الاحتلال الإسرائيلـي لمدينة القدس، وبقي حسرةً في نفوسـ المسيحيين والمسلمين على السواء، خاصـة وأنّ القدس كانت مفتوحة لجميـع الناس على الـدوام، ومع الاحتلال الإسرائيلـي كان السعـي محمومـاً لإسباغ الصفة اليهودية عليها.

تشكل القدسـ اليوم عقـدةً من العقد العصيّة على الحـل في الأزمة الفلسطينية، وربمـا كان من حـظ القضيـة أن ترتبط هذا الارتباط العضوي والجوهري بالقدس المدينة المقدسة، لأنّ هذا الارتباط هو الذي سيكفل لها مع الأيام - إنْ طالت وإنْ قصُرت - أن تكون عربية ومقدّسة.

بكـى الأبيـوردي بيـت المقدسـ عند سقوطها، ودعـا إلى شحذ الهمم، وقد طال الوقت حتى شحـذ العرب والمسلمون الهمة وحـرروا القدسـ الشريف، لكـنّ التحرير قـد تمّ، وهنـا لا نراهن علـى التحرير مع الزمـن لأنّ التحرير لم يتم لولا أنْ تم العمل والتحضـير له، وكذلك اليـوم، فإنّ القدس تستصرخ، والأدبـاء كتبوا وحاولوا، وأدركهم اليأسـ، ولكنّ التحضـير الحقيقي وإعداد العـدّة والقوّة سيحـرر القدس مـن أيدي المحتلين من جديـد، وحتى يتمكن أصحاب الحقـوق من استعادة حقوقهم نردد ما قاله الأبيـوردي، وما قاله أدباؤنـا وشعراؤنا مع القدس المعاصرة ، مع إيماننا بأنّ شرّ السلاح الذي نواجه به أعداءنا هو سلاح الدمع:

وشرّ سلاح المرء دمع يُفيضه
إذا الحرب شبّت نارها بالصوارم

ونردد مع الأبيوردي حين قال عن نفسه، وكأنّه يتحدّث باسم القدس:

تنكر لي دهـري ولم يـدر أنّني
أعــزُّ وأحــداثُ الـزمـان تـهـونُ
فبات يريني الخطبُ كيف اعتداؤه
وبِـتُّ أُريـه الصبرَ كيف يكونُ

ونجعل قولَه شعاراً:

من أغفل الحزمَ أدمى كفَّه ندما

واستضحك النصرَ من أبكى السيوف دما

استضحك الأبيـوردي السيوف، ومات مسموماً، فكانت القدس مدينةً ضائعةً والأبيوردي الشاعرَ المُضَيَّع!

المصادر والمراجع:

- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٥، ١٩٨٠
- بُغية الوُعاة، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - بيروت، بلا تاريخ.
- تاريخ الأدب العربي، د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١، ١٩٧٩
- التوجّه الأوروبي، زيغريد هونكه، ترجمة د. هاني صالح، دار الرشيد - دمشق، ط ١، ١٩٩٨
- ديوان الأبيوردي، تحقيق د. عمر الأسعد، مجمع اللغة العربية - دمشق، ط ١، ١٩٧٥
- ديوان البستي، تحقيق درّية الخطيب - لطفي الصقال، مجمع اللغة العربية - دمشق، ط ١، ١٩٨٩
- المحمدون من الشعراء، القفطي، تحقيق رياض مراد، دار ابن كثير - دمشق، ط ٢، ١٩٨٨
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٣
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر - بيروت، ١٩٧٩

فلسطين قوة موحدة للأمة في مشرقها ومغربها

يحيى يخلف *

حلم الوحدة بأي شكل من أشكالها كان جزءاً أصيلاً من تعريف الأمة العربية، وما تجارب الوحدة المختلفة منذ الستينيات حتى يومنا هذا، والتي بلغ عددها حوالي ثلاثين تجربة، إلا محاولة لتجسيد ذلك الحلم، ولن ندخل في تفاصيل وآليات وظروف تلك التجارب، ولن ندخل أيضاً في أهداف ونتائج ذلك، إلا أن هذا العدد الكبير من محاولات الوحدة، ما هي إلا تعبير عن رغبة دفينة وعميقة لدى المواطن العربي في رؤية أمته ذات كيان فاعل وحاضر

* أديب وروائي (رام الله - فلسطين).

وناشط ومشارك في الحضارة البشرية، وعلى الرغم من إغراء الكلام هنا، وفي هذا الحقل بالذات، إلا أنني أرغب هنا أن أركز كلامي على فلسطين، وكيف لعبت دوراً هاماً وأصيلاً في عمليات التواصل والتكامل بين أبناء الأمة الواحدة، في مشارقها ومغاربها، على مدى تاريخ هذه المنطقة، ومنذ أن تمحور الوعي الثقافي والوجداني والديني بفلسطين، كبلد نادر وخاص.

ففلسطين، البلد والتاريخ والوجدان والثقافة، شكلت طيلة الوقت وعلى مدى مئات السنين، دافعية هامة وقوية ودائمة الحضور في وجدان شعوب العالم العربي، على مستوى الأفراد وعلى مستوى النخب وعلى مستوى القادة السياسيين، ومنذ القرن السابع شكلت فلسطين محوراً من محاور المشاركة السياسية والثقافية والاجتماعية، وفي بعض الأحيان تحولت إلى مركز من مراكز الصراع ليس ضد الآخر النقيض فقط، بل ضد الآخر الداخلي. إن ارتفاع فلسطين بارتفاع ذكرها وقيمتها الروحية والوجدانية جعلها شيئاً أشبه باللؤلؤة الغالية، ذلك الأمر الذي جعلها باهظة في كل شيء، باهظة في الدفاع عنها، باهظة في الاحتفاظ بها، باهظة في الارتفاع إلى مستواها. ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي – أي بدء الحملات الغربية على بلادنا في الشام ومصر – فقد تحولت فلسطين عموماً والقدس خصوصاً إلى مكان امتزجت فيه كل الأطماع والأهواء والأساطير والوقائع. وبسقوط القدس أمام الفرنجة واحتلالها لمدة مئة عام تقريباً، فقد شغلت القدس خيال ووجدان شعوب المنطقة العربية والإسلامية من حدود الهند وحتى حدود السنغال، كان سقوط القدس في تلك الحقبة أشبه باللعنة الإلهية وقعت على الجميع، وعندما نعود إلى ما كتب في تلك الفترة من أشعار ونصوص تاريخ وحتى مراسلات، نجدها ما يدهش حقاً، فالقدس كانت حاضرة في أشعار الساعاتي العراقي وابن القيسراني الفلسطيني، وسندهش حقاً عندما نقرأ مذكرات القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني وسيجبر المرء ربما إلى البكاء عندما نقرأ تحسرات الرحالة الزاهد والذكي ابن جبير القادم من بلاد الغرب، ومن يقرأ ما كتبه ابن الأثير الذي سكن الموصل وأحبها، سيشعر بمدى الخسارة التي يشعر بها لسقوط القدس، حتى المرابطون والموحدون من بعدهم في بلاد المغرب

والأندلس، أحبـوا أن يشاركوا في نصرة من يقاتل من أجل إرجاع القدس، وتذكر لنا كتب التاريـخ في تلك العصور، كيف كانت تتوافد العساكـر من الجزيـرة واليمــن والسودان والنوبــة ومصر من أجل مساعدة نور الدين زنكي ومــن بعده صلاح الديــن. وهذا ابن شداد يخبرنــا في سيرته السلطانية عن تلك العساكر ومــن أين أتت وكيف تجمعت. كان ابــن شداد من أقل المؤرخــين تفذلكاً وسعة اطلاع، ولكنه كان من أكثرهم دقة في وصف تلك الوحدة والتعامل الذي كان يجمع شعوب المنطقة من أجل القدس وفلسطين.

وقبــل أن أترك الماضــي أحب أن أعرج علــى حادثة معبرة وموحيــة، ذلك أن الملك الكامل وهو حفيد لصــلاح الدين، ونتيجة لخلافات مــع أشقائه، استعان بملك الألمان لحمايته مقابل أن يمنحــه القدس، وما أن فعــل الملك الكامل ذلك، حتــى قامت عليه قيامة كل الناس في مشارق الأرض ومغاربها، وتعرض هذا الملك لأسوأ حملة إعلامية قد تكون أشــد من الحمــلات الإعلامية على أيامنا هذه رغم اتساع الوسائل وتعقدها.

هذا كان في الماضي، ولكن الأمر لم يتغير في الحاضر أيضاً. فمنذ أن سقطت القدس بيد الإنكليز عــام ١٩١٨ وحتى يومنا هذا، تحولت القدس ومن ثم فلسطين إلى نوع من نقطــة الارتكاز للوجــدان العربي والنضال العربــي والسعي من أجــل الوحدة العربية، تجلــت نقطة الارتــكاز هــذه في التغيرات السياسية والإبداع الأدبي والثقافي. تحولت القدس منذ ذلــك التاريخ وحتى يومنا هذا إلى جرح نازف، مؤلم وحارق، ويمكنني القول إن هــذا الجرح النازف جعل من انتصاراتنا ناقصة، ومن أفراحنا معكرة، ومن إنجازاتنا غــير مكتملــة، فالقدس محتلــة والأقصى مختطف وفلسطين النادرة اللؤلؤة بعيدة.

تغييب فلسطين بالاحتــلال والحصار، يطــرح الســؤال الكبير والمــؤلم حول جدوى التجارب وحول مصداقية الخيارات وحول أهداف الاتجاهات.

احتــلال فلسطين، جعــل كل عربي، في مشــارق الأرض ومغاربهــا في حالة مقارنة حضارية وثقافية مــع الآخر على اختلاف أنواعه.

احتلال فلسطين، وضع العربي أينما كان في حالة تساؤل كبير، لماذا نحن هكذا؟ ولماذا الآخرون هكذا؟!

احتلال فلســطين نقصــن للثقافة وثلم

في العقيــدة وإهانة للكرامــة. ولهذا كانت فلسطين مرتكزاً للسؤال الكبير: هل الوحدة بمعناها السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي وبمعنــى التواصل ذي المستويــات والتكامل ذي المستويات أيضــاً ستؤدي إلى رفع حالة الإهانة هذه؟!

هذا الســؤال، جعل الحــركات الثورية العربية منذ بدايــة هذا القرن وحتى يومنا هذا، وجعل النخــب السياسية الحاكمة من بدايــة هذا القرن وحتــى يومنا هذا، تضع السؤال أمامها وتحاول الإجابة عنه بطريق أو بأخرى.

ففلسطــين، هي سؤال النظــام العربي، كما هي سؤال المواطــن العربي رغم كل ما يعانيــه هذا النظــام ورغم مــا يعانيه هذا المواطن. وعلى الرغم من أن النظام العربي يعــاني حصار وضغــط ورقابــة المؤسسات الدوليــة الكــبرى إلى درجة تهــدد سيادته وثقافته الوطنية، إلا أن سؤال فلسطين يظل هو السؤال الذي بلا إجابة. فغياب فلسطين يعني حضور المحتــل، وحضور المحتل يعني هيمنة وتفرقة وإخافة وتهديداً وسيطرة على المحيط، حضور المحتل مكلف وباهظ أيضاً. حضور المحتــل إضافة إلى كونه هزيمة فهو أيضاً يطرح السؤال أيضاً: هل حالة الهزيمة بمعناها الكبير تشكل الشرط الأبدي للتخلف والتبعية والجهل والفقر والمرض؟!

إذاً، فاحتــلال فلسطين لا يــؤذي أهلها الذين يسكنون فيها فقــط، وإنما كل أهلها في مشــارق العــالم العربي ومغاربــه، ومن هذا المنطق الــذي هضمه واستيعابه خلال ستين عامــاً أو يزيد جعل من معظم النخب السياسية والثقافيــة العربية على اختلاف مواقعهــا الجغرافيــة والفكريــة تخصص لفلسطين وقضيتها ركنــاً أساسياً من أركان منظومتها الفكرية والسياسية والإبداعية.

إن معظــم هذه النخــب رأت في قضية فلسطين جزءاً مــن نضالها ضد الاستعمار وضــد الجهل والتخلــف والتبعية، ورأت في الاحتلال عدوها الشخصــي والمباشر. كان شعار «من أجــل فلسطين» وما يزال، شعاراً يجمع ويثير ويدفــع ويحرض، وعلى الرغم مــن كل ما حــدث بعد الحــادي عشر من أيلول من عــام ٢٠٠١، واختطاف العالم إلى مانوية بسيطــة وغبية تمثلت في فسطاطين أو معسكريــن، ومحاولة تجريــد الثورة من مرجعياتهــا وشرعياتهــا وتحويــل نضــال الشعــوب إلى إرهاب، إلا أن شعار «من أجل

فلسطين» ظل فوق كل هذه الألاعيب والخدع والمناورات الدولية، وقد أتجرأ هنا على القول إن العالم بعد الحادي عشر من أيلول أصبح أكثر قرباً وفهماً وتفهماً لبؤر الصراع في العالم وأهمها على الإطلاق الصراع العربي الإسرائيلي ومركزه فلسطين.

ليس من الغريب هنا القول إن المبادرات والخطط والبرامج الهادفة إلى حل هذا الصراع زادت ولم تنقص، كدليل على اهتمام المجتمع الدولي وإدراكه أن ما يسمى الإرهاب أو توتير الأجواء وتسميمها لا يلد من الفراغ وإنما له أسبابه الحقيقية والواقعية.

شعار «من أجل فلسطين» هو شعار يعني أن العمل من أجل فلسطين يعني العمل من أجل التنمية والوحدة وإعداد العدة وحفظ الأمن وحفظ الوطن وحفظ المواطن.. لأن الاحتلال -ببساطة- هو عكس ذلك كله.. فالاحتلال ودولته مجرد كيان اثني وقطاعي، كيان مهاجرين، وهو لا يستطيع أن يعيش في محيط متجانس عرقياً وثقافياً ووجدانياً، إن تفكيك العالم العربي وتذريره هو جزء من الخطة الاستعمارية القديمة والجديدة معاً. ومن يقرأ كلاسيكيات الأدبيات الاستعمارية بداية القرن الماضي سيدهش من أن أفكار المحافظين الجدد ونظرياتهم حول تفكيك العالم العربي إلى اثنيات لا تختلف عن تلك الأطروحات.. حتى المفردات هي ذاتها.. حلم تفكيك العالم العربي إلى قطاعات وأثنيات حلم غربي لم ينته.. وقد تجسد هذا الحلم جزئياً بإيجاد إسرائيل كحاجز ديموغرافي وأمني يفصل جناحي العالم العربي الأسيوي عن الأفريقي.. بكلمات أخرى، لم يجد الغرب الاستعماري سوى فلسطين لتسدد للعالم العربي طعنة نجلاء تمنع توحده وتواصله وتكامله.. لم تجد سوى فلسطين (جغرافياً) لتقيم كياناً مهدداً، ولم تجد سوى فلسطين (ثقافياً) من أجل إهانة الأمة إهانة لا تغتفر ولا تنسى.. ولم تجد سوى فلسطين لتجعلها بؤرة صراع الأفكار والحضارات والرؤى.. ويجب أن نرى الأمر هكذا لأن الشواهد كلها تشير إلى ذلك.. ففلسطين ليست ككل البلدان..

هذا الإدراك وعلى هذا المستوى، جعل المثقف العربي المسؤول والملتزم يعرف تماماً أن يجدول قائمة أعدائه وخصومه، وجعل السياسي العربي المسؤول والملتزم يعي تماماً مخاطر مشروعه السياسي حاضراً ومستقبلاً، ولهذا السبب نجد أن الحاج أمين الحسيني

الـذي كان علـى رأس الحركـة الوطنية الفلسطينيـة في الثلاثينيـات والأربعينيات يستعين بعبد العزيز الثعالبي من بلاد المغرب لينـاصره ويدعمـه في الانتفاضات الصغيرة والكبيرة في تلك السنين، وللسبب ذاته، رأينا كيف تدفق المجاهـدون والمناضلون من كل البـلاد العربية لدعم إخوانهم الفلسطينيين في ثورتهم الكبرى عـام ١٩٣٦، فجاؤوا من الأردن وسوريـة والعراق ومصـر والسودان وبلاد المغـرب كلها، وما هي بطاح فلسطين وهضابها وسهولها وجبالها تشهد على ذلك، فقبور أولئـك الشهداء ما تزال محط عناية واهتمـام، وما تزال قصصهـم تروى حتى اللحظة، وما تزال وثائق المؤتمرات القومية العربية التي ضمت كل المناضلين العرب منذ العشرينيات موجودة ومقروءة لتعبر عن ذلك الوعـي الشديد بمركزيـة فلسطين وبؤرتها في المشـروع الوحـدوي والنهضوي العربي، وأستطيع القول هنا أن من الأسباب الجزئية لأزمة المشروع الصهيوني في المنطقة هو هذا الوعـي العميق والذي لا يمكـن القفز عنه في استحالة لقاء القوميتـين المتصارعتين، فالأولى أصيلـة وعميقة وعريقة ومتجذرة، والثانيـة مصطنعة ومرتجلة وتفتقد أسباب بقائها.

المثقـف العربـي تنبـه مبكـراً لخطر الصهيونية ودوافعهـا وارتباطاتها، وأدرك مبكراً – وربما قبـل السياسي العربي– إلى خطورة هذا المشروع على المستقبل العربي، وأنا هنا لا أتحدث فقط عن ما كتبه المثقفون الشاميـون والعراقيـون والمصريـون بهذا الصدد، وإنما أشـير أيضاً إلى تلك الجهود الفردية والجماعية التي قام بها ثوار جاؤوا من بلاد عربية قريبـة وبعيدة إلى فلسطين للقتال ضد الاحتلال الإنكليزي، وربما كانت ظاهـرة الشيخ عز الدين القسام القادم من جبله في سورية الذي استشهد في فلسطين هي خير من يمثـل ذلـك.. وفي فلسطين، وفي القدس تحديـداً، في قلبهـا بالذات، هناك حارة تعـرف باسم حـارة المغاربة.. هي حـارة داخل السور ومجـاورة للمسجد الأقصـى، كانت تضم أبناء الجالية المغربية الذين جاؤوا للحـج والقتال والعبادة.. هذه الحـارة وبعد عـام ١٩٦٧، أي بعد احتلال المدينة المقدسة، قـام الاحتلال بنسف تلك الحـارة عن الوجود من أجل توسيع الساحة أمام ما يدعـون أنه حائط البراق، ولكن في القدس وحتى اللحظة ما زالوا يطلقون على

الساحة المضاءة والمبلطة أمام الحائط أنها حارة المغاربة.. لم يستطع الاحتلال أن ينسف الاسم من الذاكرة..

ولأن فلسطين كانت دائماً وأبداً بلداً موحداً ومركزاً للوجدان والثقافة العربية في مشارقها ومغاربها فإنك تجد في فلسطين وحتى اليوم عائلات من أصول مصرية وسودانية ومغاربية وعراقية ونجدية وحجازية.. وما زلت شخصياً أدهش عندما أقرأ في صحفنا عن مجالس عزاء تقام في مدننا لموت زعيم أو كبير في إحدى الدول العربية القريبة والبعيدة.

والثورة توحد، والمقاومة للجميع، وكما كانت ثورة الجزائر في الخمسينيات والستينيات ثورة موحدة ومجمعة، وألهمت العديد من الثورات في المشرق العربي، وناصرها المواطن العربي بكل ما يستطيع، حيث تشكلت لجان دعم لهذه الثورة في كل القرى والمدن العربية، ومازالت شخصياً أذكر كيف كنا ندفع من مصروفنا القليل أيام المدرسة لصندوق الثورة الجزائرية، ما زلت أذكر تلك المبالغ القليلة التي أشعر معها أن الثوار في الجزائر سينتصرون بها، وقد انتصرت الثورة الجزائرية بعد أن قدمت نموذجاً فريداً في انتصار الدم على السيف، الأمر الذي ألهم ثواراً آخرين في المشرق العربي ليبدؤوا ثورتهم، الثورة الجزائرية العظيمة في المغرب كان لها صدى عميق في أرجاء العالم العربي كله.

كان انتصاراً للمظلومين على الظالم، وكان انتصاراً للثقافة العريقة والشعب المتجذر. ثوار عرب آخرون استلهموا تلك الثورة، وكان الفلسطينيون من أوائل أولئك الثوار، ولم يكن مستغرباً، والحالة هذه أن تكون الجزائر، الثورة والنظام والشعب، من أوائل من احتضنوا الثورة الفلسطينية، في أروع صور التواصل والتكامل للحلم العربي والهدف العربي. كانت تلك الروابط التي نشأت بين الثورتين، على اختلاف المواقع الجغرافية وبُعدها، دليل ساطع على انتفاء الجغرافية أمام الوعي والوجدان والأحلام. مرة أخرى، فإن الثورة توحد، والمقاومة هي الوصفة الأكيدة لتقريب وجهات النظر وتحديد الأهداف وتركيزها، وهي العلاج الناجع لرأب الصدع وسد الفجوات، وفلسطين، قدمت ذلك كله للأخوة والأشقاء العرب في مشارقهم ومغاربهم. وعندما انطلقت الثورة الفلسطينية في منتصف

الستينيات، اجتمع حولها الأخوة العرب في كل مكان، دعموها وناصروها ورأوا فيها أحلامهم تسعى بين أيديهم، رأوا فيها فرسان الشعر، ورهبان الليل، ورأوا فيها عمق الثقافة وقوة النص وعنفوان الوجدان. كانت الثورة مخلصاً أشبه بالمخلص الديني، الأمة التي لا تثور تفقد سريعاً ملامحها. كانت الثورة الفلسطينية ثورة كل العرب، وأذكر أنه في أوائل السبعينيات وبعد انتصار الثورة في معركة الكرامة تدفق عشرات الآلاف من الأخوة العرب للانضمام إلى الثورة، كان ذلك نوعاً من الرغبة في التخلص من إثم الهزيمة، ورغبة في الاغتسال من عار النكسة، كانت الثورة الفلسطينية في تلك الأيام ثورة كل العرب، على الأقل في مستواها الشعبي، الذي رأى في انطلاق الثورة دليلاً على بقاء الأمة وحياتها وقوة ثقافتها. يجب القول هنا إن الثورة محتوى ثقافي بالدرجة الأولى.. الثورة ذات منطلق ثقافي يوفر الدعم والتبرير والشرعية.. ولهذا كانت الثورة ثورة العرب بحق.. تماماً كما كانت ثورة الجزائر قبل ذلك بعقد من السنين. وقد تعززت الثورة الفلسطينية وانتشرت وقويت بذلك الدعم العربي الشعبي

والرسمي على حد سواء، على اختلاف في الدرجة والعمق والهدف، وعلى الرغم من دخول العالم العربي الرسمي في تحالفات وتيارات متعارضة ومتناقضة في بعض الأحيان وما تزال، إلا أن الثورة الفلسطينية ظلت تجد ذلك الحضن الدافئ والداعم من قبل الجماهير، وكان المثقفون المسؤولون والملتزمون هم من يقود تلك العملية الحقيقية من ربط الثورة بالمجهود الكلي للأمة من أجل التحرر والتقدم والوحدة. ويضيق المجال عن ذكر الأسماء والجهود العربية في مشارق العالم العربي ومغاربه التي رأت في الثورة الفلسطينية نقطة انطلاق نحو تحقيق الأهداف والآمال.

وكما كانت ثورة الجزائر يوماً تجمع العرب، صارت الثورة الفلسطينية كذلك، وما سأقوله الآن سيتذكره الجميع، فمعظم النخب العربية من مثقفين وسياسيين وأحزاب وقوى وجماعات ومنظمات في مشارق العالم العربي ومغاربه كانت لها علاقة ما مع الثورة الفلسطينية، علاقات أخذ وعطاء، ومداولات ومشاورات وتنسيق جهود ورؤية مشتركة، كل أولئك رأوا في الثورة الفلسطينية شريكاً ووسيطاً ووسطاً للالتقاء

والتفاعل والمشاركة، وكل تلك النخب رأت في الثورة مشروعاً وحدوياً تجب مساعدته ودعمه ومناصرته.

وجاء ذلك على صورة مساعدات وإسناد، وجاء ذلك على شكل إبداعات ثقافية وفنية، وجاء ذلك على صورة اندفاعات جماهيرية مخططة وغير مخططة.

وأقول بهذا الصدد إن سنوات السبعينيات والثمانينيات، وهي سنوات الذروة، شهدت فيها شهدت اجتماع القوى العربية التقدمية والشعبية والتحررية على دعم الثورة الفلسطينية باعتبارها البديل للعجز والتبعية والهزيمة.. ومن يراجع تلك السنوات وأدبياتها سيلحظ ذلك النسق الذي شمل معظم الحركات والقوى والأحزاب العربية على طول العالم العربي من مشارقه إلى مغاربه.. ورافق ذلك كله أو تخلق معه أو خلقه إبداع ثقافي متميز شارك فيه وصنعه كبار شعراء العرب وكتّابهم ومنظريهم. كانت فلسطين بالنسبة لهؤلاء جميعهم بلاد العرب كلهم، وقضيتها قضية العرب كلهم. ولم يختلف في ذلك الشامي عن المغاربي، أو الخليجي عن المصري.. كلهم رأوا في فلسطين قضية العرب الأولى..

والآن، وثورتنا الفلسطينية تعاني ما تعاني، وشعبنا الفلسطيني يدخل نفقاً أسوداً ومجهولاً.. والعالم العربي في اصطفافاته واستقطاباته.. فإن الأمر لم يتغير أبداً..

وقد يكون هناك تغير في الدرجة ونوع التعبير، ولكن فلسطين رغم كل ذلك ما تزال تجمع وتوحد، لأنها ما تزال السؤال الكبير عن الهزيمة والإهانة وجرح الكرامة. فلا أحد يعفى من مسؤولياته، ولا أحد يتنصل من تاريخه ولا أحد يتنكر لثقافته، فلسطين، ورغم ما تشهد اليوم من تقلبات قد يكون بعضها عصياً على التبرير أو التفسير إلا أن فلسطين ما تزال قضية العرب الأولى أيضاً..

وإذا كان العالم العربي يدخل مرحلة رمادية بسبب عظم التحديات وضخامة الضغوط وتعددها، وانهيار أحلام الوحدة والتنمية والتحرير ودخول مزيد من العواصم تحت الاحتلال أو التهديد أو خطر التقسيم، إلا أن المربع في فلسطين ما يزال ساخناً ينبض بكل أسئلة المحرجة والمؤلمة، وقد يكون من الصحيح أيضاً القول إنه بسبب عدم حل القضية الفلسطينية فإن عواصم عربية أخرى تتعرض لما تعرضت له القدس

عام ١٩١٨ وعام ١٩٦٧.. ويرأيي أيضاً، فإن مزيد الهزائم التي منـي بها العرب مؤخراً عـزز وزاد من سؤال فلسطين. لأن المحتل ذاتـه ولو غير اسمـه، ولأن الهدف ذاته ولو غير جبهاته ومواقعـه. ويعود سؤال الوحدة والتحـرر والتقدم من جديد ينطح الوجدان ويستفز الوعي.

فلسطـين التـي يعيش شعبهـا وثورتها وضعاً حرجاً ومحرجاً، تشعر معه أن ذلك ما كان ليكون لولا ذلك الوضع المحرج والحرج الـذي يعيش به النظام العربـي أيضاً.. إن خطـر التفـكك والتذرير خطـر حقيقي..

وهذا يطرح المسألة من جديد.. نحن بحاجة إلى ثورة جديدة من أجل أن نتوحد حولها.. وفلسطين مؤهلة دائمـاً للعب هذا الدور.. فالمحتل ما يزال هناك.. ولأن المحتل واحد رغم تعدد أسمائـه.. فإن هزيمة المحتل في مـكان هو هزيمـة له في كل مـكان.. نحن بحاجـة إلى ثورة جديدة من أجل أن نتوحد حولهـا.. وفلسطين هي المبتـدأ والخبر في ذلـك كله.. ومنذ القرن الحادي عشر وحتى القرن الواحد والعشريـن ما تزال فلسطين تقـوم بدورهـا.. أن توحـد وأن تجمع وأن تنتصر.

آفاق المعرفة

أين أبحث عن القدس؟

نواف أبو الهيجاء *

مـــا أنا بباحث أكاديمي، ولســت مؤرخاً، حتى أبحـث في بطون التاريخ والكتـب علّي أقع علـى تاريخ أهلي وأرضي وقدســي وأنفاس جدي، ورياح بحـر البلد من النهـر إلى الشاطئ. عن أي قدس أبحـث اليوم –في عامها الثقافي عاصمة للثقافة العربية– أي وهي ترتفع إلى عنان الوجود الإبداعي والضمـير الجمعي الإنساني في العام ٢٠٠٩ –وقد تسلمت الشعلة من شامها –الحبيبـة– وعـبر كل المعوقات والأضـداد ومن فوق ما اعتمـر في القلوب

* أديب وروائي وناقد فلسطيني

الغازية مــن إثم المنع والحصــار والتحريم والتلفيق والمصادرة؟

هل أكتب ما تحفظه خلاياي، ومن بعدي في (جيناتي الوراثيــة) عن جينات أجدادي الوراثيــة. إنهــا في النسيج العــام للأهل- أكانوا ظلوا فيهــا بعد احتلالها (الحديث)، أم غادروهــا إلى المنافي شرقــاً وغرباً -فما غربوا عنها ولا شرقوا. إنها في النسغ، ومابين الضلوع.. إنها أنا وأنت وكل حي يخفق قلبه بالإيمان بها والاعتراف بها وجوداً للحقيقة والسلام والعدالة، والشعــور بها حياة تعبر عــن ذاتها في العصور كلها وفي المواجع كلها أيضاً.

هــل أبحــث عنها وهــي تحمــل اسم (أورساليم) -مدينة السلام- الكنعانية- قبل أكثر من خمسة آلاف من السنين قبل الميلاد؟ أم عنها وهي تحمل الاسم ذاته (عبريا) -أي أورشليم- البيت المقدس؟

أأبحث فيها عن اليبوسيين -الكنعانيين العرب الذين أسموها (يبوسا) في عام، ٢٥٠٠ قبــل الميــلاد؟ أم أبحث عنهــا وهي تصبح (الهدف) الأعلــى والأول للطامعين بالمجد والمعالي: من الفراعنة إلى الفرس ومن الفرس إلى اليونانيين ومــن اليونانيين إلى الرومان ومــن الرومــان إلى المغــول؟ وقبــل هؤلاء وبعدهم -تظل هي المنارة والهدى- والسلام المصلوب عليها- عبر أزقة التعذيب والرفض والجريمــة؟ كم عاماً حكمها (اليهود)؟ ليس أكــثر من ٧٣ عاماً - أنــا أحفظ الرقم منذ كنت في الثانية عشرة من العمر وفي التفصيل حكمها داود أربعين عاماً وابنه سليمان ثلاثة وثلاثين عاماً. ليس أكثر.

تتالت عليها الهجمــات والاحتلالات.. لكنها بقيــت القدس المقدسة: أولى القبلتين وثالــث الحرمين الشريفــين - وهي بالذات شهادة الأصــل العربي الإسلامــي الإنساني (في ليلــة الإسراء والمعراج)- مسرى الرسول العربي محمد (صلى الله عليه وسلم)- وهي تحمل في كل الخلايا صيحــات آلام السيد المسيــح- وجــراح المدافعين عنهــا في وجه الغــزاة - وهي من صمد حتــى اليوم أمام كل الهجمــات- وأنا أقــرأ في سطرها على (الصخــر في القلعــة - كيــف أن أجدادي حاربوا وحرروها مع صلاح الدين الأيوبي)- احتلها الحالمون بمفاتيــح العالم والهيمنة - باسم الحرب الصليبية أو الحروب الصليبية

وذاقوا الهزيمة والمرارة وتحررت القدس في عام ١١٧٨ للميلاد ومرة أخرى بعد وفاة صلاح الدين الناصر في ١٢٤٤ على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم ظلت تحت الحكم العربي -الإسلامي- إلى اندحار الدولة العثمانية ووضع فلسطين تحت الوصاية البريطانية (صاحبة وعد بلفور) والمشاركة الأصيلة في صياغة (معاهدة تقسيم الوطن العربي سايكس-بيكو -عامي ١٩١٦-١٩١٧ على التوالي) ولأني لست باحثاً أكاديمياً فلا تسألوني (من أين حصلت على هذه المعلومات سأقول لكم، نحن في عصر المعلومات كما أن على كل فلسطيني، على كل عربي، على كل مسلم، على كل إنسان يبحث عن العدالة والحرية والسلام أن يلم بتفاصيل تاريخ العالم - فتاريخ القدس - فلسطين هو تاريخ الدنيا - فعل الإنسان في الزمن- منذ الكتابة ومنذ القراءة ومنذ تفتح الأدمغة على حقيقة (الانتماء - للمكان ومن ثم إطلاق صفة الوطن على المكان)- فذي هي الجذور الفعلية لعملية السيرورة التاريخية البشرية - إن المكان يستقي قدسيته من كل ما يعنيه لساكنيه ومن كل ما يفعله ساكنوه له - من تلك العلاقة الحميمة التلاحمية بين الإنسان ومكانه - وطنه.

أين أبحث -إذاً- عن القدس؟

أبحث عنها في (عين حوض)- مسقط رأسي؟ أبحث في ثراها وحصاها، وأبحث في صبارها وفي خروبها الفريد العزيز وفي زيتونها وفي الشقوق الكثيرة لصخورها وهي تتحدر إلى حيث الاستقرار لصق حيفا - فتلحس مياه البحر المتوسط بقايا الصخور المتصهرة من (الكرمل) نزولاً حتى اتقاد القرى المشهورة (جبع واجزم وعين غزال والطيرة والطنطورة والمزار وحتى بلد والدالية وعسفيا) أبحث عن القدس في الثرى الذي إليه أهفو - حياً أم ميتاً- فهو ما حملني وهو ما حمل أبي وجدي وجد جدي إلى ما قبل آلاف السنين أبحث عن القدس التي ماذهبت صورتها من رأسي وأنا أزورها للمرة الأولى واعياً عام ١٩٦١، فمشيت في شوارعها وبكيت فرحاً وأنا أدخل المسجد الأقصى وأقف قبالة (القبة) - وأتملى فيها صورة الإسراء والمعراج - وأتذكر أنها مدينة سلام قطعه إرباً إرباً بالحراب أولئك المحتلون الغاصبون -الذين

كانوا- في ذلك الحين- قد احتلوا (الجزء الغربي) من المدينة المقدسة - ووضعوا بينها وبين الشرقية الأسلاك الشائكة وبوابة (مندلبوم).

أبحث عن القدس في (سفر التكوين) وفي أي إصحاح؟ أبحث عنها في عيني أبي وهو يقول -في المرض النهائي- (ترجعون على البلاد حين يحب بعضكم بعضاً) وكلمة أو لفظة (البلاد) عند أهلنا وأجدادنا تعني (الوطن - فلسطين) - وكانت تعني أيضاً (بلاد الشام) فلقد كان جدي يقول لي (كنت أركب حصاني وأجوب كل هذي البلاد من هنا (قضاء حيفا - أم الزينات - إلى صور وصيدا وبيروت إلى الشام- ومن هناك كنت أحياناً أتحرك إلى حلب)- هذا الكلام كان في نهايات العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

والدلالة أن (الشيخ عز الدين القسام كان سورياً - من جبلة) وأنه صار قائداً ورمزاً من قادة ورموز النضال الوطني الفلسطيني في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي أبحث عن القدس في ابتسامة اغتصبت من على شفتي طفلة وهي تشهد وحشية الجناة المدججين بالحقد والجريمة أبحث عن القدس في التكوين الحي للشعب الفلسطيني - والأمة العربية. ليست القدس مجرد أبنية وأزقة؟ ليست مجرد رقعة جغرافية، إنها الحياة تصارع أسباب الفناء وعوامل الإفناء ونزعة الشر والجريمة لكي تبقى القطعة التي جعلها الله مباركة وبارك (حولها) أبداً_ أنا أبحث عن القدس اليوم في ترنيمة أم فلسطينية تحاول أن تهدهد طفلتها أو طفلها لكي تنعم أو ينعم بالنوم- في ظل التشرد والحصار والجوع والعري - إنها أرجوحة الذهاب إلى الأمل والعودة إلى الأمل - كي تمتلئ الأرض بالخضرة، ولكي تعود البهجة إلى الحزانى والثاكلات والمحرومات من نعمة (الوطن).

في الخيمة (الفلسطينية) التي تطارد الفلسطيني منذ ستين عاماً ما تعلق الأفئدة إلا بالقدس -الوطن- فالقدس ليست مجرد مدينة - ولا هي مجرد جدران وأسوار ولا هي شوارع ومجاري، إنها الطلقة الكبرى الأخيرة للحظة الولادة وقد امتدت يد الغزاة إلى فم الأم محاولة خنق الآهة وإنهاء المولود قبل الولادة أو في لحظتها بل وقطع (السرّة) فوراً.

أنا لا أكتب عن تاريخ القدس.. أقرأ تاريخ القدس في تاريخي الشخصي، حيث شردت من بعد (البلاد) ست مرات، وتغريباتي ربما كنّ أخف وطأة من تغريبات أخوة لي وأشقاء وأولاد عمومة وخؤولة — لقد توفي أبي وتوفيت أمي وهما يحلمان بأرض اكتنزت أنفاسهما واحتضنت أجداث أجدادهما - وحلماً بالقدس حتى اللحظة الأخيرة - وها أنذا أنقل الحلم منهما إلى الأولاد والأحفاد كيف لنا أن نتأى بالذات عن الذات - وبالروح عن الروح، وبالحياة عن المجرى الأصيل لها؟!

قبل أيام جاءني هاتف من (السويد) حيث رحلت شقيقتي وأسرتها إلى هناك بوساطة (المفوضية العليا لشؤون اللاجئين) - من مخيم على الحدود العراقية - كانت الكلمات باكية - بل إنها ربما فضلت البقاء في الخيمة على الانتقال البعيد جداً عن (البلاد) - كانت تقول: صحيح أنا لم أولد في البلاد ولم أر (عين حوض) ولم أزر (القدس) لكني أحس أن ثمة فراغاً موغلاً وكبيراً في روحي لايمكن أن يمتلئ إلا بكم وبالبلاد.

هذا الفراغ الموحش في النفس الفلسطينية - حتى تلك التي ما رأت القدس عيناها وما عاشت في أرض فلسطين لحظة واحدة - حيث ولدت في الشتات، هو المد العظيم لطوفان الحقيقة الفلسطينية - العربية - تلك التي انتصرت أبدا على الغزاة وعلى العابرين منهم (والقاعدين) عقوداً، إنها الحقيقة التي طيرت عن صخرتنا المقدسة كل أثر من آثار عاصفة حملت دائماً غبارها الأصفر: هذا الفراغ الموحش هو الذي يعبر عن نفسه برفض التوطين والتعويض وحياة التشرد والمهانة، هو ذاته الذي هزم جيوش الغزاة بالفداء، وهو من تصدى وانتصر على: الرومانيين واليونانيين والفرس والصليبيين والمغول في هذا الفراغ الهائل أفتش عن القدس فليس إلا هي التعبير الحار المفعم بالحياة عن عودتي إلى الحياة في (عين حوض) وفي فلسطين كلها (من بحرها إلى النهر)- وحيث (القدس).

الأدب الجغرافي الفلسطيني

دعوة مبكرة للتحرر

د. محمد فؤاد الذاكري *

شغلت الحروب الصليبية ضد الوطن العربي قرابة أربعة قرون بدأت من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي إلى أواخر القرن الخامس عشر امتد فيها الصراع، وتوالت الحملات العسكرية الصليبية إلى بلاد الشام والمقدس ومصر نظراً لأحوال الجبهة الإسلامية فدولة الأتراك السلاجقة القوية انقسمت إلى عدة دول بعد وفاة السلطان ملكشاه عام (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) وذهبت قوتها وأصبحت أربع ممالك بدلاً من واحدة، فظهرت سلطنات فارس

* أديب وباحث سوري

وكرمان والعراق والشام مستقلاً بعضها عن بعض، وأصاب الخلافة الفاطمية الضعف والانهيار ومنيت بأزمات اقتصادية ومجاعات جعلتها غير قادرة على التمسك أمام أطماع الوزراء وتجلى ذلك في عهد الخليفة المستنصر بالله الذي دامت خلافته ٥٨ سنة (١٠٣٦-١٠٩٤م) وكان عهده مليئاً بالكوارث التي نشأت عن المجاعات والأوبئة.

وأصبحت بلاد الشام منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة منذ سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، وإلى جانب السلاجقة الذين كانوا يسيطرون على الشمال والفاطميين الذين كانوا يسيطرون على الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام، كانت بلاد الشام الداخلية مجزأة إلى مقاطعات عليها عدة زعماء من العرب يتمتعون باستقلال كلي.

تحركت جموع الصليبيين من بلادهم في عام (١٠٩٧م-٤٩٠هـ) ووصلوا أسوار بيت المقدس في (١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ) وشددوا الحصار عليها وخصوصاً بعد أن وصلتهم الإمدادات عن طريق البحر، ودخلوها بعد أن ارتكبوا فيها مذبحة رهيبة ذكرها أكثر من مؤرخ صليبي عاصر تلك الأحداث المأساوية وشاهدها، ثم شرعوا في وضع خطة لفتح باقي مدن فلسطين وتمَّ لهم ذلك.

هذه الصورة القاتمة لا تعكس تماماً حقيقة الأمر، فقد ظلت الروابط الثقافية قائمة بين أقاليم الوطن العربي رغماً من انقسام العالم الإسلامي إلى عدد من الوحدات السياسية، وكان باستطاعة العلماء والرحالة الانتقال دون أي صعوبة من بلد إلى آخر وأن يمكثوا أمداً طويلاً أو قصيراً في مختلف الأماكن دون إحساس بالغربة أو بتغير كبير في الوسط.

الأدب الجغرافي الفلسطيني:

وظهر لدينا أدب جغرافي ذو طابع دعائي ارتبط ارتباطاً وثيقاً على جميع المراحل بنمو حركة (التحرير) التي ترجع إلى عهد (صلاح الدين الأيوبي) وتنتهي بتحرير عكا وطرابلس في عام (١٢٩١)م.

لا بد من الإشارة إلى أن الأدب الجغرافي يعكس جميع أوجه النشاط الاجتماعي، باعتباره يقدم صورة متكاملة الجوانب للتطور الثقافي للحضارة العربية وارتباطها بالتوسع الاقتصادي للحضارة الإسلامية.

ولم يقتصر على وصف العالم الإسلامي

وحده بل زودنا بمعلومات لا يستهان بها عن جميع البلاد التي وصلها الرحالة المسلمون أو التي تجمعت لديهم معلومات عنها، وذلك بالصورة نفسها التي وصفوا بها بلاد الإسلام، وفي بعض الأحيان تمثل المادة الجغرافية العربية، المصدر الوحيد والهام في معرفتنا بقطر ما خلال حقبة معينة من تاريخه، إلى مرحلة جعلت المستشرق المعروف (تيودور نولدكه) يقول:

«إن الجغرافيا في أكثر من ناحية هي الجانب الأكثر إشراقاً في الأدب العربي» حيث تبين من خلال الدراسات الحديثة سعة المعارف الجغرافية لدى العرب التي تجاوزت بصورة أكيدة حدود العالم كما عرفه اليونان.

و لابد من توضيح اتجاهين أساسيين في الأدب الجغرافي العربي، يعود إلى تقاليد قديمة، فالاتجاه الأول يهتم بالعلوم الدقيقة بالمعنى الذي نقصده حالياً مثل:

الجغرافيا الحيوانية وتمثله كتاب الحيوان للجاحظ، والجغرافيا الوصفية وأطلق عليها تسمية (المسالك والممالك) وترتبط ارتباطاً وثيقاً بقصص الرحلات، الجغرافيا التاريخية، الجغرافيا الرياضية ويقابلها علم الأطوال والأعراض وعلم تقويم البلدان، الجغرافيا الفلكية وغيرها..

والاتجاه الآخر يولي وجهه شطر الأدب الفني وقد أدرك المؤلفون العرب ذلك الطابع المزدوج لعلم الجغرافيا وشرحوه بدقة في تصنيفهم للعلوم، وهكذا تقابلنا الرسالة العلمية في الفلك والرياضيات، كما تصادفنا المداخل العملية التي وضعت من أجل عمال الدواوين وجمهرة المسافرين ونلتقي فيه بنماذج أدبية فنية رائعة، صيغت بالسجع أحياناً تكمن فيها المتعة والفائدة.

وبنظرة فاحصة للمصنفات التي عالجت الأدب (الفلسطيني) في الفترة التي تسبق عهد (صلاح الدين الأيوبي)، نلاحظ أن فلسطين نفسها لا تذكر كإقليم مستقل بل ترد ضمن مجموعة بلاد الشام بحدودها الطبيعية المعروفة وخير مثال على ذلك مصنف يحمل عنوان (الأعلام بفضائل الشام ودمشق وما ذكر فيها من الآثارات والبقاع الشريفة) للمؤلف (أبي الحسن علي الربعي) الذي تم تأليفه حوالي عام (٤٣٥هـ/١٠٤٣م)، ولابد من ذكر علم مشهور هو (محمد بن أحمد المقدسي) الذي توفي حوالي (٣٩٠هـ/١٠٠٠م) وينتمي

إلى إحدى الأسر العربية الكبرى التي سكنت (القدس) غير أن صيغة (المقدسي) واسعة الانتشار وهناك أكثر من عالم ومؤلف في التراث العربي يحملون ذات اللقب، ونتيجة لرحلاته الواسعة واستفهاماته العديدة ونشاطه الجم، استطاع في سن الأربعين أن يؤلف كتابه المعروف : (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) وهو يذكر منهجه العلمي في التأليف:

(فانتظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام أحدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه من الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره) كما يسرد حكاياته المشهورة للمغامرات التي مرت عليه خلال أسفاره وتجواله والمصاعب والمخاطر التي تعرض لها (و أشرفت مراراً على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق وخدمت القضاة والكبراء وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت في الطرق الفساق وبعت البضائع في الأسواق وسجنت في الحبوس وأخذت على أني جاسوس، وعاينت حرب الروم في الشواني وضرب النواقيس في الليالي ويرى العالم (كرامرس Kramers) أن (المقدسي) أكثر الجغرافيين العرب قيمة، بل ويبلغ الحماس من جانب المستشرق (اشبنر نجر Sprenger) فيعتبره (أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة).

وفي مراحل زمنية تالية من تطور الأدب الجغرافي الفلسطيني تظهر مصنفات تحمل عناوين (القدس) بشكل مستقل شأنها في هذا شأن (دمشق) مثل مصنف (فضائل بيت المقدس والشام) لأبي المعري المشرف بن المرجي بن إبراهيم المقدسي الذي عاش في نهاية القرن الخامس الهجري أي الحادي عشر الميلادي وبحسب (كراتشوفكسي):

(يبدأ العرض بتاريخ موجز لبيت المقدس القديمة وفتح العرب لها في عهد عمر وبناء عبد الملك في الحرم ويلي هذا الكلام على فضائل القدس وفضائل الصلاة فيها، وينصب العرض في جوهره على سرد الأحاديث النبوية التي قيلت في فضل القدس وهو منهج اكتسب رواجاً كبيراً لدى المؤلفين التالين).

ثم يقابلنا عنوان القدس منفرداً قائماً بذاته في مصنف آخر هو (فضائل بيت المقدس) الذي ألفه حوالي (٥٠٠هـ/١١٠٦م)، أبو بكر بن محمد ابن أحمد الواسطي، وتبرز شخصية كبيرة كالمؤرخ الداعية المشهور (أبو

الفرج عبد الرحمن بن الجوزي) المتوفى عام (٥٩٧هـ/١٢٠٠م) الذي جعل من قضية تحرير فلسطين وبيت المقدس من براثن الصليبيين نشاطاً لدعوته وموضوعاً لخطبه ورسالته (فضائل القدس) مجرد فصل من مصنفه الكبير (مثير الغرام إلى ساكني الشام) ولكن حفيده وتلميذه المؤرخ (سبط ابن الجوزي) المتوفى عام (٦٥٤هـ/١٢٥٧م) لم يتوقف بدعوة أهل دمشق إلى جهاد الفرنجة. بل اشترك بنفسه على رأس حملة عسكرية موفقة على مدينة نابلس.

وفي نفس الوقت ظهرت أسرة دمشقية اشتهرت بمؤرخيها هي (بنو عساكر) وأحدهم هو (القاسم بن عساكر) المتوفى عام (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) وقد تبع خطا والده فاشتغل بالوعظ الديني بدمشق وزار القاهرة والقدس حيث قرأ على مسامع الناس فيها مصنفه الذي نال رواجاً كبيراً (الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى) وذلك في عام (٥٦٦هـ/ ١٢٠٠م)، ولنا أن نتصور مشاعر الغبطة والسرور لدى العامة وهم يعيشون في المقدس المحررة وقد مضى على تحريرها أكثر من عشرين عاماً من أيدي الصليبيين والمصنف المذكور أوشك أن يكون المصدر الأساسي لجميع من عالجوا الكتابة عن القدس حتى القرن الرابع عشر الميلادي وازدهر أدب جغرافي ذو طابع دعائي بفلسطين والشام وارتبط بمصير بيت المقدس وحروب صلاح الدين، ومن الجائز اشتراك علماء من أسرة واحدة أو من مدرسة واحدة في معالجة موضوع معين، مثل تاج الدين عبد الوهاب السبكي المتوفى (١٣٢٧-١٣٧٠م) والذي سبقه قريبه (أمين الدين أحمد بن محمد) في تأليف مصنفه (كتاب الأنس بفضائل القدس). أما (تاج الدين عبد الوهاب فهو من مواليد القاهرة ومؤلفه عن فلسطين يمكن تحديد موضوعه من العنوان هو (الروض المغرس في فضائل البيت المقدس) وكان مصدراً لاقتباسات هائلة منقولة عنه في أدب فلسطين.

التخصص في المسألة الفلسطينية:

في القرن الثامن الهجري ظهر جغرافيون تخصصوا في المسألة الفلسطينية منهم : أحمد بن محمد المقدسي المتوفى في عام (٧٥٦هـ/ ١٣٦٤م) وقد اشتغل بالتدريس لمدة طويلة بالقدس ولكنه توفي بالقاهرة ويحمل مصنفه الذي أتمه في عام ٧٥٢هـ/ ١٣٢١م، عنوان (مثير الغرام إلى زيارة القدس

والشام) والكتاب ينقسم إلى قسمين الأول في فضائل الشام وفلسطين عامة والثاني في فضائل المسجد الأقصى خاصة وفي سير بعض الشخصيات التي ارتبط اسمها به ولكن الاهتمام بالمسائل الفلسطينية لم تعد وقفاً على أهل الشام وحدهم أو أصحاب الجغرافيا والطبوغرافيا، بل شارك الفقهاء بنصيبهم مثل الفقيه الكبير (محمد بن بهادر التركي المصري الزركشي) المتوفى (٧٩٤هـ/١٣٩٢م) وقد تلقى تعليمه بالقاهرة ودمشق وحلب، وإلى جانب مؤلفاته الفقهية العديدة له رسالة بعنوان (إعلام الساجد بأحكام المساجد) ومن الجلي أن القدس قد فازت بمكانة كبرى في تلك الرسالة.

والفقيه الآخر هو (شهاب الدين أحمد ابن محمد الاقفهسي المصري) المتوفى (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) وأشهر كذلك بمؤلفاته الفقهية ومؤلفه (تسهيل المقاصد لزوار المساجد) يتكلم عن فلسطين بشكل عام.

قرب نهاية القرن التاسع الهجري، وصلنا كتاب (اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى)، وهو وإن كان في جوهره تاريخاً ووصفاً للمسجد الأقصى، كما يؤكد ذلك عنوانه إلا أن فصوله الثمانية أبعد من أن تقتصر على ذلك الموضوع وحده، فإن به فصولاً في الدعاية الصرفة تدعو إلى زيارة فلسطين وإلى إنفاق الصدقات في المواضع المقدسة بها، كما يوجد به أقساماً مخصصة للقصص الإسلامية المرتبطة ببيت المقدس كالإسراء والمعراج. وهو يتحدث بإسهاب عن الرسل المختلفين ومشاهير الرجال الذين أقاموا بفلسطين، كما وإنه يولي عناية خاصة لتاريخ إبراهيم الخليل وإقامته ببلاد العرب مع ابنه إسماعيل، ولاشك إن معرفته بالحجاز قد أعانه على اختيار مادته لهذا الموضوع. أما أنبياء التوراة (العهد القديم) فيعرض تاريخهم عن طريق توضيح الأساطير من ناحية، ثم يفرد أقساماً مسهبة للكلام على حبرون (الخليل) وقبر موسى ومسجد دمشق (الأموي) كما لا يهمل الكلام عن آثار ومواضع الشام المشهورة، وتبقى فلسطين المحور الأساسي خلال جميع صفحات هذا الأدب الجغرافي.

وآخر مؤلف عرفته سلسلة الأدب الفلسطيني هو (مجير الدين عبد الرحمن بن أحمد العليمي العمري) المتوفى (٩٢٨هـ/١٥٢٢م) ومصنفه يحمل عنوان (كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) ويعتبر أوسع

وأحفل وصـف تاريخي طوبغـرافي للمدن الفلسطينية، والمؤلـف (العليمي) أصله من القدس لكنه تلقى تعليمه بالقاهرة ثم تولى منصـب القضاء بمدن فلسطـين المختلفة، والكتـاب مرتبـط في جوهـره بالجغرافيا الدينيـة وذلـك على طـراز الكتـب التي تدعو إلى الحـج ولكنه يفسح المجال لتاريخ الشعوب على أسـاس معالجة سير مشاهير رجالها، ويمكن تقسيمـه إلى أربعة أقسام: الأول منهـا في وصف القدس، والثاني في وصف المسجد الأقصى والكلام على مدارس وأديـرة فلسطـين ومدنهـا، والثالث يحوي تراجم السلاطين والعلماء، أما القسم الرابع فيعالج الـكلام على تاريخ الـولاة ويختمه بتاريخ سلطنة قاتيباي.

أما الأسلـوب العلمي الـذي سار عليه المؤلفون فلا يخرج عـن الإطار العام الذي حـدده (تقـي الديـن المقريـزي) المتوفى (٧٦٦هـ/١٣٦٤م) بقوله:

(اعلـم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهي، الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمرتبـة، وصحة الكتاب، ومـن أي صناعة هو، وكم فيه من الأجزاء وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه).

الفضائل والمحاسن:

كان العامـل المشـترك بـين المصنفات الجغرافيـة المذكـورة اهتمامهـا الأساسي على المـدن الكبرى كدمشـق والقدس وهو نمط قديم معـروف يعرف بـ (الفضائل) و(المحاسن) أي ذكر محاسن البلاد والشعوب، فعند الـكلام على مدينـة القدس كان يتم وصـف مساجدهـا المختلفـة وحماماتهـا ومنتزهاتها والحديث عن قراها ومواضعها المشهورة بأزهارها ونباتها وأشجار فاكهتها، مع تفصيل طرق جمعهـا ووسائل تسويقها وإيراد بعض التفاصيل التاريخية والمعمارية والإشـارة إلى مـن عاش بها مـن مشاهير الرجـال وعـن مقابرها وما بهـا من قبور معروفة، أمـا الأسلوب الكتابـي فلا يخلو أحيانـاً من التكلف وتبدو عليه غلبة السجع والمحسنات البديعة والتشبيهات والاستعارات المبالغ بها وتنتثر فيه الاستشهادات الشعرية، ولكـن يمكن استخلاص مـادة علمية جيدة ومعطيات هامة.

ولابـد مـن التأكيد بأنه توجـد أسباب خاصـة جعلت فلسطين في فترات معينة من التاريخ محط أنظار العالم الإسلامي بأجمعه، هذه حقيقة لا مـراء فيها، ومن الواضح أن

مؤلفي هذه المصنفات لم يكونوا من أهل فلسطين والشام وحدها بل كانوا أيضاً من المصريين والمغاربة.

والسبب معروف فقد كانت مصر المملوكية والبلاد العربية المرتبطة بها، معنية أولاً بتحرير فلسطين والمناطق المجاورة لها من أيادي الصليبيين.

هذه الحركة التحريرية قد تركت صداها في عدد من الآثار الأدبية منذ عهد صلاح الدين الأيوبي إلى عهد محمد الفاتح (العثماني)، وتتمثل بأن فلسطين وجميع أرض الشام لا ينازع في شرعيتها أي منازع، أما مقابر الأنبياء القديمة في القدس ومعابدها ومساجدها العتيقة فقد اكتسبت قداسة لا تفوقها سوى قداسة مكة والمدينة المنورة، وتحريرها واجب مقدس، إضافة لتعريف الشعوب الإسلامية بتلك البلاد وتضاريسها الجغرافية وأوضاعها التاريخية. وفي ذلك الحين بدأت تتشكل وتنمو فكرة مفادها بأن بلاد الشام تمتلك تسعة أعشار ثروة العالم بأجمعه، وعلى العرب استغلال خيراتها لأنفسهم سواء في مجال الزراعة أو التجارة، وهذا ما حدا (بأبي البقاء عبد الله البدري) المتوفى (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) إلى تدوين مصنفه (نزهة الأنام في محاسن الشام) قدم فيه وصفاً لمشاهد الشام، وأولى اهتماماً أكثر لأزهار وفاكهة وادي الشام، معدداً أنواعها ومزاياها وفوائدها الغذائية والعلاجية، مبيناً ما يلقاه كل منها من إقبال في البلدان الأخرى، ويمكن القول إن الإحساس بخطر الغزو والأطماع الأوروبية التي تهدد سواحل مصر والشام كانت دافعاً قوياً لتلك المصنفات المبكرة، وتكمن قيمتها في المادة التي تحويها، فلا تقتصر على الموضوعات التي ذكرها، بل تعالج أيضاً مسائل هامة في مجال التاريخ والآثار والطبوغرافيا أحياناً.

وظهر في بعض المصنفات ضرباً من الدعاية الصريحة لزيارة القدس حتى يفوز المرء بحسن المثوبة والمكافأة في الدار الأخرى، مثل (باعث النفوس إلى زيارة القدس الشريف) للمؤلف (برهان الدين إبراهيم بن الفركاح) المتوفى (٧٢٩هـ/١٣٢٩م) وقد اشتغل بالتدريس بدمشق وزار مصر، وتخصص بالأدب الفلسطيني ويورد في كتابه معطيات ذات قيمة في مجالي الجغرافيا التاريخية والآثار المختلفة حيث يبدأ من لحظة بناء المسجد الأقصى والصلاة فيه وما في الحج من بيت المقدس

إلى مكــة من مزايا وفي أهمية الزكاة في بلد كبيــت المقدس كما يهتــم بالأماكن المقدسة الأخــرى في القدس، ولاينسى إبراز فضائل مدينة الخليــل ومكانتها المتقدمة إلى جانب بيت المقدس والدعوة لزيارة فلسطين.

إن هذه السلسلة من المؤلفات تمثل حدثاً مرموقــاً وجديــراً من وجهة نظــر التطور العام لــلأدب الجغرافي العربي كونها تتميز بضخامــة عددها واتساع مداها وقد تركت طابعاً خاصاً مميــزاً على الأدب الجغرافي، وازدهار التأليف بغزارة في مجال الجغرافيا الإقليمية في الشام وفلسطين هو أمر طبيعي، فهو يمثل جانباً أساسياً من المقاومة الثقافية التــي أبداها العالم الإسلامي ضد الحملات الصليبية، وعاملاً مهماً على شحذ النفوس وإثارة الهمــم، وإنه دور علمي ناجح يتشابه مــع دور وسائل الإعــلام في عالمنا الحالي، والفرق أن ثماره قد أتت أكلها آنذاك.

المصادر:

- اغنا طيوس كراتشو فسكي - تاريخ الأدب الجغرافي العربي - ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم- بيروت- دار الغرب الإسلامي- الطبعة الثانية- ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

١- ميخائيل زابوروف- الصليبيون في الشرق- ترجمة الياس شاهين- موسكو- دار التقدم- ١٩٨٦م.

القدس في الفن التشكيلي

د. محمود شاهين *

تُشير كتب التاريخ إلى أنه قبل ستة آلاف سنة، وضع العرب الكنعانيون حجر الأساس لبناء مدينة القدس التي تُسمى عند الأوروبيين Jeruslam والتي أصبحت مدينة مقدسة لدى الديانات السماوية الثلاث: الإسلاميّة والمسيحيّة واليهوديّة، ولأن القدس مسرى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام (المعراج) اكتسبت أهمية خاصة عند المسلمين الذين يعتبرون المسجد الأقصى الموجود فيها، عتبة الجنة يوم الحساب.

ولأن المسيحيين ينتظرون مجيء المسيح المنتظر فيها، ينظرون إليها، بكثير

* فنان وناقد وأكاديمي (سورية).

من التقديس والتبجيل والاحترام، غير أن الغزاة الصهاينة القادمون من مختلف بقاع العالم، يدّعون اليوم، أن هذه المدينة العربية الخالصة، عاصمة كيانهم الغريب القائم على أرض فلسطين العربيّة، ويجهدون لتقويض مقدسات المسلمين والمسيحيين، وتغيير ملامحها، تمهيداً لتهويدها وتحقيق زعمهم الباطل القائم على الأوهام والخرافات، بأنها عاصمة بني إسرائيل.

تنهض القدس على عدد من الجبال، أبرزها جبل (موريا) وهو الجبل الذي يقوم عليه الحرم الشريف الذي تعلوه قبة الصخرة المشرفة، وعلى سفحه من الجهة الجنوبية، ينهض المسجد الأقصى، وعلى سفحه من الجهة الغربية، ينتصب حائط البراق الذي يقع عليه سور القدس القديم المحيط بالمدينة المقدسة من جهاتها الأربع.

يعود تاريخ إشادة قبة الصخرة إلى العام ٦٩١، حيث أمر ببنائها الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان) ثم أشاد المسجد الأقصى الذي أعيد بناؤه عدة مرات فيما بعد.

يرى (جورج مارسيه) أن الطراز المعماري الثماني لقبة الصخرة، مأخوذ من الفن المسيحي، فبعض الكنائس السورية ذات المخطط المركزي، ككنيسة بصرى، أو كنيسة الصعود في القدس، نجد فيهما هذا الترتيب العام القائم على القبة والأروقة المحيطة بها، وتحمل تيجاناً بديعة مزينة بورق الأكانثوس من الطراز اليتودوسي. أما ما يضفي مظهراً شديد البهاء وعلى العمارة فيها، الفسيفساء ذات الخلفية الذهبية التي تزين عنق القبة، وبطون الأقواس والأكتاف التي تفصلها، فهي أعمال ذات طبيعة بيزنطية، أو نُفّذت من قبل فنانين سوريين تعلموا في مشاغل القسطنطينية.

أما (دافيد تالبوت رايس) فيرى أن مخطط قبة الصخرة، يمثل توسيعاً لمخطط كان قد طُوّر فيما سبق في العالم البيزنطي أثناء عصر (جوستانيان) في كنائس مثل كنيستي القديسين (سرجيوس) و(باخوس) في القسطنطينية (٥٢٦ . ٥٣٧) وكنيسة (فيتالي) في رافينا (٥٢٦ . ٥٤٧). وكذلك يدين داخل القبة بالكثير، لا للفن المسيحي في سورية وفلسطين فقط، بل أيضاً لفن العالم البيزنطي بالمعنى الضيق للتسمية. لذا فإن الأعمدة وتيجانها ورفائف الجدران الرخاميّة لا تكاد تتميز عن أمثالها مما يوجد في إحدى كنائس القسطنطينية. وبعض تصاميم أشكال أوراق الأشجار على الأغلفة المعدنية للروافد الخشبية غالباً ما تكون أقرب إلى الأشكال المحلية منها إلى الأشكال البيزنطية المحضة، بينما التصاميم

الزخرفية الأخرى عليها، كذلك تصاميم الفسيفساء، تدين لبلاد فارس الساسانية بقدر ما تدين للفن البيزنطي.

على نفس الهضبة، يقوم المسجد الأقصى الذي بناه أيضاً الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أو ابنه الخليفة الوليد الذي حكم من (٧٠٥ - ٧١٥م) والمؤلف من جناح مركزي عريض تحدّه أقواس ترتكز على أعمدة وعلى جانبيه جناحان أضيق.

يرى (جورج مارسيه) أن ترتيبات المسجد الأقصى، بما فيها تلك الممرات الثلاثة الموجهة نحو العمق، هي ذاتها التي توجد في البازيليك. ولما كانت من أعمال معماريين محليين، فهي تتلائم مع العبادة المسيحية أكثر من تلاؤمها مع العبادة الإسلامية، ولكن بعد إضافة اثني عشر جناحاً على طرفي الأجنحة المركزيّة الثلاثة، أصبح هذا الحرم ذا تناسب في العرض أكثر انطباقاً مع متطلبات الصلاة الإسلاميّة.

أما (دافيد تالبوت رايس) فيرى أن المسجد الأقصى في الأصل، كان يحمل شكل قاعدة كبيرة ذات أعمدة، وكان يمثل مفهوماً جديداً في الهندسة المعمارية الإسلاميّة، رغم أن أعمدته وتيجانها كانت بيزنطية فقد أعيد استعمالها حين أعاد الوليد إشادة البناء، ولكن معظم ما نراه اليوم، أتى في وقت لاحق، إذ إنه أُدخلت عليه التصليحات إما من قبل المنصور عام ٧٤٠ أو المهدي عام ٧٨٠. ومرة ثانية من قبل الحاكم الفاطمي الظاهر عام ١٠٣٥.

هذان المعلمان المعماريان البارزان، اختزلا (القدس) زهرة المدائن العربيّة، في رسوم ولوحات وصور ومحفورات ومنحوتات عدد كبير من الفنانين التشكيليين الفلسطينيين العرب والأجانب، ومن الطوائف والملل والأجيال كافة، ولا يزال المسجد الأقصى وقبة الصخرة، الإشارة الأهم والأبرز التي تذهب بنا مباشرة إلى القدس، مؤكدة عروبتها وعودتها الأكيدة، عاصمة لدولة فلسطين القادمة لا محالة، وفي وقت لم يعد بعيداً، فكيف بدت عروس المدائن، في أعمال الفنانين التشكيليين، بأي صيغة تناولوها، وكيف عبروا عن مواقفهم تجاهها، وتجاه القضية الفلسطينيّة التي شارف عمرها على ستين عاماً، ظل خلالها الجرح العربي والإسلامي مفتوحاً ونازفاً ومأزوماً .. ولا زال!!

يأتي الفنان التشكيلي السوري الراحل (غازي الخالدي) في طليعة من تناولوا مدينة القدس ورموزها في لوحاتهم، وبأكثر من صيغة، ولأكثر من هدف وموضوع وقضية. من ذلك ربط رموز القدس المعماريّة الإسلاميّة

والمسيحيّة، بموضوع الشهادة والشهداء، كما في لوحته (تحية إلى شهداء فلسطين) المنفذة بالألوان الزيتية عام ١٩٧٦، حيث شكّلت هذه المعالم الشريط السفلي في اللوحة، وقد عالجها بواقعية مبسطة، وألوان قليلة (الأزرق والبرتقالي) ورمز في الشريط العلوي (ويشكل ثلثي مساحة اللوحة) إلى الشهداء بثلاثة أحصنة مشرئبة الأعناق نحو السماء الغارقة بألوان الأحمر القاني والبرتقالي والأسود، إشارة إلى دماء هؤلاء الأبطال المؤسسة لفجر التحرير القادم المتمثل بقرص الشمس (أو القمر) الذي تتكشح عنه الغيوم السوداء (رمز الاحتلال الصهيوني) ممهدة الطريق لبزوغ فجر الحرية النقي الصافي القادم من الأفق، والمرتمي فوق أسطح عمائر القدس وبين جنباتها.

اللوحة بسيطة العناصر، قليلة الألوان، واضحة الرموز، ما جعلها سهلة التناول والوصول، إلى المتلقي، على اختلاف ثقافته. أما في لوحته (زهرة المدائن يا قدس) المنفذة بالألوان الزيتية والموجودة في نادي ضباط الجيش العربي السوري بدمشق المنفذة عام ١٩٨٢، فقد ربط قبة الصخرة ومحيطها، بفتاة خائفة رسمها بلون أبيض (رمزاً للطهارة) تطل من القسم الجانبي اليساري من اللوحة، تحتضن بيدها اليمنى، هذه العمائر المقدسة، وتشير باليد اليسرى إلى قبة الصخرة المهددة، بينما طيف حمامة بيضاء (إشارة إلى الحرية القادمة) يتشكل في الأفق المرسوم بألوان زرقاء سماوية، شفيفة، انعكست أطيافها على جدران العمائر المنفذة بخطوط صلبة، وألوان متدرجة مكونة من البني والأصفر والأبيض ومشتقاتها. واللوحة كسابقاتها، معالجة بالأسلوب الواقعي المختزل والبسيط.

أما لوحته (فلسطين عام ١٩٤٨) المنفذة مطالع سبعينات القرن الماضي، فقد صوّر فيها عملية النزوح الفلسطيني من خلال فتاة منفذة بخطوط الملامح، تستقر على كتفي رجل يعبر بها البحر إلى المجهول، وقد رمز إلى فلسطين، ببيوت ومساجد وأشجار أخذت لون الدم، إشارةً وتأكيداً، على الطغيان الصهيوني ومذابحه التي دفعت بالفلسطينيين إلى مغادرة بيوتهم وأراضيهم، وكانت قبة الصخرة، الرمز الأبرز والأهم في اللوحة. وحتى في لوحاته الوطنية والقوميّة الأخرى، ظلت القدس برموزها الأساسيّة، حاضرة ومؤكدة فيها، من ذلك وجود قبة الصخرة ومحيطها العمراني العربي الإسلامي المميز الطراز، في الطرف اليساري العلوي من لوحة (ملحمة حرب تشرين ١٩٧٣) الموجودة في القصر الجمهوري

بدمشق، مشيراً بذلك، إلى وحدة النضال العربي وضرورته، لتحقيق أهداف الشعب والأمة، في التحرر من السرطان الخبيث الذي زرعه الغرب في جسد الأمة العربيّة، ومن ثم التفرغ لبناء الحياة العربية الجديدة الخالية من المخاطر والتحديات.

وفي لوحته (القدس في النار) المنفذة عام ١٩٧٣، صوّر الفنان غازي الخالدي اللهيب الذي طاول شوارع ومرافق هذه المدينة المقدسة، معبراً عن المأساة التي يعيشها شعبنا العربي الفلسطيني، تحت الاحتلال الصهيوني، مُبيناً من خلال تباينات الألوان المتضادة، حدة هذه المأساة وقسوتها وتداعياتها على الأمة العربية ومستقبلها.

عبر هذه التباينات اللونيّة، والصياغة الواقعيّة المبسطة، تمكن الفنان الخالدي، من وضع المتلقي في عمق المأساة الفلسطينية، من خلال التعبير المأساوي الانفعالي الحاد الذي سكبه فيها.

لقد ظلت القدس بخاصة، وفلسطين بعامة، حاضرة ومتألقة، في معظم أعمال الخالدي الوطنيّة والقوميّة، ما يعكس حساً رفيعاً ومتيناً بالانتماء القومي، رافقه طوال حياته، وانعكس بوضوح في إبداعاته المتشعبة. بل قد لا نكون مغالين، إذا قلنا إن القدس شكلت أيقونة لوحاته الوطنيّة والقوميّة، ومنها لوحته المعروفة (سورية بطولة وحضارة) التي ربط فيها بين القديم والجديد، من رموز حضارتنا العربية والإسلاميّة، كصلاح الدين وزنوبيا، وتدمر وقبة الصخرة، ودمشق والجامع الأموي، دون أن يغفل الإشارة إلى الشهداء المتمثلين بالأحصنة المشرئبة الأعناق نحو السماء، وبالتحديد إلى قرص الشمس الذي يهب الخصوبة والعطاء والأمل، ويرمز في الوقت نفسه، إلى العزة والسمو والرفعة والكبرياء.

إلى جانب الخالدي، قام عدد كبير من الفنانين التشكيليين بتناول القدس في أعمالهم، منهم الفنان سليمان منصور الذي جسد مأساة ومعاناة الشعب العربي الفلسطيني، بزهرة المدائن تتوسطها قبة الصخرة، على شكل عين، تستقر فوق ظهر رجل يحملها كما الوديعة أو الحرز، في عالم لا ملامح له، ومستقبل مجهول الهوية، وتحديات لا حدود لها، ومع ذلك، يحمل القدس بأناة وصبر وإرادة لا تلين ولا تتكسر.

الفنان الرائد إسماعيل شموط، ربط بين القدس والجماهير المزروعة حولها كجذور الشجر العتيق، مُبرزاً ومؤكداً، على المرأة العربية الفلسطينية التي أخذت على عاتقها، ضخ قوافل المناضلين والشهداء

وصناع الحياة، وبشكل متواصل ودائم، لتتحرر البلاد، وتورق الحياة عزة وكرامة ومستقبلاً آمناً. وفي إشارته إلى القدس، جاءت قبة الصخرة الذهبية، كعنصر أساس ومحوري في لوحته. نفس الشيء فعله الفنان عيسى عبيدو، عندما جعل قبة الصخرة تتوسط لوحته عن القدس وتبرز كعنصر أساس، لا سيما بعد أن جعل سور القدس يشغل القسم السفلي من اللوحة، وتعمد عدم التأكيد على النسيج العمراني حولها، وبالغ في مساحة السماء التي أخذت نحو نصف مساحة اللوحة. ولأنه عالج السور والمحيط العمراني، باختزال وبساطة، برزت وتأكدت قبة الصخرة بلونها الذهبي، ولربطها بالسماء المطرزة بالغيوم، أغرق الحرم الشريف الذي تعلوه باللونين الأزرق والأبيض وتدرجاتهما، وهو ما فعله في مساحة السماء.

وبأسلوب واقعي مُبسط تماهى بين الرسم والتصوير والحفر المطبوع، صوّر الفنان حسن نعيم التلال التي تنهض عليها القدس القديمة، لا سيما الأماكن المقدسة، الإسلاميّة والمسيحيّة.

وأحاط الفنان تيسير شرف في لوحته (القدس) هذا الجزء المعماري، بموج متدفق من الحروف والكلمات (من الأسفل) وبشرائط شاقوليّة ملونة، تنهض في الأعلى كألسنة اللهب، وكغيره من الفنانين، يؤكد ويبرز الفنان شرف، قبة الصخرة والحرم الشريف، إنما ضمن جوٍ من الزخرفيّة الطاغية، سببه قوة الألوان المتضادة التي استعملها في لوحته.

على العكس من ذلك، تأتي لوحة (القدس) للفنان توفيق عبد العال التي اختزلها بجامع ومئذنة وخلفية رمزية مؤلفة من مساحة لونية زهريّة، وتقطيعات هندسية صفراء، ومن هذين اللونين: الزهري والأصفر ومشتقاتهما، بنى عمارة اللوحة البسيطة التي قاربت أسلوبيتها رسوم الأطفال والبدائيين.

وقام الفنان بشير السنوار بالربط بين الحصان. الرمز الذي تطوق عنقه الكوفية الفلسطينية ويقف شاخصاً إلى قبة الصخرة، فوق تلة مواجهة، ولسان حاله يقول: إن الحق باقٍ، والأصالة مترسخة، وشمس الحرية والتحرير، قادمة لا محالة.

ثمة لوحات ورسوم أخرى كثيرة، وضعها رسامون ومصورون عرب، حول زهرة المدائن التي اختزلها معظمهم، برمزها الخالد (قبة الصخرة) وهو ما فعله معظم الفنانين التشكيليين الأجانب الذين تصدوا لنفس الموضوع، منهم الفنان الإنكليزي

(إدوارد ستانلي) المولود عام ١٨٥٥ والمتوفى عام ١٩٢١. ففي لوحته التي يمكن أن نطلق عليها عنوان (قبة الصخرة) صوّر هذا المعلم العربي الإسلامي المفعم بالدلالات والرموز، بدقة متناهية، رغم وجوده في عمق اللوحة التي رسم فيها محيط الحرم الشريف، بألوان ترابيّة، وأسلوب مختصر بسيط، هدف منه إلى إبراز وتأكيد، موضوع اللوحة الأساس (الحرم وقبة الصخرة) الذي بدا في أبهى حضور، وأجمل طلة، وأعمق دلالة. تشير لوحة ستانلي إلى موهبته الفنيّة الكبيرة، وخبرته الواسعة والعميقة، في التعامل مع الألوان التي يسخّرها لأكثر من مهمة تشكيليّة وتعبيريّة في عمله الفني.

قبة الصخرة ومحيطها المعماري والطبيعي، شكّلت موضوع لوحة رائعة نفذها فنان أوروبي مجهول، بصيغة استشراقيّة تشير إلى معلميّة صاحبها الكبيرة، كما تُشير شخوصها وطرز الثياب التي ترتديها، إلى أنها منفذة بداية القرن التاسع عشر وأواخر القرن العشرين. تحمل هذه اللوحة من الدقة الواقعية ما يجعلها تتماهى بالصورة الضوئيّة، وهو ما يجعل منها وثيقة دقيقة وجميلة، لهذا المعلم المعماري العربي الإسلامي الهام.

وأغرق الفنان (سكايلي ملر) لوحته عن القدس، بألوان وحشية قوامها الأزرق النيلي والأحمر والأصفر والبرتقالي والأبيض، وفيها صوّر (ضمن شريط في الأسفل لا تتجاوز مساحته خمس اللوحة) ملامح لمساجد وكنائس وأسوار وأشجار غلبت عليها الألوان البنيّة. فنان غربي آخر، قدم قبة الصخرة والحرم الشريف والمسجد الأقصى ومحيطهم، بأسلوب (الماكيت) وبدقة واقعيّة شديدة، اعتمدت على الرسم والقليل من الألوان الشفافة. في هذه اللوحة، تُطل عين المتلقي على موجوداتها وعناصرها من أعلى، وبرؤية بانوراميّة تحيط بأكبر قدر ممكن من تفاصيل المشهد. وبرؤية وأسلوبيّة مشابهة، نُفذت لوحة متخيلة للقدس أيام السيد المسيح، بالأبيض والأسود والقليل الباهت من الألوان، ما جعلها تقارب المحفورة. وبشيء من خيال المجنح، عالج فنان آخر (يوحي أسلوبه بأنه روسي) المعالم المعماريّة الرئيسة لمدينة القدس، لا سيما المساجد والكنائس والمحيط الطبيعي. الصيغة الفنية لهذه اللوحة، حالة متوافقة من أسلوب المنمنمة والأيقونة، وهي على قسط كبير من الخيال والطرافة والجمال والتفرد.

وفي لوحة لفنان مجهول، منفذة بألوان ضائعة بين الزيتي والمائي، برزت قبة الصخرة، ضمن محيط ساحر من العمارة

القديمة وبعض العناصر الطبيعيّة، زادتها بروزاً، المساحة الواسعة والخالية من العناصر الموجودة في مقدمتها، والسور الذي يليها.

رُسمت هذه اللوحة بأسلوب واقعي مُبسط، وبألوان زخرفيّة متباينة الدرجات، مأخوذة مباشرة من إصبع الألوان. أي إن الفنان لم يتعب نفسه كثيراً في استنباط ألوان يقارب فيها الواقع الحقيقي، وإنما اكتفى بالألوان الجاهزة، وهو ما أوقع لوحته بالسمة التزيينية الزخرفية، والحس التلقائي البسيط.

عكسها تأتي لوحة أخرى لفنان مجهول أيضاً، صوّر فيها قبة الصخرة، وسور القدس العتيق، والمحيط العمراني المؤلف من مجموعة كبيرة من المساجد والكنائس والبيوت القديمة، ذات الطراز العربي الإسلامي. اعتمد الفنان في إنجاز هذه اللوحة، على الخط (الرسم) كقيمة تشكيليّة أساسية، إذ أكد به على عناصر اللوحة المعماريّة والطبيعيّة، وأعطاها هيكليتها الصحيحة، أما اللون فجاء شفيفاً متدرجاً من الغامق إلى الفاتح، ضمن مساحات واسعة، ما أعطى العناصر ثقلاً ورسوخاً ووضوحاً، ولأنه عالجها والسماء، بكثير من الأناة، والتأكيد على التفاصيل والنمنمات الدقيقة، أخذت اللوحة خصائص ومقومات المحفورة الملونة.

الفنان الهنغاري (كونستناري كوستاك تيفدار) نفذ لوحة للقدس عام ١٩٠٥، أظهر فيها معلمين أساسيين هما: كنيسة (جاءت في مقدمة اللوحة) وقبة الصخرة (في وسطها) إضافة لطيف جامع يلوح في الأفق، وبضعة أسوار وبيوت قديمة، تحيط بالمعلمين، انبثقت بينها، أشجار ونباتات. اللوحة منفذة بالأسلوب الواقعي المبسط الملحاح على التفاصيل الصغيرة، لا سيما رسم الأحجار في مداميكها، ما أوقع العمل في سمة بدائية، وحس تزييني.

وكما استأثرت القدس وقبة الصخرة، باهتمام الفنانين التشكيليين، كذلك الأمر بالنسبة للمصورين الضوئيين الذين أشبعوها معالجة، وبعضهم لجأ لاستخدام أحدث التقانات في ذلك، كالتصوير الرقمي، والحاسوب، والفوتو. مونتاج، ما جعلنا نواجه مدينة جديدة أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع المعيش، لا سيما وأن بعض المصورين حذف من الواقع وأضاف إليه، وكرر رموز القدس الخالدة (قبة الصخرة) في أكثر من موقع في الصورة الضوئية التي فقدت الكثير من خواصها التقانيّة المعروفة، لصالح خواص اللوحة المرسومة بالألوان والفرشاة والأقلام.

حوار العدد

مع نواف ابو الهيجاء:

معاناة في الشتات

حـــوار: عادل أبو شنب

حوار العدد

نواف أبو الهيجاء: معاناة في الشتات

حوار: عادل أبو شنب *

من مكان إلى آخر حمل حقائبه، هذا الفلسطيني، منذ نزح صغيراً من قريته.. «عين حوض» متذوقاً مرارة الشتات في بغداد ودمشق، وفي مخيم على الحدود بين العراق والأردن، ولد له فيه توأمان!

إنه الأديب نواف أبو الهيجاء الذي نذر عمره ورواياته و مسرحياته و أولاده لفلسطين. وكم يسرني أن أحاوره، بمناسبة بدء سنة الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية التي تبدأ هذا الشهر.

* أديب وقاص سوري.

- تحدث عن ولادتك- نشأتك- ودراستك؟

• كانت الولادة في ١٢/١٢/ ١٩٤٢ في (قرية عين حوض) -بجبل الكرمل- وهي تبعد عن حيفا مسافة أربعة عشر كيلومتراً- إلى الجنوب الشرقي وتعد واحدة من أجمل قرى فلسطين- بشهادة أهلها ومن رآها- كما أن معظم كتاب وأدباء فلسطين كتبوا عنها- ويسميها المحتلون رسمياً (قرية الفنون) — النشأة فيها لخمس سنوات ونيف. أذكر القرية ولاسيما بستاننا الصغير- وبيتنا وبيت جدي وجدتي- وأشد وضوحاً في الذاكرة سقوط (حيفا) إذ كنت صحبة والدي حين وقعت الواقعة في نيسان من عام ١٩٤٨ — قريتنا احتلت أكثر من مرة- وآخر مرة خرجنا منها إلى (دالية الكرمل) ومكثنا نحو شهر هناك- ثم حين سقطت قرى المثلث- بعد أكثر من شهرين على قيام الكيان الصهيوني- نزحنا إلى جنين- بعد أن حررها جيش العراق- وهناك مكثنا (أنا وشقيقتي والمرحومان أبي وأمي) تحت شجرة لعدة أيام إلى أن انتقلنا بشاحنات الجيش العراقي إلى العراق — نقلنا إلى معسكر (الشعيبة) في صحراء جنوبي البصرة- وهو معسكر أخلاه الانكليز- يبدو قبل وصولنا بعام أو أكثر. تعلمت هناك السنتين الدراسيتين الأولى والثانية- بعد أن رفض تدريسي حين وصلنا لأنني لم أكن أبلغ من العمر السنوات الست.. بعد ثلاث سنوات في المعسكر هبت عاصفة صحراوية دمرته، فقامت الحكومة العراقية بنقل من أراد منا إلى بغداد ومن لم يرد إلى مدينة البصرة. إلى بغداد ذهبنا وسكنا في بيوت (مجمدة) كل عائلة بغرفة واحدة- وأحياناً من كان سعيد الحظ يحظى باثنتين- كانت المناطق شعبية جداً (أبو سيفين- سوق دودو- سوق حنون- الشورجة) من ١٩٥١ إلى ١٩٥٩ حيث نقلنا إلى (حي السلام- الطويجي) ببيوت صغيرة من حوالي ثمانين متراً مربعاً كانت الأسرة تكبر حتى بلغنا (دزينة) مع الأبوين- درست في العراق إلى السنة الرابعة الجامعية حيث سجنت وأبعدت إلى سورية وأكملت الدراسة في الجامعة السورية (لغة انكليزية وآدابها) في شباط ١٩٦٦.

- كيف سارت حياتك في الشتات؟ أولاً في العراق ثم في سورية؟

• حملت مرضاً إلى اللحظة الراهنة أثره- البرد في التشرد سبب لي الحمى الروماتزمية- التي دغدغت لي رجلي وعضت قلبي- حيث تركت الأثر في الصمام الأبهري. أنا أحمل منذ ربع قرن صماماً اصطناعياً في القلب. الفقر والزحام- والانتقالات والتنقلات تركت الكثير من الآثار في نفسي. في العاشرة من العمر- في أبي سيفين- ثقل علي المرض فأقعدني عن الذهاب إلى المدرسة وقعت على كتاب- لم يكن له غلاف- قرأته فغير مسار حياتي. كان الكتاب (الام فيرثر- لغوته)- بدأت أعشق القراءة والاطلاع- فقرأت للمنفلوطي (النظرات والعبرات وبول وفرجيني..) ثم شرعت بقراءة الروايات العربية- محفوظ وعبد القدوس والسباعي. تركت الأخيرين مبكراً وتمسكت بمحفوظ. كنت آنذاك أحاول أن أكتب شعراً.. مطولاً. ومع الاستمرار في القراءات والانتقال إلى قراءات المترجم من الأدب العالمي- دستويفسكي- تشيخوف هوغو شكسبير- ابسن

وهمنغواي وجون شتانبيك- إلى آخره. وعرضت شعـري أو كما كنـت أظنه شعراً علـى الشاعر الفلسطيني خالد علـي مصطفى وأنا في السنة الثالثـة المتوسطـة- فنصحني بكتابـة القصة. أخـذت بنصيحته- وتركت الشعر. في ذلك العام (١٩٥٧) وبدايـة عام ١٩٥٨ تغـير مجرى حياتي تماماً- انتميـت إلى تنظيم البعـث. أملاً في أن تكون الوحدة العربية سبيلاً إلى تحرير فلسطين. وبعد سنتـين ونيف وكنت أنهيت السنة الجامعية الأولى تزوجـت. وفي العـام ١٩٦٣- وقعت ثورة شباط في العـراق- وآذار في سورية- ثم انقلبت علينا دنيانا- وكنـت في السنة الرابعة الجامعية وأباً لطفلين. سجنت وتم إبعادي في الأول من آذار عام ١٩٦٤ إلى دمشق. هنا بدأ النضج واتضحت الإمكانية تدريجيـاً في اللاذقية- حيث تطوعت للتدريـس في ثانوية المثنى هناك. كان الاحتكاك بالكتاب مباشراً- وخاصة المرحوم هاني الراهب الـذي كنا نتمنـى لقاءه بعـد أن قرأنا في بغداد روايته الأولى (المهزومون).. ومن اللاذقية بدأت مسيرتي الأدبية الفعلية.

- قص علي معاناتك في مخيم على الحدود العراقيـة الأردنيـة.. وهـل تركـت هـذه المعاناة رصيداً لعمل أدبي أنتجته أو ستنتجه؟

• في عام ٢٠٠٣ وبعد احتلال العراق- قررت تـرك بغداد والعــراق- وتوجهـت إلى- الحدود الأردنيـة العراقيـة تصحبني زوجتـي العراقية أيضـاً ـــ لم يسمح لنا بدخول الأردن أول الأمر. فنزلنـا في مخيم (بـين الحدين)- المقـام لصق الكرامـة الأردني- ويسمى (أرض لايملكها أحد) المفارقة: أن الخيمة كأنها قدر الفلسطيني. حين كنـت في الخامسة والنصف مـن العمر وخرجنا مـن فلسطين لم أقم في خيمـة- لا في (جنين ولا في العراق)- ظلت الخيمة تلاحقني إلى أن بلغت الستين من العمر المفارقة الثانية أننا- في المخيم- أنجبنا توأمين (ذكراً وأنثى)- فكانا من أب وطنه احتلـه الصهاينة ومن أم وطنها احتله الأمريكان مكثنا ستة أشهر إلا يوماً واحداً فقط ـــ المخيم عالم كامل- من البشر إلى الحيوانات إلى المناخ إلى الرمـال إلى السلوك إلى (الضبط والربط) وأهم من هذا كلـه أنه (جامعة للعلاقـات الإنسانية) وذا ما جعلني أكتب أكثر من مرة التجربة- كانت تجربـة ثرية وعميقة جـداً- ومذهلة وقد تصل إلى (مـا لايمكن تصديقه) ـــ الآن أنا في خضم العمل الـذي يحمل عنوان (المخيم)- وهو الجزء الأول مـن (تغريبتي السادسـة)- أو تصدق؟ في المخيـم كان ثمـة (الخيمـة الطبيـة اليابانية) وتعرفت هناك إلى مجموعة من -مناصري أطفال فلسطـين والعراق وبعـد أن دخلنـا إلى الأردن زارونـا ثلاث مرات- وسألتـي اليابانـي- ميكي- إن كنـت كتبت التجربـة فقلت له إننـي أحاول ولسـوف أكتبها. قبل ثلاثة أيام (في ١٩ من شهر تشرين الأول- ٢٠٠٨) جاءني الصديق وبصحبته امرأة ورجـل- المرأة (مغنية يابانية) جاءت تغني للأطفال المرضـى بالسرطان في سورية- والآخر مترجم- وأكدا أنهما يريدان الرواية لترجمتها إلى اليابانية وعدتهما أن يتسلما المخطوطة في نهاية شهر كانون الثاني- يناير- ٢٠٠٩ بعون الله؟

- ما هي كتبك التي أصدرتها في سورية وفي العراق؟

• أصدرت في سورية: (والخيبة أيضاً)- مجموعة قصص في عام ١٩٦٥ وكذلك رواية (الطريد) عام ١٩٦٦- ومسرحية (نهار خليلي ١٩٧٠) ومسرحية (التصفية) ١٩٧٢- كما أصدرت مجموعة (طقوس لقتل الحبيب)- بدمشق عام ٢٠٠٤- عن اتحاد الكتاب العرب في العراق أصدرت روايات (أنت خط الاستواء) ١٩٨٢- المغارة (١٩٨٥) -(الخروج من جوف الحوت) ١٩٨٨. (العناق) ١٩٩٠- (ولكن شبه لهم)١٩٩٥ - (القسمة على واحد ١٩٩٩) ونشرت في لبنان رواية (شمس الكرمل) عام ١٩٨٠- ومجموعة (إن كنت الليلة وحيدا ١٩٧٧) وفي بغداد مسرحية (أبو الأمين الخليع والجارية شموس ١٩٧٨) ونشرت في الأردن روايتين هما (الحب في المحرقة) ٢٠٠١ و(غيبوبة الجسد) ٢٠٠٥.

-إلى أي حد تعتبر نفسك كاتباً فلسطينياً.. بمعنى ما هو تأثير قضية العرب المركزية على أدبك؟ والقدس بشكل خاص

• أنا فلسطيني- وما أنا فيه نتاج كوني فلسطينياً- احتل الغرباء وطني واستولوا على أرضي- وبيتي وبستاني- وما أعاني منه أنا أو أشقائي وشقيقاتي وأولادي كله نتاج الاغتصاب الصهيوني لفلسطين أنا إذاً أحمل ثقل أخطر وأعقد قضية في التاريخ الإنساني كله- دون مبالغة فكل ما أنتجه وما أكتبه هو ابن القضية ولها وفي سبيلها- وإذا كان الإنسان يتعاطف مع قضية ما كونه إنساناً- فأنا فلسطيني- عربي- مسلم وإنسان- أي أنا صاحب القضية من كل وجوهها- وأصدقك القول إن كل ما كتبت هو فلسطيني حتى إن كان عن إنسان أو عن حيوان أو طير ما- كما أنني قدمت روايتين هما بحق أقول الآن التوثيق الحقيقي والفعلي لحياة الفلسطينيين في العراق لم ينل هؤلاء حقهم من الانتباه إلا اليوم ولكنني كتبت عن معاناتهم وحياتهم بكل صدق وبقوة من خلال روايتي (المغارة- والخروج من جوف الحوت). أما القدس فهي جزء حيوي من فلسطين- كل فلسطين مقدسة وقضيتي- والقدس لب القضية لأنها العاصمة ولأنها (القدس) مسرى النبي العربي ومهد السيد المسيح- وفيها درب الأمة أيضاً. إنها رمز البحث عن العدل وعن السلام وهي مقررة (السلام العادل) من عدمه.



-تعلم أن هذا العام (٢٠٠٩) هو عام القدس

عاصمة للثقافة العربية، فما هو رأيك؟ ألا ترى في هذه الاحتفالية حفاوة عربية بالقدس وتاريخها العربي، أو رداً على محاولات تهويدها؟

• لقد كتبت عن الموضوع خلال العام الراهن مرتين في جريدة الثورة (القراء)- آخرهما في شهر تشرين الأول ٢٠٠٨. ما أعنيه هنا هو ضرورة أن يكون العام المقبل عاماً للقدس ولفلسطين عربياً ودولياً. القدس محتلة والنشاطات ستكون رهناً بموافقة أو رفض المحتل. هذا من جهة ومن ناحية مهمة جداً أقول: إن احتفالية القدس عربية فلسطينية إسلامية إنسانية، وبالتالي فعلى المعنيين الفلسطينيين تقع مسؤولية ملء أيام العام بالنشاطات التي يسهم فيها الفلسطينيون، بالدرجة الأساس- شعراء وقاصين ومسرحيين ورسامين.. إلخ- وفي أمكنة تواجدهم وفي الأمكنة التي يستطيعون الوصول إليها- في دنيا العرب والمسلمين وأرجاء الأرض وأنصح منذ اليوم للمرة الألف أن ينأوا بأنفسهم عن الصغائر و أن يكونوا فلسطينيين- لا أن يتشرنقوا في ضيق الفصائلية والحركية والحزبية- فلسطين هي الأكبر والأقوى والأهم والأعظم والقدس هي الأقدس. أعرف أن مرض (الفصائلية) يشل أحياناً العمل الفلسطيني الوطني لذا أرجو أن يبعدوا هذا المرض عن نشاطاتنا في العام- وإلا فالتاريخ لن يرحم. أقول لهم (اخوتي: دعوا شيئاً لفلسطين.. لا تقولبوا كل شيء.. ولا تفصلوه كل على مقاساته، ليكن كل شيء على مقاس الوطن- القضية- الشعب) أما العرب فالقضية قضيتهم شاءوا أم أبوا- أدركوا أم لا. عليهم القيام بالواجب المقدس حيال أنفسهم- إنهم يدافعون عن أنفسهم وعن حقوقهم حين ينتصرون للقدس ولفلسطين. لذا آمل أن تكون النشاطات شاملة وعامة وفي العواصم والمدن العربية كلها. وأملي أن تكون حقيقة محاولة صهينة أو تهويد القدس حاضرة في الأذهان العربية عامة والفلسطينية خاصة- ليس في العام المقبل بل في كل حين أيضاً.

- ما رأيك بالحركة الثقافية في فلسطين، بشقيها المحتل والمحرر؟

• أقول الصدق أنا أنظر إلى فلسطين كلها من منطلق أنها كلها محتلة- القطاع محتل من وجوه عدة- ليس بينها الاحتلال المباشر- ولكن الاحتلال يفرض عليها الحصار وهو مستعد في كل حين لتدميرها وإحراقها وإعادة احتلالها.. كما أنني أقول إن فلسطين كلها تظل محتلة إن بقي أي جزء منها تحت الاحتلال الصهيوني. هذه وجهة نظري- إننا من عين حوض- إن عدت إليها وظلت مثلاً (الطيرة) تحت الاحتلال فلا أستطيع الزعم أنني في أرض محررة. أما المشهد الثقافي الفلسطيني فهو- بالتأكيد انعكاس للواقع الاجتماعي والسياسي الفلسطيني- من جهة- وللواقع العربي من جهة أخرى. أقول لك (نحن خلاصة الواقع العربي كله) لماذا؟ لأننا في واقع الأمر نعيش في الوطن العربي كله- في الدول والمدن والأمصار- الحركة الثقافية الفلسطينية تعاني الكثير- ليس من الاحتلال حسب- بل من الأمراض العربية الأخرى- ومنها عدم التواصل

المباشر- منها أيضاً التعمد في إفشاء الفراق والقطيعة- كما أن الحركة الثقافية الفلسطينية تعاني مما تعاني منه الحالة النضالية والفصائلية- الخلافات والاختلافات والصراعات تقرأ منذ الصفحة الأولى فماذا أقول؟

- ما رأيك بالأدب الفلسطيني، وأين تضعه من أدب الشعب العربي؟

• الأدب الفلسطيني جزء من الأدب العربي- لأنه نتاج الإنسان الفلسطيني الذي هو إنسان عربي. لكن الأدب الفلسطيني يعاني (الإهمال)- إلى جانب ما تفرضه الجغرافية من مصاعب الاتصال- اضرب لك مثلاً: الروائي الفلسطيني جمهوره يجب أن يكون الشعب العربي الفلسطيني أولاً فماذا نقول والشعب المعنّي متوزع في مشارق الأرض ومغاربها؟ حتى المسرح يراد له -(الاستقرار)- أي أن يعرض في واقع مستقر.. الشعب الفلسطيني في واقع غير مستقر- هو مشتت ومتشتت وموزع في الاتجاهات الأربعة في العالم. الأدب الفلسطيني أنتج مبدعين كباراً في الشعر والرواية تحديداً: إن محمود درويش مدرسة شعرية عربية أيضاً هناك شعراء في الوطن المحتل وهناك قاصون في الوطن المحتل: ما رأيك بجبرا إبراهيم جبرا مثلاً؟ ما يغل الأدب الفلسطيني هو الواقع الفلسطيني المحكوم عربياً وإقليمياً إلى جانب الأغلال الصهيونية الاحلالية والاحتلالية -عليه أرى ضرورة الاهتمام بالأدب الفلسطيني- إنه محروم من الدراسات النقدية الجادة وهو بالتالي محروم من (خصوصيته) - التي لا أرى) أنها دائما (انحيازاً له) بقدر ماهي التعبير عن اهتمام مركزي به كونه التعبير عن القضية المعقدة المقدسة- قضية النضال ضد الاحتلال وضد الغصب والقهر والاستلاب- والأدب الفلسطيني ذو موقع جوهري ومهم في الأدب العربي عموماً- ولكنه ليس في هذا الموقع عملياً أي على العرب أن يفتحوا المجال ليس لنشر الأدب الفلسطيني حسب بل لترجمة الجيد منه إلى لغات العالم- إنه التعريف العملي المثير للمتلقي من حيث إنه الصورة الجميلة إذ تعري القبح الأكيد للظلم والاغتصاب ومن هنا تأتي أهميته.

- هل تتمنى العودة إلى فلسطين؟ بكلمة، هل أنت مع توطين الفلسطينيين أم ضده؟

• أنا ضد التوطين على طول الخط أنا مع عودة فلسطين- كلها إلى أصحابها الشرعيين- أي أنا مع حق العودة وليس حق العودة فقط بل مع حق العودة مع التعويض- يجب تعويضنا عن آلامنا ومعاناتنا نتيجة الاحتلال- نحن نعاني منذ أكثر من ستين عاماً.. ولقد قتل منا عشرات الآلاف ومات منا الآلاف وهم يحلمون بالحياة الطبيعية للإنسان في بيته وأرضه ووطنه كما أن المحتلين تمتعوا - طوال هذه العقود- بكل ما كان ليس لهم- تمتعوا بالأكل والشرب والتنفس والاحتلال والإحلال والمصادرة وبالتالي إن عليهم أن يعوضونا عن كل ما خسرناه نحن عليهم دفع غرامات أبدية ودائمة للمآسي التي سببوها لنا.

أما التوطين فهو المؤامرة الكبرى للتصفية- ولكن رفض التوطين لايعني أن يبقى الفلسطينيون محرومين من الانتقال وحرية العمل وحتى

التملك.. أقول لك أظن أن الفلسطيني (الأمريكي أو البلجيكي أو السويدي) ليس فلسطينياً؟ أبداً إنهم يحلمون بالعودة إلى الوطن- أقول أيضاً مقولة رددتها كثيراً. فلسطين لاتقبل القسمة على اثنين- ولست أعني (محو أو طرد) كل اليهود من فلسطين- هناك يهود عرب ويهود فلسطينيون- أقول ليعد اليهود الغرباء إلى الأوطان التي جاءوا منها - ليس ثمة من حل- الصهاينة لن يقبلوا بحل (الدولتين)- إلا مرغمين وانتظاراً لظروف أخرى أحسن لهم كما أنهم لن يقبلوا بحل (الدولة) حتى لو قبل به الفلسطينيون لأنهم يدركون أن العامل الديمغرافي لصالح الفلسطينيين و في النهاية ستكون فلسطين (عربية) ذات أقلية يهودية.

- من هم الأدباء الذين تقرأ لهم من العرب ومن الأجانب؟

• ليس هناك أسماء بعينها. أقرأ ما يقع أمامي- فإن راق لي أتممه وإن لم يرق عفته أقرأ لأدباء أمريكا اللاتينية- واقرأ للعرب- من كل الأقطار- من أصل إلى إنتاجهم- بعد هذه الفترة من الانقطاع. أقرأ القصص القصار والروايات والشعر مع أنني في أوقات التأليف أنقطع كلية أحياناً عن قراءة القصة والرواية تحديداً. إلا أنني وإن وجدت شيئاً ذا قيمة التهمته بسرعة.

- هل يكفي ما تقبضه لقاء كتاباتك، وكيف تعيش؟

• ما أقبضه لقاء كتاباتي لايكفي على الإطلاق- فانا أعيل ثلاثة أطفال- كما أن الاحتلال الأمريكي للعراق قد حرمني- حتى الآن- من حقي في التعويض وفي (التقاعد)- لقد خدمت في العراق ربع قرن- وأضيفت خدماتي في سورية والكويت، إلى سنوات الخدمة فأضحت خمسة وثلاثين عاماً. لكن أقول لك: لايموت الإنسان جوعاً مادام يجاهد ويكابد. لو قلت لك إنني أحلم بيوم لا أكتب فيه أكذب عليك- ليس لكي أحصل على مكافأة بل لأن الكتابة حياتي كلها. وللحقيقة المظالم ترى. أتدري أنني ما عدت عضواً في (اتحاد الكتاب العرب) مع أنني من الذين كانوا في التأسيس عام ١٩٦٩؟ أو تدري أنني من مؤسسي اتحاد الكتاب الفلسطينيين منذ عام ١٩٦٦ في غزة؟ مع ذلك أعرف أن ثمة من بيننا- نحن الكتّاب الفلسطينيين- من يتلقى راتباً من (المنظمة أو السلطة الفلسطينية) شهرياً- من دون أن يكون موظفاً لديها- إلا بالاسم أو الدرجة الوظيفية التي تحدد له الراتب الجيد.

إنما سأبقى أكتب وأجالد وأجاهد إلى أن ألاقي وجه ربي. وثق أن الله هو الغني- وذا ما كنت قلته في مقالة وجهتها إلى اتحاد الكتّاب العرب- على صفحات جريدة الثورة قبل بضعة أشهر. والحمد لله أنني أعيش أفضل بكثير من كثير من الملايين من البشر- وإن كنت أظن أنني استحق الأفضل فلا يضيرني إطلاقاً أن أتلقى ما أظن أنه ليس يكفي أو هو أقل مما استحق. أحمد الله دائماً. وأرجوه أن يمن علي بالصحة لكي أواصل خدمة شعب أصعب قضية في التاريخ.

متابعات

- صفحات من النشاط الثقافي — إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

- اللوبي الإسرائيلي والسياسة الأمريكية — إعداد: محمد سليمان حسن

آخر الكلام

- عروبة القدس — رئيس التحرير

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين *

القدس عاصمة الثقافة العربية

هذا العام سيكون عام الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية، حيث لـن يقتصر الاحتفال بها على الفلسطينيين والمـدن الفلسطينية، بل سيمتد ليشمـل العواصم والبلدان العربية، نظراً لمـا للقدس من مكانة خاصة، ولما

* كاتب وباحث في التراث العربي (سورية)

لهـذه الاحتفاليــة من قيمــة رمزية ودلالة وطنية وقومية.

وفي هـذا المنحـى كان وزراء الثقافة العرب وافقـوا بأن تكون مدينة القدس هي عاصمــة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٩، وذلك خلال الدورة الخامسة عشر لمؤتمرهم الذي انعقد في مدينة مسقط بسلطنة عمان أواخر عام ٢٠٠٦.

ونظـراً لما تعانيــه دولــة فلسطين من حصار وتعانيه مدينــة القدس من حملات صهيونية خبيثــة لتهويدها ومحـو تاريخها العربــي طالب وزيــر الثقافــة الفلسطيني آنــذاك الدكتور عطــا الله أبــو السبح أن تتقاسم الدول العربيــة فعاليات ونشاطات الاحتفاء بالقدس وتقام في الأقطار العربية جميعا كما في الأراضي الفلسطينية وأيضاً أن يتم الاحتفاء بها خــارج المنطقة العربية وذلك تأكيداً على عروبة القدس.

وكان مؤتمــر وزراء الثقافة العرب قرر إصدار كتــاب حول موقــع «مدينة القدس وأسوارهــا» المسجــل علــى قائمــة التراث العالمي من قبل المملكــة الأردنية الهاشمية عــام ١٩٨١ وعلــى قائمة الـتراث العالمي المهدد بالخطر عــام ١٩٨٢ باللغات العربية والانجليزية والفرنسية والإسبانية، وتوزيعه على نطاق أوسع.

وتقــدم المؤتمر ببيان لمنظمــة اليونسكو طالب فيه برفض إدراج إسرائيل موقع القدس على قائمتها التمهيدية لمواقع التراث الثقافي العالمي وقال الوزراء العرب في بيانهم: «نعبر عن أسفنــا الشديد لظهــور ذلك في وثيقة رسميــة لليونسكو لما فيها مــن تعارض مع قرارات الشرعية الدولية المتمثلة في قرارات الأمم المتحدة ومجلــس الأمن التي تقر بأن القدس أرض محتلة، ومخالفة لكافة المواثيق والاتفاقيات الدولية بما فيها اتفاقية التراث العالمي التي أقرهــا المؤتمر العام لليونسكو عــام ١٩٧٢ »كمــا طالب المؤتمــر في بيانه لليونسكو إسقاط مدينة القدس وكافة المواقع الفلسطينية من القائمة الإسرائيلية التزاما بالقــرارات الدولية التي تؤكــد أن إسرائيل تحتل أراض فلسطينيــة وعربية، وفي نهاية البيــان طالبوا منظمــة اليونسكو ومديرها العــام بالالتزام بقــرارات الشرعية الدولية

وتجسيدها في اجتماعاتهم ووثائقهم.

وفي هذا الإطار شدد المؤتمر أن تهتم العواصم العربية بالتغطية الإعلامية اللازمة في هذا الشأن والتنسيق فيما بينها وبين بعضها البعض من أجل تفعيل الدور الإعلامي اللازم للتعريف بالحقوق العربية والثقافية مستخدمة في ذلك كافة الوسائط الإعلامية من مقروءة، ومسموعة ومرئية.(1)

مؤتمر القدس السادس:

دعا المشاركون في اختتام أعمال مؤتمر القدس السادس الذي عقد في الدوحة عاصمة دولة قطر كافة مكونات الأمتين العربية والإسلامية من أجل توحيد الصفوف للدفاع عن القدس الشريف، وصد الخطط الإسرائيلية الرامية لطمس معالمها، والتحذير من تداعيات حملات التهويد الجارية في المدينة، وأكدوا على ضرورة توحيد صف الأمة وخاصة الصف الفلسطيني من أجل الذود عن القدس الشريف.

وشدد المتحدثون في المؤتمر، وفي مقدمتهم رئيس مجلس أمناء مؤسسة القدس العالمية الشيخ يوسف القرضاوي ونائبه الإندونيسي محمد نور هداية محمد والمطران عطا الله حنا، على أن الدفاع عن القدس واجب الأمة جمعاء وواجب أحرار العالم كافة، في ذات الوقت جدد رئيس مجلس أمناء القدس دعواته كافة الفصائل الفلسطينية من أجل نبذ الخلافات، وتحقيق المصالحة الوطنية من أجل حشد كافة الطاقات لمقاومة الاحتلال على جميع الجبهات.

وكانت فعاليات المؤتمر قد تضمنت عقد ندوة تناولت الأوضاع بمدينة القدس في ظل ممارسات الاحتلال الإسرائيلي ومعاناة المقدسيين في مجالات الصحة والتعليم، وتداعيات وآثار الحفريات الإسرائيلية على مقدسات المدينة، وفي تلك الندوة دحض عالم الآثار الفلسطيني رائف نجم الخلفيات التاريخية والدينية التي تستند عليها تل أبيب لتبرير ما تقوم به من حفريات في القدس الشريف بشكل يهدد هوية ومستقبل المدينة، وأثار المطران عطا الله حنا المخاطر الإسرائيلية التي تهدد أيضا المقدسات المسيحية في القدس، داعيا إلى إنشاء جبهة

إسلامية مسيحية مشتركة للدفاع عن المدينة ومخاطبة العالم بلغة واحدة في ذلك الباب.

وكان المؤتمر أصدر بياناً ختامياً أكد فيه ضرورة استنفار الهمم لمواجهة التهديدات التي تتعرض لها المقدسات الإسلامية والمسيحية، وخصوصاً المسجد الأقصى المبارك، وطالب الحكومات العربية والإسلامية بإعطاء مسألة القدس ما تستحق من أهمية، وألا تتعامل معها وكأنها شأن فلسطيني، داعيا المنظمات الدولية المعنية بحماية التراث الروحي والحضاري والثقافي الذي تزخر به القدس، مستنكراً الحفريات الجارية تحت المسجد الأقصى، ولاسيما في المنطقة الجنوبية والغربية منه، إضافة إلى الاعتداء على مقبرة الرحمة، شرقي المسجد ومحاولة فرض الطابع اليهودي عليها، والتدخل المباشر في عمل دائرة الأوقاف الإسلامية وفي حركة المصلين، ودعا المؤتمر الجماهير العربية والإسلامية إلى تكثيف تحركها لمناصرة القدس، كما دعا الحكومات العربية والإسلامية للعمل وفق استراتيجية واضحة، يكون فيها المس بالثوابت الفلسطينية وعلى رأسها قضية القدس وهويتها ومقدساتها، وخصوصاً المسجد الأقصى خطاً أحمر لا يجوز تجاوزه.

وجاء في بيان المؤتمر أن الإعلان عن القدس عاصمة للثقافة العربية لسنة ٢٠٠٩، يعد تحدياً حقيقياً أمام الأمة العربية، بكل أطيافها ومكوناتها، الرسمية والشعبية، إذ أضحت الأمة أمام اختبار عملي تترجم فيه تقديرها للقدس، وتثبت من خلاله أنها أمة تستحق القدس، وأن القدس عاصمة عالمية لحوار الثقافات، ولقيم الخير والتسامح والعطاء، لذا فإن المؤتمر يدعو إلى تنظيم أوسع للفعاليات الثقافية الرسمية والشعبية، وإلى أكبر مشاركة في هذه الفعاليات، التي ستقام في مختلف العواصم العربية من أجل القدس.

كما دعا المؤتمر المجالس النيابية العربية والإسلامية لتشكيل لجان للقدس وفلسطين، وتفعيل دور هذه اللجان، للقيام بما يتناسب مع حجم المخاطر التي تحيق بالقدس وفلسطين، ودعا المؤتمر السلطة الفلسطينية إلى مواجهة ما يجري في القدس

والمسجد الأقصى، وإلى وقف اللقاءات والاجتماعات مع الجانب الإسرائيلي، بعدما أثبتت التجربة عدم جدواها.

وأكد بيان المؤتمر على ما ورد في إعلان اسطنبول التاريخي، الصادر في ١٧ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧، ولاسيما إدانة الممارسات الاستيطانية العنصرية التي تستهدف محو معالم القدس وتهويدها، وأكد المؤتمر على حق العودة للاجئين والنازحين والمهجرين باعتباره حقاً لا يمكن المساومة عليه أو التنازل عنه، وعلى وقف كل أشكال التطبيع مع الصهاينة، وإلى إطلاق الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وأن تتحمل جامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والأمم المتحدة مسؤولياتها في هذا الإطار.

ودعا البيان كافة جهات الاختصاص والقطاعات المهنية والأكاديمية للقيام بدورها في دعم صمود أهلنا في القدس، وثباتهم على أرضهم، والمحافظة على هوية القدس وتراثها الحضاري، وينوه إلى الأدوار الكبيرة المنشودة من العلماء، والحقوقيين، والإعلاميين، والتربويين، والأدباء والكتاب، والمؤرخين، ومؤسسات المجتمع المدني، حتى تكون قضية القدس حاضرة على جميع المستويات الشعبية والمنابر الدولية، وفي مناهج الدراسة والتعليم.[٢]

أسماء القدس تؤكد عروبتها:

تؤكد الأسماء التي أطلقت على القدس منذ أقدم العصور وحتى اليوم هويتها العربية بالرغم من كل أشكال التضليل والإدعاءات الصهيونية التي لا سند لها ولا مصداقية تاريخية.

وأول اسم عرفت به القدس، هو الاسم الذي سماها به سكانها الأصليون «الكنعانيون» وهو «يرو-شاليم» أو «يرو - شلم» وشالم وشلم اسم لإله كنعاني معناه السلام، وقد ورد أول ذكر لمدينة القدس كتابة في الوثائق التي عثر عليها في «إيبلا-تل مرديخ في شمال سورية، وهي وثائق ترجع إلى أواسط الألف الثالث ق.م، وترد فيها أسماء عدة مدن منها - سالم- التي يرجح البعض أنها تشير إلى القدس.

أما أول اسم ثابت لمدينة القدس فهو

«اوروسالم» أو «اوروشالم» وقد ورد ضمن ما يسمى بنصوص اللعنة، التي تذكر أسماء البلدان والمدن والحكام الذين كانوا فيما زعم من أعداء مصر، وكانت العادة هي كتابة أسماء الأعداء على الأواني الفخارية ثم تحطيمها في أحد طقوس السحر التأثيري، وثبت أن تاريخ تلك الأواني يرجع إلى فترة حكم الفرعون «سيزوسترس الثالث ١٨٧٨-١٨٤٢ ق.م» وكانت كلها أسماء تسع عشرة مدينة كنعانية من بينها اوروسالم.

وهناك من يذهب في أصل أوروسالم أو اوروشالم إلى أن الاسم مكون من مقطعين «سالم أو شالم، وهو إسم إله، وأورو: وهي كلمة تعني أسس أو أنشأ، فيكون معنى الاسم «أوروسالم» أسسها سالم، ويعتبر الاسم اسماً عمورياً، بدليل أن أول اسمين لأميرين تاريخيين من القدس هما: «باقر عمو» و«سزعمو» وهما اسمان عموريان، والعموريون هم سكان كنعان الأصليون، ولغة العموريين تدعى غالباً الكنعانية، كما أن اسم الكنعانيين يشمل العموريين أحياناً، وعليه فإن تسمية أورشليم التي يحاول الصهاينة اليوم عدها من الأسماء العبرية هي في الحقيقة كلمة كنعانية عربية أصيلة، وكيف تكون كلمة أورشليم عبرية واللغة العبرية لغة حديثة جداً ولدت في القرن الرابع ق.م وتبلورت في القرن الخامس الميلادي وبعده؟!.

وبعد نصوص اللعنة بحوالي خمسمئة عام ظهر اسم جديد للقدس هو: اوروسالم، وذلك فيما يعرف بألواح تل العمارنة، وهي ست رسائل بعث بها «عبدي خيبا» - ملك أوروسالم في القرن الرابع عشر ق.م - إلى فرعون مصر «اخناتون» إضافة إلى ذلك فقد ذكرت «سليمو أو سالم» في سجلات «سنحاريب» ملك أشور ضمن عداد المدن التي تدفع له الجزية، وقد ظل اسم أورشليم شائعاً منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا ومنه جاء الاسم الإفرنجي «جيروزاليم».

إلى جانب تلك الأسماء فقد حملت القدس اسم «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين، وهم فرقة من الكنعانيين سكنوا القدس وحولها، وفي هذه الفترة أخذ اسم«يبوس» و«اليبوسيين» يظهر في الكتابات الهيروغليفية، ويبدو أن

اليبوسيين قد تلو العموريين في سكنى المدينة خـلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م، وأطلق على القدس اسم «يبوس» وهو الاسم الثاني لمدينـة القدس بعـد أورشاليم، وقد سماها الفراعنـة في كتاباتهم الهيروغليفية «يابيثـي» و«يابتي» وهو تحريف لاسم يبوس الكنعاني.

ويقـال: إن اليونانيـين سموهـا – هروسوليما– ولكـن مؤرخهم «هيرودوتس» سماهـا «قديس» كما سمعها مـن سكانها العرب المعاصرين له، وفي زمن الرومان بدل الإمبراطور «هادريـان» اسم مدينة أورشليم بعـد أن استولى عليهـا ودمرها عام ١٢٢م، وأطلق عليها اسـم «إيليا كابيتولينا» وصدر الاسم إيليا لقب عائلة هادريان، وكابيتولين جوبيتر هـو الإله الرومـاني الرئيس، وظل اسـم «إيليا» سائداً نحو مئتـي سنة، إلى أن جاء الإمبراطور «قسطنطـين» المتوفى عام ٢٣٧م، وهـو أول مـن تنصـر مـن أباطرة الرومان – فألغى اسـم إيليا وأعاد للمدينة اسمهـا الكنعاني، لكن اسـم إيليا شاع وظل مستعملاً، كما نجد ذلك في العهدة العمرية والشعر العربي.

وبعـد الفتح الإسلامـي أطلق على هذه المدينـة أسمـاء: القدس، وبيـت المقدس، والبيت المقدس، ودار السلام، وقرية السلام، ومدينة السلام. (٣)

العهدة العمرية:

هـذا مـا أعطى عبـد الله عمـر أمير المؤمنين، أهل ايلياء، مـن الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمهـا وبريئها، وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهـم، ولا تهـدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهـم، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهـود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منها فإنه آمـن على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومـن أقام منهـم فهو آمن، وعليـه مثل ما على أهل ايليـاء من الجزية، ومن أحب من أهل إيليـاء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهـم وصلبهم فإنهـم آمنون على أنفسهـم وعلى بيعهم وصلبهـم حتى يبلغوا

مأمنهم، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

وقد شهد على هذا العهد الذي كتب سنة خمس عشرة للهجرة وحضره خالد ابن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان.(4)

الأقصى ومساجد القدس القديمة:

يرى الباحثون في تاريخ المسجد الأقصى أن هذا الاسم يشمل كل ما دار حوله السور الواقع في أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة القدس القديمة المسورة بدورها، وبذلك فهو يشمل: قبة الصخرة، والجامع القِبْلِي، فضلاً عن نحو ٢٠٠ معلم آخر تقع ضمن حدود الأقصى، ما بين مساجد، ومبان، وقباب، وأسبلة مياه، ومصاطب، وأروقة، ومدارس، وأشجار، ومحاريب، ومنابر، ومآذن، وأبواب، وآبار، ومكتبات.

ومع الفتح الإسلامي للقدس عام ٦٣٦م (الموافق ١٥ للهجرة)، بنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجامع القبلي، كنواة للمسجد الأقصى، وفي عهد الدولة الأموية، بنيت قبة الصخرة، كما أعيد بناء الجامع القبلي، واستغرق هذا كله قرابة ٣٠ عاما من ٦٦ هجرية ٦٨٥/ ميلادية - ٩٦ هجرية/٧١٥ ميلادية، ليكتمل بعدها المسجد الأقصى بشكله الحالي، الذي يرجع إلى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد اللذين أعادا بناءه في الأعوام ٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥- ٧١٥م، حيث أقام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بين عامي ٦٦ . ٨٦ هجري / ٦٨٥ . ٧٠٥ قبة المسجد الأقصى على شكل قبة ذهبية عظيمة فوق أعلى صخرة في المسجد الأقصى المبارك، تقوم على مبنى مثمن الشكل.

وقد تعرض المسجد الأقصى منذ عام ١٩٦٧ لاعتداءات إسرائيلية مستمرة بحجة المزاعم الإسرائيلية الكاذبة التي يدعون بها أن المسجد الأقصى المبارك بني في موضع ما يسمى بالمعبد/ الهيكل اليهودي، حيث

تقوم قوات الاحتلال وأفواج المستوطنين الإسرائيليين والجماعات اليهودية المتطرفة بالاعتداء على حرمة المسجد والمصلين فيه، وحرق جزء منه، ومحاولة تفجيره، وتخريبه أكثر من مرة، والاستيلاء مثل: باب المغاربة، وحائط البراق، ومحاصرة المصلين من الوصول إليه، وشق الحفريات والأنفاق تحت أساساته، ما أدى إلى تصدع أجزاء منه، ومنع محاولات ترميمه، وإعادة بناء ما تصدع منه.

وإلى جانب الأقصى ثمة مئات المساجد القديمة التي تزخر بها مدينة القدس، تعاني ما يعاني منه الأقصى من اعتداءات إسرائيل المتكررة عليها ومن أشهر هذه المساجد: مسجد الشوربجي، مسجد النبي داود، مسجد المئذنة الحمراء، مئذنة باب المغاربة، مئذنة باب السلسلة، مئذنة باب الغوانمة، مئذنة باب الأسباط، مسجد قبة موسى، مسجد باب حطة، مسجد كرسي سليمان، مسجد المغاربة، مسجد باب الغوانمة، مسجد دار الأمام، مسجد خان الزيت، مسجد سلمان الفارسي، مسجد رابعة العدوية، مسجد الطور، مسجد القلعة، مسجد الحنابلة، مسجد عكاشة، مسجد سويقة علون، مسجد الخانقاه، مسجد الخالدية، مسجد اليعقوبية، مسجد البراق، مسجد خان السلطان، مسجد القرمي، مسجد الكريمي، مسجد العلمي، مسجد بني حسن، مسجد حارة الأرمن، مسجد الشيخ لولو، مسجد حارة النصارى، ومسجد البازار، مسجد السعودي، مسجد الشيخ جراح، مسجد حجازي، مسجد المطحنة، مسجد المولوية، مسجد الشيخ ريحان، المسجد الأفغاني.[٥]

الحفريات الإسرائيلية تحت الأقصى:

حذرت وزارة الأوقاف في الحكومة الفلسطينية من أن تؤدي شبكات الأنفاق والحفريات الإسرائيلية الجارية تحت أساسات المسجد الأقصى إلى انهيار المسجد بشكل كامل.

وقالت الوزارة في تقرير لها إن «المسجد الأقصى يتعرض إلى أكبر عملية استئصال وتهويد، وسلطات (الاحتلال الإسرائيلي) تزيد يوما بعد يوم من حجم وعدد الأنفاق وتواصل أعمال الحفريات تحت أساسات

المسجد بهدف هدمه وإقامة الهيكل المزعوم»، وأضافت أنه «في أقصى شارع الواد في البلدة القديمة في القدس يقع حمام العين أحد الأبنية الإسلامية الوقفية القريبة من الجدار الغربي للمسجد الأقصى واستولت سلطات الاحتلال على المبنى وبدأت منذ نحو سنة ونصف ببناء كنيس يهودي لا يبعد سوى ٥٠ مترا عن المسجد الأقصى المبارك وفي نفس الوقت كانت حفريات عميقة ومتسعة تنفذ أسفل حمام العين».

وأكدت الوزارة وقوع عدة انهيارات خلف مبنى حمام العين (الكنيس اليهودي) الخميس ٢٠٠٨/٢/٢٨ ما أدى إلى إحداث حفرة عميقة على مدخل أحد البيوت المقدسية، «حيث أشار شهود عيان لموقع الانهيار إلى وجود حفريات واسعة ومتشعبة لاتجاهات متعددة وبأعماق متفاوتة كلها تسير باتجاه المسجد الأقصى المبارك»، وتحديداً نحو منطقة باب المطهرة الواقع في حدود المسجد الأقصى المبارك من الجهة الغربية.

وقد كشفت مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية، عن معلومات جديدة حول الحفريات الإسرائيلية أسفل وفي المحيط الملاصق للمسجد الأقصى وتداعياتها الخطيرة على المسجد الأقصى، وأشارت المؤسسة إلى أنَّ الحفريات تصاعدت حدتها في السنوات الأخيرة، فقد انهار جزء من طريق باب المغاربة مطلع عام ٢٠٠٤.

وكشف رئيس الحركة الإسلامية الشيخ رائد صلاح عن كنيس يهودي ومبنى قافلة الأجيال العبريّة أسفل المسجد الأقصى مطلع عام ٢٠٠٦. وفي مطلع عام ٢٠٠٧ بدأت المؤسّسة الإسرائيليّة بهدم طريق باب المغاربة وغرفتين من المسجد. وفي مطلع عام ٢٠٠٨ تمَّ الكشف عن نفق جديد بطول ٢٠٠ متر ملاصق للجدار الغربي للمسجد يربط بين ساحة البرّاق والكنيس اليهودي، وتبعه كشف لنفق في قرية سلوان جنوب المسجد طوله ٦٠٠ متر يحفر تحت بيوت حيّ وادي حلوة في قرية سلوان ويصل إلى الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد.

وكان الشيخ رائد صلاح رئيس الحركة الإسلامية في الداخل، قد نبه إلى مخاطر الأنفاق التي تقوم إسرائيل بحفرها تحت

المسجد الأقصى، وناشد العالمين العربي والإسلامي إنقاذ المدينة من التهويد والأقصى من الهدم، موضحاً أنه لا يمكن أن يقبل أن يقف الكل موقف المتفرج والتعويل على الحاضر الفلسطيني فقط، وعن واقع الحفريات قال الشيخ صلاح: «الحفريات تجري الآن في «حمام العين» وهو أحد الأبنية الإسلامية الوقفية، القريبة من الجدار الغربي للمسجد الأقصى، حيث استولت المؤسسة الإسرائيلية على المبنى وبدأت نحو سنة ونصف ببناء كنيس يهودي لا يبعد سوى ٥٠ مترا عن المسجد الأقصى المبارك.[1]

من المقدسات المسيحية في القدس:

تحفل مدينة القدس بالمباني الأثرية الإسلامية والمسيحية، ومن أهم المقدسات المسيحية فيها:

كنيسة القيامة: التي تحتوي على قبر السيد المسيح، كما تحتوي على قبور يوسف الراعي وأسرته، وأول من بنى الكنيسة كانت الملكة «هيلانة» عام ٣٣٥م، بعد اكتشاف الصليب الذي صلب فيه السيد المسيح في نفس الموقع، وفي عام ٦١٤ م احترقت الكنيسة على يد الفرس ليعيد بناءها الراهب «مودستوس» بعد عامين من الحريق، لكنها تعرضت لحريق آخر في عهد «الإخشيدي» سلطان مصر عام ٩٦٥م، وتم إعادة إعمارها عام ١٠٨٩م، ثم هدمت بكاملها وبنيت مرة أخرى حتى جاء الصليبيون فأجروا عليها الترميمات اللازمة، ووحدوا أبنيتها ومعابدها وجمعوها في بناية واحدة.

وفي عام ١٨٠٨م أتى عليها حريق كبير دمر جوانب فنية عديدة، حيث رممت فيما بعد، وفي عام ١٨٤٣م ضربها زلزال كبير فيما تعهدت فرنسا وروسيا آنذاك بتمويل نفقات تعميرها على أن يتم ذلك تحت إشراف السلطات العثمانية، وتبع ذلك زلزال آخر عام ١٩٢٧م أثر على أساساتها مما حدا بسلطات الانتداب البريطاني بوضع دعامات حديدية وخشبية لحمايتها من الكوارث الطبيعية.

درب الآلام: وهو طريق يعتقد أن «السيد المسيح» قد سلكه حاملاً صليبه عندما ساقه جنود الرومان إلى موقع صلبه، ويتكون

درب الآلام مــن ١٤ مرحلة تبدأ من مدرسة راهبــات صهيون حيث الموقــع الذي أصدر منه الحاكم الروماني «ثيوش» حكمه بصلب السيد المسيح، وتتجه غرباً إلى منطقة الواد، وعقبــه المفتي ثم عبر الطريــق الذي تصل الوادي باب خــان الزيت معقبــة الخانقاه لتصــل إلى القبر المقدس في كنيسة القيامة، وعلــى درب الآلام وقــع المسيح مغشياً عليه عدة مــرات بفعل التعذيب الذي لاقاه وثقل الصليب الذي كان يحمله.

كنيسة سيدتنا مــريم: وتقع الكنيسة في وادي قدرون في مــكان متوسط بين سلوان وجبــل الزيتون وبــاب الأسبــاط، وتحتوي الكنيسة علــى قبور «مريم البتول» ووالديها وكذلــك قبر يوسف النجــار، وقد بنيت بين عامي ٤٥٠-٤٥٧م.

كنيسة القديسة حنــة الصلاحي: وتقع الكنيسة شمالي الحــرم القدسي قرب باب الأسباط، حيث أتــى السيد المسيح في هذا الموقــع بإحــدى معجزاته، وقــد احترقت الكنيســة إبان الغزو الفارســي عام ٦١٤م، فأعــاد الصليبيون بناءهــا وتم تحويلها في عهد صــلاح الديــن الأيوبــي إلى مدرسة للفقهــاء الشافعيين، ثم استلمها الفرنسيون من السلطان «عبــد الحميد العثماني» عام ١٨٥٥م فأنشؤوا بها مدرسة.

كنيســة الجثمانية: وتقع هــذه الكنيسة في المنطقــة بين سلوان وجبــل الطور وباب الأسبــاط كنيسة «سيدتنا مــريم» وكان قد بناها اللاتين عــام ١٩٤٢م، حيث يعتقد أن الموقع شهد عملية القبض على السيد المسيح عندما وشى به «يهوذا الاسخريوطي».

دير كنيسة العلية: ويقع هذا الدير على قمة جبــل صهيون بالقرب من باب الخليل، ويعتقد بعض المسيحيين أن «السيد المسيح» تناول وأتباعه في الدير عشاؤهم الأخير.

كنيســة الصعود: وقد بنيــت على جبل الزيتــون في المكان الذي يعتقــد أن «السيد المسيح» صعد منه إلى السماء.

قبر البستان: ويقع شمالي باب العامود، وقد حفــر القــبر في الصخرة علــى هيئة جمجمة أصبحــت مزاراً مسيحياً وسياحياً، حيث تعتقد طائفة من البروتستانت أن السيد المسيح صلب في حديقة تقع على مقربة من

تلة كان اليهود يرجمون فيها المحكومين ويصلبونهم، ويلقون بجثثهم منها إلى واد قريب، ويعتقدون أنه هو هذا المكان.

ومن المقدسات المسيحية الأخرى نشير إلى الكنائس والأديرة التالية التي يقع أغلبها داخل السور، وهي: دير أبونا إبراهيم، دير مار يوحنا المعمدان، دير العذراء، دير قسطنطين، دير الشبات، عيسى المسيح، دير ماركرا لامبوش، دير السيدة، دير العدس، دير مارجرجس، دير الأرمن، دير مارميخائيل، دير مار ديمتري، دير مار نقولا، دير مارتا.

ومما هو خارج السور منها نذكر المواقع الآتية: دير اليعازر، دير أبي ثور، دير القديس أنوفريوس، دير القطمون، دير الجليل، دير مار الياس، دير المصلبة، دير مار سابا، دير المخلص، المسكوبية، كنيسة نياحة العذراء.(٧)

سرقة التراث الفلسطيني:

إلى جانب سرقتها الأرض وتزويرها التاريخ، تعمل إسرائيل من طرف آخر على طمس معالم الهوية الفلسطينية، وسرقة التراث الفلسطيني، ومحاولة نسبته لها في أكبر عملية تضليل للرأي العام الدولي، وفي شبه غفلة من المؤسسات الثقافية العربية والدولية، ويرى كل متتبع أن السرقات الإسرائيلية تطال كل ما يعبر عن الهوية والتراث الفلسطيني، وقد شمل ذلك:

- سرقة الأدوات الفخارية والزجاجية التقليدية:

المستوحاة من تاريخ فلسطين وتراثها والتي أنتجتها ورسمتها أيد فلسطينية، وبيعها للسياح الأجانب على أنها تراث إسرائيلي، حيث أكد الدكتور إدريس جرادات، مدير مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبي، أحد أبرز المهتمين بقضايا التراث والآثار في الأراضي المحتلة، أن مصنوعات الفخار التي يعرضها الإسرائيليون في متاحفهم ومتاجرهم هي من إنتاج عربي وبأيد فلسطينية انتقلت إليهم من أجدادهم الكنعانيين.

- سرقة الأزياء والملابس الفلسطينية:

ويؤكد الخبراء الفلسطينيون في هذا المجال أن الإسرائيليين ذهبوا إلى أبعد من مسألة العرض وتزوير الحقائق والتاريخ أمام السياح الأجانب، بارتداء الملابس التراثية

الفلسطينيــة كما فعلت زوجــة موشي ديان التي ارتدت في إحدى المناسبات العالمية ثوبا عربيا على أنه تــراث إسرائيلي، وكما تفعل مضيفات شركة العــال الإسرائيلية للطيران اللاتي يرتدين الزي التقليدي الفلسطيني.

وأتهمت باحثة فلسطينية في مجال التراث الشعبــي، إسرائيل بسرقة ثــوب فلسطيني تقليدي، وانتحاله علــى أنه ثوب إسرائيلي، حيث قالت مهــا السقا مديرة مركز التراث الفلسطينــي: بــأن إسرائيــل انتحلت ثوب عروس بيت لحم المعروف باسم (ثوب الملك) ووضعته في الموسوعة العالمية باسمها، مشيرة بأن إسرائيل سجلت الثوب باسمها في المجلد الرابع من (الموسوعة العالمية)، استمراراً لما وصفتــه بنهجها في الاستيــلاء على التراث الفلسطينــي، مثــل الملابس التــي ترتديها مضيفات طائــرات العال الإسرائيلية، وهي مــن الــتراث الفلسطيني وتقــدم على أنها إسرائيلية.

-سرقة الآثار الفلسطينية:

مــن جهة أخــرى أكد عدنــان أبو تبانة المحاضر بقسم التاريــخ بجامعة القدس أن الاحتــلال دأب علــى نبش القبــور وسرقة الآثــار الفلسطينيــة بصورة غــير قانونية بهدف بيعها لجهــات خارجية، وقام بتغيير الأسماء التاريخية للعديد من المواقع والقرى والمقتنيات والمكتشفــات الأثرية، وقد حذر المختصون في مجال الآثــار وتاريخ القضية الفلسطينيــة من الحــرب الصامتــة التي يشنها الاحتلال لشطب الهوية الفلسطينية، وإحــلال الهوية اليهودية الإسرائيلية مكانها بالموازاة مع ما يجري على الأرض من تهويد واستيطان وتغيير لمعالمها.

- سرقة الرموز الفلسطينية:

إلى جانــب ذلك فإسرائيل متهمة بسرقة الرموز التراثية الفلسطينية الأخرى، ومنها الأطعمــة الفلسطينية، حيث تنسب إسرائيل لنفسهــا الحمــص، والفلافــل، والمفتــول (الكسكســي) وتشــارك في مسابقة عالمية سنويــة في ايطاليــا لأفضل طبــق مفتول، وينافسها في نفس المسابقة الفلسطينيون.

- سرقــة شجرة الزيتــون والزهــور الفلسطينية:

وقد طالــت سرقات إسرائيــل الزهور الفلسطينية، حيث أكدت مصادر فلسطينية،

أن إسرائيل اختارت زهرة (قرن الغزال) الفلسطينية، وشجرة الزيتون، لتمثيلها في حديقة الورود التي افتتحها الصين بمناسبة استضافتها للألعاب الأولمبية وبالتزامن معها، ومعروف للجميع أن زهرة قرن الغزال زهرة فلسطينية تعرف بأسماء عديدة وتكاد كل منطقة في فلسطين تعرفها باسم معين، فهي الزوزو في ريف القدس، ومن أسمائها الأخرى: الزعمطوط، وعصا الراعي، وسيدو، ودويك الجبل، وبخور مريم، وإذا كانت زهرة قرن الغزال غير معروفة، على نطاق واسع، بأنها رمز فلسطيني، فإن شجرة الزيتون، تحتل مساحة واسعة في الوعي الجمعي الفلسطيني، وتقدم بلا منازع على أنها رمز لفلسطين، ولذلك تنتهج حكومة إسرائيل سياسة لاقتلاع أشجار الزيتون في الأراضي الفلسطينية.[8]

إسرائيل تسرق مخطوطات عراقية:

وعلى صعيد مواز ذكرت وسائل الإعلام أن إسرائيل نهبت آلاف الوثائق والكتب والمخطوطات التاريخية، والقطع الأثرية العراقية النادرة خلال عملية غزو العراق واحتلاله عام ٢٠٠٣، وفي هذا المجال استبعد خبير هولندي سبق له العمل في وزارة الثقافة العراقية، أن تكون الكتب اليهودية العراقية التي ظهرت مؤخراً في إسرائيل، قد جاءت عبر واشنطن. ورجح عالم الانثروبولوجيا وخبير صيانة الأعمال الفنية رينيه تايخلر، أنّ تكون هذه المخطوطات والكتب المطبوعة قد سُرقت من العراق أثناء خزنها بشكل مؤقت في المنطقة الخضراء، لغرض تجميدها قبل نقلها إلى الولايات المتحدة عام ٢٠٠٣.

وكان باحث إسرائيلي قد كشف لصحيفة هآرتس، عن حيازته عدداً من المخطوطات النادرة باللغة العبرية القادمة من العراق، حيث أثار هذا الخبر استياء عراقياً، وشكوكاً بأن هذه المخطوطات قد وصلت إسرائيل بتعاون أمريكي.

وقد كشف مدير مركز بابل للتراث اليهودي في تل أبيب، مردخاي بن بورات أن المخطوطات المشار إليها تضم كتاباً يحتوي تعليقات على سفر أيوب، يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي ومخطوطة تتكلم عن

أنبياء العهد القديم تعود لعام ١٦١٧، وقد جاء ذلك في إطار صفقة تهريب كبيرة تعود قصتها إلى الأسابيع التي أعقبت سقوط بغداد عام ٢٠٠٣، حيث عثر آنذاك على قسم كبير من الأرشيف اليهودي العراقي في حالة سيئة جداً، في قبو تابع لمبنى إحدى الجهات العراقية، و يضم الأرشيف خليطاً من الكتب التاريخية والدينية، ووثائق حكومية ومدنية، تتعلق بالجالية اليهودية في العراق.

وأكد المسؤولون الأمريكيون في أكثر من مناسبة أن هذا الأرشيف سيعود لاحقاً إلى العراق حين تسمح الأوضاع الأمنية بذلك، لكن جهات عراقية كثيرة، حكومية وشعبية، أعربت عن شكوكها بالنوايا الأمريكية، وعن خشيتها من انصياع الجهات الأمريكية للمطالب الإسرائيلية بـ «استعادة» ما تعتبره إرثاً يهودياً قبل أن يكون عراقياً.

وقد أكد الخبير الهولندي رينيه تايخلر، المتخصص بصيانة الأعمال الفنية، عمل في عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ مستشاراً في وزارة الثقافة العراقية، وكانت مهامه تشتمل على الإشراف على عمليات استعادة الآثار والتحف الفنية التي سرقت أثناء الفوضى التي أعقبت سقوط العاصمة العراقية أن نقل الأرشيف اليهودي العراقي إلى واشنطن تم بطريقة أمينة، وقال في مقابلة مع إذاعة هولندا العالمية بالقول «أنا على اتصال مستمر بضابط الاحتياط الأمريكية السابقة التي أشرفت على عملية نقل الأرشيف بعد تجميده، لافتاً أنها أكدت له أنها الوحيدة التي تمتلك مفتاح الخزانة التي حفظ فيها الأرشيف، وأنها تتأكد يومياً من عدم اختفاء أي شيء».

مع ذلك فإن السيد تايخلر يرجح أن تكون الكتب التي ظهرت مؤخراً في إسرائيل هي بالفعل جزء من المجموعة نفسها التي عثر عليها في قبو الاستخبارات عام ٢٠٠٣. «في الفترة التي تلت العثور على الأرشيف، في أبريل عام ٢٠٠٣، وحتى أنجزت عملية تجميده لغرض نقله، وقد حفظ الأرشيف لمدة ستة أسابيع في مخزن تابع لشركة تجارية في المنطقة الخضراء. وأعتقد أنه في تلك الأسابيع الستة، قد حدثت بعض السرقات».[٩]

إحالات

١- موقع الجزيرة توك

WWW.ALJAZEERA TALK.NET

٢- موقع إسلام ويب

WWW.ISLAMWEB.NET

٣- موقع نوافذنا

WWW.NAWAFITHNA.COM

٤- موقع الحقيقة المجهولة عن العرب

WWW.FACTOFARABS.NET

٥- موقع من أجل الأقصى

WWW.FORAQSA.COM

٦- موقع القدس

WWW.ALQUDS.COM

٧- موقع مدينة القدس

WWW.ALQUDS-ONLINE.ORG.COM

٨- موقع أحرار فلسطيني

WWW.PALA7RAR.COM

٩- موقع مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية

WWW.AQSAONLINE.INFO

كتاب الشهر

اللوبي الإسرائيلي والسياسة الأمريكية

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن

كتاب الشهر

اللوبي الإسرائيلي والسياسة الأمريكية

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن *

في الأدبيات السياسية، تطرح على الدوام، العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل. ويطرح أيضاً، الدور الذي يقوم به اللوبي الإسرائيلي، داخل السياسة الخارجية في الولايات المتحدة. ودائماً كان يقال: إن الكثير من السياسات التي تقوم بها الولايات المتحدة في الصراع العربي الصهيوني هي من صنع هذا اللوبي الإسرائيلي.

هذا الكتاب لمؤلفيه: جون مير شايمر وستيفن والت. يطرح هذه العلاقة فيما يشبه الدراسة الوثائقية المدعمة بكل الشواهد. قام بترجمته إلى اللغة

* باحث من سورية.

العربية الأستاذ (عماد شيخة) وصدر عن دار المركز الثقافي بدمشق.

❁ ❁ ❁

من دعائم السياسة الخارجية للولايات المتحدة، صوغ برنامج عمل لكل الخريطة الدولية، ولاسيما بؤر النزاع والخلاف في العالم. وخاصة منطقة الشرق الأوسط والصراع العربي الصهيوني. وعلى الرغم من أن مصالح الدولة هي ذات الأولوية، إلا أنّ الولايات المتحدة في الصراع العربي الصهيوني منذ /١٩٦٧/ تصوغ هذه العلاقة وفق رؤية أكثر انحيازاً لصالح إسرائيل. هل يكفي وجود مصالح استراتيجية والتزام أخلاقي بين الطرفين ليعلل مثل هذه العلاقة؟ أم أن الأمر يتعلق بـ (اللوبي الإسرائيلي) داخل المطبخ السياسي للولايات المتحدة؟ سيزعج هذا التحليل بعض القراء في محتواه وطروحاته. لكنه وجهة نظر أولاً لطرح جديد لم يقدم سابقاً.

المحسن العظيم..

منذ حرب تشرين الأول /١٩٧٣/، قامت الولايات المتحدة بتقديم مستوى من الدعم لإسرائيل. إذ بلغ إجمالي المساعدات الأمريكية ما يزيد عن /١٤٠/ مليار دولار بأسعار العام /٢٠٠٣م/. هذا السخاء مدهش حين نعلم أنّ إسرائيل اليوم دولة صناعية غنية. يمكن لإسرائيل استخدام حوالي ربع حصتها من المساعدات في دعم صناعاتها الدفاعية الخاصة. علاوة على ذلك، زودت الولايات المتحدة إسرائيل بما يقارب ثلاثة مليارات دولار لتطوير منظومة أسلحة لا يريدها البنتاغون. تقدم واشنطن لإسرائيل، إضافة لذلك، تأييداً دبلوماسياً راسخاً. فمنذ العام /١٩٨٢/، نقضت الولايات المتحدة اثنين وثلاثين قراراً صادراً عن مجلس الأمن الدولي ينتقد إسرائيل. كما أنها تعيق جهود الدول العربية لوضع ترسانة إسرائيل النووية على جدول أعمال الوكالة الدولية للطاقة النووية. كذلك، تهب الولايات المتحدة لإنقاذ إسرائيل زمن الحرب، وتقف إلى جانبها حين تخوض مفاوضات السلام. منحت واشنطن إسرائيل، حرية واسعة في التعامل مع الأراضي المحتلة، حتى حينما تكون أعمالها مخالفة لسياسة الولايات المتحدة المعتمدة. يمكن فهم هذا السخاء الاستثنائي في ما لو كان لإسرائيل فائدة استراتيجية حيوية أو إن هنالك قضايا أخلاقية مقنعة تعزز تأييد الولايات المتحدة لها. لكن كلا الأمرين غير مقنع.

التزام استراتيجي..

طبقاً للجنة العلاقات العامة الإسرائيلية الأمريكية، فإن الولايات المتحدة وإسرائيل صاغتا شراكة فريدة لمواجهة التهديدات الاستراتيجية في الشرق الأوسط ربما كانت لإسرائيل منفعة استراتيجية خلال الحرب الباردة. وبين حين وآخر، ساهمت إسرائيل في حماية حلفاء الولايات المتحدة الآخرين. ومع ذلك ينبغي عدم المبالغة في القيمة الاستراتيجية لإسرائيل خلال تلك الفترة.

إذا لم تستطع الولايات المتحدة، الاعتماد على إسرائيل حين صعدت الثورة الإيرانية في العام /١٩٧٩/. كما أظهرت حرب الخليج الأولى (١٩٩٠-١٩٩١) أن إسرائيل قد تحولت إلى عبء استراتيجي. منذ بداية التسعينيات، بررت الولايات المتحدة دعمها لإسرائيل بزعم أن كلا البلدين تهدده مجموعات إرهابية نشأت في العالم العربي أو الإسلامي. وجود علاقة سببية تخالف القول بأن الولايات المتحدة وإسرائيل يوحدهما تهديد إرهابي مشترك وما يتساوى في الأهمية، أنَّ الدعم غير المشروط الذي تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل يسهل الأمور على الطرفين أمثال (بن لادن) لحشد التأييد الشعبي وجذب المتطوعين. أما بصدد ما يدعى بالدول المارقة في الشرق الأوسط، فهي لا تشكل تهديداً حقيقياً لمصالح الولايات المتحدة، عدا التزام الأخيرة تجاه إسرائيل نفسها. علاوة على ذلك، تجعل تعاملها مع هذه الدول أكثر صعوبة. أما السبب الأخير الذي يضع قيمة إسرائيل الاستراتيجية موضع التساؤل، فهو أنها لا تسلك سلوك حليف مخلص.

حجج أخلاقية متضائلة..

غالباً ما تصوّر إسرائيل بأنها ضعيفة ومحاصرة، لكن الصورة المعاكسة هي الأقرب إلى الحقيقة. فقد كان لدى الصهاينة قوات أكبر وأحرزت انتصارات سهلة في الأعوام /١٩٥٦/ و/١٩٦٧/. أما في الوقت الحاضر، فإن إسرائيل تعتبر القوة العسكرية الأولى في الشرق الأوسط. غالباً ما يسوغ الدعم الأمريكي الإسرائيلي بإدعاء أنها شريك في الديمقراطية محاطاً بديكتاتوريات معادية. كذلك فإن حجة (الديمقراطية المشتركة) واهية لأن سمات الديمقراطية الإسرائيلية تتعارض مع جوهر القيم الأمريكية.. لم تكن القيادة الصهيونية مهتمة بإنشاء دولة ثنائية القومية أو راضية بتقسيم دائم لفلسطين. ولتحقيق هذا الهدف، توجب على الصهاينة طرد أعداد هائلة من العرب من الأراضي التي يفترض بها أن تصبح إسرائيل. منذ ذلك الحين، سعى زعماء إسرائيل مراراً وتكراراً للتنكر للطموحات الوطنية الفلسطينية. وتصور الحجة الأخلاقية الأخيرة إسرائيل كبلد ينشد السلام، أما العرب فيقال إنهم يتصرفون بفجور، ووثّق العديد من منظمات حقوق الإنسان هذه الوقائع المتعلقة بسلوك إسرائيل، ومن ضمنها مجموعات إسرائيلية بارزة. ولكن: أليست إسرائيل مخولة أن تفعل ما تشاء لحماية مواطنيها؟ ينبغي ألا ننسى أخيراً أن الصهاينة استخدموا الإرهاب حين كانوا في حالة ضعف مشابهة وحاولوا الظفر بدولة خاصة بهم.

اللوبي الإسرائيلي..

نستخدم لفظة (اللوبي) كاختصار ملائم للتعبير عن ائتلاف واسع من الأفراد والمنظمات، يعمل على صياغة السياسة الخارجية للولايات المتحدة في اتجاه موال لإسرائيل. تتضمن نواة هذا اللوبي يهوداً أمريكيين

كرسوا حياتهم اليومية لتوجيه السياسة الخارجية للولايات المتحدة بما يخدم مصالح إسرائيل. كما يختلف الأمريكيون اليهود مع سياسات إسرائيلية معينة. من غير المستغرب إذاً أن يتشاور زعماء اليهود الأمريكيين غالباً مع المسؤولين الإسرائيليين، بحيث يستطيع الأولون زيادة نفوذهم داخل الولايات المتحدة. أذ شكل الأمريكيون اليهود مجموعة مؤثرة من المنظمات للتأثير على السياسة الخارجية للولايات المتحدة، وتعد الإيباك أشهرها. يتضمن اللوبي كذلك مسيحيين إنجيليين بارزين. ويعتقدون أن الضغط على إسرائيل يخالف الإرادة الإلهية. تتضمن عضوية اللوبي، إضافة لما سبق، مسيحيين محافظين جدد. للولايات المتحدة حكومة منسقة تقدم العديد من الإمكانيات للتأثير على العملية السياسية. علاوة على ذلك، تتمتع مجموعات المصالح بقوى متفاوتة حين تتورط في قضية معينة. تتبع قوة اللوبي الإسرائيلي من قدرته الفذة على أداء لعبة سياسية مجموعة المصالح. يتابع اللوبي استراتيجيتين واسعتين لتعزيز دعم الولايات المتحدة لإسرائيل. فهو أولاً يمارس تأثيراً بارزاً في واشنطن بالضغط على مجلس النواب والشيوخ. ويجاهد اللوبي ثانياً لضمان أن يقدم الخطاب العام إسرائيل بصورة إيجابية. تكمن الدعامة الرئيسية لفاعلية اللوبي في نفوذه داخل مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة. أحد أسباب نجاح اللوبي في تعامله مع الكونغرس وجود أعضاء من



الصهاينة المسيحيين، أهم أولوياتهم فيما يتعلق بالسياسة الخارجية هو حماية إسرائيل. يعتبر موظفو الكونغرس الموالون لإسرائيل أحد مصادر قوة اللوبي. ومع ذلك (فالإيباك) نفسها هي من شكل نواة نفوذ اللوبي في الكونغرس. يمتلك اللوبي كذلك نفوذاً بارزاً داخل السلطة التنفيذية، وهو ناتج جزئياً عن تأثير الناخبين اليهود على الحملات الرئاسية. كذلك يستهدف اللوبي مباشرة الإدارة القائمة. ولا تزال هذه القيود فاعلة في الوقت الحاضر. تتحقق أهداف اللوبي كذلك حين يشغل مؤيدو إسرائيل مناصب هامة في السلطة التنفيذية. كما يجاهد اللوبي لتشكيل مفاهيم الأمريكيين حول إسرائيل والشرق الأوسط. ينعكس هذا التحيز الموالي لإسرائيل في افتتاحيات الصحف الرئيسية. وتسيطر

القوى الموالية لإسرائيل على مجالس الخبراء التي تلعب دوراً رئيسياً في إثارة النقاشات العامة، إضافة لصياغة السياسة الفعلية. كما أنّ نفوذ اللوبي في عالم مجالس الخبراء يتجاوز مهدداً واشنطن لسياسات الشرق الأدنى. يعدّ تطور معهد (بروكينفز) مؤشراً هاماً على نفوذ اللوبي داخل مجالس الخبراء. تمثلت أكبر مصاعب اللوبي في إخماد النقاش المتعلق بإسرائيل في كليات الجامعات. تحرّك اللوبي بقوة لاسترداد الحرم الجامعي. كما أخذ يراقب ما يكتبه أساتذة الجامعات ويعلمونه. تسلط مجموعات اللوبي أيضاً نيرانها على أساتذة معينين وعلى الجامعات التي توظفهم. لن يكتمل النقاش حول آليات عمل اللوبي من غير تحري أقوى أسلحته: تهمة معاداة السامية.

الذيل الذي يهز الكلب..

لم تقف حدود المساعدة لإسرائيل من قبل الولايات المتحدة على المسائل الاقتصادية بل تجاوزتها إلى اقتناع القادة الأمريكيين بضرورة قمع إسرائيل المتواصل للفلسطينيين وتوجيه السلاح إلى خصومها الإقليميين: إيران والعراق وسورية. في /١٦/ تشرين الثاني، وجّه /٨٩/ عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ رسالة إلى (بوش) تثني عليه لرفض الاجتماع بعرفات، وعلى موافقة الولايات المتحدة إسرائيل من الانتقام من الفلسطيني. في نيسان /٢٠٠٢/ شن الجيش الإسرائيلي عملية الدرع الواقي وسيطر على كامل أراضي الضفة الغربية. وعلى الرغم من الطلب المباشر لبوش أن تنسحب من الضفة إلا أن الضغوط على بوش وإدارته من قبل اللوبي حدت من طلب الولايات المتحدة، بل وصدر القرار بدعم الولايات المتحدة للإرهاب الذي تتعرض له إسرائيل من قبل الفلسطينيين. لم يكن ضغط إسرائيل واللوبي هو العامل الوحيد خلف قرار الولايات المتحدة الهجوم على العراق في /آذار ٢٠٠٣/ لكنه كان العامل الحاسم. حرباً لجعل إسرائيل أكثر أمناً وليس أكثر نفطاً للولايات المتحدة. كانت القوة الدافعة الرئيسية للحرب على العراق، داخل الولايات المتحدة، زمرة من المحافظين الجدد، لغالبيتهم صلات وثيقة مع حزب الليكود الإسرائيلي. مع فارق أن اليهود في الولايات المتحدة خارج اللوبي لم يكونوا ليرغبوا في هذه الحرب. كان المحافظون الجدد قد صمموا على إسقاط صدام قبل وصول بوش إلى الرئاسة. كان غزو العراق في نظرهم خطوة أولى من خطة أكبر لإعادة ترتيب الشرق الأوسط. إذ إنه بعد سقوط بغداد، بدأ شارون ومساعدوه حث واشنطن على استهداف دمشق؛ ومن دمشق كانت طهران والمفاعل النووي الإيراني. كل ذلك لأن هذه الدول تهدد أمن إسرائيل. ففي قوتها زوال إسرائيل وبالتالي زوال اللوبي ومن ثم زوال الضغط الصهيوني للوبي داخل أروقة السياسة في الولايات المتحدة.

❁ ❁ ❁

عروبة القدس

رئيس التحرير

اجتماعات اللجنة الدائمة للثقافة العربية، التابعة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أتاحت لنا في السنوات الماضية مناقشة مواضيع عديدة تهم مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، للإجابة عن العديد من الأسئلة التي تخامر أذهان المثقفين والمعنيين بشؤون الثقافة والقيمين عليها والمبدعين في مجالاتها المختلفة، وكان موضوع

«الثقافة العربية وعروبة القدس» من المواضيع التي أخذت من وقتنا وجهدنا، لأن هذه المدينة المقدسة، كانت وما تزال، تواجه مشكلات متعددة، يأتي في مقدمتها إعادة هيكلة المدينة وهويتها على يد العدو الإسرائيلي الذي يسعى إلى إعطائها طابعًا هجينًا يهدد هويتها العربية (التاريخية والسياسية والثقافية)..

انطلقت الدراسات من مقولة ثابتة أن العدو الإسرائيلي يقوم بإخضاع القدس لعملية تغريب واستلاب، ويخضع الهوية والثقافة الفلسطينية إلى عملية تفتيت مبرمج، ويتم ذلك من خلال إحداث طلاق كامل بين القدس كمدينة، وبين إنسانها العربي الفلسطيني، وطلاق بين المدينة وتراثها وحضارتها، أي طلاق بين الجغرافية السياسية المقدسية التي استقرت عبر قرون طويلة، وبين هويتها وثقافتها العربية التي أنتجتها، وتنطلق أيضًا من الدعوى بأن القيادة الصهيونية تصوغ الهوية الإسرائيلية من فتات إثني وثقافي متنافر تسقطه على خلفية تاريخ يهودي في فلسطين مضى وانقضى قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة، بالرغم من علمها الأكيد بأن ما تقوم به ينافي الحقيقة، ويتعارض مع القوانين الدولية، الصادرة عن الأمم المتحدة ومنظمة «اليونسكو» التي اعتبرت الإجراءات الإسرائيلية في القدس باطلة، وغير قانونية لأنها: «تعرّض التراث الثقافي لمدينة القدس وموقعها التاريخي التقليدي لتغييرات.. من شأنها أن تسيء

إلى الذاكرة الجماعية للشعوب، لا سيما شعوب المنطقة، فيما يتعلق بتاريخها وحضارتها».

لقد بدأت الإجراءات الإسرائيلية بفصل القدس العربية مع الجزء الذي ألحقته إسرائيل بها، من أراضي الضفة الغربية، وتعزز الفصل بتبني الكنيست للقانون الأساسي «القدس عاصمة إسرائيل ٣٠ تموز ١٩٨٠» واستنادًا لهذه القوانين بسطت إسرائيل سيادتها على المدينة وصادرت مساحات واسعة من أراضي القدس والضفة الغربية وضمتها إليها وفرضت سلطتها وإدارتها عليها وأخضعت تنظيمها الحضري للقوانين والأنظمة والمعايير والسياسات التي تتبناها، ووظفتها جميعًا لتهويد القدس وتغيير طابعها العربي، وإسقاط حق المواطنة عن أهلها في المدينة، وبدأت عمليات إخراج المدينة عن مسار تطورها الطبيعي، وقطع العلاقة بينها وبين تاريخها وأهلها، وفرض رؤية مسبقة على حاضرها ومستقبلها، وذلك خدمة لغرض سياسي بغيض تحدّد تحت ظروف لا علاقة لها بالمدينة، لإعطاء الانطباع بأن المدينة منذ عام ١٩٦٧ أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الدولة الصهيونية..

من جراء هذه الإجراءات القمعيّة فقدت القدس القديمة طبيعتها كخلية حيّة، وفقدت الكثير مما كان يشكل جزءًا من نسيجها الحضاري، فقد فقدت منبر نور الدين (أحضره صلاح الدين الأيوبي من حلب) في حريق المسجد الأقصى (٢١ آب ١٩٦٩)، وتم تدمير الجزء الجنوبي

الشرقي من المسجد الأقصى المبارك في هذا الحريق، وقبل ذلك هدم العدو الصهيوني حارة المغاربة التاريخية التي يعود تاريخها إلى سنة (١١٠٠ ميلادية) في البلدة القديمة، وهدمت الزاوية الفخرية التي تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي في الحرم الشريف، وغير ذلك من الأعمال التدميرية التي تتنافى مع الحرمات والمقدسات الدينية، وتهدف إلى فرض الطابع الصهيوني على المدينة.

القدس التي يتجسد في تاريخها حضارة وثقافة العرب، كانت وما زالت تنبض بالحياة، لم ينقطع ماضيها عن حاضرها العربي، ولن يستطيع العدو الصهيوني، مهما حاول أن يغيّر شيئًا من هذا التاريخ المجيد الذي يستمد نسغه وحيويته من إنسانها العربي المقاوم لكل أعمال السلب والاستلاب، ولكل أشكال القهر والعدوان..

مـن كـــروم الجمـــال

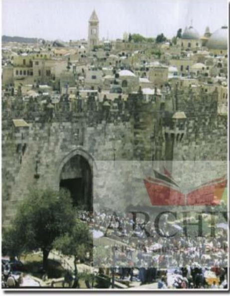
اللوحة: قبة الصخرة
الفنان: مجهول



لوحة زيتيّة جميلة ومُتقنة وساحرة الأجواء، تشير عناصرها وأسلوبها وثياب شخوصها، إلى أنها منفذة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وهي بمحمولاتها وطريقة معالجتها، تمثل بأمانة، النزعة الفنيّة الاستشراقيّة الأوروبيّة التي نشطت عقب ترجمة (غالان) لكتاب ألف ليلة وليلة (١٧٠٤ - ١٧١٧) بدليل الدقة المتناهية التي عولجت بها، والعلميّة الكبيرة في تعامل صاحبها مع عجينتها اللونيّة، وقدرته المدهشة، على التقاط نبض الواقع ونقله إليها، بكل هذا البهاء والجمال والسلاسة، وهو واقع عربي يضوع عبقه في فسيفساء قبة الصخرة، وطرز المعالم المعمارية المحيطة بها، ومحمولاتها من الزخارف والتوريقات التي ابتدعتها اليد العربيّة الإسلامية، ومن هذه الحياة الوادعة التي ترصدها اللوحة، لاسيما هذا المشهد الساحر، للنسوة الفلسطينيات وهن يقمن بتعبئة جرارهن من سبيل الماء الجميل الواقع في مقدمة اللوحة التي ينم تكوينها المدروس، ومتانة بناء عناصره، وأسلوب معالجتها الواقعي الكلاسيكي الرصين، عن الموهبة الكبيرة للفنان الذي رسمها، وخبراته المتفوقة في التعامل مع الخط واللون والمنظور وإبراز خصائص المواد والخامات المعالجة فيها، وهذه الخصائص والمقومات، أفضت في النهاية إلى لوحة واقعيّة، مفعمة بجماليات الحياة العربيّة المتفردة في فلسطين، قبل أن يُشوهها الاحتلال الصهيوني، وتعطبها همجيته،وتخربها أطماعه وأهدافه الخبيثة، في سرقة أرض وتاريخ ومستقبل فلسطين والأمة العربيّة في آن معاً.

د. محمود شاهين

القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩



القدس عاصمة عربية قديمة قدم التاريخ، هي قدس الأقداس، ومهد الحضارات، ومهد الأنبياء ومدينة السلام وزهرة المدائن بتراثها ومسجدها وكنائسها وأسوارها وأبوابها ومعالمها الفريدة النادرة التي أهّلتها لتكون على قائمة التراث العالمي الواجب الحفاظ عليها لدى المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو».

القدس سوف تتسلم راية العواصم الثقافية من شقيقتها دمشق، في الثاني والعشرين من كانون الثاني الحالي، وسوف تقول للعالم أجمع: مازلت صامدة، أتحدى الغزاة الصهاينة.. مازلت أمتلك كل معالمي العربية العريقة بأبعادها الروحية والفنية والحضارية والحرفية والإنسانية.. أرفض التشويه وعمليات التدنيس وطمس المعالم وملامح الهوية، وتدمير الآثار الباقية مني..

القدس مازالت كطائر فينيق أسطوري يجدد رسالته الإنسانية الكنعانية الأبيّة الصامدة في وجه الاحتلال، رغم بشاعة الاحتراق والحصار.. القدس مازالت حاضرة في الفكر والقلب والوجدان العربي والإسلامي العالمي..

في القدس تجتمع القيم الحضارية والروحية والثقافية والعمرانية والفنية الشاملة التي تدعو الجميع للقيام بالاحتفال بها وصيانتها وترميمها ودعمها لتبقى شاهدة على حضارة تليدة ومجد عريق، ورسالة سلام ومحبة إلى البشرية جمعاء.

ع. ق